يان غيو

فارس المعبد

دار المنى

@ketab_n
Follow Me
23.11.2014
@ketab_n
Follow Me

فارس المعبد

يان غيو

النص العربي:

مدني قصري

دار المنى

@ketab_n
Follow Me
Twitter: @ketab_n

فارس المعبد

Twitter: @ketab_n

ISBN 978 91 87333 20 0
Arabic edition Bokförlaget Dar Al Muna AB 2014
© Jan Guillou 1999
Cover Kaj Wistbacka
Original title in Swedish: Tempelriddaren
Published by agreement with Salamonsson Agency
Printed by ScandBook, Falun 2014
www.daralmuna.com

Twitter: @ketab_n

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

(سورة الإسراء ، الآية ١)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

"في تلك الليلة أَوفَد الربُّ كبيرَ الملائكة جبريل إلى النبي محمّد، فأمسك بيدِه وجرّه إلى حرَم الكعبة. هناك كانت البراقُ في انتظارهما لكي تحملهما على جناح السرعة إلى المكان الذي شاءه الربُّ لهما.

كانت البراق بارعةً في شطْر الفضاء، في وثبةٍ واحدة، من أقصى الآفاق إلى أقصاها. لقد زفّت جناحيها وارتفعت في السماء المرصّعة بالنجوم، وحَملت محمد - عليه السلام - إلى قلب القدس، إلى المكان الذي كان ينتصبُ فيه هيكل سليمان في العصور الغابرة. هنا، بالقرب من الحائط الغربي، كان يقبع أقصى مكان للعبادة.

أخذ كبيرُ الملائكة جبريل رسولَ الله من يده، وسعَى به إلى الرُّسل الذين سبقوه، موسى، وعيسى ويحيى الذي يدعوه الكفرةُ يوحنا المعمدان، وإلى إبراهيم صاحب القامةِ الطويلة والشعرِ الأسود المعكّف الذي يشبه الرسول - عليه السلام - كثيراً، فيما كان المسيح عيسى أقصرَ، وكان شعرُه أقلّ سواداً، ويغطي وجهَه النمشُ والكلف.

التمس الرسلُ والملاكُ جبريل من رسول الله أن يختار ما طاب له من الشراب، ما بين اللّبن والخمر، فاختار اللبنَ، فقال رئيس الملائكةُ إنّ الخيارَ خيارٌ طيّبٌ، وإنّ على المؤمنين بعد ذلك أن يتخذوا من خيارِ النبي قدوتَهم.

ثمّ اصطحب كبيرُ الملائكة جبريلُ، رسولَ الله إلى الصخرة التي تأهب إبراهيمُ للتضحيةِ بابنه عندها في سالف الزمان. وعند تلك الصخرة وجدا سُلّماً يؤدي إلى حضرة الربّ، عبْر السماوات السبع. وصعد محمد عليه السلام ذلك السلّم إلى أنْ وصل إلى عرش الربّ. وفي طريقه رأى محمدُ الملاكَ وهو يرفع الغطاءَ عن نار جهنّم

Twitter: @ketab_n

حيث كان المعذَّبون الذين شُطرت شفاهُهم حتى صارت مثل شِفاهِ الإبل، يلتهمون في عذابِ خالدٍ جمراً ما انفك يضطرم اضطرامًا حتى يخرج من أدبارهم.

لكنّ رسول الله ما لبث، عند صعوده إلى سماء الربّ، أن رأى أيضاً بساتين الجنة المزهرة، وقد نفذت من خلالها مياهٌ رائقة شفافة، وخمرةٌ لا تغشي العقلَ ولا تُكدّره .

ولما عاد إلى مكة بعد صعوده إلى السماء، تلقّى محمد من ربّه أمْرَ نقْل كلمتِه إلى الناس. وهكذا إذًا جعل محمد يُدوّن القرآن ويُجاهر به.

وبعد جيلٍ، بدأ جنودُ العقيدة الجديدة ينتشرون في الأرض، منطلقين من البوادي العربية، لكي يشيّدوا إمبراطورية جديدة.

وما بين عامي ٦٨٥ و٦٩١م أمر الخليفةُ الأموي عبد الملك بن مروان، بإعمار المسجدَ الأقصى، ثمّ أقام مسجدا آخرَ فوق الصخرة التي أراد إبراهيمُ أنْ يُضحّي بابنه عندها، وهي قبّةُ الصخرة التي صعد منها محمد إلى السماء.

وفي عام البركة ١٠٩٩ شهدت مدينةُ المؤمنين المقدّسة الثالثة (ثالث الحرمين) كارثةً مروعة، إذ غزا الإفرنجُ المدينةَ ودنّسوها أيما تدنيس. لقد أنزلوا بها حدَّ السيفِ والرمحِ على كلّ حيٍّ، ما عدا اليهود الذين أحرقوهم أحياءً في كُنُسِهم. وقد سال الدمُ غزيراً في شوارع المدينة، فكان من فرطِه يغطي الأعقابَ أحياناً. وما مِن مجزرةٍ مماثلة اُقْتُرِفتْ بعد ذلك على الإطلاق في هذا الجزء من العالم الذي شهد مع ذلك حروباً كثيرة.

حوّل الإفرنجُ الأقصى وقبّةَ الصخرة إلى معبدٍ خاصٍ بِدينهم، ثم ما لبث بالدوين الثاني، ملكُ القدس، أن وضع المسجدَ رهْن ألدّ أعداءِ المؤمنين، فرسانِ هيكل الربّ، لكي يؤووا فيه جيوشَهم وخيولهم.

وفي تلك الأثناءِ إذا برجلٍ يُقْسِمُ على نحوِ مشهودٍ بأنه سوف يستعيد القدسَ "المقدسة"، تلك التي يسمّيها الكفرةُ أورشليم. هذا الرجلُ في العالم المسيحي وفي لغاتنا، عُرف باسم صلاح الدين.

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

في شهر محرّم من عام ٥٧٣ هجري –عام البركة ١١٧٧ عند الكفرة –، وهي فترةُ حدادٍ عند المسلمين، أنقذ الربُّ بصورة غريبة ذلك الذي كان جلَّ جلالُه يُفضّله على المؤمنين جميعاً.

فرّ يوسف وفَخْرُ على صهوتَي جوادَيهما، هروباً من الموت، وفي إثرهما الأميرُ موسى الذي كان يدرأ عنهما سهام العدو. وفيما كان ملاحِقُوهم يقتربون منهم لَعَنَ يوسفُ ذلك الغرورَ الذي جعله يُصدّق أنّ مطارِديهم لن يظفروا بهم، ما دام هو ورفاقه يمتطون أسرع الجياد. ولَكَمْ كانت الطبيعةُ مُوحشةً ومنفّرةً في ذلك الوادي الذي لفّه الجفافُ والموتُ، الكائن غربَ البحر الميت، وليس له من فَرْشٍ سوى الحصى والحجارة. لذا كان من الخطرِ أن يطلقوا الأعنّة لجيادهم. ومع ذلك لم يبدُ أنّ ذلك قد يعيقُ مطارديهم. وعلاوة على ذلك فإنْ هوَى هؤلاء مِنْ على صهوة جِيادهم فلن يُصيبهم السقوطُ بأيِّ أذًى.

قرّر يوسف فجأة أن يُحوّل وجهتَه ناحيةَ المرتفعات، علّه يجد فيها ملاذَه. وما لبث الفرسانُ الثلاثة المطارَدون أن صعدوا مجرىً مائياً قاحِلاً ما انفك ينحصِر أمامهم ويضيق. لكنّ الوادي أخذ يتقعّرُ ويضيق، إلى أن وجد الفرسان أنفسَهم في قَعْرٍ شبيهٍ بقدحٍ مستطيل، وكأنّ الربَّ أمسك بهم على حين غرّة فسار بهم في اتجاهٍ واحدٍ لا يحيدُ. وهكذا صار منفذُهم الوحيدُ، الذي ما فتئ يزداد وُعورةً، يَحُدّ

Twitter: @ketab_n

من سرعتَهم بما ليس لهم فيه حولٌ ولا قوة. وهكذا صار مطارِدوهم الذين واصلوا تقدّمَهم على وشك أن يُصبحوا على مرمَى سهامِ الرجال الثلاثة الذين علّقوا على ظهورهم دروعَهم المصفحةَ بالحديد.

لم يتوقّف يوسفُ عن الصلاة والدعاءِ من أجل حياته، بيد أنّه فيما كان يسعَى للحدِّ من مشيتِه في قلْبِ الكُتل الصخرية التي سدّت مجرَى الوادي إذْ بآيةٍ من آياتِ كتابِ الله تُلامِس شفتَيه، فتلاها بنفَس متقطّع وشفتين ناشفتين:

"الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسَنُ عملاً وهو العزيز الغفور"
(سورة الملك/ الآية ٢)

واختبَر الربُّ حبيبَه يوسفَ فأراه في البداية ما يُشبه سرابًا في نورِ الشمسِ عند المغيب، ثمّ أراه في صفاءٍ بديعٍ، رؤية لم يَر مؤمنٌ أكثرَ منها رُعبًا في هذه المنزلة الحاسمة.

رأى فارساً من فرسان هيكل الربّ وقد خَفَض رُمحَه، وحامِلُ الترسِ في إثره. كان هذان العدُوّان اللّدودان والخيرانِ في آنٍ يَعْدُوان عدواً سريعاً جعل رداءيهما يطيران في الهواءِ كأنهما جناحَا صقرٍ مبسوطَان، فَبَدَيَا للعيانِ كأنّهما جِنيّانِ طالعانِ من قلبِ الصحراء.

أوقف يوسف حصانَه على الفورِ وأدار في حركةٍ هوجاءَ درْعَه حول جسدِه حتى يَعْرضه في وجْه رُمح العدوّ الكافر. لم يشعرْ بالخوف بتاتاً، لكنّه أحسّ بالبرودةِ والقشعريرة وهو يقترب من الموت. ولذلك وجّه مطيّته نحو سفحِ الوادي الوعِر حتّى يَدْرأَ خطرَ رُمح العدوّ ويفتح أمامه أقصى زاوية للهجوم.

ما لبث فارس هيكل الربّ أن صار على بُعْدِ أربعة حوافر أو أدنى، فرفَع رُمحَه إلى السماء وأشار إلى يوسف ومَنْ معه من المؤمنين بأن يحِيدا عن طريقه، فامتثلوا للأمر، وما لبث الفارسان أن لامساه في دويّ الرعدِ فأسقطا عنه رداءه الذي وقع ببطءٍ في الهباء المنثور من ورائهما.

وبحركةٍ من يده أعطى صلاحُ الدين أمراً سريعاً لرفيقيه فاستأنفوا السيرَ مُتَسلّقين في عناءٍ جمٍّ منحدرَ الوادي الذي ما انفكّت حوافرُ الخيول تزلقُ فيه، ووصلوا في

Twitter: @ketab_n

النهاية إلى مكانٍ تبدّى فيه المنظرُ أمامهم جليّاً مكشوفاً. وعندئذٍ استدار صلاحُ الدين فجأةً إلى الوراءِ ثمّ توقّف ليتأمّل في فضولٍ إرادةَ الربّ الوشيكة.

لعلّ الآخَرَين رغبا في أن ينتهزا تلك الفرصةَ السانحة لكي يفرّا، فيما فارسا هيكل الربّ وقطّاع الطرق يُصَفُّون فيما بينهم حساباتهم. اغتاظ يوسفُ لتلك الفكرة كثيراً، لكنّه قاومها لشدّة رغبتِه في أن يرى بِعَيْنَيْهِ ما سوف يحدث في المكان عينِه. لم يسبق له أن اقترب قطّ من فارسٍ من فرسان هيكل الربّ، أو بالأحرى من شيطانٍ من شياطين الشرّ. وقد شعر أنّ الربّ يحضُّه على البقاءِ، وأنّ ما من حذرٍ يحول دون بقائه. فالحذرُ يشاءُ أن يواصلوا مسيرهم نحو العريش ما وسعهم المسيرُ في ضوءِ النهار، إلى أن تلُفّهُم الدياجير. لكنّ يوسف لن ينسى أبداً ذلك الذي سيكون شاهداً عليه بعد حين.

لم يجد اللصوصُ الستّةُ خياراً آخر أمامهم عندما أدركوا أنّهم أمام فارسين من فرسان هيكل الربّ. وقد خفّضا رُمحيهما بدلاً من أنْ يتعقّبا الرجال الأغنياء الثلاثة. كان مجرى الوادي أضيقَ من أن يستديروا إلى الوراء، وأن يتقهقروا قبل أنْ يلحقَ بهم فارسا الإفرنج. وبعد برهةٍ من التردّد لم يجدوا بُدّاً من أن يجنَحوا إلى الحلّ الوحيد الذي بقِي أمامهم، فقرّروا أن ينتظموا اثنين خلف اثنين، وأن يستحِثّوا خيولَهم حتى لا يتعرّضوا لأيّ صدمةٍ وهم ثابتون ساكنون.

تظاهر فارسُ الهيكل بثوبِه الأبيض وهو ينطّ نطّاً أمام حامِل الترسّ بأنّه يهاجم أحدَ قاطعَيْ الطريق الواقفِ إلى يمينه. وعندما رفَع قاطعُ الطريقِ درعَه لِيَدْرأَ عُنفَ الضربة إذْ بفارسِ الهيكل يُغيّر سرعتَه التي بدت متعذّرة على تلك الأرض الوعرة. وقد منحته هذه الخطةُ زاويةً جديدة للهجوم تسمحُ بأن يَدُسَّ رُمحَه بين درعِ قاطع الطريق الواقف إلى اليسار وبين جسدِه، وبأن يُفارِق في الحال سلاحَه حتّى لا يرتبك ويسقط بدورِه من على سرجه. وفي الوقت ذاته أصاب حامِلُ الترس قاطعَ الطريق الواقف إلى اليمين، ولم يَكد هذا القاطعُ، الذي ظلّ يترصّد من خلف درعِه الواقي صدمةً لم تأتِه قطّ أنْ يرفع عينَيه حتى تلقّى بملءِ وجهه رُمْح العدوّ الآخر، مِن الناحية التي لم يكن يتوقّعها بتاتاً.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك واجَه فارسُ الهيكل بثوبِه الأبيض وصليبِه القرمزي الممقوتِ العدوَّين الآخَرين في ممرٍّ ضيّقٍ لا يتّسع لوقوف ثلاثة خيول. وبعد أن استلّ سيفَه أوحى بأنه سيضربُ وجهاً لوجهٍ ضربةً لا حذرَ فيها ولا فطنة، لأنه لم يكن مسلّحاً إلاّ من ناحية واحدة. لكنْ إذ بِفحلِه الأشهب يقف فجأة بعرْضِ الممرّ وينقضُّ في وثبةٍ قويّة على أحدِ قاطعيْ الطريق فيُسقِطه عن سرجه تحت وطأةِ الصدمة.

ولمّا صار العدوُّ يقف بالوربِ ويكاد يُدير له ظهرَه والسيفُ في اليد التي لا تجديه نفعاً بعد أن صار في غيرِ متناولها رأى الآخرُ في ذلك فرصةً سانحة للهجوم، بيد أنه لم يلمح أنّ فارسَ الهيكل قد أرخى درعَه ليُمسك بالسيف باليد اليمنى. وعندما مال قاطعُ الطريق إلى الأمام من على سرجه ليضرب بسيفِه، إذ به يَهَبُ من حيث لا يدري حَلْقَهُ ورأسَه المكشوفَين لضربةٍ قادمة من الناحية التي لم يحسبْ حسابَها.

"إذا كان الرأسُ قادراً على التفكير، ولو للحظة قصيرة قبل الموتِ فإن الذي سقَط أرضاً للتوّ قائدٌ مندهشٌ أيّما اندهاشٍ، قال فخْر الذي وقف هو نفسُه مندهشاً مفتوناً بهذا المشهد الذي لا تفارقه عيناه."

استطاع حاملُ الترس بثوبِه الأسود أن يقتربَ من النذلِ البائس الذي طرحه حصانُ فارسِ الهيكل أرضاً. ثمّ نزل من على مطيّتِه وبِهدوءٍ أمسك بمطيةِ قاطعِ الطريق من لجامِها وهو يغرس سيفَه في حلْقِ الرجل الفاقدِ لوعيِه في المكان الذي ينتهي عنده زردُه المغلّف بالصدفات المعدنية. لكنّه لم يُبدِ فيما بعدُ، أيّ بادرةٍ من بوادر السير من خلْف سيّدِه الذي انطلق في أعقابِ قاطعيْ الطريق الآخرَين، اللذين انسحبا ولم يَنْبِسا بكلمةٍ واحدة. فقد اكتفَى بأن عقَد العنانَ حولِ مقدّمة البهيمة التي قبض عليها، ثمّ توجّه في حذرٍ نحو البهيمتَين الأُخرَيين وأخذ يُكلّمُهما كلاماً ناعِماً حتى يُخفّف من روعهما. لم يُولِ حامِلُ الترسِ اهتماما أبدا لسيّدِه، فيما كان خليقاً به أنْ يتبعَه حتى يذود عنه ويحميَه، وكأنّ لا همّ له سوى اصطيادِ خيول العدوّ. يا له من مشهدٍ غريب عجيب!

"هذا الرجل الذي تراه، قال الأميرُ موسى وهو يشير بإصبعِه إلى فارس الهيكل

Twitter: @ketab_n

بثوبه الأبيض وهو يتوارى أسفل الوادي، هذا الرجل الذي تراه يا سيّدي، هو القوطي.

- القوطي؟ سأل يوسفُ، إنّكَ تنطقُ باسمِه كأنّك تعرفه. لكنك لا تعرفُه. فمَن هو القوطي؟

- القوطي شخصٌ ينبغي أن تعرفَه، يا سيّدي، أجاب الأميرُ موسى من دون أن يُرخِي أسنانَه بعد أن كزّها كزّاً. لقد أرسلَه الربّ إلينا لكي يعاقبنا على خطايانا. فهو الذي يركب الخيلَ بين هؤلاء الشياطين بأصلبتهم القرمزية، تارة مع الأتراك المرتزقة، وتارة أخرى مع الخيّالة المدجّجة. وهو في هذه اللحظة، كما تراه، يركب فحْل خيلٍ عربيّاً كما يركبه فارسٌ تركيٌّ تماماً. ومع ذلك فهو يحمِل الرمحَ والسيف وكأنّه يمتطي خيلاً من خيول الإفرنج، الثقيلة البطيئة. وعلاوة على ذلك فهو الأميرُ على فرسانِ معبدِ غزّة.

- القوطي، القوطي، همهم يوسف متأملاً. إنّي أرغب في الالتقاء به، فلننتظره هنا.

حدّق إليه الآخران في وَجَلٍ، لكنّهما فهِما أنّه ثابتُ العزمِ فلا جدوى من الاعتراضِ مهما كان في الاعتراضِ من حذرٍ وفطنة.

ومن على قمّة الوادي لَمَح الفرسانُ العرب الثلاثةُ حاملَ الترس، هادئَ الأعصاب، لامبالياً، كأنه يداوم على عملٍ يوميّ عادي، وهو يَجمع خيولَ الأموات الأربعة ويربطها، ثمّ يجرّ جثامين قطّاع الطرق. وقد وسعه أن يجرّها في عناءٍ جمّ رغم بنيَتِه القويّة، ويُحْكِم ربْط كلّ جثمانٍ بحصانه.

وما لبث فارسُ الهيكل وقاطعا الطريق الآخَرين —وقد صارا الآن مُطارَدين بعد أن كانوا مطارِدين– أن اختفوا نهائياً.

- يا له من أمرٍ عاقل، غمغم فخر وكأنه يخاطب نفسَه. إنها قمّة العقل! ثمّ ربط كلّ فارس بحصانِه حتّى يُهدّئ من روع البهائم رغم حمّام الدم. فلعله يفكر الآن في أنْ يأخذ معه هذه المطايا.

- أجل إنّها خيولٌ جيّدةٌ حقّاً، قال يوسف، لكنّي لا أفهم كيف تسنّى لهؤلاء

Twitter: @ketab_n

اللصوص أن يحصلوا على مطايا لا تليقُ إلاّ بالملوك. مطايا لم تستطيع خيولنا أن تسبقَها.

– وأدهَى من ذلك أنّها لحقتْ بنا في النهاية، قال الأميرُ موسى الذي لا يتردّد أبداً في أن يقول لسيّدِه ما في قرارة نفسه. لكنْ، ألم نرَ الآن كلَّ ما كنّا نرغبُ في أن نراه؟ أليس من الخيرِ لنا أن نذهب في اتجاهِ المغيب قبل أن يعود القوطي؟

– هل أنت على يقينٍ من أنّه سيعود؟ سأل يوسفُ متبسّماً.

– أجل يا سيّدي، سيعود، قال الأميرُ موسى متأفّفاً. إني موقنٌ بذلك يَقيني بحامل الترس هذا الذي لم يكلِّف نفسَه اتباع سيّده. ألم ترَ القوطي وهو يُودِع السيفَ غمدَه، ويُخرِج قوسَه ويُوتره في اللحظة التي اختفَى فيها هناك في الأسفل؟

– فارسٌ من فرسان هيكل الربّ يحمِل قوساً؟ سأل يوسف مندهشاً، وهو يرفع حاجبَيه الرفيعين؟

– حقاً يا سيّدي، أجاب الأميرُ موسى في أدبٍ. لقد سبق أن قلتُ إنّه كواحدٍ من الفرسان الأتراك، وقد رأيتُه يرمِي بالقوس في قلب السياق، مثل فارسٍ تركي، على الرغم من أنّ سلاحَه أكبرُ من سلاحهم. ما أكثر المؤمنين الذي لقَوا حتفَهم على يده. دعني أقترح يا سيّدي...

– لا! قاطعه يوسف. سننتظره هنا. أريد أن ألتقي به. لقد عقدنا هدنةً قبل قليل مع فرسان هيكل الربّ وأرغب في أن أشكره. فأنا لا أدين له بالشكر وحسب وإنّما لا أريد أن يعذّبني دَيْنُ عرفانٍ أدينُ به لفارس من فرسان هيكل الربّ!

أدرك الآخران ألا جدوى من الجدال، لكنّهما أحسّا بالضيقِ وتوقّف النقاش عند هذا الحدّ.

ظلاّ صامتين بعض الوقت وهما مُنثَنِيان إلى الأمام، واضعَين إحدى اليدين فوق قربوس السرج، يرقبان حامِل الترس. وعندما انتهَى هذا الأخيرُ من عمله مع الجثامين والخيول شرَع في جمْع الأسلحة والرداءين اللذين تعرّيا منهما هو وسيّدُه قبل الهجوم. ولمّا عاد وهو يحمِل الرأسَ المقطوعَ في يدِه بدا وكأنه يُسائِل نفسَه كيف سيحمله. لكنّه ما لبث أن نزع عباءةَ أحدِ اللصوص وغلّف الرأسَ في بها، ثمّ رزمه،

Twitter: @ketab_n

ثمّ ربط الرزمة بالسرج بالقرب من الجثمان الذي فارقه ذلك الرأس.

وبعد أن نفّذ ما عليه من أشغالٍ تأكّد أولاً من أنّ كلّ شيءٍ قد نُضِّد ورُتِّب خيْرَ تنضيدٍ وترتيبٍ، قبل أن يمتطي حصانه ويمرّ أمام العرب الثلاثة، في مقدّمة قافلة المطايا.

ويملءِ ذراعه حيّاه يوسف بأدبٍ بلغة الإفرنج، وردّ عليه حاملُ الترس بابتسامة تكلّفها، لكنّهم لم يتمكّنوا من سماعِ ما كان يقوله لهم.

أقبل الليلُ وتوارت الشمسُ خلف القِمم الواقعة غرباً، ورأوا البحرَ عن بُعدٍ وهو يفقد تموّجاتِه الزرقاء. ولعلّ الخيول أحسّت بنفادِ صبرِ أصحابها فأخذت تصهل كأنها رغبت مثلهم في أن ترحل قبل فوات الأوان.

وإذ بهم يرون فارس الهيكل بثوبه الأبيض يصعد الوادي في اتجاههم. كان يجرّ من خلفه حصانَين يحملان بعرْض السرجِ جثّةَ سيدهم. كان يسيرُ ببطء، مُطرقاً كأنّه يتضرّع إلى الربّ. ولعلّه أنعم النظرَ في وعورةِ الأرض وغلظتها ليعرف من أين يقطعُها مِنْ غير عناء. لم يَبْدُ عليه أنّه قد شَعر بالرجال الثلاثة الذين كانوا ينتظرونه، على الرغم من أنّ أخيلتهم كانت بارزةً بوضوحٍ في الجزء المتجلّي من سماء ذلك الغروب.

وعندما اقترب منهم رفع عينيه وأوقف حصانَه دون أن ينبس بكلمة واحدة.

ارتبك يوسفُ واضطرب، ولم ينطق بكلمة، وهو يلاحظ في اندهاشٍ أنّ الذي يراه الآن لا يمتّ بصلةٍ للمشاهدِ التي شهِدَ عليها قبل قليل. فها هو واحدٌ من شياطين الشرّ واسمُه القوطي يوحي الآن بالسلام والأمان. لقد خلع خوذتَه التي كان يحملها مربوطةً فوق كتفه. وكانت لحيتُه الكثيفة الشعثاء وشعرُه القصير بلونهما الأشقرِ ينمّان عن لحيةٍ وشَعْرٍ لشيطانٍ ذي عينين لم يحلْ لونُهما الأزرق دون حدّته المألوفة. لقد قَتل هذا الرجلُ قبل حينٍ ثلاثةَ رجالٍ أو أربعة. لم يسَع يوسفَ أن يذكر عددَهم بالضبطِ وإن كان في العادة لا ينسَى جُزئيةً واحدة من تفاصيل أيّ معركة يخوضها. وقد رأى أيضاً رجالاً قَتلوا ثمّ هُزموا، لكنّه لم يصادف قطّ شخصاً عائداً من يومِ عملٍ شاقّ بعد أنْ حصد القمحَ من الحقول، أو قطَع قصبَ السكر

Twitter: @ketab_n

في المستنقعات، وهو على هذه الحال من الطمأنينة وصفاءِ البال. فهاتان العينان الزرقاوان لم تكونا عينَيْ شيطانٍ... بالتأكيد.

"نحن ننتظر أنتَ...نحن نشكرُ أنتَ" قال يوسف في لغة إفرنجية كاد يُتقنها.

عندئذٍ نظر الرجلُ الذي يدعوه المؤمنون القوطي، بانتباهٍ ويقظة، فيما أشرقَ وجههُ بابتسامةٍ خفيفةٍ، وكأنه فتّش في ذاكرته فوجد أخيراً ما كان يبحثُ عنه بعناية. وما لبثت هذه السماءُ أنْ جعلت الأميرَ موسى وفخر يستنفران فيطأطئان في عفويةٍ رأسَيهما نحو أسلحتِهما بالقرب من سرجَيهما. ورأى فارسُ الهيكل أيادي الرجالِ كأنّها تتحرّك بفعلِ قوّة في ذاتِها نحو السيوف، فرفَع رأسَه نحو الرجال الثلاثة وحدّق في عينيْ يوسف وأجاب بلغة الربّ:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لسنا الآن أعداءً بعضنا بعضا، ولستُ أنوي محاربتكم. تأمّلوا كلمات كتابكم المقدّس، تلك الكلمات التي نطق بها النبيّ نفسه، -عليه السلام-: "ولا تقتلوا النفْسَ التي حرّم الله إلاّ بالحقّ". لا أنتم، ولا أنا ندّعي حقاً لأنفسِنا، لأننا عقدنا مهادنة".

عزّر فارس الهيكل ابتسامتَه أكثر فأكثر، وكأنّه رغب في أن يحثّهم على الضحك أيضاً. كان يعي تماماً ذلك الأثرَ الذي أحدثَه وهو يخاطبُ هؤلاء الرجال الثلاثة بلغةِ القرآن المقدّسة. وبعد أن تردّد قليلاً أدرك يوسفُ وجوبَ التصرّف على عجلٍ حتّى يظلّ هو سيدَ المقام، فأجابه قائلاً: "إنّ سُبل الله العظيم منيعةٌ لا يمكن اختراقها".

فهزّ فارسُ الهيكل رأسَه متأثّراً بهذه الكلمات التي بدا وكأنّه يعرفها. وأردف يوسف قائلاً:

"هو العليّ القديرُ وحدَه أعلمُ بما يشاء حين قضَى بإرسال عدوٍّ لكي ينقذنا. والحالُ هذه دعني أشكرك كثيراً، أيْ صاحب الصليب القرمزي. وأودّ لو أهديَك جزءاً ممّا رغب هؤلاء الملعونون في أن يسلبوه منّا. أعطيكَ إذاً مئة دينار ذهبي، أرى أنّك تستحقّها عن كلّ ما رأيناك تنجزُه من أجلنا."

قدّر يوسف أنّه قد تحدّث حديثَ ملكٍ، بل حديثَ ملكٍ سخيّ كريم، لكنّ فارسَ الهيكل سرعان ما باغت يوسفَ وأكثر منه أخاه، والأمَير موسى، بقهقهة

Twitter: @ketab_n

صادقة لا هُزءَ فيها، قبل أن يضيف:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أراك تحدّثني عن طيبةٍ وعن جهلٍ في آن. لا يسعني أن آخذ منكَ شيئاً. لمْ أفعل إلاّ ما كان يجب عليّ فعله، سواء كُنتَ هنا أم لم تكنْ. لستُ أملِك منافعَ ولا أستطيع أن أمتلك منها شيئاً. تلك هي حقيقتي. لكنّك تستطيع أن تلتفّ حول هذه الأمنية وتهدي المئة دينار ذهباً إلى كهنوتِ هيكل الربّ. ومع ذلك فإنّي أخشى، اللهمّ احترامي لك، صديقاً كنتَ أم عدوّاً مجهولاً، ألا تجد ما تبرّرُ يه هذه الهبة أمام نبيّك".

بهذه الكلمات أمسك فارس الهيكل بزمامه وألقى نظرةً إلى الخيول والجثامين من خلفِه. ثمّ استحثّ فحلَهُ العربي ورفع يدَه اليمنى وهو يُحكِم قبضتَها لكي يُحيّي الفرسانِ الكفرة. لقد بدا وكأنه وجد المقام مسلّياً.

– انتظرْ! قال يوسف متعجّلاً كلماته التي سبَقت نواياه. دعني أدعوك هناك في الساحة لكي تشاركني أنت ورفيقُك حامِلُ الترس طعامَ العشاء.

أوقف فارسُ الهيكل حصانه، ونظر إلى يوسف كأنّه يريد أن يفكّر قليلاً.

– إنّي أقبل دعوتَك، صديقاً كنت أم عدوّاً مجهولاً، شريطة أن تعاهدني على أنّ ما من أحدٍ منكم سيستعمل سلاحَه ضدّي، أو ضدّ رفيقي حامِل الترس، ما دمنا في ضيافتِكم.

– باسم الإله الحقّ أعاهدُك، أجاب يوسف في الحال، فهل تعاهدني؟

– باسم الربّ الحقّ وابنِه والقدّيسة العذراء أعاهدك، أجاب فارسُ الهيكل بالسرعة ذاتها. فلو قصدتم إلى أقربِ نقطةٍ جنوبَ المكان الذي توارت فيه الشمسُ من خلفِ الجبال ستبلغون ساقيةً من السواقي. فإنْ جاريتُم مجراها فستجدون بضْعَ شُجيرات، وبالقرب منها أحد ينابيع الماء. أقيمُوا هناك ليلتَكم. أمّا نحن فمقامنا يقع إلى الغرب قليلاً، عند عالية ذات المجرى. فلن نُلوّثه. فالليلُ بات وشيكاً وقد حان وقتُ الصلاة. وعندما نأتي لكي نلقاكم فلن نتقدّم في صمتٍ وهُدوء، وإنّما سنأتي جهاراً حتّى تسمعَنا آذانكم.

حفّزَ فارسُ الهيكل حصانَه من جديدٍ، ثمّ أشار بيدِه مُودّعاً. ثمّ رحَلَ مع قافلتِه

Twitter: @ketab_n

الصغيرة عند الغسقِ ولم يلتفتْ إلى الوراء.

تعقّبه المؤمنون الثلاثةُ بأنظارِهم طويلاً، هادئِين ساكنين، فيما كانت خيولُهم تصهل في هياجٍ وتلهّفٍ، لكنّ يوسف ظلّ مستغرقاً في أفكارِه وتأملاته.

– أنت أخي وحركاتك مثل أقوالك لا ينبغي أن تفاجئني بعد ما مضى بيننا من سنواتٍ طويلة، قال فخر. ومع ذلك فإنّ ما فعلتَه الآن قد حيّرني كثيراً! أيُعقل أن هذا من فارسٍ من فرسان هيكل الربّ؟! ويا للعجب! أَمِنْ فارسٍ اسمُه القوطي!

– صديقي العزيز، أجاب يوسفُ وهو يدير حصانَه بيدٍ خفيفةٍ في الاتجاه الذي أشار إليه به عدوُّه. ظنّي أننا قد تحدّثنا في أمْرِ وجوبِ معرفة كلّ منّا عدوّه. أليس كذلك؟ وأيُّ الأعداءِ أولَى وأجدر بالمعرفة، إنْ لم يكن أشدّهم عناداً وضراوة. فالربُّ يهبُنا فرصةً رائعة، فلِمَ نترك الفرصة تُفلتُ منّا؟

– لكنْ كيف نثق في كلامِ رجلٍ مثل هذا، قال فخر معترضاً، بعد أن سارا فوق صهوتي جواديهما بعض الوقت لا ينبسان بكلمة واحدة.

– ومع ذلك فالأمرُ ممكنٌ للغاية، هَمْهَمَ الأميرُ موسى. إنّ للعدوّ أوجُهاً عديدة، مكشوفة ومتوارية، لكنّنا نستطيع أن نثِق في هذا الرجل وفي كلام أخيه على السواء.

اقْتَفَوْا آثارَ إشاراتِ فارس هيكل الربّ وما لبثوا أن بلغوا شاطئَ جدولٍ صغيرٍ يجري فيه ماءٌ صافٍ قرّ، فتوقّفوا عنده حتّى تشرب خيولُهم، ثمّ ساروا بمحاذاته ووصلوا، كما قال فارس الهيكل، إلى حيثُ يتّسع الجدولُ إلى حوضٍ صغير قد نَمَتْ بالقربِ منه بضعُ شجيراتٍ ونباتٌ نادرٌ يكفي لغذاء مطاياهم. ثمّ ترجّلوا وربطوا بهائمَهم حتى لا تبتعدَ عنهم، وأخيراً توضّؤوا لكي يمضوا إلى الصلاة.

وعندما لاحتْ بوادرُ الهلال في سماء تلك الليلة الصيفية الزرقاء أدّوا صلاتَهم وترحّموا على أمواتهم وحمدوا الله الذي شملهم بنعمتِه الواسعة فأرسل إليهم ألدّ أعدائهم لإنقاذهم.

وقد عادوا للحديث في ذلك الأمر بعد صلاتهم فرأى يوسف أنّ العليّ القدير أراد في يُسْرٍ يسيرٍ أن يُريهم أنْ لا غالب له، وأن يُثبتَ لهم أنّه قادر على كلّ شيء، فكيف لا يقدر على إرسال فارسٍ من فرسان هيكل الربّ لينقذ أولئك الذين لم

Twitter: @ketab_n

يكن لهم بدٌّ من أن ينتصروا أخيراً على فرسان هيكل الربّ.

وثِق يوسفُ من الأمر بنفسه ووثق به رفاقُه أيضاً. وما لبث الإفرنجُ يدخلون المدينة المقدّسة ويغادرونها كأسرابِ الجراد تارة، وفرادى تارةً أخرى. وسنة بعد سنة صار المحاربون يأتون من بلاد الإفرنج تباعا فينهبون، فينتصِرون أو ينهزمون فيموتون، فإنْ كُتِب لهم عمرٌ جديدٌ رحلوا خائبين مقهورين.

لكنّ بعضاً من هؤلاء الإفرنج، خيارِهم وأشرارِهم، كانوا يُؤثِرون البقاءَ في المدينة. خيارُهم لأنهم لا ينْهبونَ إرضاءً لِهَوىً أو شهوة، ولأنّه بالإمكانِ الحديث معهم أو إبرام صفقةِ سلام أو تجارة. وأشرارُهم أيضاً لأنّ بعضَهم كانوا أعداءً أشدّاء في المعركة، وكان أشدّهم خطراً أعضاء في كلا القطاعين العسكريين: فرسان هيكل الربّ وجنود سانت جون، وهم رهبانٌ لا تَلِينُ عزائمُهم أمام أيّ محنة. فمَن رغب منهم في تحرير البلاد من العدوّ، أو رغب في أنْ يستردّ الأقصى وقبّةَ الصخرة فعليه أن ينتصرَ على هؤلاء وأولئك، عاجلاً أم آجلاً. فأمرُهم كذلك ولا يمكن أن يكون خلافاً لذلك.

ومع ذلك فقد كان هؤلاء المؤمنون الأشدّاء وكأنّهم لا يُقهرون ولا يعرفون الهزيمة، فيُقاتلون بلا رهبةٍ ويؤمنون أنّ الجنّة عاقبتهم إنْ ماتوا في المعركة. لا يستسلمون أبداً، ويأبون افتداءَ إخوانهم الأسرى. فأسرُ فارسٍ من فرسانِ الهيكل، أو راهبٍ من رهبان سانت جون لا قيمةَ له عندهم، فبالإمكانِ إذاً أن يفرجوا عنهما، لكنّ الموتَ في انتظارِهما دائماً.

وقد قضت أصولُهم أن يخرجوا جميعاً سالمين، أو أن يموتوا جميعاً إن تصدّى خمسة عشر منهم لخمسة فرسان من فرسان الهيكل، في أيّ مكان في أيّ أرضٍ منبسطة. والحال أنّه إذا هاجم خمسة عشر مؤمناً خمسةٌ من الكفرة فلا أحدَ من المؤمنين يبقى حيّاً. فالنصرُ لا يتأتّى إلاّ إذا كان العددُ أربعةَ أضعاف عددِ الخصم وكان الطامعُ في الانتصار على استعدادٍ لأنْ يدفع جزيةً ثقيلةً قوامُها عددٌ من الأرواح البشرية. لكنّ الأمرَ على خلافِ ذلك مع الإفرنج العاديين، فهؤلاء يسهلُ الانتصارُ عليهم حتى وإن كان المؤمنون أقلّ منهم عدداً.

Twitter: @ketab_n

وفيما كان فخرُ والأميرُ موسى يَجمَعون الحطب لكي يُعدّوا موقِدَ نارٍ ظلّ يوسفُ ممدّداً متوسداً ذراعيه، يتأمّل السماءَ حيث النجوم تتلألأ الواحدة تلو الأخرى. لقد أخذ يفكّر في ألدّ أعدائِه، وفي ما رآه صواباً قبل مغيبِ الشمس. فالرجلُ الذي لقّب نفسَه بالقوطي كان يركَبُ جواداً خليقاً بملِك، وكان كأنه يقرأ أفكارَ سيّده ويطيعه حتّى قبل أن يُلقي إليه السيّدُ أمراً من أوامِره. ليس الأمرُ ضرباً من ضروب السّحر ويوسفُ يأبى على نفسه مثل هذا التفسير، وكلٌّ ما في الأمر أنّ هذا الرّجلَ وهذا الحصانَ مُدرّبان أحسنَ تدريبٍ، وقد قاتلا معاً سنواتٍ طويلة بكثير من الجدّ والاجتهاد. فما أكثر الرجال من هذا الفصيل بين المماليك المصريين، فلا يُشغلُهم أمرٌ آخر غير التمرّن إلى أنْ يُنجزوا من المعارك ما يكفي للحصول على رتبةِ قائد، وقطعة أرض، وذهبٍ وامتيازاتٍ جزاء سنواتٍ عديدةٍ من الظفر والانتصار. فالأمرُ إذاً ليس معجزة أو سحراً، وليس الربُّ إنّما الإنسانُ هو الذي يحقّق هذه الحصيلة. فكلّ ما في الأمر هو امتلاكُ السرّ الذي يُفضي إلى تلك الحصيلة.

كان يوسف يقول دائماً إن ذاك السرَّ هو الإيمانُ، بل هو نقاءُ الإيمان. فمَن عمِل مخلصاً بتعاليم الرسول في الجهادِ لن يعرف الهزيمة أيضاً. لكنْ ليس من السهل أنْ يجد أحدٌ بين مماليكِ مصر مسلمين مُخلصين لتلك التعاليم. فقد كان أولئك الأتراكُ مُولعين بالخرافات، يؤمنون بالأرواح وبالأحجار الكريمة، ولا يعتنقون الإيمانَ الحقيقيّ في كلّ نقائه إلاّ من طرف الشفاه ليس إلا.

وزاد الطين بلّةً أنّ الكفّار كانوا قادرين على إنجاب رجالٍ أمثال القوطي، وبذلك أقام الربُّ الدليلَ على أنّ الإنسانَ قد خُلِقَ حرّاً، يقرّر بملءِ إرادته الهدفَ الذي يرتضيه لحياته في هذه الدنيا، ولذلك وجب انتظار النارِ المقدّسة التي تفصل ما بين الطيّبين والأشرار لمعرفة مَن هو على حقّ، ومن هو على خطأ.

وتلك فكرةٌ مثقلةٌ بالعواقب، لأنه إذا شاء الربُّ أن يُجازي المؤمنين بالنصر والغلبة، وإنْ هُمُ استطاعوا أن يتّحدوا لخوضِ الجهاد ضدّ الكفّار فلماذا خَلَقَ أعداءً يستحيلُ دَحْرُهُم حتى وإنْ أعدّوا لهم مثلما أعدُّوا من أسلحة؟ فلعلّ الربَّ أراد أن يقول للمؤمنين اتحدوا ولا تفرّقوا واتّقوا شرّ الخصام والفتنة. فإن اتحدوا حقاً تضاعفتْ

Twitter: @ketab_n

عددهم عشر مرّات أو مئة مرّة وتفوّقوا على الكفّار الذين سيلقون الهزيمةَ لا محالة، حتّى إن كانوا جميعاً فرساناً في هيكل الربّ، من أوّلهم لآخرهم.

عاد يوسف بخيالِه إلى صورة القوطي وفحله، وإلى سرجِه الأسودِ الذي أمعن في تشحيمِه أيّما إمعان، وإلى عدّته التي تُرْضي يُسْرَ الحركةِ أكثرَ ممّا تُرضي العينَ المُبصرة. ومن كلّ ذلك يمكن استخلاصُ العبر الكثيرة: فكم من رجالٍ لقَوا حتفَهم في المعركة لأنهم لم يقاوموا الرغبةَ في أن يُعلّقوا على دروعهم ديباجَهم الجديد ينبهرون بتلألئه ولا يحفَلون بقسوتِه التي تُعيق حركاتهم عند اللحظة الحاسمة، فيموتون إذاً زهواً وغروراً أكثر ممّا يموتون لأسبابٍ أخرى. أجل، لا بدّ من استخلاص الدروس من كلّ ما نراه بأم أعيننا، فأيّ معنىً لأيِّ نصرٍ إنْ لم يكن نصراً على عدوٍّ وَحْشِيٍّ لا يزال يحتلّ مدينةَ الربّ المقدّسة؟!

أخذت النارُ تطقطقُ، وأخذ فخرُ والأميرُ موسى بعد أن بسطا سماطاً من الحريرِ المُوصِلي يُخرجان المؤونَة ويُعدّان المائدة. وقد جلس الأميرُ موسى القُرفصاء ليطحنَ حبّات البنّ اليَمني لكي يصير مشروبُه البدويُّ الأسودُ جاهزاً حين يُجدِي ذلك الشرابُ. ومع مجيء الليل عمَّ المكانَ طقسٌ نديٌّ في شكلِ نسيم عليلٍ بدأ يتدحرج على سفوحِ الجبال قادماً من الخليل مدينة إبراهيم عليه السلام. لكنّ تلك العذوبة ما لبثت بعد قيظِ النهار أن استحالت برداً قارساً.

اشتمّ يوسفُ في الرياح القادمة من الغرب رائحةَ الإفرنج في اللحظة ذاتها التي سمِع فيها قُدومَهم على حين غرّة. لقد اشتمَّ رائحةَ العَبْدِ وساحة المعركة، ولم يشكَّ بتاتاً في أنّ أولئك الهمجَ قادمون لكي يتناولوا طعامَ العشاء دون أن يتطهّروا بالماءِ أوّلاً وعندما دخل فارسُ هيكل الربّ في دائرةِ الضوء المنبعث من وَهَجِ النّار لَمَحَهُ المؤمنون يحمِل درعَه المرصّعة بالصليب القرمزي فاستغربوا منه تصرّفاً لا يليقُ بأيّ ضيف! وعندئذٍ خطا الأميرُ موسى بضْعَ خطواتٍ حذرة في اتجاه خيلِه الذي جمع بالقرب منه سلاحَه. لكنّ عَيْنَيْ يوسف ما لبثتا أن الْتقتا بِعَيْنَيْ الأميرِ موسى الوَجِلتَيْن، وهزّ يوسف له رأسَه في هدوء.

انحنى فارسُ هيكل الربّ أمام مستقبليه الثلاثة، الواحد تلو الآخر، وبدورِه حاول

Twitter: @ketab_n

رفيقُه حامِلُ الترس أن يحذوَ حذوَه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ثمّ ما لبث أنْ فاجأ المؤمنين الثلاثة حين نزَع درعَه البيضاء المزيّنة بالصليب القرمزي الممقوتِ وعلّقها في أعلى رُكنٍ في إحدى الشجيرات القريبة. وفيما كان يتقدّم وهو ينْزَع سيفَه لكي يجلس على نحوِ ما أشار به إليه يوسفُ قال إنّ المكان الذي يحيطهم يخلو على الأرجحِ من كلّ الأشرارِ، لكنْ لا غنىً عن الحذر والحيطة، فلدرعِ فارسِ الهيكل أثرٌ حاسمٌ لردّ همّةِ أيّ شرّيرٍ مُحِبٍّ للحرب ميّالٍ للخصام. بل وتكرّم فاقترح أن تبقَى الدرعُ المعلّقةُ حيث هي، طوال الليل، على أن يعود إليها عند الصباح عندما يتهيّأُ الجميعُ لجمع العتادِ وشدّ الرّحال.

ولمّا جلس فارسُ الهيكل ورفيقه حامِل الترس بالقرب من سماط الحرير وشرعا في بسط مؤونتهما –وقد ضمّت تمْراً ولحم ضأنٍ، وخُبزاً وشيئاً غير نقِيّ– إذا بقهقهةٍ تنفلتُ من يوسف فجأةً بعد أن ظلّ يكبتُها وقتاً طويلاً، فرفع الآخرون عيونهم إليه في اندهاشٍ لأنّهم لم يرَوا في الأمر ما يثيرُ الضحك. وفي الحال قطّب الفارسان حاجِبَيْهما ظنّاً منهما ألا شيء أغرقَ يوسفَ في الضحكِ غيرهما.

لم يجد يوسف بُداً من أن يوضّح أن الحماية ليلا إنْ وُجدتْ، وهي آخر ما يتوقّعه في هذه الدنيا، فهي درعٌ وعليها شارةُ العدوّ. ولم يزده ذاك إلاّ يقيناً بما كان يفكّر به دائماً وهو أنّ الربّ بجلاله يحبّ مُداعبة أطفاله أيضاً، ولكلّ واحدٍ كاملُ الحقّ في أنْ يضحك من هذه الدعابة.

ولمّا اكتشف فارسُ الهيكل قطعةَ لحم مقدّد في المؤونة التي أخرجها رفيقُه حامِل الترس أخذ يؤنّبه بقسوة بلغة الإفرنجٍ، وهو يشيرُ بسيفه الطويل الحادّ إلى تلك القطعة التي أغضبته. وفي الحال خجِل حامِلُ الترس وارتبك وأعاد قطعة اللحم إلى مكانها، فيما أخذ فارس الهيكل يلتمس العذرَ وهو يهزُّ كتفيه هزّاً ويقول إنّ ما كان نَجِساً في نظر البعض فهو ليس في نظر الآخرين إلاّ طيّباً.

وأدرك المؤمنون الثلاثةُ أنّ قطعةً من لحم الخنزير قد تسرّبت إلى الغداءِ فصار طعامُهم مدنّساً. وما لبث يوسف أن ذكّرهم على عجلٍ وبصوت خافت بآيات الربّ التي قيلت في حقّ الظروف القاهرة التي لا يجد فيها المرءُ بُدّاً من أنْ يخالف

Twitter: @ketab_n

قومه في القواعد السائدة، وهكذا عادت الأمور إلى مجراها.

بارك يوسفُ الطعامَ بسم الله الرحمن الرحيم، وفعل فارس الهيكل مثلَه باسم المسيح وأمّ الربّ. ولم يُبدِ أيٌّ من الرجال الخمسة أيَّ استهجانٍ من إيمانِ الآخرين.

وعندئذٍ تبادلوا لطفَ الدعوةِ إلى الشروع في الأكل، وأخيراً استجاب فارسُ الهيكل لطلب يوسف فتناول قطعةً من اللحم المغطّى بالخبز المدقوقِ، ثمّ شطَرها شطرين بسكّينٍ حادّة رماديّة اللون لا زخرفة فيها. ثمّ مدّ بحدِّ السيف نصفَ القطعة إلى رفيقه حاملِ الترس الذي حمَلها إلى فمِه في تردّدٍ مكبوت.

ظلّوا بعض الوقت يأكلون في هدوء. لقد قدّم المؤمنون من حيث يجلسون أمام البسطِ ذلك الخروف المغطّى بالخبز المدقوق ومعه رُقاقاتِ الفستق المعجون بالسكّر والعسل. ومن ناحيتهم – وقد أعيد اللحمُ النجس إلى مكانه- لم يبقَ عند الكفّار سوى لحم الضأن الجاف، والتمر والخبز الأبيض الحافّ.

- أريد أن أطلب منك شيئاً، أيّها الفارس، قال يوسف بعد هنيهة.

لقد تحدّث بصوتٍ خافتٍ لكنْ في حزم، وهو ما يعني عند الذين يعرفونه أنّه قد فكّر طويلاً وانتهى إلى نتيجة.

- أنت ضيفُنا، وقد قَبِلْنا دعوتَك، ونأملُ في أنْ تجيب عن أسئلتِك، لكنْ لا تنسَ أنّ إيماننا هو الحقُّ، أجاب فارس هيكل الربّ ولسانُ حالِه يقول إنّه لا يخشى المزاح في الدِّين.

- أنت تعرف بالتأكيد أني لا أشاطرك الرأي، أيها الفارس، لكنْ لِنَعُدْ إلى سؤالنا. لقد أنقذتنا ونحن أعداؤك، وقد سلّمتُ بالأمرِ وشكرتُك لِما فعلت. لكني أريد الآن أن أعرف لماذا فعلت ذلك؟

- لم نُنقذْ أعداءً، أجاب فارسُ هيكل الربّ ببالٍ يعوزه الصفاء. لقد فتّشنا طويلاً عن أولئك اللصوص، وما زلنا نطاردهم من بعيدٍ منذ أسبوعين، في انتظار الوقت المناسب. ونحن نسعى إلى قتلهم وليس إلى إنقاذكم. وإنْ كان الربُّ شاءَ في ذات الوقت أن يمُدَّ يدَه الرحيمة إليكم فلا أنت ولا أنا نعرف السبب.

- لكنْ أنت القوطي حقاً، بذاته! قال يوسف في عناد.

Twitter: @ketab_n

– نعم، صحيح، أنا من يدعوه الكفّارُ في لغتهم بالقوطي. لكنّ اسمي في الحقيقة هو آرن دي غوثيا، ومهمّتي كانت تخليص الأرض من ستّة من سقط الكائنات، وقد فعلت. وهذا كلّ ما في الأمر.

– لكن لماذا؟ أليس جديراً برجلٍ في مقامِك أن يكون أميراً لفرسان هيكل الربّ في ساحةِ غزّة الكبرى؟ فلِمَ تُناط بمثلُك مهمّةٍ شائنة –وخطيرة– كهذه التي تقضي فيها ليلَك في العراء في هذه المناطق التي لا ترحم غريبَها، حتّى تتخلّص من قُطّاع الطرق... قتلاً؟

– لأنّ ذلك هو الذي حفّز مؤسسةَ رهبانيتنا، حتى قبل أن ترى عيناي النورَ بكثير، أجاب فارس هيكل الربّ. فعندما حرّر ذوُونا القبرَ المقدّس لم يكن حُجّاجُنا يملكون أيَّ حمايةٍ أثناء توجّههم إلى الحج على ضفاف نهر الأردن، حيث عَمّد يحيى، كمّا تسمّونه، السيدَ المسيح. وفي تلك الفترة كان الحجّاجُ يحملون معهم كلّ أمتعتِهم فلا يؤمّنون عليها أحداً من ذوينا كما يفعلون الآن. كانوا فريسةً سهلة لقطّاع الطرق، وقد نشأ كهنوتُنا من أجل حمايتهم. وحتى يومنا هذا يشرّفنا القيامُ بهذه المهمّة وقتْل قطّاع الطرق. وتلك، خلافاً لِما تتصوّره، مهمّةٌ عظيمةُ الشأن لا نؤمِّن عليها أيّاً كان، لأنّها عِلّةُ وجود كهنوتنا، ورسالةُ ثقةٍ كما قلت آنفاً. وقد استجاب الربُّ لدعواتنا.

– أنت على حقّ، أقرَّ يوسف متنهّداً. واجبُنا أن نحمي الحجّاج دائماً. والحياةُ سوف تكون أكثر يُسراً في فلسطين لو نذرنا أنفسَنا جميعاً لتلك المهمّة. لكنْ قلْ لي، في أيّ بلادٍ إفرنجية بالضبط توجد تلك التي تسمّيها غوثيا؟

– في الحقيقة ليست بحصرِ المعنى بلاداً إفرنجية، أجاب فارس الهيكل وقد لَمَعَ طرفا عينيه ببريقٍ من الخبث فغيّر فجأة من لهجةِ كلامه المتكلّف. إنّ ما ندعوه غوثيا يقع في أقصى شمال بلاد الإفرنج، عند أقاصي العا لم، بالفعل! إنها بلادٌ يمشي الناسُ فيها فوق المياه نصفَ السنةِ، لأنّ البرد القارس السائد فيها يُجمّد سطح المياه. لكنْ قُل لي من أيّ بلاد أنتَ؟ أراك لا تتحدّث لغة مكّة؟...

– وُلدتُ في بعلبك، لكنّنا أكرادٌ نحن الثلاثة، أجاب يوسف، مندهشاً. هذا

Twitter: @ketab_n

فخرُ أخي، وهذا.. صديقي موسى. كيف ولماذا تعلّمتَ لغةَ المسلمين؟ ففي العادة كلّ من هُم على شاكلتِك لا يمكثون في الأسر طويلاً.. .

– هذا صحيح، فالناس الذين على شاكلتي لم يقعوا في الأسر أبداً، وظنّي أنّك تعرف السبب. ومع ذلك فقد أنفقتُ عشرَ سنواتٍ من عمري في فلسطين. وأنا لم أحْضُرْ إلى هنا لكي أستولي على كلّ ما تقعُ عليه يدايَ وأعود بعد ستّة أشهرٍ من حيث أتيت. ثمّ إنّ معظمَ مَن يعملون لحسابنا، أيّ فرسان هيكل الربّ يتحدّثون العربية. ورفيقي حامِلُ الترس واسمه أرماند دي غاسكونيا حديثُ العهد بهذا المكان، ولذلك فهو لا يفهم الشيءَ الكثير ممّا نقوله. لهذا السبب يُؤْثِرُ الصمت، على خلاف مرافقيك الذين لا يملكون الحقّ في الكلام إلاّ عندما تمنحهم أنتَ هذا الحقّ.

– أراك مصيباً في تقديرِك، غَمْغَمَ يوسفُ في خجل. أنا أكبرُهم سنّاً، فلعلّك تلاحظُ بعضَ شُعيرات الشيبِ في لحيتي، وأنا المسؤول أيضاً عن أموالِ عائلتي. نحنُ تُجّارٌ في طريقنا إلى القاهرة في أمرٍ مُهِمّ، ولستُ أرى ما الذي يمكن لأخي وصديقي أنْ يطلباه من فارسٍ عدوّ. نحن الثلاثة رحالُ سلام وأمان.

تفرّس فيه فارسُ الهيكل بعناية وهدوء، ثمّ أخذ يتلذّذُ بحبّات الفستق المطعّم بالعسل وهو يتفحّص قطعةً من تلك الحلوى في ضوءِ النار المتوهجة، بِعَيْنِ العارفِ الخبير، قائلاً إنّ مثل تلك الحلوى قادمةٌ من حلب لا محالة. ثمّ أمسك بقِرْبَةِ النبيذِ وارتوى منها دون أن يطلب إذناً أو معذرةً، قبل أن يمدّها إلى رفيقه حامِلِ الترس. وأخيراً ارتمى مُسترخياً إلى الوراء، وجذَب إليه رداءه الأبيض بصليبه القرمزي المثيرِ للخوف والفزع، وهو يدقّق النظرَ في يوسف، وكأنّه يحاول أن يقيسَ قدراتِ منافسٍ في لعبة شطرنج، لا يرى فيه شخصاً عدوّاً بل شخصا عاديا خليقا على أيّ حالٍ بأنْ يقدّرَ قيمتَه.

– أيْ صديقي، أو عدوّي المجهول، ماذا يفيد هذا اللفّ والدوران عندما نأكل في سلام، بعد أن نُبرم ميثاقاً يُلزم كلّ واحدٍ منّا؟ ختم في سكينة، ومن دون أن يشوب صوتَه مقدارٌ ضئيلٌ من ضغينة. إنّك مثلي، تعرف الحربَ وشأنها، وإنْ شاء الربُّ سيكون لقاؤنا في ساحةِ المعركة. ملابسُك تُفشي حقيقتَك، وخيولُك تفشي

Twitter: @ketab_n

حقيقتَك، وكذلك زمامُها وسيوفُك المستندة إلى سروجِها.. هناك. فهي أسلحةٌ طُرقت في دمشق ولا يقلُّ سعرُ الواحدِ منها عن مئة دينار ذهبية. فالسلام الذي ننعم به كلانا لن يدوم إلى ما لا نهاية، وسوف تنتهي الهدنةُ بيننا قريباً، وإن كنتَ مازلتَ تجهل ذلك حتى هذه الساعة فسوف تعرفُه قريباً. فَلْنَنْعَمْ إذاً بهذه اللحظات الفريدة. فما أندرَ الفرص التي يعرف فيها العدوُ عدوَّه. فلْنبتعِدْ عن الإفكِ إذاً!

كاد يوسفُ أن يَصْدُق الفارسَ القولَ ويكشف له عن نواياه الحقيقية، لكن كان صحيحاً أنّ الهدنة لن تدوم طويلاً، حتّى إن لم يَبْدُ ذلك على أيِّ ساحةٍ من ساحات الوغى. وأمّا ما التزما به من وَعْدٍ بالسلام —ولذلك لا شيء يمنع من أن يأكلا معاً هذا المساء– فقد لا يستمرّ غداً. فما أشبههما بخرافٍ تأكلُ مع الأسود!

"أنت على حقّ أيّها الفارس، قال يوسف أخيراً، وإن شاء الله سوف نلتقي في المرّة القادمة في إحدى ساحات المعركة. وأنا متّفقٌ معك: علينا أنْ نجدَّ في معرفةِ أعدائنا، ويبدو أنّك قد أَلِفْتَ المؤمنين أكثر ممّا أَلِفْنَا نحن الكافرينَ هنا. لذلك أمنحُ رفاقي الإذنَ في الكلام معك"

ارتمَى يوسف إلى الوراء ولفّ جسمَه بمعطفه وهو يشير لأخيه وللأمير بأن يتكلّما. وتردّدا كلاهما، ظنّاً منهما أنهما سيقضيان السهرةَ في الاستماع إليهما.

ولمّا لم ينبسْ أيٌّ من المؤمنَيْن بكلمة، انحنى فارسُ الهيكل على حامِل الترس وتبادلا بلغة الإفرنج بضعَ جُمَلٍ مقتضبة.

– حاملُ تُرسي يريد أن يعرف أمراً، قال الفارس بعد ذلك موضّحاً: أسلحتُكم وخيولكم وملابسكم أغلى بكثير ممّا يتصوّره أولئك الأشرارُ الملاعين. فما الذي جعلكم إذاً تختارون مثلَ ذلك المسارِ المحفوفِ بالأخطار، غربَ البحر الميت، دون حرسٍ يواكبُكم؟

– لأنّه أسرعُ مسارٍ، ولأنّ الحرسَ يجذبُ الكثيرَ من الانتباه، أجاب يوسف بلا عجلة. ولم يطق أن يشعر بالحرج وهو يكذبُ من جديد فأخذ يزنُ كلماته في عناية، لأنّه لو استعان بالحرسِ لكان جلَب إليه الانتباهَ لا محالة، لأنه لن يقلّ عن ثلاثةِ آلاف خيّالة، حتى يزعم أنّه بات آمناً أو كاد!

Twitter: @ketab_n

- ولأننا نثق في خيولنا فلم يخطرْ لنا أنّ أشراراً بؤساءَ أو إفرنجاً سيَقْدِرُون على اللحاق بنا، أضاف يوسف في غير تأنٍّ.

- هذه فطنة، لكن ليس تماماً، قال فارسُ الهيكل وهو يهزّ رأسه. فهؤلاء الرجال ينهبون هذا المكان منذ شهورٍ ستّة، فهم يعرفون الأرض كما يعرفون بَشَرتَهم، وهم قادرون على أن يسبقوا أيّاً منّا على بعض المسارات. وفي ذلك سرُّ ثرائِهم، وسيظلّ إلى أن تنقضّ عليهم يدُ الربّ.

- أودّ لو أعرف شيئاً، قال فخر وهو يتحدّث لأوّل مرّة، بعد أن تنحنح، وبعد أن تلعثم قليلاً. يقال إنّكم أنتم فرسان هياكل الربّ، تقيمون في الأقصى، ولكم هناك منبرٌ، وهو مكان للعبادة عند المؤمنين، وقد رُويَ لي أيضاً أنّكم ضربتُم ذات يوم واحداً من الإفرنج لأنّه منَع واحداً من ذوينا من أنْ يؤدي صلاته، فهل هذا صحيح؟

أخذ المؤمنون الثلاثة يرقبونه في عناية، ويولون إجابته القدر نفسه من الاهتمام. لكنّ فارس الهيكل تبسّم وبدأ يترجم السؤالَ بلغة الإفرنج لحامِل ترسه الذي تضاحَك مقهقهاً وهو يهزّ رأسَه.

- الأمر صحيحٌ ومؤكّد، بالفعل، قال بعد ذلك، بعد أن فكّر قليلاً أو تظاهر بالتفكير حتى يستحثّ فضولَ مستمعيه. هناك بالفعل منبرٌ في قصرِ سليمان تسمّونه أنتم في لغتكم "الأقصى". فعلى أيّ حالٍ ليس في الأمر أيُّ غرابة البتّة. ففي قلعةِ غزّة نُقيم كلّ يوم خميس -وهو اليوم المتاح الوحيد- مجلساً يأتي الشهودُ خلاله ليُقسِموا بالكتاب المقدّس، أو التوراة، أو القرآن، أو حتّى بنصوصٍ أخرى يحسبُها الناسُ مقدّسة. فلو كنتم التجارَ المصريين الثلاثةَ كما تدّعون لكُنتم عرفتم أنّ كهنوتنا يُقيم مع هذا البلد شؤوناً مهمّة، حتّى إنْ لم يُمارس فيه أحدٌ عقيدتَنا. ولكنتمْ عرفتم أيضاً أنّ مقرّنا العام في الأقصى حيث نستقبل ضيوفاً كُثْراً يطيبُ لنا أنْ نُكرِم ضيافتَهم. لكنْ يُتعِبُنا أننا نستقبل في شهرِ أيلول من كلّ عام سُفُناً قادمةً من بيزا وجَنوة، محمّلة بقادمين جدد، مُفعَمين بهمّة روحية مفرطة، لا همّ لهم سوى قتْل من كان على غيرِ دينهم، والبطش بهم إن عصيَ عليهم الصعودُ في الحال إلى

Twitter: @ketab_n

الجنّة. إنهم مصدرُ همّنا وقلقنا في كلّ مرّة، وفي أعقاب أيلولَ بقليل تنشبُ الحوادثُ في حاراتنا، لأنّ القادمين الجدد يهجمون على بني عقيدتكم. ولذلك لا نجد بُدّاً من أن نُعنّفهم تعنيفاً قاسياً.

– أتقتلون ذويكم بسببِ ذوينا! قال فخر بنفَسٍ قصير.

– نحن لا نذهب إلى هذا الحدّ، ردّ فارس الهيكل وقد ثارت ثائرتُه فجأة. فمِن الكبائر عندنا، مثلما عندكم أن يقتُل أحدُنا أحداً من أتباعِ الدين الحقّ. فالأمر مرفوضٌ إذاً! لكنْ، أضاف بعد صمتٍ قصير، وبعد أن راقَ مزاجُه من جديد، لا شيءَ يمنعنا من أن نُشبعِ هؤلاء الحثالات ضرباً مبرحاً إنْ لم يُجْدِ اللينُ معهم نفعاً. لقد سُررت أنا نفسي في مناسبات عديدة...

ثمّ إذا به ينحني على حامِل الترس ليترجم له ما قاله في الحال، ولم يكد هذا الأخيرُ يهزّ رأسه تأكيداً لصحّةِ ما قاله سيّدُه حتى أخذ الاثنان يتضاحكان ويُمْعِنان في الضحك أحياناً.

وإذا بنسمةٍ من نسمات الغروب تهبّ فجأة مُنحدرةً من الجبال بالقرب من الخليل، حاملةً رائحةَ فرسانِ الهيكل الكريهة نحو المؤمنين، فلم يتمالكوا أنفسهم من الغثيان والنخير.

وفي الحال نهض فارسُ الهيكل الذي لاحظ ذلك الانزعاج، ورأى أن يُغيّر جِهة الجلوس من حول بساطِ الحرير المَوصلي الذي كان الأميرُ موسى يملأ بالقربِ منه فناجين القهوة اليمنية، حتى تطرد الريح الروائح الكريهة. وقَبِل أصحابُ الضيافة الثلاثة هذا الاقتراح بأدب.

– لنا قواعدُنا، قال فارس الهيكل من قبيل المعذرة وهو يأخذ مكانَه الجديد. ولكُم قواعدُكم التي توصيكم بالاغتسال عدداً لا عدّ له من المرّات كلّ يوم. ولنا قواعدُنا التي تحظر علينا ذلك. لكم قواعدكم التي تبيح لكم الصيدَ ولنا قواعدُنا التي تحرم ذلك علينا، على الأقلّ إذا لم تكن الفرائسُ سباعاً– ناهيك عن أننا نشربُ الخمر وأنتم لا تشربونها.

– وأمّا الخمرُ فأمرُها مختلف تماماً، قال يوسف معترِضاً. فهي محرّمةٌ تحريماً قاطعاً

Twitter: @ketab_n

قائماً على ما قاله الله لرسوله صلّى الله عليه وسلّم. لكنّنا مع ذلك لسْنا أعداءً بعضنا لبعض. ثم لا تنسَوا كلامَ الله في السورة السابعة: *"قل من حرّم زينة الله التي أخرجها لعباده والطّيبات من الرزق"* .

– أراك تظنّ أنّ في الكتابِ المقدّس أشياءً كثيرة ومِنْ شتّى الأصناف والألوان! فإنْ كنتَ ترغب في أن أترك هنا كلّ تواضعي عنْ زهوٍ وإعجاب، وأن أطري نَفسي كما يفعلُ رجالُ هذا الزمان فاعلمْ أنّ في وسعي أيضاً أن أجعلَك لا تنظر إليّ كعدوٍّ من أعدائِك! استمعْ فقط إلى هذه الكلمات من كتابكم المقدّس التي نطق بها نبيُّكم –صلّى الله عليه وسلّم– في السورة الواحدة والستين: *"يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين"* ، وفيما يخصّني أستطيبُ كثيراً بالطبع ذلك المقطع الذي يتحدّث عن أصحاب الثياب البيضاء.

عند هذه الكلمات نهضَ موسى في وثْبةٍ واحدة كأنّه يريد أن يمسك بالسيف، لكنّه ما لبث أن توقّف عن تلك الوثبة. ثمّ إذا به يستشيط غضباً ويمدّ ذراعه ويصوّب إصبعَ الاتهام في اتجاه فارس الهيكل.

– إنّك تسبُّ الدين! صاح فيه موسى. أنْ تُتْقِنَ الحديثَ بلغة القرآن شيءٌ وأنْ تُحرّف كلامَ الله شيءٌ آخر! فلو لم يمنحك جلا...لو لم يمنحك صديقي يوسف الكلمة لما نجوت!

– اِجلسْ واهْدأْ يا موسى! أمرَه يوسفُ بصوتٍ جافٍّ ما لبث أن صار ليّناً حين أُصغى الثاني وأطاع. إنّ ما استمعت إليه الآن هو كلامُ الله حقاً على نحو ما جاء في السورة الواحدة والستين. وعليك أن تتأمّله! ثمّ لا تظنّنّ أنّ هؤلاء "الرجال أصحاب الثياب البيضاء" يقصدون ذلك الذي يريد ضيفُنا أن يعنيه!

– لا، لا بالتأكيد! أضاف فارسُ الهيكل على عجَل. هذه العبارةُ صِيغتْ قبل أن يتأسس كهنوتنا بكثير، وليس لطريقةِ ملبسي أيُّ صلة بذلك بتاتاً!

– لكنْ كيف تسنّى لك أن تُحسنَ معرفةَ القرآن هكذا، أردف يوسف اللهجة

Twitter: @ketab_n

الهادئة ذاتها، وكأن ما من كلامٍ مُهينٍ قيلَ، ولا كأنّ نوعيّة ذلك الكلام على وشكِ أنْ تنكشف.

– غَنِمَ مَنْ درَس عدوَّه! وإنْ شئتَ أستطيع أن أساعدَك على فهْم "الكتاب المقدّس" أجاب فارسُ الهيكل حتى يُغيّر مجرى الحديث عن طريقِ المزاح، وكأنّه ندم على ما غامَر به، على ذلك النحو الأرعن، على أرض المؤمنين.

لم يكد يوسفُ يردّ في فتورٍ على تلك الدعوةِ الأقربَ إلى الطيش، التي تدعوه للانصرافِ إلى دراسةِ كتابِ الكفرة حتى قاطعتْه صرخةٌ مروعةٌ طويلة سرعان ما انقلبت إلى ضحكاتِ هُزْءٍ صريرية ردّتْ صداها سفوحُ الجبال المجاورة.

وتسمّر الرجالُ الخمسة وأنصتوا، وأخذ موسى يتلو الدعوات التي يردّدها المؤمنون لطرْدِ أرواح الصحراء الشريرة.

عادت الصرخةُ مرّة أخرى وبدَتْ هذه المرّة وكأنها صادرةٌ عن مختلف أرواح الهاوية، يحاور بعضُها بعضَها الآخر وكأنها اكتشفت نارَ المخيم، هناك في الأسفل، ومن حولها الكائناتُ البشرية الوحيدة المقيمة في تلك الأنحاء.

انحنى فارس الهيكل إلى الأمام وهَمَس بلغة الإفرنج ببضْع كلمات في أُذن حاملِ الترس الذي وافق بهزّ الرأس ثم نهض وتهيأ للحرب. ثمّ لفّ معطفَه حول جسمه وانحنى أمام مضُيفيه الناكثين ثمّ ارتدّ على عقبيه دون أن يقول كلمةً واحدة قبل أن يختفيِ في الظلام.

– أرجو أن تتغاضى عن هذا الفعل المخالف للأدب، قال فارس الهيكل. لكنْ عندنا بضع كمية من اللحم الطازج يجب أن نطمئنّ عليها وعلى الخيول أيضا."

لم يرَ داعياً لأنْ يقدّم مزيداً من الحجج والأعذار، ومدّ يدَه في اتجاه الأمير وهو ينحني أمامه لكيْ يطلب أن يملأ كأسَه بالقهوة اليَمَنية مرّة أخرى، لكنّ يدَ الأمير لم تكن آمنةً وهي تقدّم القهوة.

– لقد أرسلتَ حاملَ الترس في الظلام فأطاعك بلا تردّد؟ قالَ فخرُ في اندهاشٍ بصوت أجشّ.

– أجل، قال فارس الهيكل. إنّنا نُطيع حتى ونحن خائفون. لكن ظنّي أنّ أرماند

Twitter: @ketab_n

ليس خوّافاً. ثمّ إنّ الظلامَ مُواتٍ أكثرَ لِمَنْ كان يحمل معطفاً أسود، فالأسود خيرٌ له من الأبيض، ثمّ إنّ سيفَه مشحوذٌ شحذاً، ويده واثقة، وأمّا الكلاب الوحشية ذات الشعر الأرقش التي نسمع نباحَها المروعَ معروفة بجُبنها، أليس كذلك؟

– لكنْ هل أنت متأكدٌ من أنها كلابٌ متوحشة تلك التي سمعنا نباحَها؟ قال فخر في استغراب.

– لا، أجاب فارس الهيكل. ما أكثرَ الأشياء التي لا عِلْمَ لنا بها، هنا في هذه الدنيا، ولا أحد يملك اليقين بأيّ شيء بتاتاً. لكنّ الربّ يرعانا ولن ينقصنا شيءٌ حتى في عتمةِ وادي الموت هذا. ظنّي أنّ أرماند يصلّي للربّ وهو يسيرُ الآن في الديجور. فذاك على الأقلّ ما كنتُ سأفعله لو كنتُ مكانَه. لقد حدّد الربُّ أجَلَنا من قبلُ ويريد أن يتوفّانا، وبالطبع لا نملك للأمرِ حولاً ولا حيلة، لكنْ إلى أن يحينَ ذلك الأجلُ سوف نَفْلِقُ رؤوسَ الكلاب المتوحشة، ورؤوس أعدائنا أيضاً. وظنّي أنّكم حول هذه النقطة، أنتم يا من تؤمنون بالرسول –صلّى الله عليه وسلّم– وتُنكرون ألوهية ابن الربّ، تشاطروننا هذا الرأي، فهل أنا في ذلك مخطئ يا يوسف؟

– أنت على حقّ أيها الفارس، أقرّ يوسف، لكن في هذه الحال أين الحدّ الفاصل ما بين العقل والإيمان، ومابين الخوف والثقة في الله؟ فإذا لم يجدِ المرءُ بُدّاً من أنْ يُطيع، مثلما يُطيعك حامِلُ الترس في هذه الأثناء فهل سيجعل هذا خوفَه أخفَّ وطأة؟

– عندما كنتُ شاباً، حتى إنْ لم أصِر بعدُ كبيراً، قال فارس الهيكل وقد بدا وكأنه غرق في التأمل واستغرق فيه، لم يكن هذا النوعُ من السؤالِ يُشغل بالي كثيراً. فالسؤالُ مفيدٌ جداً للعقل، فهو يُلَيِّنُ الفكرَ الذي يجعل الرأس يفكّر ويخمّن. لكنّي أخشى أن أكون اليوم أقلّ استعداداً لممارسة مثل هذا النشاط. إنّنا نُطيع ونتغلّب على الشرّ، وبعد ذلك نشكرُ الربّ، وهذا كلّ ما في الأمر.

– لكنْ ماذا لو لم نتغلّبْ على عدوّنا؟ سأل يوسف بصوتٍ ناعمٍ لم يعهده منه أصدقاؤه المقرّبون.

– عندئذٍ سنموت. أقول هذا عن نفسي وعن أرماند على الأقلّ، أجاب فارس

Twitter: @ketab_n

الهيكل. وعند القيامة سوف نُحَاسَبُ أنت وأنا. أمّا المكانُ الذي سوف تذهب إليه فلن أذكره حتى وإنْ كنتُ أعرف المكان الذي تفكّر فيه أنت. لكنْ فيما يخصّني سوف أموت في فلسطين، وسأحظى بمنزلتي في الجنّة.

– أأنت على يقينٍ من ذلك حقاً؟ أضاف يوسف بصوت ألحّ في نعومتِه على غير عادته.

– نعم، أعتقد بذلك، أجاب الفارس.

– لكنْ قُل لي: هل هذا الوعد مكتوبٌ حقاً في كتابِك المقدّس؟

– لا، ليس بهذه الصورة. لم يرد الوعدُ هكذا.

– مع ذلك فأنتَ على يقين مما تقول.

– أجل، القدّيسُ الأبُ في روما، لقد وعَدَ...

– لكنّه ليس إلاّ عبداً من العباد. فأيُّ عَبْدٍ يستطيع أن يعِدك بمنزلةٍ في الجنّة، أيّها الفارس؟

– ومحمدٌ لم يكن سوى عبدٍ أيضاً. وأنت تؤمن حقاً بوعوده، عفواً –صلّى الله عليه وسلّم–.

–كان محمّدُ عليه السلام رسول الله، وقد قال الله: *"الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ"* . وبعد ذلك بقليل...

لكن فارس الهيكل قاطعه قائلاً: "وفي الآية التالية في السورة التاسعة، قال الله: *"يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ"* . أليس خليقاً بنا أنْ يفهم كلٌّ منّا الآخر؟ لا شيءَ من هذا خفيٌّ عنكَ، يا يوسف. وفضلاً عن ذلك فإنّ الفرق بيني وبينك أنني لا أملكُ شيئاً، وقد وضعتُ نفسي بين يدَي الربّ، وعندما يشاءُ سوف أموت في سبيله. لكنّ إيمانَك أنت ليس فيه ما يخالف ما أقوله في هذا الشأن.

– معرفتُك لكلام الله عظيمةٌ حقاً، أيّها الفارس، أقرَّ يوسفُ، رغم سروره بالفخّ الذي أوقَع فيه فارسَ الهيكل، ورِضاه الذي قرأ رفاقُه سيماهُ على وجهه.

Twitter: @ketab_n

- فكما سبق لي أنْ قلتُ يجب أن يعرف العدوُّ عدوَّه، أردف فارس الهيكل متحدثاً هذه المرّة بقدرٍ أقلّ من الثقة، وكأنه أدرك من جانبِه أنّ يوسف قد أفحمه.

- لكنّ مَن يتحدّث على هذا النحو لا يمكن أن يكون عدوّي، أجاب يوسف. إنّك تستشهدُ بالقرآن وهو كلام الربّ. إنّ ما تقوله يَسري عليّ إذن ولا يسري عليك بعدُ. فكلّ هذا واضحٌ عند المؤمنين وضوحَ البداهةِ، لكنْ هل هو كذلك عندك؟ فأنا في الحقيقة أبعدُ عن معرفة اليسوع بُعدكَ أنتَ عن معرفة الرسول عليه السلام. لكنْ ما الذي قاله يسوعُ في الحرب المقدّسة؟ أقالَ يوماً أنّكَ ستذهب إلى الجنة إنْ قتلتَني؟

- دعْنا من النّقاشِ في هذا الموضوع، قال فارسُ الهيكل بحركةٍ واسعة من يدِه، وكأنّ كلّ هذا الحديثَ لم يكنْ سوى خلافٍ عادي، على الرغم ممّا بدا عليه من ضيقٍ وانزعاج. عقيدتُنا غيرُ عقيدتك، حتى وإن تشابهت أشياءٌ كثيرةٌ في هذه وتلك. يبقَى أنّ واجبَنا أنْ نعيش معاً في هذه البلاد، لا نتحاربُ إلاّ في الضرّاء، نُبْرِمُ المعاهدات ونُقيم الصفقات في السرّاء. نتحدّثُ إذن في أمرٍ آخر. هذه رغبتي، أنا الضيفُ عندك.

لقد فهم الجميعُ الآن أنّ يوسف قد أفحَم خصمَه الذي لم يعد يملِك إلا الدفاع عن نفسه. من البداهة أنّ اليسوع لم يقُل يوماً أنّ الربّ يَرضَى بِقتل عرب الشرق، لكنّ فارس الهيكل عرف في اللحظة الحاسمة كيف يخرجُ من تلك الورطة، عندما ذَكر قواعد المؤمنين غير المكتوبة في باب كرم الضيافة. ثمّ لم يكن في الوسع ألا يَحظَى وهو الضيفُ، بحسنِ الرضا والظنِّ!

- إنكَ تعرف عدوّك في الحقيقة حقّ المعرفة، أيّها الفارس، قال يوسف ولهجتُه ومحيّاهُ يُوحِيان بأنّه صار جسوراً جداً بعد انتصاره في هذا الجدال.

- يجب أن يعرف العدوُّ عدوَّه، وهذا ما لم نختلف فيه، أجاب فارسُ الهيكل بصوت خافتٍ وهو يُلقي نظرَه إلى الأرض.

صمَتَ الرجلان بعض الوقت وغاصت عيناهُما في فنجان "الموكا" بعد أن بدا من الصعب الخوضُ في الحديث من جديدٍ على نحو ما كان بعد الانتصار الذي

Twitter: @ketab_n

هُيِّئَ ليوسف على خصمه. لكنّ ذلك الصمتَ سرعان ما مزّقته أصواتُ البهائم البريّة، فما لبث الرجلان أن عرَفا أنّ الصوت هذه المرّة صوتُ حيواناتٍ وليس صوت كائناتٍ جهنّمية. وقد خُيّل إليهما كأنْ تلك الحيوانات تهاجم كائناً بشرياً أو تنقضُّ على شيء من الأشياء، ثمّ إذا بها وكأنها تطلِقُ الريحَ لساقَيها وهي تصرخ ألماً وموتاً.

- ألم أقل لك إنّ سيفَ أرماند مشحوذٌ شحذاً، هَمْهَمَ فارسُ الهيكل.

- لماذا حرصتم على نقْل هذه الجثامين؟ سأل فخر متحدثاً بالنيابة عن إخوته في الدين.

- بالطبع كنّا نفضّل الإمساكَ بهم أحياءً. فلو كانوا أحياءً لَما نشروا رائحتهم الكريهة على طريق عودتنا، ولكانوا ساروا راكبين خيولهم مثلنا. فاليومُ القادم سيكون حاراً جدّاً، ولذا علينا أن نرفع المخيم باكراً حتى ننقلهم إلى القدس قبل أن تفوح رائحتُهم النتنة، أجاب فارس الهيكل.

- لكن لو كنتم أمسكتم بهم أحياءً وجئتم بهم إلى القدس فأيّ مصيرٍ كانوا سيلقَون؟ سأل فخر في إلحاح.

- لكُنّا سلّمناهم لأميرنا في القدس. أميرُنا الذي يشغلُ مرتبةً مرموقة في سلّم كهنوتنا. ولكان الأميرُ سلّمهم بدوره إلى سلطة الكاهن الديني فيُجرّدهم من كلّ شيءٍ إلاّ ممّا يخدش حياءَ الناس. ولكان تمّ شنقهُم في أعلى سُور الصخرة. أجاب فارس الهيكل وكأنه يتحدث عن أكثرِ أمور الدنيا بداهةً وجلاءً.

- لكنكم قتلتموهم. فلِمَ لا تجرّدوهم من أشيائهم هنا وتُسلّمونهم لِما يستحقّونه من سوء المصير؟ ولماذا تذهبون إلى حدّ الدفاع عن جثامينهم ضدّ البهائم البريّة؟ سأل فخرُ ثانية في عَنَدٍ وإصرار وكأن الفهم استعْصي على عقلِه أو كأنّه رغب في أن لا يُسلّم بالأمر الواقع.

- كنا سنشنقُهم هناك على أيّ حال، أجاب فارسُ الهيكل. يجب أن يعرف كلّ شخص أنّ أيّاً كان من يهاجم الحجّاج سوف يُشْنَقُ شنْقاً لا خلاص منه. فذاك نَذْرٌ ربّاني مهيب، وبِعون الربّ سوف نلبّيه.

Twitter: @ketab_n

– وماذا تفعلون بأسلحتهم وملابسهم؟ سأل الأميرُ موسى بلهجة تلَمّحُ إلى رغبتِه في نقْل الحديث إلى مسارٍ آخر أكثر دنيويةً. لا شكّ أنّهم يحملون أشياء ثمينة؟

– نعم، ولكنّه نتيجة سرقةٍ ونهب، أجاب فارس الهيكل وهو يستعيد جزءاً من طمأنينته. لا صلة للأمر بسلاحهم وعُدّتهم. لا حاجة لنا بكلّ ذلك. لقد نصبنا أنا وأرماند خيمتنا بالقرب من المغارة التي يجمعون فيها نُهَبَهُم. ناهيك عن أنّ هذه البهائم المتوحّشة ما انفكّت تنهبُ البلادَ منذ ستّة أشهر. غداً إذاً سيكون حِملُنا ثقيلاً ونحن على طريق العودة.

– ظننتُ أنّكم لا تملكون شيئاً، ردّ يوسف بصوت ناعم لا يخلو من سُخْرٍ وهو يهزُّ حاجبيه وكأنّه ظنّ أنّه قد كسب من جديدٍ مناظرةً فكّرية ضدّ رجلٍ يوحي مظهرُه بأنّه لو تبارزا بالسلاح لهزمَه كما يهزم طفلاً.

– حقاً لا يسعني أن أمتلك شيئاً! صاح فارسُ الهيكل، مندهشاً. وإذا كنتَ تفكّر بأننا سنحتفظ بما عثرنا عليه في المغارة فأنت مخطئ فيما ظننتَ، خطأً كبيراً. سوف نضع ذلك أمام القبْرِ المقدّس، يوم الأحد القادم، وإن وسِع أصحابَ هذه المنافع أن يعثروا عليها فسوف يستردّونها.

– لكنّ معظم الذين سُرقتْ منهم هذه المنافعُ صاروا بلا شكٍّ في عداد الأموات، قال يوسف معترضاً بصوت هادئ مرّة أخرى.

– ليس مستبعداً أن يكون ورثتُهم على قيد الحياة حتى هذه اللحظة. لكنّ ما لم يُطالِب به أحدٌ سيعود إلى كهنوتنا لا محالة، أجاب فارس الهيكل.

– وهذا يفسّر ذلك الذي قصدتُه، وهو أنّكم ترفضون دائماً أن تجرّدوا الجثامين في ساحة المعركة، قال يوسف بابتسامةٍ توحي بأنّه قد حقّقَ نصراً في مناظرة شفهيّة.

– صحيحٌ أننا لا نَعْمَدُ إلى السلبِ والنهب في ساحات المعركة، أجاب فارسُ الهيكل بفتور وهدوء، لكنّ الأمر ليس مُهمّاً إطلاقاً، إذْ ما أكثرَ الأفراد الذين يستسلمون للنهب والسّلب فلا يقاومون. ونحن كلّما حقّقنا نصراً توجّهنا للربّ حالاً! وإنْ شئتَ أستطيع أن أذكّرك بما قاله القرآن في تجريد الجثامين من المنافع.

– لا، شكراً! قاطعه يوسف وهو يرفَع يدَه من قبيل التحذير، أُحبّذُ ألاّ نعود إلى

Twitter: @ketab_n

موضوع النقاش هذا، لأنّ في الأمر ما يبرّرُ الاعتقادَ بأنك، أنت الكافرُ تعرف أكثر مما نعرفه نحن حول أقوالِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم. لكنّني في المقابل أحبّ أن أطرح عليك سؤالاً صريحاً.

- قُلْ سؤالك وسوف يأتيكَ الردُّ بالصراحة ذاتها، قال فارسُ الهيكل وهو يدير راحةَ يديْه نحو السماء حتّى يبيّن، كما يفعل المؤمنون، أنّه يوافقُ عن طيبِ خاطرٍ على تغيير موضوع المناقشة.

- لقد قلت إنّ الهدنةَ بيننا سوف ينتهي أجلُها قريباً. هل أراك تقصد "الأمير أرناط" Brins Arnat، وأنت تقول هذا؟

- أراك على خيْرِ اطّلاع بالأمر يا يوسف. إنّ مَن تسمّيه أنت "الأمير أرناط" وندعوه نحن رينو دي شاتيون -وهو في الحقيقة ليس أميراً، بل مجرّد رجلٍ سيّئ وجد نفسَه، وا أسفاه، حليفاً لِفرسان هيكل الربّ- وقد عاد لِلُصوصيّته من جديد. إنّي أمقتُه وأحزن لتصرّفاته. ولستُ أرغب في أن أكون حليفَه، لكنّي أطيع الأوامر. وهو على أيّ حال ليس عنصراً أساسياً.

- أليس لهذا أي صلة مع "الأمير" الجديد، القادم من بلاد الإفرنج، يرافقهُ جيشٌ عظيم؟ بالله ذكّرني باسمه؟ أليس ابن أيّ شيء؟

- لا، قال فارسُ الهيكل مبتسماً. إنّه حقاً ابنُ أحدِهم، لكنّه يُدعَى فيليب دي فلاندر، وهو دوقٌ، وصحيح أنّه وصل على رأس جيش عظيم. لكنْ لابدّ من أن أُحذّرك: لا تحاولْ أن تتحدّث في هذا الأمرِ بعد الآن.

- لماذا؟ سأل يوسف في لهجةٍ بريئة. ألم تعطني عهداً؟ هل حدثَ وأنْ نكثتُ العهد يوماً؟

- هذا أمرٌ أقسمتُ بأنْ أفيَ به ولن يسعني أن أفيَ به قبل عشر سنوات، إن شاء الربّ. ولكنّني لم أخلف الوعد يوماً، وبعونِ الربّ فلن أنكث الوعد أبداً.

- إذن لماذا سنضطرّ لقطْع الهدنة بيننا بسبب وصولِ ابن أحدِهم؟ ففي كلّ يومٍ يمرّ أناسٌ كثيرون من هنا؟

دقّق فارسُ الهيكل النظرَ في يوسف طويلاً، لكنّ يوسف لم يحوّل نظرَه عنه

Twitter: @ketab_n

وكأن هذا وذاك أصرّا على ألاّ يستسلم أحدُهما للآخر، وقد ظلاّ على هذه الحال بعض الوقت.

- أراك تريد أن تحتفظ بِسرّ هُويتك، قال فارسُ الهيكل في النهاية، دون أن يُحوّل عينيه عن عينيه، لكنّ قليلاً من الرجال يعرفون قدْر ما تعرفه أنت عمّا يحدثُ في الحروب، لا سيّما مَن يدّعي منهم تعاطِي التجارة وهم عائدون إلى القاهرة. فإن قلتَ المزيد فلن أتظاهرَ بأنّي لا أعرف مَنْ أنتَ حقاً: رجلٌ له جواسيسُه، رجلٌ يعرف كلّ شيء، وليس كمثله من الرجال إلاّ قليل.

- ولكَ منّي الوعدُ أيضاً، أيّها الفارس، لا تنسَ هذا!

- ثقْ أنّ بين كلّ الكفّار يظلُّ وعدُك بلا شكّ، هو الوعدُ الذي يثق فيه معظَمُنا أكثر!

- إنك تمنحني عظيمَ الشرف وأنت تقول هذا، والحالةُ هي هذه لماذا ستُقطَع الهدنةُ بيننا؟

- إذا كنت ترغبُ في مواصلة هذا النقاشِ يا يوسف، دَعْني أطلبُ منك أن تأمر رجالَك بالابتعاد قليلا.

فكّر يوسف هنيهةً وهو يشدُّ على لحيتِه، مستغرقاً في أفكارِه. فلو كان فارسُ الهيكل عرف حقاً ذلك الذي يخاطبُه لكان على الأرجحِ رغِب في أن يُؤْتَى القدرة على أن يقتُل وينكث العهد معاً. لا! إنّ ذلك ليس معقولاً! فالكيفيّة التي تصرّف بها هذا الرجلُ عندما انتصرَ وقبَض على أرواحٍ عديدة، قبل قليل أثناء ذلك اليوم، لَتَنبئُ بأنّه لم يكن بحاجةٍ بتاتاً إلى ما يُسهِّلُ علَيه مهمّتَه، إذ كان بالإمكان أن يستلّ سيفَه قبل ذلك بكثير.

ومع ذلك فلم يكن من السهل أنْ يفهم تلك الأمنيةَ الغريبة، وإنْ كان يعلم أنّها لو تحقّقت حقاً فلا طائِل من ورائها إطلاقاً. لكنّ فضولَ يوسف ما لبث أن تغلّب في النهاية على فطنتِه وحذره.

- اتركانا الآن وحدنا، قال بلهجةٍ حازمة. اذهبا وناما بعيداً عن هذا المكان. وغداً صباحاً عليكما بترتيبِ المكان. لا تنسيا أننا في فَلاة، واذكرا القواعد الجارية

Twitter: @ketab_n

في هذه الحال.

تردّد فخرُ والأمير موسى، ثمّ تأهبا للوقوفِ ولم يقِفا، وهُما ينظُران إلى يوسف، لكنّ نظرةً شزراءَ من هذا الأخير أجبرتهما على الانصياع، فانحنَيا أمام فارسِ الهيكل ثمّ انسحبا. وظلّ يوسفُ ينتظر في هدوءٍ إلى أن يبتعد أخوه وأفضلُ حرّاسِه مسافةً كافية. ولم يكد يحسّ أنّهما يُعدّان مضجعيهما حتّى بدأ:

– ظنّي أنّ أخي وموسى لن يظفرا بالنوم بسهولة، قال يوسف.

– لا، أجاب فارس الهيكل. لكنّهما على أيّ حالٍ لن يسمعا ما سوف نقوله.

– لماذا من المهمّ جداً ألاّ يسمعا ما سنقوله؟

– لا، ليس الأمُر مُهمّاً، قال فارس الهيكل، مبتسِماً. فالمهم أنْ تعرف أنت أنّهما لا يسمعان ما نقوله. فهكذا لن تراودك الحاجةُ لكي تنتصر عليَّ قَوْلاً، وهكذا سيكون نقاشُنا أكثرَ صراحة، وهذا كلّ ما في الأمر!

– أراك وأنت الرجلُ الذي يعيش في دير، تعرف الكثير عن طبيعة البشر.

– في الدير نتعلّم الكثيرَ عن طبيعة البشر. إنّنا نتعلّم أكثرَ بكثير ممّا تعتقد وتتصوّر. لكنْ دعنا نعود إلى ما هو أهمّ. فلَن أقول شيئاً ممّا لستُ على يقين منه، وعرفتَه أنت من قبلُ، لأن كلّ تصرفٍ آخر سيكون خيانةً منّي. فلنتأمل معاً الوضع إذاً. إنّكَ تعلم أنّ أميراً إفرنجياً قد وصل قبل حين، وسيمكثُ هنا بعض الوقت. وقد باركه الجميعُ في البلاد، جزاءً للمهمّة المقدّسة التي قبِل بها، خدمةً للربّ. وهو على رأس جيشٍ عظيم، لكنْ ما الذي يرغب في فعلِه حقاً؟

– أن يحقّق ثراءً سريعاً، طالما أنّ عليه نفقاتٌ باهظة.

– بالفعل يا يوسف، بالفعل. لكنْ هل يرغب في السير نحو صلاح الدين بعينِه، ونحو دمشق؟

– لا، لأنه قد يخسر كلّ شيء؟

– بالفعل يا يوسف، إنّك تفهمني وأفهمُك جيداً، ونستطيع أن نتحدّث دون مجاملةٍ مفرطة، ودون مراوغة، ما دام خادماك لا يسمعاننا. إلى أين سيذهب بجيشِه إذاً هذا السلاّبُ النهّابُ الجديد؟

Twitter: @ketab_n

- نحو مدينة لا هي غنيةٌ جداً ولا قويّة جداً، لكني لا أعرف أيّ مدينة تحديداً.

- بالفعل، وأنا مثلك لا أعرفها. أهي حمص؟ أهي حماة؟ ربما. أهي حلب؟ لا، إنّها بعيدةٌ جداً، ثمّ إن المدينةَ محميّةٌ بما فيه الكفاية. إذاً هي حمص أو حماة، فهذا هو الأرجح. ولكنْ ما الذي إذاً سيفعله ملكُنا المسيحي، والجيشُ الملكي، في القدس؟

- ليس أمامهم أيُّ خيار. سيذهبون لينهبوا هُم أيضاً، حتّى وإن كانوا يفضّلون استعمالَ تعزيزاتهم ضدّ صلاح الدين.

- بالفعل يا يوسف. إنّك تعرف كلّ شيء، وتفهم كلّ شيء. وهكذا كلانا على درايةٍ بالصورة التي يبدو عليها الوضع، فماذا عسانا نفعل؟

- بدايةً علينا الوفاءُ بالوعد، أنت وأنا.

- بالطبع، ما الذي ينتظرنا فعلُه غير هذا!

- نستفيد أوّلاً من لحظةِ السلام بيننا، لكي يفهم كلّ منّا الآخرَ أكثر فأكثر. فقد لا أحد بعد اليوم فرصةً للحديث إلى فارسٍ من فرسان هيكل الربّ. ولعلّك لن تجِد فرصةً أنت أيضاً للحديث إلى.. عدوّ مثلي.

- لا، سيكون هذا بلا شكّ، لقاءَنا الوحيد على هذه الأرض.

- يا له من هوىً ربّاني غريب. لكنْ دعني أسألك أيّها الفارس، ما الذي نحتاجه نحن المؤمنين، غير حاجتنا إلى الربّ، حتّى ننتصر عليكم؟

- إنّهما شيئان اثنان. فمن ناحيةٍ ما يقوم بعمله صلاح الدين الآن، وهو توحيد كلّ عرب الشرق ضدّنا. ومن ناحية ثانيةٍ خيانةٌ بين صفوفنا، في حق المسيح. غَدْرٌ أو خطايا كبرى يشاءُ الربّ أن يُعاقبنا عليها.

- لكنْ، وإن غابتْ الخيانة أو الكبائر؟

- في هذه الحال فلا أحد منّا سينتصر على الآخر، يا يوسف. إنّ الفرق بيننا أنّكم أنتم عربُ الشرق قد تخسرون المعركة تلو المعركة. وإن خسرتم بَكَيْتُم أمواتَكم، ثم لا تتأخرّون في إعداد جيوش جديدة. أمّا نحن المسيحيين فلا نملك أن نخسر سوى معركة كبرى واحدة، وليس ذلك لغباء أو بلاهة فينا. فإذا كنّا أكثرَ عدداً هاجمنا، وإن كنّا أقلّ عدداً لجأنا إلى قلاعنا الحصينة. وقد تدوم هذه الحال طويلاً.

Twitter: @ketab_n

- الحربُ بيننا حربٌ أبديةٌ إذاً؟

- ربما، ولكنْ قد لا تكون كذلك أيضاً. فالبعضُ منّا...هل تعرفُ من هو ريموند كونت طرابلس؟

- نعم، لقد...سمعتُ عنه. فما الأمر؟

- فإنْ قُيِّض لمسيحيين من طينتِه أنْ يستولوا على الحكم في مملكة القدس، وإنْ جاء مِن جانبكم قادةٌ من أمثال صلاح الدين فسوف يعمّ السلام. سلامٌ عادل. حالٌ أفضلُ على أيّ حالٍ من حرب دائمة. إنّ بيننا الكثيرَ من فرسان هيكل الربّ الذين يفكّرون كما يفكر ريموند. لكنْ لِنَعُدْ إلى ما يُشغلنا، وإلى ما سوف يحدث. لقد رافق فرسانُ الاسبتارية الجيشَ الملكي إلى سوريا، ورافقه ذلك الذي تصفه بـ"الأمير". أمّا نحن فرسان هيكل الربّ فقد امْتَنَعْنا عن مرافقة الجيش والأمير.

- أعرف ذلك.

- أجل، تعرف ذلك ولا شكّ عندي في ذلك، ما دام اسمك، الملتصق بك، هو يوسف ابن أيوب صلاح الدين، أيّ صلاح الدين في لغتنا نحن.

- رحماك يا ربّ، ما دمت تعرف.

- لقد أحاطنا الربّ برحمتِه حقاً، لأنه أتاح لنا هذا الحديثَ خلال هذه الساعات الأخيرة من الهدنة بيننَا.

- وسوف يفِي كلانا بالعهدِ الذي بيننا.

- يدهشني كثيراً أنْ أراك كثيرَ الهمّ في هذا الشأن. فأنت وحدك من بين كلّ أعدائي مَنْ يعرفُ إيفاءَه بالعهد؟ أنا فارسٌ من فرسان هيكل الربّ، ونحنُ أيضاً لا ننكثُ العهد أبداً. كفانا خوضاً في هذا الأمر!

- نعم، كفانا حديثاً في هذا الأمر، لكنْ الآن، يا عدوّي العزيز، في هذه الساعة المتأخرّة من الليل، وقبل فجر يومٍ جديد، ثقيلٍ عليك وعليّ، ثقيلٍ عليك بجثامينك العفِنة، وثقيلٍ عليّ بأمْرٍ آخر لا يسعني الحديثُ فيه ولا تشكّ فيه أنت بالتأكيد، ما الذي سنفعله بعد حين؟

- لنغتنِمْ هذه الفسحة الفريدة ونتحدّث حديثاً عاقلاً مع ألدِّ أعدائنِا. هناك

Twitter: @ketab_n

أمرٌ نحن متفقان فيه يا يوسف.. معذرة منّي لرفع الكلفة بيني وبين من هو سلطانٌ على القاهرة ودمشق.

- لا أحد يسمعنا غير الربّ، ما دمتَ تحلّيتَ بقدرٍ كبير من الفطنة لكي تهيّئ المقامَ على هذا النحو. أتمنى أن تستمرّ في مخاطبتي باسمي، في هذه الليلة الفريدة.

-كنتُ أقول إذاً إننا متفقان حول نقطةٍ واضحة: لأن ما مِنْ أحدٍ في المعسكرين قادرٌ على أنْ يُرجّح الكفّة لصالحه، ولذلك نظلّ في حالةِ حربٍ دائمة.

- هذا رأيٌ سديد. لكنّني أريد أن أنتصر. لقد أقسمتُ بأنني سوف أنتصر!

- وأنا مثلك. إذاً: إنها الحرب الدائمة!

- ليست هذه الحرب مَطمحاً مُغرياً.

- في هذه الحال فلنواصِلْ الحديث، حتى إن كنتُ لستُ سوى أمير بين فرسان هيكل الربّ، وأن تكون أنت وحدَك، منذ زمنٍ طويل، مِن بين كلّ أعدائِنا، مَنْ يجب أن نخشاه حقاً. تُرى فمِنْ أين نستأنف حديثنا؟

واختارا الحديثَ عن أمْن الحجّاج. كان ذلك هو السؤالُ الأكثر وجاهة. كان ذلك هو السببُ الذي جعلهما يلتقيان، إن رفضنا أن نرى مشيئَة الربّ في كلّ شيء وفتّشنا عن تفسيرٍ يقف عند مراتب الإنسان. فحتّى وإن كانا كلاهما يميلان إلى القول – على الأقلّ عندما يتحدّثان من دون تمويه- إن إرادةَ الربّ هي التي تحرّك الأشياءَ كلّها في هذه الدنيا فلا هذا ولا ذاك يُنكران بأنّ البشرَ قد وُهبوا حريّةَ الاختيار التي تمنحهم القدرةَ على القيام بأكبر الآثامَ في حقّ البشر، وعلى إسعادِهم كلّ السعادة أيضاً. كان ذلك حجَرَ الزاوية في إيمان كلّ منهما.

تحاوَرا طويلاً في تلك الليلة. وعندما وجد فخرُ عند الصباح الباكرِ أخاه البكر –أمير النور، ونجم الدين، وقائد المؤمنين في الحرب المقدّسة، وذلك الرجل الذي يَتعنّتُ الكفارُ دائماً في تسميتِه باسم صلاح الدين- نائماً مُلتوياً حول نفسِه، ومعطفُه ملفوفٌ من حولِه لفّاً، وعيناه عالقتان بجمرِ نارٍ خامدة.

اختفَت الدرعُ البيضاء بصليبيها القرمزي، واختفَى معها صاحبُها أيضاً. وفي أناةٍ رفع صلاحُ الدين عينيه نحو أخيه كأنه يستفيقُ من حُلم أو يكاد.

Twitter: @ketab_n

– لو كان كلّ أعدائنا مثل القوطي لما وسِعنا قهرُهم بتاتاً، قال متأمّلاً. لكنْ من ناحيةٍ أخرى، لو كان كلّ أعدائنا مثله فلن يكون بنا لِقهرهم أيُّ حاجة.

لم يعِ فخرُ ما نطق به أخوه الأميرُ، لكنّه ظنّ أنّ تلك الأقوال عاريةٌ حتماً من الدلالة، لأن الذي أوحي بها إليه تعبٌ مُضْنٍ، كما الحالُ دائماً، كلّما أطال السهرَ متأملاً متبصّراً.

– علينا الرحيل حالاً، فالطريقُ إلى العريش طويلٌ جداً، قال صلاحُ الدين وهو ينهض في جُهدٍ وعناء. إنّ الحربَ تنتظرنا، وقريباً سيكون النصرُ حليفَنا. حقاً كانت الحربُ في انتظارهما، فأمرُها مكتوبٌ، لكنّ المكتوبَ أيضاً أنّ صلاح الدين وآرن ماغنوسون دي غوثيا سيلتقيان من جديدٍ على ساحة المعركة، وأنّ واحداً منهما فقط هو مَن سيخرج منها منتصراً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

في عيون العالَم التي كانت القدسُ مركزَها، كانت روما نفسُها نائيةً أيّما نأْي، وأَنْأى منها كانت مملكةُ الإفرنج أيضاً. وحيث كان العالمُ يتناهَى في ذلك الشمال القرّ المدْلهمّ كانت فاسترا غوتالاند التي لم يكن يَشتبه بوجودها سوى القليلِ من الناس. لقد كان رجالُ المعرفة والتنقيب يروون عن طيبِ خاطرٍ أنّ ما وراء تلك الأصقاع لم يبقَ سوى غاباتٍ مظلمة تتوطّنُها الوحوشُ ذات الرأسين، وتمتدُّ إلى أقصَى المعمورة.

ومع ذلك، كان الإيمانُ الحقُّ قد شقّ لنفسه طريقاً حتى تلك الأراضي التي اجتمَع فيها البردُ والليلُ واختلَطا، لا سيما بفضل سانت برنار الذي كان من فرْطِ حُبّه للإنسانية ورحمتِه الواسعة يقدّرُ أنّ لِهَمج تلك الأصقاع الحقَّ في أن تنْعَم أرواحُهم بالخلاص. فهو الذي أرسل الرهبانَ الأوائلَ إلى تلك الأراضي القوطية المتوحّشة التي لا يعرِف العالمُ من أمرِها شيئاً. وبالألَقِ المنبعثِ من نحو عشرةِ أديرةٍ ما لبِث النورُ والحقيقةُ أنِ انتشَرا بين أولئك القومِ الشماليين الذين نَجَوا بفضل ذلك النورِ وتلك الحقيقةِ من حالِ العزلةِ التي لم يكن لهم فيها حولٌ ولا قوّة.

كان من أبْهى تلك المنشآتِ جميعاً ذلك الديرُ الكائنُ في الجزءِ الجنوبي من فاسترا غوتالاند، الذي استقرّ اسمُه على غودِيم، وكُرِّس مقامُه لمريم العذراء. كان يقع على تلّةٍ يُطلّ الناظرُ منها على قمّةِ بلينحين المائلة إلى الزّرقة، ويرى منها حين يُنقِّب في الآفاقِ بُرْجَيْ قلعةِ سكالا، الشامخَيْن.

Twitter: @ketab_n

وكان أنْ استأثَر اسمُ غودِم بخَلَدِ إحدى النساءِ المُسِنّات فأنفقَت ما عزَّ عليها من المالِ في سبيلِ العيشِ فيها ما تبقّى لَها من العُمرِ، لِما لَمَسَتْه من أثَرِ مُداعبةِ هذا الاسمِ على روحِها، ولِما بدا من المنطقةِ كلِّها من بديعٍ لا يَسَعُ العينَ المتأمّلةَ أن ترى أبدَعَ منه.

إلاّ أنّ الديرَ في نظَر سيسيليا ألغوتسدوتر التي أُغلِق عليها في غودِم وهي في السابعة عشرة من عُمرِها حتّى تُكفِّر فيها عن ذنوبِها لم يكنْ لِأمدٍ طويلٍ سوى بيتٍ لا ربّ له ، ومكانٍ لا يعني، أكثر من أيّ مكانٍ آخر سوى الجحيمِ عينه فوق الأرض.

لم تكن سيسيليا تجهلُ شيئاً عن حياة الرهبنةِ في ذلك الدير، فلم تَنْزَعِجْ لمثلِ تلك الحياةِ ولم تُلْقِ إليها بالاً. لقد كانت تعرِف غودِم لأنها أقامت فيه مراراً، ما بين بنات الذوات مِن صُغْرَياتِ نساءِ العائلاتِ النبيلةِ التي كانت تُرسِلهنّ إلى ذلك الدير لِيَتَلَقَّيْنَ فيه ما يُؤهّلهنّ للزواجِ من أصولِ الآدابِ واللياقة. كانت تعرف القراءةَ، وتحفَظ عن ظهْرِ قلبِ كتابَ المزامير الذي أنشَدَتْ كلَّ واحدٍ من تراتيلِه أكثرَ من مئة مرّة. فما من جديدٍ جدَّ إذاً في كلّ ذلك، وما مِنْ شيءٍ تخشاهُ من كلّ ذلك على نفسِها.

أمّا الذي تغيّر مقابِلَ ذلك فهو ما وقَع على سيسيليا من واجبِ التكفير عن ذُنوبِها، بِمكوثِها عشرين عاماً في ذلك الدير. لقد حُمِّلَتْ هذا الوِزْرَ عقاباً لها على ما اقترَفَتْه من اتصالٍ جنسيّ مع آرن ماغنوسون، قبل أن يجمعَها الزواجُ به أمام الربّ. لقد فضحَتْهُما أُختُها كاترينا، فتعذّر عليهما إنكارُ فِعْلَتِهما الشائنة، لأنّ الخطيئةَ كانت واضحةً جليةً. وفي اليوم الذي أُغْلِقَ فيه بابُ الدير دُونَها كانت سيسيليا حُبْلَى منذ شهورٍ ثلاثة. أمّا خطيبُها فقد حُكِم عليه بخِدْمَةِ جيشِ الربّ المقدس، راهباً في صفوفِه لعشرين عاماً، على تلك الأرضِ المقدّسة، الواقعة في أقصى الطرف الآخر من العالم.

مِنْ على بابِ مدخلِ ذلك الدير انتَصَبَ نحتانِ اثنان من الصلصالِ الرملي، يُجسّدان آدمَ وحواء بعد أنْ طُرِدا من الجنة البدئيّة، وهما يُخفيان عُريَهما من خلفِ

Twitter: @ketab_n

أوراقِ شجرِ الكرمَة. وقد كان ذلك التحذيرُ يخاطِب سيسيليا، كأنّه وُجِّه إليها خصيصاً.

ابتعدت سيسيليا عن حبيبِها على مسافةِ رَمْيَةِ حجرٍ من ذلك الباب. وسقَط هو على رُكبتَيه، وأقْسَم بِسيفِه الذي باركه الربُّ، وبما حَمَلتْ نفسُه من لَهبٍ لا يقوَى سوى شاب في السابعة عشرة على وضْعه فوق مثل ذلك القَسَم، بأنه سوف يصْمُد أمام كلِّ المِحَنِ والحروب، وبأنه سوف يعود إليها ساعِياً، عندما ينتهِيان من تكْفيرِ الذنوب.

لكنّ الذي أثار رُعب سيسيليا في الحال، حينما جعلتْ ريكيسا، رئيسةُ الدير، تجرّها جرّاً إلى داخل ذلك الدير، وهي تشدُّ على مِعْصَمِها في عنفٍ وغلظة، كأنها عبدٌ من العبيد، أنّ غودهِم قد اختلفَ كثيراً عمّا خَبرَتْهُ من أمْرِه من قبلُ مع بنات الذوات.

لم يتغيّر ظاهرُ ذلك الدير بطبيعة الحال، وإنْ ضُمَّتْ إليه بِضْعة توابعَ من البناءات لدوافع نفعيّة صرفة. على أنّ البيئةَ التي عمَّتْ ذلك المكانَ قد اختلفَت كثيراً، وكان في اختلافِها ذاك ما يدعو لأنْ يملأ سيسيليا خوفاً ووَجَلاً.

كانت الأرضُ التي شُيِّد عليها غودهِم هِبَةً من المَلِك كارل سفيركرسون، ولذلك لا غَرْوَ أنْ تكون رئيسةُ الدير واحدةً من عائلةِ سفيركر، وكذلك معظم الراهبات اللواتي مَنَّيْنَ النَّفسَ بالانتماءِ إليها، فضلاً عن أغلب الآنسات اللّواتي قُبِلْنَ خادماتٍ فيها.

لكنْ عندما عاد كنوتْ إريكسون، ابن إيريك جفرسون، القدّيسِ الطامعِ في العرش، من منفاه في النرويج لِيطالِب بتاجِ والدِه وينتقِم من قاتِله، كان هو نفسُه الذي قَتَل المَلِكَ كارل سفيركرسون في فِسينجو. وكان من بين المتواطئين معه آرن ماغنوسون، صديقُه وحبيبُ سيسيليا.

لذلك جاشت الحربُ واحتدَمَتْ من جديد خارج أسوار الدير، مابين عائلة فولكونغر – تؤازرها في الحرب عائلةُ إيريك وحلفاؤُها النرويجيون– وما بين عائلة سفيركر وحلفائِها الدنمركيين.

Twitter: @ketab_n

صارت سيسيليا مثلَ دُودةِ الفراشة التي أُلْقِيَ بها في عشِّ الدبابير. وقد كانت معظمُ الأخواتِ من قريباتِ السفيركر يزدرينَها أيّما ازدراء، مثلما كانت تستخفُّ بها الخادماتُ والراهباتُ العامِلاتُ، اللواتي كُلِّفْنَ بأشقِّ الأعمال اليوميةِ ولم يكُنّ يجرُؤْن على معاملتِها بغير الاحتقار والمهانة. فما من واحدةٍ منهنّ كانت تكلّمها حتى في الأوقات التي كان الكلامُ فيها مُباحاً. فجميعُهنّ كنّ يُدِرْنَ لها ظهورهُنَّ ولا يُلْقِينَ لها بالاً.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الأم ريكيسا قد دفعتها في البداية لأنْ تُنهَي أيامَها في ذلك الدير. لقد وصلت سيسيليا إلى غودِم في الفترة التي تُنَقَّى فيها الأرضُ من أعشابِ اللّفت الضارة. وكان ذلك عملاً شاقّاً مُضنياً لا مناص من أن يُنَفَّذَ تحت الشمس الحارقة. وبطبيعة الحال فما من أختٍ واحدةٍ من أخوات العائلات النبيلة، ولا واحدة من الخادماتِ كنّ يشاركن في تلك الأعمال الشاقة.

كانت الأمُّ ريكيسا قد أكرهَتْ سيسيليا منذ اليوم الأوّل على الخُبز الجافّ والماء، بل عَزَتْ إليها مكاناً منفرداً في أقصَى قاعةِ الطعام، وسط سُكونٍ رهيب. ولعلّ رئيسةَ الدير رأت فيما أكرهت عليه سيسيليا لا يفي بعقابِها فقرّرت أن تُلزِمها بالعمل في الحقول مع الراهبات العاملات، وأن تَدُبَّ مثلَهُنّ، مِتْراً مِتْراً، مع طفلِها الذي كان يهتزُّ في بطنِها اهتزازاً.

إلاّ أنّ ذلك بلا شكٍّ لم يكن يُرضِي الأمَّ ريكيسا التي ربما أغاظها ألا تَفْقِدَ سيسيليا طفلَها رغم قسوة المعاملة. لذلك أرغمتْ الفتاةَ على أنْ تَتَفَصّدَ مرّةً في الأسبوع أثناء الحمل. لقد كان من الشائع أنّ دَمَ الفِصاد مفيدٌ للصحة، وأنّ من آثارِه تخفيفَ الشهواتِ الجسدية وتهذيبَها. ولمّا كان من الواضح أن سيسيليا قد تعطّل طمثُها فقد كان من اللائقِ لصحّتها أن تُكْثِر من الفِصادِ ما وسِعها الفِصادُ.

ما انفكت سيسيليا تزحَف على أربعٍ في الحقول، وقد زاد شُحوبُها وامتقاعُها، وهي تتوسّل السيدة العذراء بصوتٍ خافِتٍ أنْ تحميَها وتغفِر ذنْبها، وتمدّ يدَها الرحيمةَ للطفل الذي في بطنِها، رغم خطيئتِها. وفي الخريف، عندما حلّ جَنْيُ اللّفت، أشقَى وأقذرَ ما تتعرّضُ له نساءُ غودِم من أعمالٍ، شارفت سيسيليا

Twitter: @ketab_n

على نهاية الحمل. لكنّ ذلك لم يُثنِ الأمّ ريكيسا عن صرامتِها في حقّ تلك الفتاة البائسة.

لولا قليل من الصبر لكانت سيسيليا وضعت ابنَها في خضمّ تلك الحقول، وفي ذلك البردِ الرطب من تشرين الثاني. فعند اقترابِ نهاية اقتلاعِ أعشابِ اللفت الذي سُخّرت له تلك الفتاةُ تسخيراً، فهمت الراهباتُ العاملاتُ والأُختان اللّتان وقفتا في المكانِ للسهرِ على الهدوء والأدب أثناء العمل، ذلك الذي كان يتهيّأ أمامهنّ، وقد قدّرت الأختان ألا حيلةَ لهما في عملِ أيّ شيء، لكنّ الراهبات العاملات لم يُشاطرنهما الرأيَ فسارعن من دون انتظارِ الإذنِ منهما إلى نقْل سيسيليا إلى المضافَةِ المخصصة للزائرين، ووضعْنَها على السرير، وأرسَلن في طلب السيدة هيلينا، وهي نزيلةٌ في غودبم دفعت ثمناً باهظاً مقابل حقِّها في أنْ تمضي بقيةَ العُمرِ فيها، وذاع فيها صيتُها لما كسبته من درايةٍ في علم الطبابة.

ومما أدهش الراهبات العاملات أنّ السيدة هيلينا، على الرغم من صلةِ القربى التي تربطها بعائلة سفيركر، ما لبثت أن هُرعت إلى سيسيليا وأشفَقت عليها. ودون أن تجد اعتراضاً من أيٍّ كان، أمرت بأن تمكث عاملتان من الراهبات في المضيفة لإسعافها، قائلةً أنّ لِريكيسا – التي لفظَت اسْمَها دون أن تُرفقه بصفةِ "الأم"– أن تقول في حقِّها ما طاب لها أن تقول. "إنّ قَدر النساءِ قاسٍ بما فيه الكفايةِ في هذه الدنيا، فلا حاجة لأن يُضاف إلى عِبْئِهنّ عبءٌ جديد"، قالت هيلينا للراهبات العاملات المندهشات اللائي كنّ يساعدنها، وأخذن في خُضوعٍ يُهيّئن الماءَ الساخن، وذهبن لِيُحضرن بياضاً نظيفاً، ونظّفن الأرضيةَ وما علِق من قَذَرٍ وشوائبَ بِسيسيليا المسكينة التي أوشكت على الإغماء من فرطِ أوجاعها.

بَدَتْ السيدةُ هيلينا كأنها مبعوثةٌ من قِبل مريم العذراء شخصياً. صحيحٌ أنّها أنجبت تسعةَ أطفالٍ كُتبت الحياةُ لسبعةٍ منهم، وأنّها أسعفَتْ في مناسباتٍ كثيرة نساءً أُخريات، في مثل تلك اللحظة من العُسر التي يُصبحن فيها وحيداتٍ لا تأتيهنّ المساعدةُ إلاّ من أندادهنّ. لذلك كان سيّان عندها أن تكون هذه الفتاةُ عدوّةً لها، ولم تتردّد أمام الراهبتين العاملتين، في التأكيد على أنّ مفهوم الصداقة

Twitter: @ketab_n

والعداوة قد يتغيّر ما بين عشيّة وضحاها، أو في غضون حربٍ بائسةٍ ما بين الرجال، وأنّ مَنْ تجعلُ تصرّفَها رهناً لمثل تلك الاعتبارات قد تندمُ على ذلك في ظروفٍ أخرى مختلفة.

لم يبقَ لسيسيليا سوى القليلِ من ذكريات تلك الليلة التي وَضعت فيها ابنَها ماغنوس الذي كُتب له أن يُسمَّى بذلك الاسم. لكنّها لن تنسى ما حَيِيَتْ، ذلك الألَمَ الذي ما انفكّ يمزّق جسدَها الآثم. لا ولن تنسى أيضاً تلك اللحظةَ التي انتهَى فيها كلُّ شيء، وتلقّت فيها حين اشتَدّت عليها الحُمّى وامتلأت عَرقاً، طفلَها من يَدَيْ السيدة هيلينا فضمّته إلى صدرها العليلِ، وهي ذات اللحظة التي تناهَى فيها إلى سَمْعِها من تلك التي أسعفَتها أنّ الطفلَ جميلٌ، وفي صحةٍ جيدة، وأنه قد أُوتيَ كلَّ شيء ممّا يجب أن يُؤْتى، وحيثما ينبغي أن يُؤتَى. وقد استغرقت بعد ذلك في ضبابِ اللاوعي حتى غاب عنها إحساسُها بالأشياء.

وقد علِمت سيسيليا بعد ذلك أنّ السيدة هيلينا نقلت النبأَ إلى أرناس، وأنّ موكباً قوياً من الحرس قد أقبل لِيَلُمَّ بالطفل ويُحيطه بالأمن والسلامة. وقد أقسم بيرجر بروزا، عمُّ سيسيليا، وأقوى رجلٍ في عائلة فولكونغر، أنّ الطفلَ - الذي لم يذكره يوماً بغير صيغة الذّكر- سوف يلقَى الترحيبَ في أحضان العائلة، وأنّه سوف يُقرُّ عضواً من أعضائِها أمام الجمعية المحليّة. لقيطاً كان أمْ لم يكن!

لكنْ، لا شكّ أن من أسوأ ما زرعته السيدة العذراء من محَنٍ في طريق سيسيليا أنّها لن تنعمَ برؤيةِ ابنِها إلاّ عندما يكتملُ نموُّه ويُصبح راشداً.

* * *

ما انفكّ قلبُ الأمّ ريكيسا يفيض قسوةً لا تقل عن قسوة الحجرِ. فمن جديدٍ أرسلتها بعد الولادة بقليل، إلى الحقول مع الراهبات العاملات، غير آبهةٍ بالحمَّى التي ألحّتْ عليها، ولا بالألم الذي أدمَى صدرها، رغم العرق الممتدّ والشحوبِ القاتل.

وفيما كانت أعيادُ الميلاد على الأبواب، في خلال تلك السنة الأولى، إذا بالمطران بِنتْ، القادمِ من سكارا في زيارة رَعَوِيّة، أن امتقع حين لَمَحَ سيسيليا وهي

Twitter: @ketab_n

تمرّ أمامَه كالظلّ، عند صليب الكنيسة. وقد حدّث الأمُّ ريكيسا حدِيثاً قصيراً لم يشهد عليه أحدٌ غيرُهما. وفي إثر ذلك اللقاء أُجيزَ لسيسيليا أنْ تدخل العيادة. ومنذ ذلك اليوم صارت سيسيليا تنعم بِحِصص إضافية من الغذاء الذي كان يحقّ لأشخاصٍ من خارج الدير أن يَهَبُوه للمقيمين فيه: بيض، وسمك، وخبز أبيض، بل حتى أضلاع من الضّأن أحياناً. ولم يُفلت أمرُ آياتِ المعروف تلك من سخرية الرّاهبات، فصارت هذه أو تلك تدّعي أنّ المعروف من صَنيع المطران بِنت، وتدّعي أخرى أنه يأتي من السيدة هيلينا، أو من بيرجر بروزا شخصياً.

ومنذ ذلك الوقت أيضاً رُفع عن سيسيليا ذلك الفصادُ الذي أُكرِهت عليه إكراهاً، وما لبثت أن استعادت نضارةَ الوجه وقليلاً من اللحم. بيد أنّ الأملَ بدا كأنه فارقَها، فظلّت تمضي خيرَ أوقاتها وحيدةً، تتحدّث إلى نفسِها حديثاً خافتاً.

أقبل فصلُ الشتاء مُسرعاً، ليُغطيَ فاسترا غوتالاند، بَرْداً وثلجاً، ويرفعَ بذلك حِمْلَ كافة أشكال الأعمال في الحقول، عن الراهبات العاملات، وعن سيسيليا. وقد كان ذلك عزاءً وتسليةً، لكنّ ليالي الشتاء الطويلة أضحت في الوقت نفسِه كأنها بلا نهاية. في تلك الأثناء لم يكن قد هُيِّئَ للراهبات العاملات مَرْقَدٌ ينفردن به، فكنّ يَنَمْنَ فوق قاعةِ مجلس الكهنة، مع الخادمات. ولمّا كانت القواعدُ لا تُجيزُ تدفئةَ الغُرف فقد كان موضعُ سريرِ كلّ واحدةٍ منهنّ حاسماً، إذ كان من المهمّ أن تحرص كلّ واحدةٍ على أن يكون سريرُها أبعدَ ما يكون عن النوافذ. وقد هُيِّئَ لسيسيليا، بطبيعة الحال، أقربُ سريرٍ من الحائط الحجري، تحت نافذةٍ يجري فيها البردُ في شكل بُخارٍ جليدي. أمّا الراهبات من الخادمات فقد كنّ يَنَمْنَ في الجزء الآخر من القاعةِ بالقرب من الحاجزِ الفاصل لتلك القاعة. وما بين سيسيليا وأخواتها من بناتِ حوّاء كانت تنام الراهباتُ العاملات الثماني اللواتي لم يجرؤن على توجيه الكلام إليها يوماً.

وقد كانت القواعد تُجيز للراهبات الانتفاعَ بحصيرةٍ، ووسادةٍ وبطّانيّتين من الصوف. فحتى إن كانت كل راهبةٍ تأوي إلى مضجعِها بثيابها كلّها فلم يكن قرٌّ

Twitter: @ketab_n

تلك الليالي رحيماً أحياناً، فيستعصي النومُ عليهنّ، أو على الأقّل على من كنّ يرتجفن في أسرّتهنّ برداً.

ففي تلك الفترة، وهي أحلكُ الفترات التي أمضتها سيسيليا في غودم أيقنت السيدة هيلينا أنَّ الفتاةَ ضاقت بحالِها أشَّد الضيق، دون أنْ يُستجابَ لأيٍّ من دعواتها، ومن غير أن تتلقَّى ولو قليلاً من العزاء والسلوى. لذلك أبلغتها بعضَ القول ممّا لا يحمِل من الوَقْعِ الشيءَ الكثير لو قيل في العالم الخارجي، لكنّه وَقَعَ من نفسِ الفتاة أيّما وَقْعٍ كأنّه إناءٌ من الجمر المضطرم الحامي.

تلّقت إحدى الآنسات بعد أنْ انكشف بعضٌ ممّا انطوت عليه سريرتُها من أسرارٍ، الأمرَ من الأمّ ريكيسا بأنّ تَحُلَّ بأقربِ سرير من سيسيليا، بعد أن أضحت غيرَ جديرةٍ بالموضع الذي كانت تنامُ فيه بالقرب من باب القاعة. فذات مساءٍ تناولت بعد صلاة النوم عُدَّةَ سريرها بين ذراعيها، وتوجّهت مُطْرِقَةً بالقرب من ذلك السرير، ومكثت به تنتظرُ من الراهبة العاملة التي تحتلّه أن تُسرعَ في بُلوغ الزاويةِ الأقلِّ تعرضاً للبرد في القاعة. بعد ذلك رتّبت جارةُ سيسيليا سريرَها وهي تنظر بطرفَ العين في اتجاه الراهبة التي وقفَت في العتمةِ تراقب الوضع بالقرب من باب دَرَج القاعة. وعندما صار السريرُ جاهزاً انْسلَّت تحت البطانية، ثمّ تمّددت على طَرَفِهِ وأخذت تبحث عن نظرات سيسيليا. ثمّ قطعتْ بلا مواربةٍ قاعدة الهدوء:

"لستِ وحدك يا سيسيليا"، همستْ بصوتٍ خافت حتّى لا يُسمَع صوتُها.

"شكراً، شكراً لسيّدتنا هيلينا" أجابت سيسيليا بلغة الإشارات التي تلجأُ إليها الراهباتُ عندما يكون الكلامُ محظوراً، ولم تجرؤ من جانبها على كسْر تلك القاعدة. لكنّ إحساساً بالدفءِ ما لبث أنْ داخَلَها، وشعرتْ أن أفكارَها قد تسلُك من بعد ذلك اليوم سبيلاً غير سبيلِ الانزواء ورغبةِ الهروب الواهمة، الذي تاهت فيه كثيراً حتى خشِيَت أنْ تفقِد صوابها.

ظلّت سيسيليا برهة بلا حراك، وتملّكها الفضول فأخذت تُحدّقُ في عَيْنَيْ تلك الغريبة، تلك الرفيقة البائسة التي تجرأت فكسرت القاعدة، حتّى توجّه مثلَ تلك الكلمات الناعمة. وظلّتا تتبادلان الابتسامات إلى أن جَنَّ ظلامُ الليل، فلم ترتجف

Twitter: @ketab_n

سيسيليا برداً كعادتها، ولم تجد عناءً في الاستغراق في النوم في تلك الليلة.

كانت سيسيليا ما تزال غارقةً في نومِها عندما حان موعدُ صلاة السّحر، فلم تجد جارتُها الغريبة بُدًّا من أن تهزّها هزاً خفيفاً. ولم تكد سيسيليا تصِل إلى الكنيسة حتى أقبلت لأوّل مرّة على الغناءِ في شغفٍ، وصار صوتُها الرائقُ النقيّ يعلو فوق الأصوات جميعاً. ففي الماضي كانت سيسيليا كلّما أنبأها مُنبِئٌ بأنّ ما من حائلٍ يحول دون خلاصِها ممّا هي فيه بعد بضعة أشهر، صار الغناءُ عندها فرحةً لا تضاهيها فرحةٌ في غودِم.

شعرتْ سيسيليا بالحاجة إلى تعويض الكثيرِ من النوم الذي لم تنعم به وقتاً طويلاً، فعادت لتغوص فيه ثانيةً دون عناء حين فرَغت من صلاة السّحر. ولمّا حان وقتُ تسابيحِ الصباح لم تجد الراهبةُ الغريبةُ بُدًّا من أن تشُدَّها إلى اليقظة مرّةً أخرى.

وبعد أداء فرْضِ صلاةِ الساعة الأولى من طلوعِ النهار ثمّ القُدّاس الأولُ، حان وقتُ انعقادِ الجمعية في مجلس الكهنوت. عندئذ تحقّقت سيسيليا من أنّ جارتَها الجديدة قد نالت ما نالها هي من عَزْلٍ قرب ذلك الباب، وتذكّرت ما حدّثتها به ليلاً: "لستِ بعد اليوم وحيدة!"

جلست الأمّ ريكيسا تحت النافذة الوسطى، وأشارت في رقّةٍ ولطفٍ إلى رئيسة الدير بأنْ تشرع في القراءة اليومية للإنجيل. لكنّ انتباه سيسيليا ما لبث أن تاه وشَرَدَ لِفَرْطِ تَوْقِها لمعرفةِ المزيدِ عن تلك الرفيقة البائسة، الجالسة إلى جانبها. بعد قراءة الإنجيل تُلِيَتْ أسماءُ الإخوة والأخوات الاسبتاريين، للترحّم على أرواحِهم. وقد تسمّرت سيسيليا أمام تلك التلاوةِ وسكنَت برهةً، تحسّباً لسماع اسم غريبٍ من الغرباء، أو حارسٍ من حراس الهيكل، ممّن تحسبُهم القائمةُ أحياناً إخوةً وأخواتٍ، وتضعهم في عداد الأموات. لكنّ سيسيليا لم تسمعْ من تلك التلاوةِ في ذلك اليوم أيّ اسم من تلك الأسماء. لقد أحبّت سيسيليا فيما مضَى تلك اللحظات الباكرة في قاعةِ مجلس الكهنوت. كانت قاعةً جميلة، انتصبت فيها دِعامتان هزيلتان من الحجر الأبيض استندت إليهما ستُّ قِبَاب متساوية الأحجام. كان بياضُ جُدرانها ناصعاً، وأرضيّتُها من بلاط الصلصال الرّملي بلونه السنجابي المتناسق. أمّا زينتُها

Twitter: @ketab_n

الوحيدة فقد وقفتْ على صورة المسيح المصلوبِ المتدلية من فوق كرسي رئيسةِ الدير. وقد كان المكانُ مواتياً لتعليلِ النفس بما طاب من تأمّلٍ ورجاء. حتى إنْ سلّمت سيسيليا على كُرْهٍ منها بأنّ ما من خاطرٍ من ذلك القبيلِ قد خالجها حتى تلك اللحظة أثناء إقامتها في ذلك الدير.

وانتهت الجمعية بتوزيع العقوبات، وقد كانت مخالفةُ قاعدةِ الهدوء أكثرَ الذنوبِ التي تُعاقِب عليها الأمُّ ريكيسا. لكنّ جزاءَ سيسيليا ظلّ يتكرّر ستَّ مرّات أو سبعاً لخرقِها تلك القاعدة دون أنْ يُوجّه إليها أحدٌ حديثاً بطبيعة الحال، ودون أن تُوجّه هيَ أيَّ حديثٍ لأيٍّ كان.

بحركةٍ أقرب إلى الابتسام منها إلى التوبيخ وضّحت الأمُّ ريكيسا بأنّ سيسيليا خليقةٌ بأنْ تلقَى جزاءً مرّةً أخرى. وقد أطرقت لذلك الأخواتُ الراهباتُ في حسرةٍ وانكسارٍ، فيما رفعتْ الفتياتُ اللواتي لم يَبُحْنَ بنُذُورهنّ بعدُ، رؤوسَهنّ في فُضولٍ ماكرٍ امتلأت به نظراتُهنّ إلى تلك المُذنبة.

لكنّ الأمّ ريكيسا ما لبثت أن أضافت بعد أن تلذّذت برهةً بذلك الصمتِ الذي أثارته المفاجأة، كأنّه قطعةٌ حلوى، أنّ الجزاءَ لن يطال هذه المرّة سيسيليا المألوفة: ليست سيسيليا ألغوتسدوتر، بل سيسيليا ألفسدوتر. فمنذ ذلك اليومِ وقد صار بين الراهبات سيسيليتان اثنتان مُذنِبَتان بالوِزْر نفسه، صارت سيسيليا ألغوتسدوتر الصهباء تُدعَى سيسيليا رُوزا، وصارت سيسيليا الشقراء تُدعَى سيسيليا بلانكا.

في الغالب، وخاصةً بعد ولادة سيسيليا العسيرة، كانت الأمّ ريكيسا إذا رغبت في موتِ تلك الفتاة عاقبتها يوماً أو يومين، بالخبز الجافّ والماء. أمّا في هذه المرّة فقد أمرت الأمُّ ريكيسا في تَهَكّمٍ اختلط بظاهر التقوى، بأنْ تُساقَ سيسيليا بلانكا إلى زاوية المُذْنبَات في أقصَى الغرفة. وبمنتهى العجلة أمسكت رئيسةُ الدير وإحدى الأخوات بالمُذْنِبَة وساقتاها إلى عمود التشهير، ثمّ نزعتا عنها الثوبَ الصوفيّ ولم تُبْقيا على جسمِها سوى قميصِ الكتّان، ثمّ ربطتا يَدَيْها المشْدودتين إلى الرأس بِسوارين من حديد.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك ذهبت الأمّ ريكيسا لتُحضِر القضيبَ، ثمّ عادت فانتصبت أمام سيسيليا بلانكا التي هَمَدَتْ ولم تعد تقوَى على الحركة. ومن جديدٍ تطلعت بعينيها اللّتين طغَى فيهما الظّفَرُ على الرأفة، إلى طائفةِ الراهبات. ثمّ انتظرت قليلاً وهي تضرب القضيبَ بلينٍ في يدِها، كأنّها تختبر وقْعَ ذلك القضيب على نفسها أولاً!

أخيراً أعطت الأمُّ ريكيسا إشارةَ البدء في تلاوة ثلاثة "باتر نوستر" Pater Noster، وأطرقت الجمعيّة لتلك التلاوة في لينٍ قبل أن تشرع في التمتمة والهمهمة.

ولم تكد تلك الصلاةُ تنتهي حتى استقدمت الأمُّ ريكيسا إحدى الخادماتِ، هيلينا سفيركردوتر وناولتها القضيبَ، متوسلةً إليها باسم الربّ والابن والقدّيسة العذراء بأنْ تُكَبِّدَ الفتاةَ ضرباتٍ ثلاث.

كانت هيلينا سفيركردوتر فتاةً خرقاءَ رعناء، قلّما وقفت في الصف الأوّل مثل تلك الوقفة. لكنّها تطلّعت في غبطةٍ إلى أخواتها الراهبات فاهتزّت رؤوسُهنَّ إليها يميناً وشمالاً، مشجّعةً محرّضة، بل قد أشارت إحداهُنّ إليها بأنْ تضرب بكلّ ما تملك من قوّة، وامتثلت هيلينا للأمر، لكنْ دون أن تُسدّد ضرباتها كما تُسَدَّدُ الضرباتُ في العادة حين تسقط شديدةَ القوةِ بنِيَّةِ إيقاظِ الروح وحَثِّها على إصلاح أَمْرِها، أكثرَ ممّا تسقط على الجسم بنيّة إيذائِه. ضربت هيلينا بكلّ ما تملك من قوة، وعند الضربة الأخيرة برزتْ علامتان حمراوان على بياضِ قميص سيسيليا بلانكا.

ما انفكّت سيسيليا بلانكا طيلةَ تلك الضربات تئنُّ أنيناً ما بين أسنانها المكزّزة، من دون أن تستسلم للصراخ أو البكاء. وقد التفتَت وهي تتلوّى في عناءٍ جمّ بسبب رباطها، لتحدّق في عيني هيلينا سفيركردوتر التي احمرّت وَجْنَتاها من فرط عناء تلك الضربات المبرحة. ثمّ قالت لها والحقدُ يملأُ عينيها، كلاماً استحال أزيزاً ما بين أسنانها، وكان من الرّوع ما جعل همسات الرعب والهلع تسري في ربوع القاعة.

"سيأتي يوم يا هيلينا سفيركردوتر تندمين فيه على هذه الضربات، أكثر من ندمك على أيّ شيء آخر في حياتك. إنّي لأُقسِم بالقدّيسة العذراء، مريم!"

لم يحدث أن سمعت أيٌّ من الراهبات مثل تلك الكلمات في تلك الأماكن بتاتاً. فلم تنطقْ بها المذنبةُ تحت تأثير الغضب وحده، بل أقحمت القدّيسةَ العذراء

Twitter: @ketab_n

في ذنْبِها، وفوق ذلك كانت تلك التهديداتُ هي الدليلُ بأنّ العقابَ لم يُصْلِحْ شيئاً من سيسيليا بلانكا، وأنها لم ترضخ لإرادة الأمّ ريكيسا. احتسبت الجمعيةُ ثلاث ضرباتٍ إضافيةً ثلاث مرّات، جزاءَ ذلك التحديف. لكنْ بدلاً من ذلك تقدّمت الأمُّ ريكيسا وأخذت القضيبَ من يدِ هيلينا سفيركردوتر التي كانت تتأهب لإنزال العقاب الجديد.

ومن حيث كانت تقف بالقرب من الباب ظنت سيسيليا روزا أنّ عَيْنَيْ رئيسةِ الدير تلتهبان كَلهيب عينَي تنّينٍ، أو كائنٍ شرّيرٍ من الفصيلة نفسها. وقد أطرقت كلُّ الفتيات، إلاّ روزا وبلانكا، برؤوسهنّ كأنّهنَّ غارقاتٌ في الدّعاء، فيما لم يُحرّكْ تلك الرؤوسَ سوى الوجل والفزع.

"السجن المطبق ثلاثة أيّام كاملة، قالت الأمّ ريكيسا في تَوانٍ في النهاية. ثلاثةُ أيام مع الخبز الناشف والماء، في العزلة والهدوء والصلاة، ومع بطّانية واحدة، حتّى تُكفّري عن خطاياك!"

فمنذ أن وصلت سيسيليا روزا إلى غوديم ما منْ فتاةٍ راهبة واحدة طالها حُكْمٌ بالسجن المطبق، بل كان الحديثُ في مثلِ ذلك السجن كأنّ الأمرَ محضُ قصّة من قصص الأشباح. لم يكن ذلك السجن سوى قبوٍ صغير مُعتم يقع تحت مخزن المؤونة. أمّا مَنْ ابتُلِيَتْ بالمكوث فيه أيّاماً عديدة، في عزّ الشتاء، ووسط الجرذان، كان ذلك المكانُ عليها هولاً وتنكيلاً.

لم تشعرْ سيسيليا روزا فيما تلا من أيّام، بالبرد لحظةً واحدة، لفرط ما أُخِذَتْ به من تفكير في صديقتها الغريبة.. سيسيلْيا بلانكا. فما انفكت تدعو لها بكلّ قوّةِ روحِها، وتذرف لها الدّمعَ من كامل جسمها، وتؤدي كامل واجباتها أداءً آلياً. وقد حاكتْ وغنّتْ وأكلتْ، دون أن تفكّر في شيءٍ من كلّ ذلك، مُسْتَنْفِرةً كامل روحِها وذكائها في دعواتها.

وفي اليوم الثالث بعد صلاة السّحر وما تلاها من حَظْرٍ للكلام، خرجت سيسيليا بلانكا من السجن المطبق مُتصلّبةَ الرِّجْلَين، ممتقعة الوجه. وقد أخذتها أختان إلى المرقد وساقتاها إلى السريرِ، ثمّ دفعتاها إليه دفْعاً قبل أن تُلقيا عليها بطّانياتها في هَنَةٍ وتوانٍ.

Twitter: @ketab_n

وأخذت سيسيليا روزا تفتّش عن عينَيْ صديقتها في الظلام إلى أن وجدتهما أخيراً. كان نظرُ بلانكا ثابتاً مُنهَكاً، فبدتْ كأنها تثلَّجتْ حتى النخاع.

انتظرت سيسيليا روزا قليلاً حتى يَعُمَّ الهدوءُ أرجاءَ تلك المنامة، قبل أن تُقْدِمَ على فعلةٍ خارقةٍ عجيبة، فقد حملت بطّانِيَّتيها وفي حركةٍ متّصلةِ البُطْءِ والسُّكون سَعَت إلى سرير صديقتها، ثمّ انسلّت إليه وهي تجذب البطّانيّتين من فوقِهما، الواحدة بالقرب من الأخرى. وفي الحال أحسّت أنّها تنام بجوارِ كتلة جليدية. لكنّها ما لبثت أن شعرت كأن السيدة العذراء قد تغاضت عن تلك الخطيئة فَبسَطَتْ عليهما يدَها الراعية، فعاد الدِّفْءُ ليملأ جسمَيْهما شيئاً فشيئاً.

وبعد صلاة السّحر لم تجرؤ روزا على مُعاودة عمَل الإحسان، ذاك الذي وُصِمَ بالخطيئةِ أيضاً. لكنّها أعارت صديقَتَها أحدَ الغطاءَين، على أن الغطاءَ لم يَحُلْ دون ارتعاشها من البرد في نهاية تلك الليلة، وإن كانت تلك الليلةُ واحدةً من ليالي فصل الشتاء الأخيرة.

لم يكتشف أحدٌ أمر الجريمةِ، اللهم إلا إذا رأت الأخواتُ العاملات اللواتي ينمن بالقرب منها أن لا جدوى من الكشف عنه. لأنّ من لا تملك قلباً من حجرٍ، أو مَن كانت على خلافِ الخادماتِ، لا تمقتُ السيسيليتين. فلم يكن من الصعب تخيُّلُ رُعب تلك الليالي الثلاث، في ذلك السجن، في عزّ الشتاء.

* * *

لا يكاد فصلُ الشتاء يحلّ على غودنم حتى تنصرف الراهباتُ إلى الغزْلِ والحياكة. ولَكَمْ كان ذلك العملُ ينقلبُ على العاملات منهنّ رتابةً لا حدودَ لها ولا نهاية. فلا غنىً للدير عنهنّ في تجهيز أمتارٍ وأمتارٍ من القُماش، يُقدّمها هبةً، أو يبيعها في وقت لاحق.

أما الآنسات من الراهبات اللواتي لم يَبُحْنَ بعدُ بنذورهنّ فلا تستقيم حياتُهنّ في الدير إلاّ بإقْبَالِهنّ على عملٍ من الأعمال، وبإشغالِ أيديهنَّ بأيّ شيءٍ من الأشياءِ. لقد كان أداءُ العبادة والعملِ في غودنم، مثلما في باقي الأديرة، هو القاعدة الأولى

Twitter: @ketab_n

بعد الطاعة والانقياد. لذلك السبب كان على تلك الآنسات أن يتظاهرن على الأقلّ بالعمل والجدّ، أثناء إقامتهنّ القسرية في ذلك الدير.

أمّا إذا كانت إحدى الخادمات المترهّبات لا تفقه من ذلك الفنّ شيئاً كان خليقاً بها عندئذ أن تُجانِبَ إحدى الرّاهبات ممّن يُتقنّ ذلك الفن أفضل منها، حتّى تصبح في أدنى الأحوال قادرةً على إدارة مهنتِها، أو مغزلها، أفضل إدارة.

لم يُهَيَّأ لسيسيليا بلانكا أن تقف يوماً على سببٍ من أسباب فنّ الحياكة، فيما كانت سيسيليا روزا تكاد لا تقلُّ إتقاناً لذلك الفنّ عن أيّ راهبةٍ عاملة، وتلك صعوبةٌ لم يكن من سبيل للتغلب عليها إلاّ بكيفية واحدة، لأنّ ما مِن واحدةٍ من قريبات عائلة سفيركر، أو ممّن كنّ يرغبن في الانتماء إليها، رغبتْ في أن تقفَ وقفةَ أدبٍ ولياقةٍ إلى جانب تلك التي كانت أبغض الكائنات إلى نفوسهنّ، خطيبة كنوت إريكسون قاتل الملك الذي انكشف لهنّ أمرُه في النهاية. فعلى هذا النحو إذاً حُصِرَتْ السيسيليتان في نفس المهنة.

ما لبثت روزا أن أدركت أن صديقتَها بلانكا تَحْذِقُ في فنّ الحياكة أيما حذقٍ، بل كانت تُظهر ذلك الفنّ خلسةً أحياناً، كأنّ الأمرَ بات أمارة سرٍّ بينهما. لقد تظاهرت عمداً بأنّها تجهل فنّ الحياكة حتى تظلّ إلى جانب صديقتها. وهكذا لم يبق أيُّ محظورٍ يحول دونها وتبادل الحديث بلغة الإشارات أثناء العمل. وهكذا ما من مراقِبةٍ مهما يبلغ نظرُها من حدّةٍ ونفوذٍ تستطيع أن تفهم عن يقينٍ ما يدور بينهما من حديث، بل كانتا كلّما أدارت راهبةُ الحراسة ظهرَها تتهامسان خفيةً ببعض الكلمات. وما لبثت سيسيليا بلانكا أن رَوَتْ لصديقتها ما كانت تعرفه عن موقف الحقد والضغينة الذي تقفُه منهما بقية الراهبات، وما كانت تعلّقه على المستقبل من أملٍ ورجاء.

في الخارج، في عالَم الرجال لم تعدْ الأشياءُ بسيطةً هيّنة كما كانت في سالفِ الزمان، عندما كان يكفي الرجلَ أنْ يقطَع رأس المِلك لكي يُصبح مَلِكاً. فخطيبُها كنوتْ إريكسون سوف يَظْفَرُ بعَوْنِ الرّب، وبعَوْنِ أبيه المتوفّي، بذلك الرأس في النهاية. لكنْ، بعد لأْيٍ فقط يُنَالُ ذلك المبتغَى.

Twitter: @ketab_n

لذلك سعى كنوتْ على الفور، بعد خُطوبتهما، لأن يُؤْذَن لخطيبتِه بالدخول إلى ذلك الملجأ، ريثما يُصفّي الرجالُ ما بينهم من خلافٍ وخصام. فحتّى في بيتٍ تملؤه الضغينة فلن تكون حياتُها في خطر، مهما بلغت الأيامُ التي ستُنفقُها في ذلك البيت من سأمٍ وكدر. لقد شاء الشقاءُ أن تكون كلّ أديرة النساء في البلاد مرتبطةً بعائلة سفيركر، لذلك وجب السّهرُ على تدارك ذلك الشرّ مستقبلاً. لكنّ الحال كانت هي الحالُ كما شاء القدرُ لها أن تكون، وكان المستقبلُ غامضاً أيّ غموض. فإنْ كُتِبَ النّصرُ لعائلة سفيركر فسوف يكون ذلك المستقبلُ قاتماً على الفتاتين حتماً. ولعلّهما لن تجدا سبيلاً للخروج من ذلك الدير أبداً، وأن تُنْجِبا أطفالاً، وتتنقّلا طَليقَتَيْن على أراضيهما، وتمتطيا الخيلَ أو تشْدُوَان بأغانٍ "محرّمة".

ولكم ستكون السعادةُ أعظمَ وأبقى لو ظفَر معسكرُهما بالنصرِ على الخَصْم، ولو تُـوِّجَ خطيبُ بلانكا مَلِكاً، ولو سادَ السلامُ البلادَ في النهاية! فكلّ ما هو قـاتمٌ اليومَ سوف يستحيلُ لوناً أبيض مُتَلألئاً. وسوف تصبح سيسيليا بلانكا زوجةً شرعيةً لكنوتْ، ومن ثمّ مَلِكَة! فذاك هو الخطرُ الذي كانت الأمُّ ريكيسا، والأخواتُ الراهباتُ والحمْقاواتُ من الخادمات المترهباتِ، وفي مُقدّمتهنّ هيلينا سفيركردوتر السليطة الوقحة يَسْعَيْنَ لتناسيه في جُهدٍ وعناءٍ، وهن يعشن في ظلّه أثناء الليل وأطراف النهار.

خَطَرَ لبلانكا أن تصلّيا كلاهما معاً كلّ يوم لانتصار عائلة الفولكونغر وعائلة الإيريك، هُما اللتان لم يكن لهما من صديقة غير صداقة إحداهنّ للأخرى. فتلك السعادةُ مرهونةٌ بتلك الصداقة، أكثر من كلّ شيء آخر.

على أنّ ما من سبيل لأيٍّ كان أنْ يملك اليقينَ في أيّ أمرٍ من الأمور بتاتاً. فطوراً كانت الأحداثُ تتبدّل تبدُّلاً غريباً، عندما يُبْرَمُ السلامُ فيعزمُ الرجالُ على توطيدِ الهدنةِ بالزّواج بدلاً من انتزاعِها بقوّة السيف. فإن ظفرت عائلةُ سفيركر بالغلبة فلا شيءَ عندئذٍ يحول دونها والاقتران بهذه أو تلك من نساء المعسكر المضاد. فبقليلٍ من سوء الحظ قد يُتاح للسيسيليتين، ذاتَ يوم مشؤوم، أنْ تخرجا من الدير لكي تتزوّج كلّ منهما بعجوزٍ من رجال ليكوبينغ. فلعلهما لن تُغْبَطا

Twitter: @ketab_n

بذلك الزواج كثيراً، لكنه سوف يظلّ مع ذلك أقلّ قسوةً من أن يُكتب عليهما الألم والانزواءُ تحت وطأة الأمّ ريكيسا واستبدادها.

كانت سيسيليا روزا التي تَصْغُر بضعةَ أعوام صديقتها الجديدة الوحيدة، تَلْقى أحياناً عناءً جمّاً في مجاراة طريقتها الركيكة في التفكير. فكم من مرّة عارضَتها بالقول إنّ ما من أَمَلٍ آخر يراودها غير عودة حبيبِها التي أقسم بها لها. بيد أنّ بلانكا كانت تَلْقى بعض العناء في قبولِ ذرائع على ذلك القدر من الشاعرية. فلا مِراء أنّ الحب جميلٌ في الأحلام، لكنّ الحلم لا حول له ولا قوّة في تحرير هذه أو تلك من سجن غودم. فكلّ امرأة فيه معرّضةٌ لأنْ تُجَرَّ منه جرّاً نحو مذبح القربان، وعليها بعد ذلك أن تعرف إن كان قِرانُها مع عجوزٍ سقيم، أم مع شاب وسيم. فما من يقينٍ ثابتٍ في ذلك الدير غير أنّ ما من شيءٍ أسوأ وأمرّ على هذه الأرض من الركوع كلّ يوم أمام الأمّ ريكيسا.

كانت روزا تقدّر أنّ نكْثَ يمين الحب الذي قطعته على نفسها أقسى من خنوعها لريكيسا، لكنّ بلانكا لم تفهم ذلك الذي قصدته روزا من حديثها. كانت الفتاتان مختلفتين طبعاً وطابعاً. كانت سيسيليا الصهباءُ هادئةً رائقة، قولاً وفكراً، كأنّ الحُلمَ لا يفارقها أبداً. وكانت سيسيليا الشقراءُ طَلْقَة اللسان، لا تكفّ عن تعليلِ نفسها بنوايا سوداء تُمنّي النفس بتنفيذها يوم تصبح زوجةَ الملك كنوتْ. فكثيراً ما كانت تردّد القَسَم الذي قطعته على نفسها بأن سوف تجعل هيلينا سفيركردوتر تندم على تلك الضربات الموجعة التي أوقعتْها بها، أكثر من ندمِها على أيّ شيء آخر في حياتها. فمن يدري، فلعلّ ما وقع بين الفتاتين من أُنْسٍ ومودّةٍ وأُلفةٍ ما كان ليحدث بينهما خارج جدران ذلك الدير لو كانتا سيّدتين لِبَيْتَيْنِ في مزرعتين متجاورتين. لكنْ، ما دامت الحياة قد أُغلقت عليهما في غودم، وسط تلك النساء القاسيات الحقيرات العُدوانيات، فقد توثّقت بينهما صداقةٌ أمينة لا تقل خيوطُ تماسكها عن تماسك جمراتِ مصهرٍ بعضها ببعض.

ما أكثر ما رغبتا في أن تثورا وتتمرّدا، لكنْ لم تَبْتَغِ أيٌّ منهما أنْ يؤدي بها الأمرُ إلى الترهّب في ذلك السجن الذي لا يختلف عن جُحر الجرذان. كانتا ترغبان في

Twitter: @ketab_n

نَكْثِ كل القواعد، لكنّهما كانتا تخشيان دائماً أن يباغتهما أحدٌ فيعاقبهما. لأنّ أكثر ما كان يعذّبهما في ذلك القصاص، تلك المتعة الجلية التي كانتا تَفيضان بها على بقيّةِ النساء.

استنبطت الفتاتان أخيراً وسائل لإغاظة بقية الراهبات، فأخذت روزا التي كان شَدْوُها أفضلَ وأدقّ من شَدْوِ أيٍّ كانت في غوديم، تُحجم عن ذلك الأداء المتقن، فيما أخذت بلانكا التي لم تكنْ تتقن الغناء على أيِّ حالٍ، تتلذّذ بتشويش التراتيل، لا سيما أثناء صلاة الساعة الأولى، والتراتيل الصباحية، وبقايا النوم لم تتبدّد بعدُ من على مُحيَّا الراهبات، فتُغنِّي بصوت عالٍ، أو بصوت فيه قليلٌ من نشازٍ، أو كثيرٌ من العجلة، أو كثيرٌ من التأنّي، فلم يكن من الصعب أنْ يَنْشُزَ صوتُها وهي تغني على ذلك النحو. والواقع أنّها ما انفكت تُطوّر نشازَها ذاكَ مع مرور الوقت حتى أغناها أداؤُهُ المتقنُ عن أيّ لَوْمٍ أو عقاب. كانتا تتناوبان إذاً، فتغنّي روزا غناءً لا يلبث أن يُربِكَ باقي المغنيات أمام جمال النغمات المنبعثة من جِيدها. فإن أخذها قليلٌ من ضيقٍ أو كثيرٌ من تعبٍ تأخذ بلانكا في الغناء غناءً يُبدّد كلَّ شيء. كانت بلانكا، بالتأكيد، تلقَى لقاءَ ذلك بعضَ التوبيخ والتأنيب، لكنها كانت تَعِدُ في إطراقٍ بأنها سوف تَجُودُ، وبأنها سوف تظفر بحسن الغناء وتهيّئ لنفسِها منه ما للأخريات منه من جودة وأداء.

شيئاً فشيئاً أتقنت الصديقتان في براعةٍ فنَّ إرباكِ جلسات الغناء السبع، أو الثماني التي تقام كلّ يوم. كانت روزا تتقمّص دورَ الفتاة الضعيفة الخانعة، فتجيبُ في كلّ مرّةٍ بصوتٍ خافتٍ، في إطراقٍ كلما خاطبتها الأمُّ ريكيسا أو رئيسةُ الدير. وكانت بلانكا تعاكس صديقتها فتتحدّث مرفوعة الرأس، بصوتٍ شديد القوّة، مع حرصها المتواصل على أن لا تتفوّه بكلماتٍ نابية قد تُلام عليها.

كانت وجبةُ الغداء وتُدعى برانديوم Prandium قَدّم كلّ يوم عند منتصف النهار، بعد صلاة الزوال، قوامُها نوعان من البولمنتاريا Pulmentaria التي تتكوّن في العادة من حساء العدس، أو من بقول "الجلبان" المغمّس بالخبز. كان الأكلُ مسموحاً به، لكنْ في هدوءٍ، حين تتلو القرآءَةُ نصوصاً خليقةً بأن تتأمّلها الفتياتُ.

Twitter: @ketab_n

لكنْ حدث في مرّاتٍ عديدة أن ابتلعت بلانكا في ضجيج قطعة الخبز المغمّس في الحساء عند تلاوة أهمّ مقطعٍ في النصّ. وفي كثيرٍ من الأحيان كانت بعضُ آنسات عائلة سفيركر يشهقن بالضحك فتعلو قهقهاتهنّ فيجلبن انتباهَ الأمّ ريكيسا إلى تصرّفٍ مُزعِجٍ عزيزٍ على بلانكا من غير شكّ، لكنه لم يكن من النادر أن تُوبِّخ رئيسة الدير مَن يُقهقهن فتقسو في توبيخهن أكثر من قسوتها على من تُزعجها بصخب أكلها.

وقد كنَّ يتوجّهن بعد "البرانديوم" لتلاوة صلاة الشكر بعد الطعام في الكنيسة فيُرتِّلْنَ Kysie eleison. كنّ يتنقلن بكثيرٍ من الوقار، لكنّ بلانكا كثيراً ما كانت لا تتحرجُ من ضرْب الأرض برجليها كما يفعلُ الرجالُ عن طيب خاطر، أو تتظاهر بالتعثّر أثناء السير فتُحدث خللاً في الصفوف. وكانت روزا تسير بجانبها وعيناها سارحتان في البعيد، يملأُ وجهها حلمٌ تلفّه أبلغُ التعابير السماوية.

في النهاية أضحَى الحديث المتواصل عن المقالب ومحاولة البحث عن مقالب جديدة هوايةَ الفتاتين المتصلة. لكن ما دام الكلام بينهما غير متاح، وإنْ مُنع الكلام، فلا جدوى من أن تلجآ إلى الحيلة والمكر والمراقبة والتواصل بالإشارة والإيماءة. فما أكثر ما كانت تراهما إحدى الآنسات فتُبلِّغ عنهما أثناء اجتماع مجمع الرهبان، فتعاقبهما الأمُّ ريكيسا عقاباً يُنتظَر منه كلّ القسوة والشدّة، لكنّها لا تغلو فيه ولا تُسرف. لقد عاهدت نفسها على ألاّ تعهد بعصا العقاب لواحدةٍ من اللواتي لم يقدّمن نذراً من النذور، وإنّما كانت هي التي تعاقب بلانكا بالعصا تارة، وتعاقب روزا تارة أخرى، فتتلقّى الثانيةُ الضربات برأسٍ منحنية ووجهٍ لا مبالٍ، فيما كانت الأولى تحاول دائماً أن تُبدي بعض السُّخْر في عزّ القصاص، كأن تبثّ صرخاتٍ يعلو صوتُها فوق المعتاد، أو تُطلق ضراطاً رنّاناً مزعجاً قبل أن تلتمس عفواً وهي تبتسم ابتساماً ينمّ عن مِراءٍ ومخادعة.

كانت السيسيليتان مهووستين حقاً بالرغبة في إيجادِ حيلٍ جديدة تثبتان بها لنفسيهما وللمحيط المعادي لهما بأنّهما لن تدَعا أحداً يكبح جِماح أهوائهما. وأغرب ما في الأمر أنّه كلّما ترسّخ هذا التمرّدُ لديهما خفّت قسوةُ معاملةِ الأمّ

Twitter: @ketab_n

ريكيسا لهما، وهو ما عصيَ عليهما فهمُه في البداية.

كانت رئيسة الدير في نظرهما قاسيةَ القلب، مسرفة في قسوتها، لا تُغذّي روحَها بخشيةِ الربّ التي تسعى لأن تلقّن غيرَها إياها. كانت قبيحةً مثل ساحرةٍ، بأسنانها الناتئة الناشزة، وبيديها الغليظتين، ولا يملك من يراها إلاّ أن يقول بينَه وبين نفسه إنّ تلك المرأة لو حُظيت بمقام ثابتٍ في قلب عائلة سفيركر لما حالَ جسمُها ذاك دونها والزواج. لكنّ السلطةَ التي لم تفلِحْ في كسْبِها عن طريق سريرِ الزواج كسبتْها بالأوامر وبلَقب: رئيسة دير!

كانت السيسيليتان في عزّ الأنوثة. ففي قدّهما الممشوق وعيونهما المتألقة بالحياة ما يجعلهما تحدّثان نفسيهما، في كلّ ما أوتِيَتَا من حكمةٍ ووعْيٍ بالذات، أنّ في تلك الأنوثة بلا أيّ شك، ما يغيظُ الأمّ ريكيسا.

وعندما حلّ الصيفُ ومرّت قداساتُ عيد الصعود، غيّرت الأمّ ريكيسا من طبائعها. فقد صارت تتذرّع بما هُيّئ لها من أسباب حتى تعاقب الفتاتين اللتين كانت تبغضهما. ولمّا أضحى الخبزُ الجافُّ والماءُ لا يغيّران ما بالفتاتين من مكرٍ كما تسمّيه، صارت تلجأ إلى القضيبِ، كلّ يوم تقريباً، بالقرب من Lapis culparum، وأرغمتْ آنساتِ السفيركر – مستثنيةً منهنّ الآنسة هيلينا سفيركردوتر استثناءً خاصاً- بإنزالِ عقابها عليهما. لكن ما من إحداهنّ قست عليهما في الضرب كما قست هيلينا في ذلك اليوم الذي لعنتها فيه بلانكا. لكنّ تواتر الضربات ما لبث أن عرّض ظهريهما لألم ما انفكّ يشتدُّ عليهما. وكان أن وجدت بلانكا أخيراً وسيلةً للتهرّب من تلك العقوبة. لكنّها خمّنت أن قلب الأمّ ريكيسا لا يقلّ سواداً وخداعاً عمّا يوحي به مظهرُها. وقد نسجت دهاءَها على يقينها أنّ رئيسة الدير لن تلتزم بقواعد حفْظ أسرار المجاهرة بالخطيئة حفظاً مُطلقاً، وأنّها سوف تبذُل ما تملكه من جهدٍ حتى تحصل على معلوماتٍ من كافة المجاهرين بخطاياهم في غوديم.

كان الكاهنُ الشابُ القادمُ من كاتدرائية سكارا أكثر كهنة الرعية تردّداً على غوديم لتجاهِر على يديه بخطاياهنّ حتى الأخوات المترهباتُ اللواتي لم يقدّمن

Twitter: @ketab_n

نذورهنّ، لكنهنّ لا يرينه بتاتاً، لأنّه يمكثُ جالساً في الكنيسة، وتمكثُ المنذورة للتوبةِ داخل الدير، تفصل بينهما نافذةٌ عُلّق عليها إطارٌ من خشبٍ مغلّفٍ بقطعةٍ من قماش.

وذات صباحٍ من صباحات الصيف تقدّمت سيسيليا بلانكا أمام هذا الراهب وهي تشعر بالحُمّى والدوّار. كانت تعلم أنّ ما تنوي فعله خطيئةٌ عظمى، ما دام الفعل مهانةً لقداسة المجاهرة. لكنّها حدّثت نفسها حديثاً مواسياً حُجّتها فيه أن حيلة الحرب الخفية هذه إن أحدثت أثرَها فسوف تُثبت أنّ الأمّ ريكيسا وذاك الكاهن يُسيئان إلى تلك القداسة أيضاً.

- أرجو غفرانك أيها الأبُ لأنني أخطأتْ، قالت في همسٍ سريع جعل الكلمات تزدحم في فمها. ثمّ تنهّدت ولم تملك غير التنهّد أمام ما كانت ستقدم عليه.

- طفلتي، ابنتي العزيزة، أجاب الكاهن على الجانب الآخر من الحاجز، غودهم بالتأكيد ليس مكاناً يحثّ على الخطيئة، لكنْ كلّي آذانٌ صاغية.

- إني أضمر لأخواتي الراهبات حقداً كبيراً، أردفت بلانكا في عزمٍ وثبات، بعد أن بلغت من الجرأة عتيّاً. لا أستطيع أن أغفرَ لهنّ ما جُرنَ به عليّ، وأسعى للانتقام منهنّ.

- من التي لا تستطيعين العفوَ عنها، وما الذنبُ؟ سأل الكاهن في حذرٍ وحيطة.

- بناتُ عائلة سفيركر، ومَن هنّ ضالعات معهنّ. إنهنّ لا يتورّعن عن نقْل أخبارنا أنا وصديقتي. وهنّ من يضربننا بالسّوط كلّما كان عقابُنا السوطُ بسبب ثرثرتهنّ. ظنّي – آسفة أيّها الأب، لكنْ عليّ أن أقول الحقيقة– ظنّي أنّي عندما أصيرُ ملكةً فلن أستطيع أن أعفو عنهنّ. لا عنهنّ ولا عن الأم ريكيسا. أقول لنفسي بأني سوف أنتقم طويلاً وبلا رحمة. وأقول لنفسي بأنّي سوف آمرُ بحرق أعضاء عائلاتهنّ، وبأنّ غودهم سوف يفرغ من قاطنيه، وأنّه لن يبقى في هذا المكان حجرةٌ تعلُو حجرة.

Twitter: @ketab_n

- من هي هذه الصديقة التي تتحدّثين عنها، سأل الكاهن وفي صوته نبرةٌ مضطربة.

- سيسيليا ألغوتسدوتر، أيّها الأب.

- أهي الفتاة المخطوبة لأحدِ أفراد عائلة فولكونغر؟ اسمه آرن ماغنوسون، أليس كذلك؟

- أجل، بالفعل، أيها الأب، فهي غاليةٌ جداً على قلب بيرجر بروزا. وهي صديقتي وهي عرضة لعدوانية كلّ الفتيات هنا، مثلي تماماً. لذلك تساورني أفكارُ الانتقام الدميمة هذه، وهي خطيئةٌ كبرى.

- طالما أنت في غودم، يا بنيتي، يجب أن تلتزمي بالقواعد السارية فيه، أجاب الكاهنُ بصوتٍ حاول أن يتوخّى الصرامة، لكنّه كشف عن انشغالٍ لم يفت بلانكا شيء منه.

- أعرفُ يا أبي، أعرفُ أنها خطيئة، وإني لأطلب الغفران من الربّ، قالت بصوت منخفض مطيع، والابتسامة تملأ محيّاها، لأن الكاهن لم يعد يراها كما تراه.

تردّد هنيهة قبل أن يُجيبها ورأت في تردّده بعض الخير، والدليلَ على أنّ جرعتها قد بدأت تُحدث أثرها فيه.

- التمسي لروحك الراحةَ والطمأنينة، أجاب الكاهن في النهاية. يجب أن ترضَي بقدرك على هذه الأرض، أنت وباقي نزيلات هذا الدير. والآن أقول يجب أن تُبعدي عنك كلّ هذه الأفكار الأثيمة. رتّلي "باتر نوستر" عشرين مرّة، وأربعين مرّةً "آفي ماريا"، ولا تحدّثي أحداً بكلمة واحدة طوال يوم كامل، وتفرّغي للتوبة عن خطيئتك! أفهمتِ هذا؟

- نعم يا أبي، لقد فهمتُ، غمغمت بلانكا وهي تعضّ شفتها حتى لا تنفجر ضحكاً.

- إذاً أغفرُ لك باسم الربّ، وباسم الابن والقدّيسة العذراء مريم، قال الكاهنُ بصوت منخفضٍ لم يخْلُ من ارتجاج.

وفي إثر ذلك اللقاء مضت سيسيليا مبتعدة داخل الدير، برأسٍ مُطرق إطراقاً يليقُ بالمقام، وقلْبٍ مغتبطٍ أيّما اغتباط، إلى أن وصلت إلى صديقتها روزا التي تستّرت

Twitter: @ketab_n

خلف عينِ مغسلِ الدير، فأقبلت عليها ووجهُها ما يزال يعلوه الاحمرارُ بسبب ما جرى بينها وبين ذلك الكاهن قبل حين.

- ظنّي أنّ حيلتي قد انطلت عليه. بإذن الربّ أظنّ ذلك، همست بلانكا في أذن صديقتها – بعد أن تأكّدت بأنّ لا أحد يراهما- وكأنّهما صارتا امرأتين طليقتين في العالم الخارجي. فلو شهِد شاهدٌ على عناقهما ذاك لكان الثمنُ باهظاً.

- كيف ذلك؟ ومن أين لكِ الحقيقة؟ سألت روزا صديقتها، في قلق، وهي تصدُّ صديقتها، وتتقصّى في ضيقٍ، الجوارَ من حولِها.

- عشرون باتر وأربعون آفي ماريا، من أجل الاعتراف بمثل هذه الضغينة لا أرى فيها شيئاً مُهمّاً بتاتاً. ويومٌ واحد لا تتخلّلهُ كلمة واحدة. ألا تدركين أنّه خائفٌ، وأنّه سيُسارع بنقل ذلك إلى ريكيسا الشرّيرة؟! يجب أن تفعلي مثلي، والآن!

- لستُ أدري، ولا أظن أني سأجرؤ، اعترضت روزا. لا أملك أن أهدّد بأيّ شيء. لستُ مثلك امرأة قد تصبح يوماً ملِكة، لو شاءت أن تنتقم لفعلت.. ما الذي يمكن أن أهدّد به بعد عشرين عاماً أنفقتُها في الدير؟

- الفولكونغر والبيرجر بروزا! أجابت بلانكا بحميّةٍ ولكن بنبرة خافتة. ظنّي أنّ أمراً نجهله قد حدث هنا، أو أنّ أمراً سوف يحدث. هيّا هدّدي الفولكونغر!

اشتهت روزا إقدام صديقتِها التي اندفعت في عملٍ بالغ الجرأة، لم تجرؤ هي يوماً على التصرّف بمثل ما تصرّفت بلانكا لو كانت بمفردها. لكنّها الخطوة الأولى على أيّ حال.. لقد جازفت بلانكا من أجلهما معاً، ولا تجد روزا بُدّاً من أن تحذوَ حذوها.

- لا تبخلي عليّ بثقتك، سأفعل مثلك أيضا، قالت بصوتٍ منخفض وهي ترسم إشارة الصليب وتغطي رأسها بالقلنسوة، وتبتعد وهي تفرك يديها كأنّها غسلتهما للتوّ من ماء العين.

عبرت الدير وتوجّهت بلا فتور نحو كرسيّ الاعتراف الذي ارتُجل ارتجالاً. وفعلت

Twitter: @ketab_n

ما تقتضيه الصداقةُ فكظمت خوفَها من أن تُربِك المحاهرة.

لم يكن من السهل القولُ ما الذي أحدثته خطّتهما من أثرٍ، لكنّهما ما لبثتا أن أدركتا أنّ الخطّة قد فعلت فِعلها.

مكثت السيسيليتان في داخل الدير مُحاطتَين بالصمت. لم يكلّمهما أحد، ولم يعد أحدٌ ينظر إليهما بعين الحقد والضغينة كما كان يُنظَرُ إليهما في السابق. لقد صارت نظرة الآخرين إليهما تبدو الآن وكأنّ بعض الخشية تملؤها، ولم تَسْعَ أيٌّ من الآنسات إلى نقْلِ أخبارهما كلّما أخلّتا بقواعد الصمت. وما أكثر ما صارتا تُخلاّن بتلك القواعد، فكانتا تتكلّمان بلا حياءٍ وكأنهما شخصان طليقان خارج دير غودِم، وليستا حبيستين فيه.

كانت فترةً من السعادة التي حلّت عليهما على حين غرّة، لكنّها سعادة طبعُها الفضول المتعاظم لمعرفة ما يجري من حولهما ومن ورائهما حقاً. فلا شكّ أنّ باقي الفتيات كنّ يعرفن أكثر ممّا تعرفه السيسيليتان، وقد عمِلن على ألاّ تعلَم العدوّتان ما يعلمنه. لا شكّ أنّ شيئاً مُهمّاً كان يدور في الخارج، وإلاّ لكانت العصيّ أطلقت من عقالها منذ وقت طويل.

صارت السيسيليتان تجنيان مزيداً من المتعة من ذلك العمل الذي صارتا تتقاسمانه، فلا أحد يستطيع بعد اليوم أن يمنعهما من العمل معاً على مِهنةِ الحياكة، حتى إنْ علم الجميعُ أن بلانكا ليست مبتدئة في تلك المهنة، وألا حاجة لها فيها لأيّ نصيحة. كان الشتاءُ ما يزال بعيدا، وقد بدأتا في حياكة الكتّان تحت إشراف الأخت ليونور. لقد قدِمَت ليونور من مناطق نائية في الجنوب، وهي ترعى الآن حدائقَ الدير وأشجار الورد المزروعة على طول أعمدة الدير. لقد علّمتهما الأختُ ليونور كيف تُمْزَجُ الألوان، وتُخضَّبُ خيوط الكتّان بالألوان، وقد اجتهدتا في رسْم بعض الخطوط على الأقمشة التي لا تُستعمل في أغراض الدير بل تُباع خارج أسواره. وما انفكّت الفتاتان تنشدان مزيداً من التودّد إلى الأخت ليونور التي لم يكن

Twitter: @ketab_n

لها من صديقةٍ واحدة في بلاد الغوث، ولا من صلة بالمشاحنات الهائجه خارج الدير. وقد دأبتا يوماً بعد يوم على اكتساب المزيد من طريق رعاية حدائق الصيف، ومن أساليب العناية بكل نباتٍ فيها، كما ترعى الأمُّ رضيعَها، وقد علِمتا أنّ الإفراط في إرواء النباتات لا يقلّ ضرراً عن حاجتِها إلى الماء.

لم تمنعهما الأمّ ريكيسا من مخالطة الأخت ليونور. وعلى هذا النحو نشأ نوعٌ من التوازن المحمود داخل غوديم. لقد انفصلت الأخواتُ الأعداء، ورغم ذلك ظلّ السقفُ الذي يؤويهنّ هو السقف ذاته. يردّدن تحته الابتهالات نفسها وينشدن التراتيل ذاتها.

إلاّ أنّ السيسيليتين لم يُؤْذَن لهما يوماً بعبور أسوار الدير، للذهاب إلى مكانٍ آخر غير الحديقة الكائنة عند الجانب الجنوبي من تلك الأسوار. ففي هذا الأمر ظلّت الأمّ ريكيسا متصلّبةً لا تلين، وعندما ذهبت راهبتان من الدير وجميعُ الخادمات المترهبات إلى موسم سانت جان في سكارا لم تجد الفتاتان بُدّاً من البقاء في غوديم. وقد اغتاظتا وامتعضتا وأحسّتا من جديد بكراهيةٍ عنيفة نحو رئيسة الدير، لكنّهما أدركتا في الوقت نفسه أنّ أمراً من الأمور قد خفِي عليهما. أمرٌ تعرفه باقي الراهبات، ولكن لا تملك أيٌّ منهنّ حقّ البوح به إليهما.

في أثناء الصيف طرأ عارضٌ لم تقلَّ دهشتُهما له عن خوفهما منه. لقد وصل المطرانُ بِنت على عجلٍ إلى غوديم وانفرد بالأمّ ريكيسا في جناحها الخاص. فهل كان بين الحدثَين صلةٌ من الصلات ؟ ذاك ما لم تكتشف السيسيليتان أمرَه أبداً!

وما هي إلاّ بضع ساعات تمرّ على وُصول المطران حتى جاءت مجموعةٌ من الفرسان واقتربت بدورها من الدير. فإذا بالأجراس تدقّ ناقوس الخطر فتُغلَقُ على إثرها الأبواب. وفي الحال علمت السيسيليتان أنّ الفرسانَ قادمون من الشرق فسارعتا بالصعود إلى المنامة لكي تُطلاّ من النوافذ، وقد غمرهما الأمل، بل كانتا تفيضان ابتهاجاً وحبوراً. لكن ما إنْ لَمَحتا راياتِ الفرسان والأسلحة فوق أتراسهم وزرودهم حتى شعرتا كأنّ الموت يُعانق قلبَيهما. لأنّ الفرسانَ القادمين من الأعداء، وقد تَضَرّج بعضُهم بالدماء، وأصيب بعضهم بجروح بليغة أثخنتْ أبدانهم فوق

Twitter: @ketab_n

ظهور مطاياهم، فيما سَلِمَ آخرون فلم يصبهم من الأذى سوى الذعر والهلع اللذين ملآ عيونهم.

توقّف الفرسان أمام أبواب الدير التي أُحكمتْ حراستُها بالحواجز، وصرَخ قائدُهم في وجه أهل الدير بأن يسلّموه عاهرتيْ عائلة فولكونغر.

في البداية احتارت السيسيليتان اللتان مالَتا على نافذة المنامة لكي تُحسنا الإصغاء إلى ما يجري خلف الأبواب، بين الشروع في التضرّع والدعاء، وبين المكوث أمام النافذة لمعرفة المزيد. لقد رغبتْ روزا في أن تصلّي من أجل حياتهما، بينما فضّلت بلانكا أن تُصغي إلى ما يُقال، لأنّ ما يقال في رأيها أمرٌ لا بدّ منه لمعرفة ما الذي يجعل أعداءً جرحَى يُقدمون على فِعْلٍ خسيسٍ كفعل الخطف من دير. وذاك ما فعلتاه في النهاية إذ مكثتا مُنحَنيتَيْن على النافذة تُصغيان لما يُقال من أوّله إلى آخره.

وبعد برهةٍ خرج المطران بِنت من الدير وأُغلقت الأبوابُ من خلفه. ثمّ أخذ يحادثُ الفرسانَ الأعداء حديثاً هادئاً وبصوتٍ أمعن في خفوتِه فلم تنل السيسيليتان من موقْع وقوفِهما ذاك سوى نزرٍ قليل ممّا يقال، لكنّهما فهمتا أنّ المطران قد بلّغهم أنّ في انتهاكِ حرمة الأديرة إثماً عظيما، وأنّهم لن يحقّقوا مأربهم إلا على جثته. أمّا ما دار من حديث بعد ذلك فلم يصل منه شيءٌ إلى نوافذ المنامة. وفي النهاية ارتدّت المجموعة الصغيرة على أعقابها، في حركةٍ بطيئة، وعلى مضضٍ ثمّ ابتعدت في اتجاه الجنوب.

تعانقت السيسيليتان بكلّ ما تملكانه من قوّة وهما تنسابان انسياباً من تحت النوافذ فوق أرضية المنامة. وقد احتارتا بين الابتهال إلى القدّيسة العذراء، والثناء عليها بعد أن أنقذت حياتهما، وبين الضحك من فرط سعادتهما! فقد شرعت روزا في الدعاء، بينما أخذت بلانكا تنشد التأمّل بما وسعها من صفاء الذهن وجلائه. وفي الختام مالت إلى الأمام وضمّت روزا من جديد، ضمّاً أحرّ وأقوى من المرة السابقة، ثمّ قبّلتها على وجنتيها، وكأنّهما لم تعودا من سكّان وادي الدموع في غوديم.

Twitter: @ketab_n

- أيّ سيسيليا، صديقتي الغالية، ورفيقتي في النكد وسوء الطالع، في هذا المكان النحس، غمغمت بحرارة، ظنّي أنّ ما رأيناه هنا فيه خلاصُنا.

- لكنهم جنود من الأعداء. ردّدت روزا، لقد جاؤوا لكي يخطفونا ولم ننجُ إلاّ بفضل وجود المطران هنا. ما الذي ترينه مُطمئناً هنا في داخل الدير؟ وماذا لو عادوا مرّة أخرى بعد ذهاب المطران؟

- لن يعودوا مرّة أخرى. ألم ترَي أنّ هؤلاء الرجال هُزموا شرّ هزيمة؟

- أجل، صحيح، إنّ الكثير منهم كانوا جرحى...

- نعم! وما الذي يعنيه هذا في ظنّك إذن ؟ ومن هزمهم يا ترى؟

- أهم ذوونا؟

أحسّت روزا وهي تُبدي هذه الإجابة البيّنة على هذا السؤال الساذج، بألَم وحزنٍ لم تجد لهما مبرّراً أو تفسيراً. فلو حقق الفولكونغر والإيريك انتصاراً لأغبطَها ذلك كثيراً، لكنّ هذا يعني أنّها ستنفصل عن بلانكا، وهي تعلم مع ذلك أنّ أمامها سنوات طويلة سوف تقضيها في غودىم.

في ذلك اليوم اكفهرّت الأجواءُ في كامل غودىم، فما من واحدة من نزيلات الدير، باستثناء الأخت ليونور، جرؤت على النظر في عيني السيسيليتين.

لم تعد الأمّ ريكيسا التي انزوت في جناحها، للظهور ثانية إلا في اليوم التالي. وغادر المطرانُ الدير على عجلٍ كما جاءهُ على عجل، وذهب العملُ والتراتيل والقداساتُ أدراجَ الرياح. وفي أثناء صلوات المساء غنّت السيسيليتان بصوتٍ واحد لم يعهده منهما أحدٌ من قبل قطّ. فالتي تُسمّى بلانكا لم تُصدر صوتاً ناشزاً واحداً. وأمّا تلك التي تسمّى روزا فقد غنّت كما لم تُغَنّ من قبلُ، بصوت ازداد قوّةً وجرأةً، وإن كادت تلك الجرأةُ تمتهنُ قداسةَ تلك الصلوات وتجعلها تضطرب أحياناً بسبب ما يُداخلها من تبدّلات جديدة. لكنْ لم يصحّحها أحدٌ. ولا وجود للأمّ ريكيسا لكي تُفسد مشهد ذلك الغناء السعيد.

وفي اليوم التالي أقبل فرسانٌ من سكارا على عجلٍ يحملون رسالة إلى الأمّ ريكيسا، فاستقبلتهم في الملجأ ثمّ انزوت في جناحها حتى لا تصادف أحداً قبل

Twitter: @ketab_n

صلاة الساعات الأولى التي يعقبها أوّلُ قداسات اليوم. ففي أثناء ذلك القداس ستوزَّع القرابين، على الرغم من أنّ عيد الحَصاد فات وانقضى وأعياد الميلاد لا تزال بعيدة جداً.

كُرِّس القربانُ في سكرستيّة الدير على يدِ كاهنٍ مجهول من الكهنة المعاونين، أو شخص من سكارا. ثمّ وُزّع حسب الترتيب المعتاد، على الراهبات أوّلاً، ثمّ الراهبات المساعدات، وعلى الآنسات في النهاية.

ثم أُتي بالخمرة المقدّسة، ودقَّ الجرسُ احتفالاً بالمعجزة. ثمّ قدّمت رئيسة الدير بإحدى يديها الكأسَ المقدّسة لهؤلاء وأولئك، وبيدها الثانية عَرضت على متناولات القربان " الفستولا" Fistula، أيّ القشّة التي تمتصّ بها خمرتها.

وحين جاء دورُ روزا في تناول دمِ المسيح شربته بتروٍّ وشعور حقيقي بالامتنان، لأنّ ذلك الذي يجري من حولها يؤكّد الكثير ممّا كانت تُمنّي به نفسَها. لكنْ لمّا جاء دورُ بلانكا سُمِع صوتُ امتصاصٍ قويّ، ربّما لأنها آخرُ من يشرب، أو لأنّ الخمرة نفدت أو كادت في الكأس المقدّسة. لكنّها بلا شكّ رغبت أيضاً في أن تُظهر ازدراءَها، ليس للربّ، وإنما لغودم.

ثمّ توجّهتا بعد ذلك إلى قاعة مجمع الرهبان، متصلبتين مثل قِطع من الخشب لفرط ما أصابهما من توتّر وإجهادٍ، فاستقبلتهما الأمّ ريكيسا بعينين كلّحَتْهُما قلّةُ النوم، وهي تكاد تخرّ فوق كرسيّها الذي اعتادت أن تتربّع عليه كالملِكات.

تُليت الصلواتُ على عجل، وكذلك تُلي الإنجيل تلاوةً انصبت في ذلك اليوم حول النعمة والرحمة وهو ما حثّ سيسيليا روزا على إرسال غمزةٍ تشجيع لصديقتها تنبئُ بأنّ كلّ شيءٍ يسير نحو الأفضل. لأنّ النعمةَ والرحمة ليستا من المواضيع المحبّبة إلى نفسِ الأمّ ريكيسا في مثل ذلك المقام.

ثمّ خيّم هدوءُ ثقيل في القاعة. لقد شرعت الأمُّ ريكيسا بصوتٍ خفيض لا عهد لأحدٍ به في سرد أسماء الإخوة والأخوات الرهبان والراهبات الذين تطأ الآن أقدامُهم جنّاتِ الخلد الواسعة. وقد أصغتْ روزا إليها لكنْ لم يرِد من بين الأسماء جميعاً اسمٌ واحدٌ من أسماء فرسان هيكل الربّ.

عاد الهدوءُ ليخيّم مرّة أخرى، وبدت الأمّ ريكيسا التي ما انفكّت تلوي يديها

Twitter: @ketab_n

كأنها صارت على حافةِ الدمع، ولو أسعفتها الدّموعُ حقاً لما صدّقتها أيٌّ من السيسيليتين. فبعد أن مكثت صامتة بعض الوقت وهي تحاول أن تتمالك نفسها إذ بهذه الساحرة الشمطاء تجمعُ شجاعتها وتبسط لفيفة من ورق الرقّ وتقول بصوت واهن:

– لنصلّ باسم الأب والابن والقدّيسة العذراء، لكل الذين، أصدقاءً كانوا أم أعداء، سقطوا فيما سنسمّيه منذ الآن، ساحات بجالبو الدامية.

وعند هذا الحدّ توقّفت قليلاً قبل أن تتمالك نفسها مرّة أخرى. ولما سمعت السيسيليتان اسم بجالبو إذ بقلبيهما ينقبضان غصّة وألماً. فهي ساحة الفولكونغر القوية، مقرّ إقامة بيرجر بروزا، وفيها مزرعته، والحربُ على ما يبدو قد وصلت إليها.

"ومن بين هؤلاء وما أكثرهم..." واصلت الأمّ ريكيسا التي فقدت سياق أقوالها فاضطرّت لأن تبذل جهداً عنيفاً على نفسها حتّى تستمرّ في حديثها، "فمن بين الذين سقطوا هناك اليارلان بُولسلاف وكُول والعديد من أصدقائهما الذين لا يسعني أن أعدّد أسماءهم جميعاً. سنصلّي إذاً لأرواح المتوفين ونُقيم حداداً لأسبوع كامل لن نمنح خلاله لأنفسنا سوى الخبز الجافّ والماء، لأننا سوف نكون...في حدادٍ جلل!"

عند هذا الحدّ توقّفت عن الكلام واللفيفةُ مبسوطةً في يدِها، وكأنّها لا تملك قوّة الاستمرار في قراءتها. وعند هذا الحدّ أيضاً بدأ صوتُ الشهيق والزفير يعلو في هذا المكان أو ذاك من القاعة.

نهضت بلانكا، وباعتزازٍ أمسكت صديقتها من يدها –كانتا تجلسان كعادتهما في آخر القاعة، وبصوتٍ غيرِ مضطرب، ودون أن تُبدي تهكّماً أو فرحاً من مشهد شقاء الآخرين، إذ بها تخالف قواعد الصمت والهدوء.

" أم ريكيسا، قالت بلانكا، بالله عليك سامحينا. أنا وسيسيليا ألفسدوتر سوف ندعك الآن لحزنك. الحزن الذي لا يسعنا أن نشاطرك إيّاه حسب الأصول. سنذهب الآن إلى الدير لكي نتأمل بطريقتنا الخاصة في أمرِ كلّ ما جرى".

قالت ذلك بجرأة لامست التطاول والوقاحة، لكنّ الأمّ ريكيسا اكتفت بإعطائهما الإذن بالذهاب، بإشارة من يدها. ثمّ جرّت بلانكا صديقتها خطوةً إلى

Twitter: @ketab_n

الأمام، ثمّ انحنت الحناءَة أدب كيفما اتفق لها الانحناءُ، وهي تؤدي إشارة واسعةً بيدها، وكأنها صارت ملكةً قبل الأوان، قبل أن تغادر مجمع الكهنة، وفي إثرها سيسيليا الثانية.

وما لبثنا أن وصلتا إلى الدير، فشرعتا في الركض بخطىً خفيفة حتى لا تسمعهما دامعاتُ العيون. ثمّ توقّفتا وتعانقتا، وتبادلتا القبلات بأقل الصور احتشاماً. ثمّ أخذتا تدوران في حلقة مفرغة وكأنهما ترقصان. لم تكونا بحاجة لأن يقال لهما شيءٌ من الأشياء، فقد كانتا تعرفان ذلك الذي كانتا بحاجة إلى معرفته، من أوّله إلى آخره.

فإذا كانُ ولسلاف وكُول قد أصبحا في عداد الأمواتِ تكون الحرب قد وضعت أوزارها. وإذا كان السفيركر قد هاجموا بحالبو فذاك يعني أنّ الفولكونغر، ولو بعد تردّد، قد أشهروا السلاح حتى آخر فردٍ منهم، فحاربوا حتّى آخر رمقٍ منهم، من أجل أن ينتصروا أو يموتوا. فإن وقعت المعركةُ في بحالبو حقاً فليس ثمّة من احتمالٍ آخر غير ذلك الاحتمال حقاً!

وإذا كان الطامعان في العرش في المعسكر الآخر قد فارقا الحياة فذاك يعني حتماً أنّ من خرجوا من أنصارهم سالمين من المعركة قلّةٌ قليلة لا محالة، لأنّ العظام في هذا العالم هم آخر من يسقط في المعركة. لعلّ بيرجر بروزا وكنوت إريكسون قد أحرزا نصراً عظيماً وحاسماً. فلذلك السبب جاء السفيركر إلى غودهم بعد أن تلاعبت بهم الرياحُ، على أمل أن يرضوا من الغنيمة بالإياب، ويجعلوا خطيبة كنوتْ رهينتهم.

لقد انتهت الحرب وانتصر معسكرهم فيها. فتلك الفترةُ سرعان ما حجبت الأفكار الأخرى، في لحظة الفرحة الأولى، فرحة السيسيليتين وهما ترقصان في داخل الدير، تشدُّ يدا كلّ واحد منهما خصر الثانية.

فلم تدركا إلاّ فيما بعد أنّ ما جرى في بحالبو على ساحات الوغى ينطوي على انفصالهما حتماً. فساعةُ حرية سيسيليا بلانكا سوف تدقُّ قريباً!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

كان أرماند دي غاسكونا، الرّقيبُ في رهبانيةِ هيكل الرّب، رجلاً لا يخشى أيّ شيء ليس فقط لأنّ الخوفَ مخالفٌ لقواعد الرهبانية، إذ الخوف حِرْمٌ على فرسان هيكل الرّب، بل لأنّ الخوفَ كان مخالفاً لما يُرضي نفسه، ومخالفا لرغبتِه الغالية في أن تحتويه الرهبانيةُ فارساً لا يقلُّ شأناً عن باقي فرسانها.

لكنّ أرماند ما لبث أن شعر مع ذلك بما يشبه الخشيةَ عندما توارت الشمسُ في مغيبِها وتراءتْ له أسوارُ القدس. لقد سَرَتْ في بَدَنه قشعريرةٌ غريبة، وانتصب شعرُ ساعديه المفتولين. لكنّ الهِمَّة ما لبثت أن كسَت محيّاهُ مرّة أخرى.

كانت رحلةُ الفرسان شاقّة عسيرة، فلم يمنحهم سيّدُهم آرن سوى وَقْفَة قصيرة عند منتصف النهار. لقد قطعوا المسيرَ في صمتٍ، لا يتوقّفون فيه إلاّ عندما يضطرّون للنزول عن سُروجهم ليُعيدوا ترتيب حمولة مطاياهم. لقد تصلّبت الجثامين الستّة أيّما تصلّب فصار الذُبابُ يتكاثر من حولها كلّما صعدت الشمس في كبد السماء. لكنّ تلك الجثامين لم تكن وحدها مبعثَ همّهم واهتمامهم، إذ كان حسبهم أن يثنوها على أيّ صورةٍ من الصور ليسهُل حزمُها وربطُها. لكنّ غنيمةَ اللصوص أضحت بالمقابل جسيمةً لا يطيقون حملَها. كانت تلك الغنيمةُ أشكالاً وألواناً: أسلحة تركية الصنع، وكؤوسا مسيحية، وحريرا، وديباجا، وحليّا، وعتادا فرنكيا وقائيا، ومهاميز من الذهب أو الفضّة، وأحجارا زرقاء مصرية المنشأ. وأحجارا نبيلة – بنفسجية وزرقاء ممزوجة بالأخضر– لم ير أرماند مثلها في حياته

Twitter: @ketab_n

قطّ، وأصلبة ذهبية صغيرة، معلّقة في سلاسل مصنوعة بشتى أنواع المعدن، من الجلد إلى الذهب المُصْمَتِ المطروق. وحسبنا هذه القائمة لنقدّر نحو عشرين ألفاً عددَ المؤمنين – عليهم السلام- الذين يسكنون اليوم فسيح الجنان، لأنهم ماتوا شهداء على الطريق المؤدي إلى المكان الذي عمّد فيه القدّيسُ يوحنا المعمدان، السيدَ المسيحَ في مياه نهر الأردن.

انتفخَ لسانُ أرماند حتى صار يحسّ وكأن قطعة من الجلد، جافّة كرمل الصحراء، تملأ فاه، ليس لأن زادهم من الماء قد نضب، فحصانه كان كلّما خطا خطوةً وسمعه ينهل بنَهَم من القربة المعلّقة على الجانب الأيمن من مطيته، بل لأن قواعد الرهبانية تقضي بذلك، فعلى كاهن هيكل الرّب أن يتمالك نفسه وأن يُثبت قدرته على مقاومة ما ليس لغيره طاقةٌ على تحمّله. فالرقيب على الخصوص لا يجوز له أن يشرب دون إذْن سيّده، مثلما لا يحقّ له الكلامُ إذا لم يُوجَّه له الكلامُ، أو الوقوف دون تلقيه الأمر بالوقوف.

راود آرن الشكُّ في أنّ سيّدَه لا يخلو من نوايا مُبيّتة، ما دام يُثابر على معاملتِه بمثل تلك القسوة، ومادام يُلزِمُ نفسَهُ بالمعاملة نفسِها. كان ذلك الأمرُ متصلاً بما حدَث في تلك الصبيحة. لقد قال أرماند الحقيقةَ كما تُوجبه قواعدُ الرهبانية. فقد سُئِل إن كان يرغب في أن يصبح فارساً ويرتدي الثوب الأبيض. هزّ السيد آرن رأسه متفكراً متأملاً ولم يُفصح عن أيّ مزيد. ومنذ تلك اللحظة لم يتبادلا كلمةً واحدة.

لم يقفا سوى وقفةٍ قصيرة واحدة للاستراحة، فهما لا يتوقفان إلاّ عندما يصادفان الماءَ يسقيان به أحصنتَهم – ولكي يشربا هُم أنفسهم- ذلك خلال أشدّ أيام الحرّ في السنة. لقد لاحظ آرن خلال الساعة الأخيرة أن عضلات دوابّهما الأمامية ترتجف في كل خطوة من خطواتها، فلعلّ ذلك اليوم كان شاقّاً على مطاياهم أيضاً. فالحال أنّ قواعد الرهبانية تسري أيضاً على جيادِ فرسان هيكل الرّب أيضاً. فلا أحد يُقلع عن تلك القواعد. فالجميع يُذعن ويطيع، ويصبر على تحمّلِ ما لا يتحمّله الآخرون.

وعندما وصلوا في النهاية أمام مدخَلِ السور المعروف باسم بابِ الأسود إذْ

Twitter: @ketab_n

بغيمةٍ تغشَى عينَيْ أرماند برهةً، فيضطر لأنْ يُمسك بمقبضِ السرج بقوّة حتى لا يسقط من على الحصان، لكنّه ما لبثَ أن تمالك نفسه بعد أن وَخَزَهُ فضولُ حالةِ الضجيج والعجيج التي أحدثها وصولُهم، وما رافقهم من حمولةٍ قلّما رأى الناسُ مثلها. ومن يدري، فلعلّه ظنّ انّ أحداً سيأذنُ له بأنْ يروي ظمأَهُ، لكنّه أخطأ في ما ذهب إليه من ظنٍّ خطأً فادحاً.

كان مدخلُ المدينة آمناً تحرسه عيون جنود الملك يرافقهم راهب من هيكل الربّ ونقيبُه. وعندما اقترب أحد الجنود من حصان آرن دي غوثيا لكي يمسك بزمام الحصان، ويتحقق من جواز مروره، ومن نشاطاته في المدينة، إذا براهب هيكل الرّب بلباسه الأبيض يستلُّ سيفَه، ويقطع أمامه الطريق، ويأمر نقيبه بأن يُبعِد عنه الفضوليين، فعلى هذا النحو دخل أرماند وسيّدُه إلى قلب العالم من دون أن ينبسا بكلمة واحدة: فهما عضوان في جيش الرّب المقدّس ولا ينصاعان لأحدٍ في الأرض غير بابا روما المقدّس. فلا يدين الراهبُ في هيكل الرّب بالطاعة لأي مطران حتى لو كان بطريركاً، ولا لأيّ ملك من الملوك، بمن فيهم ملك القدس. ناهيك عن جنود الجيش الملكي غير المنضبطين.

انطلق بهما الرقيبُ من عند الباب واقتادهما عبر أزقّة صغيرة مبلّطة، وهو يُباعد عنهما من حين لآخر، أطفال الطرقات والفضوليين الراغبين في الاقتراب من الجثامين لينفثُوا فوقها بُصاقهم إن كانوا مسيحيين، أو لكي يتعرّفوا على أحدهم إن كانوا من الكفرة. وقد صار رأس أرماند يُطنطن لفرط سماع تلك الوفرة من اللغات، لقد كان يفهم الأرمينية والإغريقية دون بقية اللهجات والألسنة.

وعند اقترابهم من الساحة توجّهوا نحو الإسطبلات الكائنة إلى أسفل قصر سليمان. كان يحرسُ الأبواب الخشبيّةَ الكبيرة، النافذةَ إلى قاعة واسعة مقوّسة، جنودٌ جيء بهم حديثاً، جميعهم رُقباء في الرهبانية.

ترجّل سيدُ أرماند بتوانٍ من على حصانه، ومدّ زمام الفرس لواحد ممّن كانوا ينتظرون في أدبٍ. ثمّ قال له شيئاً بصوتٍ خافتٍ قبل أن يلتفت نحو أرماند ويأمره بصوتٍ أجشّ بالنزول عن سرْج حصانه، والذهاب بمطيته إلى حيث مربط الخيل.

Twitter: @ketab_n

أقبل فارس من فرسان هيكل الربّ مسرعاً، بثوبه الأبيض، وانحنى أمام آرن الذي ردّ التحيّة، ثمّ غاص الاثنان بين صفوف الأعمدة الطويلة في تلك الإسطبلات العجيبة. ثمّ توقّفا بعد حين في مكان هُيّئَت فيه أدواتُ الكتابة فوق طاولة، حيث وقف كاتبٌ من الرهبان وهو يمسك بسجلّ، وجرى ما بين السيد آرن وأخيه في السلاح حديثٌ قصير لم يصل إلى مسمع أرماند، ثمّ تلقّى الرقباءُ الأمر بإنزال حمولة الجياد، وبتقديم كلّ بضاعةٍ إلى الكُتّاب الرهبان المكلّفين بإعداد جردٍ بتلك الحمولة، فيما راح آرن يشير لأرماند بأن يتبعه.

ثمّ عبر الرجلان تلك الإسطبلات الشاسعة. لقد سمع آرن أكثر من مرّة أنّها قد تضمّ أكثر من مئة ألف دابّة، بيد أنّه لم يصدّق ذلك القول فرآه غريباً مفرطاً، لكنّه في المقابل رأى في قول القائل بأن الإسطبلات تمتدّ مدى السهم طولاً ومدى السهم عرضاً، أنّ هذا القياس دقيق كلّ الدقّة.

كانت تلك القاعةُ جميلة نظيفة، فلا أثَرَ في الأروقةِ لرَوْث ولا أثر لقشّة، حتى صار البلاطُ بادياً للعيانِ في كلّ مكانٍ. وكانت الخيولُ التي انتَظمت في صفّ واحد، إما سارحةً، وإما تنتظر الخدمَ بزيّهِم الأسمر لكي يعرضوها ويُبَيْطِرُوها، أو لكي يسقوها ماءً ويُطعِموها علفاً. وهنا وهناك إما رقيبٌ بزيّه الأسود، منهمك بمطيتهِ، وإما فارس بثوبه الأبيض بالقرب من مطيته أيضاً. وكلما مرّ أرماند وآرن بالقرب من رقيبٍ انحنى له أرماند، وكلّما مرّا كلاهما بالقرب من فارسٍ انحنى له آرن. لقد رأى أرماند في ذلك قوّةً لم تخطر له يوماً قط. فهو لم يأتِ إلى القدس من قبلُ سوى مرّةٍ واحدة ليزور القبرَ المقدس، لكنه لم يدخلْ إلى مقرّ فرسان هيكل الربّ. ورغم كلّ ما سمِعه عن ذلك المقر فقد وجده أعظمَ مهابةً ممّا تصوّر. كانت تلك الخيول الجميلة المهذّبةُ التي يساوي ثقلُها ذهباً، عربيةً أصيلة كانت أم إفرنجية أو أندلسية، كافيةً لبناء جيشٍ قوي البأسِ، رفيع الشأن.

وانتهيا عند أقصَى الغرفة إلى أدراج حلزونيةٍ تؤدي إلى الطوابقِ العليا. وبدا المكانُ أليفاً لسيدّ أرماند فلم يتلمّسْ فيهِ طريقَه، واختار ثالثَ أو رابعَ تلك الأدراجِ فصعداها وسطِ العتمة. وفجأةً أطلا على فناءٍ واسع فانبهرتْ عَيْنا أرماند بأشعةِ

Twitter: @ketab_n

الغروب المنعكسةِ على قبّةٍ كبيرة من الذهب وأخرى من الفضةِ أصغر حجماً. وتوقّف سيّدُه ودعاه في صمتٍ بإشارةٍ من يده كي يتأمَّلِ ذلك المشهد المقدس، ثم اقترب من المكان ولاحظ في ذهولٍ أن القبّةَ الذهبية مغلّفةٌ بكاملها بصفائحَ مستطيلة من الذهبِ المُصمَّت . فما أكثر ما ظنّ أنّ الفائحَ قرميدٌ مطليٌّ بالبرنيق، ولو عرَف أنّ كنيسةً من الكنائس غُلِّفَ سقفُها بالذهب الخالص لَدَوَّخ ذلك السقفُ المذهّبُ رأسَه.

مكث سيّدُه لا يقول شيئاً، لكنْ بعد هُنيهةٍ أشار إليه بمواصلةِ السيرِ فسار أرماند في إثرِه في متاهةٍ من الحدائقِ والجداول، وسط بقايا قديمةٍ لبيوتٍ من كافةِ الأنماطِ والألوانِ. كان بعضُ تلك البيوتِ شرقيَّ الطابعِ في ظاهرِه، فيما كان البعضُ الآخرُ إفرنجيَّ الطرازِ. وكان بعضُها مطلياً بالجيرِ والبعضُ الآخرُ مغلَّفاً بالخزفِ العربي، الأزرقِ والأخضرِ والأبيض، ومطلياً بالبرنيقِ تُزيّنُه رسومٌ من صميم طراز الكفرة. وإلى واحدةٍ من مجموعة هذا الطراز من البيوت بقبابِها المطليّةِ طلاءً خشِناً أبيضَ اللونِ دخل آرن ودخل أرماند في إثرِه، تفصله خُطوتانِ عن سيّده.

ثم توقفا أمام ثلاثة أبوابٍ أو أربعة، خشَبيّة ومتشابهة، مطلية باللون الأبيض، يُزيّنها صليبُ الرهبانية في حجْم راحةِ اليد الواحدة. التفَت آرن من حولِه وبنظرةٍ فاحصة شِبْهِ لاهية رصَد رقيبَه قبل أن يُوجّه إليه حديثَه. كان أرماند خاليَ البالِ، لم يخطرْ له شيءٌ ممّا كان سيحدث له بعد حين. فكلُّ ما يعرفُه أنه سيتلقّى أمراً من سيّدِه، وعليه أنْ يستقبله بالسمعِ والطاعة. كاد أن يموتَ عطشاً.

– أيْ رقيبي الطيب. ستفعلُ الآن ما سآمُرك به ولا شيءَ غيره، قال آرن في النهاية. ستدخُل من هذه الباب وستجِد نفسَك في غرفةٍ خالية إلا من كرسيّ من خشب. هناك، هل...

تردّد آرن ثم تَنَحْنَحَ. فلعله شعَر أنه لا يستطيع الحديثَ في يُسرٍ بعدما جفَّ حلقُه.

– هناكَ ستخلعُ كلَّ ملابسَك. نعم كل ملابسك: زردية سلاحك، ودرعك، وسروالك ونعلك، حتى الوجه الخارجي للمشدِّ الذي تحمِله حول أَدْنَس جزءٍ من

Twitter: @ketab_n

جسمك، وكذلك الوجه الداخلي لهذا المشدَ الذي لا تخلعه أبداً. ثم ستخلع القميصَ الذي تحمله تحت زرديتك، وكذلك الحزام الذي يحيط به، حتى تكون عارياً تماماً. أفهمتَ جيداً ما قلتُه لك؟

- نعم سيدي، فهمتُ، قال آرماند بصوتٍ خافتٍ وهو يُطرقُ رأسَه في خجلٍ وارتباك، ويبذلُ قصارَى الجهدِ حتى تنطقَ شَفتاه ببضعِ كلمات. لكنّكَ سيدي تطلبُ مني أن أخلعَ كلَّ ملابسي، لكنّ القواعدَ تقول...

- أنت الآن في القدس، أقدسِ المدائن، وفي أقدسِ حاراتِنا في العالمِ جميعاً! هنا تعلُو وتسودُ قواعدُ أخرى مختلفة! قال آرن بلهجةٍ صارمة. وعندما تفعل ما قلتُه لك ستمرُّ من البابِ الآخر إلى الغرفة المجاورة. هناك ستجدُ ماءً تغطّس فيه جسمَك كاملا، وزيوتاً لكي تدهنَه بها، وكلَّ ما يلزمُك لكي تصيرَ نظيفاً. فاغتسلْ إذاً وغطّسْ جسمَك كاملاً في الماءِ بما فيه شعرك. وهكذا ستصيرُ نقيّاً. أفهمتَ ما قلتُه لك؟

- نعم سيدي، فهمتُ، لكنّ القواعد...؟

- اذهبْ واغتسلْ في ثانية تلك الغرف، قاطعه آرن وكأنه لم يجدْ عناءً في إخراجِ تلك الكلماتِ من فمِه الذي صار جافاً. وتتوقّفْ عن الاغتسالِ حتى ترى هبوطَ الليلِ من نوافذِ تلك الغرفة. وعندما تسمع المؤذّنَ وهو ينادي المؤمنينَ للصلاةِ ويقول "الله أكبر" وما يليها من كلماتٍ عُدْ إلى الغرفة الأولى وستجدُ فيها ملابسَ جديدة من نوعِ الملابسِ التي جِئْتَ بها، فالْبِسْها وستجدني في انتظارِك حيث نحن الآن في هذه اللحظة! أفهمتَ جيداً؟

- نعم، سيدي، فهمت.

- حسناً. لم يبقَ عندي سوى أمرْ واحدٍ سأقوله لك. ستغتسل في الماءِ، وستغطس جسمَك بالكاملِ في الماء. ستجدُ الماءَ من حولِك، ومن فوقِ رأسِك، وأكثر من ذلك أيضاً. لكنْ عليك ألا تشربَ منه قطرةً واحدة. هذه أوامري، فائتَمِرْ!

لم يجد أرماند ما يردُّ به على سيده من فرطِ إرباكِه وذهوله. وإنه لكذلك إذ

Twitter: @ketab_n

بسيده يستديرُ ويخطو خطوةً نحو البابِ المجاورِ ويتأهب للخروج. لكنه لم يكد يختفي وراءَ ذلك البابِ حتى لاحَ له خاطِرٌ فاستدار وهو يبتسم قائلا:

- لا تقلقْ يا أرماند، فالذين سيغيّرون ملابسَك لن يروك عارياً. فهم لا يعرفون حتى مَن أنتَ، إنهم يكتفون بالإطاعة.

وعلى هذه الكلماتِ اختفى فارسُ هيكل الربّ خلفَ البابِ وأغلقَه بحركةٍ حازمة.

مكث أرماند بلا حِراكٍ في البداية. وقد شعر بقلبِه وهو يخفق خفقاً في صدرِه بعد تلك الأوامر، لكنه ما لبث أن تمالك نفسَه وتشجّع ودخل دون تردّدٍ إلى الغرفة الأولى، فوجد كلّ شيءٍ فيها كما قال سيّدُه تماماً: لا شيء غير مقعدٍ خشبيّ وباب ثانٍ. كانت الأرضيةُ تسطع ببياضها اللامع، وكانت الجدرانُ مغلّفةً بخزفٍ سماويّ اللونِ لا زخرفةَ فيها وكان السقفُ المقبّبُ مطلياً بالجِيرِ تتخلّله فتحاتٌ صغيرة على هيئة نجوم.

نحّى في البدايةِ معطفَه النَتِن، ذلك الذي حملَه كما يحملُه سيّده على ذراعه اليسرى. ثم فكّ سيفَه وزرديةَ السلاح الملطّخة بالدماء. فعَل كلَّ ذلك بلا تردّدٍ، ولم يتردّدْ أيضاً في خلعِ درعِه وسرواله، وكذلك نعله المغلّفِ بمعادنَ مُذلّلة.

ولمّا لم يبقَ على جسده سوى القميص إذا بالشوكِ يأخذ فيه مأخذَه. لكنّ الأوامرَ هي الأوامرُ لا حيلةَ له فيها. فخلع إذاً قميصَه والحزامَ الذي حوله، وتردّد ثانيةً عند خلعِه المِشَدَّيْنِ المصنوعين من جلدِ الضأنِ، لكنه أغمض عينيه وفكَّ المشدّين معاً. وبعد ذلك مكث واقفاً لهنيهةٍ قبل أن يقوَى على الرؤيةَ من جديد. لقد أحسّ أنه يعيش في حلمٍ أو كابوسٍ، ولم يكن يعرف سوى شيءٍ واحدٍ وهو الطاعةُ ولا شيءَ سوى الطاعة. وبقبضةٍ قوية فتَح بابَ الغرفةِ الثانية ودخل إليها، وفي الحالِ أغلقَ على نفسِه، مغمض العينين.

لكنّ الذي رآه بعد ذلك أذهله كثيراً. كانت الغرفةُ تحتوي على ثلاثِ نوافذ في شكلِ أقواسٍ قوطية، مزوّدةٍ بشبابيك خارجية يدخل منها نورُ النهار، لكنها تحجب رؤيةَ ما في داخل الغرفة التي تتراءَى للناظرِ منها أبراجٌ وقِبابُ أجراسٍ، وتُسمَعُ

Twitter: @ketab_n

الأصواتُ القادمة من قبل المدينة. وقد مرّت بالقرب حمائمُ مرفرفة ترنّ أجنحتُها رنّاً في سماءِ ذلك المساء الصائفِ. لكن، بطبيعة الحال، لا أحد يستطيع أن يُبصر أيَّ شيءٍ من خلفِ ألواحِ تلك الشبابيكِ المزوّدةِ بفتحاتِ النور المتجهةِ إلى العُلا.

كانت جدرانُ تلك الغرفةِ مزيّنةً بزخارفَ عربيةٍ زرقاءَ اللونِ، وخضراء وبيضاءَ تُشبه زخارفَ الكنيسةِ ذات القبّةِ الذهبية الكائنةِ في ساحةِ المدينة. كانت القبابُ تستند إلى أعمدةٍ رفيعةٍ من المرمر الأبيض، تبدو وكأنها لُفَّتْ على نفسِها لفّاً من أسفلِها إلى أعلى السقف. وكانت الأرضيةُ مغطّاةً ببلاطٍ من الخزف المطليِّ بالبرنيقِ الأسودِ وبالذهب الخالِص، عرضُها شبرانِ، وقد رُتِّبتْ ترتيباً يشبه رقعةَ لعبةِ الضامّة. وإلى يسار الغرفة استقرّتْ حفرةٌ مليئةٌ بالماء وأدراجٌ تؤدي إلى حوضٍ يتّسعُ في يُسرٍ لحصانين، وإلى اليمين حفرةٌ وأدراجٌ وحوضٌ أيضاً. وعلى الطاولتين المرصّعتين بنقوشٍ عربية بعرق اللؤلؤ وُضعت كؤوسٌ فضية تحوي زيوتاً بشتى الألوانِ ومصباحان مُضاءَانِ من الفضة أيضاً. وعلى مقعدٍ من خشبِ اللوز المرصّع بخشب الأبنوس وشجر الجلّ وضعت قِطعٌ كبيرة من الكتّان الأبيض.

تردّد أرماند، ثم ردّد بصوتٍ خافتٍ ذلك الأمرَ الذي تلقّاه من سيّده ولا حيلةَ له فيه سوى السمع والطاعة.

تقدّم بخطوةٍ حائرة نحو أحدِ الحوضين والأدراج التي تهبط إليه. وغاصَ في الماء حتى الركبتين قبل أن يرتدّ على عَقِبَيْه. لقد أيقنَ أنّ الماءَ شديدُ السخونةِ بعد أن رأى البخارَ يتصاعد من على سطحه. فاتجه إذاً إلى الحوضِ الثاني، تاركاً وراءَه آثارَ خطواته على ذهبِ الأرضية الدافئة. ثم خاضَ محاولتَه الثانية. هنا كان الماءُ نَديّاً كماءِ السواقي فغاص فيه حتى الفخذين، ومكث بلا حراكٍ برهةً من الزمنِ، حائرَ البالِ لا يزعُم لنفسه سلوكاً واضحاً. ثم جعل يتفحّصُ جسمَه ويتلمّسه في حذرٍ ورويّة. كانت يداه سمراوين حتى المِعصمَين، لكنّ الباقي كان أبيضَ كبياضِ حمائمِ بلدةِ غاسكونيا. وقد رأى أنّ آثاراً للملح والوسخ قد ترسّبت هنا وهناك في ثنايا جلدِه وطياته. وقال لنفسه إن القواعدَ تُحرّم المتعةَ لكنه ما لبث أن تذكّر واجبَ الطاعة، فهبط هذه المرّة كلّ الدرجات وبلا تردُّدٍ غطّس كاملَ جسمِه في ذلك الماء

Twitter: @ketab_n

النديِّ وهو يلوّح بذراعيه. وتذكّر الأيامَ التي كان يستحمُّ في مياهِ النهر، في موطنِه، من تحت الحصن، عندما لم يكن كلُّ شيءٍ سوى لَعِب، وعندما لم تكن تتخلّلُ السماءَ غيمةٌ واحدة. كان في تلك الأثناءِ يقضي أيامَه في غاسكونيا الآمنة من الحربِ وويلاتها. وفجأة غطس في الماءِ، لكنّ الماءَ دخل أنفَه فانتصبَ في وسط الحوضِ وتنفّض، ثم جرّب سباحةَ الصدر لكنه سرعان ما اصطدم بالحافةِ المزيّنة بالخزف الأزرق. ثم غطس في الماء ثانيةً واندفع بقوةِ الساقين نحو الحافةِ الأخرى، لكنه تهوّر فأغمض عينيه فارتطم رأسُه بتربيعات الخزف، فتألّمَ فأصدرَ أنيناً من الغضب، لكنه توقّى التحديفَ لأنّ القواعد لا تبيح التحديف. ثم استقام وحكّ رأسه الأليمة. وإنه لكذلك إذ به يشعر بفرحةٍ غامرة لم يجدْ لها تفسيراً، فغطس جوفَ راحتِه في الماء وقذف بمحتواها في فمِه. لكنه تمالك نفسَه في الحالِ وبَصَقَ الماءَ في وجلٍ لأن ذلك الماءَ محرّمٌ حتى آخر قطرة، فلا يحقّ له أن يشرب منه.

فحَص مختلف المراهم والدهون المنتشرة فوق الطاولة ما بين الحوضَين، ودهَن في حذرٍ مختلف أجزاء الجسم التي يحقّ له لمسُها من دون أن يرتكبَ إثماً من الآثام. وقد جرّبَ مختلفَ الألوان التي امتلأت بها الأقداحُ حتى يجد ما يناسبُ منها شعْرَ رأسه، وأخيراً دهَن بالزيتِ جسمَه من الرأس إلى القدمين. ثم هبطَ مرّةً أخرى إلى أكثرِ الحوضين نداوة، فغسل كاملَ الجسم مع اللحيةِ ورأسِ الشَّعر، بالغطْسِ الكاملِ تحت الماء. ثم هدأتْ حركتُه على سطحِ الماء وهو يتأمّلُ النقوشَ العربيةَ التي تزيّنُ سقفَ الغرفة، وهو يحدّث نفسَه قائلا "إنها حقاً غرفة انتظار الجنة!"

وبعد هنيهة شعر بالبردِ فخطر له أن يجّربَ ماء الحوض الساخن الذي صار الآن فاتراً فتوراً يمنحه الانطباعَ بأنه يغوصُ في العدم، فاقشعرّ بدنُه بالكامل وبدأ يرتجف كما يرتجفُ الكلبُ أو الهرُّ، ثم بدأ يطفو فوق هذا العدمِ الفاترِ، ثم قرّر أن يدعَكَ كلَّ أجزاء الجسم حتى أكثر الأماكنِ دنَساً وحُرمةً فيه. فلَم يستطعْ أنْ يقاوم إغواءَ الإثم فقطع على نفسِه وعداً بأنه سيجاهرُ عند عودته بذلك الإثمِ الذي ظل يُحجمُ عنه لفترة طويلة.

ظل طويلاً مستغرقاً في أحلامِ اليقظة، لا يحرّكُ ساكناً، فوق سطحِ الماءِ وكأنه

Twitter: @ketab_n

يحلّقُ في سماءِ الحلم. كان في غرفة انتظار الجنة، لكنه كان في الوقتِ نفسِه بعيداً عن هنا، على ضفةِ نهرِ غاسكونيا، مسقطِ رأسِه، وفي زمنٍ أروع وأحلى.

أيقظَه فجأة صوتُ الكفرة الثاقبِ يُنادي للصلاةِ من أعلى أسقفِ المدينة، وكأنه ناقوسُ خطر. فخرج من الماءِ مذعوراً، مُعذَّبَ الضميرِ، ثم فركَ جسمَه بِقطَع القماشِ الناعمِ الأبيض وهو يظنّ أنها وُضِعت هناك للتنشيف خصيصاً.

وعندما عاد إلى الغرفةِ الأولى لم يجدْ ملابسَه الوسخة، بما فيها حافظاتُ الجوخ التي كان يحمِلها تحت زردِه. لقد حلّ محلّها معطفٌ أسودُ اللون من ذات النوعِ الذي كان يحمله عندما دخل إلى القدس، وملابسُ أخرى على مقاسِه تماماً. ولم ينسَ أصدقاؤه القدماء أيضاً أن مقاسَ جزمتِه أكبرُ مما توحي به قامتُه.

وما لبث أن خرج إلى الرواقِ المحاذي لتلك الغرف الغريبة وهو يحمِلُ معطفَه على ساعِده، فوجد آرن في انتظارِه وقد لبس مثله ثياباً جديدة لأوّلِ مرة، وعلّقَ في رقبتِه ذلك المعطفَ الذي يحمِلُ الشريطَ الذي يُظهِرُ رُتبتَه. وقد سرّح آرن لحيتَه بفائقِ العناية، أمّا شَعْرُه القصيرُ فلَم يجدْ عناءَ في تهذيبِه براحةِ يدِه.

– هيا، أيها الرقيبُ الطيب، قال آرن بطلعةٍ هادئة، قلْ لي بربّك..

– لقد أطعتُ أوامرَك، وفعلتُ ما قلتَه، يا سيدي، أجاب أرماند بصوتٍ مضطرب وهو يُطرق رأسَه بعد أن أفزعته فجأة نظرةُ آرن العارية، وكأنه وُضِعَ تحت اختبارِ ولم يُفلحْ.

– اربطْ معطفَك واتبعني، أيها الرقيبُ الطيب، قال آرن وهو يضحك ضحكةً خفيفة ويُربّتُ على ظهْرِ رقيبِه، ثم دلفَ إلى الرواقِ بخطى حثيثة. وسار الرقيبُ في إثرِه وهو يحاول في رعونةٍ أن يضبطَ معطفَه، ويسأل نفسَه إنْ هو خالفَ قاعدةً من القواعد، أو أنّ مزحةً فاتته ولم يفهَمْها.

ما لبثَ آرن، وقد بدا وكأنه وجَد من دون عناءٍ طريقَه بين تلك الدهاليزِ التي لا نهاية لها، ووسطَ أدراج وأفنيةٍ صغيرة ما بين جداولَ وبيوتٍ مسيحيةٍ يُعبّر مظهرُها عن ثراءِ أصحابِها، أن اصطحب رقيبَه حتى قَصْرِ سليمان. لقد سلكا نحو ذلك القصر طريقاً ملتوياً ظلا تائهين فيه إلى أن وجدا نفسَيهما فجأة في قاعةٍ واسعة تمتدُّ

Twitter: @ketab_n

طولا، تغطّيها بسطٌ شرقية، وقد صُفَّتْ فيها سلسلةٌ من المقارئِ والطاولاتِ جلس إليها رجالٌ بالزيِّ الأخضرِ من حُرّاسِ الإيمانِ، وآخرون بالزيّ الأسمر من الرهبان المعتمدين. وقد جلس إلى تلك الطاولات أيضاً فرسانٌ بلباسهم الأبيض، شغلتْهم القراءةُ والكتابة وتبادلُ الحديث مع غرباء بملابسهم العادية. ومرّ آرن ورقيبُه أمام هؤلاء الناس، واصطحبه إلى آخر الغرفة حيث انتصبتْ شبكاتٌ بيضاءُ اللونِ حول قاعةٍ مستديرةٍ واسعة تعلوها قبّةٌ كبيرة. كان ذلك المكانُ هو الكنيسةُ ذاتُها، قدّيسُ الأقداسِ في رهبانية هيكل الربّ.

وعندما وصلا أمام المذبحِ الذي يتصدّره الصليبُ من تحت القبّةِ كان الماءُ ما يزال يسيل من لِحيتِهما فوق المرمر الأبيض والأسود المزيّنِ بأنجم كبيرة. وقد جثوا جثواً قلّد فيه أرماند سيّدَه تقليداً كاملا. وقد أشار إليه السيدُ بأنّ يتلوَ عشرة "باتر نوستر"، ويشكر شخصياً أمَّ الربّ التي أتاحت لهما العودةَ من إرساليتِهما سالِمَين غانمَين.

وفيما كان أرماند يتلو العدد المطلوبَ من الصلواتِ إذ به يشعر بحرقةِ العطشِ التي اشتدت به من جديدٍ حتى كاد يفقد صوابَه ويفقدَ معه الصلواتِ وعَدَّها.

لا أحد حفِل بهما أو أعارهما انتباهاً خاصا، فقد غصّتْ كلُّ أركانِ الكنيسة المستديرةِ بكثيرٍ من المُصلّين ولذا قال أرماند محدّثاً نفسَه "ما الذي جاء بنا نحن الاثنين لِنقِفَ أمام المذبح بالذاتِ حيث لا أحدَ غيرنا." لكنه ما لبث أن أبعد هذه الفكرةَ عن خاطرِه وآثر التركيزَ في عدّ الصلواتِ وهو يقول لنفسِه إنه من غيرِ شكٍّ لا يفهم من هذه الأشياء التي جدّت عليه، أيَّ شيءٍ بتاتاً.

"تعالَ يا رقيبي الطيب"، قال آرن في إيجازٍ، بعد أنْ أنَهيا تراتيلهما.

ثم وقفا ورسما لآخرِ مرّة إشارة الصليب أمام شِعار الربّ. وبدا الطريقُ أمامَهما في شكلٍ متاهة، فصعدا سلّماً خفيّاً وسلكا أروقتَه، وعبرا أفنيةً جديدة فيها جداولُ وأزهارٌ بديعةٌ متنوّعة، ثم سلكا من جديدٍ أروقةً غارقةً في العتمة تضيئُها بضعُ مشاعلَ هنا وهناك. وفجأة دخلا قاعةً واسعة مطليةً بالجير تزيّنُها الراياتُ والتروسُ. لم يُزيّنْ ذلك المبنىَ نقشٌ عربيٌّ واحدٌ إذ اكتفت الزينةُ فيها بخطوطٍ بيضاءَ وخالصة،

Twitter: @ketab_n

وقبابٍ عالية، ورواقٍ خُرسٍ تُسنده أعمدةٌ، يمتدّ على أحدِ جوانب القاعة – يُشبِه محرابَ كنيسة في ديرٍ، قال أرماند في عجلٍ قبل أن يكتشف حضورَ سيّد القدس.

وقف أرنود دي توروج بقامتِه المهيبة وجلالِه في وسط القاعة، بمعطفِه الأبيض ذي الخطّين الأسودَين الرفيعين، المعلّقِ حول عنقِه، على جنْبِه.

– "افعل ما أفعله أنا تماماً" همس آرن لرقيبِه.

وتقدّما نحو السيدِ، ثم وقفا بإجلالٍ على مسافةِ ستّ خطواتٍ كما تقضي الأصولُ، وفي الحالِ جثوا في انحناء.

– آرن دي غوثيا ورقيبُه أرماند دي غاسكونيا يعودان منْ إرساليتهما، سيدي، قال آرن بصوتٍ واضحٍ، وعَيْناهُ مُسمّرتان في الأرض أمامه.

– أسألك إذاً، آرنَ دي غوثيا، حاكمُ حِصن غزة، إنْ كُلِّلَتْ إرساليتُك بالنجاح، قال بصوتٍ قوي.

– نعم، أخي في الربِّ، سيدِ القدس، أجاب آرن بذات القوة. كنا نبحث عن ستةِ قُطّاع طرق، وما ابتزّوه من المؤمنين ومن الكفرة. وقد وجدنا ما كنا نبحث عنه، والرجالُ الستة مشنُوقون على أسوارِنا، وغنيمتُهم يمكن أن تُعرَض غداً أمام الصخرة.

لم يردّ السيدُ بكلمة، وكأنه أراد أن يُطيلَ الصمتَ. وقد ظل أرماند يُقلّد سيّدَه، ويحدّق في الأرض أمامه، لا يجرؤ على حركة ولا يسمع في صدرِه شهيقاً أو زفيراً.

– هل اغتسلتُما كما في قواعدُنا، هنا في القدس؟ هل شكرتُم الربَّ، وأمَّ الربِّ حاميةِ رهبانيتها في معبدِ سليمانَ، سأل السيّدُ بعد هذا الصمتِ الطويل.

– نعم، سيدي، هل تأذنُ لنا بكأسٍ من الماء... الجزاءُ الوحيدُ الذي نستحقّه بعد يومٍ طويلٍ من العمل، أجاب آرن دون رَوِيّة.

– السيد آرن دي غوثيا، والرقيبُ أرماند دي غاسكونيا، أليس كذلك؟ أجل! كذلك ! دي غسكونيا ! قِفَا وتعالا كيْ أحضُنكُما.

قلّد أرماند سيّده مرّة أخرى، فوقف على عجلٍ، وبعد أنِ احتضنَ سيّدُ القدسِ آرن احتضن أرماند أيضاً، ولكن دون أنْ يُقبّله كما يُقبّلُ فارساً.

Twitter: @ketab_n

- إني أشعرُ بكامِلِ الفرحة، حقاً، آرن، كنتُ أعرفُ أنكَ سوف تنجح، كنتُ أعرف! هتف السيدُ بلهجةٍ جدُّ مختلفة.

لم يعدْ صوتُه يحملُ حِّدةً أو مهابَة، لقد صار كأنه يوحي الآن أنه يستقبل صديقين طيّبين في وليمة. في الوقت ذاته سارع فارسانِ بإحضارِ قَدَحَيْن كبيرين من الفضة، مَليئين بالماء المصقَّع، ثم قدّماهما لآرن وهما ينحنِيانِ له، وفي الحالِ مدَّ آرن لرقيبه أرماند واحداً من قدَحَي ذلك الماء.

شرِب أرماند وهو يقلّدُ آرن مرّة أخرى، قدَحَ الماء في جرعةٍ واحدة حتى صار الماءُ يتدفّقُ من فوق زرديته. ولمّا أزاح فاهُ عن القدحِ الفارغِ وانقطع نفسُه لاحظ في ذهولٍ أن أحد الفارسين بلباسِه الأبيض قد وقَف أمامه وانحنى له وعلى استعدادٍ لأن يحضُنه. لكنه تردّد لأنه لم يخطر له يوماً أنّ فارساً سيخدمه يوماً. ولمّا لمس الفارسُ إرباكَه أشار إليه بحركةٍ من رأسِه حتى يشجّعه، فمَدّ إليه أرماند القدحَ وهو يؤدي له كاملَ التحية.

أسندَ السيّدُ ذراعَه إلى كتِفَيْ آرن وبَدَآ يتحادثان في زَهْوٍ وانبساطٍ مثل رَجُلَيْن عاديين، وهما يتّجهانِ إلى أقصى القاعة، حيثُ الخدمُ بلباسهِم الأخضر منهمِكون في تقديمِ الأطعمة. وسار أرماند متردّداً في إثرِهما تحثّه إشارةٌ من رأسِ ذلك الفارسِ بلباسِه الأبيض.

وجلسا كما شاءَ السيدُ أنْ يجلسَا، عند أقصى جانِبَيْ الطاولة، ثم الفارسانِ وأرماند من بعدِهما. وقد حَوَتْ الطاولةُ لحمَ الخنزيرِ الطازجِ والضأنَ المدخَّنَ والجبنَ الأبيض، وزيتَ الزيتون، والخمرَ والخضارَ وقَدَحَيْن فِضيَّيْن مَليئَين بالماء المتبخِّر. وتلا آرن التَّبْريكَ باللاتينية، فيما أطرق الآخرون رؤوسَهم. ثم أكلوا طعاماً كثيراً وشربوا من الخمرِ حتى الشبع. في البداية اقتصر الحديثُ على السيد وآرن، فبدأ الحديثُ بينهما كأنه استذكارٌ لأحداثٍ ماضية، أو لِمعارفَ قديمةٍ لا يعرف باقي المدعوين من أمرِها إلا قليلا. وقد أخذ أرماند يُلقي نظرةً على الفارسين من حينٍ إلى حينٍ وخالَ أنّ كلاً منهما يعرف صاحبَه حقَّ المعرفة، وأنهما صديقان حميمانِ وإنْ لم يكنْ ذلك شأنَهما دائماً داخل الرهبانية. وقد حرص أرماند على ألا يأكلَ أكثرَ من

Twitter: @ketab_n

سيّدِه أو أسرعَ منه، وما انفك يتأكد أنه لم يسبقه في الخمرِ والخبزِ والماءِ، فاعتدَل في الأكِل والشرابِ ولم يأكلْ بِشَرَهٍ كما يأكلُ بنو عَصْرِه، حتى وإن كان الطعام طعامَ وَلِيمَة.

مضَى الطعامُ سريعاً وَجيزاً كما أراد السيدُ. فقد مسَح سكينَه فجأة ودسّه في حزامِه. وتوقف آرن وأرماند عن الأكلِ اقتداءً بسيّدِهما. وأسرع الخدمُ فاخلوا الطاولةَ ولم يُبقُوا فيها سوى كؤوسِ الماءِ والأقداحِ السورية الزجاجية وأقداحِ الخمر الخزَفية.

- إذاً كان هذا جزاءً مستحَقاً عن عنائكما، أيها الأخوانِ، قال السيّدُ وهو يمسح فاهُ بِظَهْرِ يدِه. لكنْ يطيبُ لنا الآن أن نسمعَ كيف تصرَّفْتَ، أنت أيها الرقيبُ الشاب. لقد مدَحك أخي وصديقي آرن، لكني أودُّ لو أسمع مآثرَك على لسانِك.

نظر السيّدُ إلى آرن نظرةً وُدّية، لكنّ أرماند ما لبث أن ظنَّ أنّ السيّدَ يُبَيِّتُ له أمراً، كأنْ يُخْضِعه لواحدٍ من اختباراتِه المتواصلة. لكنه فكّر أنْ لا خيرَ له في أنْ يُبْدِي للسيّدِ صلفاً أو زهواً.

- ليس عندي الكثير ما أقوله، يا سيّدي، قال أرماند في حَذرٍ منذ البداية. لقد اتّبعتُ سيّدي آرن، وأطعتُ أوامرَه. وقد رأفَتْ بنا أمُّ الربِّ ومَكّنتنا من تحقيقِ النصر، أضاف أرماند فيما بعدُ وهو يُطرق رأسَه.

- ولستَ فخوراً بنصيبِك فيما أنجزتما، وأراكَ راضياً بالدورِ الذي أناطَه بك سيِّدُك. وأراكَ تُثني على أمِّ الربِّ لِرَحْمَةٍ أحاطتكَ بها، وهلم جراً، قال السيّدُ بلهجةٍ من الصعبِ ألا تُستشفَّ منها نيّةَ السخريةِ. لكنّ أرماند لم يجسُرْ على الردّ وظل مُطرقاً.

- أجلْ، سيّدي، هذا صحيح، أجاب في خجلٍ واستحياء، وعيناه واقعتانِ على صفحةِ الطاولة أمامه.

في البداية لم يسعْهُ أنْ يرفع عينيه، لكنه ما لبث أنْ شعَر وكأنّ ابتسامةَ تشجيعٍ قد لاحتْ له على الطرفِ الآخر من الطاولة. ولَمّا نظر من طرفِ العين في اتجاهِ آرن لَمَحه يُرسِلُ إليه ابتسامةً خفيّة. لم يسعْه أن يعرفَ أيَّ خطأٍ وقع فيه وهو

Twitter: @ketab_n

يجيب عن الأسئلة، وأيّ غرابة في حديث يجري في أمور بذلك القدرِ من الخطورة.

- إذاً، صاح السيّدُ، أراكَ مستمسِكاً بِرأيٍ ثابتٍ في الكيفيةِ التي يخاطِبُ بها رقيبٌ رؤساءَه في داخِل الرهبانية. لكنْ دَعْني أطرَح عليك سؤالا، هل صحيحٌ كما قال لي صديقي العزيز آرن، الحاضرُ معنا هنا، أنّك تتمنّى أنْ تصبحَ فارساً بيننا؟

- نعم، أجاب أرماند وقد أخذتْ فيه حُمّى الارتباكِ، سأضحّي من أجلِ...

- مهلا، رويداً، قال السيّدُ وهو يضحك، بحركةٍ مُهدِّئة من يدِه. لو لم تكنْ من أحياءِ هذا العالم لَمَا أخذنا منك الشيءَ الكثير! لكنْ لا تحمِلْ للأمرِ همّاً. فالموتُ آتٍ لا محالة. لكنْ عليكَ أن تحفظَ شيئاً مُهمّاً: إذا كنتَ ترغب في أن تصبحَ واحداً منا إياك والكذب! فكِّرْ قليلا: ألا تظنُّ أنّ الأخَ آرن وأنا نفسي كنّا شابَّيْنِ في مثلِ عُمرِكَ أنت في هذه اللحظة؟ ألا تظنُّ أنّنا كنا رَقِيبَيْن مثلك تماماً؟ ألا تظنُّ أننا نقرأ بوضوحٍ أحلامَك التي كانت أحلامَنا نحن أيضاً؟ ألا تظنُّ أننا نفهمُ فَخْرَك بكلّ ما عمِلتَ؟ فخرٌ أراهُ خليقاً بأيّ أخٍ راهبٍ من رهبانِ الفروسية. لكنّ الأخَ الراهبَ لا يجوز له أبداً أن يكذبَ على أخِيه الراهبِ! عليكَ ألا تنسى هذا أبداً. وإن كنتَ تخجل من أفكارٍ تراها شائنة، وإنْ كنتَ تخجل من أن تفخرَ بأعمالِك ثِقْ أنّ الخجلَ ليس عيباً. لكنّ الكذِبَ على أخٍ راهبٍ أسوأُ بكثيرٍ من أنْ تشعر بالغرور. فالغرورُ بإمكانكَ أنْ تعترِفَ بخطيئتِكَ فيه، وأمّا الوفاءُ للحقيقة إزاءَ أخٍ راهبٍ فذاكَ أمرٌ لا يجوزُ أنْ تتملَّصَ منه. هكذا الأمرُ ببساطة.

كان أرماند جالساً، مُطرقاً في خجلٍ وهو يُحدّق في سطحِ الطاولة. فها هو ذا يتلقى تأنيباً حتى وإنْ كانت كلماتُ سيِّدِ القدس وُدّيةً. ومع ذلك فقد استحقّ هذا التأنيبَ حتى وإنْ سلَكَ - لو جئنا للحقّ - سلوكاً لا عيبَ فيه.

- إذاً فلنعدْ إلى موضوعِنا من البداية، قال السيّد وهو يُصدر زفيراً لا يوحِي بالصدقِ إلا أقلّه. ما الذي حدَث، وما نصيبُك فيه، أيها الرقيبُ الشاب؟

- سيدي، قال أرماند الذي أحسَّ بخواءٍ تامٍّ في رأسِه، وشعَر أنّ أفكارَه صارت تحلِّقُ مثلَ الطيور، لقد ظَلَلْنا نُطارِد قُطّاعَ الطرقِ لأسبوعٍ كامل، ودرسنا خُطتَهم، وأدركنا أنْ لا سبيلَ لإيقافِهم أثناءَ فرارِهم، فارتأينا اعتراضَهم وَجهاً لوجه.

Twitter: @ketab_n

– أحقّاً؟ قال السيّدُ لِيُنقِذَه في لحظةٍ بدا فيها وكأنّه فقَد تسلسلَ أفكارِه. وأخيراً جاءتكم الفرصة الملائمة.

– أجل، سيّدي، وأخيراً جاءت الفرصةُ الملائمة، أردَف أرماند وفي نفسِه جرعةٌ جديدة من الشجاعة، بعد أنِ اقتنع بأنّ الأمرَ ليس سوى عَرَضٍ عادي لِما حدَث. لقد جئناهم على حينِ غرّة، فيما كانوا يتعقّبون ثلاثةً من عربِ الشرق المجهولينَ، في مجرَى أحدِ الأودية، تورّط فيه هؤلاءِ وكأنهم وقَعوا في فخّ، فكان ذلك بالتحديدِ ما تمنّيناه حين لمحناهم عن بُعدٍ وهم ينطلقون في الهجوم بخُطّتِهم المعهودة. فحينئذٍ وقَفنا خلفَ قمّةِ الجبل وهجمنا عليهم في الوقت المناسب، سيّدي آرن أوّلاً بطبيعة الحال، ثم أنا بعد أنْ تراجعتُ قليلاً إلى الخلفِ على جنبٍ، كما تستوجبه القواعد. وكان التالي أمراً ميسوراً. وقد أفهمني سيّدي بحركةٍ من رُمحِه أنه سيتظاهر بالهجوم على أحدِ الشرّيرَيْنِ، الواقفِ إلى اليسارِ في المقدمة، وهو ما أعطاني فُرصةً كافيةً فلَم يبقَ لي من الخلفِ سوى أنْ أسدّد الرمحَ وأقذفه.

– وهل شعرتَ بالخوف في تلك اللحظة؟ سأل السيّدُ بصوتٍ بلَغ من النعومةِ ما جعلَه مُريباً.

– سيدي، أجاب أرماند بصوتٍ قويّ قبل أنْ يُراوده الشكُّ، أعترفُ لك أني خِفتُ حقاً.

ثم رفَع رأسَه ليرى كيف يقرأُ الآخرون اعترافَه. لكنْ لا السيّدُ ولا آرن ولا الفارسان خانتهم المشاعرُ التي حركها فيهم رقيبٌ يُظهِر خوفَه في المعركة.

– لقد خِفتُ لكني كنتُ حازماً ثابتَ العزمِ. كانت بالفعلِ الفرصةَ التي انتظرناها طويلا، وكان علينا ألا ندعَها تفلتُ منّا! هذا ما أحسستُ به، أضاف آرماند وهو يُسرع في الكلام حتى صارت الكلماتُ تتزاحَم في فمِه، وصار يشعرُ وكأنه يسقط ثانيةً في حالةِ التردّدِ والتباسِ الذهن.

في هذه اللحظة رنّنَ آرن في حذرٍ قدَحَه السوري على الطاولة، ومثله فعَل السيّدُ في الحالِ وفعَل الفارسان الآخرانِ، وتضاحكوا قهقهة.

– أرأيتَ، أيها الرقيبُ الشاب، قال السيدُ وهو يهزّ رأسَه ويبتسمُ ابتسامة من

Twitter: @ketab_n

يبتسم لنفسه، أرأيتَ مدى الصبرِ الذي ينبغي أنْ يتحلى به كلُّ من كان أخاً في رهبانيتنا. إنه الاعتراف بالخوف! أجَل! لكنْ دعني أقول لك هذا: إنّ مَن لا يشعرُ ببعض الخوف، قلتُ بعضَ الخوفِ، في اللحظة الحاسمة، أحمقُ لا محالة. والحمقى لا يُرجى منهم نَفْعٌ في رهبانيتنا. إذاً، متى نستطيعُ أنْ نمنحه رتبةَ فارسٍ؟

- قريباً، أجاب آرن الذي وُجِّهَ إليه السؤالُ. قريباً جداً، فِعْلا. فورَ عودتِنا سأشْرَعُ في المشاوراتِ التي تقضي بها رهبانيتُنا.. لكن..

- حسناً، قاطعَه السيّدُ. سأحْضُرُ بنفسي في زيارةٍ رَعَويَّة، عندما تحصل على رُتبةِ فارسٍ، وسوف أعطيكَ قُبْلَةَ القبولِ الثانية، بعد قُبلَةِ آرن!

رفع السيّد كأسَه في اتجاهِ أرماند، وقلّدَ الفرسانُ الآخرون حركتَه. وبِقلبٍ خفّاقٍ وهو يحاولُ ألا يرتعِشَ حتى لا ينسكِبَ الخمرُ من يدِه رفَع أرماند كأسَه وانحنَى أمام كلِّ واحدٍ من رؤسائِه قبْلَ أن يشرب كأسَه وهو يفيضُ فرحاً.

- لكنّ الوضعَ مضطربٌ بعض الشيء في هذه الأيام، وقد لا تتهيّأ لنا الأيامُ الثلاثةُ الواجِبةُ لحفْلِ تقليدِكَ، في المستقبل القريب على الأقل، قال آرن في اللحظةِ ذاتِها التي كان النقاشُ على وشكِ أن يتخذ منحىً أكثرَ حريّةً وأكثرَ غِبطة.

لم يردّ عليه أحدٌ بكلمة، وتهيّأ كلُّ واحدٍ لسماعِ آرن وهو يزيدهم شَرْحاً وتوضيحاً.

- مِن بين عربِ الشرقِ الثلاثة، الذين حَظينا بإنقاذهم في موقفٍ كادوا يَسْتَيْئِسُون فيه يوسفُ بن يعقوب صلاح الدين بذاتِه، أضاف آرن على عجلٍ قبل أن تتلاشى الدهشةُ التي أحدثَها حديثُه حول الطاولة.

في المساءِ قَسَمنا الفطيرَ المقدّسَ، وتحادثنا، وحسب ما سمِعتُه من حديثٍ خلصتُ إلى أنّنا سنواجه الحربَ قريباً، قال في هدوءٍ وبرودةِ أعصاب.

- جلستَ إذاً إلى طاولةِ صلاح الدين، وقَسَمْتَ معه الفطيرَ المقدّسَ، قال سيّدُ القدس في خشونة. وأكلتَ برفقةَ ألدّ أعداءِ المسيحية، ثم أعْتقْتَ روحَه.

- أجَلْ، هكذا، أجاب آرن. لعل بالإمكانِ أن نقولَ هذا بشتى الصِّيغ، لكنّ أبْسَطَها هو القولُ إني أعْفَيْتُهُ من التهلكة. لكنْ عليّ أنْ أؤكّدَ أولاً أنّ الهدنةَ سائدةٌ

Twitter: @ketab_n

بيننا في الوقتِ الحالي، وثانياً أنني أعطيتهُ عهداً.

– أعطيتَ عهداً لصلاح الدين؟ سأل السيّدُ في اندهاشٍ وهو يُثني عينيه.

– أجل، هذا صحيح. أعطيتُه عهدا، قبل أن أعرفَ من هو. لكنْ عندنا أشياء أهمّ، لا بد من أنْ نتحدّث فيها، أجاب آرن بنفْسِ العجلة التي يُقدّمُ بها أوامرَه في المعركة.

ظل السيّدُ هادئاً بعضَ الوقتِ وهو يحكُّ ذقنَه بأصبع منغلقٍ، ثم أشار فجأة إلى أرماند الذي كان يحدّقُ في سيِّده بعينين جاحِظتين وكأنه بدأ يفهم ذلك الذي حدَث، ومع مَن اقتسَم هو أيضاً ذلك الفطير.

– طيّب أيها الرقيب. حان الوقتُ لكي تفارقَنا، قال السيّدُ. سيصطحبُكَ الأخُ ريتشارد لُونوود، الحاضِرُ هنا، لزيارةِ مقرّنا. ثم سيأخذُك إلى بيتِ الرقباء. حَفِظَك الربُّ! أمَلِي أن أراك قريباً لِأُهديَك قُبْلةً وأرحّبَ بك.

في الحالِ نهض أحد الفرسانِ وأشار لأرماند بيدِه لكي يَتْبَعَه. وانحنى أرماند في تردُّدٍ واستحياءٍ نحو الفرسانِ الذين لزموا الصمتَ وهُم جالسون حول الطاولة. لكنّ السيّدَ ما لبث أنْ سرّحَه بحركةٍ من يدِه ففَهِمَ أنّ الوقتَ قد حان لكي يغادر دون إبطاء.

وحين أُغلقَ البابُ المصفّدُ بالحديدِ من خلفِ أرماند ورفيقِه النبيل انقضَّ على الغرفة صمتٌ ثقيل.

– من سيبدأُ أوّلا، أنت أم أنا؟ سأل آرن وكأنه يخاطب صديقاً حميماً.

– أنا، أجابَ السيّد. إنك بالطبع تعرفُ الأخَ غُوِي الذي عُيِّنَ مُدرِّباً للمُسايَفَة هنا في القدس. كلاكما في الرتبة نفسها ولدينا قضايا مهمة سنتناقش فيها معاً. فما رأيُك لو بحثْنا أوّلا في مشروعيّةِ اقتسام الفَطير مع عدوّنا؟

– بكلِّ سرور، قال آرن بلهجةٍ فاترة. تُرى، ما الذي كنتَ ستفعلُه لو كنتَ مكاني؟ أحب أنْ أذكِّرَ بأنَ الهدنةَ ما زالت سارية، حتى وإن كانت معرَّضةً للخطر، كما يعرفُ كلُّ واحدٍ منا، وكما يعرفُ صلاحُ الدين نفسُه أيضاً. قُطاعُ الطرقِ هُمُ الذين كانت يجِب معاقبتُهم وليس المسافرين الآمنين، سواءٌ كانوا من هذه الديانةِ

Twitter: @ketab_n

أو تلك. لقد أعطيتُه عهْدَ الفارسِ، وأعطاني هو عهده أيضا، ولم أكتشفْ ذلك الشخصِ الذي أعطيتُه عهداً بالأمانِ إلا بعد مرور بعضِ الوقت. إذاً قلْ لي ماذا عساكَ كنتَ فاعلا أنتَ نفسك؟

- لو كنتُ أعطيتُه عهداً لما وَسِعَني أن أتصرّفَ على خلافِ ما تصرفتَ، أقرَّ السيّدُ على مَضَضٍ. وكنتَ آنذاكَ تعملُ في هذا البيتِ تحت أوامرِ أودُونْ دي سانت أماند، أليس كذلك؟

- نعم، هذا صحيح، عندما كان فيليب دي مِيلِي، السيدَ الأعظم.

- أودونْ وأنتَ، كنتُما صديقَين حمِيمَين، هذا ما سمعتُه عنكما...

- صحيح، وما زلنا على صداقتنا حتى الآن.

- عظيم! ممتاز! لأنه اليومَ السيدُ الأعظم. وهذا يُنهي مشكلةَ العشاء برفقة ألدِّ أعداء المسيحية. شتّانَ بينَك وبين غيرِك. لو عُرِضَ الأمرُ على بعض الإخوةِ لَمَا قبِلوا بما قبِلتَ به أنت، وأنت تعرف ذلك!

- نعم، لكنْ ما رأيُك فيه، أنتَ نفسُك؟

- أنا معك فيما فعلتَ. لقد وفّيْتَ بعهدِ فارسٍ من فرسانِ هيكل الربّ. وإذا كنتُ قد فهمتُكَ أكثر فقد انتهزتَ الفُرصةَ لكي تطَّلِعَ على بعضِ الأشياء؟

- نعم، سوف نواجِه الحربَ بعد أسبوعين على أقلّ تقدير، وبعد شهرين على أكثرِ تقدير. فهذا هو ما أظنّني قد عرفتُه.

- قُصَّ علينا كلَّ هذا. ما الذي تعرفه؟ وما الذي يمكن أنْ نصدّقه؟

- كان صلاحُ الدين يعرِف الشيءَ الكثير. فهو يعلَم مثلا، أن فيليب دي فلاندر وجُزءاً كبيراً من الجيشِ النظامي، وكذلك راهبات الاسبتارية في سانت جان كانوا في طريقِهم إلى سوريا، وعلى الأرجح إلى حمص، أو حماة، وبالتأكيد ليس إلى دمشقَ، ولا إلى صلاح الدين نفسه. وإنْ علِم صلاح الدين بذلك سوف يسارع بالسير دون حرَسٍ نحو الجنوب، إلى العريش، حسب ظني، حتى وإنْ قال إنه سيذهبُ إلى القاهرة. لكنه لن يتقهقر أمام الجيشِ المسيحي المرابطِ في الشمال. فهو في الواقع ينوي مهاجمتَنا من ناحيةِ الجنوب، لأنه يعرف أنّ أكثرَ من نصفِ

Twitter: @ketab_n

قُواتِنا هناك، في الشمال. هذا ما استخلصتُه منه.

تبادلَ سيّدُ القدس بعض النظرات مع غُوي، أخيه ومدرّبِ المسايفة الذي أجاب عن هذا السؤال الأصم بإيماءةٍ مُوافَقةٍ من رأسِه.

صارت الحربُ وشيكة. كان صلاحُ الدين يثق في قُواته المرابطةِ في الشمال، والمهيأةِ بما فيه الكفاية لكي يغلِبَ بها العدوَّ على حينِ غرّة. فلو قُدِّرَ له أنْ يُهيّئَ لجيشٍ منْ مصرَ أنْ يَعبُرَ ما وراء البحرِ لَوَسِعَه أنْ يتقدّم به مسافاتٍ طويلةٍ، بل وقد يصِل إلى قلبِ القدس عينها، قبل أنْ تعترِضَه مقاومةٌ حقيقية. يا لها من فكرةٍ مُرعبة! لكنْ، لِمَ الهروبُ من الحقيقة؟

في هذه الحَال سوف تنشبُ المعاركُ الأولى في غزة التي يرأسُ آرن حاميَتها. لكن هذه الساحةَ ليست خيرَ الأماكنِ المُحصّنَة، حيث لا يحرسُها سوى أربعين فارساً وثمانين رقيباً. لذلك لن يتلمَّسَ صلاحُ الدين طريقَه إليها فيصطدِمَ بأسوارِها ويضحي ببعضِ قواتِه فيها. فهو يستطيع بجيشِه القويَ والعتاد الضروري للحصار أنْ يستوليَ على غزةَ بسهولة. فقليلةٌ هي الساحاتُ المنيعة مناعَةَ حصْنِ الفرسانِ أو حِصْنِ بوفور. لكنه لو هاجمها لَكلّفَه ذلك أكثَرَ بِكثيرٍ ممّا سيجْنيه منها. لا أحدَ يستطيع أن يستولي على ساحةٍ يحرسُها فرسانُ الهيكل من دون أنْ يتكبَّدَ في ذلك خسائرَ فادحة. وإنْ كُتِبَ له النصرُ فلن يُعوِّضَ الخسائرَ أيُّ سجينٍ أيّاً كان شأنُه. ناهيكَ عمّا يتطلّبُه أيُ حصارٍ دام وطويلِ الأمدِ من إهدارٍ هائلٍ للوقت.

لذلك فأغلبُ الظنِّ أنّ جيشَ صلاح الدين سيمرُّ بعيداً عن غزة. ربما بعد أنْ يتركَ فيها قوةً صغيرةً لحِصارها. لكنْ ما هو الهدفُ القادمُ بعد غزة إذا؟ أهو عسقلان؟ الاستيلاءُ على عسقلان بعد مرورِ خمسةٍ وعشرين عاماً ليس بالفكرةِ الهيّنة. فلعل ذلك يشكل نصراً مُهماً، ونقطةَ سندٍ عربية قوية على طولِ ساحلِ غزة. وعدا ذلك سيؤدي ذلك إلى قطْعِ الصلاتِ ما بين فرسانِ هيكل الربّ في غزة وبين الفرسانِ في القدس. لذلك كانت عسقلان هي الهدفُ الأكثرُ احتمالا.

لكنْ إذا كان صلاحُ الدين لن يلقَى مقاومةً تستحقّ الذكرَ، وذاكَ في الظاهرِ هو الراجحُ فما الذي يمنعُه من أن يتقدّمَ نحو القدس مباشرة؟

Twitter: @ketab_n

لا شيء.

كان من الصعب إهمالُ هذا الاحتمالِ المكدِّرِ المغيظِ. لقد بدأ صلاحُ الدين في توحيد سوريا ومصر تحت سلطتِه وقيادةٍ مشتركة، كما وعدَ أنْ يفعل، لكنه أقسم أيضاً بأن يستعيد المدينةَ المقدسة التي يسميها الكفرةُ: القدس.

كان لا مفرّ من اتخاذِ الحزمِ والعزمِ، وإخطارِ السيدِ الأعظم أودونْ دي سانت أماند، المقيمِ في عكّة، ومن استدعاءِ بعضِ الإخوةِ لتقويةِ دفاعِ القدس، وغزة. وكان لا بد أيضاً من إخطارِ الملِكِ الشاب، ذلك الأبرص المغلوبِ على أمره، وكذلك أختِه مصدر كلِّ ألوانِ الدسائسِ. ومنذ الليلةِ التالية بدأ السعاةُ ينطلقون على عجلٍ في مختلف الاتجاهات.

ولَمّا كان اتخاذُ القرارات الكبرى أسهلَ من القراراتِ الصغيرة أحياناً فقد أُنجِزت على وجْهِ السرعة. لقد ترك غوي الآخرَين وحدَهما لكي يتفرّغا لِما كان يجبُ عملُه قبْل حلول الفجر.

واصل أرنود دي توروج عند الطاولة الحديثِ حتى يُملي أوامرَه. لكن لم يكدْ البابُ المصفّحُ ينغلق من خلفِ مدرّبِ المسايفة حتى نهض متثاقلا وهو يُشير إلى آرن بأنْ يَتْبَعَه، وعبر قاعة الكهنوت الكبرى متوجهاً نحو منفذٍ خارجي يؤدي إلى ممرٍّ مسقوفٍ يرى منه الناظرُ المدينةَ بكاملِها. وتوقّف هنا قليلاً مع آرن، ومدَّ يدَه على الدرابزين الحجري ينظر إلى المدينة الغارقةِ في العتمة، ويتنفّس النسماتِ التي يحملها هواءُ الصيفِ الدافئ، وروائحَ اللحم والبهارات، والنفايات والعفَن، والعطور والبخور وروث الجِمالِ والخيولِ، أي كلّ هذا الخليط الذي كَتَبَه الربُّ على الحياة: النبيلُ مع الخسيسِ، والجميلُ مع القبيح، والناعمُ مع الفظ.

– ماذا عساكَ تفعل، يا آرن لو كنتَ مكانَ صلاح الدين – عفواً على هذه الفرضية التي لن تثيرَ فيه زهواً كبيراً – استدركَ أرنود في النهاية.

– لا داعيَ للاعتذار. صلاحُ الدين عدوٌّ ذو شأنٍ عظيم، وكلنا نعلمُ ذلك، بمن فينا أنتَ يا أرنود! أجاب آرن. لكني أعرفُ ما تفكّرُ فيه: لكُنّا تصرفنا تصرفاً مختلفاً لو كنا مكانَه. ولكُنّا حاولنا أن نجرَّ العدوَّ إلى أبعدِ مكانٍ ممكنٍ عن أراضينا، ولكُنّنا

Twitter: @ketab_n

أجّلنا المواجهة المباشرة، وأرهقنا جيوشَ العدوّ من خلال هجماتٍ صغيرة متتالية يقوم بها أتراكٌ. ولكنّا عكّرنا نومَهم، ولوَّثْنا الآبارَ في طريقِهم، أي لَكُنّا فعلنا ما يفعله عربُ الشرقِ في العادة. فلو واتتنا الفرصةُ وغلَبنا جيشاً مسيحياً بهذا القدرِ من المهابة لكُنا أَفَدْنا من ذلك كثيراً قبْل حلولِ الربيع، وزحفْنا نحو القدس في النهاية.

– لكنّ صلاح الدين الذي يعرف أننا نعرفه سوف يفعل على العكسِ شيئاً ممّا لا نتوقّعه بتاتاً، أجاب أرنود دي توروج. سوف يغامِر بالاستيلاءِ على حمص أو حماة، لأنه يرمي لهدفٍ أعلى وأهمّ.

– لا بد من الاعترافِ أنه تخطيطٌ طموحٌ، ولا يخلو من منطقٍ، قال آرن، مواصلاً استدلاله.

– أجل، لكنْ شكراً للربّ... أو ماذا عساني أقول؟ لقد كان الربّ بن رحيماً، بفضلِ خُطتك غير التقليدية، على الأقل صِرْنا على أُهبةٍ واستعدادٍ. وفي هذا كلُّ الفرقِ بين قُدْسٍ مُصونةٍ وقُدسٍ ضائعة.

– إذاً ظني أنّ الربَّ سوف يرحمني، هَمْهَمَ آرن بين شفتيه. فأيُّ كاهنٍ في كنيسةٍ يستطيع أن يشكرَ الربَّ ويقولَ إنه قد رمَى العدوَّ في أحضاني حتى أُنْقِذَ القدس!

لم يسبقْ لأرنود دي توروج أن عنَّفَه أحدٌ من الخاضعين له. فقد استدار في ذهولٍ ونظر إلى صديقِه الشاب، في عينيه. لكنّ عتمةَ الممرِّ المسقوفِ حَجَبَتْ عنه نظرةَ صاحبِه فلم يسعْه أنْ يقرأَ فيها شيئاً.

– أنت صديقي، آرن، لكنْ لا تُسِء استعمالَ هذه الصداقة، لأنّ هذا قد يُكلِّفُكَ ذاتَ يوم غالياً، قال بصوتِ جاف. صحيحٌ أنّ أودون هو السيّدُ الأعظمُ حالياً، لكنْ لعلّ هذا لن يَحْميكَ إلى ما لا نهاية.

– لو مات أودون لصِرتُ أنا على الأرجح السيِّدَ الأعظم القادمَ، ثم إنكَ صديقي أيضاً، أليس كذلك؟ أجاب آرن بتجرُّدٍ كأنه يتحدثُ في أشياء عاديةٍ جداً.

– وفي الحالِ فقَدَ أرنود دي توروج كلَّ دلالاتِ السلطةِ الصارمة وانفجر بقهقهةٍ لو رأى شهودٌ مَشْهَدَها لاعتقدوا أنها غير لائقةٍ بتاتاً، في هذه اللحظةِ التي باتت حرجةً على فرسانِ هيكلِ الربِّ وعلى القدسِ، سواء بسواء.

Twitter: @ketab_n

– إنك يا آرن تعيش بيننا منذ زمنٍ طويل، منذ طفولتك الأولى، وأنتَ تُشبهنا في كلِّ شيء، إلا في القول. أحياناً يا صديقي نخالُ كأنك تمنَح لنفسك قدراً من الحرية في السلوك أكثر مما يحقّ لك. هل كلُّ أبناءِ جنسك من الشماليين مثلك، أَمْ أنَّ الأمرَ ببساطة سببُه أننا لم نُقوّمك بما فيه الكفاية حتى نمحوَ آثار الصبيانية فيك؟

– جسدي أخذ ما يكفيه من العقاب، فلا تَخَفْ يا أرنود، أجاب آرن بذات اللهجة المتجردة. ربما كان الناس في الشمال الذين أنحدرُ منه يتحدثون بقدر من المجاملة والعاطفة، أقل مما يفعل بعض الإفرنج. لكنّ ما يقوله فارسٌ من فرسان هيكل الرب يجب أنْ يقاس بمقياسِ ما يفعله.

– أراك تحدثُ رؤساءَك بالوقاحة نفسها. إنك صديقي يا آرن، لكنك لا تعرف كيف تمسك لسانَك.

– في هذه الساعة أرى أن رأسي هو الذي صار في خطر. سنكون أوّلَ من يتعرّض للصدمة في غزة، عندما يهاجمنا صلاح الدين. بكم فارسٍ تستطيع أن تزوّدني؟

– أربعون. سأضع في الحال أربعين فارسًا تحت إمرتك.

– على هذا النحو سنكون ثمانين، ونحو ثلاثمئة رقيب فقط، في مواجهة جيش لا يسعني أن أقّدره بأقل من خمسة آلاف فارسٍ مصري. آملُ في أن تتركني أقرّرُ بنفسي أفضلَ الطرق لمواجهة هذا الجيش. لستُ أنظر بعينٍ راضية إلى واجب الالتقاء بهذا الجيش في فضاء مكشوفٍ والرمحُ بِالرمح.

– هل أنت خائفٌ من أن تموت من أجل قضية مقدسة؟ سأل أرنود دي توروج، وعلامات الكدر بادية في صوته.

– لا تكن طفلاً، أرنود! صفّر آرن. الإقدامُ على الموت برأس مُطرقة، بلا غاية، ليس تجديفًا. لقد رأينا في هذه الأقاليم الكثيرَ من هؤلاء القادمين الجدد الذين هلَكوا بلا طائل، لأنهم تعجّلوا الذهاب إلى الجنة، فغنم عدوُّهم بخسارتهم. ففي رأيي أن هذا النوع من الرعونةِ لا يجوز أن يُكافأ بتكفيرِ الذنوب، لأنَ الرعونة في حد ذاتها خطيئة.

Twitter: @ketab_n

- هكذا في رأيك إذاً. فالفارسُ الذي يطرق باب الجنة بعد أن تنقطع أنفاسُه لأنه واجَه الموتَ، ليس أمامه سوى أن ينتظر مفاجأةً سيّئة.

- أجل، لكني سأحرص على ألا أقول هذا إلا لأصدقائي المقرّبين.

- لا يسعني إلا أن أشدّ أزرك بقوة. فعلى أيّ حالٍ أنت حرٌّ في أن تتخلص من حملك بما تقتضيه الأوضاعُ التي ستطرأ، وبما تراه أنتَ مناسبًا. إنه الأمر الوحيد الذي أُلْقِي به إليك.

- شكرًا، صديقي أرنود، أُقْسِمُ بأني سأفعل، ما استطعت لذلك سبيلا.

- لا أشك في ذلك، آرن. لا أشك في ذلك على الإطلاق. وأنا سعيدٌ بأن تكون أنت تحديداً مَن تُوكَل إليه هذه القيادة، في غزة، ففي غزة ستقوم المعركةُ الأولى في هذه الحرب. في الحقيقة كان علينا أن لا نعيّنك في هذا المنصب العالي، فلا ينقصنا الرجالُ القادرون على القيام بمثل هذه الوظائف، وأنت أغلى شأنًا في الميدان من أن تمكث حبيسًا بين جدران قلعة تبثُّ منها أوامرَك على مدار اليوم.

- لكن؟

- لكنْ فات الأوان الآن. أودون دي سانت أماند يُلقِي عليكَ يدَه الواقية، وظني أنه يرغب في أن تنطلق الآن إلى الحراسة. وأنا أيضًا أتمنى حمايتك، بالقدر الذي تسمح به قدرتي على حمايتِك. لكن من الواضح أن الربَّ قد ساندنا. فأنت على كل حال فارسُنا "العربي" الذي ظفر بهذا المنصب. وفي ذلك تبديد لِقوىً ثمينةٍ في المعركة.

- لكنْ يبدو أن العدوّ سوف...

- بالفعل، إنّ إرادة الربّ تتجلى في كل شيء. كان الربُّ في عونك، وفي عون ذوينا، عندما تهبُّ العاصفة. متى ستذهب؟

- عند الفجر. أشياء كثيرةٌ تنتظرنا في غزة، والوقتُ يمرُّ بسرعة.

* * *

كانت مدينة غزة وحصنها يشكلان المركز الجنوبي المتقدم لفرسان هيكل الربّ

Twitter: @ketab_n

في الأرض المقدسة. فمنذ إنشائها لم يحاصرْ أحدٌ المكانَ، وكل الجيوشِ التي مرّت من هنا كانت دومًا من جيوشهم وكانت تصل من الشمالِ لكي تحارب في مصر. ولأوّل مرّة كان هذا الوضع سينعكس: فلن يهاجَم بل هو نفسُه مَنْ سيهاجِمُ. فقد نرى في ذلك إشارةً من إشارات الزمان، وإنذارًا موجهاً للمسيحيّين لكي يكرسوا أنفسهم للدفاع أكثر من الهجوم. فأمامهم الآن عدوٌّ أخطرُ من كل الذين زرعوا لحد الآن النارَ والرعبَ وكسبوا معارك دون أن ينتصروا في الحرب، أمثال زنكي ونور الدين. لكنْ ما مِنْ أحدٍ من هؤلاء القُوّاد العرب يقارَن بالقائدِ الذي صار اليومَ قائدًا، ألا وهو صلاح الدين.

الشاب سيد غزة الجديد لم يعتد بعدُ الدفاعَ عن موقعٍ منيع. فعلى مدى السنوات العشر الأخيرةِ شارك آرن دي غوثيا في مئات المعاركَ في أراضٍ مكشوفة، لكنه كان في كل مرة تقريبا هو الذي يهاجم العدوّ أوّلا. لقد قاد بصفته فارسًا "تركيا" خيّالةً خفيفةً من الفرسان المرتزقة الأتراك كان يطلقهم ضد العدو لزرع الرعب والفوضى في صفوفه، وكان في أفضل الحالات يحاصره أحياناً حتى يتسنى للقوات الإفرنجية المدججة بالسلاح أن توجه إليه ضربة حاسمة، أو على الأقل تكبّده خسائر فادحة.

كما شارك أيضاً في معارك خاضتها خيالةٌ خفيفةٌ، فكان عليه على الخصوص أن يهاجم في الوقت المناسب لزعزعة قوّات العدوّ المدجّجة وتوجيه الضربةِ الحديدية إلى صفوفه. وحدث أن مكث في احتياطِ حارسَ جناح فلا يذهب إلى المعركةِ إلا في الوقت المناسب ليحقق فيها انتصاراً، أو لكي يساعِد أيَّ هجوم مضاد تشنّه أفضلُ القوات في الظروف غير المواتية، في تأمين تقهقر الجيش الإفرنجيّ من دون أنْ يستسلم للهلع والفوضى.

وقد شارك أخيراً في بعض الحصارات في الموقِعَيْنِ القويّين كرقيب في قلعة فرسان هيكل الربّ، في مقاطعة طرابلس، ثم كفارسٍ كامل الأهلية في عكا. فكل تلك الحصارات كانت تنتهي دائماً بانسحاب القوات المحاصِرة.

أما الذي كان ينتظره في غزة فهو مختلفٌ تماما، إذ كان عليه ألا يتمسك بما علق

Twitter: @ketab_n

في ذهنه من مخططات، وأن يتصرّف وكأن التجارب السابقة لم تُفِدْهُ شيئاً. فمدينة غزة تعدّ نحو خمس عشرة قرية يقطنها فلاحون فلسطينيون وقبيلتان من البدو. وكان حاكمُ حصن غزة هو سيدُ هؤلاء الناس جميعاً، فكان في مقدوره أن يتحكّم في رقابهم وفي أملاكهم أيضاً.

كان عليه أن يجري عليها نظاماً ضريبياً لائقاً، فيرفع قيمة ما يُطلَب منهم دفعُه في السنوات الخصبة، ويخفض ما يُطلَب منهم دفعُه في السنوات العجاف. فتلك السنةُ كانت في غزة سنةَ يُمْن وخيرٍ وفيرٍ، وإنْ كان الخيرُ فيها في تلك السنةِ أقلَّ من مثيله في ما وراء البحر. لكن ذلك الخيرَ الوفيرَ كان مبعثَ شرٍّ أيضاً لأنّ سيّدَ الحصنِ قرّر أن يُفرغَ تلك القرى من كل غلاتها ومن كلِّ قطعانها أيضاً. وكان القصدُ من ذلك حمايتَها من أيِّ نهبٍ قد تتعرّض له على أيدي الجيش المصري، بيد أنه لم يكن من السهل إقناعُ أهالي القرى بذلك القرار، فكان إذا جاء فرسانُ هيكلِ الربّ ليملؤوا عَرَباتهم الفارغةِ بدَا الأمرُ وكأنّ نَهْباً حقيقياً قد بدأ، إذْ سيّان عند الفلسطينيين أنْ يكون "النهبُ" بفعلِ مسيحيين، أو بفعل مسلمين.

وهكذا قضى آرن وقتاً طويلاً على ظهْر حصانه، متنقّلاً من قريةٍ إلى أخرى، حتى يُقنع الناسَ بِحُجّة ذلك القرار. وقد وعدَ بأنه لن يفرضَ جبايةً، أو يستوليَ على أيّ شيءٍ، أيّاً كان ذلك الشيءُ. وتعهّد بأنه سيُعيد كلَّ شيءٍ إلى أصحابه عندما يبتعِدُ العدوُّ عن المكان. وقد بذل قصارى الجهدِ حتى يُفهِم الناسَ بأنّ العدوَّ كلما قلّتْ وسائلُ العيش التي ينشدُها كلما سارع بالرحيل. لكنّ آرن ما لبث أنْ لاحظ في اندهاشٍ أنّ الشكَّ في أمره قد خامَر الكثيرَ من سكان تلك القرى.

عندئذٍ أمَر بأن تُدوَّنَ كلُّ حمولةِ حبوبٍ وكل جَمَلٍ، وكلُّ بقرةٍ باسم صاحبها، بيد أن هذا الحسابَ ما لبث أن عطّل مسعاه كثيراً، فلو هجم صلاحُ الدين قبل الأوانِ لَكَلَّفَ ذلك الهجومُ فرسانَ هيكل الربّ والمزارعين على السواء، ثمناً باهظاً. وفي هدوءٍ وثباتٍ أُفرغتْ غزةُ من بهائمِها ومن حبوبِها، لكن ذلك أوقع حالا من الفوضى العارمة في داخل المدينة التي فاضت فيها المخازنُ بالمؤنِ، وتزاحمت مواكبُ العلفِ والبهائمِ في الطرقات بلا هوادة.

Twitter: @ketab_n

لكنّ كلَّ ذلك كان هو الجزء الأساسيّ في إعدادات المعركة. لقد قدّر سيدُ الحصن أنّ النصرَ مرهونٌ بإدارةِ وسائلِ العيشِ أكثر مما هو مرهونٌ بالشجاعةِ والإقدام أمام العدو، حتى وإنْ تفادى هذا السيدُ التعبير عن أفكار ينقُصها الصوابُ أمام مرؤوسيه. لقد بدأت التعزيزاتُ تصِل شيئاً فشيئاً من مواقع قويةٍ أخرى في البلاد، وظلت تصل إلى أنْ وقَف الفرسانُ الأربعون الجدد الذين وَعَدَ بهم سيدُ القدس، إلى خلف أسوارِ غزة.

انكبّت مناورةُ الإعدادِ الثانية على توسيع الخنادق المحيطة بالمدينة وتقويةِ أسوارها. فعند هذه الأسوارِ سيقوم خطُّ الدفاعِ الأوّل، وإن هي انهارت فسوف تلجأ البهائم والناسُ إلى الحصن حيث لا ملجأ سواه. لقد انخرط المئتان والثمانون رقيباً وكل العمال المدنيين، بمن فيهم الكَتَبَةُ ورجالُ الجمارك، على مدار الساعةِ – على ضوء المشاعلِ ليلا – في أعمالِ التحصين التي كان سيدُ الحصنِ يتفقّدُها بلا انقطاع.

تأخر صلاحُ الدين كثيراً ولم يعرف أحدٌ من أمْرِ تأخُّرِهِ شيئاً. لكنّ جواسيسَ آرن من البدوِ الذين أوفدهم على عجلٍ إلى سيناء أفادوا بأنّ جيشَ عرب الشرق قد تجمع في العريش على مسارِ أكثر من يوم مَشْياً من غزة. فلعل لتأخر صلاح الدين صلةً بما يدور شمالاً في سوريا حيث يملك عرب الشرق قدرة مذهلةً على الاطلاعِ على كل ما يجري في أجزاء أخرى من البلادِ، من غير أن يعرف أحدٌ كيف ومتى تأتيهم تلك الأخبار. لقد شاع عند بدوِ غزة أنّ فرقَ عرب الشرقِ تستعين بالطيور في نقْل رسائلِها، لكنْ لم يكن من السهلِ تأكيدُ ذلك باليقينِ القاطع. كان المسيحيون يستعملون إشارات الدخانِ من موقع منيعٍ إلى موقعٍ آخر، لكن غزةَ أبعدُ كثيراً إلى الجنوب من أن تستجيب لمثل ذلك النظام.

ورأى البدوُ الذين نقلوا الأخبارَ إلى آرن أن جيشَ صلاح الدين قوامه نحو عشرة آلاف رجلٍ معظمهم من فرسان المماليك. ولَكَمْ كان هذا النبأُ قاسياً لأن جيشاً بهذه العظمة عصيٌّ على الهزيمة في أرضٍ مكشوفة. لكن آرن ما لبث أن أدرك أن جواسيسه مغالون فيما ينقلونه إليه من أخبار، ليقينهم أنهم سيتلقون مهامَّ جديدة تُدرّ عليهم مزيدا من الجزاءِ إنْ هُمُ جلَبوا أنباءً سيئةً بدلاً من الأخبار السارة.

Twitter: @ketab_n

مرّ شهرٌ كاملٌ من دون أن يهاجِم صلاحُ الدين، فاستعادت غزةُ بذلك قدراً من الهدوء، وكان هذا الزمنُ كافياً للقيام بما لا بد منه، وإعادة الحبوبِ والبهائم إلى المزارعين الذين وقفوا في طوابير صاخبة أمام مخازنِ المؤن في المدينة التي كان يجب إفراغُها قبل مخازن الحصنِ أوّلا. وقد عمَّ الصفوفَ عدمُ الرضا والاستياءُ لأنّ المزارعين عجزوا عن قراءةِ الإيصالات التي مَلأها الكَتَبَةُ وتشابهتْ فيها الأسماءُ فكثُرتْ بسبب تشابهِها الأخطاءُ واشتدّ الارتباكُ بين حالة هنا وحالة هناك.

ظل سيّدُ الحصن الشابُ يتردد من حين لآخر ليستمع إلى الشكاوى فيسعَى لتبديدِ سُوءِ فَهْم هنا وتهدئةِ المشاحنات والشجار هناك. وقد وسِعَ الجميعَ أنْ يلاحظوا أنّ السيِّدَ يَصْدُقُ القولَ ولا يخلفُ الوعدَ، وأنّ مصادرةَ المؤنِ ليس هو المقصودُ وإنما المقصودُ هو وقايتُها من النهبِ والحرْق. فلِكلِّ عائلةٍ في كل قريةٍ الحقُّ في أنْ تمتلكَ ما يكفي حاجتَها لأسبوعٍ كاملٍ قبْل الرجوعِ إلى غزة، سعياً لمؤنٍ جديدة. وكان على كلّ عائلة أنْ تحملَ مؤنَها إنْ أُكْرِهَت على الفرارِ، وألا تتركَ للعدوِّ سوى أماكنَ خاليةٍ خُلُوّاً تاماً.

أرى الأخُ الراهبُ برتراد، تاجرُ الأحواخِ آرن أنّ كتابةَ الإيصالاتِ، والنقاشات مع المزارعين تستنفذ جزءاً لا معقولا من وقتِه، لكنّ رئيسَه لم ينحرفْ عن الخطِّ الذي رسَمَه لنفسِه وهو أنّ وَعْدَ فارس هيكل الربِّ وَعْدٌ لا رجوعَ عنه مَهْما كلّفَ الأمر.

في خلال فترة الهدوء التي أعقبت إعدادات الشهر الأول، استطاع آرن في النهاية أن يكرّسَ بعضاً من الوقت لرقيبه الذي شعر أنه صار بنّاءً أكثرَ منه فارساً من فرسان الغد، وقد أصبح فارساً من فرسان الغدِ حقاً منذ اللحظةِ التي باركه سيّدُ القدس. ولما رأى أرماند أنّ مدرّب المسايفة قد جاء يطلبُ منه أن يغادر مكانَ العمل ويتقدّم أمام سيّد الحصن بعد أن اغتسل وغيّر ملابسَه بعد طعام العشاءِ توقّد الأملُ من جديد في روحِه. لقد شعر أنّ سيّده لم يُهمله، وأن وُقوفَه على عتبةِ الأخِ المتمتّع بكاملِ الحقوقِ لم تمجُهُ تلك الحربُ التي باتت وشيكة.

كانت قاعةُ المحادثةِ تقع في أعلى الجزءِ الغربي من الحصنِ، وقد زُوّدت بنافذتين

Twitter: @ketab_n

على شكل قوسٍ قوطي تطلان على البحر. وعندما وصل أرماند في الساعةِ المحدّدة وَجد سيّدَه مُتْعباً مُحْمرَّ العينين، لكنه استغرب مع ذلك لطفَه وهدوءَه. كان أثاثُ تلك الغرفةِ الأنيقة التي تخترقها أشعةُ الشمس العمودية، بسيطاً جداً، وكانت الجدرانُ بلا زخرفة وقد نصب في وسطها طاولةٌ وضعت عليها خرائطُ ووثائقُ متنوعة، وعلى طولِ أحدِ الأسقفِ صفٌّ من الكراسي. وما بين النافذتين المطلتين على البحر فُتِح بابٌ يُطلّ على الشرفة. كان معطفُ السيد الأبيض ملقىً على أحد الكراسي، لكنْ عندما دخل أرماند إلى الغرفة ووقف في وسطِها وقفةَ من ينتظر أمراً من سيّده إذ بآرن يمسك بمعطفه ويعلقه بحركة عفوية حول عنقه. فلم يحيِّ أرماند إلا بعد ذلك منحنياً أمامه انحناءةً خفيفة.

أراك تحفر الأرضَ منذ بعض الوقت، وكأني بك قد صرتَ مُخبراً سرياً بدلاً من أن تكون رقيباً قيْد التدريب، أليس كذلك؟ سأل آرن بلهجة المُمازحين، لكن أرماند ما لبث أنْ حذِرَ تلك الممازحة لأن الإخوة الأعلى رتباً في سلّم الرهبانية اعتادوا نَصْبَ الفخاخِ بالكلماتِ حتى عندما تنطوي تلك الكلمات على الودّ.

– صحيحٌ أننا حفرنا كثيراً لكنّ الحفرَ كان ضرورياً، أجاب أرماند في حذر.

فألقى إليه آرن نظرةً استفسارية طويلة دون أن تكشف عن رأيِه في ذلك الجواب. لكنْ ما لبثت علامات الجدّ أن علَت مُحيّاه، فأمَر أرماند بحركةٍ من يده بأن يجلس، فسارعَ أرماند بالجلوسِ، فيما توجه سيّدُه نحو الطاولة المحمّلةِ بالوثائقِ فكسحها بحركةٍ من يدِه ليجلس عليها.

– ليس أمامنا وقتٌ نُضيّعه، قال بخشونة. لقد جئتُ بك إلى هنا لكي ألقي إليكَ أسئلةً عليك أن تجيب عليها بكاملِ الصدق. فإن أحسنتَ الردَّ فلن يقف أيُّ عائقٍ في طريق دخولِك إلى الرهبانيةِ، وإنْ أسأتَ الردَّ فإني أخشَى عليك ألا تصيرَ يوماً واحداً منا. فهل هيّأتَ نفسَك لهذه اللحظة بتلاوةِ الصلواتِ التي توصي بها الكنيسة؟

– أجل، سيدي، أجاب أرماند وهو يبلع ريقه في توتُّرٍ وعصبية.

Twitter: @ketab_n

- هل أنت متزوج، أو خطبتَ امرأةً، وهل أنت مرتبطٌ بأيّ امرأةٍ بشكل من الأشكال؟

- لا، سيدي، كنتُ الابن الثالث، و....

- فهمتُكَ، عليكَ أن تجيب بِنعم أو بِلا. السؤال التالي: هل أنت ابنٌ شرعيّ لأبوين شهِد الربُّ على قرانِهما؟

- أجل، سيدي.

- أبوك، وعمّك، أو جدّك، هل كانوا فرساناً؟

- أبي بارون غاسكونيا.

- حسن. هل أنت مَدينٌ بالمال لأيٍّ كان من الإخوة، أو لأيٍّ كان من الناس، أو لأيِّ رقيبٍ في رهبانيتنا؟

- لا، سيدي. كيف لي أن أكون مديناً بدينٍ لأخٍ، أو...

- كفى! قاطعَ آرن وهو يرفع يدَه إلى السماء. اكتفِ بالردّ على أسئلتي واعْفِني من أيّ اعتبار آخر!

- عفواً، سيدي.

- هل أنت سليمُ الجسم والعقل؟ لست أجهلُ إجابتَك، لكن لا بد لي من أنْ أسألك هذا السؤالَ، وفقاً للقَواعد.

- أجل، سيدي.

- هل دفعتَ أيَّ مبلغ من الذهب أو الفضة حتى تدخل رهبانيتنا؟ وهل وعَدك أحدٌ من أعضائنا بقبولِك بيننا مقابلَ مكافأة؟ إنها خطيئة تتعلق بالرتب الكهنوتية. وإن حدث واكتشف أمرُها فيما بعدُ سوف يُسحب منك معطفك الأبيض. فالقواعد تقول خير لنا أنْ نعرف هذا الآن من أن نعرفه بعد حين.

- لا، سيدي.

- هل أنت على استعداد لأن تُثبِت طُهرَكَ، وفقرَك، وطاعتَك؟

- أجل، سيدي.

- هل أنت مستعد لأن تقسم أمام الربّ وأمام قديستنا العذراء مريم بأنك

Twitter: @ketab_n

سوف تفعل كل ما في وسعك، وفي كل الظروف، لكي تكون خليقاً بتقاليد وأعراف فرسان هيكل الربّ؟

- أجل، سيدي.

بدا آرن وكأنه استنفد كل الأسئلة التي كانت في جعبته، وظل برهة صامتاً متأملا، وكأنّ هموماً أخرى ما زالت تُشغِل بالَه. لكنّ وجهَه ما لبث أن اتّقدَ فجأة، فترك نصفَ جلستهِ تلك التي كان يجلسها على الطاولة، وتوجه نحو أرماند، فاحتضنه ثم قبّل وجنتيه.

- كلُّ هذا منصوصٌ عليه في الفقرة ٦٦٩ وما تلاها من فقرات قواعد كهنوتنا. وها أنت ذا قد صرتَ على درايةٍ بهذا المقطع الذي كُشف لكَ، ولكَ موافقتي.

رغب آرن في أن يبوحَ بذلك السرّ الغريب عرَضاً، وفجأة لم يعرفْ أرماند بماذا يجيب أو كيف يجيب. وظل الرجلان برهةَ ينظران إلى الميناء حيث نشطت حركةُ تفريغ سفينتين رستا في ذلك الميناءِ في ذلك اليوم بالذات.

- قرّرتُ أن أجعل منك حاملَ بَيْرقِنا، قال آرن فجأة، وكأنه استطاع في النهاية أن يتخلص من ذكرياتٍ أيقظها فيه سؤالُه الأوّل. لا أرى ما يدعوني لأن أشرح لك أي فخر عظيم يملأُ مَنْ تناطُ به مهمةُ حَمْلِ رايةِ الرهبانية، ورايةِ الساحة في زمن الحرب. وأنت تعرف ذلك.

- لكن، أليست هذه مهمة فارس.. هل يمكن أن يُمنَحَ رقيبٌ هذا الشرف؟ سأل أرماند بعد أن ذُهِلَ بما سمعه قبْل قليل.

- في الأوقات العادية يجب أن يكون حامِلُ الرايةِ فارساً من الفرسان، لكن لولا الحربُ على الأبوابِ لكنتَ الآن فارساً. وأنا من يقرّر ذلك وليس غيري. حامِلُ بيرقنا لم يَتَعافَ من جروحِه بعدُ، لقد زُرته في غرفةِ التمريض وتحادثتُ معه في هذا الأمر. لكن أريد الآن أن أعرف رأيَك في هذه الحرب. هيّا لنذهب!

وعادا إلى الغرفةِ وجلس كلٌّ منهما على كرسيّ بالقرب من إحدى النوافذ، وسعى أرماند جاهداً لكي يُبدي رأيَه في تلك الحرب. لقد توقّع حصاراً طويلا قد يشقّ عليهم تحمُّلَه ولكن بالإمكانِ الانتصارُ فيه. وفكّر أنه خيرٌ لهم على الخصوص

Twitter: @ketab_n

ألا يُبادروا بالهجوم لأنّ عددَهم لا يزيد على ثمانين فارساً وثمانين رقيباً أمام جيش مملكوي مكتمِلٍ عن آخره. أقلُّ من أربعمئة رجلٍ في مواجهةِ سبعة أو ثمانية آلافِ رجلٍ أمرٌ ينمُّ عن شجاعةٍ فائقةٍ لا شك فيها، لكنه ينطوي في ذات الوقتِ على حماقةٍ لا شك فيها أيضاً.

شاطر آن رأيَ صاحبه وهو يهزُّ رأسَه متأملا، لكنه أضاف وكأنه يحدّثُ نفسه أن هذا الجيشَ لو اكتفَى بالعبور إلى مياهِ غزة وتوجّه رأساً نحو القدس فساعتها لن يقول قائلٌ إن كان الأمرُ حماقةً، أو فطنةً أو شجاعة. لم يبقَ سوى مسلكٍ واحدٍ لا بد من سلوكِه، فلا شيءَ يؤمَلُ فيه إذاً سوى حصارٍ دام، لأنّه أياًكان مخرجُه فسوف تنجو القدسُ في النهاية، وتلك مهمةٌ لا يحلمُ فارسُ هيكل الربِّ بأنْبَلَ منها بتاتاً.

لكنْ إذا سار صلاحُ الدين بجيشه نحو القدس فلن يبقى أمامهم سوى مخرَجَيْنِ لا ثالثَ لهما، الموتُ أو النجاةُ بفضلِ معجزةٍ ربانية.

فعلى الرغم مما يمكن أن ينطوي عليه هذا الأفقُ من رعبٍ يبقى الأملُ في حصارٍ إذاً هو الخيارُ الذي لا خيارَ سواه.

بعد مرورِ يومَين اثنين قاتل أرماند دي غسكونيا لأوّلِ مرّة، حامِلا للرايةِ ضمن حامِيةٍ من الخيالة تحت إمرةِ سيد الحصن. لقد انطلق خمسة عشر فارساً ورقيبٌ في تشكيلةٍ متراصّة نحو الجنوب ونحو القدس على امتدادِ البحر. وقد أنبأ الجواسيسُ البدوُ أن جيش صلاح الدين قد بدأ في التحركِ، لكنه انقسم أيضاً إلى قسمين: قسم توجّه صعوداً نحو الشمالِ على طولِ الساحلِ وقسم تحرّك منعطفاً نحو سيناء. لم يكنْ من السهلِ التنبؤُ بتلك المناورةِ لكنْ من اللائقِ التحقّقُ من تلك الأخبار.

في البداية ساروا راكبين على الخيولِ وعيونُهم ساهرةٌ على الشاطئِ غرباً، وممتدةً في اتجاهِ الجنوبِ الغربي على طولِ المدَى.

ولمّا كانوا معرَّضين لأن يقعوا بغتةً خلف خطوط العدوّ أمَر آرن بتغييرِ الاتجاهِ فانحرفوا نحو الداخل ونحو الجزءِ الذي تكثرُ فيه الجبالُ على طريقِ الساحلِ الذي تسلكه القوافل في أوقاتِ السنةِ التي يغدو فيها هذا الطريقُ غير سالكٍ أثناء العواصف.

Twitter: @ketab_n

ولم يكادوا يصلون إلى طريقِ القوافلِ ذاك حتى غيروا الاتجاهَ مَرة أخرى لكي يصمدوا فوق الجبالِ ويراقبوا الطريقَ على بُعدِ مسافةٍ كافية. ثم إذا بهم يرون العدوَّ فجأة عند منعطفٍ احتجبت فيه الرؤيةُ بسبب صخرةٍ هائلة انتصبت أمامهم على حين غرّة.

وعلى هذا النحو اكتشف المعسكران كلاهما الآخَر في الوقت ذاته فلم تقل دهشةُ هذا المعسكرِ عن ذاك المعسكر. ففي أسفل الجبل سار على طولِ الطريق جيشٌ من الفرسان، في صفوفٍ رُباعية امتدت على مد البصر.

رفع آرن يدّه اليمنى وأمر أفرادَ فريقِه بأن يستعدوا للهجوم، أي أن يقفوا في خطٍّ واحدٍ وجهاً لوجهٍ مع العدوّ. وتلقّى آرن الطاعةَ لكنه ما لبث أن لمح نظرات التعجبِ هنا وهناك. فمن تحتهم رابط ما لا يقلّ عن ألفيْ فارسٍ مصري براياتهم الصفراء، وزيّهم الذي يلمَع مثل الذهبِ تحت أشعة الشمس. إنهم المماليكُ، وما أدراكَ ما المماليك، خيرةُ جنودِ عرب الشرق وفرسانهم. كان هؤلاء جيشاً مكتمِلا عن آخره.

ولم يكد فرسانُ هيكل الربّ على قمّةِ الجبل يتهيأون للهجوم حتى عجَّ الوادي بالأوامر وضجيجِ الحوافرِ فأنبأ ذاك العجيجُ وذاك الضجيجُ بأنّ المصريين يستعدّون لمواجهة الهجومِ، يتصدّرهم الرماة بِنبالِهم.

مكث آرن على ظهرِ مطيّتِه لا يقول شيئاً، ويلاحظُ ذلك العدوّ المتفوّقِ تفوقاً لا حدَّ له عدداً وعدّة. بالطبع لم يخطرْ لآرن أن يأمرَ بالهجوم لأنّ الهجومَ يعني أن يفقِد بلا طائلٍ خمسةَ عشر فارساً ورقيباً. لكنه أبى على نفسه أيضاً أنْ يتراجع هارباً.

في أسفلِ المكان بدا المماليكُ وكأنهم لا يعرفون أيّ سلوكٍ يسلكون، فمن حيث يقِفون لا يستطيعون أن يروا سوى ستة عشر عدوّاً مهيئين للهزيمة. لكنْ ما دام هؤلاء ينتظرون في هدوءٍ، مكتفين بملاحظةِ الخصم فقد يزيد عددُهم على ستة عشر، حتى وإن بدا واضحاً عن بُعدٍ أنّ أولئك الفرسانَ فرسانٌ يحمِلون صلباناً قرمزية، وأنهم ألدُّ أعداء الكفرة. وقد ظنّ المماليكُ الذين لم يفتهم أن يلاحظوا رايةَ

Twitter: @ketab_n

القيادةِ التي يحملها أرماند أنّ الأمَر فخٌّ قد نُصِبَ لهم وأنّ أولئك الفرسان الستة عشرة هُم وحدهم مَنْ ظهروا للعيانِ.

وجودُ عربِ الشرق في أسفلِ موقِع جيش الفرسان الإفرنج، المنطلقين في الهجوم، يمثل أسوأ المواقع في أعينهم، أتراكاً كانوا أم مماليك. وما لبثت أوامر جديدة أن دوّت في الوادي، فتقهقر الجيشُ المصري فيما أُرسلَ كشّافون مسيحيون في كافة الاتجاهات فوق المرتفعات المجاورة ليحدّدوا موقع جلّ فرقِ العدو.

عندئذ أمر آرن فرقته بأن ترتدّ على أعقابها في صفوفٍ متراصّة، وبأن تتراجع مشياً على الأقدام. وتوارى الفرسان الستة عشر في هدوءٍ عن أنظارِ أعدائهم المندهشة.

ولم تكد الفرقة الأولى تختفي عن الأنظار حتى أمرها آرن بالانطلاق، والعودةِ إلى غزة من أسرع السبل الممكنة.

وعند اقترابهم من المدينة لاحظوا أن الطرق تغص بالهاربين. وبعيداً عن المكانِ شرقاً ارتفعت أعمدةٌ كثيرة من الدخانِ، فأدركوا أنّ غزْوَ الفارّين لغزّةَ لن يطولَ كثيراً.

وهكذا حلّتِ الحربُ أخيراً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

وأخيراً وضعتْ الحربُ أوزارَها. فما أكثرَ ما أتيح للسيسيليتين أنْ تتأمّلا هذه الحربَ وتُقدِّرا أنّها لا تنتهي في لَمْحِ البصر، وأنّ نهايةَ العداء لا تعني بالضرورة استتبابَ النظامِ والسلام. فالحربُ لا تنتهي بموتِ آخرِ ضحاياها على ساحةِ الوغَى، وإنِ انتهتْ فهي لا تعني لحظةَ سلامٍ وهناءٍ في معسكرِ المنتصرين فيها.

ذات ليلةٍ من ليالي الشهر الثاني الذي أعقب معركةَ ساحة بحالبو الدامية، وفيما كانت رياحُ الخريف تهزّ لأول مرّةٍ النوافذَ والسقْفَ الواقي لِغودهيم، أقبلت مجموعةٌ من الفرسان يطلبون خمسَ فتياتٍ من عائلة سفيركر، المُقيماتِ في الدير. وقد همَس الناسُ وهَمْهَموا بأنّهنّ سيلجأن إلى أقارب دَنْمَركيّين. وبعد مرور بعض الوقت وصلت إلى الدير فتياتٌ أخرياتٌ من معسكرِ المهزومين في الحرب، هروباً من بطشِ عائلةِ الفولكونغر وعائلة الإيريك.

وهكذا اطّلعن على أخبارِ بعض ما يدور في العالم. وقد عُرف من آخرِ المعتصِمات به أنّ الملكَ كنوتْ إريكسون – هكذا صار يُنادَى به منذ ذلك الوقت– قد دخل إلى ليكوبينغ برفقةِ اليارل بيرجر بروزا، حتّى يتلقّى ولاءَ قائدِ أعدائهِ له، ويُثبِت أنّه قد صار مُذّ ذاك صاحبَ الحلّ والربط.

اغتبطت السيسيليتان بذلك أيّما اغتباطٍ، فها هو ذا خطيبُ بلانكا قد أصبح ملِكاً، فيما صار عمُّ آرن، حبيبُ روزا، يارلاً! فالسلطةُ، كاملُ السلطة، الدنيوية على الأقلّ صارت الآن بين أيديهما، ومع ذلك فقد اسودّت السماءُ الزرقاءُ

Twitter: @ketab_n

بسحابةٍ سوداء، إذ لا أحدَ سمِع حتى تلك اللحظة أنّ الملكَ كنوتْ تُراوده النيّةُ في إبعاد سيسيليا ألغوتسدوتر، حبيبتِه الموعودة، من ديرِ غودم.

في عالَم الرجال، لا شيءَ يخلو من شكٍّ أو ريبةٍ أبداً، فأيُّ خِطبةٍ قد تُفْسَخُ لأنّ الحربَ انتهت إلى انتصارٍ، أو انتهت إلى هزيمة. فكلّ شيءٍ ممكنٌ في كفاح الرجالِ من أجل السلطة. فالعائلاتُ المنتصرة قد ترغب في توثيقِ الأواصرِ بواسطة عقْدِ قرانٍ، لكنْ قد يحدثُ أيضاً أنْ ترغب في الاقتران بمعسكرِ المهزومين، حرصاً منها على توطيدِ السلام. لكنّ أمراً واحداً كان مؤكداً: الفتياتُ اللواتي كانت تهمهنَّ مثلُ تلك الصفقات كنّ آخرَ من يعلَم بها.

فهذا الشكُّ الذي ما انفكّ يعذّب سيسيليا بلانكا هو الذي جعلَها تُحجم عن إعلان فرصتِها بالانتصار. لذلك إذاً استنكفت عن كلّ قولٍ جارحٍ إزاء أخواتها في السرّاء، وقد تشبّهت بها روزا في كلّ شيء. وهكذا انتصرتا في تواضعٍ ولم تُذِلاّ أيَّ شخص.

كان لهذا السلوكِ أثرُه الخيّرُ الملطّف على مشاعر كلّ واحدة في غودم، وفي ذلك وجدت الأمُّ ريكيسا التي أبدت من الفطنةِ أكثر ممّا تصوّرته السيسيليتان، فرصةً لتهدئة الأهواء والآلام. لقد اغتنمت هذا الهدوءَ لكي تغيّر قليلاً قواعدَ المحادثة السائدة في Claustrum lectionis، على المقاعدِ الحجرية في الجزء الشمالي من الدير. فحتّى تلك اللحظة كان سكّانُ الدير يكتفون بقراءة الكتب المتوافرة في غودم، أو بالتطرّق إلى المواضيع الباعثة على الفضيلة والتقوى فيما يتّصل بالحرام والعقاب، يتوجّهن بها إلى فتيات العالم. عوضاً عن هذا طلبت السيدةُ ريكيسا مرّاتٍ عديدة أثناء الخريف، من السيدة هيلينا ستينكلسدوتر أن تشارك في هذه الأحاديث، لكي تُدرّس ما تعرفه عن الكفاح من أجل السلطة – وهي تملك من الدوافع ما يبرّر تلك المعرفة– وتُعلّم النساءَ كيف يتصرّفن إزاء هذه المسألة – وهي أدرى الناس بها.

لم تكن السيدة هيلينا امرأةً ثريةً فقط، ومن عائلةٍ ملكية وحسب، إذ عرفت خمسةَ مُلوكٍ أو ستة، وعاشرت ثلاثةَ أزواجٍ ونفسَ العدد من الحروب. أمّا ما كانت

Twitter: @ketab_n

تجهله عن مصير المرأة فلم يكن جديراً بأنْ تعرفه.

بدأت حديثَها بالقول إنّ على النساء أن يتحلّيْنَ فيما بينهنّ بمزيدٍ من التكاتفِ والتكافل.

فمَن شاءت من النساء أن تنحاز إلى معسكرها بحسبِ صُدفِ الانتصار فسوف تجد نفسَها وحيدةً في الحياة، محاطةً بالأعداء. أمّا من تختار التهكّمَ من راهبةٍ تكبّدتْ أسرتُها الهزيمةَ فهي بلهاءُ، لأنها قد تجِد نفسَها ذات يوم في الحالة نفسِها. لا شكّ أنه من الممتع أيّما إمتاع أنْ تنتسِب المرأةُ لمعسكر المنتصرين، لكنْ الأمرَ مرٌّ إنْ كانت في عدادِ الخاسرين. فأيُّ امرأةٍ مُدّ في عُمرِها – مثل السيدة هيلينا نفسها، وكل مَن تتمنّى لهنّ عمراً مديداً من الفتيات اللواتي يُصغين إليها في تلك اللحظة– سوف تشهد حلاوةَ الانتصار ومرارةَ الهزيمةِ مرّات عديدة خلال حياتها.

كم من حربٍ لا طائل من ورائها كان يمكن تفاديها لو تفطّنت النساءُ لِما في تكاتفهنّ وتكافلهنّ من خيرٍ في هذه الدنيا! لكنهنّ تمادَين في تبادلِ البغضاءِ التي ليس لهنّ فيها أيّ داعٍ من الدواعي الشخصية، مُضَحّياتٍ بحصافتهنّ على مذبح الانتصارات الزائلة.

في البدايات تناولت السيدة هيلينا هذه المواضيعَ تناولاً نظّرتْ فيه تنظيراً. لكنها ما لبثت في النهاية أن أبانت عن أفكارِها إبانةً قاسيةً امتقعتْ لها وجوهُ المُصغيات إليها.

"لنتخيّلْ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث، قالت هذه المرّة كما اعتادت أن تقول في أوقات كثيرة، لنتخيّلْ أنّك يا سيسيليا بلانكا أولفسدوتر أصبحتِ زوجةً للملك كنوتْ، ولنتخيّلْ أنك أنتِ يا سيسيليا ألغوتسدوتر ستتزوّجين قريباً واحداً من الأقارب الدنمركيين للملكِ الراحل سفيركر، لنتخيّلْ أن هذا قد حدث حقاً، فأيٌّ منكما سترغبُ عندئذ في الحرب حقاً؟ ومَن منكما ستفضّل السلّم حقاً؟ فأيّ جدوى في أن تظلّ إحداكما تبغُض الأخرى منذ سنواتِ شبابكما القصيرة في غودم، أو في أن تكونا صديقتين دوماً؟ سأصدقُكما القولَ إنه الفرق كلّ الفرق ما بين حياة وموت أصدقائكما، والفرقُ كلُّ الفرق ما بين الحرب والسلم."

Twitter: @ketab_n

ثمّ توقّفت عن الحديث هنيهةً وبدّلت جلستها على الكرسي، وهي تتنفّس ببطءٍ وتتأمّل بعينيها الصغيرتين مُضْغيَتَيْها الشابّتين اللتين وقفتا متصلّبتين وتظاهرتا بعدم الفهم، وبأنهما لا تعيران حديثَها رفضاً أو قبولاً. لم تنكثْ بلانكا نفسُها بمشاعرِها على الرغم من أنّها خمّنت أنّ السليطة الوقحة هيلينا سفيركردوتر تستأهل على الأقل ثلاثةَ أضعاف الضربات التي كبّدتها إيّاها شخصياً.

"أراكما تتظاهران بالبراءة"، تابعت السيدة هيلينا بعد هنيهة. "فلعلّكما تظنّان أني أهـذي، وأنّي ألحّ في ترديدِ الإنجيل عليكما، بالقول إنه لا بدّ من أن تكونا مُسالمتين، وأنّ الغضب والضغينة إثمانِ عظيمان، وأنّه لا بدّ من العفو عن الأعداء مثلما يعفُو الأعداء عنّا، ومِن تقبّل الإهانة وغيرها من التوافه التي حاولنا ترسيخها في ذِهنيكما هنا في غودِم. لكنّ الأمر ليس بهذه البساطة، أيّ أختيَّ وصديقتيّ! لعلكما تظنّان أن لا حَوْلَ لكما ولا قوة، وأنّ الحَوْلَ والقوة في حدّ السيف والرمح وحدهما! لا، فالأمر عكس ما تظنّان تماماً. فلهذا السبب تركضان مثل الإوزّ في كلّ مكانٍ في المزرعة، تارة في هذه الناحية وتارة في الناحية الثانية. فما مِن رجلٍ حصيف – لقد حَمَتْكُمَا مريم العذراء ويَسّرت لكلّ منكما زوجًا كهذا الرجل!– قلت ما من رجلٍ حصيف يجيزُ لنفسه بأن لا يصغي لزوجته، أمّ أطفاله وأمينةِ شؤون بيته. فلعلّ من تكون صغيرة في سنّكما تظنّ أنّ هذا ليس صحيحاً إلاّ في شؤون الحياة الصغيرة، وأنّ قليلاً من الدموعِ وقليلاً من المداعبة ومِن شدّ لحيةِ الأبِ من ابنةٍ صغيرةٍ تجعل أكثر الآباء فظاظةً وتأفّفاً، يُقدّم لها أجملَ فارسِ أحلامها! فالأشياءُ الكبيرةُ والصغيرة سيّان، لذلك لا يجب أن تُقبلا على الحياة مثل جِراء الكلاب، بل عليكما أن تُبينا إرادتَكما في حريّة وقوّة، كما جاء في الكتاب المقدّس، وأنْ تضعا هذه الإرادة في خدمة الخيرِ وليس الشرّ بتاتاً. فقراركما لا يقلُّ شأناً عن قرار الرجال في الحياة وفي المَمات، وفي الحرب والسلام. فما أعظم إثمكما إنْ تملّصْتُما من هذه المسؤولية!".

أبدتْ السيدةُ هيلينا إشاراتِ التعب، ولمّا كانت ضعيفةَ النظر بعينيها اللتين لا تكفّان عن السيلِ، فقد دنَت منها راهبتان لتُرافقاها إلى البيت خارج الأسوار.

Twitter: @ketab_n

ومكثت بقيّةُ الراهبات جالساتٍ بعض الوقت، متوقدّات الفكر، غارقاتٍ في صمتٍ مطبق، لا تبالي أيٌّ منهنّ بباقي الراهبات.

* * *

في أجواءِ إصلاحِ ذاتِ البيْنِ التي استحوذت على غودبم، خاصةً بفضل الكلمات العاقلة العديدة التي خاطبت بها السيدةُ هيلينا راهباتِ الدير – مثل الهدوء الذي يلي العاصفة– لم تتوانَ الأمُّ ريكيسا عن الشروع في الفعل على وجه السرعة.

في تلك الأثناء قَدِمَتْ من ليكوبينغ إلى غودبم أربعُ آنساتٍ لم تكن تملك منهنّ خبرةً في حياة الدير سوى واحدة. كنّ يلبسْنَ ثوبَ الحداد على أقارب لهنّ، وكنّ خائفاتٍ يبكين مدراراً كلّ ليلة. كانت كلُّ واحدة منهنّ تلتمس رفقةَ أيِّ واحدة أخرى، مثل أفراخ البطّ التي فقدت أمّها، فصارت بذلك فريسةً لسَمَكِ السنجور المتربّصِ لها ما بين القصب، وفريسةً للثعالب المتقدّمة نحوها ما بين حوافّ النهر.

ومع ذلك فقد قدّرت الأمُّ ريكيسا أنّ هذا السوءَ قد ينقلب خيراً، مثلما بالإمكان جعْل اللزوم مزيّة. لذلك ارتأت أمرين اثنين، فقرّرت أوّلاً رفْع واجبِ الهدوء في غودبم لفترةٍ غير محدودة، لأنّ ما من واحدةٍ من الصغيرات الوافدات حديثاً إلى الدير تُتقن لغةَ الإشارات. ثمّ، ولمّا كان للراهبات مهمّات أهمّ يضطلعن بها في الدير فستُوكَلُ للسيسيليتين مسؤوليةُ الوافدات الصغيرات، من أجل تلقينهنّ هذه اللغة، وكذلك قواعد الدير، والإنشاد والحياكة.

تلقّت كلٌّ من يعنيهنّ الأمر قراريَ الأمّ ريكيسا بكثيرٍ من الذهول عندما أخبرتهنّ بهما في قاعة مجلس الكهنة. والحال أنهّن قد وُزّعن على مهامَّ كثيرة. فمن ناحية سينعَمن بحريةٍ لم يسبق أن حلمن بها في غودبم، وهي الحرّية في أن يقرّرن بأنفسهنّ توزيعَ الوقت خلال نهاراتهنّ، وحرية الحديث جهراً ومن دون خشية. ومن الناحية الثانية فهنّ مُكرهات على التقرّب من الفتيات الأربع، بنات عائلة سفيركر. كانت بلانكا تتمنّى ألاّ تقترب منهنّ إلاّ بقدر ما تقتضيه الحاجة الملحّة. فحتى وإن لم تكن

Twitter: @ketab_n

على يقينٍ تامّ من أنها تُبغضهنّ حقاً بسبب والدهنّ وأمهنّ فهي تُقدّر أنّ البغضاء لا تجدي عليها ولا على غيرها شيئاً. وقد طلبت منها روزا أن تفكّر في المشاعر التي كان يمكن أن تغمُر روحَها لو أنّ معركة بجالبو انتهت على غير ما انتهت إليه. لكنْ على أيّ حال فما من واحدةٍ في الدير تملك غيرَ الانصياع والطاعة.

وعندما التقَين في الدير لأوّل مرّة بعد القيلولة ارتبكت الفتياتُ الستّ وتضايقن. وعندئذٍ قالت سيسيليا لنفسها إنّ خيرَ ما يعوّض الكلامَ إذا تعذّر الكلامُ هو الغناءُ. ولمّا كانت على بيّنةٍ من صفحة المزامير التي كنّ قد وصلن إليها في تلك الفترة من السنة فلم تكن تجهل التراتيلَ التي كنّ سينشدنها بعد ثلاث ساعات، عند الثالثة ظهراً، فأخذت تُدندن بكلّ ترتيلٍ من تلك التراتيل وتردّدها مرّات عديدة حتى تحفظها الصغيراتُ الوافدات، ولو مؤقتاً. وعندما حان موعد الإنشاد في الكنيسة لم يجدن عناءً في اقتفاءِ رفيقاتهن الراهبات. وعندما غادرن الكنيسة كانت الرّيحُ تعصِفُ عصفاً، وبردُ الخريف يملأ أرجاء الدير. وتوجّهت سيسيليا إلى بيتِ رئيسة الدير وما لبثت أن عادت منه والبِشْرُ والحبور يملآن صدرها لتعلن أنّ مِن حقهنّ الانتفاعُ بمجلس الرهبان.

أمضين نحو ساعة في التآلفِ مع أبسط إشارات لغةِ الدير الخرساء، ومع كلمات وعباراتٍ مثل: نعم، لا، مبارك، شكراً، حمتْك مريم العذراء! تعالَيْ هنا، اذهبي هناك، كوني حذرة فقد تسمعك الراهبة!

ما لبثت السيسيليتان، الأستاذتان اللتان ارتُجلتا ارتجالاً، أنْ أدركتا أنّ ما كُلّفتا به فنٌّ ينبغي تلقينه جرعةً جرعة، وأنّه لا يليق السعيُ فيه وقتاً طويلاً.

وعند منتصفِ ساعة العمل التي تفصلهما عن صلاة الغروب، عبرَتا الديرَ وصولاً إلى قاعة الحياكة حيث أفسحت لهنّ العاملاتُ من الراهبات المكانَ على مضض. وقطعت السيسيليتان حديثَهما الذي انقلبَ ضحكاً على حين غرّة، لكي تشرحا كيفيات تدبير الحياكة. ثمّ مزحتا وتفكّهتا بذلك الموقف حتى تضاحكت جميعهنّ وتقهقهن.

وسرعان ما تبيّن أن واحدةً من الصغيرات الوافدات، أصغرهنّ وأقصرهنّ جميعاً،

Twitter: @ketab_n

وهي فتاة داكنة الشعر، واسمُها أولفيلد إيموندسدوتر، طويلةُ الباع في فنّ الحياكة. فحتّى تلك اللحظة لم تحدّثْ أحداً بفنّها ذاك، ربّما لتعذّر فرصةِ الحديث عنه منذ وصولها إلى غودبم. بيد أنّها ما لبثت أن أخذت تشرح بحميّةٍ متزايدة بأنّ ثمّة طريقةً لمزج الصوف بالكتّان للحصول على نسيج دَفيءٍ وليّنٍ معاً. كان هذا النوع من الكتّان مناسباً للنساء والرجال على السواء، ثمّ ألم تكن كلّ الفتيات من عائلات تعوزها أشدّ العوز المعاطفُ الدنيوية والمعاطف الكنسية؟

توقّف الحديثُ هنا هذه المرّة، لأنّ التواصل بين بعضهنّ لم يكن ميسوراً إلاّ قليلاً، فاثنتان منهنّ كنّ من عائلات ذوي المعاطف الزّرْقاء، فيما كانت الأربعُ الأخرياتُ من عائلات ذوي المعاطف الحمراء والسوداء. لكنّ بذرةً كانت قد زُرعت وكانت ستفرخ نبتتَها قريباً.

بعد قليلٍ أدركت سيسيليا روزا أن أولفيلد الصغيرة تحوم حولها بلا انقطاع، ليس لغرضٍ عدوانيّ في نفسها، ولا بنيّةِ التجسس عليها، لكنْ في خجلٍ جمّ كأنها تريد أن تقول لها شيئاً. والحال أنّ السيسيليتين قد تقاسمتا المهمّات، فتكفّلت روزا بتلقين الإنشاد، وتكفلت بلانكا بالحياكة، وكانتا تلتقيان عند درْسِ لغة الإشارات. وذات يوم هُيّئ لروزا أن تُنهي الإنشادَ قبل أوانه المعتاد بقليل، فطلبت من أولفيلد بلا مواربة أن تجلس بالقرب منها، وأن تُسرَّ إليها بما يضيق به صدرُها. عندئذٍ تسلّلت الأخرياتُ خارج قاعةِ مجلس الكهنة، وأغلقن الباب ومضين، لا يكاد يُسمَع خَفْقُ خطواتهنّ حتّى ظنّت روزا أنهنّ قد حزرن أمرَ انفرادها بتلك الرفيقة الجديدة.

– نعم أولفيلد، لقد صرنا الآن وحدنا. هكذا بدأت روزا حديثَها بنبرةٍ آمرةٍ أقرب إلى نبرة رئيسة الدير، قبل أن تتنبّه لاندفاعِها وتقاطُع نفسها... أريد أن أقول أنّي أحسستُ أنّ صدركِ يضيقُ بأمرٍ ذي بالٍ ترغبين في أن تحدثيني به، فهل أنا مخطئة؟

_ لا يا عزيزتي سيسيليا روزا! أنت لستِ مخطئة، أجابت أولفيلد التي بدت في الحال كأنها سعت في جهدٍ جهيد لأن تحبس دموعَها.

– ما الأمرُ يا صديقتي الصغيرة الغالية؟ سألت سيسيليا بصوتٍ مرتبك لا عزْمَ فيه.

لكنّ الإجابةَ تأخرت كثيراً، فقد ظل الصمتُ يلفّهما بعض الوقت ولم تجرؤ

Twitter: @ketab_n

إحداهما على قطْعِه لأن سيسيليا بدأت تتوجّس أمراً من صديقتها.

- الحال أن إيموند أولفبان هو والدي - رحمه الربّ - قالت أولفيلد وهي تشخص ببصرِها في عناءٍ إلى بلاط الأرض.

- لا أعرف أولفبان، أجابَت سيسيليا في وجلٍ، وندمت في الحال لما قالته لصديقتها.

- كيف لا تعرفينَه إذا كان خطيبُك آرن ماغنوسون يعرفه، وكان كلُّ واحدٍ في فاسترا غوتالاند يعرف أمْرَهُ حق المعرفة. لقد فقدَ والدي يدَه في ذلك اليوم.

- لقد سمعت بالفعل عن تلك المعركة الفريدة التي حدثت أثناء تينغ أكسيفالا، أقرّت سيسيليا في خجلٍ وارتباك. فكما تقولين لا أحدَ يجهل ذلك، لكني لم أشهد ما حدث، ولا شأنَ لي بهذا الأمر. لم يكن آرن خطيبي آنذاك، ولم تشهدي أنتِ نفسك ذلك الحدث أيضاً. فلست أرى ما الذي تريدين الوصولَ إليه، فهل تقدّرين أن الأمر بات سدّاً منيعاً بيننا؟

- إني أرى أسوأ من ذلك، أردفت أولفيلد وهي لا تقدر على كبْحِ جِماح دموعِها أكثر مما كبحتها حتى تلك اللحظة. لقد قتل كنوت إريكسون والدي في فورسفيك بعد أن أذِن له بالبحث عنا، أنا وأمي وإخوتي...في ساحات الوغى الدامية.

لم تَقْوَ أولفيلد على قول أكثر ممّا قالت فانفجرَت بالنحيب وانحنت كأنّ ألماً مُبرحاً ألَمَّ ببطنِها. واختلط الأمرُ على سيسيليا روزا في البداية، لكنّها أناطت أولفيلد الصغيرةَ بذراعِها ثمّ جلست القرفصاء بالقرب منها وداعبت وَجْنَتَيْها.

"هيا، هيا، قالت مواسيةً إيّاها. يجب أن تقولي كلّ ما عندك، وخيّر لك أنْ تقوليه على الفور. قولي لي إذاً ما الذي حدثَ في ذلك اليوم، لأنني لستُ أعرف من الأمر شيئاً...بتاتاً."

لم تجدْ أولفيلد بُداً من أنْ تصارع نفسَها قليلاً حتى تستعيد أنفاسَها من بين نحيبها، قبل أن تقول ما بقِي ممّا كان يُكدّرُ صفوَها.

"في ساحاتِ الوغَى الدامية...لقيَ أخوايَ حتفهما...قتَلَهُما الفولكونغر...ثمّ

Twitter: @ketab_n

جاءوا إلى بيتنا حيث تقيم أمّي حتى هذه الساعة. ثمّ أَضرموا النّار فيها، مع الخدم والماشية!"

صارت محنتُها التي لا حدّ لها تنتقِل إلى سيسيليا روزا كأنها بردٌ قارسٌ يتسرّب من أعضاء الواحدة إلى أعضاء الأخرى. وتَعانَقَتا في صمتٍ، وأخذت سيسيليا تتأرجح من قُدّام إلى خَلْفٍ كأنها تُهدهِد الكائنَ الصغير الذي تمسك به ما بين ذراعيها، من دون أنْ تَدَع النعاسَ يداعبُ جفنيها. فلم يكن لها من مناصٍ أن تقول لها شيئاً.

"أولفيلد، أيْ صديقتي الصغيرة الغالية، نطقتْ بصوتٍ أجشّ لا يكاد يُسمَع. أُذكري أنّ ما أصابكِ من خَطْبٍ كان يمكن أن يُصيبني أنا أيضاً، وأنّ أيّاً منّا لا تحمِل وِزْرَ كلّ ما حدث. فلو وسعني أن أواسيك فلن أقصّر، وإنْ رغبتِ في صداقتي وعَوْني فلن أدّخر في سبيلهما جُهْداً. فالحياةُ في غودم ليست هيّنة، وعليكِ أن تعرفي أنّ ما ينقصنا هنا، فوق كلّ شيء، هو الصديقاتُ!"

* * *

ظلّ احتضارُ السيدةِ هيلينا ستينكلسدوتر يطولُ ويطول، فقد أنفقت عشرةَ أيّام كاملة قبل أن تلفظ أنفاسَها الأخيرة، محتفظةً حتّى النهاية بكامل صفاتِها تقريباً. وما أكثر ما أعاقت هذه الحالُ مهمّةَ الأمّ ريكيسا التي سارعت في نشْرِ أخبارها في كامل الأنحاءِ من حولها.

لم يكن من اليسير أن تُدفَن هيلينا كما تُدفَنُ أيُّ امرأة من نزلاء غودم. فهي في الحقيقة ذات مَحْتِد ملكيّ، إذْ تزوّجت المرّةَ تلو المرّة بهذا العضو أو ذاك من أعضاء أسرة سفيركر، ثمّ برجلٍ من معسكر عائلةِ إيريك. فلو كانت جراحُ الحرب في تلك الفترة قد ضُمِّدَت خيرَ تضميدٍ لرافقها المشيّعون إلى مثواها الأخير في جنازةٍ مهيبة. لكنّ دم معركة بجالبو كان لا يزال غضّاً في ذاكرةِ الناس، فلم يأتِ للمأتم سوى مجموعةٍ صغيرة من الناس العابسين الكالحين. فالحال أنّ معظمَهم وصلوا قبل الوفاة بأيّام عدّة وقد أُكرهوا على الانتظار في المضافة، وفي بناءاتٍ أخرى خارج الأسوار.. عائلة الفولكونغر والإيريك من ناحية، وعائلة سفيركر من الناحية الأخرى.

Twitter: @ketab_n

كانت السيسيليتان أَقْدَرَ البناتِ الخادمات جميعاً على اجتياز الأسوار لكي تُرتّلا بالقرب من الضريح في المقبرة. فهُما لا تُدينان بهذا الامتياز لِنَسْلِهما بل لكونِ صوتيهما من أرقّ أصوات الدير كله.

كان المطرانُ بِنِتْ قد قَدِم أيضاً من سكارا لكي يصلي مع المصلّين، وقد وجد نفسَه في قلب فضاءٍ فارغ، بمعطفه الأسقفي الأزرق الفاتِح المطرّز بالذهب. وقد بدا في مشيتِه كأنه يتّكئ على عكّازه. فمن ناحية وقف السفيركر والستنكيل بمعاطفهم الحمراء والسوداء والخضراء، ومن الناحية الثانية وقف الإيريك باللون الذهبي والأزرق السماوي، ووقف الفولكونغر يحملون نفسَ المعاطف لكن باللون الفضيّ بدل الذهبي. وقد عُرِضت ألتروس في صَفّين طويلين، خارج المقبرة، بعد أن عُلّقت في رماحٍ غُرزت في الأرض: أسد الفولكونغر، وتيجان الإيريك الثلاثة؛ غريفون السفيركر الأسود ورأس الذئب، شعار الستنكيل. كانت بعض تلك التروس تحمل أثَر ضربات السيف أو أسنّة الرماح، كما بدت على بعض المعاطف آثارُ المعارك والدماء. كان السلام حديثَ العهد، لذلك وقَف المطرُ عاجزاً عن غسْل كلّ أدناسِ تلك الحرب.

اجتهدت السيسيليتان في أداءِ تراتيلهما خيرَ أداءٍ فلم تُشوّشا على الجوقة بمزاحٍ أو دُعابة. فقلّما عرفتا السيدةَ هيلينا، لكنّ صلتهما بها على قلّتِها كانت كافية لكي ترأفا بها وتنذرا لها أسمَى آيات الاحترام والإجلال.

لم تكد التراتيل تنتهي، وتختفي السيدة هيلينا في الثقب الأسود حتى توارت السيسليتان وبقيّةُ الراهبات خلف الأسوار. لقد اقتصر غداءُ العزاء في المضافة على المطران والأمّ ريكيسا والضيوف الذين قدِموا من الخارج ولم يجدوا بُداً من أن يجتمعوا جنباً إلى جنبٍ حتى صاروا أقربَ إلى بعضهم ممّا كانوا في المقبرة التي وقفوا فيها جميعاً متباعدين.

وما إنْ بدأ المطرانُ وعميدُ مجلس الرهبان يتناءيان عن المكانِ كأنهما يتهيّآن للسيرِ في مقدّمة طوافٍ في اتجاه المضافةِ والغداء الذي كان في انتظارهما حتى بدا للعيان سوءُ نيّة الضيوف القادمين من الخارج، بل عدوانيّتُهم في تنظيم الصفوف.

Twitter: @ketab_n

فكان الإيريك أوّلَ المتحركين حتى صاروا في مقدّمة الصُّفوف. ولم يكد السفيركر ينتبهون لحِراكهم حتى أسرعوا الخطَى لكي يصطفوا إلى جانب الفولكونغر، على الأقلّ. وبمعاطفهم المزخرفة وفي صمتٍ رهيبٍ ساروا بعد ذلك في اتجاه الجزء الشمالي من الدير الذي كان يأوي إليه ضيوفَه.

تأخرت السيسيليتان قليلاً عن مشاهدة استعراضِ الأزياء البهيج. وحينما أدركت الأمُّ ريكيسا ذلك غذّت الخطى نحوهما لكي تُأنّبهما، ساخطةً مغتاظة لقلّة أدبِ سلوكهما، آمرةً إيّاهما بالعودة في الحال إلى أسوار الدير.

لكنّ بلانكا ما لبثت أن ردّت عليها بصوتٍ ناعم — نعومة اندهشت له هي نفسها- بأنّها رأت شيئاً قد يُنبئ بالخير لفائدة السلام ولصالح غوديم على السواء، وهو أنّ المعاطف التي يحملها الزوّارُ بحاجةٍ إلى تطهيرها من أدناس الحرب، وأنّ تلك مهمّةٌ من اليسير القيام بها في الدير. وبدت ريكيسا كأنّها ستصبُّ جام غضبِها على بلانكا بطريقتها المألوفة، لكنّها لم تكد تُفرج فاهَا حتى بدت وكأنّها تلقّت إلهاماً مباغتاً فالتفتتْ إلى ورائِها لكي تتابع ذلك الموكب الكالح العابس وهو يبتعد شيئاً فشيئاً.

- حتّى الدجاجة العمياء تستطيع أن تجد حبّةً من القمح، والله! قالت، وهي سابحةٌ في أفكارها، لكنْ من دون نَكَدٍ، قبل أن تُسرّحَ السيسيليتين كأنّها تطرد إوزّاً.

كانت الأمّ ريكيسا تكابد نوعين من الهموم ما انفكّت تُخفيهما عن باقي الدير. أمّا الهمُّ الأوّل فحدثٌ كان سيقع قريباً بصورة حتميةَ مع وصولِ فصلِ جديدٍ من فصول السنة، وهو ما كان سيجرُّ تغيّراً كبيراً، في حياة سيسيليا بلانكا على الأقلّ. أمّا همُّها الثاني فهو يتصل بشؤون الدير التي ضاق صدرُ الأمّ ريكيسا بها أيّما ضيق.

لم يمرَّ على تكريس كنيسة غوديم ووصولِ أولى الراهبات إليها سوى جيلٍ واحد ليس إلاّ. لكنّ الدير أضحى رغم قِصر المدّة حافلاً غنيّاً. لكنّ هذا الغنى لم يكن كافياً وحده لإطعام كافة الأفواه الجائعة، لأنّ قوامَه أراضٍ زراعيةٌ آيلة حتماً إلى غذاءٍ وشرابٍ ولباسٍ وأعمالِ بناء. والحال أنّ منتجات الأرض كانت تصل إلى

Twitter: @ketab_n

غوديم من كافّة الآفاق، في شكل براميل قمح، وبالاتِ صوفٍ، وسَمَكٍ مُملّح مجفّف، وطحينٍ، وجعةٍ وفواكه. بعض هذه المنتجات كانت تُحفَظ لاستعمالها في المكانِ عينه، فيما كان جُزؤُها الأكبرُ يُنْقَلُ نحو الأسواق المختلفة، ومنها على الخصوص سوق سكارا، لكي تُباع فيه وتُقَايَض بقطع الفضّة التي تُسْتَعملُ بدورها في مكافأة كلّ القادمين من بلاد بعيدةٍ للعمل في مختلف مشاغل الدير. لكنْ ما أكثر ما كان هذا البيعُ يتأخّر طويلاً فيفتقرُ الصندوقُ إلى قطع الفضّة. وقد كان ذلك مصدرَ همٍّ دائم للأم ريكيسا التي كانت تبذل جهوداً مضنيةً حتى تَأْلَفَ مختلف جوانب الإدارة في مؤسستها. وإنْ لم تجدْ بُدّاً من الاستعانة في ذلك بوكيل المالية، وهو كاهنٌ قانوني يعتبره المطرانُ بِنتْ شخصاً غيرَ مُقتدرٍ على أيّ عملٍ كهنوتي، رغم مقدرته على إيجاد الردّ المناسب على أسئلته الحذرة في كلّ الأحوال. فإن جاءت الغلّةُ طيبةً صار من الصعب تصريفُ الكثير من الحبوب في وقت واحد، وإنْ جاءت ضعيفةً وجب الصبرُ لانتظار البيع، وارتفاع الأسعار قليلاً. وكان من اللائق أيضاً ألاّ تُصرف الغلّةُ دفعةً واحدة، وتوزيعُ البيع على مدار السنة. ففي نهاية كلّ خريفٍ حين تتدفّق إيجاراتُ الأراضي المستحقّة لغوديم تمتلئ المخازنُ بغلالها وتغصُّ بها غصّاً، فيما تخلو منها عند نهاية كلّ صيف، وكانت تلك، في رأي وكيل المالية حالةً عادية جدّاً.

حاولتْ الأمّ ريكيسا أن تتحدّث مع الأب هنري، رئيسِها المباشر، ما دام غوديم خاضعاً لفارنيم التي كان هو خُوريها. لكنّ الأب هنري لم يُسْعفها إلاّ بنصائحَ زهيدة. لقد شرح لها والهم يعلو ملامحَ وجهه أنّ الفرق كبيرٌ ما بين ديرٍ للرجال ومابين ديرٍ للنساء. ففي فارنيم تأتي الإيراداتُ من المال في يُسرٍ بفضل مختلف الأعمال التي يُنجزها الرهبانُ. ففيها نحو عشرين مقلعاً تُصنع فيها الرُّحي للمطاحن، ومصاهرُ حديدٍ تُصَنّعُ فيها أشياءٌ كثيرة – أدوات زراعية أو سيوفٌ للأسياد والأرباب- أمّا أشغالُ البناء فهي تُنْجَزُ بجهود أهل الدير من دون الحاجة إلى دفْع ثمنها نقداً. إنّ ما تحتاج إليه فارنيم، قال الأب هنري، صنفٌ من النشاط يجلبُ إليها إيراداتٍ من المال. لكنْ، حضَر القولُ وغاب الفعل!

وعندما سمعت الأمّ ريكيسا سيسيليا بلانكا وقد أتت على ذِكر معاطف الزوّار

Twitter: @ketab_n

الملطّخة، إذا بفكرةٍ تخطر على بالها فتعتبرها بعد ذلك فكرةً قاصرةً عليها وحدها. ففي غودبم تفتل العاملاتُ الصوف ويغزلنه، فيجنين الكتّان ويُنَقِّعْنَهُ ويُنشّفنه، ثمّ يسحقنه ويُندّفنه ويغزلنه وينسجنه، أي أنهنّ يُتقنَّ تشغيل سلسلة تحويلِ هذا النبات إلى قماشٍ. أمّا الراهبة ليونور، القائمة على حدائق الدير فهي خبيرةٌ في تخضيب الأقمشة بمختلف الألوان، لكنّ اللونَ الأسودَ وحده هو المستعمل حتى الآن. فليس من حاجة للألوان الدنيوية للتباهي بها في داخل أسوار الدير.

فكما تسبق الفكرةُ الفعلَ، مثلما يسبق الفجرُ طلوع النهار، لم تُفَوِّتْ الأمُّ ريكيسا لحظةً من وقتها. فعند عودتها من غداء الدفن الذي قَصُرَ قِصَر هذا النوع من الاحتفال حين يجتمع فيه منتصرون ومهزومون، حملتْ فوق ذراعِها معطفيْن رثّيْن مرقّعين أيّما ترقيع، أحدهما أحمر، والثاني أزرق اللون، لأنها حرصت على أن تأخذ معطفاً واحداً من كلا المعسكرين.

كان النشاطُ الجديد الذي لاح في الأفق أشبهَ بانفراجٍ في سماء غودبم، فكان ما كانت الأمّ ريكيسا تُمنّي به نفسَها دائماً. ففوق هُمومها المالية كانت تُسابق الزّمنَ حول مسألةٍ لم تُسرَّ بها لأحدٍ، وهي إنهاءُ الضغينة التي ملكت فتياتها.

فهنّ من سيحملن عِبْءَ ذلك النشاط الجديد، وليس أفضل من ذلك العبءِ لإشباع نوايا الأمّ ريكيسا الدفينة. ففي الخريف الذي بانتْ أساريرُه سيُثقِل الراهباتِ العاملات الكثيرُ من الجهد والعمل في الجَنْي والقطاف. وفوق ذلك فهنّ من عائلاتٍ لا تحمل مثل هذه الألوان عند ذهابها إلى الكنيسة والأعراس والأسواق. هؤلاء الراهبات العاملات اللواتي كانت الأمّ ريكيسا تنظر إليهنّ بازدراءٍ سافرٍ في كثيرٍ من الأحيان، ينحدرن من أصولٍ متواضعة، ولم يعثرن على أزواج فأُرْسِلْنَ إلى الدير لكي يحصلن على لقمةِ عيشهنّ، بدلاً من أن يعكفن عند آبائهنّ المزارعين المعوزين فيكلّفنهم من المال أكثر ممّا يجلبنه منه إليهم. فلم يسبق أن لبسن في حياتهنّ معطفاً بألوانِ الفولكونغر أو ألوانِ السفيركر. فهذا النشاط الجديد إذاً ستضطلع به الراهباتُ اللواتي أفصحن عن نُذورهنّ، والبنات الخادمات اللائي يُقِمن في الدير إقامةً عابرة: السيسيليتان وفتياتُ عائلة سفيركر.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما ظهر أنّ ما حمله غوديم على عاتقه لم يكن أمراً هيّناً. كان عليها أن تخوض في كلّ باب، لكنّ تجاربَ كثيرة فشلت قبل أن تُلبّي مطالبُها كاملة. ومع ذلك فقد ظلّت تلك المصاعبُ تحفّزُ رغبةَ الفتيات في النجاح والفلاح، فكنّ يُقبلن على العمل في همّةٍ واندفاعٍ يكاد يُخلّ بلياقتهنّ أحياناً. وما أكثر ما كانت الأمّ ريكيسا تمرّ بالقرب من ورشة النسيج فتسمع محادثاتٍ محمومةٍ تعلوها أصواتٌ لا تليق ببيتٍ كُرِّسَ لأمّ الربّ. لكنّ الأم ريكيسا تعرف متى يجب إسكاتُهنّ، فلهنّ الآن أن يُقهقهن كما شئن ما بين أسوار الدير، لكنْ سيأتي الوقتُ المناسب لعودة النظام إلى نصابه. فلعودة النظام أوانٌ سوف يحينُ لا محالة. فليس من اللائق، تحسّباً للحدثِ الكبير المنتظر، إبداءُ كثيرٍ أو قليلٍ من القسوة مع هؤلاء الفتيات.

أقنعت أولفيلد باقي الفتيات بأنْ يُجرّبن نسْج القماشِ بذلك النوع من الكتّان، فالمعطفُ المنسوج بالكتّان وحده ليّن فضفاض، فيما المعطفُ المنسوجُ بالصوف وحده غليظٌ مشدودٌ، ولا يضفي أناقةً على الأكتاف والأرداف. كان لا بدّ إذاً من إنجاز هذا القماش أوّلاً، لكنّ هذا العمل لم يكن هيّناً، لأنّ خيْط الصوف إنْ نُسِج نسْجاً رَخْواً مُرتخياً جاء القماشُ كثيرَ الوَبَر، وإن كان خيطُ الكتّان مشدوداً جدّاً جاء القماشُ كثيرَ الثنيات. لذلك لزِم القيام بجملةٍ من التجارب والفحوص.

بعد ذلك جاءت مختلفُ أصبغة الراهبة ليونور لتزيد طينَ المصاعبِ بلّة. فقد أضحى اللّونُ الأحمر أسهلَ الألوان إعداداً، حتى وإنْ أنفقت الفتياتُ في اختيارِ درجة اللون بدقةٍ قُصارى الدقّة والإمعان. كان أحمرُ عُصارةِ اللفت فاتحاً جدّاً ويميل أكثرَ إلى اللون الخبازي، أمّا أحمرُ الهيوفارقون . فقد كان فاتحاً جداً أيضاً، لكنّه كثيرُ السمرة، لكنْ بالإمكان مزجُه بجذورِ "جارِ الماءِ" لتخفيف حدّة تلك السمرة. وهكذا ما لبث اللونُ الأحمر أن ملأ أباريق ليونور الكثيرة. وأمّا اللون الأزرق فكان أصعب الألوان جميعاً.

وزيادة على ذلك كان القماشُ إذا بلغَ النضجَ وجَب تثبيتُه وتجفيفُه، لأنّ لونَه وهو رطبٌ غيرُ لونِه وهو جاف. فكم مِنْ قِطَع النسيج أُتلفَت في هذه التجارب فكان تحديدُها مستعصياً حتى على الخيال.

Twitter: @ketab_n

كان لا بد إذاً من ساعاتٍ طوالٍ قبل الوصولِ إلى إنتاجِ معطفٍ لائقٍ واحد. ولمّا لم يكن ذلك كافياً فقد أضاف ذلك عبئاً جديداً إلى الأعباء الكثيرة التي كانت تُثقل كاهلَ أولئك الآنسات، ومنها تدبير البِطانَة، والجلود الضرورية. فالسمّورُ والسنجاب والثعلب لا تنبُت كما ينبتُ الفطرُ. فبدلاً من تحقيق إيراداتٍ جديدة صار النشاطُ الجديدُ مصدرَ نفقاتٍ إضافية. فبعد أن استنفَدت جميعَ الوسائل لجأت الأمّ ريكيسا إلى وكيلِ المالية لشراء تلك الجلود – حتى وإن ذهب من أجلها في أسوأ الحالات إلى ليكوبينغ–، فكان يذهب لشرائِها ساخطاً متذمراً بسبب المصاريف الناتجة عن شراءِ تلك الجلود. ففي رأيه أنّ إنفاقَ مالٍ كثيرٍ في شراءِ شيءٍ لا أحدَ يضمن بيعَه لاحقاً مغامرةٌ لا شك فيها، فضلا عن أن المدة الفاصلَة بين النفقات والإيرادات أمدٌ طويل جداً. لكن الأمّ ريكيسا التي بدَت أقلّ ثقةً بنفسِها مما خُيّل إليها أمام رَجُلٍ على شاكلتِها أجابت بأنّ النقود على أيّ حالٍ لن تتكاثرُ إنِ استُثْمِرَتْ وهي في قاعِ صندوقٍ. فأجابها وكيلُ المالية عندئذٍ في ازدراءٍ أن النقود إن استُثمِرت قد تجلب كسبًا وقد تجلب خسارةً أيضًا. فلو اختلفت الأحوالُ وصارت أكثرَ هدوءًا وأكثر ملاءمةً في غوديم لكانت الأمُّ ريكيسا أوْلَتْ مزيدًا من الاهتمام لِمَلامَتِه واحتجاجِه. لكنْ تحسّبًا لوقوع أمْرٍ قد بدا وشيكًا رأت أنّ المهمّ أيضًا ألا تشتكي الآنساتُ من شيءٍ آخرَ غير شكواهنّ من صندوقٍ ممتلئٍ بمالٍ لا طائل من ورائه.

* * *

كانت أولى أمارات الحدث الكبير في غوديم وصولُ قافلةٍ من العربات تجرّها ثيرانٌ، قادمةٌ من سكارا. فقد قوبِلت القافلةُ ذاتَ صباحٍ جميلٍ من أيام الخريف بلا اندهاشٍ وإنْ حمَلت خشبَ البناء والخيامَ وبراميلَ الجعة ونبيذَ العسل وحتى بعض براميل الخمر التي جيءَ بها من فارنيم، وهياكل مواشٍ حُفظت في الحال في أماكن مبرّدة، ويرافق كلَّ ذلك عددٌ كبير من مدوِّرات السفّود، ورجال كادحون. وقد شرع هؤلاء ينصبون خيمةً من القماش أمام أسوار الدير، وقد طنّت ضرباتُ مدقّاتهم

Twitter: @ketab_n

وقهقهاتهم وأحاديثُهم الخليعة، فكان الصدى عاليًا وقويًا امتدّ إلى داخل الأسوار.

وبسرعة تسرّبت الإشاعات إلى الراهبات العاملات، والآنسات، فظنت إحداهنّ بسلامةِ قلبٍ أن الحرب ستندلع قريبًا، وأنّ جيشًا سيهجم على غودم، وكأنّ غودم حصنٌ من حصون العدو. وظنت أخرى أنّ القادمين مطاردون جاؤوا ليجتمعوا فاختاروا لاجتماعهم مكانًا لن يحظى أحدُهم فيه بمزايا ذلك المكان. وأمّا ريكيسا والراهباتُ – اللواتي كنّ يعرِفن أو لعلهنّ يعرفن– فقد حرِصن على ألا يَدَعْنَ شيئًا يظهرُ ممّا هنّ به أولَى وأدرَى.

في فيستياريوم vestiarium– هكذا أعيد في جّو مهيبٍ تسميةِ مشغلِ النسيج – الذي صارت السيسيليتان وبناتُ سفيركر يقضينَ فيه من الوقت أكثر مما تتطلبه مهامهنّ، ظُنَّ في الحالِ أنّ القافلةَ جاءت في طلَب إحداهنّ لعَقْدِ قرانها، فأثار فيهنّ هذا الظنُّ الأملَ والخشيةَ معاً. فعلى أيّ حالٍ بدا الأمرُ محتمَلا، لأنّ الجميعَ علِم بأنّ غودم يُعِدّ لوليمةٍ. فهكذا بدأن يتبارين بخيالهنّ، لكنْ دون أيِّ عداءٍ بينهنّ، لمعرفةِ من منهنّ ستقترن برجلٍ سقيم من سُقماءِ سكارا، على نحو ما أنذرت به السيسيليتان بناتِ سفيركر اللواتي رددن عليهنّ بدورهنّ فأنذرنهما بعجوزٍ سقيمٍ من سقماء ليكوبينغ قدّم خدمةً لملكٍ أو وعده بالإخلاصِ لِقاءَ حقِّ مقاسمتِه فتاة عذراء مرّة أخرى. ما كنّ يتحدّثن في هذا الاحتمال إلا ودبّت نارهنّ لأن الحياة خارج الدير تشعرهنَّ بالنشوةِ من ناحية، ولأنّ الاقترانَ برجلٍ سقيم، سواء من ليكوبينغ، أو مِن سكارا، يبعَث فيهنّ الرعبَ من ناحية أخرى. فهذه الحرية التي كانت عقاباً في آنٍ قد تكونُ قَدرَ فتاةٍ من معسكر الحُمر، أو من معسكر الزُّرقِ على السواء. فمن قبيل المزاحِ أو ما يشبه المزاحَ ربطن جميعهنّ قطعةً من الخيطِ حول الساعِد الأيمن: أحمر اللونِ لبناتِ سفيركر، وأزرق اللونِ للسيسيليتين.

فإنْ كانت الغايةُ عَقْدَ قرانِ رجلٍ جديرٍ بالثناءِ من بين المنتصرين فهل سيختار هذا الرجلُ واحدةً من السيسيليتين؟ اللهم إلا إذا كان أحدُ المهزومين هو الذي سيختار منهما هذه أو تلك. ومَن يدري، فقد يختار أحدُ المنتصرين إحدَى بناتِ

Twitter: @ketab_n

سفيركر حتى يوطّد السلامَ بين الطرفين. ومَن يدري أيضاً، فقد يتشبّث كلٌّ منهما بأصدقاء وحلفاء عائلته. كلُّ شيءٍ ممكن!

فكلّما خُضنَ في هذه المسألة شعرت روزا كأنّ قبضةً من حديدٍ تُطبق على صدرِها، فيَعْسُر نَفَسُها وينساب العرقُ منها بارداً، ولا تجد بداً من أن تنسحب بعض الوقت بحثاً عن جوٍّ منعشٍ في الدير، فتلهث فيه لهثاً. تُرى، لو قرّروا زواجَها ماذا عساها فاعلة؟ لقد وعدت حبيبَها آرن بالوفاء والإخلاصِ، وقد أقسم لها آرن بمثل ما أقسمت ووعدت. لكنْ ما الذي تعنيه مثلُ هذه العهودُ في نظر الرجالِ الذين يُصفّون حساباتِهم بعد الحرب؟ وما الذي تعنيه إرادتُها وحبُّها وكلُّ هذه الكلماتُ التي لا يوليها رجالُ السلطةِ أدنى قدرٍ من البال والأهمية؟

كانت لا تجد ما تفرج به عن غمّها سوى حديثٍ تحدّث به نفسَها فتقول إن سنوات الكفّارةِ الطويلة التي تقضيها في الدير لن تجعل أياً كان من المنتصرين أو المهزومين يجرؤ على انتهاكِ قانون الكنيسة الرومانية المقدسة. وسرعان ما كان هذا العزاءُ يخفّف من غمِّها، لكنّها سرعان ما تستغرب أيضاً أن يُحدِث فيها هذا العقابُ هذا القدرَ من العزاء. فعلى أيِّ حالٍ من الأحوالِ فلن يُفرَض عليها الزواجُ من دون إرادتِها في النهاية.

"أحبّكَ إلى الأبد، آرن، فَلْتَحْمِكَ يدُ القديسةِ أمِّ الربِّ، حيثما كنتَ في الأرض المقدسة، وأياً كان الأعداءُ الكفّارُ الذين تصادفهم!" همهمت.

وفي الحالِ تلت ثلاثةَ "آفي ماريا"، قبل أن توجّه دعاءً خاصًا لِأُمِّ الربِّ لكي تلتمس منها عفواً لاستسلامها لحبٍّ دنيويّ، وتؤكد أنّ الحبَّ الذي تكنُّه لها أجلُّ وأعظمُ من ذلك بكثير. وهكذا عاد إليها صفاؤها ووسعها أن تعود من حيث أتت، وعادت المياه إلى مجاريها.

وعند ساعةِ نوم الظهيرة المعتادة، بعد البرانديوم prandium وتلاوةِ صلاةِ الشكرِ عَمَّ الضجيجُ والعجيجُ حين أقبل الرُّسلُ على البوابةِ يطرقونها طرقاً، فصارت الأخواتُ يُسرعن في كلّ اتجاه، وخرجت الأمُّ ريكيسا من الكنيسةِ تلْوِي يَدَيْها لَوْياً، هلعاً وذُعراً. وقد دُعيَت كلُّ النساءِ إلى الزِّناحِ فخرجن بعد قليلٍ من البوابةِ الكبرى

Twitter: @ketab_n

التي تسمّى بوابة آدم وحواء، مُنتظِماتٍ حسب الأصولِ، وطُفْنَ ثلاث مراتٍ حول الأسوار، وغنّينَ قبل أن يقِفْنَ عند الجزء الجنوبي من الديرِ ويصطففن، تتقدّمهنّ الأمُّ ريكيسا، ومن بعدِها الراهباتُ، ومن خلفِهنّ الأخواتُ العاملات. وكان أغربَ ما بدا في ذلك المشهدِ وُقوفُ الآنساتِ مع الراهباتِ، وإنْ اصطفَفْن في مجموعةٍ صغيرة منفردة.

أقيم في المكانِ مخيّمٌ من القماشِ، وأخذ الرجالُ الكادحون بزيّهم الأسمر العادي يُزيلون من حولِه بقايا الأشياء المبعثرة، ويجلبون الراياتِ المطوية من السَّريّةِ. ثم وقف الجميعُ في صفوفٍ، وفي أعقاب ذلك لم يُسمَعْ في المكانِ سوى التمتمات والهمهمات.

عندئذ بدأ الرجالُ والنساءُ يترصّدون بوجوهٍ مشدودةٍ ناحيةَ الجنوبِ الشرقي، في ذلك اليومِ الجميل من ذلك الخريفِ الذي تستقرّ فيه الألوانُ قبل أنْ يحلَّ الشتاءُ بكلّ ما يحمِله من شدّةٍ وقساوة. كانت الريحُ تهبُّ هبوباً خفيفاً، ولم يتخلّلِ السماءَ سوى بضع سحاباتٍ متفرقة.

كان أوّلَ شيءٍ بدا للعيانِ في اتجاهِ الجنوب بريقُ حدودِ السيوفِ وهي تعكس أشعةَ الشمس. وما هي إلا لحظاتٌ حتى رأى الراؤون حشْداً كثيفاً من الفرسانِ، ورأوا بعد قليلِ الألوانَ التي يحمِلونها ومن بينها اللونُ الأزرقُ الطاغي على باقي الألوانِ. فمَن كان يجهل هؤلاء الفرسانَ علِم الآن أنهم الفولكونغر، أو الإيريك، القادمون إلى هنا.

"إنهم ذوُونا، إنها ألوانُنا"، هَمْهَمَتْ بلانكا في حماسٍ لروزا التي كانت تقِف إلى جانبِها.

وفي الحالِ التفتت الأمُّ ريكيسا إليهما ورمَتْهما بنظرةٍ لَؤُوم وهي تضع يدَها فوق فمِها حتى تُسكِتهما.

ما انفكت كتيبةُ الفرسانِ تقترِبُ شيئاً فشيئاً، وسرعان ما بدت للرائين التروسُ التي تحمِلها. كانت تروسُ فرسان المقدمةِ مزيّنةً بتيجانٍ ثلاثة، ومن خلفِها اللونُ الأزرقُ، أو أسدُ الفولكونغر، على خلفيةٍ من ذات اللون. وكانت معاطفُ كلِّ

Twitter: @ketab_n

فرسانِ الصفّ الأوّل بذاتِ اللونِ الموحّد.

لكنْ عندما صارت الفرقةُ أقربَ ظهرت بعضُ المعاطفِ الحمراء، وكذلك الخضراء والسوداء، مزينةً بالذهبِ وألوانٍ أخرى، ولا تمتُّ بصلةٍ لهذه أو تلك من العائلتين القويَّتين.

وعندما زادت الفرقةُ اقتراباً لوحِظَ أنّ الفارسَ الذي يتقدّمها يحمل ذهباً متألقاً على قمّة الرأسِ، بدلاً من الخوذة. لا، في الحقيقة لم يكنْ وحدَه بل كانا فارسين اثنينِ يحملان تاجين.

ولمّا غدا الموكبُ على مرمى سهم صار من اليُسرِ التعرّفُ إلى الأشخاصِ الثلاثة الذين يتقدّمون السيرَ: رئيس الأساقفة ستيفن أوّلاً على فَرسٍ شقراءِ اللونِ باردة الطبعِ، منتفخةِ البطنِ — لا أحد يجهل أن الأحبارَ إذا تقدّم بهم العمرُ شقّ عليهم ركوبُ الخيل، ولذلك فلا غرو أن تكون أفراسهم عجائزَ ووديعة.

ومن خلفِ رئيس الأساقفةِ، وإلى يمينه وقف كنوتْ إريكسونْ بذاتِه وهو على فحلِه الأسودِ القويّ، يحمل على رأسِه التاجَ الملكي. وإلى جانبِه وقف اليارل بيرجر بروزا، القائدُ الذي ازدان رأسُه بتاجٍ متواضع.

ووقفت الأمّ ريكيسا إلى اليمينِ في وضْعِ التحدي، على الرغم من أنّ الموكب صار منها قاب قوسين أو أدنى. لقد جثَت فجأة لأنّ الواجب يحتّم عليها الجثوَ أمام السلطة، دنيويةً كانت أم روحية. ومن خلفِها جثت الراهباتُ اقتداءً بها. وفي الحالِ تبعتهنّ الراهباتُ العاملاتُ، ومن بعدِهنّ جثَت الآنسات. ولمّا صارت كلُّ النساء في هذا الوضعِ وشَخَصْن بِأبصارهنّ إلى الأرضِ جثا الرجالُ بدورهم أمام كنوتْ إريكسون الذي جاء في سياقِ جولةٍ يكرّسُ فيها مُلكَه على المملكة.

توقّف الفرسانُ الثلاثةُ على مسافةٍ بِضعِ خطواتٍ من الأمِّ ريكيسا وهي لم ترفعْ عينيها بعدُ. ونزل رئيس الأساقفة ستيفن من على فَرسِه في بعضِ عناءٍ وهو يهمهم بكلماتٍ أجنبية تذمراً من حالِه. ثم عدل وَقفتَه وتقدّم نحو الأمّ ريكيسا ومدّ يدَه إليها، فتناولتها وقبّلتها في خشوعٍ، ثم أشار إليها بالوقوفِ فوقفتْ ووقف الجميعُ في هدوءٍ من خلفِها.

Twitter: @ketab_n

ونزل الملكُ كنوتْ بعد ذلك من على دابّته بخفّةِ الشابِ المحاربِ المنتصرِ، وليس كما ينزل أيُّ مطرانٍ من على مطيتِه. ورفَع يدَه اليُمنى وتوقّف هنيهةً من دون التفاف، فيما أقبل عليه أحدُ الفرسانِ من آخرِ الصفوفِ حامِلاً إليه معطفاً أزرقَ اللونِ يحملُ تيجانَ الإيريك الثلاثة، مُبَطَّناً بِفَرْوِ القاقم، وهو معطفُ مِلكٍ أو ملكةٍ، شبيهٍ بالمعطفِ الذي كان يلبسُه هو نفسُه.

وضَعه على ساعدِه وتقدّم في هدوءٍ نحو صفِّ الآنسات، فيما ظل الحضورُ في مكانِهم بلا حراكٍ. ودون أن يَفُوهَ بكلمةٍ واحدة راح يقِفُ خلف سيسيليا بلانكا وهو يبسط معطفَه فوق ساعدِه حتى يراه الجميع. ثم وضَع لباسَ المِلكة هذا على كتفَي الشابة وأمسك بيدِها لكي يصطحبها إلى الخيمةِ الملكية حيث ترفرفُ في مهبِّ الريح الراياتُ الأربعُ التي تحمل تيجانَ الإيريك الثلاثة. ووَسِعَ بلانكا أنْ تلاحظَ – وهي تؤنبُ نفسَها التي راحت تفكر في مثلِ هذه الأشياء التافهة في مثل هذا المقامِ المهيب– أنها لم تَلحظْ تلك الرايات وهي ترتفِع في السماء.

في تلك الأثناء كانت السيسيليتان ما تزال كلٌّ منهما تُمسك بيَدِ الأخرى. لقد استمسكت كلٌّ منهما بصاحبتها من حيث لا تدريان، في اللحظة التي استبانتا فيها كنوت إريكسون. وعندما رغب الملكُ في أن يجرّ حبيبتَه إذا بهما تشدّان ساعِدَيْهما شدّاً، وإذا بِبلانكا – التي ستصبح قريباً ملكةً على عائلة سفيركر وغوتس – تستديرُ على عجلٍ وتُقبِّل صديقتَها قُبلةَ العُمر فوق وجنتيها.

قطّب الملكُ حاجبيه هنيهة، لكنه ما لبث أن لانَ وهو يقود خطيبتَه نحو الخيمة الملكية. وظل جميعُ الحاضرين بلا حراكٍ، إمّا واقفين وإمّا فوق خيولهم، في انتظار دخولهما إلى الخيمة.

اشتدّ الضجيجُ والصليلُ عندما نَزل أفرادُ الموكب من على خيولهم، وجعلوا يجرّون مطاياهم نحو الحظائر وأكوامِ الشوفانِ التي نصبَها الرجالُ الكادحون. والتفَت رئيس الأساقفةِ نحو الأمّ ريكيسا وباركها ثم أذِنَ لها بالانصرافِ بحركةٍ أشبَه بحركةِ مَنْ يطرُد ذبابة، ثم توجّه نحو الخيمة الملكية.

Twitter: @ketab_n

عندئذ صفّقت الأمُّ ريكيسا لِنَزيلاتها لكي يتبعنها بلا تأخيرٍ إلى خلفِ الأسوار.

ولم يكدن يصلن إلى الديرِ حتى انفجرن ثرثرةً عارمةُ لا توقِفُها أيُّ قاعدةٍ من قواعد الدنيا الصارمة. فحتى الراهباتُ اللواتي نذرن أنفسهنّ لمريم العذراء صِرن يتحدثن جميعاً معاً حتى أوشك صوتُهنّ أنّ يبلغَ صوتَ الآنساتِ.

ثم حان وقتُ التراتيل فإذا الأم ريكيسا تتّخذ طلعةً عابِسة حتى يعود النظامُ إلى نصابِه، وحتى تعيد عالَمَها إلى الكنيسة وتُجْبر الجميعَ على الالتزام بوقارِ السلوكِ والهدوء اللذين تفرضهما اللحظة. وأثناء القدّاس لم يَفُتْها أن تلحظ سيسيليا روزا وهي تنشد التراتيل بحيويةٍ غير معهودة والدموعُ تنساب من على وجنَتَيْ هذه الشابة التي صارت الآن أخطرَ من أيّ وقت مضى. أجل، لقد انقلبت الأمورُ على نحو ما كانت تخشاه الأمُّ ريكيسا دائماً.

لقد انقلب كلُّ شيءٍ كما تمنَّتْهُ روزا، ولكنْ على نحو ما كانت تخشاه أيضاً. فصديقتُها ستصبح ملكةً بعد حين، فالأمر واضحٌ الآن وضوحَ النهار، وفي ذلك ما يُبهِج روزا، لكنها ستمكث وحيدةً سنواتٍ طويلةً محرومةً من رفيقةٍ غالية، وفي هذا ما يُحزِنها أيضاً. ولذا شقّ عليها كثيراً أنْ تعرف أيَّ الشُّعُورَين عندها أقوى!

* * *

مرّ باقي اليوم خلف الأسوار كبقية الأيام حتى وإنْ كان في الواقع يومًا مختلفًا تماماً. فلا شك أن توقّفَ الملك في غودهم أثناء جولته أمرٌ جديدٌ كل الجدة على كل الآنسات والراهبات العاملات معاً. لقد آثرت الأمُّ ريكيسا ألا تفشِي سرَّ ذلك الحدث الذي علمت به قبل أسابيع عديدة. فلم تقلْ شيئاً لروزا حتى وإن تلقّت تحياتِ الملك إليها ولم تنقلها إليها، لأنها لو نَقلت إليها تلك التحيات لجعلتها تنقلب إلى فتاةٍ متمردة، ولجعلتها تثيرُ هياجاً بين الآنسات جميعاً.

لقد انحرفَ الملكُ عن المسار الذي اعتاده في مثل هذه المناسبات. فبعد جونكوبينغ توجّه الموكبُ إلى إيركسبيرغ، مسقط رأسه ومسقط رأس والده الذي لا يُعرَف الآن إلا باسم سانت إريك، وحيث شيّد الإيريك كنيستَهم التي تزيّنت بأجمل

Twitter: @ketab_n

نقوشِ فاسترا غوتالاند. لقد أقام الملكُ في قلب بلادِ العائلة، على تلك الأرض التي تعزّ عليه كثيراً.

لا أحد كان يدري ما يجري من خلفِ أسوار غودِيم، اللهم إلا ما يُسمَع من أصواتٍ وما يُشتمُّ من روائح. كانت حركةُ حوافرِ الخيول الدؤوبةِ في داخل الدير تُنبِئ أنّ أشخاصاً يصلون إلى الديرِ وآخرين يغادرونه. أمّا الروائحُ فقد أَوْحَتْ بأنّ مُدوّرات السفّود قد بلغت أشدّها. ففي فيستياريوم vestiarium قلّما كانت الآنساتُ يعملن شيئاً ذا شأنٍ في ذلك اليوم، لأنهنّ ما فتئن يَحْلُمْنَ بصوتٍ عالٍ، فيُفسِّرن الأصواتَ والروائحَ حتى يفهمن ما يجري بالقرب منهنّ، وما يجري بعيداً عنهنّ أيضاً. وقد بدا في خضمّ هذه الثرثرات أنّ مسافةً بدأت تفصل بين سيسيليا روزا وبين الآخرين. فهي بعدَ اليوم ستحمِل وحدها في الديرِ قطعةً صغيرةً من الخيطِ الأزرقِ حول ساعدِها الأيمنِ، وحدها من بين كلّ بنات عائلة سفيركر. فقد بدا أن الضغينةَ قد بدأت تعود في تكتُّم وتستّرٍ، ممزوجةً بالخوف والحيطة، لأنها الصديقةُ الأغلَى على قلبِ الملِكة القادمة.

بعد صلاة الغروب ذهبت الأمُّ ريكيسا للعشاءِ خارج الأسوار، ولم تأخذْ معها باقي الراهباتِ إلى قاعةِ الطعامِ، لتتناول كعادتها العدسَ المائعَ المرفقَ بخبزِ الشيلم. ومع ذلك فلم تكد رئيسةُ الدير تتلُو دعاءَ المائدة إلا والأمُّ ريكيسا عائدةٌ من عشائها وهي تزرع الرعبَ في طريقها بعد أن امتقع وجهُها من شدة الغضب المكظوم. وفي عناءٍ فتحت فاها وأمرت سيسيليا روزا بأن تتْبَعها، فظنّ الجميعُ أن روزا سائرةٌ نحو العقابِ، أو إلى الزنزانةِ في أسوأ الأحوال.

نهضت روزا في الحال وسارت في إثْرِ الأمِّ ريكيسا مُطرقةً، لأنّ الأملَ بَدَلَ الخوفِ هو الذي اشتغل في داخلِها. وكان ما توقّعته روزا، إذْ قادتْ رئيسةُ الديرِ أقدامَهما ليس نحو الزنزانة بل نحو باب الدير، ثم نحو المضافةِ التي انبعث منها ضجيجُ الوليمة السعيدة. وفي الخيمة التي انتصبت أمام المصهرِ والإسطبلِ كان الرجالُ الذين يحتسون الجعةَ كُثراً.

لكنّ المضافةَ كانت أصغرَ من أن تتّسع لمدعوّين آخرين غير الذين كان يجب

Twitter: @ketab_n

تكريمهم. فحوْل طاولة السنديان التي وُضِعت في وسطِ القاعة جلس الملكُ وبيرجر بروزا، ورئيس الأساقفة، والمطران بِنِتْ وأربعةُ رجالٍ آخرون، فبَدَتْ سيسيليا روزا وكأنها لم تلحظْ في أقصى الجانب الآخر من الطاولة صديقتَها بلانكا في معطفِها الأزرق بتيجانِه الثلاثة المحاطة بالقاقم.

دخلت الأمُّ ريكيسا إلى القاعة وهي تدفع روزا أمامها دفعاً، دون مداراةٍ، ثم مسكتها من رقبتها وأجبرتها على الانحناءِ لهؤلاء الأشخاصِ وكأنّ الانحناءَ لم يخطرْ لبالِ روزا من تلقاءِ ذاتها. وقطّب كنوتْ إريكسون حاجبَيه وألقَى إلى الأمّ ريكيسا نظرةً لا لُطفَ فيها لم تُلْقِ ريكيسا إليها بالاً. ثم رفع يدَه اليمنى لِيُنهي في الحالِ الأحاديثَ والهمهماتِ التي عَجَّتْ بها القاعة.

– أهلا بكِ على طاولتِنا في غودم، سيسيليا ألغوتسدوتر، قال وهو ينظر في اتجاهِها نظرةً وُدّية.

ثم استأنف كلماتِ الترحيب، ولكنْ بنظرةٍ أقلَّ لطفاً في اتجاه الأمّ ريكيسا:

– وندعوكِ لطاولتنا عن طيبِ خاطرٍ لأنّ هذه رغبةُ خطيبتِنا، ومثلما يحقُّ لنا أن نستضيف الأمَّ ريكيسا إنْ كانت تلك رغبتَنا فمن حقّها هي أيضاً أن توجّه لكِ الدعوة.

ثم أشار بيدِه في اتجاه أقصى الطاولة حيث تجلس بلانكا. وبِيَدٍ مُحْكَمة اقتادت الأمُّ ريكيسا روزا عبْر القاعة وكأنّ روزا لم تفهمْ من ذاتها ما طُلب، ولم تكدْ تجلس إلى الطاولة حتى افتكّت الأمُّ ريكيسا قطعةَ الخيطِ الأزرق الذي تحمِله في ساعدها، ثم استدارت وأدركت مكانها على الطرف الآخر من الطاولة.

بطبيعة الحال لم يَغِبْ عن أحدٍ حِقدُ الأمِّ ريكيسا السافرِ. وقد تلا ذلك هدوءٌ أقربَ إلى الارتباكِ. واستمسكت يدا السيسيليتين إحداهُما بالأخرى من تحت الطاولة، لِتُآسِي كلّ منهما الأخرى. وقد وسِع كلّ واحدٍ أن يرى غضبَ الملكِ على رئيسة الدير بسبَب ما فعلته تواً.

– إذا كان اللونُ الأزرق يثيرُ ضغينتَكِ فإني أخشى ألا تَأْنَسِي بنا هذا المساء،

Twitter: @ketab_n

قال بصوتٍ مفعم بنعومةٍ مشبوهة، وهو يشير بيدِه إلى بابِ القاعة، من باب الإيحاء.

- في غوديم تحكمنا قوانينُ لا حيلةَ للملوكِ في تغييرها، ولا تملِك أيُّ آنسةِ الحقَّ في حمْل ألوانِ عائلتها، أجابت الأمُّ ريكيسا في وقارٍ وشجاعة.

ظل الملك متماسكاً برهةً من الوقتِ، لكنّ اليارل بيرجر بروزا ما لبث أنْ ضرب بقبضةِ يدِه فوق الطاولةِ، جعلت أقداحَ الجعة تتراقَص والهدوءَ يخيِّم على القاعةِ ثقيلاً كثِقَلِ الهدوءِ الذي يفصل البرقَ عن الرعد. ومن حيث لا يدرون حنَا الجميعُ ظهورَهم حينما نهض وهو يوجّه إصبعَه نحو رئيسة الدير.

- اِعْلَمِي، ريكيسا، قال في البداية بصوتٍ أكثرَ نُعومة ممّا توقّعه الجميعُ في داخل القاعة، أننا نملك قواعدَنا أيضاً، نحن الفولكونغر. سيسيليا ألغوتسدوتر صديقةٌ عزيزة علينا، وهي مخطوبةٌ لصديقٍ وأعزُّ منها علينا، على الملكِ وعليّ أيضاً. صحيحٌ أنه قُضِيَ عليها بعقوبةٍ شاقة بسبب خطيئةٍ وَقَعَ الكثيرُ منا فيها ولم يلقَ أحدٌ فيها شيئاً من العقابِ بتاتاً، لكنْ اعلَمي أنها في عينيَّ مثلَ أيٍّ واحدَةٍ أخرى بيننا!

رفع صوتَه وهو يُنهي حديثَه، ثم توجه بخطًى بطيئةٍ وثابتة نحو أقصَى الطاولة، وجلس خلف السيسيليتين رأساً.

ثم خلع معطفَه في تأنٍّ وهو يحدّق في الأم ريكيسا. وفي حذرٍ وبِحركةٍ أقربَ إلى الحنانِ والرقّة وضَعه فوق كتفَي روزا. ثم ألقَى نظرةً سريعةً نحو الملك فهزّ الملكُ رأسَه في خفّةٍ. ثم عاد إلى مكانِه وأمسك بقدَحِ الجعة وشرِب بِضْعَ جرعاتٍ على عجلٍ قبل أن يمدّ القدحَ إلى السيسيليتين، ويجلس في جلبة.

ظل الحديثُ يتأثّر لبعض الوقت بذلك الذي حدَثَ قبل قليل. وجاءت مدوّرات السفّود والسّاقَةُ بلَحم الأيائل والخنزير، وبالجعة والخضار والخبزِ الأبيض. لكنّ المدعوّين لم يأخذوا من هذا الطعام نصيباً وافرا.

ظلت السيسيليتان تتحرّقان شوقاً للتحادُث فيما بينهما، لكنْ لم يكن من اللائقِ الخوضُ عند هذه الطاولة فيما يُسمّى عادةً بالثرثرة، في مثل ذلك الجو

Twitter: @ketab_n

الثقيل. فقد ظلتا مُطرِقَتَيْنِ، مثل أيّ فتاتَين مهذّبتين، ولم تلمَسا إلا في اعتدالٍ ذلك الطعامَ الذي كان يحقّ لهما، بعد كلّ ذلك الزمن الطويل الذي أنفقتاه في الدير، أنْ تلتهِماه التهاماً.

لقد جاءت مدوّرات السفّود إلى رئيس الأساقفة بِطبقٍ خاص- الضأن بالملفوف – وبالخمر الذي كان يشربه على خلاف بقيةِ المدعوّين. ولم يَدَعْ المواجهةَ ما بين الأمّ ريكيسا واليارل تُعكّرُ مُتعته بأطعمةِ الدنيا، ثم إذا به يرفع كأسَه إلى أعلى وهو ينظر إلى محتوى الكأسِ بِعَيْنٍ مرتابة، قبل أن يحمِله إلى فمِه ويرفع عينيه إلى السماء.

"يا إلهي"! زَفَرَ وهو يضع الكأس، "أكاد أحس أني في بيتي، في بورغونيا. هذا الخمرُ لم يتأثر بالسفر الطويل الذي قطعه. لكنْ، قُل لي، جلالتك، كيف تسير الأمور في لوبيك"؟

وكما ظنّ رئيس الأساقفة، وحتى إن تظاهر وكأن شيئاً لم يكن، تألق وجهُ كنوتْ إريكسون لهذا السؤال، وشرَع في الحال يتحدث عن طيبَةِ خاطِر.

في هذه الأثناء كان إسكيل ماغنوسون، أخو آرن، وابن أخ بيرجر بروزا، يزور لوبيك، حتى يحرّر معاهدةً تجارية كان قد أبرمها مع هنري الأسد، ملِك ساكس، ويضعَ عليها ختمَه. فمنذ الآن صار جزءٌ كبيرٌ من تجارة بلدان الغوتس يمرّ عبْر طريق البلطيق، ما بين أوسترا غوتالاند ولوبيك. فإنْ كانت بواخرُهم غيرَ كافية فلن يبخل اللوبيكيون عليهم بسفنهم في سخاء. كان السّمَكُ هو المنتوج الجديد الذي يستهويهم، إذ بدأ إسكيل ماغنوسون يشتري منه كمياتٍ كبيرةً ويُرسلها، منطلقاً من بحيرة فانيرن، عبْر طرقٍ مائية عديدة، إلى أن تصل إلى فاتيرن، ليُرسلها بعد ذلك نحو موانئَ أوسترا غوتالاندا. وما لبث حديدُ سويلاند، والفرو، والرنكة والسلمون المملح، والزبدة، أن سارتْ في ذات المسار، وكانت البضائعُ التي اقترحَها اللوبيكيون في المقابل عاليةَ الجودة أيضاً، لكن الأكثرَ إرضاء هي تلك القِطَعِ من الفضة التي تنتقل من يدٍ إلى يد.

كلُّ الرجالُ والقساوسة وغيرهم انخرطوا في مناقشات حيوية حول مزايا تلك العلاقات التجارية الجديدة مع لوبيك. لقد صاروا يغذّون آمالا كبيرة، وأجمعوا على

Twitter: @ketab_n

أن التجارة أضحت ضرورية للأوقات السعيدة التي بدأت تلوح في الآفاق. لقد بدوا وكأنهم على يقينٍ أنّ الثروةَ المتوقعة من تطوير هذه العلاقات سوف تدعم السلامَ والوئام، كيَقِينهم في حالةِ العكس بِتَناحُر الخيول عندما تكون المعالِفُ فارغة.

راقت الأجواءُ وسالت الخمرُ مدراراً، حتى صارت الوليمةُ في النهاية على النحو الذي كان منتظراً.

صارت السيسيليتان تتحدثان بلا خوفٍ من أحدٍ، ما دام لا أحدَ يستطيع أنْ يسمع ما تقولانِه في أقصى القاعة. قالت بلانكا في البداية إنّ كنوت إريكسون قد أخبَرَ منذ وقتٍ طويلٍ بأنه قادمٌ إلى غودبم في ذلك اليوم، وأنه سيحمِل معه معطفاً للملكة. كانت الأمُّ ريكيسا على علم بالحدثِ منذ بعض الوقتِ، لكنْ لِمَكْرِها المعهودِ لم تقلْ شيئاً. لأنّ غبطةَ الأمّ ريكيسا الوحيدة ليست حبّ الربِّ وإنما آلام الآخرين.

وردّت روزا في هدوءٍ بأنّ السعادةَ صارت أعظمَ بعد أنِ انتهَى الآن كلُّ شيء. "أمّا كان يمكن أن يكون الأمرُ أقسَى لو ظلّت تحسب الأيامَ على مدى أكثر من شهرٍ كاملٍ، في حالةٍ من القلقِ الدائمِ لِما يمكن أن يَحْدُثَ فيُحدِثَ تغيّراً في هذا الاتجاه أو ذاكَ؟"

لم يسعفهما أن تقولا أكثر مما قالتاه، لأنّ حُلمَ الرجالِ بالثراءِ، بذلك الذهب، وتلك الفضة التي ستدرّها عليهم التجارةُ مع لوبيك قد بدأت تدور في حلقةٍ مفرغة، وقد اختار المطرانُ بنتْ هذه الفرصةَ لكي يتدخّل ويصِف إنجازاته الكبرى. لقد أخذ يروي كيف خاف على حياتِه، وكيف دعا الربَّ بأن يمنحه الشجاعةَ لكي يتدخّل ويحول دون خطفِ السيسيليتين. وألحّ كثيراً في القولِ إنّ خطفاً في الديرِ هو أسوأُ خطفٍ يمكن ارتكابُه. ثم أفاضَ في اعتباراتٍ أخرى بعضُها أتْفَهُ من بعض.

ولمّا لم يُتَحْ للسيسيليتين الحديثُ في أمرٍ آخرَ ما دام المطرانُ يروي أشياءَ تخصّهما (وتخصّه هو على الخصوص) فقد أطرقَتا في تواضعٍ واستأنفتا حديثَهما بالإشاراتِ تحت الطاولة.

Twitter: @ketab_n

صحيحٌ أنه طرَد أولئك الوحوشَ لكنْ لا أرى ما الشجاعةُ في كلِّ ذلك، قالت روزا.

لو كان السفيركر هُمُ المنتصرون في المعركة لكان بالتأكيد أكثرَ شجاعةً. ففي كل الذي جرَى، على نحو ما جرى، لم يكنْ ليُخاطر بحياتِه فيه إلا لو كان سلّمَنا لأولئك الوحوش!

بالفعل كان شجاعاً لأنه لم يخاطر بحياتِه، قالت روزا في استهزاءٍ، فلم تتمالكا أمام هذا التهكّمَ الإغراقِ في بعضِ الضحك.

لكنّ الملكَ كنوتْ كان حادَّ البصر ولم يكنْ قد غرِق في السُّكر تماماً. فقد لاحظ من طرَفِ العينِ ذلك الضحكَ الأنثويَّ، فالتفَت فجأةً نحو السيسيليتين ليسألهما بصوتٍ مرتفعٍ إنْ لم تَجْرِ الرياحُ كما رواها المطرانُ قبل قليل.

"أجل، إنّ ما قاله صحيحٌ تماماً"، أجابت بلانكا دون تردُّد، "لقد وصل محاربون واشترطوا بكلامٍ نابٍ لا يسعني أن أذكره، أنْ تخرج سيسيليا ألغوتسدوتر وأنا من أسوار غوديم، دون تأخير. وعندئذ تقدّم المطرانُ بنِتْ وكلّمهم بكثير من القسوة، وبعد ذلك رَحلوا دون أن يصيبوا أحداً بأذىً."

سكت الملكُ والرجال الآخرون برهةً من الزمن لكي يتأملوا هذه الكلمات الملائكية من فم خطيبةِ الملك. وما لبث الملكُ أن وعد بمكافأةِ هذا العمل. لكنّ المطرانَ قال في الحالِ إنه لا يرغب في أيّ مكافأةٍ مقابل ما أملاه عليه ضميرُه وواجبُه نحو الملك، وإن الكنيسةَ إنْ رغبت في أن تستخلص من ذلك بعضَ الخيرِ، فالغبطةُ كلُّ الغبطة لخُدام الربِّ وللربِّ ذاتِه. وعند هذا الحدّ تغيَّر فجأةً موضوعُ ذلك النقاش.

عندئذٍ سألت روزا صديقتَها بالإشارات أيِّ سبَب جعلها تسمح لهذا المطرانِ المختالِ بالخروج من ورطتِه بتلك السهولة، فأجابتها بلانكا أنه ليس من الفطنةِ على ملكةٍ قادمة أن تُسيء لاعتبارِ واحدٍ من مطارنةِ المملكة أمام مثلِ هذا الحضور، وأنه لا ضير في الانتظار، وأنّ الملك سوف يعرف الحقيقةَ في النهاية، في مناسبةٍ مواتية. إلا أن السيسيليتين اللتين تمادتا في إشاراتِ حديثِهما السريّ من تحت الطاولةِ ما

Twitter: @ketab_n

لبثتا أنْ لاحظتا أنّ الأمَّ ريكيسا على الطرفِ الآخر من الطاولة ترقبُهما بعينين ملؤهُما القسوة، بل ولعلها كانت تفهم ما تحكيه أيديهِما.

ورأى بيرجر بروزا من ناحيتِه شيئاً من ذلك القبيلِ، لأنه لم يكن أكثرَ الضيوفِ ثرثرةً، وقد آثرَ الاستماعَ وملاحظة ما يرى. لقد جلس جلستَه الاعتيادية التي يميلُ فيها بِكرسيّه إلى الوراءِ قليلا، وعلى شفَتيه ابتسامةُ رضا، فكان بجلستِه تلك اسماً على مسمًّى حين لُقِّب بيرجر بروزا وقدح الجعة فوق ركبتيه. وفجأة مال إلى الأمامِ ووضع القدحَ على الطاولة في ضجيجٍ جعل النقاش يتوقف فجأة، والأنظارَ تتّجه صوبه دفعة واحدة. وقد أدرك كلُّ واحدٍ أنّ ذلك يعني أنّ اليارل يريد أن يقول شيئاً، وفي هذه الحالة يجب أن يُصغي إليه كلُّ واحدٍ ويُصغي إليه الملكُ أيضاً.

- أرى الوقتَ مناسباً، قال غائصاً في أفكاره، لكي نتدبّر قليلاً ما يمكننا فعلُه لفائدة غودبم، ما دمنا هنا، وقد سمِعنا الحدثَ المهم الذي قام به السيد بِنِتْ. هل عندكِ ما تقترحينه علينا، ريكيسا؟

استدارت كلُّ الأنظارِ نحو الأمّ ريكيسا، لأنّ اليارل ليس من عادتِه أنْ يتسامح مع مَنْ يأبَى الردَّ عليه كلّما ألقَى سؤالاً من الأسئلة.

وفكّرت الأمُّ ريكيسا كثيراً قبل أن تفتَح فَاهَا.

- ليست الأرضُ هي ما ينقص الأديرةَ، قالت ريكيسا، وغودبم بالتأكيدِ لن يكون الاستثناءَ من هذه القاعدة في السنوات القادمة. لكنّ ما نحتاج إليه هنا، في هذه اللحظة، هو الفروُ وجلودُ الثعالب الشتوية، والسمّور.

تظاهرتْ قليلاً بالفهم قبل أنْ تصمت، وكأنها فهِمتْ تماماً كلَّ المفاجأة التي ستُحدِثُها إجابتُها لا محالةَ.

- فروُ السنجابِ والسمّور! نخال وكأنّ أخواتك وأنتِ نفسك قد أَغْرَتْكُنَّ تفاهةُ الملذاتِ الأرضية. لكنْ اطمئِنّي، فليس الأمرُ كذلك! أليس كذلك؟ سأل بيرجر بروزا في أدبٍ جمٍّ وهو يبتسم ابتسامةً أوسعَ من العادة.

- لا، أبداً، قالت الأمُّ.ريكيسا. لكنْ أنتم أيها السادة، تتعاطون التجارةَ التي تتباهون بها أيَّ تَباهٍ. ولعلكم تُقدّرون أنّ خادمات الربِّ، البائسات مثلنا، يحقّ لهنّ

Twitter: @ketab_n

أن يتعاطَين التجارةَ أيضاً. انظروا إلى هذه المعاطفَ الرثّة التي يحملها معظمُ رجالكم. ففي غوديم قُمنا بتفصيلِ معاطفَ جديدة، أفضل وأجمل من التي تملكونها. لذلك نأمل في أنْ نحصُل على أجْرٍ عادل. وما دمنا نساءً فلا تنتظروا منا أن نَنْحَتَ أرحاءً في الصخر، كما يفعل رهبانُ فارنيم.

أثارت هذه الإجابةُ قبولا وقدراً مساوياً من الدهشة. فهؤلاء الرجالُ الذين أظهروا قبل قليلٍ قُدرتهم في مجالِ الصفقاتِ من الصعب أن يفعلوا شيئاً آخر غير هزِّ الرؤوس، وغير التظاهر بالعقل والفطنة.

– أيحقّ لنا أن نسألكِ ما لونُ المعاطف التي تصنَعْنَها، أخواتُكِ وأنت نفسُكِ، أضاف بيرجر بروزا بصوتٍ ناعم لا يكاد يُخفي فكرةً ماكرة.

– سيدي، صاحتْ ريكيساً، وهي تتظاهر بالدهشة بقدر ما تظاهَر بيرجر بروزا بالبراءة. فهي حمراءُ بالطبع، يُزيّنها رأسُ غريفون أسود اللون... وهي زرقاءُ أيضاً وعليها التيجانُ الثلاثة، أو الأسد الذي تحمله أنتَ على كتفيكَ في العادة، حتى وإن بدا أنكَ لا تحمله في هذه اللحظة....

وبعد أن تردّد قليلا شرع بيرجر بروزا في الضحك. وفي الحال تَبِعَهُ الملكُ فضحك وضحك معه باقي الضيوف.

– لسانُكِ لاذع، أُمّ ريكيسا، لكنك تُتقنين الدفاعَ عن حقّكِ بصورةٍ مُسلّية، قال كنوتْ إريكسون قبل أن يشرب جرعةً من الجعة ويمسَح فاه ويُتابع كلامَه. الجلودُ التي تطلبينها سوف تصل قريباً إلى غوديم، وهذا وعدٌ مني إليك. لكن ما دام مزاجُنا رائقاً، وما دمنا راغبين في إنجازِ صفقاتٍ مفيدة فهل لديكِ مطالبُ أخرى؟

– ربما، سيدي، أجابت الأمُّ ريكيسا في تردّدٍ وارتباك. إذا كان اللوبيكيون الذين تتحدث عنهم يملكون الخيطَ الذهبي والفضي فإننا نستطيع أن نُنَمِّقَ شاراتُ هذه المعاطف لتصبح أكثرَ أناقة. سيسيليا ألفسدوتر وسيسيليا ألغوتسدوتر الجالستان هناك بإمكانهما أن تشهَدا على ذلك بالتأكيد، لأنهما أسهمتا إسهاماً فاعلاً في هذه الأعمال في غوديم.

اتجهت الأنظارُ نحو السيسيليتين اللتين لم تجدا بُداً من أن تؤكّدا كلامَ الأمّ

Twitter: @ketab_n

ريكيسا في استحياءٍ. فبهذا النوع من الخيطِ سيُصبحُ ظهْرُ المعاطفِ مطرّزاً بِشاراتٍ أجمل صنعاً وإتقاناً بالتأكيد.

فعلى هذا النحو وعَد الملكُ بأنه سيعمل على أنْ تصِل الجلودُ والخيطُ اللوبيكي المرغوبة إلى غودم في أقربِ وقتٍ ممكن، وأضاف أنّ تلك الصفقة خيرٌ من هِبَةِ أرضٍ، وأنّ المشهدَ سيكون أكثرَ جمالا عند تتويجِه وتتويجِ ملكتِه لو لبس المدعوّون معاطفَ قادمة من غودم.

وما لبثت الأمُّ ريكيسا أن نهضت والتمسَت الإذنَ بالانصرافِ استجابةً لواجباتها التي لا تنتظر. وأثْنَتْ على الذين قدّموا لها الطعامَ، وعلى الذين قدّموا لها الوعودَ، وتمنىّ لها الملكُ واليارل، بحركةٍ من رأسيهما، ليلةً هانئةً وهُما يأذنان لها بالانصراف. لكنها مكثَت جالسةً على كرسيّها وهي تنظر إلى سيسيليا روزا نظرةً قاسية وكأنها في انتظارها.

وعندما لَمَس كنوتْ إريكسون تلك الرغبةَ في نفْس الأمّ ريكيسا نظر إلى خطيبتِه، وفي الحالِ هزّت خطيبتُه رأسَها بالنّفي وأعلنت من فورِها قرارَها.

"نتمنّى لك ليلا هانئاً، أمّ ريكيسا"، قال كنوتْ إريكسون. "أما فيما يخصّ ألغوتسدوتر فإننا نرغب في أن تقضِي هذه الليلةَ برفقة خطيبتنا، حتى لا يقول أحدٌ أنّ كنوتْ قد ضمّها إلى سقْفِ خطيبتِه وسريرِها".

مكثت الأمُّ ريكيسا متسمّرةً في مكانها وكأنها لم تُصدّقْ ما سمِعتْه أُذناها، ولم يسعها أنْ تقرّر إنْ كانت ستَقبل بالأمرِ وتنصرف دون أن تَنبِسَ بكلمة، أم ترفضه وترفع ذلك التحدي.

"لأننا نعرف جميعاً"، أضاف بيرجر بروزا بصوتٍ ناعم، "أيّ عواقب وخيمة ستنجرّ على السيسيليتين إن تخالَط الخطيبُ والخطيبةُ قبل الزواج عن قربٍ كثيراً. وبقدر ما أعلم كم يُغبطك، أم ريكيسا، أنْ تحتفظي بالسيسيليتين تحت مقرعة الربّ عشرين عاماً، أخشَى ألا يكون الأمرُ كذلك مع ملِكنا."

ظل بيرجر بروزا يتبسم كعادته، لكنّ كلامَه لم يخلُ من مكرٍ. من ناحيتها كانت الأمُّ ريكيسا عصبيّةَ المزاجِ، وقد أخذت عيناها تُطلق البريقَ تلو البريقِ. لكنّ الملكَ

Twitter: @ketab_n

اختار أن يقول كلمتَه قبل أن يشرع ذاك وتلك في تبادلِ الكلمات الجارحة.

- ظنَّنا أنكِ تستطيعين أن تخلدي للنومِ، راضيةً مرتاحةَ البالِ، ريكيسا، لأنّ بَركَةَ رئيسِ أساقفتِنا تُرافقُكِ، جزاءَ الترتيبات التي وضعناها قبل قليلٍ معاً، أليس صحيحاً، عزيزي ستيفن؟

- كيف؟ أوووه... أجلْ بالطبع، عزيزتي الأمّ ريكيسا، فالأمرُ كما قال جلالتُه الآن، وليس في الأمر مشكلة.. .

عاد رئيسُ القساوسة ليغوص في قطعةِ الضأن - كانت ثالثَ مرّة يقدَّم له فيها اللحم- ثم رفَع كأسَ الخمر إلى السماء وكأنه اعتبَر الجدال منتهيًا. وولّت الأمُّ ريكيسا ظهرَها دون أن تنبِس بكلمة، وتوجهت نحو البابِ وهي تقرع كعبَيها على صفائحِ أرضية القاعة.

هكذا تخلّص الملكُ ورجالُه من شخصٍ كان وجودُه أكثرَ ما عاق حُرّيّتَهم في الكلامِ، وهي الحرية التي ما لبثت أن فَرضت نفسَها بذات القسوة التي تفرضها الضرورةُ على مَن لا يجد بدّاً من أن يذهب إلى خلف حاجزِ العشبِ الأخضر ليقضيَ حاجتَه الطبيعية. لا أحد يُنكر أن لا شيء يملأُ الجالسين إلى الطاولةِ ضيقاً وإزعاجاً من جلوسِ رئيسةِ ديرٍ إلى الطاولةِ نفسِها. لكنْ ليس من الذوقِ أيضاً أن تظلّ فتاتان في حضرةِ الملك ورجالِه فيُرهِق آذانَهما سماعُ أحاديث طويلة وَسِعَتْها ساعاتُ ليلٍ طويل متصلة.

بوضوحٍ قال الملكُ إنّ سريرَيْ السيسيليتين قد أُعِدّا في الغرفةِ الكائنة في الطابقِ الأعلى، وإنّ حرّاساً سيقومون عند بابِهما ليلا حتى تُحْرَمَ الألسنةُ البذيئةُ من مُتعةِ الإيذاء. لقد رغبت السيسيليتان في الانصرافِ قدرِ ما رغب الرجالُ في رؤيتهما وهما تغادران الطاولة، لأنهما لن تجدا غيرَ تلك الليلةِ لكي تبوح كلٌّ منهما بكلّ ما نَدِمَتْ عليه زمناً طويلا، أو لأنهما نادمتان لأنهما أخفتا أسرارَهما. ثم انسحبتا في أدبٍ، لكنّ بيرجر بروزا ما لبث أن وقف في طريقِهما بعد أن تنحنح في لطفٍ وهو يشير إلى معطفِه. فاحمرّ وجهُ سيسيليا روزا فخلعت المعطفَ من على كتفَيها،

Twitter: @ketab_n

فاستدار بيرجر بروزا وهو يبتسم، فوضعت ثوبَ اليارل المنمّقِ بأسدِ الفولكونغر على كتِفَي صاحبِه الشرعي.

في الطابق العلوي لم تتأخر السيسيليتان في الإيواءِ إلى سريريهما، وانسابتا بِقميصَيهما في يُسْرٍ ما بين ملاءةِ الكتّان والأغطية. وسرعان ما شعَرتا أنّ الليل على غير العادة أكثرُ دِفْئاً وعذوبة. وعلى أحد الجدران الخشبية عُلِّقَت شمعاتٌ ظلت تشتعل وقتاً أطول من الحُطيباتِ التي اعتادتا عليها طويلا.

ظلتا برهة من الوقتِ مستلقيتين جنباً إلى جنب. وعلى مقعدٍ ليس بالقرب منهما وُضع المعطفُ الملكي، فذكّرهما اللونُ الأزرقُ والتيجانُ الثلاثة في جلالِها بتلك الأحداث الكبرى العجيبة التي حدثت خلال ذلك اليوم. فقد استسلمتا بعضَ الوقتِ لتلك الفكرة التي ظلتا تُناجيانها دون أن تتلفّظا بكلمة واحدة.

لكنّ الوقت لم يكن قد تأخرَ كثيراً في تلك الليلةِ، فقد تصاعد من أسفل الطابقِ ضجيجُ وقهقهاتُ زمرةٍ شَرعت بعد أن تخلّصت من نسائِها في أداءِ واجبِ التكريمِ للوليمةِ ولجلالةِ الملك.

- كم أريد أن أعرف إن كان رئيسُ القساوسة وصل إلى طبَق الضأن الرابعّ"، قالت بلانكا متضاحكة. وكم أرغب أن أعرف أيضاً إن كان ما يزال طيّبَ القلب كما يوحي به مظهرُه! أرأيتِ كيف طرد الأمَّ ريكيسا وكأنه يطرد ذبابةً تائهةً في قاعِ كأس خمرِته؟

- لهذا السبب بالذات ليس طيّبَ القلبِ كما يتظاهر، أجابت روزا. فهو لا يريد أن يتظاهر بأنه يُطيع رغبات الملك مهما صغُرت، كما لا يريد أن يتصرّف وكأنه من الصعب حقاً أن ينحاز ضد الأمِّ ريكيسا. لذلك تصرّف وكأنّ الأمر كله ليس أهمّ من ذبابةٍ تائهةٍ في كأس خمرته. لكنْ يجب أن أضيف أن آرن لم يقلْ سوى الطيِّبَ في حقّ رئيس القساوسة ستيفن، حتى إن كان ستيفن نفسه هو حَكم علينا، بهذه العقوبة القاسية.

- أنت طيبة جداً وتحسنين الظنَّ بالآخرين دائماً، يا صديقتي العزيزة، قالت بلانكا في حسرة.

Twitter: @ketab_n

- ما الذي تقصدينه؟

- يجب أن تفكري قليلاً كما يفكّر الرجال، روزا، وأن تتأملي الأشياءَ كما يتأمل الرجالُ الأشياء، حتى وإنْ كانوا يحمِلون تيجاناً، أو يمسكون بعصَا المُطران. العقوبة التي حكم بها على آرن وعليكِ أنتِ عقوبةٌ ثقيلةٌ جداً. وكما صدَق بيرجر بروزا القولَ هناك آخرون كثيرون ارتكبوا نفس الآثام ولم يلقوا عقوبةً البتة. لقد عُوقِبْتُما بكثير من القسوة، فالأمرُ واضحٌ وضوحَ النهار، ألا تدركين ذلك؟

- لا، لا أفهم هذا. لماذا فَعَلا ذلك؟

- بسبب الأم ريكيسا، بالطبع، فهي، أيْ هذه الروح الشريرة، التي وقفَت وراء كل هذا. كنتُ في غوديم عندما نسجَت أختُكِ كاتارينا، التي لم تَعُدْ تعزٌّ عليكِ كما كانت في السابق، قماشَها بمساعدة ريكيسا. حبيبُك آرن كان صديقاً لكنوتْ إريكسون، وصديقاً لعائلة فولكونغر. فهذا هو الذي كانت الأمُّ ريكيسا تسعى إليه. كانت ترغب في أن تسيءَ إلى صديقِ الملك وتزرع الشقاقَ بينهما. وزيادةً على ذلك كان آرن محارباً قادراً على ضرْبِ كلِّ الآخرين ولم يقلْ أحدٌ فيهم شراً. فهذا ما كان يهمُّ رئيس الأساقفة.

- لكنْ ما حاجةُ رئيس الأساقفة والأب هنري إلى محاربِ إضافي؟

- لكن يا صديقتي الغالية، صاحت بلانكا، لا تتحدثي كما تتحدّث تلك المغفلات اللواتي كانت تهزأ وتسخر منهنّ السيدةُ هيلينا. فالمطارنةُ وأحبارٌ آخرون يعتقدون دائماً بأنه لابد من إرسالِ رجالٍ لكي يحاربوا في الأرض المقدسة، وكأننا تنقصنا حروب. ويضيفون أنّ مَن يحمِل الصليبَ سوف يذهب إلى الجنة، وأشياء أخرى من هذا القبيل. والحالُ أنّ كلامهم لا أثَر له بتاتاً. هل مرّ عليكِ شخصٌ حَمَل الصليبَ وذهب إلى هناك بملءِ إرادته؟ لا، ولا أنا أيضاً! لكنهم لم يفوّتوا الفرصة لكي يجدوا آرن، وأنا على يقينٍ من أنهم صلّوا كثيراً صلاةَ الشكرِ والحمدِ بعد ذلك. الحقيقةُ مرّةٌ أحياناً. فلو لم يحقق آرن انتصاراتٍ في معركة إسكيفيلان، ولو كان رجلاً كالرجال الآخرين بسيفِه ورمحِه لَحُكِم عليكما بالعقاب سنتَيْنِ وليس عشرين عاماً.

Twitter: @ketab_n

- أخال وكأنكِ بدأت تفكرين كما تفكّر ملكة، هل تهيّئين نفسكِ لهذا الدور؟ سألت روزا بعد هنيهةٍ، وقد بدت متأثرةً أيما تأثرٍ بالكلمات التي نطقَت بها صديقتُها حول قسوة العقابِ الذي ضربهما، آرن وهي.

- نعم، اجتهدتُ في أن أتعلم كيف أفكّر كما تفكر أيُّ ملكة. ومَنْ منّا يُلائمه هذا الدور بشكلٍ أفضل غيري أنا؟ أنتِ أكثرُ طيبة مني، يا صديقتي روزا.

- لهذا السبب إذاً، فلأنّك تفكّرين كما تفكّر أيةُ ملكة نجحتِ في أن تأتي بي إلى هذه الوليمة؟ دعيني أقول لكِ أنّ الأمَّ ريكيسا كادت تنفجر غيظاً عندما جاءت لتأخذني.

- إنها تستأهلَ ذلك. تلك المشعوذة! يجب أن تكفّ عن الخلطِ بين إرادتها هي وبين مشيئة الربّ. لقد حاولتُ معها بعض المُمالَقَة وبعضَ المكرِ الأنثوي. لكنّ كنوتْ على ما يبدو لم يقتنع كثيراً بحِيَلِي. لقد التَمَس النصيحةَ من يارله. أرأيتِ الآن أني لم أُتقنْ بعدُ دورَ الملكة؟

- وهل بيرجر بروزا هو الذي قرّر أن أَحْضُرَ إلى الوليمة؟

- لا هو ولا أحد غيره. فقد كسبْتِ حليفاً ينبغي أن توليه كاملَ العناية. فعندما جاء ليضع على كتفَيك معطفَ الفولكونغر فهو لم يفعلْ ذلك فقط حتى يقيك من البرد، إنْ أردتِ رأيي.

وصمتَتا فجأة لأنهما سمعتا القهقهات الصاعدة نحوهما عبر أرضية الغرفة، ولأنّ النقاشَ أخذ على ما يبدو منعطفاً أكثرَ حدّة، وكأنّ معطفَ الملكة الذي وُضِع في العتمة ليس بعيداً عنهما أبى عليهما أن تكونا مجرد أفضلِ صديقتين في الدنيا. وعلى الرغم من أن الليلَ لم يكن قد تقدّم بهما كثيراً فسوف ينطوي في النهاية، مثل باقي الليالي، حتى الليالي التي قضتاها في الزنزانة. قريباً ستنفصل السيسيليتان لزمنٍ طويل، طويل جداً، بل إلى الأبد. لذلك لم تجِدا بداً من أن تتحدّثا في أمورٍ أخرى غير المعركة من أجل السلطة.

- أتعتقدين أنه وسيم؟ هل هو كما هو في ذكرياتك؟ سألتْ روزا في النهاية.

- مَن تقصدين؟ كنوت إريكسون؟ هو في ذكرياتي أصغرُ وأجمل، لأننا التقينا

Twitter: @ketab_n

منذ سنوات طويلة ولم تُتَح لنا الفرصة لكي نلتقي قبل ذلك. فهو طويل، ويبدو قوياً، لكنّ شَعرَه بدأ يشيبُ، وقريباً سيشبه أيَّ راهبٍ، حتى وإنْ لم يتقدّم به العمرُ كثيراً بعد. فهو حقاً لا يشبه أيَّ شيخ سقيم من شيوخ ليكويينغ، لكنّه ليس ذكياً ذكاءَ بيرجر بروزا. في النهاية كان يمكن أنْ يكون هذا أفضل، ولكن أسوأ بكثير أيضاً. إذاً أنا راضية قانعة.

– راضية قانعة جداً؟

– نعم، لكن ليس الأمرُ مهِمّاً كثيراً. المهم أن يكون مَلِكاً.

– أنتِ إذاً لا تحبّينه.

– هل أحبُّه كما أحب مريم العذراء، أو كما هو الحبُّ في القصص الشعبية؟ بالطبع لا. فلماذا أحبّه؟

– ألم تُحبّي رجلا يوماً؟

– لا، لم أحب رجلاً قط. لقد عرفتُ سائِسَ خيلٍ في الماضي...لكنْ لم يكن عمري سوى خمس عشرة. لقد فاجأنا والدي، وكانت فضيحةً كبيرة. لقد فُصِلَ سائسُ الخيل بالسوطِ وتوعّد بأنه سوف يعود يوماً ومعه رجالٌ مسلّحون، وغير ذلك. لقد بكيتُ أياماً كثيرة، وبعد ذلك أعطوني حصاناً جديداً.

– عندما أخرج من هنا سيكون عمري سبعةً وثلاثين عاماً، قالت روزا بصوتٍ خافتٍ، فيما كان يجب أن تتكلم بصوتٍ أعلى، لكي تغطي ضجيجَ الوليمة في الطابق من تحتهما.

– ربما سيبقَى لكِ نصفُ عمرك، أجابت بلانكا بصوتٍ أقوى. سوف تأتينَ عند الملك وعندي، لأننا صديقتان العمرَ كلّه. وهذا هو الشيءُ الوحيد الذي لا يستطيع أشخاصٌ مثل الأمّ ريكيسا أن يفعلوا أيَّ شيءٍ ضده.

– لكنني لن أخرج من هنا إلا إذا عاد آرن، كما وَعَد. وإن لم يتحقّق ذلك فسوف أظل بلا شك أجفُّ هنا مدى الأيام الباقية في عمري، قالت روزا وهي ترفع صوتَها قليلا.

– سوف أصلي لآرن كل ليلةٍ إلى أن يأتي ذلك اليوم، قالت بلانكا وهي

Twitter: @ketab_n

تشدُّ أكثر يدِها على يدِ صديقتها. أعِدُكِ بأنني سأفعل بالمثل، ولو ألححنا بما فيه الكفاية، نحن الاثنتين، فسوف نستطيع أن نُثني الأمَّ ريكيسا.

– أجل، ربما، لأنه من المعروف جداً أن السيدة العذراء كثيراً ما انْثَنَتْ بفعل صلواتٍ نابعة من الحب، إنْ كانت صلوات وطيدة بما فيه الكفاية. أعرف قصّةً من هذا القبيل، جميلة جداً.

– وماذا لو رددتُ إليكِ السؤال الذي ألقيتِه عليّ قبل قليل؟ هل تحبّين آرن ماغنوسون حقاً: فهو ليس الطوقَ الذي يتيح لك عبورَ هذه الحفرة التي اسْمُها غوديم؟ هل تحبّينه كما تحبين السيدة العذراء، ومثل الحب في القصص الشعبية؟

– أجل، أجابت روزا، أحبّه حبّاً أخشى أن أقترف فيه خطيئة حُبّ رجلٍ أكثرَ من حُبِّ الربّ. أحبّه إلى الأبد، وسوف أحبه أكثر عندما تنقضي سنواتي العشرون اللعينة.

– إني أحسدكِ إلى حدٍّ لا تفهمينه، أجابت بلانكا وهي تستدير فجأة في السريرِ وتحتضِن صديقتَها.

مكثَتا تبكيان بعضَ الوقت، ولم تكفّا عن البكاءِ إلا تحت وطأةِ تلك الضرورةِ التي تُنهي كلَّ شيءٍ عند انتهاءِ أيِّ وليمة. ونهضت بلانكا لتقضي حاجةً مُلحة في إناءِ الليلِ الذي وُضِع قسراً تحت السرير.

– أريد أن أطلب منكِ شيئين. شيئين لا تسألُهما صديقةٌ إلا صديقتَها، عادت لتقول وهي تنساب تحت جلدِ الحيوانِ، أو بالأحرى تحت الغطاء الذي تتغطيان به. أيُّ وقْعٍ يَقَعُ على المرأة حين تُنجب طفلا، قالت وهي تعلم مدى الوقع إنْ هي لم تُنجب طِفلا. هل الوضعُ، كما يشاعُ، جُهدٌ ومشقّة؟

– ليست الأسئلةُ التي تطرحينها أسئلةً هينة، أجابت روزا وعلى شفتيها ابتسامةٌ باهتة. إنجابُ طفلٍ مثل طفلٍ اسْمُه ماغنوس، يرعاه بيرجر بروزا، وأمُّه بريجيدا، أمرٌ من الصعوبة ما يجعلني أبذل كلَّ جهدي حتى لا أفكّر فيه إلا أثناء الصلاة. كان جميلاً جداً، وصغيراً جداً. ليس من شقاءٍ أكبر من أن أكون سجينةً للأمِّ ريكيسا، ومن أنْ لا يسعني أن أكون قريبةً منه. لكنْ في قلب هذا الشقاءِ أشعر بالسعادة

Twitter: @ketab_n

حين أذكر أنه يعيش في رعايةِ رجلٍ طيّبِ القلب مثل آرن. لكنّ الأمرَ ربما معقّدٌ ومن الصعبِ أن تفهميه.

– لا، أبداً. أظن أنّ الأمرَ بالفعل كما تقولين. لكنْ والولادة؟

– لا تهزئي! نعم، هذا صحيح. إني خائفة. ظني أني لن أُفلت من إنجاب أطفال. كيف يكون ذلك يا تُرى؟

– ما الذي تريدين معرفته؟ أنا لم أضعْ سوى مرّةٍ واحدة! أتريدين أنْ تعرفي إنْ كنتِ ستشعرين بالسعادة بعد الوضْع؟ نعم ستشعرين بالخلاص. فهل صرتِ الآن أكثر اطلاعاً؟

– أريد أنْ أعرف إن كان الوضعُ أقلَّ ألماً إذا كنتُ أحبُّ الرجلَ الذي سيصبح أباً لطفلي، شاءت بلانكا أن تعرف بعد هنيهةٍ وهي بين الجِدِّ والتسلية.

انفجرتا قهقهةً مفرّجةٍ، وأخذتا تتقلّبان في السريرِ حتى كادت كلٌّ منهما تلتصق بالأخرى كما التصقتا في تلك الليلةِ التي عادت فيها بلانكا وقد جمّدها ذلك البردُ القارس. وعادت بهما الأفكارُ إلى الوراء.

– لن أنسى أبداً أنكِ أنقذتِ حياتي في ذلك اليوم. كنتُ متجمّدةً حتى العظام، وكانت حياتي تشبه تلك الشعلةَ الزرقاءَ التي نراها في قلب النارِ قبل انطفائها في موقدِها، غمغمت بلانكا في أذن صديقتها.

– الشعلةُ التي تحترِق في داخلِك أقوى من ذلك بكثير، أجابت روزا وقد غلبَها النعاس.

وسرعان ما استغرقتا في النوم، لكنهما عادتا فاستيقظتا عند ساعةِ التسابيح الصباحية. وفي الحالِ نهضَتا من فراشهما وشرعتا في ارتداء ملابسِهما قبل أنْ تنتبِها أنهما في المضافة، وأنّ الضجيجَ لم يهمَد بعدُ من تحتِهما.

خمدت الشموعُ، وكانت العتمةُ ما تزال تُخيّم خلف المِنور . لكن لم يسعهما العودةُ إلى النوم ثانيةً، فعادت السيسيليتان إذاً إلى حديثِهما السابقِ من حيث توقّفتا، وظلتا تتحدثان بلا انقطاعٍ عن الصداقة، وعن الحب الذي لا ينتهي أبداً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

عند وصولِه إلى غزّة لم ينخدع صلاحُ الدين بأيّ فخٍّ من الفِخاخ التي نصبها له المدافعون. فقد حارب منذ وقت طويل...حاصر أو دافع عن مدن كثيرة، ولذا فلن ينطلي عليه مكرٌ أو خداعٌ من أيّ كان. فها هي ذي المدينةُ تبدو مُلكاً مُشاعاً لِمَنْ شاءَ أن يدخلها، وكأنّ اقتحامَها لا يتطلّبُ أكثرَ من بضعةِ خيولٍ ليس إلاّ! فهي تبدو خاويةً على عروشها، ولا شيء يحول دون استسلامها. ومع ذلك فمِن فوق البُرج الذي يُشرف على البوّابة المشرّعة والجسر المتحرك، كانت أعلامُ فرسان الربّ، والراية المضروبة بصورة أمّ المسيح، المقدّسة مثل الربّ، ترفرف في مهبّ الريح. فخليقٌ بمن يقِف في هذا المكان أن ينظر أوّلاً إلى هذه الرايات والأعلام، وليس إلى ما يريد العدوُّ منه أن يراه. فمَنْ يظنُّ أنّ فُرسانَ هيكل الربّ قد يستسلمون دون أن يخوضوا حرباً، دفاعاً عن أنفسهم فهو أحمقُ أو قريبٌ من الحمق، لكنّ الأحمَق منه قادةُ الفرسان إنْ هُم صدّقوا أنّ مثْل تلك الخدعة الفجّة سوف تُخرجُهُم من مأزقهم حقّاً!

بحركةٍ غاضبةٍ صَرَف صلاحُ الدين الأمراء الذين هُرعوا إليه لكي يقترحوا عليه هجوماً خاطفاً. فهو لا يتراجع عن أوامِره، والكلّ يعمل بما يمليه عليهم ويأمرُهم به، ولا أحد يستطيع أن يُغيّر شيئاً بحجّة أنّ البوّابةَ مفتوحةٌ على مصراعيها، وبحجة أنّ المُدافعين مُشتّتون تشتُّتاً مُخاتِلاً ولا يوجد بينهم فارسٌ من فرسان هيكل الربّ بثوبه الأبيض.

وقف آرن في أعلى السور يُرافقُه مدرب المسايفة غُوِيدُو دي فارامند، وأرماند

Twitter: @ketab_n

حاملُ الرايات، فجعلوا يتابعون في عنايةٍ تقدّمَ جيش العدوّ. وفي قلب المدينة خلَتْ الشوارعُ من ورائِه ومن تحته، من كلّ محتوياتها القابلة للاشتعال، وغُطَّت النوافذُ بألواحٍ من الخشب، أو بجلودٍ بُلَّت بالخلِّ، فيما كان المهاجرون الذين تجمّعوا في مخازن الحُبوب القديمة في القلعة وسكّانُ المدينة إمّا قابعون في بيوتهم، وإمّا في ساحات الحرائق يشاركون في إخمادها.

تقع مدينةُ غزّة فوق تلّةٍ صغيرة تنحدر انحداراً خفيفاً نحو البحر، وفي اتجاه القلعة والميناء. ويقع بابُ المدينة في أعلى هذه التلّة، ولذلك إذاً لا يأتي هجومُ العدوّ إلاّ صعوداً. وما بين هذا الباب وباب القلعة على حافة الماء كان الطريقُ سالكاً كسلوك فضاءِ التدريب قبل أيّ مباراة. وعند أعلى الأسوار انتشر عددٌ كبير من النبّالين الأتراك، ورُقباءُ هنا وهناك، بملابسهم السوداء. كلّ ذلك لتأمين دفاعٍ قد بدا من الخارج دفاعاً قليلَ الكثافة. لقد جلس هناك مئتان من الرقباء معظمهم مدجّجون بالقذّافات، بعد أن أداروا ظهورَهم إلى فُتحات الأسوار التي لا تكادُ العينُ تلمحها من الخارج. ففي لَمْحِ البصر وبإشارة عابرة من قائدِه قد يظهرُ دفاعُ المدينةِ أقوى مرّتين ممّا يوحي به مظهرُه من أوّل وهلة. وخلْفَ البوابة المغلقة التي لم تُوصدها الحواجزُ وقف ثمانون فارساً من فرسان هيكل الربّ، مجهزين أفضل تجهيزٍ، تأهباً لِشنِّ أيِّ هجومٍ طارئٍ في الحال.

رغب آرن في أنْ لا يندفِع جيشُ العدوّ دفعةً واحدة، ولكن في مجموعاتٍ صغيرة، وخَشِيَ أنْ يُقْدِم أميرٌ متعطّشٌ للمجدِ على إظهارِ جُرأتِه وعزمِه ليلقَى خيرَ الجزاءِ والتكريم عندما يصلُ صلاحُ الدين. ففي بداية أيّ هجومٍ تكون الحماسةُ في أوْجِها في غالب الأحيان، فيما تكون البصيرةُ في أدنى درجاتها.

فلو أطلق المماليكُ فرسانَهم من بوابة المدينة لأُغلقت البوابة عند ذروة الزحام، بعد أن يَعْبُرَها نحو أربعمئةٍ من الرجال. وبعد ذلك يُفتَح بابُ القلعة فيهجُمُ الفرسانُ بملابسهم البيضاء على المماليك، من غير حائلٍ يحولُ دونهم والهجوم، أيْ حين يُقلّصُ ضيقُ المكان إلى حدود الصِّفرِ مِيزةَ العربِ المسلمين الأولى، ألا وهي سرعةَ الحركة. ومن أعلى الأسوار، سيُوجِّهُ الرُّقباء قذائفهم صوبَ الداخل ونحو الأسفل

Twitter: @ketab_n

أيضاً. وفي غضون ساعةٍ واحدة سيفقِد العدوُّ عُشر قوّاته لا محالة. والحالُ أنّ أيّاً كان يُباشرُ حصاراً من هذا القبيل سوف يَحْمِلُ بلا شكٍّ همَّ ما سوف يلقاهُ لاحقاً. إلاّ أنَّ الأمَر أُمْنِيَّةٌ وَرِعَة أكثرَ منه خدعة حَربٍ حقيقية. فصلاحُ الدين رجلٌ لا ينخدعُ بمثل هذه السهولة.

– الوقت قد حان لكي نُلْهِيَ فرساننا بأمورٍ أخرى، قال مدرّبُ المُسَايَفَة، مقترحاً.

– أجل، لكنْ يجب أن يظلّوا على أُهْبَةٍ تحسُّباً لأيّ هجوم، فقد تُتاح لنا فرصةٌ أخرى. أجاب آرن دون أن ينُمَّ صوتُه عن خيبةٍ في نفسه، أو أملٍ من الآمالِ البعيدة.

هزَّ مُدرّبُ المسايفة رأسه وابتعد في عجلة.

– تعال معي! قال آرن لأرماند وهو يجرُّه حتى الجزء من السور الواقع بالقرب من البرج، تحت رايات فرسان هيكل الربّ، حتّى تراه بوضوحٍ أعينُ جيوش صلاح الدين. كان آرن بملابسه البيضاء، الفارسَ الوحيدَ الذي يستطيع العدوُّ أن يميّزه من بين كلّ المدافعين في غزّة.

– والآن ما الذي سيحدُث بعد أن فشلت خدعتُنا؟ سأل أرماند.

– في البداية سيُظهر صلاح الدين قوّتَهُ، ثمّ ستحدثُ بعضُ المناوشات الطفيفة، أجاب آرن. فاليوم الأوّلُ سيعُمّه الهدوءُ و السكينة. ورجلٌ واحدٌ فقط سيموتُ!

– من هو هذا الرجلُ؟ سأل أرماند وهو يقطّبُ حاجبيه من فرط ما أصابه من عُجبٍ ودهشة.

– إنّه رجلٌ من سنّك، رجلٌ مثلي تقريباً، أجاب آرن بلهجةٍ تنمُّ عن قليلٍ أو كثير من الحزن في نفسه. رجلٌ مِقدامٌ يظنُّ أنّ الفرصة قد وَاتَتْهُ لكي يتدثّرَ بالمجد، وربما لكي يظهَر لأوّل مرّة من بين مَنْ سيحقّقون انتصاراً باهراً. رجلٌ يُؤْمن أنّ الربّ نصيرُه، على الرغم من أنّ الربّ اختاره ليكون الرجلَ الذي سيموت اليوم.

لم يستطع أرماند أنْ يصوغَ سؤالاً آخر حول ذلك الرجل الذي بات موتُه وشيكاً. لقد أجابه سيّدهُ وكأنّه كان شارداً في أفكاره، أو كأنّ كلماتَه شاءت أن

Twitter: @ketab_n

تقول شيئاً آخر غير معانيها الظاهرة، مثلما يحدث في كثير من الأحيان ما بين أعلى الفرسان رُتْبَةً في داخل الرهبانية.

وسرعان ما استأثر بانتباه أرماند مشهدٌ أمام الأسوار، حيث كان صلاح الدين يستعرِض قوّته على نحوِ ما تنبّأ به آرن قبل حين. كان فرسانُ المماليك يسيرون أرتالاً على ظهور جيادهم السريعة، في صفوفٍ خُماسية، كأنّهم في استعراضٍ مَهيب. كانت ملابسُهم تتلألأ ذهباً تحت أشعّة الشمس، وكانوا يُشهرون رماحَهم وأقواسَهم عند مرورِهم حيث يقف آرن وأرماند. لقد أنفَقوا نحو ساعةٍ في ذلك الاستعراض. وحتّى وإن ضاع العدُّ الدقيق من آرن في النهاية فقد وسِعه أن يقدّر بما فيه الكفاية عددَ أفراد العدوّ الذين تجاوزوا بالتأكيد ستّة آلاف رجل بكثير. كان أقوى جيشٍ مُجهّز يراه أرماند في حياته، وفي الغالب أعظمَ مِنْ أن يُقْهَرَ أو يُهزَم، لاسيّما أنّ المماليك المتلألئين ذهباً أثبتوا أنهم أفضلُ المحاربين العرب المسلمين جميعاً. ومع ذلك لم يُبْدِ آرن علامةً واضحة من علامات القلق والانزعاج أمام ما رآه من بأْسِ ذلك الجيش. ولم يكد ذلك الاستعراضُ ينفَضُّ حتى استدار مُبتسِماً نحو أرماند، وفَرَكَ يديه فرِحاً، ولَيَّنَ أصابعَه كما يفعل عندما يذهب للتدرّب على رماية القوس. ذلك السلاحُ المتكدّس الآن في داخل البرج، ليس بعيداً عن برميلٍ يحوي أكثر من مئة سهم.

– تبدو الأمورُ على خيرِ ما يرام حتّى الآن، أليس كذلك؟ سأل آرن في رضاً تام.

– إنه أقوى جيشِ عدوٍ رأيته في حياتي حتّى الآن! أجاب الرقيبُ في حذرٍ، وبقليل من التفاؤل الذي أفْعَمَ سيّدهُ.

– هذا صحيح، أجاب آرن. لكنّنا لن نُجابِهَهُم في السباق، هناك في السهل، كما يريدون. سنظلُّ خلف أسوارنا، ولن يأتوا إلا بالخيول وحدها. فصلاحُ الدين لم يُظْهِر بعدُ قوّتَهُ الحقيقية. أمّا مهرجانُ الخيّالة ذاك الذي شاهدناهُ فلم يكن له من مبرّر سوى حرْص صلاح الدين على حثّ همّة قوّاته. أمّا الأشياءُ التي يجب أن تُحْمَلُ على محملِ الجدّ حقّاً فسوف تأتي فيما بعد.. لا محالة.

مَالَ آرن برأسِه من جديد من على السور فاقتدى به أرماند، لأنه يأبى أن يقول

Twitter: @ketab_n

أنْ لا عِلْم له بما سوف يحدث بعد حين، وبأيِّ حالٍ ستَظهر قوّةُ صلاح الدين، عندما يطيبُ له أن ينشُرَها في النهاية.

لكنّ الذي حدَث بعد ذلك، كان شكلاً آخرَ من أشكالِ العرْض الفروسي. لقد تنحّى الجزءُ الأكبرُ من جُنْد العدوّ لكي يطرحوا سروجَ مطاياهم وينصبوا معسكراتهم. لكنّ نحو خمسين من الفرسان تجمّعوا قبالة بوّابة المدينة وكأنهم يتهيّؤون لهجومٍ وشيك، فأشهروا أسلحتهم وزَمْجَروا وانطلقوا يركضون في اتجاهِ البوابة، حاملين أقواسهم.

لم يكن يسعهم أن يجتازوا الخندقَ إلاّ من مَوْضِعٍ واحدٍ يقعُ على الجانب الشرقي من بوابة المدينة. وقد امتلأ المكانُ بأوتادٍ قاطعةٍ انتَصبتْ نحو الأمام انتصاباً. فَمَنْ خاطَر بالقفز فوقها بأقصى ما يملك من سرعةٍ تعشَّقَ بالأوتادِ الحادّة، هوَ وحصانُه، إلى حدّ الموت لا محالة.

لكنّ فِرق العدوّ ما لبثت أن توقّفت قبل الجسر المتحرك بقليل لتخوض في نقاشٍ ساخن، ثمّ إذا بأحد أفرادِها يمتطي جوادَهُ وينطلقُ راكضاً في اتجاه البوّابة، ثمّ يُطلق العنانَ من يدِه في سباقه المحموم، كأنّ فارساً عربيّا مسلماً واحداً يتقنُ ذلك الفنّ دون سواه. لم يتحرّك آرن أمام ذلك المشهد قيد أنملةٍ، وقد نظر أرماند إلى سيّده من طرفِ عينٍ فرآه يرسم على شفتيه ابتسامةَ حزنٍ وأسىً وهو يَزْفِرُ ويهزُّ رأسه.

قذف الفارسُ سَهْمَهُ نحو الهدف الذي لا هدف غيره، وهو ذلك الرجلُ الواقف بملابسه البيضاء فوق أسوار المدينة. لكنّ السهمَّ مرّ مُصفِّراً بالقرب من رأس آرن الذي لم يُبْدِ لتلافيه حركةً واحدة.

استدار الفارسُ إلى الوراءِ بعد أن قَذف سهمَه، وانطلق يعدُو ليلتحق برفاقه، فاستقبلوه بصيحاتِ الفرح وهُم يَرْبُتُون برماحِهم على ظهرِه رَبْتاً خفيفاً ليّناً. وتهيّأَ فارسٌ ثانٍ من بعده وانطلق على نحو ما انطلق صاحبُهُ من قبلِه. وتجرَّأ فاقترب من الهدف أكثرَ من صاحبه، لكنّه أخطأ الهدفَ، ولم يكن إخفاقُه أقلَّ فداحةً من إخفاقِ من سبقَه.

وفيما كان عائداً بخطىً حثيثَةٍ إلى صفوف الأمراء الفتيانِ الآخرين أمَر آرن رقيبَه

Twitter: @ketab_n

بأن يجلب قوسَه من البرُج، وقليلاً من السهام. وسارع أرماند إلى طاعتِه، ولمّا عاد إلى سيِّده لاهثاً كان الفارسُ الثالث ينطلق نحو الهدفِ مثل السهم.

- غَطِّ مَيْسَرَتِي بِتُرْسِكَ! أمرَ آرن رقيبَه، وهو يمسك بسلاحه.

فرفع أرماند دِرْعَه وظلَّ ثابتاً في مكانِه ينتظر اقترابَ الفارس من تحتِهما، وتأهُّبه لإطلاق السهم.

وعندما وصل الأميرُ المملوكي الشاب إلى الجسر المتحرك، يُرافقُه دويُّ الحوافر، أطلَقَ العِنَانَ ليده، ووتَّرَ قوسَه، وذَادَ أرماند عن الجزءِ الأهمّ من جسم سيِّدِه، فيما أخذ هذا الأخيرُ يُوتِّرُ قوسَه الكبير في هدوءٍ، ويُسدِّدُ سلاحَه ثمّ يقذفُ سهمَه.

وأصاب السهمُ العدوَّ عند حلقِه وقذفَه فتهاوى على ظهرِه وسَيلٌ من الدمّ يملأ فمَه. ثمّ إذا بجسمه ينتفض انتفاضاً في الغبارِ المتطاير بسبب ما ألَمّ به من تشنُّج وانقباضٍ حتّى خُيِّل لكلّ راءٍ أنّه فارَق الحياةَ حتى قبل أن يلْمَس جسدهُ الترابُ.

وبعد أن صارت الفرسُ بلا قائدٍ واصلت طريقَها نحو بوّابة المدينة المفتوحة، وتوارت في اتجاه القلعة على طول الطريق البارز من المدينة.

- إنّه ذاك الذي كنتُ أحدِّثُك عنه قبل قليل، قال آرن بصوت خافتٍ، وكأنّ الشعورَ بالحزنِ فاقَ عنده الشعورَ بالانتصار بعد قَتْله ذلك العدوّ. لقد شاء القدرُ أن يكون هو مَنْ يلقَى حتفَهُ وليس أيّاً غيرَه، وأغلبُ الظنّ أن لا قتيلَ اليوم بعده.

- لا علم لي إلاّ ما علّمتني، قال أرماند، لقد قلتَ لي أنْ أسترشدَ بكَ كلّما غاب عنّي أمرٌ من الأمور، وتلك هي الحالُ في هذه اللحظة.

- أجل، وخليقٌ بك حقّاً أنْ تستفسر عن الأمر مني دائماً، قال آرن وهو يضَع القوس بجانب الأسوار. لا بدّ من طَرْح السؤالِ تلو السؤالِ كلّما استعْصَى علينا الفهم، إلى أنْ نصل إلى الحقيقة. فذاك خيرٌ لنا من أن نتظاهر بالفهم عند الجهل، لغرورٍ في نفوسنا. فقريباً ستصبحُ واحداً منّا، والحالُ أنْ لا غنىً لراهبٍ عن أيّ راهبٍ غيرِه يسأله ليحصل منه على الإجابة دائماً. هذه إذاً هي الحقيقة. فهؤلاء الأمراءُ يعرفون تماماً مَنْ أنا، ولا تخفَى عنهم بَراعتي في النّبالة. وهكذا فمَن ذهب لمجابهة القوطي تحلّى بالشجاعة، وإنْ عاد حيّاً فبِتَوْفِيقٍ من الربّ وفضلٍ من تلك الشجاعة!

Twitter: @ketab_n

هكذا يقولون. لكنْ ما من شجاعةٍ أجدى في مثل هذا الظرف من مواجهةِ الخطر عند المحاولة الثالثة، فذاك ما يحسبون له حساباً في عقيدتهم الثابتة، وليس بعد ذلك من محاولةٍ رابعة، لأنّه ليس بالإمكان الاقتراب أكثر ممّا هُيِّئَ من اقترابٍ في المرّات السابقة. فمَنْ خاطَر بالاقترابِ أكثر لَعِبَ مع الموتِ لعبةً لا طائل له فيها. وإذا كان من الصعبِ أن تفهم رأيَ الرجال في الشَّرفِ، مؤمنينَ كانوا أم كُفّاراً فالأصعبُ منه أنْ تفهم رأيَهم في الشجاعة! فما أكثرَ الذين يعتقدون أنّ التردّد هو الجُبْنُ عينُه، لكنْ اُنظُرْكم هم متردّدون هناك! لقد رغبوا في أن يهزؤوا منّا، لكنْ مَنْ تُرى غيرُهم يقف الآن في الورطة؟!

– ما الذي سيفعلونه، الآن بعد أن مات رفيقُهم؟ وكيف سينتقمون؟ سأل أرماند.

– إن كانوا أذكياء فلن يفعلوا شيئاً. وإن كانوا جُبناء وهاجموا جميعاً دفعةً واحدة، لكي يستعيدوا جثّته ويُعِدُّوا له الدَّفْنَ الذي يليقُ بمقامِه، فسوف نقتلهم جميعاً أو نكادُ، بفضل جنودِنا المسلّحين بالأقواس القذافة. مُرْهُمْ بالاستعدادِ للرماية!

أطاع أرماند أمْر سيّده في الحال، وما لبث جميع الرقباء الواقفين بأقواسهم القذافة عند فُتَحِ الأسوار أن شرَعوا في توتيرِ أقواسهم، وتأهبوا عند أوّل أمْرٍ للتقدّم بِصدورِهم من فوق قمّة الأسوار، ولإطلاق وابلٍ من السهامِ القاتلة على مجموعة الفرسان عندما تنطلق في الهجوم.

لكنّ الأمراءَ الشباب تردّدوا كثيراً، فلم يُقْدِموا على ذلك الهجوم وكأنّهم أحسّوا بالفخّ المنصوب لهم. فمع أسوارِ غزّة على نحو ما تتراءَى لهم من مواقعِهم، وحاميتِهم الضعيفة من النبّالين الأتراك، قد يبدو الأمرُ أسهل من أن يكون خالياً حقّاً من مخاطِر جمّة.

وعندما شعَر أنّ رغبَتَهم في الهجوم قد لأنَت، أمَر آرن بأنْ يُحضِروا الحصانَ المملوكي الذي وقَع في فخّهِ، ثمّ هبط الأدراجَ الحجرية وأمسك بالمطية من لِجامها، وعَبَر بها بوّابةَ المدينة، ولم يتوقّف سوى مرّةٍ واحدةٍ بالقرب من الرَّجل الذي قتَله. وقد ظلّ المماليكُ ينظرون إليه في هدوءٍ، لكنْ بأعصابٍ مشدودة متوترة، وعلى أهبةِ

Twitter: @ketab_n

الهجوم في أيّ لحظة، فيما كان أرماند في أعلى السور يقف متأهباً لتوجيه الأمرِ إلى النبّالين بأنْ يقذِفوا سهامهُم إنْ لم يلتزمْ الفرسانُ بالهدوء.

رفع آرن عدوَّه الهامدَ ووَضَعَه بالعرضِ فوق سرج الحصان، وأحكَمَ رَبْطَه حتّى لا ينزلِق نحو الأرض، ثمّ مدّ حزام الرِّكاب بين أحدِ ذراعيه وإحدى رِجْليه، ثمّ أدار الحصانَ في اتجاهِ مجموعةِ الأعداء الواقفين في صمتٍ كامل، ثمّ وجّهَ ضربةً خفيفةً إلى مؤخرةِ الحصان الذي انطلق بسرعة، فيما استدار هو نفسُه وعاد في هدوءٍ نحو بوّابة المدينة دون أنْ يلتفت وراءَه.

وعندما التحق بأرماند في أعلى السور بدا رائقاً راضياً مُطمئناً. وعندما عاد مدرِّبُ المسايفة من القلعة صافحَه في وُدٍّ واحتضنه.

استقبل المماليكُ رفيقَهم الراحلَ، وذهبوا به ليدفنوه على جَرْيِ عاداتهم المألوفة. وقد أخذ آرن ومدرِّبُ المسايفة يتأملاّن مليّاً وسِماءُ البهجةِ تعلو وجهَيْهِما، ذلك الموكبَ الكئيبَ وهو يتناءَى عن عيونِهما.

وأمّا أرماند فقدْ أحسَّ بالبلادة لأنه لم يفهمْ لا ذلك الذي فعله سيّدُه قبل حين، ولا ذلك الرضا الذي ملأ أولئك الراهبَينِ النبيلين أمام مشهدٍ لا يراه هو أكثر من حركةِ استبسالٍ لا طائل فيها، بل وعملا طائشا من لَدنِ ذلك الذي يأتمرانِ كِلاهما بأَمرِه.

– سامحني، سيّدي، قال في النهاية، بعد أن تردّد قليلاً، لكنْ لا بدّ من أنْ أوجّه إليك سؤالاً مرّة أخرى.

– يا هذا! قال آرن. أفي سلوكي أمرٌ لم تفهمه؟

– أجل سيّدي!

– أوتظن أنني أحمقُ إلى حدّ المجازفة بحياتي؟

– قد يراودنا الإحساسُ بذلك حقّاً، يا سيّدي!

– ومع ذلك، فهو إحساسٌ خاطئ. فلو اندفعوا نحوي للاقتراب من مَرمايَ لكان معظمُهم لقَوا حتفَهم قبل أن يُوتِّروا أقواسَهم، لأنّهم بذلك يعرّضون أنفسهم للأقواس القذافة قبل الوصولِ إلى مرمايَ بكثير. أمّا فيما يخصّني فإني أحملُ زَرْداً من

Twitter: @ketab_n

طبقتَين يكفي لِصدِّ سهامهم بأي حال، ويمنحني القدرةَ على اجتياز البوّابة، في عناء بالتأكيد، لكنْ بِسلام! بالطبع، كان ذلك أفضلَ المخارج، لكنْ علينا أن لا نُعوِّلَ دائماً على أفضلِ الحلول.

– لستُ على يقينٍ بأني قد فهمتُ كلّ شيء، قال أرماند متوسّلاً، ترعاه الابتسامةُ الأبويةُ المرتسمة على شفتيْ الفارسين.

– أعداؤُنا هذه المرّة مماليك، قال مدرّب المسايفة...موضّحاً. فأنت يا أرماند، يا من سيصبح قريباً واحداً منّا، يجب أنْ تفهمَ قوّتَهم وضعفَهم، فَهْماً صحيحاً. فبَسالتُهم وإتقانُهم لركوبِ الخيلِ هما قِوامُ قُوّتهم، لكنّ ضعفَهم يكمن في أرواحِهم. فهم ليسوا لا مؤمنين ولا كفرة، إنّهم يؤمنون بالأرواح، وظنّهُم أنّ الرّوح تنتقل من جسدٍ إلى جسد، وفي قلْبِ حجارةِ الصحراء، ويعتقدون أن شجاعةَ المرءِ هي روحُه الحقيقية، وهكذا دواليك. ويقدّرون أن المنتصرَ في الحرب هو مَنْ يُبدي القدْرَ الأكبر من الشجاعة والإقدام.

– أهكذا إذاً؟ قال أرماند في ذُهولٍ، لكنّ ملامحَ وَجْهِه ما انفكّت تقول إنّ في خَلَدِه بقيّةً من أسئلة حائرة.

– ففي اعتقادِهم أنّ الرقم ثلاثة مقدّسٌ في الحرب، واصل آرن من حيثُ توقّف أخوه في السلاح. يمكننا أن نفهم ذلك على نحو ما، لأنّ ضربةَ السيف الثالثة، حين نواجهُه، هي الأخطرُ دائماً. ومع ذلك فإنّ من لَقِيَ حتفَه هو فارسُهم الثالث. وأمّا العدوُّ الذي يسمُّونه القوطي فقد أظهَر من الشجاعة أكثرَ ممّا أُتيح لهم منها. وعليه إذاً فهو الذي سيكسبُ هذه الحربَ وليس صلاح الدين. وسوف يَشيعُ هذا الخبرُ في معسكرِهم ابتداءً من هذا المساء.

– لكنْ يا سيّدي، ماذا لو كانوا انقضّوا عليكَ، فيما كنتَ وحدكَ، وجهاً لوجه، هناك!

– لو فعلوا لكانوا ماتوا جميعاً، ولَكان القليلُ مِمّن عاش منهم رأوني أستقبلُ السهمَ تلوَ السهم فلا أموت، ولكانوا أشاعوا أسطورةَ خلودِي في النهاية. لستُ أدري إن كان في الأمر ما هو أفضلُ وأجدر، لكنّ صلاح الدين يُعِدُّ منذ الآن

Twitter: @ketab_n

بالتأكيدِ ضربتَه القادمة، وسنشهد ذلك قبل مجيء الليل.

وبعد أن انجلَى عنه الخوفُ من أيّ هجوم، أرسل آرن نصفَ المدافعين الواقفين على الأسوار إلى حيثُ يستعيدون قواهُم بالطّعام والشراب، ويَنْعَمون بقسط من الرّاحة. وعَبَرَ هو المدينةَ في طريقِه إلى القلعة لكي يُقيم صلاةَ الغروب، ويدعو مع الفرسان الآخرين قبْل مجيءِ ساعة العشاءِ التي يحينُ معها موعدُ استراحةِ نصفِ فريقه، ووقتُ أداء واجب الحراسة للنصف الثاني. كانت بوّابةُ المدينة مشرّعةً دوماً على مصراعيها، وكأنّها تُراهن على صمودها وتتحدّى، لكنْ لا شيءَ كان ينبئُ بأنّ صلاح الدين يُدبّرُ هجوماً أو يُضمِرُ شرّاً.

زحَف العدوُّ في تلك الليلة في ساعةٍ متأخرة، في صورةِ رجال أرهقهم جرُّ العربات المحمّلة بالعجلات والحبال والدّعامات الضخمة. ثمّ جعلوا يُركِّبُون مجانِقهُم وآلاتٍ حربيةٍ أخرى التي بدأت تقذفُ كُتَلها الصخرية صوبَ أسوار غزّة.

وقَف آرن في أعلى السور متأملاً سابحاً في أفكارِه. فلم يكد يسمعُ الحديثَ عن آلاتِ الحصار تلك حتّى خفَّ إلى حيثُ يقف الآن مستغرقاً في أفكاره الحائرة. وإلى بعيدٍ بدا الهدوءُ مهيمناً على معسكر العدوُّ حيت تتوهّجُ آلافُ النيران بالقرب من المخيمات، وحيثُ الجندُ لاشكّ مُقبِلون الآن على الطعام والشراب. وقد لاح له أنّ صلاحَ الدّين لم يُهَيّئْ لآلياتِه سوى القليل من الحماية إذ لم يُحِطْ بها سوى نحو مئة من الجُند المشاة وعدد قليل من الفرسان.

فإنْ تأكدت صحةُ ذلك فهي فرصةٌ من ذهَب لا محالة. فلو علِم صلاحُ أنّ في القلعة ثمانين فارساً من فرسان هيكل الربّ لَمَّا أقبل في جرأةٍ على مثل ذلك الفعل المُميت. ولذا فليَأْمُر آرن رهبانَه بأنْ يهجُموا معاً دفعةً واحدة، ليُدمّروا ويحرقوا هذه الآليات، ويقتُلوا مهندسيها أيضاً.لكنْ قد تَلْبَدُ عند الغسقِ سَرِيَّةٌ من الفرسانِ المماليك دون أنْ تلمَحَها العيونُ الساهرةُ من أعلى أسوار المدينة. لكنْ مهما قيل في العدوِّ المقيتِ فالحماقةُ ليست من معايبِه.

أمر آرن برفْع الجسرِ المتحرّك، وإغلاق بوّابة المدينة. فاليومُ الأوّل من الحرب – التي دارت رحاها في العقول أكثر مما دارت في ساحة الوغى- انتهى وانطوى. فلا

Twitter: @ketab_n

أحدَ فيه انخدع بأحد، ولم يَقْضِ فيه نحبَه سوى رجلٍ واحد فقط. لكنْ لا شيءَ من هذه الحرب حُسِم في هذا اليوم و قد قرّر آرن أنْ يذهب لِيَخْلُدَ لِلَيْلٍ من النوم العميق، وهو يعلم أنّ ليلَه ذاك لن يليَهُ ليلٌ مثيلٌ إلاّ بعد وقتٍ طويل.

صعد آرن إلى الأسوار بعد صلاةِ الصبح، وفيما كان نورُ الفجر ينحرف شيئاً فشيئاً من السوادِ الداكن إلى لون الغَيم الأرمدِ إذا به يكشف جيشاً كثيفاً مختبئاً وراءَ طَيَّةِ أرضٍ، إلى يمين الآليات التي ما انفكّت أصواتُ المطارقِ تطِنُّ بالقرب منها. لقد لَمَحَ هناك نحو ألف رجلٍ فتأكدّت بذلك مخاوفهُ السابقة. فلو أرسل فرسانَهُ لتدمير الآليات، على نحو ما أراد صلاحُ الدين أن يُغريه به ويُوقِعَه فيه لماتُوا جميعاً. ثمّ ابتسم حين تخيّل تلك الليلةَ العسيرة التي أنفقها أولئك الفرسان، خامدين صامتين فوق ظهور خيولهم، ينتظرون في وجَلٍ نزولَ الجسر المتحرّك هناك، ليندفع منه صفّان من الفرسان بملابسهم البيضاء، نحوَ الموت! ثمّ ما لبث أن حدّث نفسَه قائلاً: "مهما عملتُ في المستقبل، وأيّاً كان العمرُ الذي سوف أحياهُ فلن أقدّر صلاح الدين دونَ قدرِه ما حييت!"

كان الوقتُ وقتَ تبديل الحراسة، فبدأ الرُّماةُ بسيماهم المُمْتَقِعَة بنزول الأسوار، فيما شرَعت الفرقُ المُنْتَعِشة في الصعود لكي تحلّ محلّهم، وتُحيّي إخوتَها وتتسلم منهم أسلحَتها.

انصرفَ ذهنُ آرن إلى فكرةٍ ملحّةٍ واحدة، وهي أن يؤخّر صلاحَ الدين لأطولِ وقتٍ ممكن أمام غزّة، حتى يحميَ القدسَ والقبرَ المقدّس من هجوم الكفرة عليهما. وقد أعدّ للفكرة مخطّطاً بسيطاً، أو بالأحرى لا يكلّفُ إعدادُه عناءً طويلاً.

إلاّ أنّ بلوغَ ذلك النجاح سيكلّفه، ويكلّف إخوته الفرسان، بعد نحو شهر، حياتَهم لا محالة. فلم يسبق أنْ نظر للموت بهذه النظرة، قريباً بيّناً جليّاً. لقد جُرِح في المعركة مراراً وحظي في كلّ مرّة بالخروج منها سالماً معافى، فبرُمْحِه المصوَّب صَدَّ هجومَ العدوّ وانقضّ على أعدادٍ منه لا تُعدُّ ولا تُحصى. لكنّ ذلكَ لم يَعْنِ له الموتَ بتاتاً، لم يجد لذلك تفسيراً، لكنّه كان يشعُر دوماً أنّه باقٍ على الحياة بعد كلّ المعارك التي سيشارك في خوضِها. ولم يَعْرِفْ عزاءً أو سلوَى من وَعْدِ الذهاب إلى الجنّة، لأنّه لم

Twitter: @ketab_n

يُؤمن يوماً بأنّه سيلقَى الموت يوماً. كان يعلم أنّه لن يموت، وأنّه سوف يُنْهي عشرين عاماً من القصاص، وأنّه سوف يعود إلى البلاد، إلى النفْسِ التي وعدَها بالشرف والسيف المُكَرَّس بأنّه عائدٌ في النهاية لا محالة. فهو لن يخلِف الوعدَ، لأنّ الربَّ لن يغفِر له إنْ هو أخلفَ وعدَهُ.

لكنْ، بينما كان يقِف هناك في أعلى الأسوار، عند ذلك الفجر الجديد الذي ازداد شحوباً، وحين أضحى فخُّ صلاح الدين أكثرَ وضوُحاً، مثل فاكهةٍ في الخيالِ استحالتْ حقيقة – من صهيل الخيول في قلبِ الظلام، وقَعْقَعات الرُّكبِ، إلى ذلك الذهبَ على الألبسة العسكرية الذي بدأ يتلألأ تحت أشعّة الشمس الأولى- إذْ به يرى موتَهُ فجأة. فلن تصمُد غزّةُ أكثرَ من شهرٍ واحد أمام هؤلاء الذين جاؤوا لحصارِها! وما أكثرهم عدداً وعُدّة! كان ذلك واضحاً جليّاً، لو حُسِب فقط حسابُ ما يَقْدِرُ عليه الرجالُ وليس ما يمكن أن تَمُنَّ به عليهم معجزةٌ من معجزات الربّ. فليس من اليُسرِ أن نُمنّي أنفسِنا بالمعجزة دائماً، فالربُّ صارمٌ مع مَنْ يؤمنون به!

ثمّ إذا به يرى سيسيليا أمامَه فجأة. رآها وهي تتوجّه نحو بوّابةِ دير غودِم. لقد استدارَ والدموعُ تملأ عينَيْه قَبْلَ أنْ تتوارَى خلفَ الأسوار.لَكَمْ كانت الحياةُ مختلفةً في تلك الفترة! فبعد كلِّ هذا الوقت الطويل الذي أنفقَه في الأرض المقدّسة لم تعُد سيسيليا تُشْعِرُه أنّها كانت ذات يومٍ كائناً حقيقياً. وقد حدّث نفسَه قائلاً: "إلهي، لماذا أرسلتني إلى هنا؟ لماذا قضيتَ بأن أكون فارساً لا غنىً عنه بين فرسانِك، ولماذا لا تحفلُ بسؤالي أبداً؟"

لكنّه ما لبث أن خجل من شطَطِ التفكير على ذلك النحو في حضرةِ الربّ الذي يسمعُ كلّ الأفكار، وارتبك أيما ارتباكٍ مِن أمْرِ اهتمامه المفرطِ بما يعنيه وحده دون سواه، ومِقدارِ ما يُوليه لغاياته الخاصة قبْلَ اهتمامه، هو الفارسُ في هيكلِ الربِّ، بغاياته الأسمى. فمنذ زمنٍ بعيد لم يَعْتَرِه هذا الضعفُ، ولذلك أخذ في الحالِ يلتَمِسُ العفْوَ من ربّه، وهو يجثُو فوق الأسوار، فيما كانت الشمسُ تطلع على جيشِ العدوّ وتُراقِص الراياتِ والأسلحة.

Twitter: @ketab_n

كان من الواضح أنّ صلاح الدين قد حاول استدراجَهم ليلاً إلى كمينٍ أمام الأسوار. لكنْ من الواضح أيضاً أنّ مِنْ صالحهم أن يباغتوا العدوّ فيُدمّروا آلياتِه أو يحرقوها. فلن تقاوم غزّةُ طويلاً كُتَلَ الصخرِ والنيران الرومية، وسوف لن يجدَ الرجالُ والنساءُ والأطفالُ والحيوانُ بُدّاً من اللجوء إلى القلعة والتكدّسِ فيها.

لم يُقدّر صلاح الدين جموعَ الفرسان داخلَ المدينة لأنّ رجالَه لم يروا سوى سَرِيّة قوامُها ستة عشر فارساً. ولمّا لم يرَ في تلك الليلة الأولى هجوماً وإنْ تضافرت كلّ الأسبابِ لحدوثِه، فقد قدّر أنّهم أقلاّءُ فلن يُقدِموا على مثل ذلك الهجوم. فلا ضَيْرَ للمسلمين إذاً من أن يضربوا في وضَح النهار، في أوقاتِ العمل وأثناء الصلاة، أي في الأوقات التي تقلُّ فيها أُهبةُ العدوّ لصدّ ذلك الهجوم. لكنْ، هل قدّروا كم يكلّف ذلك من أرواحٍ بشرية، وهل ساءلوا أنفسَهم هل سيكون الثمنُ باهظاً؟

قدّر مدرّبُ المسايفة أنّ الأحوال أضحت سانحةً مواتية، فآلياتُ العدوّ منتصبةٌ بالقرب من الأسوار، والأرضُ أمامَهم منحدرةٌ ما دامت المدينةُ على ارتفاع. فلو باغتوا العدوَّ بالهجوم لتمكّنوا من الوصولِ إليه قبل أن يجمَع قواه وينطلق في الهجوم المضادّ. بل لعلّ في الإمكان إضرامَ النّار في آلياتِه. فلا شكّ أنّ الهجوم سيكلّف نحو عشرين من الرهبان، لكنّ الثمن في رأي مدرّب المسايفة جديرٌ بالدفع لأنّ حياةَ عشرين فارساً سوف تُمدّدُ الحصارَ لشهرٍ آخر على الأقلّ، وتُمهّدُ لإنقاذِ القدس.

وافق آرن على ذلك الرأيِ وهزّ الباقون رؤوسَهم. وقد قرّر فيما بعدُ أن يقود الهجومَ بنفسِه، وأنّ الرهبان جميعاً سيشاركونه فيه، ومعهم مَنْ تُعفيهم الحربُ في الأوقات العادية، حين يصابون بجروحٍ طفيفة. فلو شرَعوا منذ الآن في إعداد قِرَب القارِ والنّارِ الإغريقية فقد ينطلق الهجومُ في أشدِّ الأوقات حرّاً وعند ساعةِ صلاة الكفرة. وكذلك كان القرارُ، وعاد آرن إلى أعلى الأسوار حتى يُظهِر نفسَهُ أمام أعينِ المدافعين والمحاصِرين على السواء. ولم يكد يصل إلى أعلى الأسوارِ حتى أمَر بفتْح بوابةْ المدينة وإنزال الجِسر المتحرّك. وكما توقّع فقد أثار ظهورُه بعضَ الهياج في معسكر العدوّ، لكنّ رجالَ العدوّ لم يروا شيئاً ممّا توقّعوا فاستأنفوا في الحالِ أعمالهم.

Twitter: @ketab_n

تجوّل آرن حول قلاع المدينة التي تحتضن القلعةَ والميناءَ من أقصى الشمالِ إلى أقصى الجنوب. وفي غربِ المدينة كان الخندقُ عميقاً تملؤه مياهُ البحر، فكان بذلك أكثرَ الأجزاءِ المحميّة في غزّة وأكثرِها منأًى عن أيّ هجوم في بداية الغزو. أمّا الجزءُ المعرّض لشرّ الجزاءِ فهو يقَع إلى الشرق، بالقرب من البوابةِ حيث نَصبَ صلاح الدين آلياتِه. لكنّ خيّالتَه لنْ تجديه نفعاً ما دامت الأسوارُ صامدة، وسوف يضطربُ مماليكُه ويزدادُ توتّرهم كلّما أنفقوا مزيداً من الأيّام في الانتظار. وستكون معركةُ المدينة الفاصلة إذن بالقرب من البوّابة، يخوضُها نبّالو غزّة ومشاةُ وحفّارو صلاح الدين الذين سيحاولون عُبورَ الخندق ثمّ الاقترابَ من الجدارِ لكي يُلْغِموهُ ويفتحوا فيه ثغرةً يُلقي فيها صلاحُ الدين بِفُرسانِه. لقد قدّر آرن ذلك الذي سيحدُث بعد حين: فقريباً ستنتشِرُ نتانةُ العرب المسلمين في أرجاءِ المدينة، مثل رائحة الجِيَف، ومن حُسْن الحظّ أن مَهَبَّ الريح آتٍ من الغربِ، فهو يضربُ الآن في اتجاهِ مَنْ يضربون الحصارَ على المدينة. لكنّ الأمر، رغم كلّ شيء، تحدٍّ ضدّ الزمن. فلو شاء المهاجمون أن يُسقطوا أسوارَ المدينة لكان لهم ذلك إنْ أصرّوا! وإن شاؤوا بعد ذلك أن يَهدموا أسوارَ القلعة كان لهم ذلك أيضاً، وساعتها لا أمَلَ في وصولِ أيّ نجدةٍ من القدس أو من عسقلان، شمالاً. فغزّةُ بكاملِها بين يدَي الربّ!

عند منتصف النهار جِيءَ بِـ"خَمْسين"، حصانِ آرن المفضّل، مُسرَّجاً مُجَلَّلَ الخاصِرتَين بزرْدٍ وغطاء. فالهجوم القادمُ سيكون عسيراً خطيراً على الخيول، وأهون على الفرسان. بيد أنّ آرن اختار خمسينْ لهذا الهجوم لأنّ الحركةَ والسرعة أشدُّ وأقوى من صدمة المجابهة. فعلى أيّ حالٍ سوف تفترق بعد قليل دُرُوبُهما على نحوٍ من الأنحاءِ، وليس مُهمّاً بعد ذلك مَنْ مِنَ الاثنين سوف يموتُ قبل الثاني.

فمِن خلفِ باب القلعة يتأهّب الفرسانُ الآن للخروج وهُم يردّدون آخرَ الأدعية قبل الهجوم الذي سيكون بلا ريب آخرَ هجوم في حياة الكثير منهم، بل قد يقضي جميعُهم نحبَهم فيه إن كُتِبت الغلبةُ للعدوّ في الهجوم، أو إنْ قَدّر الربُّ لهم ذلك!

لم يرَ آرن من المكان الذي اعتاد الوقوفَ فيه أيَّ شيءٍ يدلّ على أنّ العدوّ قد اشتمّ رائحةَ الخطر الذي بات وشيكاً. فلا أثرَ لمفرزةٍ من الخيّالة بالقرب من المكان.

Twitter: @ketab_n

أمّا بعيداً عنه فلا شيءَ سوى فرقةٍ من الخيّالة كثيرةِ العدد تُجري تدريباً عادياً لا شُبهةَ فيه. وفي داخل المعسكر نفسِه خيولٌ كثيرةٌ ماكثةٌ في زرائبها تلتهم طعامَها في هدوء. ولا أثَر لسَريّة من الخيول بالقرب من المكان، لأنّ الرؤيةَ في نور النهار لا تخفِي طيفاً. فالوقتُ وقتُ هجوم إذاً!

جَثا آرن ودعَا ربَّه أنْ يكونَ لهم عوناً في هذه المجازفةِ التي قد تؤول بهم إلى خسارةٍ كاملة، ويضِيع فيها من المؤمنين طوافُ قبْرِ المسيح المقدّس. بعد ذلك استودَع آرن الربَّ حياتَه، وتنفّس بعمقٍ، ثمّ نهض لكي يُعطي إشارةَ البدءِ في الهجوم، وينزِل بعد ذلك ليلتحقَ بـ"خمسِين" وقد عيلَ صبرُه فصارَ يضربُ الأرضَ بقوائمه ضرباً. لقد وَجد سائسُه صعوبةً في الإمساك به والتخفيفِ من هياجِه. كان الحصانُ يحسُّ على نحو من الأنحاءِ أنّ أمراً جلَلاً وعويصاً قد بات وشيكا، ولذلك السبب كان تهيُّجُ خمسينْ أمراً جليّاً لا غرْوَ فيه.

ثمّ إذا بآرن يلمَحُ فرساناً يحمِلون شارةَ صلاح الدين، وهم يقتربون من بوّابةِ المدينة في صفوفٍ متراصّة، ثمّ إذا بهم يقِفون على مسافةٍ معلومةٍ من الخندق، ثمّ يصطفّون للمواجهة، ثمّ يتقدّم أحدُهم مُنكّسَ الراية، مُفْصِحاً بذلك عن نيّةِ المفاوضة. وفي الحال يأمرُ آرن فرسانَه بألاّ يُطلقوا عليه سلاحَهم.

أسرَع آرن في النزول إلى الميدان عبْر الأدراج، ثمّ وثبَ فوق ظهر "خمسين" وخرج به يعدُو من بوّابة المدينة، ثمّ توقّف بالقرب من الأمير الذي تقدّم بمفردِه وهو لا يكاد يدري أنّه أصبح فريسةً سهلةً لأحدِ القنّاصة الواقفين في أعلى الأسوار. ونكّس الفارسُ المصري رايتَه حتى لامستْ الأرضَ وأطرقَ رأسَه حين صار على قاب قوسين أو أدنى من آرن.

– أُحيّيكَ باسم الله الرحمن الرحيم، أيْ القوطي، أنت من يُتْقِنُ الحديثَ بلغة الربّ، قال المفاوضُ حالَما صار آرن في وجْهه.

– وبِدوري أدعو سلامَ الربّ عليك، أجاب آرن جزِعاً نافدَ الصبر. فأيُّ رسالةٍ تحمل، ومَنْ أرسلك؟

– إنّ مَنْ بعثني إليكم هو.. لقد أمرَني بأنْ لا أذكرَ من الأسماء إلاّ اسم يوسف،

Twitter: @ketab_n

وإنْ تعدّدتْ ألقابُه ومزاياه. أمّا الرجالُ الذين تراهُم من خلفِي فهم على استعدادٍ لأنْ يكونوا رهائنَ عندما تنتهي المفاوضة!

- انتظرني هنا! سأعود بعد قليل ومعي من يواكبني في المفاوضة. قال آرن، قبل أنْ يستدير وينطلقَ نحو المدينة وهو يعدو عدواً سريعاً.

ولم يكد يتوارَى خلف الأسوار حتّى بطَّأَ سَيْرَ حصانه، ثمّ انحدر في غير عجَلٍ عبْر الشارع العام في المدينة، لا يعوقُه عائقٌ، في اتجاهِ بوّابةِ القلعة الحصينة. ومن خلفِ تلك البوّابة كان فرسانُه الثمانون ينتظرونه فوق مَطاياهم، آخِذين أُهْبَتَهُمْ للهجوم، فَلِمَ لا يضربون ضربتَهم الآن لتكون مباغتةُ العدوِّ كاملة؟ فلن تُتاح لهم عاجلاً مثلُ هذه الفرصة لتدمير آليات المحاصِرين وحرقِها!

قال بعضُ المسيحيين إنْ لا خوفَ مِنْ نَكْثِ الوعدِ إذا كان الوعدُ الكاذبُ يحقّق النصّرَ على العرب المسلمين، ما دام الوعدُ باطلاً بين المؤمنين والكفرة. فأيُّ وعدٍ مضروب لغير المؤمنين لا اعتداد به. فالحالُ أنّ آرن قد شَرع في التفاوض وفي ذلك وعدٌ. لكنّ الإجماعَ لم يكتمِلْ حول تلك المسألة. ثمّ ألَمْ يكنْ سيدُ القدس قَبْلَ ذلك بقليلٍ قد وافقَه القولَ بأنّ الوعدَ المضروبَ لصلاح الدين بالقرب من الجُرفِ الصخري عند البحر الميّت وعدٌ مقبول؟

لكنْ، أليس من دواعي الزّهْوِ والكبرياء تعْليقُ كلّ ذلك الاهتمامِ على مقامِه؟ فعلى الكفّة الأخرى من الميزانِ قد تقِفُ القدسُ وقبرُ المسيح المقدّس! ألا يكفِي وَعْدٌ منكوثٌ ولحظةٌ قصيرةٌ من المكرِ والرياء لإنقاذ القدس؟

- لا، قال آرن مُحدِّثاً نفسه. فلو تصرّفنا على هذا المنوال فلن نحقّقَ سوى كسْبِ مزيد من الوقت. فآلياتُ الحصار سوف تُستبدلُ سريعاً بغيرها بعد تدميرها، لا، فالوعدُ وعدٌ لا رجوع فيه!

أمَرَ إذاً بفتح باب القلعة، ثمّ دخلها وأمَرَ إحدى سراياه بأن تسيرَ خلفه، قائلاً لبقية السرايا أن تنزِل من على سُروجها وتخلُد لبعض الراحة، يقيناً منه أنّ صلاح الدين، من ناحيتِه لن يوقِعَه في كَمين.

وعلى رأس تلك السريّة عبَر غزّةَ وهو يخُبُّ خبّاً، وإلى جانبِه حاملُ رايةِ رهبان

Twitter: @ketab_n

الهيكل. ورحل عن المدينة على وجه السرعة، وبالقرب من حاملِ راية أهل الشرق الذي عِيل صبرُه من طول الانتظار أمَر رجالَهُ بأن يُنظِّموا صفوفَهم تأهّباً لصدِّ أيّ بَلْوَى، وعمِل الخصمُ مثلما عمِلوا. وأخذ الفريقان يقتربان أحدُهما من الآخر بخطىً حثيثةٍ إلى أن بات كلُّ فريقٍ على مرمَى سهْم من الفريق الآخر. وتقدّمت مجموعةٌ من خمسةِ فرسانٍ من عربِ الشرق نحو آرن الَّذي أقْبَل على الرهائنِ الوافدين عليه. وما لبث الفريقان أن تهيّآ للتلاقي.

تعرّف من بين كلّ الرهائن على فخر، الأخِ الأصغرِ لصلاح الدين. أمّا الآخرون فلم يكن له عهدٌ بهم بتاتاً، وألقَى التحيّة على فخر الذي ردّ عليه بمثلِها.

– يا له من لقاءٍ يجمعنا بأسرعِ ممّا توقّعنا، قال آرن.

– هذا صحيح، أيها القوطي، وفي أحوالٍ لم يتمنّها لا هذا ولا ذاك، لكنّ البصيرَ العليمَ شاء غيرَ الذي شاءَه هذا وذاك.

هزّ آرن رأسه ثمّ قال إنّه سيكتفي بِأخذ فخرٍ رهينَة. وبعد ذلك أمَر أرماند بأن يسهرَ على إكرامِ الضيف، وإنْ أمكن أن لا تقَع عينا الرّجلِ على الكثيرِ من الفرسان بِلباسهم الأبيض، ولا على الكثير من دفاعاتِ المدينة.

مرّ فخرُ أمام آرن الذي انضمّ بدورِه إلى المماليك. ونسَج فرسانُ الهيكل حراسةً حول فخر والتفّ المماليكُ حول آرن، ثمّ افترق الفريقان.

استقبَل صلاحُ الدين زائرَه في احترامٍ جمّ فاق ما يليق بمقامِه. وسار نحو ألفِ فارسٍ أمامَه أرتالاً عند نهاية المسار المؤدّي إلى خيمةِ صلاح الدين. ولم يُطلِقْ أحدٌ تهكّماً أو سخريةً أثناء هذه الجولةِ القصيرة على الخيل.

وقف حرسُ صلاح الدين في صَفَّيْن أمام خيمتِه وأقاموا سياجاً شرفياً من السيوفِ والسهام حتى مدخلِ الخيمة. وترجّل آرن، وفي الحال اندفع أحدُ الجنود نحو جوادِه وأمسكِ بلجامِه ليُعنَى به. ولم يَنْحَنِ آرن وظلّ هادئ الأعصاب إلى أنْ تجرّدَ من سيفِه جرياً على العادة، ثمّ مدّ السيفَ إلى الرجل الذي ظنّه أعلى الرجال في رُتب ذلك الحرَس، لكنّه ما لبث أن فوجئ بذلك الرجلِ وهو ينْحَني له ويدعوه لأنْ يُعيد السيفَ إلى غمدِه فَفعَل.

Twitter: @ketab_n

دخل إذاً والسيفُ على جنْبِه، وحين رآه صلاحُ الدين نهضَ في الحال وسارع إلى استقباله ثمّ أمسك بِكلتا يديه وكأن الرجُلين صديقان قديمان.

وتبادلا التحيّةَ في ودٍّ جمٍّ اندهَش لِحرارتِه كلُّ الرجال الذين مثَلوا داخل الخيمة. وعندما أَلِفَتْ عينا آرن عتمةَ الخيمةِ رأى من حولِه وُجوهاً مندهشة. وأشار إليه صلاحُ الدين بأنْ يجلس على الأرض في وسطِ الخيمة حيث انتصب سرجُ أحدِ الجمال المرصّع بأحجارٍ كريمة ونقوشٍ من الذهَب والفضّة، مُقابل مقعدٍ ثانٍ من ذات الطراز. وانحنيا كلاهُما الواحدُ للآخر قبل أن يجلسا. وجلس الحاضرون على البُسط على طول جدرانِ الخيمة.

– لو شاء الله أن نلتقي في مكانٍ آخر لكان عندك وعندي الكثير لنقوله، أيّها القوطي، قال صلاح الدين.

– أجل. لكنّ الحقيقةَ أيّها الملكُ المنتصر أنّك تُحاصِر أرضي بفُرسانك وآلاتك. فأنا إذاً أخشى أن يكون حديثُنا قصيراً مُقتضباً.

– أترغب في معرفة شروطي؟

– أجل، وكنتُ سأرفُضها، لكنّ الاحترامَ الذي أُكنّه لك يأبَى ألاّ أسمعها منك. هاتِها دون لفٍّ أو دوران، لأنّه ما من داعٍ لأنّ يُغرّرَ أحدُنا بالآخر بكلماتٍ ملؤُها المداهنةُ والرياء.

– سأمنحُك جوازَ مُرور، لك ولِرجالك، وأعني برجالك الإفرنجَ وليس هؤلاء الذي خانوا الدينَ الحقَّ وغَدروا بالجهاد المقدّس. هؤلاء الذين اختاروا العملَ إلى جانبك طمَعاً في المال. بإمكانك أنْ تغادر الساحةَ دون أن ينال منك سهمٌ واحدٌ. فأنت حرٌّ في أنْ تذهب إلى حيث تشاء: عسقلان، القدس، أو إلى واحدةٍ من قلاعكم في فلسطين أو سوريا. هِيَ ذِي شروطي.

– لا يمكن أن أقبل بها. وكما قلتُ لك فنحن لا نستطيع أنْ نتحادث في الأمر طويلاً.

– إذاً ستموتون جميعاً. وذاك ما ينبغي أيها القوطي أن يعرِفه محاربٌ من طينتِك. أنت بالذّات أكثرُ من أيّ شخصٍ آخر. إنّ ما أحمِلُه لك شخصياً من وُدٍّ لأسبابٍ

Twitter: @ketab_n

لا يعرفها أحدٌ غيري وغيرُك في هذه الخيمة هو الذي استحثّ عندي هذا الذي عرضتُه عليك، ويراه أُمرائي عرْضاً لا يُجديني نفعاً. وتقضي الأصول أنّ مَنْ يَعرِض عن مثلِ هذا العَرْضِ لا رجاءَ له في العفْوِ إنْ هو لقِيَ الهزيمة.

– أعرف يا يوسف، قال آرن وهو يؤكّد بلهجةٍ كادت تخدِش أُذُنَ صلاح الدين، أنّه يخاطبُ قائدَ جيش المؤمنين باسم "يوسف" اسمِه الشخصي وحده. أعرف، أعرفُ القواعدَ كما تعرفها أنت تماماً. أنت مُجْبَرٌ على أخْذِ غزّة بالقوّة، وسوف نُدافع نحن عن أنفسِنا حتى النهاية. وأمّا مَن وقَع بين يديك جريحاً أو سالماً فلا شيءَ ينتظرُه غير الموتِ لا محالة. وظنّي يا يوسفُ أننا لا نملك شيئاً آخر نقولُه بعد الآن.

– قل لي بربّك، ما الذي جعلك تأخذ قراراً أحمق كهذا، قال صلاح الدين وقد اكفهرّ من فرطِ الحزن والكآبة. أنا لا أتمنّى موتَك وأنت تعرف هذا، ولذلك منحتُك فرصةً ما كنتُ لأمنحَها لغيرك، فيما قِوانا تفوق قواكُم عدداً وعُدّة، ولعلّك تلمّستَ هذه الحقيقة. فما الذي يجعلك تتصرّف هكذا وأنت قادِرٌ على إنقاذ رجالك؟

– لكي أُنقذ ما هو أهمُّ من ذلك، قال آرن. إني أفكّر مثلك وأقول إنْ حاصرتَ غزّة فسيُكتَبُ لك النصرُ في غضونِ شهرٍ، وسأموت أنا هُنا – إن قَدّر الربُّ ذلك ولم يبعَث لنا معجزةً تحقّق خلاصَنا! أجَلْ، فالأمرُ جائزٌ ومعقول!

– لكنْ لماذا، أيّها القوطي، لماذا؟ ألحّ صلاحُ الدين في السؤال، في ضَجَرٍ وتبرُّم. إني أمنحك حياةَ رجالِك وأنت تضحّي بهم، لماذا؟

– ليس من الصعب أن تستشفَّ السرّ يا يوسف، وأنا على يقينٍ أنّك في الواقع تُدرك ذلك جيداً، أجاب آرن وقد شعَر فجأة بوَميض من الأمل يتوهّج في أعماقه. أراك قادراً على أخذِ غزّة، وإنّي لأُقرُّ بذلك. لكنّ ذلك سيكلّفك نصفَ جيشِك، ووقتاً ثميناً، وفي هذه الحال فلن يكون موتي عَبَثاً. سوف أموتُ للسبب الوحيد الذي أعتقدُ أنّه السبب الذي يجب أن أموتَ من أجله، وأنت تَعِي تماماً ما أقول. لستُ أرغب في أن أَدينَ لك بحياتي، وأفضّلُ أن أموت بعد أن أرى جيشَك وقد تقلّص إلى قوّةٍ لا تسمح لك بأنْ تذهب بها إلى أبعد ممّا ذهبت. ها! لقد عرفتَ الآن السبب.

Twitter: @ketab_n

– إذاً حقاً لم نعد نملكُ شيئاً آخرَ نقوله بعد الآن، قال صلاحُ الدين بدوره في النهاية، وهو يهزُّ رأسَه كئيباً كاسِفَ البال. انصرفْ في أمانِ الله واحرصْ على أن تُقيم صلوات اليوم. وغداً سيصبح السِّلمُ مجرّدَ ذكرى...ليس إلاّ!

– وأستودعكَ الله أنا أيضاً، قال آرن الذي نَهَض وهو ينحني أمام صلاحِ الدين في احترام جمّ قبْل أن يستدير ويغادر الخيمة.

وفي طَريقِه نحو بوّابة المدينة التقَى بِفخر الذي لجَم حصانَه ليستقصِيَ منه حقيقةَ الأمر. وأجاب آرن أنّه رفَض شروطَ صلاح الدين حتى وإنْ كانت أقلَّ قسوةً ممّا ظنّه بكثير.

هزّ فخرُ رأسَه وغمغم بأنّ ذاك حقاً هو ما قاله لأخيه: إنّ أكثرَ العروض سخاءً لا تلقَى إلا ازدراءً واستخفافاً.

– أقول لكَ وداعاً أيْ القوطي، واعلمْ أنّي مثل أخي حزينٌ حين أفكّر فيما سيحدُث بعد الآن.

– وأنا أيضاً يا فخر، أجاب آرن. يبدو أنّ أحدَنا سيموت، لكنّ الله وحده يعلم مَنْ مِنّا.

وانحنَيا في هدوءٍ، كلّ منهما أمامَ الآخر، ولم يزيدا على ما قالاه حرفاً واحداً. وانصرفا كلٌّ في سبيلِه، تجرُّهما خُطىً بطيئة وأفكارٌ سابحةٌ متأمّلة.

لم يكد آرن يدنُو من باب المدينة حتّى بدأ يُغذّي الأملَ والرجاء: هل أحسَّ صلاحُ الدين وهو يرى كَرَمَه يُصَدُّ في ازدراءٍ أنّه قد أُهين أمام أمرائِه إلى الحدّ الذي يجعله يغسِل تلك الإهانة بالاستيلاءِ على غزّة، ويحرِمُ نفسَه من فرصةِ مواصلة طريقِه نحو القدس. لكنْ، من الجليّ كما قال صلاحُ الدين أنّ كلّ الرجال الذين يحمِلون السلاح من خلفِ أسوار غزّة، وكلّ الكفرة الذين يُقدّمون للمسيحيين السّندَ والمؤازرة سيَمُوتون في النهاية، ومعهم سيموت آرن نفسُه لا محالة. لكنّ يقينَ آرن ما لبث أنْ داخله بعضُ الحزنِ لأنّه سيحجُبُ عنه أملاً طالما داعبَه في العودة إلى بلادِه سالماً معافَى. سيموتُ في غزّة إذاً! لكنّ ذلك يُفرِحه أكثرَ ممّا يُحزِنه، لأنه سيموت في سبيلِ إنقاذ المدينةِ المقدّسة، وقَبْرِ السيّد المسيح فيها. هكذا يلُوح الأمرُ وليس في

Twitter: @ketab_n

الأمر حيلة. لقد كان طيلةَ هذه السنوات مُعرّضاً لأن يموت في أيّ مناوشة مع أعداء من الدرجة الثانية، من دون أن يكون لموتِه أثرٌ من الآثار على المدينة المقدّسة. لكنّ الربّ يَهَبُهُ اليومَ ويهَبُ إخوانَه فَضْلَ الموتِ من أجل القدس، وتلك خطوةٌ لاشكّ فيها، لأنّ القدسَ قضيّةٌ قلَّ من يموتُ من فرسان هيكل الربّ في سبيلِها.

* * *

في صباحِ اليوم التالي ّفض صلاحُ الدين مُعسكرَه وانطلق بفِرَقِه في صفوف طويلةٍ على الساحلِ، مُتّجِهاً نحو الغرب وعسقلان، ولم يتركْ من خلفِه جندياً واحداً.

ومن على الأسوار شاهدَ سكانُ المدينة العدوَّ وهو يتوارى عن أنظارهم، وشكروا آلهتهم — التي لا تمتُّ لربّهم الحقيقي بأيّ صلةِ البتّة- ثمّ ساروا في تتابُع أمام آرن الذي وقَف عند باب المدينة وقد لعبتْ به مشاعرُ متناقضة، وهُم ينحنون أمامَه ويشكرون ما تحمّله من أجلِ خلاصِهم. وقد سرَت في المدينة إشاعةٌ تقول إنّ حاكمَ الحصنِ قد أفلَح على نحوٍ من الأنحاء في إثارةِ الخوف في نفْسِ صلاح الدّين، بِطُرقٍ سحريّة، أو بتَهديدِه بِنِقْمةٍ سيُنْزِلُها به القتلة أولئك الذين تفانَوا حتّى الهلاك في سبيل فرسان الربّ. لكنّ آرن تضاحك ازدراءً واستخفافاً حين بلغَه نبأُ تلك الإشاعة، لكنّه لم يُكلّف نفسَه شيئاً يُذكَر لتكذيبِها.

كانت خيبةُ آرن أعظمَ من انشراحه أمام ذلك الحدث. فجيشُ صلاح الدين كاملٌ متكاملٌ، ويملك من القوّة ما يجعلُه قادراً على فتْح مدينة عسقلان، الأعظمَ من القدس مكانةً وشأناً، وحيثُ قد يلقَى العديدُ من المسيحيين حتفَهم فيها. وفي أسوأ الحالات فجيشُ العدوّ قويٌّ ولا شيءَ يُثْنيه عن السيرِ نحو القدس لو شاءَ أَخْذَها.

أخذ آرن يحسّ أنّه خسِر أكثر ممّا كسَب. وفوق ذلك فقد تجاوزه أمرُ الخيّالة في غزّة ولم يعد يملكُ أمرَها. وعليه أن يعرف أيضاً أيَّ طارئ سيطرأ بعد حينٍ إلى الشمال من ذلك المكان، ولعلّه سينتظر الأوامرَ القادمةَ إليه من البحر. فلو حالفه

Twitter: @ketab_n

الحظُّ فلن يحتاج لأكثرَ من بضْعِ ساعات لكيّ يضمّ غزّة وينطلق منها إلى عسقلان.

أَرْجَأَ آرن الخوضَ في ذلك العمل ريثما تُحالفه القدرةُ على الخوضِ فيه، وانصرف إلى شؤونٍ صغيرة للبتّ فيها. عليه أنْ يأمر كلّ الذين لجؤوا خلف أسوار المدينة أن يعودوا بلا تأخيرٍ إلى قريتهم الصغيرة، لكي يُعيدوا بناءَ الجزء الأكبر ممّا دمّره الحريقُ فيها، قبل حلول الشتاء. وعليه أيضاً أن يُزوِّدهم بالأعلاف والبذور حتى تعود حياتُهم إلى مجراها الطبيعي فيها. وسوف يُكرِّس يوماً ونصفَ يومٍ لتلك المهمّة، يُلازمه فيها رفيقُه تاجرُ الجوخ، ومن معَه من أعوان.

وفي اليوم التالي إذْ برسالةٍ تفاجئُه، قادمةٌ عن طريق البحر. وفي الحال استدعى إلى بهو الاستقبال أعلى الرُّتبِ من إخوانه الرهبان.

على رأس العدد الصغير من الفرسان الذين نجَح في جمعهم، ولم يكونوا أكثر من خمسمئة رجلٍ سار بالدوين الخامس، ملكُ القدس، الشابُّ الأبرص، نحو عسقلان، لكي يواجه العدوّ في الأرض العَراء. لكنّ تلك المغامرة لم تتحَرَّ الحذر والفطنة، لأنّ الأرض المحيطة بتلك المدينة لا تلائمهم بمثل ما تلائم خيّالة المماليك خيرَ ملاءمة. لذلك كان حريّاً بالملك وجندِه أن يستمسكوا بأسوار القدس، دفاعاً عنها.

لاحظ المسيحيون أنّهم أقل عدداً فسارعوا للاختباءِ خلفَ أسوار المدينة التي لم يبقَ لهم فيها مجالٌ للحركة. لقد ترك صلاح الدين حول المدينة مفرزةً من مفارزه حتى يمنعهم من الخروج منها، لأنّ المماليك والمدينة على هذه الحال لن يجِدوا عناءً في تدميرِ خيّالة قويّة تدميراً كاملاً، لا سيما أنها أدنى منهم عدداً.

لقد افتقد آرن حرّية الحركة أو كاد، وكيف لا وأودون دي سانت أماند، سيّدُ فرسان هيكل الربّ الأعظمُ، الذي أرسل إليه أمراً عاجلاً، رَهْنَ الحصارِ بين أعضاء الجيش الملكي داخلَ أسوار عسقلان؟

لذلك وجَب على آرن أن ينتقِل دون إبطاءٍ إلى عسقلان، مع فرسانه ونحوِ مئة من الرقباء على الأقلّ. ففي اليوم التالي سينهالون بأسلحتهم الثقيلة قبْلَ الغَسق على المحاصِرين. وتلك كانت خطّةُ السيد الأعظم التي كان على آرن أن يمتثِل أمرَها.

ومع ذلك فقد قرّر أن يُضيف إلى تلك الخطّة شيئاً من عندِه، فشاء أن

Twitter: @ketab_n

يصطحب معه كشّافين من البدو الجمّالين، فهو يعلم أنّه لا يملك سوى المجازفة في بريّة يُسيطر عليها خيالةٌ أكثر عدّة وعدداً. وعليه أن يعرف في أيّ وجهةٍ سيمضي وأيّ وجهةٍ عليه تجنّبُها. فالبدوُ وحدهم أقدرُ على تبصيره بتلك الوِجهة بفضل جمالهم وجيادهم السريعة. فلا أحدَ ممّن كان يراهم عن بُعدٍ يستطيع أن يقول في أيّ جهةٍ من الجهات هم يتحاربون، وقلّما يفيدُ اللحاقُ بهم لانتزاع تلك المعلومة. ولذلك حرِص آرن على أن يُغدِق قطَع الذهب على بدوِ غزّة قبل رحيلِه وهو يؤكّدُ لهم على الخصوص أنّهم سينهبون ويسلبون كثيراً، لأنّ رهبان الهيكل متهوّرون لا يراعون حذراً أو حيطة، وهُم على مطاياهم لا يُرافقهم جنودٌ مشاةٌ قادرون على وقاية خيولهم ضدّ النبّالين الأتراك. فليس أمامهم بديلٌ وليس أمامهم سوى القليلِ من الوقت، وهم من قلّةِ العدد ما يستدعي الحذرَ والحيطة.

انتشر البدوُ في شكلٍ مروحيّ أمام صفوف رهبان الهيكل. وقد عاد أحدُهم وهو يركضُ ركضاً سريعاً في سحابةٍ من الغبار الكثيف قبل أن تصل صفوفُ الفرسان إلى منتصف الطريق بين غزّة وعسقلان. وقد أنبأ وهو يلهثُ أنّه رأى أربعةَ جيادٍ مربوطة أمام أكواخ الطين في القرية التالية. كانت تلك القرية تبدو مهجورةً، وكان من الصعب القولُ ما الذي جاء يفعله أولئك الفرسانُ الأربعة في مثل تلك المساكن الخربة، لكنّ جيادهم كانت حقاً هناك مربوطة أمام تلك الأكواخ الطينية، ومن حول القرية انبطحت الماعزُ والخرافُ التي أردتها السهامُ نافقة.

لم يرغب آرن في أن يبدّد وقتَه من أجل أربعةِ أعداء، لكنّ غُويدُو دي فارامند، مدرّب المسايفة، سرعان ما أقبل عليه وأقنعَه بأنّ الرجال الأربعة ربما جاؤوا يستكشفون المكان لحسابِ المحاصِرين، وبأن هؤلاء قد لا يُشغل فكرَهم إلاّ شاغلٌ واحدٌ هو أداء المهمّة على أكمل وجه. فلو بُوغِتوا على حين غرّة لأمكنَ منعهم من أن يحذّروا ذوِيهم من خطرٍ وشيكٍ قادم من الجنوب.

وفي الحال اعتنق آرن هذه الحجّة وشَكر سيدَ المسايفة الذي لم يتردّد في إسداءِ الرأي إليه، وقسّم قوّاتِه إلى أربعة صفوف تحرّكت في الحال في اتجاهات أربعة. وحين دنَت من أقرب مكانٍ مُطلٍّ على مجموع الأكواخ الطينية كانت الماعز والخرافُ

Twitter: @ketab_n

النافقة من خلفها لا تكاد تُحصَى. وأخيراً سارت أربعةُ صفوفٍ من الفرسان نحو القرية الخربة وحاصرتها. ثمّ تقدّمت منها في صمتٍ، ولمّا صارت على مرمَى سهْم لم يبقَ عندها شكٌّ في طبيعة نشاط الفرسان الأعداء، بعد أن تناهت إلى أسماعها صرخاتُ نساءٍ تعالى هديرُها في جنبات تلك الأكواخ الخربة. وأمام هذا المكانِ الخليع كانت الخيولُ بطقومها الثمينة تحاول عبثاً الدفاعَ عن نفسها وهي تضربُ برؤوسها الذبابَ الذي انهال عليها.

أشار آرن إلى إحدى السرايا فترجّل فرسانُها واستلّوا سيوفَهم ودخلوا إلى الكوخ. وعلى الفور دوّت أصواتُ معركةٍ لم تلبث إلاّ قليلاً، وإذا بالمصريين الأربعة يُقذَفون قذفاً في الأتربة المتطايرة أمام الكوخ، مقيَّدِي الأذرع خلف الظهور. كانت ملابِسُهم مشعثّة، وكانوا يصرخون أنّهم سيدفعون فديةً لمن لا يزهَق أرواحهم.

ترجّل آرن وتوجّه إلى مدخل الكوخ، وأقبل على فرسانه وهم يغادرون الكوخ بوجوه ممتقعة. وفي الحال رأى ما توقّع أن يراه: ثلاث نساءٍ احمرّت وجناتهنّ خجلاً وهنّ يحاولن إخفاء عريهنّ فوق أجسادهنّ.

"ما اسم هذه القرية، أيتّها النساء، ولِمَنْ تنتمين؟" سأل آرن من دون أن يحصُل على جوابٍ شافٍ، لأنّه لا تفهم العربيّةَ منهنّ، على الأرجح سوى واحدة.

وبعد هنيهةٍ علم آرن أن تلك النساء وتلك البهائم تنحدر من قريةٍ من قرى غزّة، وأنّ النساء قد جئْن بتلك البهائم بعد أن عَسُرَ عليهنّ إيواؤها في المدينة. وعندما ناورنَ لإنقاذ تلك البهائم من براثن أحد النهّابين إذْ بهنّ يَقَعْنَ في براثِن نهّابٍ أسوأَ وأشدَّ وطأة.

والآن وقد أضحى شرفهنّ وشرف أسرهنّ ملطّخاً بالعارِ فلم يبقَ أمامهنّ سوى طريقٍ واحد لكي يعوّضن ذلك الشرفَ المهدور، قال آرن متذرّعاً، بعد أن هدأ روعهنّ وفهمن بأن لا نيّةَ في نفسه لإنهاء ما بدأ به المصريون. لقد ترك لهنّ الأشرارَ المكبّلين الأربعة، لهنّ أن يفعلْنَ بهم ما شئنِ لكي ينتقمن لأنفسهنّ ولِشرفهنَّ، ولهنّ إنْ شئن أن يحتفظنَ بالخيول والسروج. فغزّةُ تُهديهنَّ إياها. وقد ناشدَهنّ بألاّ يُفرِجْنَ عن المصريين أحياءً، لأنّ الإفراجَ عنهم أحياءً يستوجب قَطْع رؤوسهم أيضاً!

Twitter: @ketab_n

وأقسمت الفلسطينيات أنّ ما مِنْ أحدٍ من المغتصبين سينجو من التهلكة، فاطمأنّ آرن لِكلامهنّ وخرج من الكوخ وركب حصانَه وأمر فرسانَه بالسير نحو عسقلان. فبعد نحو ساعةٍ سيهجمون قبل المغيب، وعليهم أن يَعجلوا، لأن الأمرَ أمرُ السيدِ الأعظم شخصياً.

وغير بعيدٍ عن ذلك المكان سمِعوا صيحات استغاثةِ المصريين في أسرِهم وقد صاروا تحت رحمة ضحاياهم، لكنهم واصلوا في صمتِ طريقَهم.

وعندما اقتربوا من عسقلان لم يُبْدِ العدوُّ ما ينبئُ بأنّه قد استشعر قدومَهم. فإمّا حالفهم الحظُّ فتسلّلوا ما بين شبكة الكشافين الأعداء في ذات المكان الذي رابط فيه أولئك المغتصبون البائسون الأربعة، وإمّا رافقتهم أمُّ الربّ الخفية.

أقبلتْ عليهم زمرةٌ جديدة من البدو لتُخبرهم بالمواقع التي يحتلّها العدوّ، فترجّل آرن وسوّى مَدَرَةً صغيرة بِجزمتِه الحديدية، ثم استلَّ خنجره ورسم عسقلان وحصونَها. وعلى هذا النحو استطاع أن يرسم في ذهنِه فكرةً أقل التباساً ممّا أُخبِر به للتوّ، وتبيّن مواقِع القوّات المحاصِرة.

لم يكن أمام آرن وفرسانه سوى مخرَجين لا ثالث لهما. فالغابات على نحو ما تبدو من المدينة خيْر سبيل لمباغتة العدوّ من ناحية الشرق، فحسبهم قليلٌ من حُسن الطالع لكي يدركوا غايتهم على مرمَى سهْمين قبل أن ينطلقوا في الهجوم. لكنّ الشمس ستكون لهم عيناً بعين. ولا مخرج لهم بعد هذا المخرج سوى أن يرسموا قوسَ دائرةٍ واسعٍ نحو الشمال، ثمّ نحو الغرب والجنوب ليصلوا عندئذ من ناحيةِ الشمال من دونَ أن يُعميهم نورُ الشمس. لكنّ العدوّ أوفرُ حظاً في أنْ يكشفَ مواقعَ تواجدهم، ولذلك قرّر آرن أن يمكثَ حيث هو، وأن يكرّس للصلاةِ والدعاء تلك الساعة التي تفصله عن الهجوم. فالعدوّ أكثرُ عدداً منه بعشرةِ أضعافٍ، ولذا فكلّ الأمرِ مرهونٌ بما يملكه كلّ طرفٍ من قدرة على مباغتة الطرف الثاني، ومن سرعةٍ وشدّة عنفٍ في الهجومِ أوّلاً.

وبعد أن أدّوا الصلاة والدعاء، تقدّموا ببطءٍ وسكونٍ، ما وسعهم البطءُ والسكون، عبْر تلك الغابات التي ما فتئت كثافتُها تتضاءل شيئاً فشيئاً وهي تمتدّ

Twitter: @ketab_n

مثلَ لسانٍ في اتجاه عسقلان. ثمّ إذا بآرن يتوقّف حين أدرك أنّ مزيداً من التقدّم قد يُعرّضه لأعين العدوّ. وفي الحال أقبل عليه مدرّبُ المسايفة وهو يخبُّ خبّاً خفيفاً، ووقف إلى جانبه، وظلاّ بعض الوقت يرصدان في هدوءٍ معسكر العدوّ وهو يمتدّ على طول الجزء الشرقي من أسوار المدينة، حيثُ زُرِبَتْ معظم الخيول ليس بعيداً عن تلك الأسوار وعن باقي المحاصِرين. وكانت هي اللحظةُ الحاسمة. فالأمرُ لا يحتاجُ إلى تفكير طويل لمعرفة كيف سيأتي الهجوم. ففي الحال أحضر آرن قادةَ سراياه الثمانية، وألقى إليهم أوامرهُ في عجالة. ثمّ عاد القادةُ الثمانية إلى مواقعهم وركبوا خيولهم، وفي الحال صلوا جميعاً لحاميةِ فرسان الهيكل لآخر مرّة. ثمّ نشروا بيرقَها وحَملوه في المقدّمة بالقرب من آرن، ولوّحوا به مع علَم جمعيّة فرسان الهيكل الملوّن بالأسود والأبيض.

"شاء الربّ!" هلّل آرن بأعلى ما وسِع حنجرته من قوّة، وفي الحال هلّلت الصفوف بمثل ما هلّل.

تحرّك آرن والفرسان من حوله نحو الأمام. ومن خلفهم تقدّم بقيّة الفرسان في تدبيرٍ وهُم يخبّون خبّاً، ليحتلّوا مراتبهم على جناحَي الكتيبة. وعندما خرجوا من الأحراج بدا مركزُهم وكأنه قد خَمَدَ، فيما كان الجناحان القويّان من الفرسان بأرديتهم السوداء والبيضاء ينتشران على جانِبي الكتيبة. وعندما استقامت صفوفُ الكتيبة استحال صوتُ الحوافر إلى هديرٍ ما انفكّ يزدادُ حدّةً أثناء وطأتها الأخيرة قبل أن يهجُم المهاجمون على معسكر العدوّ من أقصاه إلى أقصاه.

تعذّر ركوبُ الخيول إلاّ على قلّةٍ من فرسان عرب الشرق الذين أضحوا المرمَى الأوّل لفرسان هيكل الربّ. وفي الوقت نفسِه دُمِّرت سياجاتُ حظائرِ خيول المماليك الذين هيّجَت مطاياهم ضرباتُ الرّماح لكي تُصاب بالهلع فتسارع إلى داخل المعسكر. وسرعان ما عمّت المعسكرَ حالةٌ من الفوضى العارمة، فصارت البهائم الهائجة تصطدم بجنود المماليك وهم يسرعون نحو أسلحتهم، أو يحاولون الإفلاتَ من فرسان العدوّ المدجّجين بالسلاح، وسط الخيام المنهارة، والجمار وشررِ نيران المعسكر المتطايرة في كلّ الاتجاهات بسبب وَقْعِ حوافرِ الخيول فيها.

وفي ذات الوقت فُتحت أبوابُ عسقلان فانطلق جيش الملك النظامي متقدّماً

Twitter: @ketab_n

في صفّين اثنين، نحو قلب معسكر المحاصرين. وعندما أدرك آرن الأمَر صاح في أرماند دي غاسكونيا أن يتوجّه مع رايتِه نحو الجنوب لكي يسير فرسانُ الهيكل في إثره، مفسحين الطريقَ أمام جيش الملك.

لم يتوانَ الفرسان في التجمّع والتقدّم في صفّ واحد نحو العدوّ وهُم يضربون كيفما اتفق لهم الضربُ بالسيوف والرماح، ويدوسون كلَّ ما يقع تحت أقدامهم. ولم يفهمْ عربُ الشرق تحت وطأةِ الخوف والمفاجأة أنّ الذي يهاجمهم فرقةٌ قليلةُ العددِ والعتاد. فلم يتمكّن سوى القليلِ من المماليك من ركوب مطاياهم ومن تقديرِ الوضْعِ أحسن تقدير، لأنّ معظمهم ظنّوا أنّ جيشاً بكامله قد انقضّ عليهم أيّما انقضاض.

ظلّت الدماءُ تسيلُ مدراراً حتى بعد غروب الشمس. وقد ذُبِّح أكثرُ من مئتي سجينٍ حول أبواب عسقلان. وفيما بعدُ استسلمت ساحةُ المعركة للدياجير وللبدو الذين خرجوا من كلّ صوب وحدب كأنّهم النسرُ بأعدادٍ هائلة. وقد أغلق المسيحيّون الأبوابَ من خلفهم وكأنّهم رغبوا في أن يوفّروا على أنفسهم مشهدَ ذلك الذي كان سيحدث طوالَ الليل تحت ضوء المشاعل.

وصل آرن إلى ساحة المدينة الكبرى، وما هي إلاّ هنيهة حتى بدأ ينظّم صفوف فِرقِه، ثمّ أخذ في مناداة سراياه، سريةً سرية، لكنّ السرايا لم يكتمل عددُها بعد أن نقُص أربعةٌ من رجالها. فالثمن غيرُ باهظ بالنظر إلى الأضرار التي تكبّدها العدوُّ، لكنْ لا بدّ من البحث عن الإخوة الذين قُتلوا أو جُرحوا. وعلى عجلٍ شكّل آرن سريةً جديدة قوامُها ستة عشر فارساً أرسلهم مع خيولٍ احتياطية للبحث عن الإخوة الضائعين من أجل إسعافهم أو دفنهم في مقابر مسيحية.

بعد ذلك توجّه إلى حيّ فرسان الهيكل الصغير في المدينة، وخصّص بعضاً من وقته لتنظيف جروحه التي لم تكن سوى رضوضٍ وخُدوش. ثمّ اغتسل والتمس طريقَه لكي يقصد السيّد الأعظم. وكما توقّع وجدَهُ في الكنيسة المكرّسة لأمّ الربّ، وقبل أن يخرجا لكي يخوضا في شأنٍ من الشؤون توجّها بالشكر لأمّ الربّ وحَمَدا الربّ أيضاً على ما قيّضه لهما من انتصار باهر.

Twitter: @ketab_n

ثمّ صعدا فوق الأسوار وذهبا ليجلسا ليس بعيداً عن أقرب مركز للمراقبة حتّى يخلدا لشأنهما. في قلب المدينة كانت الجموع من تحتهما تحتفِل بالانتصار بكرامةٍ ووقارٍ، فيما غاب الاحتفالُ في حيّ فرسان الهيكل، وفي المخزن الذي وُضع رهنَ إشارة الفرسان أثناء الليل. هنا خيّم الهدوءُ والعتمة يتخلّلهما وميضُ بعض الشموع لمعالجة الجرحى.

- لعلّ صلاح الدين رجل حربٍ عظيم، لكنْ فاته أن يقدّر عددكم في غزّة خير تقدير، لأنّه لو قدّر العددَ لما اكتفى بأقلّ من ألفَيْ رجلٍ لحصار عسقلان، قال أودون دي سانت أماند في البداية، وكأنّ انتصار النهار لا يستدعي أيّ تعقيبٍ أو تأويل.

- كلُّ فرساننا مكثوا داخل القلعة، وعندما أقبلَ علينا لم يسعه أن يرى سوى معطفين أبيضَيْن في أعلى الأسوار، قال آرن موضّحاً. لكن مازال يُسنده أكثرُ من خمسة آلاف فارس مملوكي. ما الذي يجري الآن في القدس؟

- لعلّك تعلم أنّ جيش الملك في عسقلان. وفي القدس يملكُ أرنود مئتي فارس ونحو أربعمئة أو خمسمئة رقيب، وإنّي لأخشَى أن يكون هذا العدد هو كلّ ما نملك.

- إذاً لا بدّ من أن نهاجم صلاح الدين، ونخلخل خُططه حال استعادتنا لقِوانا، أيّ حالما يطلع نهارٌ جديد علينا، أضاف آرن وهو يكزُّ أسنانَه كزّاً.

- غداً لن يكون الجيشُ الملكي إلى جانبنا، لأنه سيتعافَى من عناءِ هذا المساء. ليس عناء ساحة المعركة التي أبى الوقت أن يكون حظُّه فيها كبيراً قبل أن نحقق نحن انتصارنا فيها، وإنما بسبب الحفل الذي سيقام هذه الليلة، همهم أودون دي سانت أماند.

- نحن نحقّقُ النصر وهُم يحتفلون به. يا له من توزيع ألفناه للمهام، غمغم آرن وهو يلقي إلى حاميه الظريف نظرةً متهلّلة. لكنْ على أيّ حالٍ فالأفضلُ لنا أن نحجُم عن التدابير المستعجلة. فمع قليل من الحظّ لن يستطيع أيّ من المهزومين أو

Twitter: @ketab_n

الفارّين أن يُفلت من أيدي البدو هناك. ولن يعرف صلاح الدين ما حدث إلاّ بعد حين. وفي ذلك خيرٌ جمٌّ لنا.

- سننظر في هذا الأمر غداً، قال أودون دي سانت أماند، ثمّ نهض وهو يهزُّ رأسه هزاً.

وقام آرن أيضاً، وتلقّى عناقاً من السيّد الأعظم وقبّله على الخدّ الأيسر أوّلاً، ثمّ على الخدّ الأيمن ثانياً.

- إنّي أباركُكَ، آرن دي غوشيا، قال أودون دي سانت أماند في مهابةٍ وهو يمسك بآرن من كتفيه وينظر في عينيه، إنّك لا تتصوّر ما شعرتُ به عندما رأيتُ من أعلى هذه الأسوار فُرساناً وهو ينطلقون في الهجوم كأنّهم ألْفَا رجلٍ ولا مئتين. لقد وعدتُ الملكَ ورجالَه بأنّكم ستصلون في الموعد المحّدد وقد وَفَّيْت بوعدي. وكان انتصاراً عظيماً. لكنّ طريقاً طويلاً مازال في انتظارنا.

- أجل، سيّدي الأعظم، قال آرن بصوتٍ خافت. هذا الانتظار قد طواهُ النسيانُ. إنّ الذي يقف أمامنا جيشٌ مملوكي قويّ. فلْيرعانا الربُّ بحمايتِه مرّةً أخرى!

أرخى السيّدُ الأعظم عناقَهُ حول آرن وخطا خطوة إلى الوراء. وفي الحال سقط آرن على رُكبتيه مطأطئاً، فيما أخذ سيّده يبتعد في الظلام على طول الأسوار.

مكثَ آرن برهةً ينظرُ بمفردِه من على السور، يُنصتُ إلى الجرحى وهم يتأوّهون في الظلام. كان جسمه بكامله يئنُّ أنيناً، لكنّ الألم ما انفكّ يبعثُ الدفءَ في قلبِه، ولم يكن ينزفُ إلاّ من خَدْشٍ في خدّه. كانت ربلتا ساقيه تؤلمانه أيّما ألم لأنّهما بُليتا كعادتهما بأقسى الجهد والعناء كلّما ركب هذا الفرسَ لكي ينطلقَ به ضدّ عدوّ فوق حصانه أو لكي يقلب جندياً من المشاة.

* * *

لم يحدث شيءٌ ذو بال خلال الأيّام التالية في عسقلان. لقد غُلّل الأسرى المماليك وأُجبِروا على دفْن رفاقِهم الذين لقوا حتفهم في ساحة المعركة. ومن حين

Twitter: @ketab_n

لآخر كانت جماعةٌ من البدو يأتون لكي يبيعوا عدداً من الأسرى وهم يجرّونهم خلف جمالِهم جرّاً. فهؤلاء البدو على ما يبدو قد قَبضوا على كلّ من فرّوا. كان البدوُ يتقنون عملهم أيّما إتقانٍ، بيد أنّه من المؤكّد أنّهم قد عقَدوا نفسَ الصفقة مع صلاح الدين عندما يكون مخرجُ المعركةِ مختلفاً. وكانوا يجلبون أيضاً أخبارا تنبئُ بما يفعله جيشُ عرب الشرق. وعلى عكس ما شاع عن صلاح الدين وسَيره نحو القدس فقد أهمل هذا القائد الجيشَ وتركه ينهب كلّ المنطقة الممتدّة ما بين عسقلان والمدينة المقدّسة. فلعلّه ظنّ أنّ الوقت مُواتٍ للنهب حالاً، قبل انتصاره الذي بات وشيكاً. كان في الظاهر على يقينٍ بأنّه لن يواجِه العدوّ في أرضٍ مكشوفةٍ، بعد أن تقهقَر العدوّ إلى قلاعه الحصينة، وخلف أسوار القدس وعسقلان. فإن احتاط لجيشه وأروى عطشَه للنهب فقد يستولي على القدس دون أن يُدنِّس المدينة المقدّسة بعد انتصاره فيها. فأيّاً كانت الأسبابُ فإنّه يقترف هنا خطأً فادحاً سوف يندَمُ عليه لعشر سنواتٍ كاملة.

عُقد مجلسُ الحرب في قلعة عسقلان. كان الملك بالدوين جالساً على كرسي محمولٍ، تلفُّه قطعةٌ من المَوْصِلي (نسيج قطني) زرقاء اللون، فلا يسع الناظرَ أن يرى من الخارج إلاّ ظلّه. كانت الشفاه تتحدّث همساً عن يديه اللتين كانتا تهترئان شيئاً فشيئاً، وتقول إنّه قريباً سيصبح ضريراً.

إلى يمين الملك جلس السيّد الأعظم أودون دي سانت أماند، ومن خلفِه آرن وأسيادُ قصر تورون الخيّالة، وأسياد قصر كاستيل أرنالد. وعلى الجانب الآخر من الملك جلس مطرانُ بيت لحم، وعلى طولِ جدران القاعة وقف بارونات فلسطين الذين نجَح الملك في ضمّهم إلى هذه المحاولة اليائسة. ومن خلف المطران عُلِّق الصليبُ المقدّس المطرّز بالذهب والفضّة والأحجار الكريمة.

لم يحدثْ للمسيحيين حتّى تلك اللحظة أن خسروا معركة حمَلوا أثناءها الصليب المقدّس، وكانت تلك هي المسألة الحاسمة، وموضوع النقاشات المحتدمة.

قدّر الأَخوان بالدوين وباليان دِبلين، الأكثر ظهوراً في القاعة، أنّ حمْل الصليب المقدّس الذي مات عليه المنقذُ في سبيل خطايانا أثناء معركة لم نأمل في كسبها

Twitter: @ketab_n

بتاتاً ليس سوى إخلالٍ بالاحترام، واقترافِ خطيئةٍ أشبه باعتداءٍ على جلالة الربّ.

وعلى ذلك ردّ مطران بيت لحم أنّ ما من شيءٍ أجدى لالتماس معجزةٍ من الربّ من حمْل الصليب المقدّس في مكانٍ تصبح فيه مثل تلك المعجزة شكلاً من أشكال الخلاص.

وردّ بالدوين ديبلين بالقول إنّه لا يليق، في ظنّه، إخضاع الربّ لشكل من أشكال المساومة، مثلما يحدث عند التفاوض مع عدوّ من الأعداء. ففي أثناء المعركة التي باتت وشيكةً يستطيع المسيحيون في أفضل الحالات أن يُرْبكوا صلاح الدين أيّما إرباكٍ، كسباً للوقت، في انتظار قدوم أمطار الخريف التي سوف تُحوّل الجبال من حول القدس إلى حقلٍ جامد من الطين المغلّف بالثلوج الرخوة، تهبُّ من فوقها رياحٌ عاتية تُجبِر عربَ الشرق على رفع الحصار لأسبابٍ أخرى غير الشجاعة والإقدام وإيمان المدافعين.

وأمّا المطرانُ فقد رأى من جانبه أنّه، من بين الحاضرين جميعاً، أفضل من يتقن الحديث إلى الربّ، وبأنّه يرفض لهذا السبب آراء العلمانيين في تلك القضيّة. إنّ الصليب المقدّس هو الخلاصُ في أيّ معركةٍ لا يسع أيّاً كان الانتصار فيها دون نزولِ المعجزة. فأيّ نسخةٍ أخرى في الدنيا أقوى من الصليب المقدّس؟

حرص آرن وسيّدا القصر على ألاّ يقولوا شيئاً في ذلك الشأن. ولم يكن ذلك لأنَ آرن مجبرٌ على الصمت كلّما مثّل السيدُ الأعظمُ جمعيّة الهيكل، وإنّما لأنَ رفيقَيه اللذين لا يعرفهما إلاّ قليلاً كانا أيضاً من رتبةٍ أعلى من رتبتِه أيضاً. وعلى أيّ حال فلو سُئل رأيه في الأمر لوجد عناءً في الردّ، لأنه قدّر أنّ المطران على خطأٍ، وأن فارس ديبلين هو الذي أصاب.

وأخيراً لم يحسم الأمرَ إلاّ ذلك الملكُ الأجذم الشاب. ففي يوم النقاش الثاني، وفيما بدأ كلّ الحضور يفقدون الأملَ وهم يرون أن الحديث كثيرٌ والفعلَ قليلُ انحاز إلى المطران. فيما كانت ألسنةُ النار ترتفع عالية في السماء متجهةً شرقاً.

كان جيش صلاح الدين الذي اتجه شمالاً في البداية نحو إيبلين قد استولى على المدينة ونهبها، وانحرف بعد ذلك نحو القدس شرقاً. وقد أنبأت أعمدةُ النار ووصولُ

Twitter: @ketab_n

بعض اللاجئين بأنّ الجيوشَ المصرية قد انتشرت في المنطقة، فنهبت ودمّرت كلّ ما عثرتْ عليه في طريقها. كانت الرملة في حوزة إيبلين، ولذلك اشترطوا، حتّى ينتقموا، أن يترأسوا الجيش المنتظم. وقد لبّى الملك في الحال طلبَهم.

أمّا مَن سيرأس فرسانَ هيكل الربّ فذاك سؤالٌ لم يطرحه أحدٌ على أحد، ما دام السيّدُ الأعظمُ أودون دي سانت أماند في عسقلان. لكنّه عندما استدعى أسيادَ القصر الثلاثة الحاضرين — آرن دي غوثيا، وسيغفريد دي تورين، وأرنود دي أراغون- أضحت المسألةُ أعْقَد ممّا تصوّرها أيّ أحد. لقد قرّر السيدُ الأعظم أنّه سيتخذُ مكانَه في قلب الجيش، بالقرب من الصليب المقدّس، ومن رايةِ فرسان الهيكل المزيّنة بصورة أمّ الربّ. وعلى هذا النحو سيكون محاطاً بحراسةٍ قوامُها نحو عشرين فارساً.

وعليه سوف يرأسُ أحدُ أسياد القلعة الثلاثة باقي الفرسان. فالعرفُ يقضي بأن يرأسهم أرنود دي أراغون، سيّد طورون الفرسان، لأنّه أكبرُهم سنّاً. ومن بعدِه يأتي سيغفريد دي تورين، سيّد كاستيل أرنالد، وأخيرا دي غوثيا، سيّد قلعة غزّة. لكنّ أمّ الربّ قد حمَت هذا الأخير عندما هاجم وهزم المحاصرين المماليك الذين كانوا أكثرَ عدّةً وعدداً. إعفاءُ آرن من قيادة الجيش يعني أنّ آرن ليس خليقاً به أن تنزل به رحمةُ العذراء.

دون تأثّر ظاهر استقبل أسيادُ القلعة الثلاثة قرارَ السيّد الأعظم، وانحنوا أمامه خاضعين طائعين. وعندئذ غادرهم ليمضيَ إلى استعداداته. كانوا في ردهةٍ صغيرة قد جُهِّزت تجهيزاً متواضعاً في حارةِ فرسان هيكل الربِّ في عسقلان. وقد لفّتهم برهةٌ من الصمتِ قبل أن يجرؤ أحدُهم على الكلام فيبادرهم قائلاً:

- يُقال إنّ السيّد الأعظم ينظر إليك بعين الرضَا، يا آرن دي غوثيا، وقد أقام دليلَه على ذلك حقاً، غمغم ما بين أسنانه أرنود دي أراغون.

- لعلّ ذلك صحيح، من يدري؟ لكن لعلّه كان من الفطنة أن يمنح هذه القيادة لواحد منكما. ما دامت مواقع كلّ منكما في منطقة تعرفانها جيّداً، وحيث سنواجِه صلاح الدين فيها، أجاب آرن بصوت هادئ رصين، وكأنّه فكّر ملياً قبل أن ينطق

Twitter: @ketab_n

بأيّ كلمة. لكنْ ربّما قد نسير غداً نحو الموت نحنُ الثلاثة، استطرد قائلاً بعد أن صمتَ هنيهة. وعندئذٍ ما مِن شيء أسوأ من التمسّك بالترهات بدلاً من أنْ يفعل كلٌّ منّا ما هو أفضل وأجدَى.

– آرن على حقّ، فلنتّحِدْ في سبيل خيرنا المشترك، بدلاً من الشجار والنقار بيننا، قال سيغفريد دي تورين، متذمّراً بين شفتيه، وهو ما فخّم نبرته الجرمانية.

بعد ذلك لم يُبدِ أيٌّ منهم مزيداً من المبالاة لأهمّية ما أقدم عليه السيّد الأعظم من قرار قد يذهب في الاتجاه المعاكس لقواعد الكهنوت. فالوقتُ يمضي بسرعةٍ، وجميعهم مضطرّون لاتخاذ تدابير في غاية الأهمّيّة.

بعضُ الأشياء كان من السهل فهمُها. خيول فرسان هيكل الربّ يجب أن تحمل أقلّ قدرٍ ممكن من المُؤن، لكنْ يجب أن تُدَرَّع بزرْدات متينة على الجانبين، وبصفائح أمامية. كان بديهياً أنْ تُهيَّأ وضعيةٌ تَحُدُّ من حركة المماليك حتى تصبح القوّة وعنفُ المهاجمين حاسمين. أمّا في باقي الأوضاع فسوف يواجِه المسيحيون من دون دفاعٍ خيّالةَ المماليك، ولذلك السبب ليس من داعٍ لتخفيف حمولة الخيول. فلن يستطيعوا أبداً منافسةَ سرعة حركة العدوّ.

وفي المقابل فإن مسألةَ إنْ كان يجب وضْع فرسانِ هيكل الربّ في المقدّمة، أو في الخلف، فتلك مسألة يجب الوقوف عندها. ففي حالِ هجومٍ مفاجئٍ من العدوّ، القادم من الأمام بالتأكيد، فخيرٌ أن يوضع الجزءُ الأقوى من الفرق في المقدّمة، فهذا سينقذُ أرواح الكثير من المسيحيّين. لكنّ الجيشَ المسيحي لم يكن كثير العدد، فهو لا يعدُّ سوى خمسمئة خيّالة من الجيش النظامي، ونحو مئة من فرسان هيكل الربّ، ومئة آخرين من الرقباء. فإن هاجم العدوّ من الأمام فأول ما يراه ألالوانُ المتعددة، مقدّراً أنه ليس أمام مواجهة قويّة، وهو ما قد يجعله يشنُّ الهجوم قبل أوانه، فيما لم يكن جزءٌ صغير من جيش المماليك قد وصل بعدُ إلى المكان. عندئذٍ سيأتي وقتُ الحسم لكي يختبئ فرسانُ هيكل الربّ وراء صفوف الجيش النظامي المدجّج، ومن النفاذ فجأة لمواجهة المماليك عند هجومهم عندما يصبح هؤلاء على مقربةٍ جداً ليتمكّنوا من تغيير الاتجاه. وقد بدا ذلك حكيماً.

Twitter: @ketab_n

وفي الحال اتفق حكام الحصن الثلاثة على تلك الخطة. لكنّ آرن لم يُقنع الآخرين باصطحاب ما وسعهم من بدوٍ إلاّ بعد رأي. فقد أنف الرجلان من هذا العرض. فلم يكن في ذمّة كاستيل أرنالد وتورون دي شيفالييه بدوٌ، ولم ير حُكامهما في وجود أولئك الفرسان القذرين الكفرة، والمَكَرة كما يُشاع، أيّ منفعة.

سلّم آرن بأنْ لا ثقةَ تُرجى من هؤلاء البدو إلاّ في حال حالفهم الحظ، وأمّا إنْ حدث العكس فقد يجد الثلاثة أنفسهم خلف جمالٍ تجرّهم خلفها جرّاً لكي يُباعوا لصلاح الدين. ممّا لا شكّ فيه أن البدو يجهلون أنّ من كانوا رهائن من فرسان هيكل الربّ لا ثمن لهم، على عكس البارونات العلمانيين. لكن هؤلاء الرجال يملكون خيولاً سريعة مثل البرقّ، وجمالُهم تستطيع أن تتخطّى بلا عناء أيّ جبَل أو أيّ منجنيق حجارة، ووجودهم يسمح برصد مواقع العدوّ بلا انقطاع، وأمّا ما يردهم من أخبارٍ في موضعهم ذاك فهو بعد نعمة الربّ وفضله، عصبُ المعركة التي باتت وشيكة. وعندما أيقن الرجلان أن آرن لن يتراجع في تلك المسألة لم يجدا بُدًّا من أن يُسلّما برأيه كُرهاً. ألم يقرّر السيّد الأعظم أنّه هو من يحسم الأمر في حال تبايُن الآراء؟

* * *

مَن لم يَرَ قوّة جيش صلاح الدين المملوكي وهو يسير أرتالاً تحت أسوار غزّة لأكثر من ساعة كاملة حتى يستعرض خيّالته، سوف يبدو له الجيش المسيحي الذي غادر عسقلان في هذا الصباح الباكر من تشرين الثاني، رهيباً مهيباً.

كان الطقسُ بارداً رطباً، ولم تُؤْتَ الرياح الشمالية الغربية من القوّة والشدّة ما يكفي لطرد الضباب الجاثم الذي لا ينقاد إلاّ لنزواته. لكنّ في سوء الرؤية ما قد ينفع ويفيد من خبروا تلك المنطقة، ألا وهم المسيحيون، وذلك ما خبره حقاً على الخصوص قائدا الجيش النظامي، الأخوان بالدوين وباليان دبلين. وقد ضمّ الحرسُ الخلفي بين صفوفه قائدي تورون دي شيفالييه وكاستيل أرنالد. في تلك الأثناء

Twitter: @ketab_n

كانت القوّات المسيحية تتوغّل في داخل الأراضي، وبالذات ما بين هاتين الساحتين القويّتين.

وأمّا كيف كان البدو يشقّون طريقهم في قلب الضباب فذاك ما يتخطّى الإدراك. ومع ذلك فمنذ الساعات الأولى التي انطلق فيها الركبُ وهؤلاء البدو يتحرّكون جيئةً وذهاباً، حاملين إلى آرن أنباءً وأخباراً.

وعند منتصف النهار اصطدم المسيحيون بجماعات صغيرة من المصريين المُثقلين بالأحمال، يؤثرون الهروب بغنائمهم في كلّ مرّة بدلاً من التخلّص من الحمل الذي يثقل كاهلهم والإقبال على المعركة، لذلك إذاً ليس من المستبعد أن يُحاط صلاح الدين علماً بسير العدوّ فيختار بنفسه مكان المجابهة، متى يحلُّ أوانُها، وذاك ما لا يطمئنُ له البالُ.

ما لبث جيشٌ أُعدَّ إعداداً مُحكَماً أن وقف أمام القادة المسيحيين. كانوا معاً بالقرب من حصن مُونسيفار، ليس بعيداً عن الرملة.

ما لبث الجيش النظامي أن انطلق في الهجوم فلم يتريّث ولم يتصوّر ولم يُقدّر أهميّة القوّات التي أمامه، تاركاً محوره في مكانه مع الملك ومطران بيت لحم والرايات وحرسهم.

تقدّم فرسان هيكل الربّ من الخلف لكنّ آرن لم يُصدر أمراً بالهجوم، فقد خال أنّ الاندفاع نحو عدوّ متحجّب خالٍ من الحذر والفطنة، ومثله اعتقد سيّدا القصر أيضاً. وفوق ذلك ما لبثت الخيّالة المملوكية أن أخلت الميدان وتراجعت، وتلك خطة من خطط أهل الشرق الحذقة التي لا تخفى على أحد. فلا تكاد فرقةٌ تنطلق في مطاردة قلْب قوّة العدوّ الهارب أمامها حتّى تجد نفسها محاصرةً من الجانبين من فرقٍ أخرى مُقْدِمَةٍ على الهجوم. ولا تكاد تنتهي مناورةُ الحصار هذه حتّى تدوّي الأبواقُ،وفجأة يدور العدوّ الهارب إلى الوراء ليجد نفسه فجأة في قبضة من كان يُطاردهم.

عندئذٍ جاء بدوُ آرن يحملون إليه أنباءً تؤكّد أن ذلك هو ما يجري حقاً في ساحة المعركة، ولكن في جانب واحد، إلى الجنوب تحديداً.

Twitter: @ketab_n

في هذه الحال سيتجه صلاح الدين إلى أراضي تورون دي شيفاليه دون غيرها. والحالُ أنّ سيغفريد دي تورين يعرف تلك الأراضي غاية المعرفة.

توقّف آرن وترجّل الرجال عن خيولهم لكي يتدبّروا الأمر في وجازة وبخنجره رسم سيغفريد على التراب ما يشبه الخارطة وأشار فيها إلى عنُق جبلٍ يضيقُ في اتجاه الجنوب. وذاك بلا ريب هو المكان الذي سوف يصل منه صلاح الدين.

لم يجدوا بُداً من أن يحزموا أمرهم وأن يغتنموا الفرصة قبل فواتها. فحتّى يُنبئَ السيّد الأعظم بخطة فرسان هيكل الربّ أرسل آرن على جناح السرعة رقيبه إلى مركز القوّات المسيحية التي توقّفت وتراصّت في حلقة دفاعية، ثمّ أمر فرسانه بأن ينطلقوا بسرعة في أعقاب الأخ سيغفريد الذي سبقهم ليسترشدوا به طريقهم.

ولمّا وصلوا إلى ممرّ الجبل وجدوا أنفسهم في قمّة نزولٍ ينحدر انحداراً رفيقاً نحو المكان الذي يضيق فيه عنقُ الجبل مثل عنق قنّينة دمشقية. فإذا جاءت قوّات العدوّ لتعبر هذا الممرّ فسوف تحاصر الجيش النظامي بين فكيّ كماشة. لكنْ حتّى هذه اللحظة ما يزال الهدوء المطبق هو السيّدُ، ولا يمتدّ البصرُ بسبب الضباب أكثر من مدى أربعة سهام في أفضل الحالات.

فالأمرُ أذنٌ بيْن أمرين: فإمّا جاء فرسان هيكل الربّ إلى المكان الذي أرشد إليه الربُّ لكي يُنقذ المسيحيّين، وإمّا جاؤوا فانخدعوا انخداعاً لا حيلة لهم فيه سوى أن يُعرّضوا الجيش النظامي لسوء المصير.

أصدر آرن أمره لرجاله بأن يترجّلوا عن خيولهم وأن يشرعوا في الصلاة. وبما وسعهم من هدوءٍ ترجّل أكثر من مئتي رجل ثمّ جثوا للصلاة وهم يمسكون مطاياهم من أزمّتها. ولمّا فرغوا من الصلاة أمرهم آرن بأن يخلعوا معاطفهم ويلفُّوها ويربطوها بمؤخّرة السروج. لكنْ قد يشعر الرجال بالبرد وهم ينتظرون مثل هذا الضباب الكثيف، ومن الخطر أن يدخلوا المعركة وأطرافهم مشدودة. وإن بادرهم العدوّ بالهجوم على حين غرّة فلن يجدوا بُدّاً من أن يقاتلوه وحالُهم في ضيق وعُسر.

مكثوا طويلاً يُمعنون النظر إلى الضباب في هدوءٍ إلى أن سمع أحُدهم صوتاً ظنّه الآخرون شيئاً من بناتِ خياله. كان من الصعب أن يظلّوا على تلك الحال لا

Twitter: @ketab_n

يحركون فيها ساكناً. فإن هُم ضلّوا طريقَهم فسوف ينتهي يومُهم ذاك إلى هزيمة، وسيكون الخطأ فيها خطأ فرسان هيكل الربّ لا محالة. فإن لم يطرأ شيء بعد قليل فخيرٌ لهم أن يلتحقوا بقوّات الجيش المسيحي، حيث أضحى الصليبُ المقدّس الآن مهدّداً بالخطر في خضمّ دفاع متناثر. وإنْ هو وقع بين أيدي الكفرة فلن يحمل وزره غير آرن دون سواه.

تبادل آرن بعض النظرات مع سيغفريد دي تورين وأرنود دي أراغون اللذين أطرقا رأسيهما وكأنّهما يتضرّعان للربّ تحت وطأة وجعٍ أليم، يراودهما ما يراود آرن من تروٍّ وأفكار.

لكنّ أمّ الربّ ما لبثت أن ألهمته ثقة جديدة إذ بدا فجأة واثقاً من أمره فأمر نقباءه بأن يتقلّدوا قيادة كلّ جناح من الأجنحة وأن يتحركوا نحو الجانب في حذرٍ وحيطة. سيسيرون في المقدّمة لأنهم، مثل آرن تماماً سيحملون رباطاً عريضاً أسود اللون تحت الصليب القرمزي الذي يُزيّن خيولهم. لأنّه من السهل أن يتوارى بعضهم عن أنظار البعض الآخر في مثل ذلك الضباب الكثيف إنْ لم تُعَلمهم إشارةٌ مميّزة أو نقطة لَوْنٍ يُقْتَفَى أثرُها. ففي المعركة تكون زرادي الأسلحة ومعاطفُ فرسان هيكل الربّ البيضاء من العوائق المانعة أحياناً، لأنها باديةٌ للعيان من بعيدٍ، لكنّها قد تكون من الحسناتِ أيضاً لأنها قد تُجبر العدوَّ على الفرار إنْ لم يكن متفوّقاً عدّةً وعدداً. لكنْ في مثل ذلك الضباب يكاد فرسان هيكل الربّ يحتجبون في غمرة ذلك البياض الساطع.

وبما وسعهم من هدوءٍ اصطفّ الفرسانُ في خطّ مستقيم وكأنّهم يعرفون الاتجاه الذي سيُهاجمون فيه. لكنّ أمّ الربّ لم تجد بُدّاً من أن تمدّ يدها إليهم مرّة أخرى، لأنّهم ما لبثوا أن لاحظوا فوق رؤوسهم الألبسة العسكرية الذهبية الأولى، فأيقنوا أنّ القادمين رمّاحو المماليك السبّاقون دائماً للهجوم. لقد تواروا خلف الضباب وهم ينحدرون في طوابير طويلة عبر سفح الجبل المواجه لفرسان هيكل الربّ. لقد استحال أن يعرفوا أعدادهم، فلعلّهم ألفٌ أو أربعون ألفاً، وذاك مرهونٌ بحجم مركز

Twitter: @ketab_n

الجيش الذي هُيِّئَ ليكون بمثابة الطّعم الذي يعمل على جلب الجيش المسيحي النظامي إلى الفخّ.

سمح آرن لنحو مئة من الأعداء بالدخول إلى الممرّ الجبلي، غير مبالٍ بأرماند دي غاسكونيا الذي كان يتلوّى فوق سرجه من شدّة نفاد الصبر، بالقرب منه. ثمّ إذا بموجة جديدة من الضباب تغشي عرب الشرق في أسفل المنحدر، فكانت هي اللحظة التي اختارها آرن ليصدر إشارة الهجوم. وتقدّم رجاله في هدوءٍ سائرين على الأقدام حتى تستوي صفوفهم فيسعهم الاقتراب من العدوّ ما وسعهمُ القربُ قبل أن ينكشفوا، لكي يكونوا بعد ذلك على استعداد لتحفيز مطاياهم استعداداً للهجوم.

كان الهجوم بخبب الخيول ضرباً من الأوهام. فإلى الأسفل قليلاً عند عنق الجبل كان صوت حوافر الخيول يرتدّ على الصخر وكذلك الهمهماتُ القادمة من كلّ الجهات. كان الوضعُ عصيّاً على الفهم على من لا يعرف أن الجيشين باتا يقتربان كلّ منهما نحو الآخر.

أدرك آرن أنّه سيضطرّ بعد قليل لشنّ هجوم سيتضاعف فيه عَدْوُ الخيول سيراً إلى قلب المجهول. أطرق رأسه وصلّى في خشوع، لكنّ التي توجّه إليها بالدعاء، وهي مريم العذراء بدت في تلك اللحظات وكأنّها تردّ عليه بما لا صلة له بالمعركة، لقد تجلّت أمام عينيه سيسيليا بشعرها الأشقر وهو يتموّج في مهبّ الهواء بما يشتهيه خببُ الخيل، وعينيها السمراوين المُبتسمتين على الدوام، ووجهها البريء براءة الأطفال بنمشه الكثير. بيد أنّه ما لبث بعد لحظات أن لمح في مكانها فارساً من المماليك على بعد أقلّ من رمية رمح. كان الفارس يحدّق ببصره فيه، في ذهول وكأنه لم يُصدّق أنه يقف في قلب فُرسانٍ بلحاهم وأثوابهم البيضاء وكأنّهم الأشباح بعينها.

أرخى آرن رمحه وصرخ قائلاً: "Deus vult" . وما لبث صراخُه أن تردّد في حلوق مئات الحلوق من حوله، ومن بعيدٍ في غمرة الضباب. وما لبث الوادي بعد قليل أن هدر بصهيل فرسان هيكل الربّ الذين اندفعوا نحو الهجوم، وفي أعقابه دوّى جرس السيوف وصياحُ الجرحى والمشرفين على النّحب.

في أكثر الأماكن انحصاراً في ممرّ الجبل انهال حديد المسيحيّين على العدوّ الذي

Twitter: @ketab_n

لم يجد مناصاً من أن يرصّ صفوفه لكي ينفذ من الخناق المفروض عليه. فإن لم يسقط فرسانُ المماليك حين تخترقهم الرماحُ قذفتهم إلى الوراء موجةٌ من الخيول المدجّجة بالفولاذ المصلّد. ومن خلفهم لم يجد النبّالون المصريون أهدافاً يوجّهون إليها سهامهم، بل وسرعان ما جرفتهم مطايا خلت من فرسانها الذين ارتدّوا على أعقابهم تحت وطأة الذعر والهلع. وفي غضون ذلك ما انفكّت فرقٌ مصرية جديدة تصل من الخلف تجذبُها ضوضاءُ المعركة وضجيجُها.

أمسك فرسان هيكل الربّ بكلّ شبر من ممرّ الجبل الضيّق، وصاروا يشقّون طريقهم، جاثمين جنباً إلى جنب، في وسط تلك الجموع الغفيرة من المماليك الذي أصبحوا شبه عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم ضدّ سيوف فرسان هيكل الربّ الثقيلة وهي تسحق صفوفهم سحقاً وكأنّها مناجل كبيرة في قلب موسم حصادٍ كبير.

حاول المصريّون الذين وسعهم أن يعبروا عنق الجبل قبل الهجوم أن يعودوا إلى الوراء لينجدوا ذويهم، لكن أرنود دي أراغون تنبّه لتلك الحيلة وقرّر من ذات نفسه أن يتصدّى لهم، فأخذ معه خمسةً وعشرين فارساً وأقام جبهةً في الاتجاه الآخر.

في عزّ ذلك الاشتباك وفي قلب ذلك الممرّ الضيق لم يعد أحدٌ يرى أبعد من حدّ السيف الذي في يده. وفي ذلك وجد المسيحيّون المدركون لقلّة عددهم بعض العزاء بعد أن صار في مقدورهم أن يشقّوا طريقاً عبر كتل أعدائهم المتراصّة. لكنّ الأمر أضحى كابوس الكوابيس عند المماليك الذين ما انفكّوا يتعرّضون لصدمة الخيّالة المسيحية في أسوأ الحالات الممكنة.

ما لبث أحد قادة المماليك أن تمالك نفسه واستجمع أفكاره، فخطر له أن يُعلن التراجع رأساً إلى الوراء حين أيقن أنّ تسلّق المنحدرات المجاورة لا يخلو من مخاطرة.

استقدم آرن مأموريه الرئيسيين وطلب منهم أن يُصدروا الأمر بتجمّع الجيش ثانية بدلاً من تعقّب العدوّ في الضباب الدّامس. وأقبل عليه سيغفريد دي تورين وهو يلهث على رأس الجناح الذي يعمل تحت أوامره. ثمّ نظر كلّ منهما إلى الآخر

Twitter: @ketab_n

في ذهول أوّلاً، إذ ظنّ كلّ منهما أن جروحه مميتة. لقد لطّخ ثوبيهما دم كثيف حتّى صارت العينُ لا تكادُ تبصر الصليب القرمزي عليها.

- أأنت بخير...أيّها الأخ؟ سأل سيغفريد دي تورين وهو يلهث.

- نعم، وأنت أيضاً. والمعركة تدور الآن لصالحنا. ماذا سنفعل الآن؟ كيف تسير الأمور في الاتجاه الذي فرّوا فيه؟ قال آرن الذي أدرك في ذات الوقت أنّه ليس أفضل مظهراً من أخيه في السلاح.

- لنجمعْ صفوفنا ثانيةً ونتقدّم سيراً على الأقدام، في خطّ واحد، إلى أن نلمحهم من جديد، أجاب سيغفريد الذي عاد إليه هدوؤه بسرعة لا تُصدق.

لا شيء يجدر قولُه بعد ذلك. فلا خير من المغامرة بتشتيت الجيش والخيرُ أن يعاد تشكيل خطّ الهجوم، بالتقدّم الهويني، مع توسيعه شيئاً فشيئاً، كلّما سمح بذلك عنق الممرّ. لقد بدأت الريح في الهبوب، وبات الضبابُ الذي كان مواتياً ومشجّعاً للمسيحيّين على وشك الانقشاع.

حاول الرمّاحون والنبّالون المماليك من ناحيتهم أن يُعيدوا النظام لصفوفهم وهم يفرّون نحو قاع الوادي. وعندما شعروا أنّهم محاطون بجدران وعرة شقّ عليهم أن يرتدّوا على أعقابهم بعد أن وصلوا إلى ذلك القاع، فقرّروا أن ينتقلوا إلى الهجوم على عجلٍ قبل أن يجدوا أنفسهم من جديد في مضيق الجزء الضيّق من ممرّ الجبل الذي كانوا به في السابق.

ارتدّت إشارةُ الهجوم بين الصفوف وردّد الوادي صدى ضجّة الخيول التي انطلقت في العدو خفيفة سريعة.

لكنّ تلك الإشارة أُسيءَ فهمها من قبل الفرق المنحدرة تباعاً نحو قاع الوادي، من خلف المحاربين، مع مؤن الطريق وخيول الاحتياط والغنائم. لقد حاولت تلك الفرق أن تفرّ في الاتجاه الآخر وكانت العاقبة أن اصطدم طرفا الجيش المصري اصطداماً عنيفاً وكأنّهما عدوّان.

ولمّا سمع آرن من جديد إشارة الهجوم، ولمّا رأوا خطّ فرسان هيكل الربّ وهو

Twitter: @ketab_n

يطفو لأوّل مرّة وقد بدا بلا نهاية، ذُعر المصريّون أيّما ذُعر وحاولوا الرجوع إلى الوراء، عبر صفوفهم الخلفية.

واستمرّت المجزرة لساعات طويلة إلى أن بسط ظلامُ الليل هدوءَه. لم يسبق لفرسان هيكل الربّ أن حالفهم نصرٌ مبينٌ كهذا!

وتبيّن أيضاً أنّ قلب الجيش المصري الذي أُعدّ لأن يكون طُعماً في محاصرة صلاح الدين ما لبث أن وقع في قبضة الجيش النظامي المسيحي، فاضطرّ للدفاع عن نفسه من دون أن يجد عوناً من جناح معظم القوّات الإسلامية التي لم تصل في الوقت المناسب. ولمّا أصبحت الفرقة بلا حولٍ ولا قوّة خرّ عزمُها وبدأ بعضُ أفرادها يلوذون بالفرار. وعلى هذا النحو انهار الدفاع المصري واستسلم إلى حالة من الذعر العام.

وعندما عاد الجيشُ النظامي الفرنجي أدراجه لكي يحتفل بانتصار ظنّه مؤكّداً محقّقاً دون عونٍ من فرسان هيكل الربّ كانت معركة مونجيسارد لا تزال في أوج اشتعالها.

كان جيش صلاح الدين مكسّراً مضلّلاً. فحتى وإن بقي له الكثير من المماليك السالمين لكي يحقّقوا له النصر لاحقاً، في مكانٍ آخر وفي ظروف مختلفة فهو مشتّتٌ وبلا حشدٍ، ولذا ليس من اليُسر حشدُه ثانية دون جُهد قد يستغرق وقتاً طويلاً.

آلت عاقبةُ هذه الفوضى وما لفّها من بلبلة وما راج من إشاعة حمّام الدمّ في مونجيسارد، إلى حالة من الفرار المضطرب العارم نحو الجنوب، ولم يقلّ ضحاياها وحدها عن ضحايا المعركة نفسها. لان منطقة الرملة نائية كلّ النأي عن الملجأ الذي تهيّئه سيناء، والحالُ أنّ البدو كثرٌ على طول هذا الطريق، وهم لا يتورّعون عن القتل والنهب، ولذلك فتلك فرصةٌ للحصول على كثير من الأسرى، ولكسب غنيمةٍ لا يستهانُ بها، لم يُتَحْ مثلها من قبل قطّ، وربما لن يتاح مثلها أبداً.

كان فخر، أخو صلاح الدين وصديقه الأمير موسى في عداد الأسرى الذين جُرّوا جرّاً، خلف الجمال، مكتوفي الأيدي، إلى قلعة غزّة. كانا إلى جانب صلاح الدين حين كاد أن يقع في الأسر على يد مجموعة من فرسان هيكل الربّ، لكنّهما

Twitter: @ketab_n

ضحّيا بنفسيهما ولم يتردّدا. فحتّى في أسوأ أوقات الهزيمة لم تراودهما ذرّةٌ من شكّ أنّ صلاح الدين هو من شاء الربّ أن يهديه النصر.

توفّي في صفوف فرسان هيكل الربّ ثلاثة عشر فارساً، وجرح منهم ستّة وأربعون. ومن بين الأموات الذين حُملوا ونقلت جثامينهم إلى غزّة، الرقيبُ أرماند دي غاسكونيا. كان من بين الذين حاولوا القبض على صلاح الدين، وكاد بذلك -لولا أن خاب سعيه- أن يغيّر مجرى التاريخ حقاً.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

كانت أحلكُ فترةٍ في مقامِ سيسيليا روزا في غودهِم تلك السنة التي أعقبَت رحيلَ بلانكا التي جاء الملكُ كنوتْ إريكسون يبحث عنها لكي يجعل منها زوجتَه الشرعية وملِكةَ العروش الثلاثة. لقد وَفّى بالعهدِ الذي قطعَه لها، لكنّ هذا الوفاءَ، مثل كثيرٍ من مشاريعه الأخرى، أخذَ من الوقتِ أكثر ممّا كان متوقّعاً. فعندما تُوِّج كنوتْ ومِلكتُه على يدِ رئيسِ الأساقفةِ ستيفن لم يكنِ الاحتفالُ مهيباً كما تصوّره، فلم يُقَم الحفلُ في كاتدرائية أوسترا أروس لكنْ في معبدِ ناسْ، في جزيرة فيسينغو، على بحيرة فاترن. صحيحٌ أنّه من المؤسف ألاّ يُحاط الاحتفالُ بالأبهةِ التي تمنّاها كنوتْ، لكنّه يظلّ مع ذلك احتفالاً قيّماً في نظرِ الربّ والرجال. لقد أضحَى اليومَ مسيحَ الربّ حقاً.

وها هي ذي سيسيليا بلانكا التي اختارت أن تكون ملكةً تحت اسم بلانكا تُقاسِم زوجَها هذا الشرفَ الذي ظلاّ ينتظرانه عاماً كاملاً، وكان أكثرَ الأعوام بؤساً في حياة سيسيليا روزا.

لم يكد موكبُ الملكِ كنوتْ إريكسون يبتَعِد عن غودهِم في جولتِه عبر البلاد حتى انقلب كلُّ شيءٍ في رمشة عينٍ داخل أسوار الدير. لقد فرضت الأمُّ ريكيسا واجبَ الصّمتِ من جديد، فالْزَمَت به على الخصوص روزا التي ما أكثر ما تحمّلت

Twitter: @ketab_n

العصا، سواء أخلّت بالصمت أم لم تخلّ. كما أشاعت الأمُّ ريكيسا من حولها جوّاً من الضغينة والبُرود سرعان ما صانته فتياتُ عائلةِ سفيركر واعْتَنَيْنَ به عن طيبِ خاطر. كلهنّ ماعدا واحدة.

الفتاةُ الوحيدة التي امتنعت عن مُقْتِ روزا، وعن التصرّف مثلّ إوزّةٍ في قطيع، وعن الإبلاغ عنها تحت أيّ ذريعةٍ هي أولفيلد إيموندسدوتر. فما من واحدة غيرِها من باقي الفتيات كانت تحمل همّاً لتلك الصغيرةِ المسكينة. لقد اختفى أهلُها في أعقابِ معركةِ بجالبو، ولم يَؤُل إليها منهم أيّ إرثٍ بتاتاً. ولم تَعُدْ تملك حقاً في الاحتفالِ بزواجها مع رجُلٍ من الرُّتَب العالية، ولم يبقَ لها سوى انتماءٍ لعائلةٍ لم يبقَ لها شأنٌ يُذكَر بعد أن ألَمّت بها النكباتُ ونوائبُ الدهر. ومع ذلك كانت الأمّ ريكيسا تتردّد في أن تُذيقَ أولفيلد من عصاها الغليظةِ، إرضاءً للصلات الأسرية التي تجمع بينهما.

وعندما انقضّت عاصفةُ الشتاءِ الأولى على غودم خطرَ للأمّ ريكيسا أنّ الوقتَ قد حان -شارحةً ذلك بكلامٍ معسولٍ لبنات السفيركر اللائي اسْتَسَغْنَ كلامَها- لإرسال روزا إلى الزنزانة، لأنّ تلك الوقحة ما انفكّت تتخيّل أنّها مازالت تحمِل ألوانَ الفولكونغر، وتظنّ أنّ ذلك يعطيها الحقَّ في أن تتواقَح وتتطاول على غيرها، قَولاً وعملاً.

ففي تلك الفترة من السنة لا الحَبُّ ولا الجرذان خلا منهما مخزنُ الغلّةِ الواقع في أعلى الزنزانة. ولذلك إذاً فلن تتحمّل روزا البردَ وحده، فالبردُ أهونُ عليها من أن تنتفِض وتجفل كلّما لمستها إحدى تلك القواضم حين يُنهكها التعبُ ويستنفِد قواها. لذلك وجب عليها أن تدرك أنها إنْ هي غرِقت في النوم فقد تدهمها تلك الجرذانُ في الليلة الثانية أو الثالثة، عندما يطغى التعبُ على البرد، وتقضمها لتتأكّد إنْ هي فارقت الحياة وصارت قابلة للأكل.

كانت صلواتُها الخالصة مصدرَ دِفئها الوحيد خلال تلك الأيّام المتشابهة في الزنزانة. كانت تصلّي لنفسها أقلّ ممّا تصلّي لآرن، ولابنها ماغنوس، ملتمسةً من القدّيسة العذراء أن تبسط يدها الرحيمة عليها.

Twitter: @ketab_n

فإن كانت تصلّي لآرن أكثرَ مّما تصلي لنفسها فذاك ليس بدافع خالص الإيثار والتضحية. وحتى وإن كانت تعرف أنّها لا تملك ما تملكه بلانكا من قدرة على التفكير مثل رجل أُتي أسباب السلطة والجاهة فقد فهمت أنّ آرن سوف يعود إلى البلاد سالماً معافى، لكي تتحرّر من جحيم البرد ذاك، ومن مخالب الأمّ ريكيسا. فهي لا تصلّي له إذاً لأنها تحبّه أكثر مّما تحبّ أيّاً غيره فحسب، لكن لأنه سبيلها الوحيد إلى الخلاص.

عند قدومِ الربيع كانت رئتاها لا تزالان تقاومان، ولم تكن قد أصيبت بذلك السعال القاتل الذي كانت الأمّ ريكيسا تتمنّاه تارة وتخشاه تارة أخرى، وجاء الصيفُ بعد ذلك حاراً فاستحالت الزنزانةُ بذلك الحرّ مكاناً للانفراد والبرودة بدلاً من مكان للهمّ والغَمّ. وحين خلا المخزونُ من غلّته غادرت الجرذان المكانَ أيضاً بحثاً عن نصيبٍ في أماكن أخرى.

ومع ذلك كانت روزا تشعر بالوهن وتخشى أن تأتي سنة أخرى بذات العذابِ على آخر قواها، إن لم تمنحها القدّيسة العذراء عفوها ورحمتها.

لم تحدث أيٌّ من المعجزات، لكن نتردام أُرسلت إليها ملكةً متوّجة، وظلّ الأثرُ هُوَ هُوَ.

جاءت الملكة بلانكا إلى غودِم على رأس موكبٍ مهيبٍ، في بداية موسم جني اللفت، وأخذت مقرّات إقامتها في المضافة كأنها صاحبة المكان وصاحبة الأمر والنهي فيه. وقد عصفت وأمرت بأن يُؤتَى إليها بالأكل والشراب، واستحضرت ريكيسا خصّيصاً –فقد حرصت مثل الملك واليارل على ألاّ تناديها "الأم" ريكيسا– وأمرتها بأن ترعى ضيوفَها، مذكّرةً إياها بالقاعدة التي تقضي بأن يُعامَل كلّ زائر إلى غودِم كأنه المسيح شخصياً. فإن كان ذلك يسري على أيّ كان فشخص الملكة أجدرُ به وأولى.

استشاطت الأمُّ ريكيسا غضباً عندما استَنْفَدَت كلَّ ذرائعِها فلم تجدْ بدّاً من أن تلتحِق بالمضافة لكي تُؤنِّب تلك الوقحةَ التي كانت بلا ريبٍ ملِكةً في هذه الدنيا ولا تملك أيَّ سلطانٍ على مملكة الرب فوق هذه الأرض. فرئيسةُ الدير لا تدين

Twitter: @ketab_n

بأيِّ ولاءٍ لأيِّ ملكٍ أو ملكة، سواء تُوِّج هذا الملك أو هذه الملكة، أم لم يُتَوَّجا.

وذلك ما ذكّرت به في الحالِ عندما أخذت مكانَها في المكانِ الذي أشارت به إليها الملكة. لكنّ ريكيسا قالت إنها لا تملك إرضاءَ رغبةِ بلانكا في رؤية صديقتِها الغالية. فتلك الماكرة تُكفِّر الآن عن ذنوبَها على النحو الذي تستحقّه، ولذلك لا يحِقّ لها استقبالِ أيٍّ كان، سواء أكانت الزيارةُ زيارةً مَلكية أم غير ملكية. ففيما وراء أسوارِ غودمِ كانت إرادةُ الربِّ هي السائدة والغالبة وليس رغبة الملكة. ولم يفت الأم ريكيسا أن تؤكد أنّ بلانكا أدرى بذلك من غيرها.

أصغت الملكةُ بلانكا إلى ما قالته الأمُّ ريكيسا المتعجرفة عن إرادة الربِّ والبشرِ دون ارتباكٍ، دون أن تفارقَها ابتسامتُها الوقحة.

"والآن وقد أنهيتِ قوقأتكِ الماكرة عن الربِّ وعن أشياء أخرى لا نعتقد نحن أنكِ تجاهرين بها بصدقٍ لحظة واحدة —ما دمتِ كما تقولين واحدةً من اللواتي حظين بمعرفةِ الشكلِ الذي تمنحينه لهذه الإرادة من خلفِ هذه الأسوار – أدعوكِ لأن تخرسي وأن تنصتي قليلا إلى مَلِكَتِكِ"، قالت وهي تنطق بهذه الكلماتِ بلهجةٍ ناعمةٍ ومنسابة، وكأنّ أفضلَ نوايا الدنيا هي التي تحركها.

ما لبثت كلماتُ بلانكا أن شلَّت الأمَّ ريكيسا التي حرصت على ألا تنطق بكلمةٍ واحدة، وانتظرت البقيّة. كانت على يقينٍ من فعلِها، وكانت تعلم فيما يخص مملكةَ الربِّ وعبادِه أنّ ما مِن ملكةٍ واحدة لو قدِّر لها ان تنزل في ذلك المكانِ قبل حينٍ، تستطيع أن تُعنِّفَها، ولكنها لم تقدِّرْ بلانكا حقَّ قدرِها، وذلك ما أدركته في النهاية.

– اسمعيني جيداً ريكيسا، أردفت الملكةُ بنبرةٍ هادئة تكاد تكون خافتة. ففي رأيكِ أنك من يسوس الشؤونَ الربانية، أمّا نحن فلسنا سوى ملوك على الأرضِ مِن بين الفَانينَ عليها. وفي رأيكِ أننا لا نملك أمراً نأمرُ به في غودمِ. فالأمرُ كذلك ولا شك فيه. لكنْ صحيحٌ أيضاً أني لا أجد بداً من أن أخبرِكِ بنبأ سوف يحزِنُكِ كثيراً. بِنِت لم يعد مطران سكارا. لسنا ندري أين ذهب هذا التعيسُ مع عاهرتِه بعد أن أقصِيَ، وهذا أمرٌ لا يَعْنينا بتاتاً. لكنْ يبقَى أنه أُقصِيَ، وأنكِ لا تملكين الآن أيَّ

Twitter: @ketab_n

سَنَد تطمعين فيه من هذه الناحية.

تلقّت الأمُّ ريكيسا نبأَ إقصاء قريبِها دون ارتباكٍ لكنّ قلبَها سرعان ما اضطرب لذلك اضطراباً وامتلأ حزناً وانفعالا. وقد آثرتْ ألا تردَّ وأنْ تنتظر البقيّة.

– أنتِ تجهلين، ريكيسا، أضافت بلانكا بمزيدٍ من الهدوء والروية، أن عزيزَنا المحترم رئيس الأساقفة ستيفن قريبٌ جداً من الملك والملكة. وكما يعلم الجميع جيداً فمن الخطأِ القولُ إنه خاضعٌ تابعٌ لنا وأنه ينصاعُ لأيِّ رغبةٍ من رغباتِنا حفاظاً منه على وحدةِ البلاد ووئامِها. لا شك أننا لا نستطيع أن نقول هذا، ففي ذلك إهانةٌ خطيرة لهذا الخادمِ النبيلِ للربّ على هذه الأرض. فلنقلْ إذاً إننا متفقون كل الاتفاق؛ المطرانُ والملك ونحن– وإنه من المؤسف أن يكون مصيرك الإقصاء. بيرجر بروزان يارلنا، حريصٌ أيضاً كل الحرص على شؤون الكنيسة، فهو كثيرُ الحديث عن أديرةٍ ينوي إنشاءَها، وقد وعد بمبالغَ هائلةٍ من المالِ لإنجازها. فلعلكِ فهمتِ الآن ما أقصدُ إليه، ريكيسا.

– تقولين إنكِ مصرةٌ على رؤيةِ روزا، قالت ريكيسا وهي تدمدم بين أسنانِها. وأنا أقول لكِ إن لا شيءَ يحول دون ذلك.

– حسناً، ريكيسا، فأنتِ إذاً أقلَّ غباءً ممّا يبدو عليكِ! صاحت بلانكا بما تملك من فرحٍ ولطفٍ. لكنْ حتى أتأكد أنكِ فهمتِ جيداً ما أردنا قولَه فإننا نُحذّركِ حتى لا تتسبّبي في أيِّ كدرٍ لصديقنا الطيب رئيس الأساقفة. هذا كلّ ما في الأمر! والآن بإمكانكِ أن تنصرفي، وعليكِ فقط أن تسرعي بإحضارِ الشخص إياه.

وهي تنطِق بهذه الكلماتِ ضربت بلانكا يداً بيدٍ وهي تصرف ريكيسا بذاتِ الكيفية التي صَرفت بها ريكيسا السيسيليتين مرّات عديدة، كما تُصرَف الإوز.

وعندما وصلت روزا إلى المضافة ظهرت بمظهرٍ يثير شفقةً لا أروعَ منها بسببِ ما كابدته منذ مغادرة الموكب الملكي. وفي الحالِ ارتمت السيسيليتان كلٌّ منهما في أحضانِ الأخرى، وإذا بالدموعِ تنحدِر مدراراً من عيونهما.

سُرَّتْ بلانكا كثيراً بالمكوثِ ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ أمضتهما الصديقتان معاً في مضافة غودِم.

Twitter: @ketab_n

بعد تلك الزيارة لم تُرسَل روزا إلى الزنزانةِ على مدى بقيّةِ الأعوام التي أمضتها في الدير. وقد أُبيح لها الطعامُ الوفيرُ فاستعادت به قواها وألَقَها.

* * *

أقبلت سيسيليا روزا وأولفيلد إيموندسدوتر خلال السنوات التالية على تعلم فنّ الحياكة على الرغم من صعوبته، وتعلّمتا جَمْعَ وتخضيبَ معاطفِ الأسيادِ والسيّدات، وأتقنتا طرْزَ الأسلحةِ على ظهور تلك المعاطف. وما انفكت الطلباتُ تنهال على غودهِم، قادمةً من كل الأنحاء، حتى من الأسرِ قليلةِ النفوذِ التي كانت تودع معاطفَها على سبيل الاختبار ثم تعود لتتسلمها وقد صار مظهرُها لائقاً مقبولا.

ظل الهدوء والأمان يحيطان بالفتاتين وهما تعملان معاً، فلم يضطرْ أحدٌ لأن يفرض عليهما الهدوءَ، لأن عملَهما صار يجلب رأساً ودون أي عائقٍ المزيدَ من قِطع الفضةِ إلى صناديقِ غودهِم، أكثر مما يدرّه أيُّ نشاطٍ آخر. ولَكَمْ كان وكيلُ المالية، ذلك الكاهنُ القانوني البائس، يبتهِج لبراعةِ روزا وأولفليلد فيسارع للحديثِ عن تلك البراعةِ إلى الأمِّ ريكيسا كلما واتَتْهُ الفرصة. لكنّ ريكيسا لا تتأثر لذلك ولا تفقِد هدوءَها وتكتفي بهزِّ الرأسِ وتستغرق في أفكارِها. فهي بالطبع لا تستطيع أنْ تنسى سيف ديموقليس المعلَّقِ فوق رأسِها. لأنّ الأمَّ ريكيسا لم تعدْ أكثرَ غباءً بقدر ما صارت أكثرَ طيبة.

صار في وُسع الملكة أن تزور غودهِم أكثرَ من مرّةٍ واحدة كلَّ عام، وقد تمضي فيه يوماً كاملا إنْ وسِعها المقامُ فيه يوماً كاملا، فتشترط أن تخدمها روزا وأولفيلد، ولكن ذلك لم يُتَحْ لها أبداً، لأنّ الملكة ترافقها مدورات السفود والسقاةُ والفتياتُ المكلفاتُ بمهام النساء. كانت تلك الأيامُ أياماً جميلةً كثيرا ما تحدثت فيها النزيلتان فيما بعد، فكان من البديهي أن تظل صداقةُ الملكة لروزا ممتدّةً طوال العمر. ولا أحد فهِمَ تلك الصداقةَ أحسن مما فهمتها الأمُّ ريكيسا التي استخلصت منها دروسَها، حتى وإن كانت أسنانُنا تئزُّ لتلك الدروسِ أزّاً.

في العام الثالث جاءت بلانكا وهي تحمل أحلى أخبارِها. لقد مرّت بفارنيم

Twitter: @ketab_n

لكي تبحث مع الأب هنري – دون مساسٍ بالحشمة واللياقة ومع احترام كافة القواعد وكل ما يجب الالتزام به – عن أفضل الكيفيات التي يمكن أن ينقل بها الأخ لوسيان معارفه في مجال البستنة والطب، إلى أكثر أخوات غوديم استعداداً لاستيعاب هذه المعارف، وهي الأخت ليونور.

لكنّ الذي تقرّر في ذلك اليومِ لم يكن أهمَّ ماكان الأبُ هنري يرغب في قوله. لقد تلقى أنباءً طازجةً عن آرن ماغنوسون ونَقَل أن هذا الأخيرَ كان حتى عهدٍ قريبٍ يعمل ضمن الفرسانِ الذين يحرسون الساحة القوية لفرسان هيكل الربّ التي تدعَى طرطوس. كانت طرطوس تقع ضمن جزء فلسطين المعرف باسم طرابلس. كان آرن الذي أنهَى مهامه بحمِل المعطفَ الأبيضَ، ولن يتأخر في الانضمام إلى خدمةِ أحد الإخوةِ من أصحاب الرتب العالية في داخل المدينة المقدسة.

نقلت بلانكا هذه الأنباءَ في بداية الصيفِ أثناء تفتُّح أزهار أشجار التفاح، ما بين المصهر والإسطبل والمضافة. وعند سماعِ هذه الكلماتِ ضمّت روزا صديقتَها إلى صدرها ضمّةً ارتعش لهاكاملُ جسدِها. وحين أنهت عناقَها ذهبت وحيدةً تتنزه تحت الأشجارِ وهي لا تكترث لذلك السلوكِ الذي كان سيكلّفها أكثر من أسبوعٍ في الزنزانة في زمن صرامة الأمّ ريكيسا التي لا حد لها. فما من آنسةٍ واحدة من آنسات غوديم يحق لها أن تتجول على ذلك النحو، لكن يبدو أنّ كلَّ المحرمات قد رُفِعت عن روزا في تلك اللحظة من السعادة الغامرة. لقد صارت وكأنّ غوديم لم يعد غوديم!

هو حيٌّ! حيٌّ! صار هذا الخاطرُ يجول في بالِها كما تهرول الماشية حين تتهوّر فتكسح كلَّ شيءٍ في طريقها. لا شيء غير ذلك بقي هناك، في تلك اللحظة!

انتصبت القدسُ مدينة المدائن أمام عينيها، فرأت طرقاتها الذهبية، وكنائسها المتألقة بياضاً، وسكانها بطيبتهم ووقارهم ووجوههم السمحة. وتخيلت حبيبَها وهو مُقبلٌ عليها بمعطفِه الأبيض المزيّنِ بصليبِ الربّ القرمزي. إنه الحلمُ الذي لم يُفارقها سنوات طويلة.

Twitter: @ketab_n

* * *

في غوديم صار الزمنُ ينساب دون أن يشعر بانسيابه أحد. لم تشهد حدثاً قط، وكل شيءٍ أضحى شبيهاً بما هو معتادٌ تماماً: الفصولُ تتلو الفصولَ والمرتِّلُ يتلو تراتيلَه الواحد تلو الآخر، وصانعو المعاطف يستمرون في صناعة المعاطف التي لا تختفي بلا انقطاع. وفي قلبِ ما كان يبدو ثابتًا تأتي التغيّراتُ التي لا يشعر بها أحدٌ إلا بعد أن تكبر ويزداد كِبرها.

لم يحدثْ أيُّ شيءٍ في السنة الأولى التي جاء فيها الأخُ لوسيان إلى فارنيم لكي يلقِّن الأختَ ليونور الزرعَ الذي ينبُت في طبيعة الربّ السخية، ويعلمها ما كان نافعاً لشفاء الرجال وما لم يكن نافعاً إلا لقصورهم. وسرعان ما اعتاد الجميع على رؤيةِ الأخ لوسيان برفقة الأخت ليونور وهما يقضيان الساعات الطوال معاً في البستان، وقد نسي الجميع بسرعة أنهم لم يكونوا في البداية يسمحون لهما بأن ينزويا معاً، لأن الأخ لوسيان سرعان ما أصبح زائرا أليفاً مألوفاً، حتى كأنه أضحى جزءاً من أجزاء غوديم.

وعندما تواريًا كلاهما في الحدائق الكائنةِ أمام السور الجنوبي وهما يتحادثان بصراحةٍ وبطيبة خاطرٍ ما مِن عينٍ ضنينةٍ لاحظتْ في شهرِهما الثامنِ ذاكَ ما كان يسعُها أن تلاحظه على الفور عندما كانا في شهرِهما الأول.

سعت روزا وأولفيلد إلى مزيد من رفقةِ الأخت ليونور حتى تُعلِّمَهما جزءاً مما تعلّمته هي في فارنيم، ومن الأخ لوسيان. كان عالَماً جديداً وغنياً بالإمكانيات، بدا وكأنه قد انفرج أمامهما. ما أروع أن نرى ما أنجزه الإنسانُ في بستانٍ بيديه وبعونِ الربّ! صارت الفواكهُ تكبر وتصمد أكثرَ في الشتاءِ، وصارت شرباتُ العشاء المألوفةُ تغيِّر نكهاتِها أكثر فأكثر، وصارت قواعدُ الديرِ تحظُر البهارات القادمةِ من بلادٍ بعيدة، لكنّ ما نبتَ في غودبم لم يقع تحت طائلةِ هذا المحظور.

على هذا النحو حصلت روزا وأولفيلد على ترخيصٍ باجتيازِ أسوارِ الدير، في الاتجاهين. فقد صارتا تنحدران إلى البستان لكي تعتنيا بالأشجارِ وأحواضِ الزّرعِ

Twitter: @ketab_n

من دون أن يعترِضَهما أحد. هذا التحوُّل جاء شيئاً فشيئاً حتى بدا وكأنّ أحداً لم يفطنْ له. فقبل بضعِ سنواتٍ فقط كان جزاءُ أيِّ تصرّفٍ من هذا القبيل عقاباً بالعصا أو الزنزانة.

صار الوقتُ وقتَ جَنْيِ الغِلالِ عندما يكتسب التفّاح طعمَه الحلوَ، وعندما يضيءُ القمرُ بلونِه الأحمر ليلا، وعندما تفوح الأرضُ بروائحِ الفواكه الناضجة ورائحةِ الندى. لم يكن لروزا شأنٌ خاصٌّ في البستان، وإذا جنَّ الليلُ مَنعت أيَّ نشاطٍ حقيقي. كانت تمشي بمفردِها لكي ترى القمرَ وتستمتع بروائحِ الليلِ الثقيلة. فلا تتوقّع أن تصادف أيّاً كان، ولعل لهذا السبب لم تكتشف الخطيئةَ إلا عندما رأتها أمام عينيها.

كان الأخُ لوسيان ممدّداً على الأرض رأساً.، ما بين شجرتين مُقزّمتين، قُطِفَتْ أعنابهما. وكانت الأخت ليونور جالسةً فوقَه، وتركبه في تلذُّذٍ لا تحفّظ فيه، كأنهما زوجٌ وزوجةٌ في عزّ الزمن.

كانت تلك هي فكرةُ روزا الثانية. أما الفكرةُ الأولى التي لا يمكن إلا أن تُحدِث الخطيئةَ الرهيبة فقد تسمّرت في مكانِها، كأنها سُحِقَت سحقاً، أو كأنّ سِحراً استحوذ عليها فجأة، فلم تقدر على صراخٍ أو هروبٍ ولا حتى على أن تُغمِض عينيها.

لكنّ الخوفَ ما لبث أن تلاشى ليفسِح المكانَ لشعورٍ غريبٍ من الحنانِ كأنها صارت شريكةً في تلك الخطيئة. وبعد لحظاتٍ قصيرة لم تعدْ تفكّر في تلك الخطيئةِ وإنما في حنينِها واشتياقِها هي، وفي أنّ ما تراه الآن كان يمكن أن يكون: آرن وهيَ، حتى إن لم يغرقا يوماً فيما غرِقت فيه ليونور ولوسيان، في تلك الخطيئةِ التي فاقَت كلَّ الخطايا الأخرى.

أقبَل الغسقُ سريعاً، وعندما لفظ الأخ لوسيان والأختُ ليونور آهات مُتْعَتِهما الصغيرة وَثَبَتْ فوقه وتمدّدت إلى جانبه، وشرعا يتلامسان ويتداعبان في لطف. وعندئذ لاحظت روزا أنّ ملابسَ الأخت ليونور قد تبعثَرت فأبانَت عن ثدييْها فصار الأخُ لوسيان يداعبهما وهو ما يزال ممدّداً على ظهره منقطع الأنفاس.

Twitter: @ketab_n

لم يشُقَّ أمرهُما كثيراً على روزا التي آثرت ألا تحكم حكماً قاسياً على ما شهدت عليه لأنّ أمرهما أقربُ إلى الحب منه إلى الخطيئة الفظيعة التي تحظُرها قواعدُ الدير. وتوارت في تكتّم وبخطىً خفيفة حتى لا يسمعها أحدٌ، وهي تُسائل نفسَها إنْ لم تكن شريكةً في تلك الخطيئةِ لأنها لم تستنكرها. ففي تلك الليلةِ صلّت كثيراً لِلسيدة العذراء التي كانت في رأيِها أرحمَ من غيرها بالمُحبّين، وسألتها على الخصوص أن تحمِيَ حبيبها آرن، وسألتها أيضاً أن تغفر ذَنْبَ الأخ لوسيان والأخت ليونور.

ظلت روزا تخفي ذلك السرَّ طوال الخريف ولم تكشفه حتى لأولفيلد نفسها. ثم جاء الشتاءُ ليُنهي أعمالَ البستنة، فلم يعد للأخ لوسيان من مُبرّرٍ للمجيءِ إلى غودِم قبل مجيءِ الربيع.

صارت روزا خلال الفصل الباردِ تلتقي كثيراً مع أولفيلد في فيستياريوم لإنجاز الكثيرِ من أعمالِ الحياكةِ والتخضيبِ والتطريز. وكثيراً ما كانت روزا ترصد خلسةً حركات ليونور التي بدت محفوفةً بهالةٍ أقوى مما يسَعُ ظلَّ ريكيسا القاتمَ أن يُطفئَ بريقَه. كانت الأختُ ليونور دائمةَ الابتسام، وتدندنُ دائماً ببعضِ التراتيلِ أثناء العمل، حتى يخال من يراها أن خطيئتَها قد جعلت روحَها أكثرَ صفاءً وأكثرَ جمالا، لأنّ الإشراقَ لا يفارقُ عينيها أبداً.

وذات يومٍ من أيامِ الصومِ التقَتْ سيسيليا روزا والأختُ أولفيلد على انفرادٍ في فيستياريوم. ففي تلك الأثناءِ لم يكن العملُ مُلزِماً، ومَن رغِبن في العمل سعَين إليه حتى ساعات الليل المتأخرة. كنّ يُخضّبن الأقمشة باللونِ الأحمر، وكانت تلك المرحلة تسير بسرعةٍ لا سيما إن تضافرت فيها جهود العاملات. لكنّ روزا لم تستطع أن تكظم صمودَها أكثر مما فعلت.

– لا تخافي ممّا سأقوله لكِ، أختي ليونور، قالت في البداية وهي لا تدري مِن أين تأتيها الكلماتُ التي جعلتها تنطق بها فجأة. إنّي أعرف سِرَّكما، سرّ الأخ لوسيان، وسرَّك أنت، لأنني باغتكما من حيث لا تدريان ذات مرّةٍ في البستان. وقد قلتُ لنفسي: إنْ كنتُ أعرف السرَّ فقد يطلع عليه غيري أيضاً. فكلاكما في خطرٍ إذاً!

اصفرَّ وجه ليونور وخرّت شجاعتها وجلست وهي تخبئُ وجهَها بكلتا يديها.

Twitter: @ketab_n

ومكثت على تلك الحالِ برهةً قبل أن تجرؤ على النظرِ في روزا التي جلست هي أيضاً.

– يقيني أنك لن تشي بنا، أليس كذلك؟ همهمت الأختُ ليونور أخيراً بصوتٍ خافتٍ لا يكاد يصل إلى مسمعِ روزا.

– لا، يا أختي، ثِقي أني لن أنقل ذلك إطلاقاً، أجابت روزا في ضيقٍ وكَدَر. أنت تعلمين أني في غودم لأُكَفِّرَ عن خطيئةِ حُبٍّ مثل خطيئتك. لن أخونك أبداً، لكني أريد أن أحذّرك. طال الأمدُ أم قصر سيُباغتكما أحدٌ ويذهب لينقُل خبركما إلى الأمّ ريكيسا. ومن يدري، ففي أسوأ الأحوالِ قد تكشف أمركما رئيسةُ الدير نفسها. إنك تعرفين كما أعرف كم هي سيئة!

– ظني أنّ القديسةَ العذراء قد غَفرت لنا وحَمَتنا، قالت الأختُ ليونور بعد هنيهة، هي تسدل جفنيها كأنها على غير يقينٍ ممّا قالته.

– لقد وَعَدتِها بالطهارة، فكيف لكِ أن تظني بهذا الاستخفافِ أنها سوف تغفر لك بعد أن نكثتِ وعدَكِ لها؟ سألت روزا وقد فاق اندهاشُها صدمتَها من هذه الأفكار الأثيمةِ التي أخذت الأختُ ليونور تنطق بها بلا تحفظٍ ولا احتشام.

– لأنها حَمَتْنا. لا أجدَ غيرك – أنت التي لا تكنّينَ لنا إلا خيراً – رآنا ولا أحد فهِم ما كنا نفعله. لأن الحبَّ هبةٌ رائعة... أروع من أيِّ شيءٍ آخر. إنه الشعور الذي يجعل الحياةَ جديرةً بأن نحياها! أجابت الأختُ ليونور وهي ترفع صوتَها وكأنها تتحدّى، ولم تعدْ تخشَى أن تسمعها الآذانُ المتطفلة التي لا تحفظُ سرّاً.

مكثت روزا باهتةً لا تنبس بكلمة. لقد أحسّت أنها تقف فجأة في قمّةِ بُرجٍ امتدّ فيه نظرُها إلى مساحات شاسعة لم تكد تصدّقْ وُجودَها. وفي الوقت نفسه خشِيت أن تفقِد توازنها وتخرَّ أرضاً. لم يخطر لها يوماً أنّ أختاً راهبة وَهَبَتْ حياتَها للزوجِ ستنكثُ وعدَها. فخطيئتُها هي كخطيئةِ ليونور، لكنها خطيئةٌ مع حبيبِها وليسَ مع راهبٍ أَخَذ على نفسِه وعداً هو أيضاً. ولذلك فخطيئتُها خطيئةٌ صغيرةٌ إنْ قورنت بخطيئة الأخت ليونور، ومع ذلك فخطيئتُها واضحةٌ لا لبسَ فيها، وذاك ما أثبته الكتابُ المقدس إثباتاً لا جدال فيه، بيد أن الذي يستعصي على الفهم أن الكتاب المقدسَ قد عدَّ تلك الخطيئةَ من بين أسوأ الخطايا جميعاً.

Twitter: @ketab_n

عندئذ تذكرت سيسيليا روزا إحدى القصص فأخذت ترويها للأخت ليونور، لكنها تعثّرت حين بدأت في سردِها وهي تُفتّش في ذاكرتها.

إنها قصةُ فتاةٍ أُرغِمت على الزواجِ برجلٍ عجوزٍ لم تشأْ أن تعيش معه بأيِّ حالٍ، لأنها كانت تحب فتىً يدعى غونار. فلم تفقد هذه الفتاةُ وفتاها الأملَ يوماً وفي النهاية تأثرت السيدة العذراء بدعواتهما فأنقذتهما معجزتُها. ويقال الآن إنهما يعيشان في سعادة.

كانت الأخت ليونور قد سمِعت هذه القصةَ أيضاً، فهي قصة شائعةٌ في فارنيم وكثيراً ما رواها الأخُ لوسيان. لقد أرسلت السيدة العذراء راهباً صغيراً من هذا الدير لكي يقِف حاجزاً أمام هؤلاء الرجالِ الأشرارِ. دون أن يرتكب خطأً قتَل الشخصَ الذي كان يستعدّ للاحتفال بزواجه بالفتاة غودرون. وهكذا صارت كلُّ الخطايا تتلاشَى أمام حبِّ الربّ، والإيمان الراسخ بهذا الحب. فالقتلُ نفسُه لم يعد جريمةً إنْ أشفقَت السيدة العذراء بالعاشقين الذين يلتمسون عونَها.

إلى هذا الحدّ كانت القصةُ رائعةً جداً. لكنّ روزا ما لبثت أن قالت في حزنٍ أن فَهْمَ القصةِ ليس يسيراً رغم مظهرِها. لأنّ ذلك الراهبَ الصغير الذي أرسلته السيدة العذراء لنجدة الفتيانِ العاشقين هو آرن ماغنوسون، ولا أحد غيره. وبعد ذلك بقليلٍ عُوقِب هذا الأخيرُ بسببِ حبِّه، وقد قاسمته سيسيليا ذلك المصير. فماذا كانت إذاً نوايا السيدة العذراء؟ فذاك ما تريد معرفتَه منذ عشر سنواتٍ تقريباً، ولكنّها لم تجد للسؤال جواباً شافياً.

مكثت الأختُ ليونور صامتة. لم تكن تعرف أنّ روزا كانت خطيبةَ ذلك الفتى الذي يُدعَى آرن، لأنّ الأخَ لوسيان لم يُحدّثها يوماً عن هذا الجزءِ من القصة. صحيحٌ أنه أشار فيما بعدُ إلى أنّ ذلك الراهبَ الصغيرَ قد تحوّل إلى محاربٍ رهيبٍ في جيشِ الربّ في الأرض المقدسة، لكنه لم يَرَ في ذلك سوى شيءٍ نبيل وعظيم، وكأن السيدة العذراء لم تفعل في سبيل ذلك إلا خيراً.

هذه المحاورةُ الأولى، وكلُّ التي تلَتها كلّما جمَع اللقاءُ بينهما على انفرادٍ سرعان ما وطّدت القُرْبَ بين روزا والأخت ليونور. فبعد أن طمأنت روزا الأختَ ليونور

Twitter: @ketab_n

وأخذت الإذنَ منها كشفَت كلَّ شيءٍ إلى أولفيلد، ومنذ تلك اللحظة صرن ثلاثةً، يترافقن في الفيستياريوم، أثناء سهرات الشتاءِ الطويلة، ويعملن بحماسةٍ لم تجد الأمُّ ريكيسا نفسُها بُداً من مَدْحِها وإطرائها.

ومنذ ذلك الوقت صرن يتحدثن في الحبِّ بلا انقطاع، وكأنهنّ في رقصةٍ لا تنتهي. فذات يوم حين كانت في عُمر أولفيلد الحالي، عرفت ليونور الحبَّ، لكنّ قصتَها انتهتْ نهايةً سيّئة لأسباب مالية. فالرجل الذي أحبّته تزوج أمام الربِّ بأرملة دميمةٍ لم يكن يحبّها. وقد وبّخها والدُها على بكائِها، وقال لها ألا تُشغِل بالَها بهذه التفاهة. أوّلاً لأن النساءَ لا يفقهن شيئاً في مسائلِ الزواجِ، وثانياً لأنّ الحياةَ تستمرّ بعد مغامراتنا العاطفية الأولى.

كانت الأخت ليونور على يقينٍ تامٍّ بعكس ما ادعاه والدُها وأقسمَت بألا تحب رجلاً بعد ذلك اليومِ، وبأنها لن تحب سوى الزوج العلوي. ثم دخلت إلى الديرِ وسعت لأن تنذر نفسَها لتلك الغايةِ منذ عامِها الأوّل من رهبانيّتِها.

فإذا كانت القديسةُ العذراء قد أثبتت لها شيئاً فهو أن الحبَّ رحمةٌ يمكن أن توهَب لأيٍّ كان، وفي أيِّ وقت. لكنّها بلا شكٍّ تؤيد والِدَ الأختِ ليونور الذي ذَكر في تهكّم مغامراتِ الشبابِ العاطفية وأكّد أنّ الحياةَ مستمرةٌ من بعدِها.

وتضاحكَتْ النساء الثلاثُ قهقهةً رغم أنوفهن، وهُنّ يتخيّلن مدى استغرابِ الرجلِ لو علِم إلى أيِّ حدٍّ تقولُ الأحداثُ إنه على صوابٍ، وبأيِّ صورةٍ تؤكد تلك الأحداثُ صوابَه ذاك!

في خلال هذه المحادثاتِ جُرَّتْ روزا وأولفيلد جراً لمشاطرةِ جزءٍ من خطيئةِ الأخت ليونور. وعندما شعرت الثلاث أنّ الوقتَ قد طال بهنّ كثيراً وأنهن قد أخذن يتحدّثن في أمورٍ لا أحد يتحدث فيها غيرهنّ في الدير ارتفعت الحرارةُ في وَجْناتِهِنّ وتسارع تَنفُّسُهُنّ. لقد صار للثَّمرَةِ الحرامِ أريجٌ طيبٌ حتى إنْ تذوّقن طعمَ الثمرةِ قَوْلاً لا فعلاً!

شيءٌ واحدٌ كانت الأختُ أولفيلد وروزا على يقينٍ منه. لقد عَرفتا الحبَّ، لكنّ الحبَّ عرّضهما للخطرِ أيضاً وكان جزاؤهما القصاصُ، فحُكِم على روزا بسرِّ التوبةِ

Twitter: @ketab_n

عشرين عاماً، وعاشت الأختُ ليونور مهدّدةً بعقوبةِ النّفي طوال العمر.

أما أولفيلد فقد غيّرت حياتَها تلك القصصُ التي رَوَتْها لها صديقتاها أثناء تلك الأحاديثِ التي جمعتهنّ في السرِّ. فهي لم تؤمنْ يوماً بالحبِّ، ولم ترَ في أغاني العشقِ وقصصِه سوى أساطير الغابِ وقصصِ الجنيّاتِ والعفاريت التي يطيب سماعُها أثناء السمَر، في سهراتِ الشتاء الطويلة، والتي لا صلة لحياة الناس بها بتاتاً. فهي لا تعرف عن الحبِّ أكثر ممّا تعرفه عن قصص الجنيات والعفاريت.

كانت صبيةً عندما قتَل كنوتْ والدَها. لقد أُبعِدت على مركبةٍ ثلجية مع والدتها وإخوتها. وبعد مرور وقت طويل، وفيما لم يكن قد بقِي من ذكريات والدِها سوى القليلِ تزوّجت أمُّها من رجلٍ جديد اختاره لها يارلٌ من يارلات لينكوبينغ. لكن أولفيلد لم تلمس ما يشبه الحبَّ بين هذا الرجلِ ووالدتها.

في النهايةِ حدّثت نفسها قائلة: "إذا كنتُ لهذا السبب أفتقد حياتي الدنيوية فإني أستطيع أن أعيش داخلَ الدير ما بقِي لي من عُمْرٍ، وأنْ أنذُر نفسِي للربِّ، لأنّ حياة الأخت الراهبة أفضلُ من حياة الآنسة." لكنْ ما مِن شيءٍ يجعلها تشكُّ في قيمةِ ما تبقّى من عمرِها في الدير سوى خوفِها من انصياعها الأبدي إلى الأمِّ ريكيسا. لكنّها تأمل في أن تأتي إليهنّ رئيسةُ دير أخرى، أو أن تذهب لتعيش في أحدِ الأديرة التي ينوي بيرجر بروزا إنشاءَها. لأنّ سيسيليا روزا والحال هذه لن تمضي كلَّ حياتِها في غودهم، فذات يومٍ سوف يفترِقنَ، وساعتَها لن يبقَى لها من سندٍ سوى حبِّ الربّ.

ولَكَمْ فزعت روزا وليونيور من تلك الحياةِ القاتمة التي تنوي أولفيلد أن تحياها، وطلبتا منها ألا تنذر نفسَها لخدمة الدير، وإن شاءت أن تعبد الربَّ والقديسةَ العذراء فلتفعل، لكن شريطة ألا تُفرّط في حريتِها. وقالت أولفيلد معترضة إنها لا تنتظر من الحياة شيئاً بعد أن فارق الحياةَ كلُّ ذويها، لكن روزا قالت لها في حماسة إن ذاك أمرٌ يمكن تصليحه، وأن لا شيءَ يستحيل في هذا الشأن، طالما ظلت الملِكةُ بلانكا صديقة عزيزة.

من خلالِ رغبتها في أن تطرد من عقل أولفيلد فكرةَ النذور قالت سيسيليا

Twitter: @ketab_n

بصوتٍ عالٍ أشياءَ لم تقل إلا نصفَها حتى تلك اللحظة أو قالتها في سرِّها. فقد أقرّت في داخلها أنها قد أفرطت في حبِّ ذاتها وخشِيت أن تبقى وحيدةً مرّةً اخرى في غودبم. لكنّ ما قيلَ قيلَ وانتهَى وعليها أن تناقش الأمرَ مع بلانكا خلال زيارتِها القادمة إلى غودبم.

ومع ذلك فإن الذي ستُحدِّث به بلانكا تأملاتٌ ستجعل وَجْنَتَيْها تحمرُّ خجَلا. فعندما حُكِم عليها بقضاء عشرين عاماً خلف أسوار غودبم لم يكن عمرُها قد جاوز سبعةَ عشر عاماً. ولمّا حاولتْ أن تتخيّل كيف ستكون في السابعةِ والثلاثين لم ترَ سوى عجوزٍ أَحْنَتْها السنونُ واستنفَدت قواها. لكنّ الأخت ليونور في السابعة والثلاثين من عمرها، ومنذ أن عرفت بركةَ الحب صارت تَفيض قوةً وشباباً.

لذلك إذاً قالت روزا لنفسِها "إذا لم يقاطعني الأمَل ولم يساورني الشكُّ قط فقد تكافئني القديسة العذراء وتجعلني أتألّقُ كتألّقِ الأخت ليونور في سنّ السابعةِ والثلاثين".

* * *

لم يُشبهْ ذلك الربيعُ أيَّ ربيع آخر. لقد حمل معه مفاجأة زياراتِ الأخ لوسيان، لأنّ البستانَ في حاجةٍ إلى أعمالٍ كثيرةٍ، ولأنّ عطشَ الأخت ليونور للمعارفِ بَدا كالنارِ التي لا تنطفئ. لقد صارت روزا وأولفيلد تنفقان الكثير من وقتهما للزراعة، ولم يظهر وجودُهما خارجَ الأسوار أثناء وجودِ الراهبِ خارجها، إلا طبيعياً جداً. فعلى هذا النحو لم يفكّرْ أحدٌ أنّ أختاً أو آنسةً تقِف بمفردها مع رجلٍ في غودبم.

ومع ذلك فلم تتخلص روزا وأولفيلد إلا بصعوبة من مهمة تلك المراقبة، لأنّ الحراسةَ التي كانتا تؤمّنانها لم تكن إلا لحمايةِ المذنبين. فهكذا صارت الأختُ ليونور والأخُ لوسيان يقضيان مزيداً من الوقتِ في حميميةٍ لم تكن متاحةً لهما في أيِّ وقتٍ آخر.

أكثرُ ما كان يُؤسف له أنّ المعاطفَ التي صُنِعت خلال الشتاء اختفت سريعاً

Twitter: @ketab_n

قبل مجيءِ الصيف. كان ذلك طيّباً لِماليةِ الديرِ، لكنه يُكرِه روزا وأولفيلد على العودة إلى إلى الفيستياريوم. ففي الحالِ شرح الأخُ لوسيان للأخت ليونور أن علاجَ المشكلةِ ليس عويصاً. وما لبثت الأختُ ليونور أن أخبرَتْ بذلكَ صديقتَيها اللتين لم يسبقْ أنْ خاطبت أيٌّ منهما الراهبَ خطاباً شخصياً مباشِراً. فإذا كانت المعاطفُ تُصرّف على ذلك القدرِ من السرعة فذاك يعني أن أسعارَها زهيدةٌ جداً، لذلك يكفي رفعُ تلك الأسعار لكي تُباع ببطءٍ أكبر. وسوف يتيح ذلك أيضاً تنظيمَ العملِ بشكلٍ أفضل، وتحقيق المزيدِ من الإيرادات لخزينةِ الدير.

كان ذلك كأنه ضربٌ من السحرِ الذي ليس من السهلِ فَهمُه، لكن الأخ لوسيان أعطَى صفحاتٍ من نصٍّ يشرح كلَّ ذلك، ويسْخَر من ممارساتِ وكيلِ المالية في غودبم. لقد رأى الأخ لوسيان أنّ جهْلَ كاهن سكالا القانوني بالأمور المالية أمرٌ لا لَبْسَ فيه، لأنه لم يُمسِك حسابَ إيرادَ المبيعات والمصروفات.

قصصُ العدّادات والحسابات هذه أغرقت سيسيليا روزا في حالةٍ من الحَيرةِ والإرباك، وكأنّ قائلاً قال إنّ بالإمكانِ تحسين الأحوالِ بطرقٍ أخرى غير العملِ القائم على المزيد والنماء. فقد فاتحت روزا الأختَ ليونور التي تحدثت في الأمر مع الأخ لوسيان. وقد أحضر الأخُ لوسيان كتباً في الحساباتِ من فارنيم، وعرَضها أوّلا على الأختِ ليونور، حتى تفهمها، ثم تُخبِر بها روزا لكي تستوعبها بدورها.

وكأنّ عالَماً فكرياً جديداً قد انفتَح أمام سيسيليا التي سرعان ما تجرأَتْ فشاطرت أفكارَها الأمَّ ريكيسا التي أخذَتْها في الحالِ قهقهاتُ الازدراءِ من تلك الابتكارات الجديدة.

مع ذلك اعتادت بلانكا عند كلِّ بدايةِ صيفٍ أن تزور غودبم، وكانت الأمُّ ريكيسا تحرص تحسباً لهذه الزيارة أن تُبدي قدراً من الاسترضاءِ والتسامحِ، حتى وإنْ لم يغيّر ذلك شيئاً ممّا كانت تفكّر به في دخيلةِ نفسِها. فعلى هذا النحو طُلب من دير فارنيم أن يُزوّد غودبم بالرّقّ وبالكتب، فوجد الأخُ لوسيان في ذلك فرصاً إضافية لزيارة غودبم. وقد حصل من الأمّ ريكيسا أيضاً على رخصةٍ بأن يُعلِّم جونس، الراهب القانوني القديم، وكذلك سيسيليا روزا، طرقَ تنظيم الشؤون في

Twitter: @ketab_n

غودبم. فالشرط الأوّل كان أن لا يخاطب الأخُ لوسيان روزا رأساً، وأن كلَّ ما يجب قولُه لا يكون إلا بوساطةِ وكيل المالية. لكنّ هذا الشرط ما لبث أنْ جرّ بعضَ المصاعبِ المُكدّرة، لأنّ الفتاةَ أسرع استيعاباً من جونس الذي كان دائمَ الاشمئزاز والتذمر.

لم يكن الأخ لوسيان يَفْقَهُ من فنِّ الحساباتِ أكثر ممّا يَفْقَهُ فيه باقي رهبان فارنيم، لكنّه مع ذلك لم يرَ في شؤون غودبم سوى مظهرِ الفوضى العارمة. لم يكنِ المالُ بالتأكيد هو الذي ينقصُ في غودبم، لكنّ الذي كان يُثير القلقَ هو الخللُ في التوازنِ بين حصّةِ هذا المالِ نقداً وبين حصةِ الديونِ والبضاعةِ التي دخلتْ ولم يأتِ صرفُها بعدُ. لم يكنْ جونس يعرِف بالضبطِ ما يحويه صندوقُ المالِ، وكان حسبُه أنْ يُقيّمَ المالَ فيه بملءِ الكفّ نقداً: فقد قال إنّ الصندوق يحوي عشرَ حفنات، وهو ما يكفِي لبعضِ الوقتِ، ولكنْ إنْ صارت خمسَ حفنات وَجَبَ العملُ على جَلْبِ المزيد من الدُّخول.

وقد بدا أيضاً أن بعض الإيجاراتِ قد تأخر تسديدُها للصندوقِ، لا لِسببٍ آخر غير النسيانِ. كانت روزا يقظةً في هذه الأمور جميعها، وترغبُ في أن تتأكد أنّ جونس لا يَقبل في ذلك حجةً أو دليلا. كان يعتقد أنّ ما كان كافياً حتى تلك اللحظة سوف يكفي في المستقبلِ أيضاً، وأنه لا يمكن جلْبُ المالِ بالسحرِ أو بالأرقامِ والحساباتِ، وإنما بالعمل وبالعرقِ الذي سيسيلُ من جبينِه.

هزّ الأخ لوسيان رأسَه وقال إن إيراداتِ غودبم يمكن أنْ تُضاعَفَ من خلال تنظيم الحساباتِ، وإن إدارة مملكةِ الربِّ على الأرضِ في غودبم بذلك القدرِ من الإهمالِ حرامٌ لا شك فيه. ولم يخلُ هذا الدليلُ من تأثيرٍ في نفس الأمّ ريكسيا، حتى وإنْ كانت عاجزةً عن تصحيح شؤون المالِ في غودبم.

في ذلك الربيعِ استطاع الأخُ لوسيان والأختُ ليونور أن يمضيا الكثيرَ من الوقتِ معاً، دون أن يُزعِجَهما أحدٌ وسرعان ما ظهر ذلك في قَوام الأختِ ليونور التي أدركت أنّ الوقتَ لن يطول كثيراً قبل أن تنْكشِف خطيئتُها، وشرعت في البكاءِ

Twitter: @ketab_n

بكلِّ تملِك من دموعٍ، ولم تجْد في زياراتِ الأخ لوسيان ما يكفِي لِكفكفةِ تلك الدموع الغزيرة.

فهِمَتْ سيسيليا روزا وأولفيلد ذلك الذي سيَحدُث قريباً، فهُما أقربُ من غيرهما إلى ما يجري من حولِهما، وكانتا تُراقبان قَوام أختِهما بِعُيونٍ مختلفة، لأنهما أكثرُ درايةً بِسِرّها، بل وتواطأتا في خطيئتِها أيضا.

إلا أن بيْع ما صُنِع خلال الشتاءِ ما لبث أن أكرهَهُما على إمضاءِ المزيد من الوقت بمفردهما، هن الثلاثة، في الفيستياريوم. وقد حاولت روزا أن تُشغِّل دماغَها وأن تفكّر كما يفكّر الرجلُ، دون أن تضيع الوقتَ في النحيبِ والعويلِ، أو على الأقل على ما نحو ما كان يمكن أن تقوله صديقتُها بلانكا.

لم يعد الأمرُ أمرَ بكاءٍ، لأن الدموعَ لا تغيّر شيئاً، وقد يستدعي الأمر مزيداً من النحيبِ والعويلِ إنْ لم يتصرّف الثلاثة بذكاء وحِكمة.

حَمْلُ الأختِ ليونور لن يعود بعد قليل سرّاً. وعندئذ ستقصىَ وتُطرَدُ من غوديم. لكنْ ما دام في الأمر رجلٌ بالضرورةِ فلن ينجُوَ الأخُ لوسيان من العقاب أيضاً.

كان عليهما إذاً أنْ يوفّرا كلامهما ما دام في الوقتِ فسحة.

لكنّ فرارَها لن يحول دون طردِها، قالت الأُختِ ليونور. لكنْ خيرٌ لهما أنْ يذهبا ما دام الوقتُ متاحاً. لكنْ، كيف السبيلُ إلى ذلك؟ تلك هي كلُّ المسألة! كان واضحاً أن راهبةً فسخَت صلتَها بالديرِ ولاذت بالفرارِ يتأخّر الإمساكُ بها ثانيةً، لا سيما إن وُجِدت برفقةِ راهبٍ، قالت روزا.

أَدرْنَ المسألةَ من كلّ جوانبها، وانفتحت الأختُ ليونور على الأخ لوسيان الذي حدّثها عن مدنٍ في جنوب بلاد الإفرنج يستطيع أن يأوي إليها أمثالُهما، مؤمنون ومخلصون للربِّ في كل شيءٍ إلا فيما يخص الحبّ الدنيوي. لكن ليس من السهل أن يشدّا الرِّحالَ إلى تلك المدن من غير مالٍ وعليهما ملابسُ راهبٍ واهبة.

لم تكن مسألة الملابس مستعصيةً، لأنّ باستطاعتِهنّ هنّ الثلاثة أن يجهّزن ثياباً تُشبِه تلك التي يرتديها عامة الناس، لكنّ الأمرَ مع المالِ يختلف كلَّ الاختلاف. عندئذ قالت روزا إنه لن يشعر أحدٌ باختفاءِ حفنةٍ أو حفنتين من المالِ ما دامت

Twitter: @ketab_n

صناديقُ غودم غير مستقر.

لكنّ اقترافَ سرقةٍ في ديرٍ خطيئةٌ أخطرُ من الخطيئةِ التي اقترفها الأخُ لوسيان والأختُ ليونور. لقد رَجَت ليونور صديقتيها بألا تقترفا هذه الخطيئةَ في سبيلها وآثرتْ أن تفرَّ صفر اليدين. ففي رأيها أنّ مثل تلك السرقة خطيئةٌ حقيقيةٌ، على خلافِ حبِّها والثمرةِ التي جنتها من هذا الحبّ الذي لم تعد تراه خطيئة. فلو قُيِّضَ لها أن تصل إلى بلاد الإفرنج فلن يبقى من تلك الخطيئة سوى الذكرى. لكنّ ارتكاب سرقةٍ في حق القديسة العذراء فجورٌ ما بعده فجور.

قبل الموعد بثلاثة أيام أعلنت الملكة بلانكا وصولها إلى غودم. وقد أزاح هذا النبأُ حِملا ثقيلاً من على كاهِل اللواتي كنّ يحملن سرَّ الدير الأعظم - كانت الأخت ليونور حاملاً في شهرها الثالث أو الرابع – لكنه وضع حِملاً ثقيلاً آخرَ على كاهِل الأم ريكيسا. لقد فارق رئيس الأساقفةِ ستيفن الحياةَ، لكنها تشعر أنّ الملكَ قد استحوذ على رئيس الأساقفة الجديد، جوهان. فما يزال الملكُ ضعيفاً أمام نزواتِ الملكة بلانكا، وما زالت الملعونة سيسيليا روزا تقف حجر عثرةٍ في طريقها. فهي تعلَم بأيّ صورةٍ كان يمكن أن تمارس انتقامَها منها، بيد أن الفصلَ يظل أسوأ التهديدات جميعاً. فهي معرّضةٌ لهذا التهديد لو تهيّأت السيسيليتان لطردها من الدير.

أدركت روزا أنّ الحالةَ النفسية التي تلازم الأمَّ ريكيسا ملائمةٌ للخوضِ في بعض الحديثِ بينهما، ولذلك سعت لأن تستقبلها رئيسةُ الدير. وعرضت عليها دون لفٍّ ودورانٍ فكرةً خَطرت لها، إذ شاءت أن تتكفّل شخصياً بالمهام التي أنيطَ بها جونس في الدير، حتى تنظّم حساباته وتُحسّن أحوالَه. وعلى هذا النحو سيحصل وكيلُ المالية على مزيدٍ من الوقت للقيام بمشاويره في الأسواق، تلك المهمة التي تستغرقه الآن كثيراً، لادعائه الانشغالَ بأمورٍ كثيرا ما يُهملها من حيث لا يدري.

حاولت الأمُّ ريكيسا أن تعترض على ذلك بالقول إن لا أحد سمع لحد الآن أنّ أيَّ امرأةٍ قادرةٌ على القيام بمهامّ وكيلِ المالية، وأنه لهذا السبب كان للكلمةِ شكلٌ ذكوري.

Twitter: @ketab_n

وأجابت روزا من دون أن يرف لها جفنٌ أن النساءَ مع ذلك أكثرُ قدرةً على القيامِ بمثل هذه الأعباء في أيِّ ديرٍ حيث لا حاجةَ لأيِّ امرأةٍ لأن تكون قادرةً على حَمْلِ حصانٍ على ساعديها، أو بناءِ كُتلٍ من الصخر. وأمّا إن كانت قواعد اللغة هي التي تحول دون ذلك فيكفِي في هذه الحالة تغييرُ كلمةِ "وكيل المالية" بكلمة "وكيلة المالية".

على أيّ حالٍ كانت تلك هي الوظيفةُ التي كانت تتمنّى القيامَ بها مستقبلا، خلف الأسوار. فإذا رأت أنّ الأمَّ ريكيسا باتت على وشك الاستسلامَ سارعت سيسيليا روزا إلى التأكيد على أنّ وكيلة المالية، بطبيعة الحال، هي التي يتعيّن عليها أن تحدّد مهامَّ جونس في الأيام القادمة. فهو يستطيع أن يحمِل ما شاء من الرسائل، ولكنه لن يتدخّل بعد اليوم في شؤون الدير بما يروق له ويطيب، لأن هذه الأمور تتجاوز إدراكَه كثيراً.

كادت الأمُّ ريكيسا أن تنفجر، فاستشاطت غضباً بما لم يكن إلا حالياً واضحاً، إذ بدأت تفرك يدها اليسرى بيدها اليمنى، وهي إشارة كانت في السنوات الأخيرةِ تنذر بالصراخ والتهديد بالعصا والزنزانة.

– قريباً سيقول لنا الربُّ إن كانت الفكرةُ طيبةً أم سيئة، قالت ريكيسا في النهاية، بعد أن تمالكت نفسَها. افعلي ما تشائين! لكن يجب أن تظلي خاشعة في صلواتِك، وألا تدعي أن هذا المشروع يُشغِل بالك. لا تنسي أن ما أعطيتكِ إياه بإمكاني أن آخذه منكِ في أيِّ لحظة. مازلتُ أنا رئيسةَ الدير.

– أجل، أمي، ما زلتِ أنتِ رئيسةَ الدير. أدام الربُّ بقاءَكِ فيه، أجابت روزا وهي تتظاهر بالتواضع، حتى لا تصبح تهديداتها المقنّعة جليةً واضحة. ثم أطرقت وانصرفت. وهي تُغلق بابَ بيتِ رئيس الدير من خلفِها اجتهدت في ألا تصفقَه. لكنها غمغمت وتذمّرت: "لن تخسري شيئاً بانتظارِك، أيتها الساحرة العجوز!"

عندما وصلت الملكة بلانكا، في تلك السنة، حملت معها مولودَها الأوّلَ، إيريك، لكنْ لوحِظ أنها حاملٌ. كان لقاءُ السيسيليتين إذاً أكثرَ حرارةً هذه المرّة، لأنّ كلا منهما صارت أُمّاً، وفوق ذلك فقد جاءت بلانكا وهي تحمل أخبار آرن

Twitter: @ketab_n

ماغنوسون، وأخبار الصغير ماغنوس.

كان الطفل الصغيرُ جريئاً جسوراً. فقد جعل يصعدُ إلى الأشجارِ، ويسقط من على الخيولِ، لكنْ من دون أيِّ إيذاء. كان بيرجر بروزا يؤكد أنّ الطفل ينبئ بنبّالٍ بارعٍ لا أحد يستطيع أنْ يقف في وجهِه في يقينٍ سوى رجلٍ واحدٍ، وهو الأبُ الذي انعكست هُويّتُه عليه انعكاساً لا مراءَ فيه.

أفادت آخرُ الأنباء الواردة من فارنيم أنّ آرن ماغنوسون يتمتّع بصحة جيدة، وأنه يؤدي واجبَه في المقدس كل يوم، برفقةِ مطارنة وملوك. ويعني ذلك حسب بلانكا أن أيامَه لا خطرَ فيها ما دام لا يوجد بين المطارنة والملوكِ أعداءٌ ألداء. فلا يملك مَن يهمّه أمرُه إلا أنْ يبتهج ويتوجّه لالسيدة العذراء بالشكر والعرفان لقاءَ حمايتِها له.

ولَمّا سألت بلانكا عن سلوكِ الأمّ ريكيسا أجابت روزا أنها هادئةٌ، لكنّها لَمّحت أيضاً، في إيحاءات غامضة، أنّ هذا الهدوءَ لا يمكن أن يدوم طويلا، لأنّ خطراً عظيماً بات يلوح في الأفق، بيد أنها آثرَت ألا تتحدث في تفاصيله إلا بعد أنْ تنفرِد بالملكة بلانكا.

صعَدتا إلى الطابقِ العلويّ من المضافةِ ونامت على السريرِ الذي أمضيَتا فيه آخر ليلةٍ من ليالي أسرِهما معاً في غودم. وكما فعلتا في تلك الليلة فقد أمسكت كلٌّ منهما بيَدِ الثانيةِ وظلتا برهة من الوقت تحدقان في السقفِ، غارقَتَيْن في ذكرياتهما السابقة.

- ماذا؟ سألت بلانكا في النهاية، ما هو ذلك السرّ الذي لا يستطيع أحد أن يسمعَه غير أذنيّ؟

- أريد قطعًا من المال.

- كم، ولأي غرض؟ لأنّ مِنْ بين كلِّ الذي ينقصُكِ هنا في غودم يظلُّ المالُ هو أقلّ ما يهمّ، قالت بلانكا في اندهاش.

- وكيل ماليّتنا، المعروف بسذاجتِه، الذي سأقوم مقامَه بعد حينٍ، قد يقول: "حفنتان من المال". أيْ ما يكفِي لشخصين للذهاب إلى جنوبِ بلاد الإفرنج.

Twitter: @ketab_n

ظني أنّ مئة قطعةٍ من نقْدِ السفيركر كافية. إني أتوسّل إليكِ صادقَة بأنْ تمنحيني هذا المبلغَ، وأعدُكِ بأني سأعيدُه إليكِ يوماً، أجابت روزا.

– أخشى إن كنتما تريدان الفرار، أنتِ وأولفيلد! أني لا أوافق على ذلك! لا أريد أنْ أُحرَمَ من أغلَى صديقة عليّ! لا تنسَيْ أنّنا ما زلنا في مُقتبلِ العُمر، وأنّ نِصفَ عقابكِ قد انتهَى، قالت الملكةُ، في انشغالٍ وحَيرة.

– لا، لستُ أطلبُ هذا لأولفيلد، ولا لي شخصياً، أجابت روزا مبتسمة، بعدما أخذَها الخيالُ فرأت يدَها في يدِ أولفيلد، سائرَتَيْنِ في طريقِهما إلى بلادِ الإفرنج.

– أتقسمين بذلك، سألت الملكةُ في حيرة.

– أجل، أقسم!

– إذاً لِمَ لا تقولين ما الأمر؟

– لا، عزيزتي بلانكا. فقد يقال إنّ هذا المالَ سيذهب في خطيئةٍ كبرى. لأن ألسنةِ السوءِ قد تورطّكِ أنتِ أيضاً. فإذا كنتِ لا تعرفين شيئاً فلن تتحمّلي إثْماً. هذا ما فكّرتُ فيه، أجابت روزا.

ظلّتا ممُدّدتين في هدوءٍ بعض الوقتِ، فيما غرقت بلانكا في أفكارِها. ثم إذا بها تقهقِه فجأة وتعِد بأنها ستقتطِع ذلك المبلغَ من المالِ الذي في حوزتِها كي تسافِر، ما دام المبلغُ زهيداً. لكنها ظلت تحتفظ بحقّها في معرفةِ أيِّ إثْمٍ ذلك الذي لن يقع عليها رغم تقديم المالِ الذي يؤدي إلى ارتكاب ذلك الإثم. واشترطت أن تعرف السبب ولو بعد حينٍ، حينَ ينتهي كلُّ شيء.

ووعدتها روزا بأنها سوف تفعل في الحال.

ولما كان الأمرُ الآخرُ الذي رغبت روزا في أن تحدّث فيه الملكةَ يخصُّ أولفيلد فقد آثرت أن يتحدّثن فيها هنّ الثلاث معاً، أردفت روزا. وغادرتا السريرِ ونزلتا للانضمام إلى طاولة الملكة وأتباعِها.

في ذلك المساء الأول قرّرت بلانكا أن تظل الأمُّ ريكيسا خلف أسوارِ الديرِ، ما دامت ترى في تقديم عشاءٍ لملكتِها عقوبةً وعذاباً. فهكذا تستطيع الصديقتان وأولفيلد أن تمضِيا وقتاً ممتعاً معاً. فقد رافق الملكةَ في تلك الرحلةِ مهرّجون أدّوا

Twitter: @ketab_n

حركاتٍ غريبةٍ أثناء العشاء. لم يكن في القاعة سوى النساءِ، لأنّ حرّاسَ الملكة تجمعوا أمام المضافةِ يتناولون عشاءَهم في مخيماتهم الخاصة. لأن بلانكا قالت إنها سرعان ما فهمت كم همُ الرجالُ ثقالُ الظلِّ إذا اجتمعوا حول الطاولة. فإن غاب الملكُ واليارل صاروا يتحدثون بصوتٍ عالٍ، ويثملون، ويصرون في إلحاحٍ على جلْبِ الأنظار إليهم من السيدات والآنساتِ إنْ وُجِدن على مقربةٍ منهم.

لم يمنعهنّ ذلك من أن يأكلن ويشربن كما يأكل ويشرب الرجالُ تماماً، وقد قُمن ببعضِ الحِيَلِ المضحكة وحاكَين أولئك المهرّجين، فكانت الملكة، مثلا، تقلِّدُ عدداً من الألعاب التي كانت تقوم بها عندما جيءَ بها رهينةً إلى غوديم، وتضرط وتجشأُ محدثةً صوتاً مدوّياً. فلم تتردّد في القيام بهذه الحركات هذه المرّة، فتتمدّد وتحكُّ مؤخّرتَها وأُذُنَيها، كما يفعل الرجالُ في العادة. وقد استمتع الرجالُ بهذا المشهد كثيراً.

ولَمّا انتهى العشاءُ احتفظن في الطاولةِ بقليلٍ من نبيذِ العسل، وأرسلت بلانكا أتباعَها إلى النومِ حتى تستطيع التحادثَ على راحتها مع صديقتيها في الأمور الجادة. فقد أحسّت أنّ الأمور الجادة هي بيتُ القصيدِ حقاً، لأنّ ما يتصل بأولفيلد إيموندسدوتر أمرٌ حساسٌ جداً في كل مرّة.

بدأت روزا بالتذكير أوّلاً بما لم ينسينَه أبداً وهو ان البلادَ كانت في حالة حربٍ عندما جاءت أولفيلد إلى غوديم. وكما تعلّمنه من الراحلة السيدة هيلينا ستينكيلسدوتر فلم يكن من الفطنةِ أن تختار امرأةٌ صديقاتِها بلا رويّة، لأنّ مصيرَ الأسلحة قد يُغيّر كلَّ شيء بين يوم وليلة.

والحالُ أنّ كلَّ أهلِ أولفيلد قد ماتوا في ساحات بجالبو الدامية التي انتصر فيها الفولكونغر والإيريك. فعندئذ جاء الخبرُ الذي كان وَقْعُه كالحلم الناعم على روزا وصديقتها الغالية بلانكا. لكنّ أولفيلد كانت في عدادِ من كانَ وقْعُ تلك المعركة عليهم وعليهنّ أسودَ من كوابيس الدنيا.

واليوم يبدو وكأنّ الجميعَ نسِيَ أولفيلد في غوديم. فلم يعد أحدٌ ينشغِل بأمرِها، لكي يتحدّث من أجلِها أو يحرِص على أن تُعامَل كما يحقّ لها أن تُعامَل. والحال

Twitter: @ketab_n

أنه حتى إنْ لم يكنْ من السهلِ معرفة كيف دُفِعت نفقةُ أولفيلد في خِضمِّ الغموض الدامي الذي كان سائداً في تلك الأيامِ فقد كان من الصعبِ أيضاً أنْ يتصوّر أحدٌ الأمّ ريكيسا وهي تَطرُد من الدير إحدى أقربِ القريياتِ إليها، وببساطةِ وكأنّ شيئاً لم يكن.

لكنْ حان الوقتُ لكي يوضَع أمرُ أولفيلد في نصابِه، قالت روزا في النهاية وهي تمدّد ذراعَها لكي تلتقطَ كأسَ نبيذِ العسلِ الذي أوقعته بحركةٍ عفوية من كوعِها على حافةِ الطاولة فتضاحكت الثلاث معاً لذلك وتقهقهن.

– أنتِ نفسُكِ وضعت الآن على الطاولة ذلك الذي ترغبين في أن نتحدّث فيه، قالت بلانكا بعد أن خفَّ المرحُ الذي أحدثه تلك الحركةُ الرعناء من صديقتها. فبصفتي ملكةَ، وعلى الخصوص بصفتي صديقة غالية، أريد أن أعرف ما الذي تريدين الوصولَ إليه بهذا الذي وَضَعتِه على الطاولة.

– الأمرُ في غاية البساطة، قالت روزا وهي تتمالك نفسَها وتشربُ نبيذَها في هدوءٍ دون أن تسكب منه قطرةً واحدة. والدُ أولفيلد مات، وقد ورِث منه إخوتُها الصغارُ ووالدتُها. لكنّ إخوتَها فارقوا الحياة فيما بعدُ في المعركة. ومنهم ورثت والدتُها. ثم ماتت والدتُها أيضاً، فماذا بعدُ...

– أولفيلد ورِثت! قالت الملكةُ بصوتٍ عالٍ. هكذا الأمرُ، كما فهمتُه من القانون. أولفيلد، ماذا كان اسمُ المزرعةِ التي أحرقوها؟

– أولفشيم، أجابت أولفيلد والخوفُ يملؤها، لأنها لم تسمع قط صديقتَها بلانكا تتحدّث عمّا هو مطروحٌ الآن.

– الفولكونغر هُمُ الذين عاشوا فيها بعد حرقِها. لقد استولوا على أولفشيم التي عدُّوها غنيمةَ حربٍ، وأنا أعرفُ كلّ الذين يسكنون فيها، قالت الملكة متأملة. لكن في مثل هذه الأمورِ ينبغي التحرّكُ في حذَرٍ وحيطة، أيْ صديقاتي الغاليات. في حذَرٍ شديدٍ إنْ أردنا أنْ يحالفَنا الحظُ. فالقانونُ لا لَبْسَ فيه، فلا أحدَ غيرَ أولفيلد له الحقُّ في أولفشيم. لكنّ القانونَ شيءٌ والفكرةُ التي بخاطرِ الرجالِ عمّا هو حقٌّ وعادلٌ شيءٌ آخر. لا يسعني أن أعدكنّ بشيءٍ مؤكدٍ، لكنْ عندي رغبة صادقة في

Twitter: @ketab_n

أن أضع هذا الأمرَ في نصابِه. أوّلا سأحدِّث في الأمرِ تورنبيه، لجمان في أسترا غوتالاند، لأنه من عائلة الفولكونغر، القريبة من عائلتِنا، القريب للجمان الأعظم في فاسترا غوتالاند. وبعد ذلك سأتطرق للموضوع مع بيرجر بورزا، وعندما أنتهي مع هؤلاء سوف أواجه به الملكَ نفسَه. هذا ما تَعِدُكُنَّ به مَلِكَتُكُنّ!

شعرت أولفيلد وكأن صاعقةً نزلَت عليها فجأة. لقد وقفَت مستقيمةً مثل حَرْفِ الألِف، شاحبة الوجه، وقد بَدَتْ فجأة كأنها صحَت من سُكرٍ، لأنها حتى وإن لم تكنْ لَبِقَةً كأُختيها الأكبر منها فهي ذكيةٌ حتى تفهم أنّ ما قيلَ الآن قد يغيّر مجرَى حياتِها مثل عصًا سحرية.

وكانت فكرتُها التالية أنه ما مِن بدٍّ مِن أنْ تفارِقَ صديقتَها الغالية سيسيليا روزا، وبدأت الدموعُ تنهمِر على طولِ وَجْنَتَيْها.

"أخاف أن أترَكَكِ وحيدةً هنا مع الشريرة ريكيسا، خصوصاً والأختُ ليونور الآن..." وقد بدأت تشهق، قبل أنْ تقاطعها سيسيليا روزا بسرعةٍ التي وضعت إصبعَها على فمِها حتى تمنعها من أن تقول المزيدَ وجاءت في الحالِ لتقِف بجانبها وتضمها إلى أحضانِها.

"هيا، هيا، عزيزتي أولفيلد الصغيرة"، قالت روزا لكي تواسيها. "لا تنسَيْ أني قد فُصِلْتُ عن بلانكا على هذا النحو، وأننا، مع ذلك، معاً في هذه اللحظة، كأفضلِ صديقاتٍ في الدنيا. ولا تنسيْ أيضاً أننا عندما نلتقِي خارجَ الديرِ سوف نكون أكثرَ شباباً من الأخت ليونور في هذه الساعة. والآن لا تقولي كلمة واحدة في هذا الموضوعِ أمام ملكتِنا."

عندئذ تنحنحت بلانكا في سُخْرٍ ثم رفَعت عينيها إلى السماءِ لتقول إنه لعلّها فهِمت الكثيرَ مما يقال، ثم استأذنَت والتحقَت بمساكنها، في الطابقِ العلوي، لتُحضر قليلا من "الخردوات" كما يحلو لها أن تقول على سبيل المزح والفُكاهة.

وفي أثناءِ غيابِها داعبت روزا شعْرَ أولفيلد ورقبتها، لأنّ الصغيرةَ شرَعت في البكاء.

- أعرف ما تُحسّين به في هذه اللحظة، قالت لها في همْس. لقد خبِرتُ هذا

Twitter: @ketab_n

الأمرَ من قبلُ. ويوم أدركتُ أن بلانكا ستغادر لا محالة، بكيتُ لها فرَحاً وحزناً أيضاً لأني كنت سأبقَى وحدي لزمنٍ أحسستُ أنه الدهرُ بعينِه. لكنْ لم يعدِ الأمرُ دهراً، أيْ أولفيلد. إنه زمنٌ طويلٌ لكنه ليس طويلا بلا نهاية.

- لكن ماذا لو بقيتِ وحيدةً مع هذه الساحرة... شهقت أولفيلد.

- لا تخافي عليّ. فكّري قليلاً في سرّنا. لا أحدَ غيرنا يعرفه هنا، أنت وأنا والأخت ليونور: أليس اكتشافُنا لقوةِ الحبُّ معجزة؟ أليس من الرائع أيضاً أن نرى معجزات السيدة العذراء لفائدة من لم يفقدوا الإيمانَ والأملَ؟

تسلّت أولفيلد قليلاً بهذه الكلماتِ، ومسحَت دموعَها بِظهر يدِها وسكبت بشجاعةٍ قليلا من الهيدروميل مرة أخرى، على الرغم من أنها شربت منه كثيراً.

عادت بلانكا بخطًى واسعة ووضعت صُرّةً على الطاولة. ومن الصوت الذي أحدثته الصرّةُ لم يكنْ من الصعب التنبؤُ بما في داخلها.

"حفنتان، تقريباً،" قالت وهي تضحك. "لستُ أعرف أيّ مشاريع غامضة تُدَبِّرانِها، صديقتيّ العزيزتين، لكنْ فلتنجحْ مشاريعُكما!"

ذُهِلَت الأخريان لجرأةِ هذه اللغةِ الحازمة. ثم تضاحكت ثلاثتهما معاً في قهقهةٍ مدوّية.

* * *

ذَهَبْنَ لِيُخْفِينَ صُرّةَ المئة قطعة من الفضة في ثُقبٍ داخل جدارِ الدير، من ناحية البستان، وأخبرَن الأختَ ليونور بأمرِ تلك الصرّة. ثم صَنعْن من قِطعٍ صغيرة الملابسَ التي كنّ يَنْوينَ إهداءَها إليها، وتركن لها أمْرَ إخفائِها خارج أسوار الدير.

وعند نهاية الصيف التمس الأخ لوسيان لنفسه حججاً كثيرة حتى يأتي إلى غوديم، حيث قال إن به أعمالَ جَنْيٍ كثيرةً، ومنها على الخصوص جَنْيُ الأعشابِ الطبيّة التي لم يكن للأختِ ليونور علْمٌ بكيفية جَنيها.

لكنه كان في هذه المرّة يحمِل كراسةً صغيرةً صنعها بيدِه ودوّن فيها كلّ ما يعرفه. وقد أعطاها لسيسيليا روزا وعليها تحياتُ أخٍ في اللهِ لم يسبقْ أنْ حدّثها في سرٍّ من

Twitter: @ketab_n

أسرارِه، ويُصرّ مع ذلك على شكرِها. لم يكن من السهل قراءةُ ما كان مكتوباً في تلك الكراسة، لكنّ الأختَ ليونور ظلت تُقبِل وتُدْبر مراتٍ عديدة ما بين الواهبِ والمستفيدةِ، إلى أن فهِمت هذه الأخيرةُ سرَّ الأمرِ تقريباً.

وذات مساءٍ من أيام القطافِ، وفيما كانت حباتُ التفاح أطيب وألذّ، والقمرُ يزداد احمراراً، والأرض تطفحُ بالماءِ والروائحِ العطرة، وفيما كان الخيالُ منصباً على حالة الأخت ليونور السعيدة، رافقَت سيسيليا وأولفيلد صديقتَهما ليونور نحو بوابةٍ صغيرةٍ تُطلّ على الحدائق. وكنّ جميعاً يعرفن أين خُبِّئَتْ مفاتيحُ تلك البوابة.

فتَحْنَ البوابة الخشبية بكثيرٍ من الحذر والحيطة، لأنّها كانت نَخِرةً مسوّسةً وقد تَصِرُّ عند الفتحِ. وفي الخارج تحت ضوء القمر كان الأخُ لوسيان ينتظر بملابسه الدنيوية الجديدة. كان يحمِل في يده صُرّةً وفي جوفها الملابس التي كان على ليونور أن تحملها حتى جنوب بلاد الإفرنج، إنْ كُتب لها الوصولُ إليها قبل أن تَضع طفلها.

تعانقت النساءُ الثلاث في هدوءٍ. وتبادلن التبريكَ وهنّ يحبسن دموعهنّ. وابتعدت الأختُ ليونور في ضوء القمر، و في حذرٍ دفَعت روزا البوابةَ الصغيرةَ التي أغلقتها أولفيلد بالمفتاح دون أن تُحدِث أيَّ صوتٍ. وعادتا إلى الفيستياريوم، واستأنفتا العمل وكأن شيئاً لم يكن، وكأن الأختَ ليونور غادرتها قبل الموعدِ المعتاد، في ذلك المساءِ، رغم كلّ الحياكة التي كانت في الانتظار.

لكنّ الأخت ليونور غادرت المكانَ من غير رجعة، تاركةً وراءَها نفسَ القدر من الضجيج ومن الأقوالِ القاسية، وفراغاً كبيراً على الخصوص في حياة روزا التي كانت تأمُل وتخشَى في آنٍ أن تجِد نفسَها وحيدةً بعد حينٍ، وللمرّةِ الثانية.. في غودتم.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

كان الخريفُ والشتاء في الأرض المقدّسة فصلَين للراحةِ وتضميد الجراح، فحتّى المدينة وجزء كبير من سكّانها تستعيد قواها في هذا الوقت من السنة الذي تخلد فيه جيوشُ الأعداء إلى السكون والخمول. وقد كانت الطرقاتُ من حول القدس تتحوّل إلى حقول إسفنجية تغوص في وحلِها العرباتُ المثقلة بحمولتها. وبالقرب من المدينة المقدّسة كانت التلالُ الجرداءُ الرازحة تحت الريّاح العاتية مكسوّةً بطبقة من الثلج الرخو الذي قد تشدّ الريّاحُ أزرَه فيصبح أيُّ حصارٍ أثقلَ وطأةً على المحاصِرين أنفسِهم وأخفَّ على مَن يقع عليهم الحصار.

ففي غزّة كان المطر يأتي دافئاً، لكنّ الطقس فيها منعشٌ ومشمسٌ في غالب الأحيان، مثل الصيف في بلاد الشمال. وأمّا الثلج فهو غير معلوم في هذا الإقليم.

في أثناء الخريف والشتاء اللذين أعقبا انتصارات مونجيسارد المذهلة شُغِل آرن دي غوثيا بأمرين مهمّين ما انفكّا يملآن وقتَه كلّ يوم. كان عليه قبل كلّ شيء أن يرعَى في الجناح الشمالي للقلعة نحو مئة من الأسرى المماليك المرضى، ونحو ثلاثين جريحاً من الفرسان والرقباء.

كان اثنان من السجناء من النوع الذي لا يمكن الاكتفاءُ بحبسهما مع الآخرين في أحد مخازن المؤن في غزّة، وهما فخرُ، الأخُ الأصغر لصلاح الدين، والأمير موسى. لقد أنزلهما آرن في جناحه الخاص، وكان يشاركهما طعامَ العشاء كلّ يومٍ، بدلاً

Twitter: @ketab_n

من أن يلتحق بفرسانه في مطعم ساحة القصر. كان يعرف أنّ التصرّف على ذلك النحو يثير اندهاشَ أقرب إخوانه، لأنّه لم يقل لهم كم كان فخرُ شخصاً كريمًا فاخراً.

ففيما وراء البحر بكامله، وفي البلدان المجاورة سيتصرّف كلُّ شخص، سواء أكان مسيحياً أم من أتباع الرسول، ذاتَ التصرّف مع الأسرى. فمَن كانوا من الأسرى في رتبةِ فخر أو الأمير موسى جرى تبادلُهم أو أُفرج عنهم. أمّا مَن بقِي منهم في السجون قُطعتْ رؤوسُهم على العموم.

كان سجناءُ غزّة، إلاّ قلّة قليلة منهم، من المماليك. لم يكن من السهل معرفةُ مَن كان منهم لا يزالون يخدمون في الجيش منذ فترة طويلة، حتى يُصبحوا أحراراً ومُلاّكاً للأرض، وهم الذين كانوا عبيداً دوماً، في بداية هذا المسار الطويل الذي قد يؤدي بهم إمّا إلى الموت، وإمّا يجعلهم، في أفضل الحالات، على رأس إقليم بكامله في واحدٍ من بلدان صلاح الدين العديدة.

صارت رؤوسُ من كانوا عبيداً مهيّأةً للقطع فوراً، فلم يعودوا أكثر شأناً من فرسان هيكل الربّ بعد أن صار افتداؤُهم من المحال. وفضلاً عن ذلك فلم يكن من اللائق التحفظ طويلاً على السجناء في ذات المكان، لأنّ الأمراض سريعةُ الانتشار فيه. ولذا كان قتلُهم أفضلَ الحلول لوقايةِ الصحة وتوفير المال على السواء. فالثمنُ أقلّ كلفةً وأخفُّ مجازفةً.

سوف يُدرُّ الأمير فخرُ بن أيوب الفهدي من المال بمفردِه أكثر ممّا أدرّه عربيٌّ مسلم حتى هذه اللحظة، ما دام الأخ الكامل لصلاح الدين. أمّا الأمير موسى فلا شكّ أنّ ثمنَه لن يكون بخساً.

لكنّ آرن ما لبث أن قدّم اقتراحاً مختلفاً كلّ الاختلاف اندهش له الرجلان أيّما اندهاش. فقد طلب أن تُدفَع له نفسُ القيمة على كلّ سجين — خمسمئة دينار ذهبية- أيّاً كانت رتبتُه. وعندما اعترض عليه فخرُ قائلاً إنّ معظم السّجناء لا يساوي أحدهم ديناراً ذهبيّاً واحداً، وأنّ مثل هذه الصفقة مسبّةٌ وإهانة، ردّ آرن مؤكّداً أنّ الذي قصده خمسمئة دينار ذهبيّة على كلّ سجين، أيّ بما في ذلك هو نفسُه، وموسى.

Twitter: @ketab_n

انعقد لسانُ الرجلين فلم يسعهما أن يعرفا إن كان ما أصابهما إهانةً، لأن هذا القوطي، وهو كافر بالتأكيد - لكنّ المؤمنين يضعونه في مقدّمة صفوف الإفرنج جميعاً، قد اقترح الفدية ذاتها إليهما وللسجناء، أم كان عليهما أن يدركا أن آرن يأبى أن يشترط من صلاح الدين ثمناً باهظاً للإفراج عن أخيه. لقد غاب عن بال الرجلين تمامًا أنّ فرسان هيكل الربّ ليسوا مُلِمّين بشؤون التجارة، وقصِيرو الباع فيها.

ظلت المفاوضة حول هذه النقطةِ تتقدّم ببطءٍ، يومًا بعد يوم، خلال وجبات الأكل التي كانوا يتناولونها معًا. وقد حرص آرن على أن لا يُقَدَّم لهما طعامٌ فاسد، وعلى ألا يُسقَيا إلا الماء البارد. وقد منحهما الحقَّ في قراءة القرآن كلما انفردا بنفسيهما في غرف صاحب القصر.

فحتى إن عامل الفارسُ سجينَيه بالاحترامِ ذاته الذي يعامِلهما به لو كانا ضيفَيه فهما أسيران على أيّ حال. لذلك فمن الطبيعي أن يجعلهما ذلك حذرَين في الأيام الأولى من النقاش.

ومع ذلك فقد دهش آرن قليلا من تحفّظهما في إبداء الرأي في صدقٍ، وفي تقديم آراءٍ مخالفة، ولذلك بدا منذ اليوم الرابع كأنه قد بدأ يفقد صبرَه عليهما.

- لست أفهمكما، قال بحركةٍ امتعاضٍ واستياء. ما الأمرُ الغامض بيننا؟ عقيدتي تلزمني أن أُحْسِن إلى مَن هزمتُهم. وإذا كنتُ أستطيع أن أحدّثكما في هذا الأمر طويلا فإني أكره أن أرغمكما على الإصغاء لعقيدةٍ ليست عقيدتكما، ما دمتُما لا تملكان حريةَ التصرّف كما يحلو لكما. لكنّ عقيدتكما لا تقول شيئًا مختلفًا: "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا." ما رأيكما؟ ألا تريان أن عقيدتينا متفقتان؟

- إن ما لا نستطيع فهمه هو كَرَمُكَ، همْهَم فخرُ في استحياءٍ واضح. فأنت تعرف أن خَمسمئة دينارٍ ذهبية مقابل حريتي ثمنٌ زهيد!

- أعرف ذلك حقًّا، أجاب آرن. لو كنتَ وحدك في قبضتي لكنتُ ربما عرضتُ على أخيك بأن يدفع لي خمسة آلاف دينار ذهبية، وتركت باقي الأسرى على همّة

Twitter: @ketab_n

جلادينا العرب. لكنْ ما قيمة حياة ابن آدم يا فخر؟ أتظن أنّ حياتك أغلى بكثير من حياة الآخرين؟

– كلُّ من يدعي ذلك فهو غر. وفوق ذلك فهو يسيء إلى الربّ الذي لا تساوي حياةُ أيِّ رجلٍ أمامه أكثرَ من حياة الآخرين. ولذلك ورد في القرآن أن الحياة مقدسة، أجاب فخر بصوتٍ خافت.

– هذا صحيح تمامًا، أجاب آرن وهو راضٍ كلّ الرضا، صحيح كل الصحة. والمسيح لا يقول شيئًا مختلفًا. دعنا من التشاجر في هذا الأمر، فأمامنا مسائل أخرى للنقاش، أكثر ثراءً للعقل. موسى، هلا ذهبتَ الآن وقدّمتَ هذا العرض إلى سيّدِك؟

– أتعيد إليّ حريتي، وتحمّلني نقلَ هذه الرسالة؟ سأل موسى في ذهول.

– أجل، لست أتصوّر رسولاً أفضلَ منك، أُرسِله إلى صلاح الدين. مثلما لا يسعني أن أتخيّل أنك لن تفكّر إلا في حريتكَ وتقلع عن أداء مهمتك. إن سُفنَنا تُبحر كلّ يومٍ نحو الإسكندرية، كما تعلمُ بلا شك. لكني أخشى أن نُرسِلك في الاتجاه الخاطئ، ولذلك أليس من الأفضل أن نُرسلك في اتجاه دمشق؟

– الذهابُ إلى دمشق أسهلُ بكثير، وعلى أيّ حالٍ فالأمرُ ليس مُهمًّا إطلاقًا، قال موسى. فمن أيِّ مدينة من مملكة صلاح الدين أستطيع أن أتصل به في ذات اليوم الذي أصل فيه إلى تلك المدينة. والإسكندرية أقرب المدن وأسهلها في آنٍ.

– انطلاقًا من أي مدينة... وخلال اليوم نفسه؟ ردّ آرن غير مصدّقٍ لما قاله موسى. هكذا يقال بالفعل، لكن كيف ذلك؟

– الأمر غاية في البساطة: لدينا حمائمُ تحمل رسائلَنا. وهي تعود دائمًا إلى المكان الذي انطلقت منه. فلو أخذنا بعضًا من الحمائمِ التي تربَّت في دمشق إلى الإسكندرية، أو بغداد، أو مكة، في قفصٍ، فسوف تعود رأسًا إلى المكان الذي وُلدت فيه كلما أُفرج عنها. يكفي أن تربطَ رسالةً بإحدى قوائمها.

– ما أروعها ملَكة! صاح آرن، متأثرًا بما سمعته أذناه. هكذا إذًا، انطلاقًا من هنا أستطيع أن أتحدث إلى سيدي الأعظم، في القدس، حيث ظني أنه موجود في

Twitter: @ketab_n

هذه اللحظة، في بحرِ ساعةٍ واحدة – إذا كان هذا هو الزمن الذي تستغرقه رحلةُ الحمامة في قطْع هذه المسافة.

– بالتأكيد، شريطة أن تمتلك هذا النوع من الحمائم، وتهيّئ لها شخصًا قادرًا على الاهتمام بهذه المهمة، غمغم موسى وكأنه يقول لنفسه إنّ الحديث قد انحرف وتاهَ.

– مذهل! قال آرن متأملا، قبل أن يتمالك نفسه. جيّد، اتفقنا! ستذهب إلى الإسكندرية غدًا على ظهْر إحدى سفننا. لا تحملْ همّ المعيّة، سأعطيك جواز سفر. وعلى أيّ حال فإنّ ربّان السفينة مصريّ على الأرجح، وسوف يكون معك على متنها أيضًا بعضُ الجرحى من الأسرى. لكنْ دعنا نتحدث في أمرٍ آخر.

– أجل، هكذا، أقرّ فخر. هنالك بالفعل مواضيع أخرى يمكن الحديث فيها. لقد توسلتُ إلى أخي صلاح الدين بألا يرفع الحصار عن غزة، لكنه لم يُصْغِ إليّ. لو أصغَى إليّ لاختلفت الأمور، أليس كذلك؟

– أجل، لكنْ في هذه الحالة لكنتُ أنا، من بيننا نحن جميعًا، من فارق الحياة لا محالة، قال آرن. ولكنتم أنتم احتفظتم بنصف جيوشكم وصرتُم أسيادَ القدس. لكنّ الربّ الذي يرى كلّ شيء، ويسمع كل شيء، قضَى أمرًا مختلفًا: لقد شاء لفرسان هيكل الربّ أن ينتصروا في معركة مونجيسارد، على الرغم من أننا لم نكن سوى مئتين ضد آلاف عديدة. لقد تبيّن، ما دامت الحال هكذا، أن ما حدث كان مشيئةً من الربّ الذي شاء فقضَى فقدّر.

– لم تكونوا سوى مئتين! صاح فيه موسى، بالله عليك! كنتُ أنا نفسي هناك.. وقد ظننّاكم نحو ألفٍ على الأقل. أتقول ليس أكثر من مئتين...؟

– هذا صحيح. وأنا أدرَى بذلك، لأنني كنتُ قائدَ الهجوم، أكّد آرن. فبدلا من أن أموت في غزة كما نويتُ وأيقنتُ إذا بي أحقّقُ نصرًا أشبه بالمعجزة! لعلك تفهم السبب الذي جعلني لا أتباهى ولا أُظهر غرورًا أمام المهزومين!

كان صحيحًا، في أعين المؤمنين والكفرة على السواء أن الذي منحه الربُّ فضلاً بهذا القدر من الجلال والإعجاز، لا يملك أن يتباهى شخصيًّا، أو يتصوّر

Twitter: @ketab_n

أنه لا يدين بذلك الفضل إلا لنفسه دون سواه. فهذا النوع من التفاخر إثمٌ عظيمٌ لن يُهمل الربُّ معاقبتَه أشدّ العقاب، سواء فهمنا هذه الكلمة بالمعنى الذي قصده الرسول عليه السلام، أم فهمناها بالمعنى الذي قصده السيد المسيح.

كانا إذًا متَّفِقين حول ضرورة إبداء التواضع إزاء هذا النوع من الانتصار. وفي المقابل يبقَى أن أكثر المسائل جدلا، بعد أن حُسِمت مسألةُ الفدية التي يجب دفعُها عن السجناء، هي مسألة إرادة الربّ أو إثم الرجال؟

لو كان صلاح الدين بقي بجيشه أمام غزة وفتح المدينة لاختلف الأمر كليًّا. لماذا عاقب الربُّ صلاح الدين بسبب حِلمه ودماثته نحو القوطي. لقد أبقَى صلاحُ الدين القوطي حيًّا. وبعد وقت قليل كتب له الربّ أعظمَ هزيمة عرفها في حياته على يد هذا القوطي نفسه. فلماذا فعل الربّ ذلك؟

تأمل الثلاثةُ هذه المسألة الحساسة طويلا، وفي النهاية قال الأميرُ موسى لعل الله اختار طريقًا فيها بعض القسوة حتى يُذكّر صلاح الدين، عبَده وحبيبه، بأن الحرب المقدسة لا تدَع مكانًا للعواطف الشخصية. لا يمكن أن تسلّم مدينة للكفرة بموجب اعتراف بمعروف، لأن الأمير موسى كان مثل فخر على يقين أن غزة كان يمكن الاستيلاء عليها لو لم توضَع المدينة تحت قيادة القوطي الذي كان صلاح الدين يدين له بدَينٍ شخصي. لقد كانت هزيمةُ مونجيسارد عقابًا على ذلك الذنب.

كان لآرن، بالطبع، رأيٌ مخالف، إذ قدّر أن انتصار مونجيسارد دليلٌ على أن الربّ قد حَمى أكثرّ المؤمنين اقترابًا منه. لقد هيّأ للمسيحيين من اليسر الذي لا تفسّره سوى مشيئةِ الربّ الذي قضَى ذلك الانتصار وقدّره. لقد نجت غزة لأن غايةَ صلاح الدين كانت أهمَّ وأعظم. فأمام عسقلان كانت أعدادُ المحاصِرين غير كافية، فبدلاً من أن يسير صلاح الدين في اتجاه القدس آثر أن يترك جيشه، المنيع في ذلك الوقت، يتوزّع ويتشتّت، ويعيث في الأرض سلْبًا ونهبًا. ولذلك أتاح الضبابُ في مونجيسارد لِمن كان على رأس أصغرِ فرقة أن يظفر بالنصر. وفوق ذلك كله شاء حظٌّ لا يصدَّق أن يقف آرن وإخوتُه في ذلك المكان الذي وصل إليه جيشُ المماليك. والأعجب من كلّ ذلك أن فرسان هيكل الربّ قد هاجموا العدوَّ

Twitter: @ketab_n

حيث يشقُّ على صلاح الدين الدفاعُ عن نفسه، أو أن يجمع صفوفَه ليبادر هو نفسه بأي هجوم.

فمن الغلو الادعاء أن النصرَ جاء بفعل الحظ أو البراعة، بل كان على العكس دليلاً على أن الإيمان بالمسيح هو الإيمانُ الحقُّ، وأن محمدًا - عليه السلام - رسولٌ موحَى إليه من الربّ وليس القابضَ على الحقيقة الوحيدة. فهل تُفسَّر معجزةُ مونجيسارد على غير هذا النحو.

ومع ذلك فقد حاول الأمُير موسى أن يفسّرها. فعندما رأى الربُّ القابضين على الإيمان الحق وقد صاروا على شفَى الهزيمة على يد المسيحيين الذين كانوا رجالاً كمثل باقي الرجال، وكانوا على أيِّ حالٍ أقربهم إلى الإيمان الحق، أدار ظهره إليهم جميعًا. وبعد ذلك كان الخطأُ البشري وليس إرادة الربّ هو الأرجحُ والأقوى.

لأنّ القابضين على الإيمان الحق قد ارتكبوا سلسلة من الأخطاء التي نبّه إليها القوطي. لقد ظنوا أنهم حقّقوا النصر حتى قبل المعركة الحقيقية الأولى. فهذا النوع من التخمين يَلقَى شرّ الجزاء في الحرب دائمًا، في الشؤون الكبيرة وفي الشؤون الصغيرة على السواء. لقد رأى المحاربون القدامى، بالتأكيد، آلافًا من القرارات الحمقاء، ورأوا نفس القدر من الاحتمالات التي كانت تحسِم الفرقَ ما بين الحياة والموت. فكذلك كان الشأن دائمًا. ثم أليس من قبيل الإسراف في الاعتداد بالنفس الادعاء أن يد الربّ تمتدّ إلى كلّ واحدة من المعارك الصغيرة التي يخوضها عبده؟ بالطبع، فلو كان الأمرُ على خلاف ذلك لما فعل الربّ شيئًا آخر سوى الانتقال من حرب إلى حرب، ومن معركة إلى أخرى. أمّا أمرُ مونجيسارد فهو مزيجٌ من التخمين البشري ومن نصيب الأسلحة، ليس أكثر.

لا آرن ولا فخر تشاطرا هذا الرأي. لقد قدّر فخرُ أن الاعتقاد بأن الربّ قد أدار ظهره على النحو لمجاهديه تجديفٌ في عزّ الحرب المقدسة. ورأى آرن أنّ الرب لا يمكن أن ينشغل بأمورٍ أكثر إلحاحًا لأن الحربَ الجارية غايتُها القبر المقدس.

وأخيرًا بقيت مسألة الإيمان الحقّ ومعرفة حقيقته. ففي هذا النقطة لم يستسلم أحدٌ، وما لبث فخرُ المحنّك في مجال التفاوض أن وجّه النقاشَ نحو نقطة الالتقاء

Twitter: @ketab_n

الوحيدة. فلا أحد يعرف إن كان الربُّ قد عاقب الذي قاد باسمِه، الحربَ المقدسة نحو القدس، أَمْ أن الربَّ حَمَى من كان يُؤَمِّن باسمه، الدفاعَ عن المدينة المقدسة. ولما كان يستعصي القولُ إن كان الربُّ قد عاقب أو جازى، فلا يسعنا القول إن أقوال الرسول – عليه السلام- أقوال خاطئة، وإنّ أقوال المسيح – عليه السلام أيضًا – أقوالٌ صحيحة.

* * *

صار سيغفريد – الذي يكتب اسمَه تورينجين في لغة قومه- واحدًا من الإخوة الجرحى في مونجيسارد. لقد أقنعه آرن بأن ينشد العلاجَ في غزة، لكنْ دون أن يُفصح له بوضوح عن الأسباب التي جعلت العلاجَ هناك أفضل بكثير منالعلاج في قلعة سيغفريد نفسه، كاستيل أرنالد، في منطقة الرملة.

لقد أخفى آرن عن أخيه الراهب أن أطباءَ قلعة غزة من عرب الشرق، وكان من بين بعض فرسان هيكل الربّ من يقدّر أنّ اللجوء إلى بعض الأطباء العرب مُخْزٍ وجالبٌ للعار، وكان القادمون الجدد إلى الكهنوت يشاطرون هذا الرأي، وكذلك الإفرنجُ اللائيكيون القادمون من وراء البحر. لقد كان القادمون من الجدد في العموم يعتقدون أنّه لا مفر من قتل كافة عرب الشرق دون استثناءٍ كلّما وُجِد أثرٌ لوجودهم. وكان آرن قد اعتنق هذه الفكرةِ المفرطة في سذاجتها خلال عامه الأوّل تحت المعطف الأبيض. لكن بعد ذلك، وعلى غرار الإخوة الذين خدموا في الأرض المقدسة زمنًا طويلاً عرف أن الأطباء العرب يعالجون ضِعف عدد الجرحى الذين يعالجهم الإفرنج. كان أكثرُ الأطباء الإخوة خبرةً يمزحون قائلين إنه لو كُتِب لأحدهم داءٌ فلا شيءَ أرحمُ له من طبيبٍ من دمشق. لكن خير له أن لا يجد طبيبًا على الإطلاق من أنْ يعالجه طبيبٌ إفرنجي.

كان ثمة فارقٌ كبير ما بين شؤون هذا العالم وبين ما تعلق بشؤون الإيمان. يقول بعض الأسياد والإخوةُ الرهبان من أصحاب المراتب العالية، وبحكم تجاربهم، فإنّ الأطباء العرب أكثرُ براعةً من غيرهم، لكنهم يضيفون أنّ الاتكال على الكفرة لا

Twitter: @ketab_n

يجوز، لأنّ في الاتكال عليهم إثماً وخطيئة.

كثيراً ما كان آرن يسخَر من هذا اللون من الآراء ويقول إن من دواعي الغرابة الادعاءَ أن مِن الناجين من يدين بنجاته للإثم، وأنّ مِن المعرَّضين للموت من يدين بنجاته لتمسّكه بالإيمان الحق. لكنْ شتان بين مَن يدخل الجنةَ بسببِ الموت في ساحة الوغى وبين من يدخلها بسبب رفْضه العلاج.

لقد أدرك آرن أن سيغفريد من طينةِ أولئك الذين لا يرغبون، لقناعة في أنفسهم، في التعاطي إلا مع الأطباء غير المؤهّلين. لكنه حين دخل غزة فوق نقّالةٍ لم يكن حالُه يسمح بأن يكابر أو يعاند. لقد اخترق سهمٌ الكتفَ وعظْم الكتف واخترق رمُحٌ فخذَه اليسرى. فلو عالجه طبيب من الإفرنجِ لحوّله في الحال من شخصٍ مقطوعِ اليدِ إلى شخصٍ مقطوعِ الرِّجل.

اشتكَى سيغفريد كثيراً في البداية، وأخذه آرن الذي وضعه ما بين هذه الأيدي. لكنّ الطبيبَين واسمهما ابن الخطاب وعبد الملك نجحا في استئصال حّد السهم، على الرغم من وصوله إلى عظم الكتف. وقد وسِعهما بفضل الأعشاب أن يخفّضَا حرارته في وقت وجيزٍ وأن ينظّفا الجرح بماءِ الحياة التي كانت تحرق مثل النارِ، ولكنها تحول دون انتشار الأبخرة العفنة. وفي غضون عشرة أيام لاحظ سيغفريد أن سطح جروحه بدأ يندمل وبدأ يحرّك ساعده رغم احتجاج الأطباء الذين ما انفكوا يناشدونه بلغةٍ إفرنجية غير دقيقة الهدوءَ والسكينة.

بدأ سيغفريد أثناء شفائه يبدي اهتمامًا للعلاجات التي يتلقاها جرحَى غزة، فقد راعه أوّلاً أنهم يرقدون في أعلى الحصن، في جوّ نديٍّ جاف، وراعه أن كلّ سريرٍ قد وُضِع على مسافةٍ من السرير المجاور لجعل الحديث بين المرضى أكثر صعوبة. ولم يكن في البرودة ما يعيق المرضى لأنّ كلّ واحد كان متدثرًا باللُّحفِ والبطانيات.

كانت كلُّ فتحات الرمْي مزودةً بمصاريع من الخشب لصدّ الريح والمطر. فلعل مَن قدّر أن لا طائل من كلِ ذلك، لأنه بالوسع كما هو الحال في قلاع أخرى تكديسُ الجرحى في عِلّياتٍ. لكنّ الأطباء العرب ظلوا يلحون برغبتهم في أن يعمّ غرفةَ العلاج القدرُ الكافي من الهواء الرطبِ والحرارة المنخفضة. ولما لم تكن هذه

Twitter: @ketab_n

هي المرة الأولى التي يصاب فيها سيغفريد بالجروح، فقد وسِعه أن يقارن حاله الآن بحاله في المرات السابقة.

وزيادةً على الحرارة والرطوبة كان الفرقُ الكبيرُ يكمن في غياب الدعوات أثناء العلاج، ولكون أنّ العلاج كان شحيحًا على معظم الإخوة الرهبان. كان عربُ الشرق بعد أن يغسلوا الجراحَ ويضمّدوها غالبًا ما يكتفون بهذا، فلا يضيفون للجروح لصقات جديدة، وروث البقر الساخن وغيرها من العلاجات التقليدية. وقد كان الأطباءُ إذا تعذّر استئصالُ الداء بماءِ الحياة كَوَوْهُ بالحديد المحمّى. وفي هذه الحالة كان آرن يصعد إلى غرفة التمريض بنفسِه يرافقه رقباء، لِتقييدِ هؤلاء المساكين حين تعرّضهم للحديد المحمّى.

لكنّ هذا لم يمنعه من زيارة الجرحى كل يوم ومن مشاركتهم الدعاءَ بعض الوقت، قبل أن يمرّ مع الطبيب من سريرٍ إلى سريرٍ لترجمة نصائحه وآرائه. كل ذلك كان جديدًا في نظر سيغفريد دي تورين، وقد كان في البداية ينظر بارتياب إلى الطب الساري في غزة. لكنّ الكلمة الأخيرة كانت للحق ولم يكن من السهلِ دحضُه أو تكذيبُه. فمن بين الجرحى الذين أدخلوا المستشفى بعد مونجيسارد لم يمت سوى واحدٍ لأنّ إصابتَه كانت خطيرةً في البطنِ وكان معروفاً أن هذا النوعَ من الجروحِ عصيٌّ على الشفاء. لكنّ الذي لم يكن بالإمكانِ إنكارُه أنّ غرفة العلاج كانت تفرغ من نزلائها شيئاً فشيئاً وأن معظم الجرحى، وحتى الجريحان اللذان عولجا بالحديد الساخن، ما لبثوا أنِ استأنفوا خِدمتَهم. لقد اعتاد سيغفريد أن يشهد موتَ نصف إخوته الجرحى في المعركة، وكان نصفُ الذين كُتبت لهم الحياةُ عاشوا مقعَدين. ففي غزّة لم يَرثِ هؤلاء الكفرةُ إلا لوفاةِ واحدٍ وكانت حالةً ميئوساً منها. وكان الأمرُ بديهياً. ولذلك كان من الحمق ألا يحاول اللجوء إلى أطباء من عرب الشرقِ إلى كاستيل أرنالد حتى إنْ كان القرارُ صعباً. لكن لو لم يفعل لكان ذلك ذنباً في حق الجرحى، ولكان ذلك أدهى وأمرّ.

.

كان عبد الملك واحداً من أقدمِ أصدقاء آرن فيما وراء البحر. لقد التقَيا حين

Twitter: @ketab_n

كان آرن شاباً في الثامنة عشرة من العمر، خجولا يتصرف مثل الصبيان، وحديث العهد بحصن طرطوس الكائن إلى الشمال من طول الساحل. عبد الملك هو الذي لقّن آرن الدروسَ الأولى في اللغة العربية على مدى عامين كاملين قبل أن يفترقا، لمّا أُوكلت لآرن قيادةٌ جديدة.

بطبيعة الحال كان القرآنُ هو الكتابُ المناسبُ، أكثرَ من غيره، لتلك الغاية، لأنه مكتوبٌ بلغةٍ مُتْقَنَة، وهو ما ظل عبد الملك يوضّحه لآرن بالقول إنها لغةُ الربِّ التي جاءت إلى الناسِ عن طريق الوسيط الوحيد، الرسول صلى الله عليه وسلم. أما آرن فقد كان يفسّر ذلك على نحوٍ مختلفٍ بالقول إن القرآنَ صار هو معيارُ اللغةِ العربية، وأنه صار كاملاً فيما بعدُ بعد أن اعتنقه الناسُ جميعاً.

فكثيراً ما كان يسعهما التشاجر بسبب هذه الأمورِ التي لا جدوى منها، لكنْ لم يكنْ يهمُّهما أن تختلف عقيدةُ كلٍّ منهما عن عقيدة الآخر. لكن عبد الملك رجلٌ لا يمكن أن يسمح لعقيدةِ أيٍّ كان أن تُعكّر عقيدتَه. لقد عمل لحساب الأتراك السلجوقيين، ولحساب مسيحيّي بيزنطة، ولحساب خلفاء الشيعة في القاهرة، ولحساب السنّة في بغداد، أي باختصار لحسابِ من يدفعُ أكثر. وعندما التقيا هو وآرن في القدس قبل أن يتسلم عبد الملك منصبه في غزة اتفقا في الحالِ، لكنْ ليس فقط لأنهما صديقان قديمان. فلم يتردّد آرن في أن يعِد عبد الملك بمكافأةٍ مجزية لقاءَ خدماته، وهو يعلم عددَ الأرواح التي يمكن أن ينقذها. لذلك لا يمكن أن يعترض أحدٌ على قيمة ذلك الأجر. فعودةُ العافيةِ إلى فارسٍ من فرسان هيكل الربِّ، ذي خبرةٍ وحنكة، وتمكنه من ركوب الخيل ثانيةً لا شكّ أقلُّ تكلفةً من إعدادِ فارسٍ جديد.

ففي تلك الفترةِ لم يكن أيُّ كهنوتٍ في العالم أكثر ثراءً من فرسان هيكل الربّ، بل كان البعضُ يقول إنهم كانوا يملكون من الذهبِ في صناديقهم أكثر مما يملكه ملكُ فرنسا وملكُ انجلترا مجتمعَين. وذلك على الأرجح هو الأقربُ إلى الحقيقة.

لم تكن غزّة إذاً مدينةً محصّنة وحسب، ومركزاً جنوبياً متقدّماً في وجه الغزوات المصرية بل كانت أيضاً مركزاً تجارياً، وواحدا من موانئ فرسان الهيكل الثمانية على

Twitter: @ketab_n

طول الساحل الممتد حتى تركيا. فعلى خلافِ عكة، مثلا، كانت غزّة ميناءً يقع بكامله بين أيدي فرسان هيكل الربّ. فلذلك السبب كانت العلاقات التجارية مع الإسكندرية لا تتوقف في زمنِ الحرب، إذ كانت السفنُ التي تصل ما بين المدينتين تنجو من الأنظارِ المتطفلة.

لكنّ غزّة كانت تتعاطَى التجارةَ مع البندقية وجَنَوة أيضاً، ومع بيزا أحياناً. كان لفرسان هيكل الربّ مئاتُ السفنِ التي كانت تُبْحِر بلا انقطاع في البحر المتوسط. ولمّا كان للمدينةِ قبيلتان من البدوِ المنحدرين منها أصلاً فقدْ صار ربطُ البندقية بطبرية لا يقل سهولةً عن ربط بيزا بمكة المكرمة.

من بين كلِّ البضائعِ التي كان فرسان هيكل الربّ يصنعونها لكي يبيعوها للإفرنج والجرمانيين والبروتونيين والبرتغاليين والقشتاليين كان السكّر هو أغلاها جميعاً. كان القصبُ يُزرَع ويُجنى ويكرَّر ويُصفَّى بالقرب من طبريّة، وكان السكّر يُنقَل بواسطة قوافل الجِمالِ إلى أقرب ميناء، أو حتى غزّة حيث التصريفُ عبْر البحر أوفرُ وأسرع، وفي ذلك ما يسمح بتعويض الوقت الضائعِ براً. ففي بلاد الإفرنج كان السكّرُ مادةً محبّذة على طاولة الكثير من الأمراء الذين كانوا يدفعون ثمنَه فضةً.

ولذلك كان في المبالغِ الهائلة التي تمرّ على هذا النحو ما بين أيدي بائعِ الجوخِ في غزّة وكُتّابه ما يغري الكثيرَ من رجالِ ذلك العصر.

فذاك ما حدث عندما وصلت إحدى السفن من الإسكندرية وعلى متنِها خمسون ألف دينار أُفرِغت في ثمانيةِ صناديق ضخمة. فلا شيءَ كان أسهلَ على رجلٍ حالُه كحالِ آرن دي غوثيا أن يسجل مبلغ ثلاثة آلاف دينار في دفاتره ويحتفظ بالباقي. كان حسبه تلك الثروة لكي يعود إلى بلاده ويشتري كلَّ المقاطعة التي قدِم منها. فلو علِم اللاثيكيون الذين حملوا الصليبَ وذهبوا إلى الأرض المقدسة بتلك الثروة لَمَا تردّدَ أكثرُهم في الاستيلاء عليها.

ومع ذلك لا يَذْكر آرن أنّ تهريباً من ذلك القبيل اكتُشِف أثناء المدة التي أمضاها في خدمة فرسان هيكل الربّ. فهو لا يذكر سوى حالةٍ واحدة: أن أحد الفرسان جُرِّد من معطفه بعد أن عُثر في جعبتِه على قطعةٍ من ذهَبٍ أكد هذا البائسُ أنها

Twitter: @ketab_n

مجرد تميمةٍ يحفظها في جيبِه سرّاً. لكنه أخطأ في حقّ نفسِه حين حمَلها لأنها في النهايةِ كانت نحساً على صاحبها غير الشرعي.

كان من حق آرن وهو قائد الساحة أن يمتلك خمسة خيولٍ، في حين لا يحق لأخ عادي سوى أربعةٍ منها. لكنّ آرن تنازل عن هذا الخيل الإضافي إذ ما زال منذ زمنٍ بعيدٍ يصرّ في ثباتٍ وحزم على أن يستمسِكَ بنَذْرِ الفقرِ، ولذلك فلو رأى الخمسين ألف دينار ذهباً لما هفَا إليها قلبُه. وقد كان كلُّ الإخوةِ الذين عرفهم حتى تلك اللحظة مثله تماماً.

في المقابل أحسّ بالفرحِ والارتياح حين تخلص من السجناء المصريين المئة، بيد أنه شعر أنه ممزّقُ القلبِ وأكثر خِفّة في ذات الوقت حين رافق الأميرَ موسى وفخر على متن السفينةِ التي نقلتهم إلى الإسكندرية. لقد عاد بشخصه حاملاً الفدية التي دفعها صلاحُ الدين. وقد افترقوا كما يفترقُ الأصدقاءُ وهم يقولون إن من دواعي متعة موسى وفخر على الأقل أن يقع آرن في قبضتهم حين يلتقون به في المرة القادمة. وقد انفجر آرن لذلك قهقهةً، وقال لهم إن الأمر سيكون قصيراً جداً، أو طويلا جداً، وساعتها للأسف لن يدفع في هذه الحالة ديناراً ذهبياً واحداً. فمَن كان يعرف قراءةَ المستقبل هو وحده القادرُ على الحديث عن هذه المتعة.

لكنّ الذي يُخبِئُه الربُّ السميع العليم ويهيّئه للجميع لا أحد يستطيع أن يتخيّله، حتى في أكثر أحلامه جنوناً.

* * *

ولمّا شعر سيغفريد دي تورين أنّه قد تعافَى من جراحِه وأنّ ما تبقّى منها لن يحول دونَه والمشيُ وركوبُ الخيلِ رغِب في أن يختبر قدرتَه على استعمالِ السلاحِ بعد أن فارقه حيناً، فالتفَت عندئذٍ إلى آرن وقدّر أنْ من الأفضلِ أن يتمرّن في البَداية مع صديقٍ من ذات الرتبة.

ونزلا معاً إلى مخزنِ الأسلحة في ساحةِ الحصنِ وأخذا ما يناسبهما من سلاح، أيْ السيف والترس. كانت صفوفٌ كاملةٌ معلّقةٌ في الجدران، تحمِل أرقاماً تشير إلى

Twitter: @ketab_n

القامةِ وفقاً لنظامٍ متسلسلٍ، صعوداً من واحدٍ إلى اثني عشر. كان سيغفريد دي تورين طويلَ القامة، فكان يلزمه تسعة للسيف وعشرة للدرع. أما آرن فكان حسبه القامة سبعة، للسيف والدرع معاً.

كانت أسلحةُ التمرين لا تختلف عن الأسلحة التي تُستعمَل في المعارك، لكن حدّها كان متآكلاً. كان شكلُ الترسِ واحداً وكان وزنها نفس الوزنِ، لكنها لم تكن مطليةً بل مغلّفة بطبقةٍ من الجلد المرنِ زُوّدت به للتخفيفِ من وطأةِ الصدمة.

وما إن دخلا إلى ترابِ أرضيةِ التدريب الممشّطة حتى هجم سيغفريد بعنفٍ لا تحفُّظَ فيه، وكأنه أطلق كاملَ طاقتِه من أول وهلة. وتلافى آرن تلك الضرباتِ وهو يبتسم، وردّها دون عناءٍ، لكنه لم يُبْدِ خوفاً، وقد هزّ رأسَه وهو يعلن أنّ تلك الحركاتِ لن تجدي نفعاً في تقويمِ حالةِ ساعدٍ وفخذٍ عليلين، فذاك النوع من الإقدامِ والبسالةِ لن يزيد الآلامَ إلا تفاقماً، وجعل يضرب على جنب سيغفريد المحميِّ بالدرعِ، تارة نحو أعلى الدرعِ وتارة نحو الأسفل، لكنْ في تأنٍّ وعلى نحوٍ واضحٍ وهو يرقب صاحبَه الذي كان يشعر بمزيدٍ من العناءِ في رفْعِ ترسِه وخفضِه بساعدِه الجريح.

ثم غيّرا التمرينَ وأخذا يقتربان الواحد نحو الآخر، ثم يبتعدان، حتى يتاح لسيغفريد أن يقوم بحركاتٍ نحو الأمام ونحو الخلفِ ويحرك ساقه المريضة.

لكن آرن ما لبث أنْ أنهى هذا التمرينَ وهو يقول إن الخللَ بات واضحاً وإن الإسرافَ في هذه الحركات غير مرغوبٍ فيه. وقد بدا سيغفريد وكأنه بدأ يملك أمرَه ويعود إلى ما كان عليه قبل مونجيسارد. لكنه رفض في البداية إنهاءَ التمرين، معتقداً أن فارس هيكل الربّ يجب أن يألف الألمَ لأنّ في الألم مزيّةَ القوّةِ والانتعاش. وظن آرن أنّ ذلك ينفع من كان سليماً معافىً وليس من كانَ سقيماً. فإن أصرّ سيغفريد على مثل هذه البراهين فسيربطه بسريرِه، لأنه إنْ كانا من ذات الرتبةِ فهما الآن في غزةٍ ومن حق آرن أن يمنع عنه التدرّب مع أيِّ شخصٍ آخر. فقد أعادا إذاً أسلحتهما إلى مكانها بعد أن احتج سيغفريد على ذلك كثيراً، وعادا إلى الكنيسة لكي يُصَلّيا صلاةَ ما بعد الزوال.

Twitter: @ketab_n

كان ذلك يومَ خميس، لكن في ذلك الخميس، عند الثالثة بعد الظهرِ كان آرن يعقِد برفقةِ العلامة الطبيب عثمان بن الخطاب، جلسةً أمام سور القلعة. ففي هذا المجلس كان يسوّي الخلافاتِ ويُدينُ كلَّ مَن ثبتَتْ مخالفاتُهم. وقد اقترح على سيغفريد أن يرافقه إلى ذلك المجلس، لأنه قد يكون من المفيد لقائدِ ساحةٍ قوية في الشمالِ أن يطّلع على المسائل التي ينبغي تسويتها في الجنوب، وأن يعرف إلى أي حدّ تختلف هذه المسائل عن تلك التي يعالجها في منطقته. لكن آرن اشترط من سيغفريد أن يرتدي لباسه الرسمي مع المعطف الأبيض، والسيف على جنَبه.

قبِل سيغفريد ذلك العرضَ من قبيل الفضول، لكن من دون حُكم سابق. واجتهد في ألا يتسرع في الحكم على أيّ شيءٍ قد يبدو له من أوّل وهلةٍ غريبًا أو مثبّطاً للعزيمة، كأن يُمثّل دور العدالة أمام عرب الشرق وكأنهم أندادٌ متساوون. وفوق ذلك فقد تذكّر أنّ لملابس غزة الغربيةَ بعضَ المزايا، كما للطب في غزة مزاياه، مثلا.

ومع ذلك فقد بدأ بمشاهدة ما أحدث في نفسه أثرَ المقلب الساحر، أو ما يُشبه التهريج في أمور الدين. لقد أُحضِر كلامُ الربِّ والقرآنُ ووُضِعا على الطاولة، أمام المنبر الذي وقف عليه برفقة آرن والعربي عثمان بن الخطاب. وقد تجمّع حشدٌ كبير في شكلٍ مربّع خارجَ مساحةٍ عُلِّمت بالحبالِ يحرسُها رقباءُ يحمِلون الرماحَ والسيوف. وقد بدأ المقلبُ عندما جعل آرن يتلو على مهلٍ الباتر نوستر الذي لم تفهمه سوى قلةٌ قليلة. ثم تلا عثمانُ بن الخطاب دعاءً بلغة الكفرة الذي استمعوا إليه وجباههم نحو الأرض. وبعد انتهاء هذه المراسمُ أعلن آرن الشروعَ في استدعاء أوّل المشتكين، فتقدّم فلاحٌ فلسطيني من إحدى القرى التابعة لغزةَ، ترافقه امرأةٌ أخرى كُبِّلَت يداها إلى ظهرها. ثم ألقى إلى الأرض هذه المرأةَ المكبلة وجَلب خلف ظهره المرأةَ الثانية المتحجبة، ثم انحنى أمام القضاة الثلاثة وهو يرفع يدَه اليمنى، ثم شرع يتلو دعوات طويلةً لعله وجّه فيها التحية لآرن. ولم تكن تلك الدعوات، على أي حال، مفهومة لسيغفريد.

ثم جعل الفلاح يدافع عن قضيته، وصار آرن يترجم أقوالَه بصوتٍ مخفّض، على طرف الشفتين حتى يفهم سيغفريد ما يجري على لسانَ ذلك الفلاح.

Twitter: @ketab_n

كانت المرأة المكبلة المُهانة هي زوجة ذلك الفلاح الذي تنازل عن الحق الذي يسمح له بقتل زوجته لخيانتها. وكان هذا النبلُ مستوحىً من رغبته في احترام شريعةِ غزة التي أقسم على احترامِها، على غرار باقي أهل القرية، في مقابل حماية الصليبيين. والحال أن زوجته قد ارتكبت ذنبًا عظيمًا تشهد عليه تلك المرأة الصادقة التي تسكن بجوارها.

لكن آرن قاطَع شكاوى ذلك الرجل، ودعا المرأةَ الصادقة إلى التقدم إلى الأمام ففعلت في خجلٍ جمّ، فيما ساد الصمتُ باقي الحضور. وسألها آرن إن كان جارُها صادقاً فيما ادعاه فأكدت صدق قولِه، ثم دعاها لأن تضع يدَها على المصحف، وأن تُقسِم أمام الربّ أنها على استعدادٍ لأن تصطلي بنار جهنم إن شهدت زوراً، وأن تكرّر شهادتها ثانيةً، فأطاعت، لكنها بدأت ترتجف وهي تمدّ يدَها نحو الكتاب المقدس الذي وضعت عليه يدَها في حذرٍ جم، وكأنها خشِيت أن تحترق بنارِه. وقد ردّدت ما طُلِب منها كلمةً كلمة. ثم طلب منها آرن أن تنسحب، ثم مالَ على عثمان بن الخطاب الذي شرع في تلاوةِ عرضٍ سريع بصوتٍ خافت لم يسَعْ سيغفريد أن يسمعه أو يفهمه، ولم يرَ سوى الآخرَين وهما يوافقان بحركةٍ من رأسيهما وكأنهما يعقدان اتفاقًا.

نهض آرن وقرأ مقطعًا من كتاب الكفرة لم يفهم منه سيغفريد شيئًا، ما دام آرن لم يترجمْ له إلى لغة الإفرنج من ذلك شيئًا. وقد وجد تلك الأقوالَ مذهلةً حقًا لأن القرآن يشترط أربعة شهودٍ لإثباتِ فِعل الزنا. فإن لم تثبُتْ لا يحق لأيّ رجلٍ أو لأيّ امرأة أنْ تذكره. والحال أن ذلك الرجل لم يُحضر سوى شاهدٍ واحد ولا يمنحه ذلك إذاً أيَّ حقّ.

وعند هذا الحدّ من الشروح أخرج آرن سيفَه القصيرَ وتقدّم على عجلٍ من المرأة المكبّلة، وقد سرت همهماتٌ وَجلَة ما بين الحضور. ومع ذلك فإن الذي أقدم عليه آرن كان مختلفاً عمّا كان البعضُ يخشاه، إذْ اكتفى بفكِّ رباطِ تلك المرأة، مُعلنًا أنها صارت حرّة طليقة.

ثم أقدم على أمْرٍ ملأ سيغفريد مزيدًا من الدهشة. لقد أخذ يشرح باللغة العربية،

Twitter: @ketab_n

ثم بلغةِ الإفرنج، أنّ القَسَم الذي أدّته المرأةُ التي قدّمت شهادتَها، لا يحمل أيَّ قيمة، ما دام الزنا غير مثبت، وعليه فسوف تعاقَب على شهادتها. فإمّا أن تخدم لعام كاملٍ وبلا أجرِ الزوجةَ التي اتّهمتها زوراً، وإمّا أن تغادر قريتَها. وإن لم تمتثِل فسوفَ تَلقَى عقابًا كعقابِ مَن يحلِفون زوراً وبهتانًا، عقابا حدّ الموت.

أمّا ذلك الذي شهد شهادةً ناقصة فجزاؤه، حسب تعاليم القرآن، ثمانون جلدة.

بعد النطق بذلك الحُكم ذُهِل الحضورُ كثيراً، وجاء رقيبان وأمسكا بالرجل الذي سيُجلَد وأخذوه جانبًا لكي يسلّموه إلى قُضاة غزة العرب. أمّا المرأتان — المرأة التي كان جزاؤها الاسترقاق والمرأة التي كانت ضحيةً لتُهمةٍ ظالمة — فقد انسحبتا نحو الحشدِ، خائفتين مرتعِبتين. وعندما توارَى الثلاثةُ عمّ الهرجُ والمرجُ، فكان ذلك دليلا على أنّ للحُكم الصادرِ أنصارًا ومُشنّعين. وجال سيغفريد بنظرِه في أرجاء القاعة فلمَح مجموعةً مَن الرجال كبارِ السنّ يحملون عمائم بيضاء ولِحًى طويلةً فظنّهم من رجال الدين الكفرة، وقد خالَهم وهُم يتحدثون حديثًا هادئًا ويهزّون رؤوسهم، أنهم رأوا ذلك الحكمَ الغريبَ عادلاً عاقلا.

أما الحالة التالية فقد دار الخلافُ فيها حول حصانٍ، وقد حضر المدّعيان للمرة الثانية لأنّ القضاةَ أرجؤوا قرارَهم في المرّة الأولى، طالبين رؤيةَ ذلك الحصان. وقد جِيء بالحصان إلى الفضاء الحر الكائن ما بين الحبالِ، يجرّه الرجلان اللذان رغب كلّ منهما في الإمساك به من لجامه. وبدت القضية بسيطة مادام كل منهما يدعي أنه المالكُ الشرعي للحصان ويتّهم الآخر بالسرقة.

فدعاهما آرن لأن يقسما على القرآن بأنهما سيقولان الحقيقة، ففعَلا، الواحد بعد الآخر، فيما أخذ هذا الخصمُ وذاك يمسكان كل منهما بالحصانِ، فرأى الحضور في ذلك المشهد الهزلي ما يدعو للضحك والسخرية. لكنْ ما منهما من تردّد فيما أصر عليه لحظة واحدة. ولا شيء في الطريقة التي أدّيا بها القسم ما يتيح القولَ إنْ كان ذلك القسمُ صِدقًا أم كذِبًا، على الرغم من أنّ أحدَهما هو الحانثُ بالقسم لا محالة.

Twitter: @ketab_n

ومن جديدٍ تحادث آرن بصوتٍ خافتٍ مع مساعده العربي، ثم مال إلى الخلف نحو أحد جنود حرسِه ليلقي إليه أمراً سمِعه سيغفريد بوضوحٍ تامّ هذه المرة. لقد طلب إحضارَ اللحّامين وعربةَ يدٍ.

بعد ذلك نهض آرن وجعل يتحدث بتلك اللغة غير المفهومة قبل أن يستأنف حديثه بلغة الإفرنج حتى يفهمه سيغفريد وآخرون أيضًا. فقد قال كم يحزنني أن أرى شخصاً يحنث بقَسمَه، لأن أحد الرجلين قد حنث بيمينه وسوف يذهب ليصطلي ناراً في جهنّم بسبب حصانٍ نحيل بائس.

ففي مثل هذه الحال لا يمكن أن يصدر أكثرُ من حُكم واحد، قال آرن بنبرةٍ مهدّدة، وهو يستلّ سيفَه في حركةٍ لافتة. لكن الرجلين ظلا يدّعيانِ ملكية الحصانِ وبدا كلٌّ منهما خائفًا فزِعًا، وتعذّر معرفة من منهما حلَف كذبًا وزوراً.

شخص إليهما آرن حينًا وهو يُشهر سيفه، ثم التفت قليلا، وبإحدى يديه قطع رأسَ الحصانِ قبل أن يخطوَ خطوةً واحدة حتى لا يتلقّى ضربةَ حافرٍ أو يلطَّخ بالدمِ الذي بدأ ينضح من البهيمة المحتضِرة. ثم مسح سيفه في هدوءٍ على خرقةٍ كان يحملها تحت قميصه ثم أعاده إلى غمده، قبل أن يرفع يده لكي يُنهي الجلبة.

ثم قال موضحًا إن الحصانَ كان سيقسم إلى قسمين متساويين، وذلك يعني أن أحد الطرفين سيأخذ نصفَ الحصانِ فتأتي المكافأةُ غيرَ مستحقة، لكن عقابه أمام الربّ سيكون ثقيلا.

وأما الثاني فلن يحصل إلا على النصف الثاني من الحصانِ فتأتي مكافأتُه غير مستحقة أيضًا لكن جزاءه عند الربّ سيكون أفضلَ وأجدَى.

اقترب اللحامون بعربتَهم التي حَملوا عليها الحصانَ ورأسه، ثم ألقَوا بالترابِ فوق كل ذلك الدمِ وانسحبوا على عجل، في انحناءٍ أمام آرن.

ثم جاءت سلسلةٌ من الخلافات ارتبطت على الخصوص بقضايا المالِ التي لم تُثِرْ همّ سيغفريد بأيّ حال من الأحوال. وفي الحال حَسم آرن ومساعدُه حلَّ تلك الخلافات بالتراضي، إلا حالة واحدة أمسكا فيها المدعي متلبسًا بجريمة الكذبِ فأخذ عليه الجزاءَ الذي يستحق، ضرباً بالعصا.

Twitter: @ketab_n

وجاءت آخرُ حالةٍ في ذلك اليوم خارجةً عن المألوف، وذاك ما لاحظه سيغفريد من خلال تصرّف الحضور والهمهمات التي سرَت فيه. لقد تقدّم بدويّان، اليد في اليدِ: فتاة سافرة وفتًى من سنها تقريبًا، حسن الملبس. كان لهما مطلبان اثنان: الأول طلب اللجوء إلى غزة هروبًا من بطش أهلهما، والثاني عقد قرانِهما أمام الله على يدِ أحد القضاةِ المسلمين في المدينة.

وأجاب آرن أنّ الطلب الأول مقبول واللجوء ممنوح لكليهما. وأما الطلب الثاني فقد تحادث فيه طويلاً وبصوتٍ خافتٍ مع عثمان بن الخطاب. فقد سيطرت عليهما الحيرة والقلقُ وما انفكا يهزّان رأسيهما، لأنّ المسألة بالتأكيد مستعصية.

وأخيراً نهض آرن وبسط يدَه اليمنى ليُسكِت الحضورَ الذي كان يتلهّف لسماعِ حُكمِه في تلك المسألة.

"أنتِ، يا عائشة، واسمُك من اسم زوجةِ الرسول عليه السلام، من قبيلة بني قيس. وأنتَ يا علي، واسمُك من اسم رجل مقدس يقال إنه كان خليفة، من قبيلة بني عنازة، فما دام كل منكما من قبيلة من قبائل غزة فأنتما في رعاية فرسان هيكل الربّ، ورعايتي أنا شخصيًا. لكن المسألة جد مستعصية، لأن ذويكما أعداءٌ، بعضهم لبعض، ولا شك أنّ قرانكما أمام الربّ سيشعل الحرب بينهما. وعليه لا يسعني أن أمنحَكُما ما تطلبانه مني. لكني أعِدُكما، وإنْ كانت مسألتُكما لم تُحسَم بعدُ نهائيًا. انطلقا في أمانٍ، وانْعَما باللجوء إلى غزة!"

ولمّا سمع سيغفريد الترجمةَ بلغة الإفرنج التي قام بها آرن هذه المرة مثل المرات السابقة دهش كثيراً وهو يلاحظ أنّ أخًا في الربّ يتذلل ويتواضع ليعالج قضايا بهذا القدر من الدناءة، كقضية معرفة إن كان هذان الهمجيان يحق لهما أن يتزوجا أو لا يحق. لكنه قدّر أن آرن قد أبدى أنفةً حقيقية في هذا المقامِ ولم يفته أن يلاحظ الاحترامَ الذي قبل به عرب الشرق، مؤمنين وكفرة، أحكامَه.

في خلال الساعات التالية لم يجد آرن وقتًا قط لمناقشة ما امتلأ به رأسُه، إذ كان عليهما أن يذهبا لإقامة صلواتِ الغروبِ ثم التوجّه إلى المطعم حيث شاركه العشاءَ باقي الفرسان، ولكن دون أن يشاركه أو يبادله أيٌّ منهم أيَّ حديث.

Twitter: @ketab_n

وما بين العشاء وصلوات النوم التي أعقبتها لحظةُ تعليمات اليوم التالي المقدسةِ، تسامروا بعض الوقت حول قدحٍ من الخمرة.

ارتبكت الأفكار في ذهن سيغفريد الذي آثَر أن يبدأ حديثَه عن طبيعة الأحكام التي رآها أحكامًا مبرّرةً لا تشوبها شائبة، وكأنه قبِل بذلك الشكل من العدل الذي لا يفرق في المعاملة بين العبيد والمسيحيين. لقد أدهشه آرن كثيراً حين شرح له أن العربي عثمان بن الخطاب هو القاضي الحقيقي، بحكم خبرته الطويلة. وكان ذلك أمراً صحيحًا لا سيما حين يرتبط الأمرُ بتفسير الشريعة التي تنظم حياةَ الكفرة.

فإن تظاهر آرن أنه مَن انفرد بأخذ القرارات بنفسه فلم يكن ذلك سوى مسرحيةٍ، بل مسرحية ضرورية تقبّلها عثمان بن الخطاب عن طيب خاطرٍ. فغزة ملكٌ لفرسان هيكل الربّ، وعلى كلّ واحدٍ من أهلها أن يعرف من هو صاحب السلطة فيها.

وقد رأى سيغفريد أن الأمرَ عاقلٌ رشيدٌ، بيد أنه رغب في أن يعود إلى بعض الأحكام التي نُطِق بها، ومنها بخاصة حُكْمُ المرأة التي خانت زوجَها.

حول هذه النقطة وضّح آرن، لاهِيًا متسلّيًا، أن الراجِحَ لديه أنّ صاحبة التهمة هي الآثِمة الحقيقية، وأنّ الرجلَ يشاطرها الإثمَ، وفي الوقت ذاته يشاركها اليمينَ الكاذبة. لكنْ، لا أحد يملك الحقيقة. ولم يكن بالإمكان أيضًا النطقُ بحكم ربّاني، مثل الحديد الحامي أو الماء، لمعرفةِ مَن يقول الحقيقة، لأن الكفرة يعتبرون هذه العادات الإفرنجية عادات همجيّة باطلة. ولا قيمةَ عندهم للأحكامِ التي لا يؤمنون بها.

ومع ذلك فإن القرآن الكريمَ لا يمنح هذا الفلاحَ الفلسطيني الحقَّ في أن يقتل زوجته إن ضبطها متلبسةً. وهو الحق الذي يملكه آرن وسيغفريد، في بلادهما.

– لا بد من أربعة شهود! اعترض سيغفريد في ريبةٍ! تُرى، مَن يجرؤ على فِعل الزنا بحضور أربعةِ شهودِ عيان؟!

– لا أحد، بالتأكيد! قال آرن مؤيدًا. وتلك بلا شكٍّ فكرةُ الرسول عليه السلام، لَمّا أمَر بهذه القاعدة، وكيفيةٌ ناضجةٌ لسدٍّ الطريقِ أمام إشاعات الخيانة

Twitter: @ketab_n

الزوجية، وأمام الخلاف الذي قد يتأتى عنها. وختَم حديثه متمنّيًا ألا تتكرّر مثلُ هذه القضية قريبًا أمام محكمة غزة.

أذعن سيغفريد لتلك الحجة وضحك ضحكة قوية جعلته يمسك بصدره الذي لم تندمل بعدُ جراحُه المؤلمة. إلا أنه أقرّ أن هذا النوعَ من الشجار لن يحدث ثانيةً في غزة، ما دام الرسول عليه السلام قد أحسن إنهاءَه في مدينتِه ذاتها.

– لكنْ لماذا هذا الحصانُ الذي قُطِعت رأسُه؟ سأل سيغفريد بقوة، بعد أن خفّت آلامُه التي أثارتها ضحكاتُه.

– المهمُّ هو الدمُ والموتُ، قال آرن بنبرةٍ حادة. فالمحكمةُ لا يجوز أن توحي بالهزلِ وإنْ كان ذلك هو ما حدَث بالفعلِ. فلو انهار أحدُ الرجلين اللذين ادعيا ملكيتهما للحصانِ، وأقرّ أنه أقسم زورًا لكان رأسُه تدحرج في الرملِ رأسًا، ولكان كلٌّ واحدٍ قبِل بالأمر. ولكن منذ اللحظة التي صار فيها فرسان هيكل الربّ مسؤولين عن هؤلاء الناس الذين أضحوا من أتباعهم أصبح لا مفرّ من أن يعتنوا بهم خيرَ اعتناء. كان عليهم أن يخشوا المحكمة، بل كان عليهم أيضًا أن يوقّروها، لأنه ليس بالإمكان الحصول على شيءٍ بالخوفِ وحده.

أبدى سيغفريد موافقةً تجريدية حول هذه النقطة، لكنه ظل يتساءل كيف يعامل سيّدٌ عبيدَه، كأنهم مسيحيون. ورأى أنه من التجديفِ أن يطلب من أيٍّ كان أن يحلف بكتابات كافرة هي من اختراع الشيطان.

وقال آرن متنهدًا لو كان الأمرُ كذلك لكان الشيطانُ أشبهَ بالمسيح ذاته. لكنّ الأهمَّ غير ذلك، فالأهمُّ يكمن في كون أنّ من يحلفون على ذلك النحو أمام محكمةٍ يأخذون يمينهم على محمل الجد. فأيُّ قيمة يمنحها هو، سيغفريد، ليمينٍ قد يُفرَضُ عليه أن يحلفه على القرآن؟

وأقر سيغفريد بأنه لن يُشغل بالَه قط بمثل هذا القسم. وبعد حينٍ من الهدوء والتأمل أضاف أن مثل هذه المسرحية القانونية لا يمكن تصوّرها بأيّ حالٍ في قلعته هو، أو في أي قلعة أخرى من القلاع التي يعرفها. ومن جانب آخر فقد سمع عن ذلك الأمر من قبلُ، والحالةُ جد مختلفة حين يكون مثل ذلك العدد من الكفرة بين

Twitter: @ketab_n

رجاله في غزة، أضاف على عجلٍ حتى لا يبدوَ كثير القسوة. فهو، مثلا، لا يعرف إلا القليل جدًا عن البدو.

عندئذ سأله آرن إن كان يرغب في لقاءِ بعض البدو، لأنّ ذلك هو ما كان يتهيّأ له هو نفسُه في اليوم التالي. فزيارتُه ستكون لشابّين هاربين سلّما نفسيهما ضمن اتفاقٍ متبادل، لاختطافٍ حقيقي.

رأى سيغفريد أنّه من غير اللائق أن يحشر سيّدُ قصرٍ مثله في أمورٍ غثّةٍ كالجماع عند الكفرة، لكنّ آرن أكد له أنّ الأمرَ ليس كما يظنّ، وهو ما سيراه بأمّ عينيه إنْ تكرّم ورافقه في جولته في اليوم التالي.

ومن باب الفضول قبِل سيغفريد بتلك الدعوة.

وعندما شرعا في اليوم التالي يتقصّيان واحدًا من مخيمات البدوِ احتج سيغفريد على وجودهما بمفردهما دون سريّةٍ. أليسا فارسين برتبةِ سيّد قصر؟ لا شك في أن عربًا كثيرين يتمنّون التباهِي برأسيهما على حدّ الرمحِ، عندما يعودون إلى ذويهم! وسلّم له آرن بذلك. فلم يكن من غير المعقول أن يتخيلا رأسيهما معروضين ذات يومٍ على ذلك النحو، لأن عرب الشرق يحبّون على الخصوص أن يروا على حدود رماحهم رؤوسَ فرسان هيكل الربّ المقطوعة، سواء أكان لذلك صلةٌ بلحاهم أم لم يكنْ — الإفرنج صُلْعٌ، وقد تكون رؤوسُهم أقلَ غرابةً وهي على رؤوس الحِراب.

لم يرُق لسيغفريد هذا الأسلوبُ في رؤية الأشياء، فلِحيةُ فرسان هيكل الربّ لا صلةَ لها بكل ذلك، والسبب ببساطة أنهم ألدّ أعداءِ عرب الشرق.

وسرعان ما أنهى آرن ذلك الحديثَ، لكنه أكد أنهم كانوا بلا حُراسٍ.

لم يستغرق وصولُهما إلى غزة حيث نصب بنو عنازة خيامَهم سوى نحو ساعةٍ من السير البطيء. فما كادا يظهران في الأفق حتى امتطى نحو عشرين فارسًا خيولهم وهرعوا نحوهما وهم يشهرون رماحهم وسيوفهم.

شحب وجه سيغفريد قليلاً لكنه ما لبث أن فعل مثل آرن الذي استل سيفه.

"أتستطيع أن تخب بحصانك خبًّا سريعًا، على مسارٍ قصير على الأقل؟" سأل آرن بغبطةٍ أدهشت سيغفريد أمام ذلك العدد من فرسان عرب الشرق الذين انطلقوا

Twitter: @ketab_n

في الهجوم. لكنه هزّ رأسَه دون أن يقول شيئًا.

"هيا، اِتبعني، أيها الأخ، لكنْ بربك لا تقتلْ أحَدا منهم" أردف آرن وهو يمتطي حصانَه الذي انطلق يعدو عدوًا سريعًا صوب مخيّم البدو، وكأنه يشن هجومًا مضادًّا.

وبعد أن تردّد قليلاً سار سيغفريد في إثره وهو يُشهر سيفَه، مثله، فوق رأسه.

ولَمّا التحقا بالمحاربين البدو أقبل عليهما هؤلاءِ وحلّقوا من حولهما، وبدا الأمر وكأن فارسَي هيكل الربّ والمدافعين يهجمون معاً على المخيم. لقد توجهوا صوب أكبرِ خيمةٍ حيث كان في انتظارهم رجلٌ كبيرُ السنّ بلباسه الأسود ولحيته الطويلة البيضاء. توقف آرن فجأة وترجّل إلى جانب هذا الرجل رأسًا، ثم حَيّا بسيفِه المحيطين به وهو يهمس لسيغفريد بأن يفعل مثله. وفي الحالِ تحلّق الفرسانُ البدوُ من حولهما، على الأقدام، وردّوا لهما التحيةَ بأسلحتهم.

وضع آرن سيفه في غمده، ومثله فعل سيغفريد، وتوجه الفرسان البدو صوب مخيمهم.

حيّا آرن في ودٍّ ذلك الشيخَ وقدّم له أخاه. ودُعيا للدخول إلى الخيمة، حيث قُدِّم إليهما الماءُ البارِدُ في الحالِ، قبل أن يُدعَيا للجلوسِ على أفرشةٍ ووسائدَ بهيةِ الألوان.

لم يفهم سيغفريد كلمةً واحدة من الحديث الجاري بين آرن وذلك الشيخِ، وهو على الأرجحِ زعيم البدو. وبدا أنهما يتحدثان بكثيرٍ من الاحترام، ويُعيد كلٌّ منهما بلا انقطاعٍ ما يقوله الآخر، وكأن كلّ صيغة من صيغِ الأدب يجب أن تقال أوّلا بكلِّ ما تحمِله من معانٍ ودلالاتٍ قبل الانتقالِ إلى موضوعٍ مختلفٍ. لكن الرجل العجوز ما لبث أن أظهر امتعاضًا قويًا، وبدا آرن وكأنه يبحث في مخيلتِه عن صيغ وديعةٍ يهدّئ بها ذلك العجوز. وبعد برهةٍ بدأ العجوز يغمغم ويتنهد وهو يشدُّ على لحيتِه، غارقًا في التأمل.

فجأة نهض آرن وبدأ يستأذن الانصرافَ رغم الاحتجاجات الودّية والملحة من مُضيفه. ونهض سيغفريد أيضًا ليسند آرن، وما لبثت احتجاجاتُ العجوز الذي بدا

Twitter: @ketab_n

وكأنه رغب في الأكل قبل الفراق أن صارت أقلَّ إلحاحًا. وانصرف الفارسان وهُما يشدّان على يدِ العجوز، وينحَنيان أمامه، وتحفظ سيغفريد قليلا، لكنه رأى من الحذر والحيطة، في أرض غريبة، أن يحاكي أخاه في السلاح.

وحُظيا عند انصرافهما بذات المراسم التي وجداها عند وصولهما، فقد رافقهم البدوُ لبضع خطوات وهم يُشهِرون أسلحتَهم، لكنهم ما لبثوا أن عادوا على أعقابهم إلى مخيّمهم بذات السرعة التي غادروه بها.

اِنطلق آرن وسيغفريد يعدُوَان عدوًا خفيفًا، وشَرع الأوّلُ يشرح لرفيقِه سببَ كلِّ ذلك الذي جرى.

أوّلاً لا يجب القدوم إلى مخيم بدويٍّ من دون استئذانٍ ووسط سريةٍ، لأن في ذلك إشارةً إلى الجبنِ والعداء. وفي المقابل فإن مَن يتقدّم دون حراسةٍ فهو يُثبت شجاعةً وحسنَ نوايا. ولذلك قوبلا بترحابِ المحاربِ الذي يُكرم ضيوفَه.

هؤلاء البدو، بلا شكٍّ، رجالٌ من غزة، على الأقل في أعين المحاسبين المسيحيين وفرسان هيكل الربّ. فلا يُعقل أن يكون أحدُهم عبدًا لأيٍّ منهم. كان يقال أيضًا إنه لا يمكن الاحتفاظُ بهم أسرى مثل الآخرين، لأنهم يؤثرون الموتَ على البقاءِ حين يسجنون. فمن السذاجةِ معاملتهم معاملةَ العبيدِ، لأنهم في اللحظة ذاتها التي يشعرون فيها أنهم صاروا عبيدًا لن يبقى لمخيماتهم أثرٌ في الصحراء كلها. ففي عالم عربِ الشرقِ البدوُ أنفسُهم رمزٌ للحرية الأبدية والاستقلال.

فالأمرُ، أكثرُ من ذلك أمرُ حمايةٍ وتجارة. فما دامت أراضِي البدو مزروعةً في أراضي غزة فهُم آمنون من كلّ عدوانٍ بين عرب الشرق جميعًا. وعلى هذا النحو فلن يتردّد آرن في إرسالِ خيولِه للهجوم، إنْ هدّد بدوَه كائنٌ من كان.

وفي المقابل يؤمّن هؤلاء، بقوافلِهم، نقْلَ السكرِ وعتاد البناءِ، ما بين طبرية وغزة، وكذلك نقْل البهاراتِ والعطور، والأحجار الكريمة بين مكة المكرمة وغزة.

القبيلة التي زاراها قبل قليلٍ هي قبيلةُ الخاطف، ذلك الفتى الذي يدعَى "عليّ". الخطفُ يحدث عندما لا تخضع رغبةُ الشبان البدو لرغبة الآباء. وكلُّ من كانوا يفرّون على هذا النحو، لأن الأمرَ أمرُ فرارٍ وليس خطفًا بحصرِ المعنى، يقبلون بأن

Twitter: @ketab_n

يُطردوا من القبيلة، فإن ذهبوا لكي يعيشوا عند الرجل هاجمتهم قبيلة المرأةِ، والعكس بالعكس. فالمسألةُ مسألةُ شرف.

لكن في الحالة هذه مع الأسف كانت هاتان القبيلتان متصارعتين منذ قديم الزمان، دون أن يعرف أحدٌ السبب، ولا تنتهي صراعاتهما إلا على أراضي غزة.

اقترح آرن إذًا على رئيس القبيلة العجوز بأن يرخّص للهاربين الزواج بما تمليه القواعد، وأن يعتبر القران بعد ذلك عربون سلام ما بين كافة البدو في غزة. وقد أجاب العجوز، وهو عمُّ علي، أنه لا يرى ذلك ممكنًا، لأن الضغينة ما بين القبيلتين قديمة جدًا. بيد أنه لم يعترض على هذا الحل إنْ وافَق المعسكر الآخر عليه، وهو يشك في ذلك كثيراً. أما الأملُ الوحيد فهو يكمن في كون أن القبيلتين قد كسبتا كثيراً على الصعيد المادي، بنصب خيامهما على أرض غزة وبإبرام هذه المعاهدة مع فرسان هيكل الربّ.

مكث سيغفريد حينًا، صامتًا متأملا، بعد سماع هذا الحديث. لا شك في أن ميزة هذه المعاهدة على فرسان هيكل الربّ ميزة واضحة جلية: نقل البضائع عبر الصحراء مستحيلٌ دون قوافل البدو.

– فمن جانب هؤلاء الهمج كانت الميزةُ بديهيةً لأيّ كان رأى كمية الأسلحة المملوكية والسروج المزينة في براعة، الموجودة في المخيم الذي زارَه الرجلان قبل حينٍ. لعله قلما شوهد نهبٌ بسعة النهب الذي حدث بعد معركة مونجيسارد.

– لا، تنهّد آرن، بالتأكيد لا! بل يرجح أن البدو تمنوا انتصار فرسان هيكل الربّ أكثر مما تمنوا نصرَ المماليك، لهذا السبب بالذات. فرسان هيكل الرب المهزومون لا قيمة فيهم، ولا يحملون معهم أشياء ثمينة أبدًا!

دهش سيغفريد من رأي أخيه آرن، الأصغر منه سنًّا، والذي لم يقم في الأرض المقدسة منذ زمن بعيد، وتساءل كيف تعلّم أشياء بهذا القدر من الغرابة: الهذر الحيواني الذي يستعمل لغةً لعرب الشرق وعاداتهم البربرية.

أجاب آرن أن ما يستقيه من معلومات جديدة ما انفك يبهره منذ نعومة أظفاره. ففي الدير أثناء شبابه كان يبحث عن المعرفة في الفلسفة وفي الكتب، لكنه

Twitter: @ketab_n

لم يجد قط تلك المعرفة في الأرض المقدسة. ففي هذه المنطقة كرس وقته للمعلومات العملية ولكل ما هو مفيد للحرب والتجارة، وكلاهما سيان. أما هؤلاء "الهمج" كما يدعي سيغفريد، قال مازحًا بلا تحفظ، فإن أطباءهم ليسوا جهلة، على أي حال. فبفضل هؤلاء الأطباء سيكون سيغفريد محاربًا لا يقل بأسًا عمّا كان قبل معركة مونجيسارد.

فتح هذا الأخيرُ فاه ليعبِّر عن اعتراضه لكنه فقدَ خيطَ أفكارِه. كانت تراوده تأملات كثيرةٌ رغب في أن يستوضحها قبل أن ينطلق في محادثات جديدةٍ مع هذا الأخِ الأصغر الذي لا تغيب عنه أشياء كثيرة.

في اليوم التالي توجه آرن بمفرده إلى قبيلة بني قيس، في جنوب غزة. لقد نصبت خيمتَها عند ملتقَى الجبالِ، والساحل الشاسع، بالقرب من طريق العريش. وقد غاب طوال اليومِ لكنه عاد في الوقت المناسب فلم تَفُتْهُ صلواتُ المساءِ، حاملا أنباءً سارةً أخبر بها حَول خمرة المساء: السلامُ بات وشيكًا ما بين بدو غزة.

* * *

عند اقترابِ الربيع خلا مَشْفَى قلعةِ غزة من نزلائه شيئًا فشيئًا، ولم يبقَ فيه في النهايةِ سوى فارسين اثنين. وقد أوكل آرن لأحدهما مهنة الحدادة بالقرب من مدرّب المسايفة، لأنه سوف يظل يعرج مدى الحياة.

أما سيغفريد دي تورين فقد التحق بقلعته في كاستيل أرنالد منذ أسبوع أو أسبوعين. ويبدو من تمارينه الأخيرة في الفروسية واستعمال الأسلحة أنه قد تعافَى.

فإذا كانت الملاحةُ ما تزال متوقفةً في الشتاءِ، لأن الخسائرَ في الأرواحِ وفي البواخر التي تسببّت فيها العواصفُ كبيرة، فإن الربيعَ في المقابل فصلُ نشاطٍ وحيوية.

ظل آرن يوزّع وقتَه بين الحساباتِ بالقرب من صانع الجوخ، والأطباء العرب، ومشاركتهم في دراسة القرآن، .وتمارين ركوب الخيل، وبين العناية بالخيول. فمنذ رحيل سيغفريد دي تورين صار يقضي وقتًا أطول مع "خمسين"، حتى صار بقية الإخوة

Twitter: @ketab_n

يرون في ذلك إسرافًا، لأنه كان يُحدّث حصانَه – وبالعربية أيضًا – وكأنه يُحدّث كائنًا بشريًّا مثله.

لا شك أن كل فارس من فرسان هيكل الربّ يقرّ بالعاطفة التي يمكن أن يمنحها أيُّ فارس لحصانه، وأمّا كيف كان "خمسين" يُفلت من سهامِ العدو فذاك غامضٌ من الغوامضِ الخفية. فعلى هذا الحصانِ بالذات كان آرن يقترب كثيرًا من العدوّ، كلما قاد النبّالين الأتراك ضد النبّالين من الفرسان العرب، محتفظًا بأردانت – الفحل الإفرنجي الذي لم يكنّ له العاطفة نفسها– للهجمات المدرّعة تدريعًا ثقيلا.

عند الربيع وصلت السفن بأعدادٍ كثيرة إلى غزة، وعلى متنها أحيانًا فرقةٌ من الفرسان أو من الرقباءِ الجدد. كان هؤلاء يثيرون الشفقة عند نزولهم في الموانئ، بوجوههم الشاحبة وأرجلهم الرخوة بعد أسابيع طويلة أمضوها في البحر. فتلك الفرقُ كانت قادمةً في الغالب من مرسيليا أو مونبيلييه.

تناوب آرن ومدرب المسايفة على استقبال الرقباء والفرسان القادمين توًا. هؤلاء الفرسان الجدد لم يخضعوا لمدة الترهُّب، كرقباء، لأنه صار يحقّ لأيّ رقيبٍ جديد أن يُقبَل في داخل الكهنوت في المدارس الإكليريكية في مملكة الإفرنج. فأمامهما إذًا أغرارٌ أدعياء، يلبسون المعطفَ الأبيضَ، عليهما أن يتعاملا معهم كإخوة رهبانٍ يتمتعون بكامل الحقوق. فالأمرُ يحتاج إلى جرعةٍ من الصبرِ، لأن هؤلاء الأغرار الأدعياء مغرورون أحيانًا، بأنفسهم وببسالتهم، وبقدراتهم، وعلى الخصوص بما يمكن أن تفيدهم به هذه الخصالُ – وهو اعتدادٌ بالنفسِ قلما يكون حقيقة.

كانت العلاقاتُ أيسر مع الرقباء الذين كانوا في الغالبِ كبارًا في السنِّ، وأقل زهوًا وادّعاءً. كان معظمهم أوسعَ خبرةً في الحربِ، لكنهم لا ينحدرون من سلالات نبيلة، وهو شرطُ كل مَن رغب في أن يصبح فارسًا.

عانت فرقةُ الرقباء الأولى هذه من دوّار البحر عناءً جمًّا أثناء الأسبوع الأخير من رحلتها البحرية. وفي مراسم الاستقبال في ساحةِ الحصنِ لم يبدُ تعبُ السفر إلا على رجلين قويّين، كان أحدُهما ذا شعرٍ أصهبَ وهّاج، بينما كان الثاني أشقر ويحمل

Twitter: @ketab_n

لحيةً خليقةً بأيّ فارسٍ من فرسان هيكل الربّ. وما أكثر ما كان عربُ الشرق يهابون الفرسانَ الذين يحملون لحيةً بيضاء.

كان هذان الرجلان اللذان وقف كلٌّ منهما بالقربِ من الآخر يتبادلان الحديثَ وسط رفاقهما الذين شحبت وجوهُهم وانحنت أجسامُهم. لذلك سرعان ما لمحهما آرن في الحال، وأخذ ينظر إلى قائمة الأسماء التي سلّمه إياها قائدُ السفينة، فوجد من بينها اسمًا قد ينطبق على أحد الرجلين، أيقظ فيه ذكريات غامضة من أيام عهد الدير.

– يا رقيبَي كهنوتنا، من منكما اسمه تانغي دي بروتون؟ سأل بصوتٍ قوي، فنهض فوراً الرجل صاحب الشعر الأصهب.

– وأنت!، ما اسمُك؟ سأل آرن وهو يشيرُ إلى الأشقر الذي بدا من أصلٍ مختلف.

– أنا، أرال دوستين، أجاب الأشقر، صاحب الشعر الطويل، بلغة إفرنجية عرجاء.

– أين تقع أوستين؟ سأل آرن مندهشًا.

– لا أعلم أين توجد، أنا اسمي غير ذلك. أنا لا أستطيع التحدث بلغة الإفرنج، أجاب الأشقر بلغته العوجاء.

– لكنْ ما هو اسمك الحقيقي؟ أردف آرن، متسليًا.

– اِسمي هارالد أويشتاينسون، في لغتي أنا، أجاب الأشقرُ، تاركًا فارس الهيكل النبيل مرتبكًا، منعقدَ اللسان.

أخذ آرن يفتش في لغة الشمال عن كلماتٍ يقول له بها إنها المرّةُ الأولى، منذ وصوله إلى الأرض المقدسة التي يلتقي فيها بواحدٍ من أبناء وطنه. لكنْ ما من جملةٍ واحدة أسعفت شفَتيه، لأنه حين لا يفكر بلغة الإفرنجِ فباللاتينية يفكّر أو العربية فقط.

ألقَى في الساحة خطابَ الترحيبِ المألوفَ، المعروف بقسوته على القادمين

Twitter: @ketab_n

الجدد، وقدّم لهم الرقيب الذي المكلف بإيوائهم وتسجيلهم. لكنه قبل أن ينصرف همس بسرعةٍ في أذن وكيل المؤونةِ بأن يستقدم ذلك الذي اسمه أرال دوستين إلى بهو الاستقبال بعد إنهاء المعاملات المألوفة.

– لقد أسيء إليك كثيراً في هذا الأمر، أيها القريب. لكن فلنجعلْ من هذا الشرِّ خيراً، لأني بحاجةٍ إلى رقيب، ولأنكَ بحاجة إلى صديق أمينٍ في هذه الأصقاعِ البعيدة أشدّ البعد عن بلدك النرويج. فسوف تتعلم كثيراً بالمعطف الأسود، وسوف تعيش حياةً أطول ممّا لو كنت باللباس الأبيض. عليكَ، ببساطة، أن تضع هذه الحقيقة نصب عينيك: ففي الشمال الفولكونغر والبِركبينَر أقارب، لكن هنا في الأرض المقدسة أنت رقيبٌ وأنا حاكمُ هذه الساحة. أقوم أنا مقام اليارل وتقوم أنت مقام عضوٍ في حراسته. فحتى إن تحدثنا أنا وأنت باللغة نفسها فلا تتصوَّرْ شيئًا آخر، أو لا تتظاهر بجهله.

– أحسنتَ القول، أيها القريب، قال آرن الذي قام حتى يُنهي هذا النقاش.

بات الصيفُ وشيكًا، يحمِل معه الحربَ وويلاتها. لذلك انصبّ كلُّ الاهتمام على إعداد رقباء وفرسانِ غزة الجدد. كان على فرسان هيكل الربّ هؤلاء أن يتأقلموا أوّلا مع خطط وإشارات الفرسان، وأن ينصاعوا أيضًا إلى الانضباط، وهو انضباطٌ صارم وشديد. فالفارس الذي يغادر التدريبَ بمحض إرادته يُحرَم من معطفه الأبيض بعد مراسم يُحقَّر فيها ويُذلّ. فلم يكن هذا السلوكُ مسموحًا به إلا إذا كان سببًا في إنقاذ حياةٍ مسيحيٍّ. وعلى من يدّعي ذلك أن يأتي ببرهانه في الحال.

كان معظم الرجال الجدد الذين صاروا قبل كل شيء فرسانًا بحكم ولادتهم، فرسانًا محنّكين، ولذلك فلن يكلفهم هذا الجزء من التدريب شقاءً عظيمًا.

لكنّ الأمر مختلف تمامًا إذا جاؤوا إلى استعمال الأسلحة. فلا يتأتى استعمال السلاح إلا بعد جهدٍ جهيدٍ لساعات طويلة. فهؤلاء الأغرارُ لم يتدرّبوا تدريبًا كافيًا، وإن لم يدركوا في الحين أن اعتدادهم بالسيف وبفأس الحرب والرمح والدرعِ اعتدادٌ مبالغٌ فيه لكان الموتُ حليفهم في الحال. كان يجب أن يواجَهوا بقلة حذقهم، وأن يتعلّموا كلَّ شيءٍ من جديد. وفي سبيل ذلك أنفق القدماء قصارى الجهد حتى صار

Twitter: @ketab_n

الجدد منهَكي القوى عند النوم مساءً، وأجسادهم مرضوضة رضًّا.

كان هارالد أويشتاينسون محاربًا جموحًا، لكنه ضعيفٌ في آن. لقد اختار في البداية سيفًا ثقيل الوزن انطلق به في وجهِ آرن في هجومٍ جامح غير منتظم، كما يهجم بيرسيرك berserk وكان آرن يلقي به أرضًا بضرِبات السيف أو القدَم أو الدرع. كان يضرب في الساعدين والفخذين بسلاحه الضعيفِ الذي لم يخترق زرده قط، وإنْ ترك في كل مرّة رضوضًا واضحة على كامل جسده.

ومع ذلك لم يتمالك هارالد نفسه، لأنه تقريباً لم تكن تنقصه لا الشجاعةُ ولا الإقدام. لكن كان يحارب كما يحارب أي فايكينغ، وهو ما لا يترُك له أيَّ حظٍّ في البقاء حيًّا في الأرض المقدسة. وفوق ذلك كان عنيدًا عناد البغالِ، فكلما أشبع آرن جسمَه ضربًا بسطحِ السيفِ أو حدِّه وجدَّ واستبسل في الهجوم بحنقٍ وهياج. وكل الذين كانوا يتصرفون على ذلك النحو في البداية سرعان ما كانوا يُهدِّئون من غلوائهم ويراجعون أخطاءهم، إلا الشاب هارالد.

استمر آرن على هذه الوتيرة طوال أسبوعٍ كاملٍ على أملِ أن يستوعب هارالد الأمرَ في النهاية. لكنه حين أدرك أن لا طائل من ذلك لم يجد بُدًّا من أن يعيد قريبَه إلى رشده ويُعقِّله.

- أنت لا تفهم إذًا، قال له ذات مساءٍ أثناء جولة على أرصفة ميناء غزة، في انتظار موعد العشاء، وأراك تسرع نحو الموتِ لا محالة، إن لم تنسَ ما تعلّمتَه وتُبدي استعدادًا لأن تعيد كل شيء من البداية.

- ومع ذلك فالعيب ليس في استعمال السيف، قال هارالد متذمّرًا.

- أهكذا؟ قال آرن في اندهاش صريح. فماذا تقول عن جسدك الذي استحال رضوضًا من القدمين حتى الرقبة؟ ثم وكيف لم تصبني ولو مرّة واحدة وأنت تضرب كمن به مسٌّ من الشيطان.

- ذاك لأنني أمام رجلٍ يستعمل السيف وكأنه إلهٌ، فلو كنتُ أمام غيرك لاختلف الأمر. لقد قتلتُ من الأعداد في حياتي ما يكفي لكي أعرف ذلك.

- ما دمت تفكر على هذا النحو فقد تعرّض نفسَك للقتل، قبل أن تدرك

Twitter: @ketab_n

ذلك، أجابه آرن، أنت بطيءٌ جدًا. سيوف عرب الشرق أخفُّ بكثير من سيوفنا، وهي حادّة وقاطعة مثل سيوفنا لكنها أكثرُ مرونة. وزيادة على ذلك فأنت تخطئ في تقديرك لقدراتي. هنا في غزة خمسةُ فرسان لا يقلّون عني حذقًا ومهارة، واثنان أكثرُ مني تفوّقًا.

– مستحيل! قال هارالد معترضًا بشدة.

– حسنًا! قال آرن. فلتتعاركْ غدًا ضد غي دي كاركاسون، وفي اليوم التالي ضد سيرج دي ليفورن، ثم ضد إرنست دي نافار، وهؤلاء أفضل الفرسان في غزة. وإذا كنتَ بعد ذلك ما زلتَ تقْدر على تحريك ساعديك وقدميك تستطيع ساعتها أن تعود إليّ لتثبت لي أنّ العلاج كان ناجعًا.

وكان له ذلك. بعد اتباعه لهذا النظام ثلاثة أيام أضحى هارالد عاجزًا عن رفع ذراعه من دون صراخ وعن التقدم خطوةً واحدة من دون ترنّح. فلم يسعه خلال ثلاثة أيام من المواجهة مع خيرة الفرسان وأجودهم أن يلمس أحدَهم، أو يكاد يلمسه ولو مرة واحدة. وقد أقرّ أن المواجهة كانت أشبه بمعركةٍ في حلمٍ سيئ، أو كابوس تدبّق فيه بالشمع تدبيقًا.

بكثيرٍ من الرضا لاحظ آرن أنه نجح أخيرًا في ترويض هذا النرويجي العنيد كعناد الطبيعة.

والآن صار بالإمكان الشروع في العمل بجد وهمّة. لقد اصطحب آرن هارالد أوّلا إلى مخزن الأسلحة حيث اقتنى له سيفًا أخفَّ وزنًا، سيجعله أصلبَ من ذي قبلُ. ثم أخذ يشرح له بلطفٍ شديد أن الرشاقةَ في استعمال السيف هي الفاصلُ الحاسم وليس وزنه.

ثم ترك هارالد يضمّد جراحه يومين كاملين، فيما أخذ هو نفسه يتدرب مع أفضل الفرسان: إرنست دي نافار.

ثم تناوب الأخوان في الفروسية على الهجوم الشديد، وعلى معاودة نفس الحركات في بطءٍ شديد، حتى يستوعبها الغرّ ويحفظها. لكنّ هذه الجرعةَ كانت مُرّةً على هارالد، لأن عينه لم تستطع أحيانًا أن ترصد آرن وإرنست وهما يتعاركان دون

Twitter: @ketab_n

تحفّظٍ في دوامة باهرة من حركات الهجوم والاستعراض. كان جليًا أنهما متساويان في القوة، وأنّ إرنست هو أكثر مَن يلمس الخصمَ في غالب الأحيان.

كان هارالد كثيرَ الاندهاش عندما رأى الفارسين وهما يتعاركان بكل ما يملكان من قوة وبأس، فقد كانت الضرباتُ التي كان ينزل بها كلٌّ منهما على الآخرَ من العنف والشدةِ ما يجعل أيًّا آخر غيرهما ينهار من شدة الألم. لكنهما ظلا يُبديان قدرةً على تحمّل كل شيء.

كان إذا أُصيب أحدهُما لا يبدي تذمّرًا، مكتفيًا بالتراجع خطوةً إلى الوراء وإلقاء تحيةٍ صغيرة من قبيل المدحِ والثناء، لكن فقط حتى يبادر بالهجوم في ذات اللحظة.

على هذا النحو بدأت رحلة هارالد نحو عالم جديدٍ في فن الحرب، فعندما استأنف هجومَه على آرن استطاع كلاهما أن يُعيدا كل حركةٍ، الواحدة تلو الأخرى، وظلا يعيدان كلَّ تفصيلٍ من تفاصيل تلك الحركات إلى أن يتمّ استيعابها نهائيًا. وهكذا سرعان ما شعر هارالد بالتغيّر، وهكذا رأى البصيصَ الأوّل في عالم جديد توجد به كائناتٌ مثل آرن وإرنست. وهكذا عقد العزم على الدخول فيه.

كان الاختبارُ التالي الذي واجهه هارالد أنه سمع سيدَه وهو يؤكد له أنه لن يُتقِن ركوبَ الخيل. ألم يركبِ الخيل طوال حياته، كباقي مَن يركبون الخيول في بلاد الشمال؟ لكنْ شتان بين امتطاء ظهْر حصانٍ وبين فنّ الفروسية، قال آرن ماغنوسون. كان هارالد مثل كافة أهل الشمال على يقينٍ أن الخيول لا تستخدم لأغراضِ الحرب وإنما للتوجه إلى ساحة القتال حيث يترجّل كلٌّ فارسٍ عن مطيته قبل أن يهجم على العدو في أقرب المروج.

شعر إذًا بالإهانة عندما لاحظ آرن في أسفٍ أنه لا يستطيع أن يشارك في أي خيّالة، لكنه ظل رغم ذلك مستمسكًا ببعض الأوهام الجميلة. ولذلك كان عليه أن ينتظر بعض الوقت حتى يُسلِّم بهذه الحقيقة الجلية عن مزايا هذا الصنف وذاك.

وعندما حان وقت رماية القوس لَمَع وهجٌ من الأمل في قلب هارالد، لأنه لم يرَ سيّدَه من قبلُ في هذا اللون من فنون الحرب، الذي لم يكن يجهله البركبينر، ولا أعداؤهم.

Twitter: @ketab_n

وعندما هاجم هارالد آرن ماغنوسون إذا به يحس رغم الهجوم بالتلاشي والإفناء، وكأنه أُنهِك، وكأنّ كلّ أملٍ فيه قد تلاشى.

فيما بعد قال آرن لنفسه أن لعله تأخر كثيراً قبل أن يقول الحقيقة للشاب هارالد، وأنه قد ترك رقيبه يلامس اليأس عن قربٍ قبل أن يقوّي همّته.

لم يخطر لهارالد أن نبّالَه ونبّال آرن قد هيّآ للفرسان والرقباء حضور هذا المشهد، متظاهرين بأداءِ مهمة من المهمات بالقرب من ذلك المشهد، بينما لم يطلب هؤلاء سوى رؤية ما الذي يقدر عليه هذا الرقيب الشاب الذي قيل عنه إنه لا يقل مهارةً في هذا التدريب عن ذلك الذي كان الأتراكُ يصفونه بالفارس الذي لا يضاهيه فارس.

- يجب أن تعرف أمراً سوف يُقوّي همّتك، قال آرن في النهاية، عندما ذهبا لكي يودعا قوسيهما في حظيرة الأسلحة بعد خمسة أيام من التدريب. أنت في الحقيقة أحسنُ نبّالٍ عرفتُه منذ وصولي إلى الأرض المقدسة. فأين تعلّمتَ كلَّ هذا؟

- عندما كنتُ صغيراً كنت أصطاد السناجب كثيراً، أجاب هارالد قبل أن تَلْحَق كلماتُه بأفكاره، ويتوهّجَ وجهُه فجأة. أقلتَ أني نبّالٌ ماهر؟ لكني أراك في كل مرة ترمي أحسن مني، وأحسن من الآخرين أيضًا.

- لا. قال آرن في سلوةٍ وقليلٍ من المكر.

عندئذ التفت إلى فارسين كانا يمرّان بالقرب منهما وقال لهما إن رقيبَه الشاب ليس فخوراً بنفسه كثيراً في رماية القوس، لأنه يخسر أمام سيّده في كل مرة. فانفجر الرجلان بقهقهات رنّانة وتقدّما ليوجّها ضرباتِ تشجيعٍ إلى ظهْر الشاب هارالد، قبل أن يبتعدا وهما غارقان في قهقهاتهما.

- الآن سأقول لك الحقيقة، قال آرن مغتبطًا. في فنّ القوس لستُ أقل براعةً من ركوب الخيل ومن الرمح. والحق يقال أني في الرماية أفضل من أيّ فارسٍ آخر من فرسان هيكل الربّ في الأرض المقدسة. أقول لك هذا لأنها الحقيقة. لأنّ ما من فارسٍ من فرسان هيكل الربّ يجوز له أن يتباهى بنفسه. قدراتُك في هذا الفن ثمينةٌ في أعيننا، وسوف تنفع بلا شكّ في إنقاذ حياتك وحياة الآخرين.

Twitter: @ketab_n

* * *

لم تتأخر كثيراً المرةُ الأولى التي أنقذ فيها هارالد أوشتانسون حياةَ أحدِهم بفضل قوسه، فلم يكن الصيفُ قد تقدّم كثيراً عندما استدعِي فرسان هيكل الربّ في غزة إلى الحرب في الشمال مع خيّالتهم المدجّجة بأسلحتها الثقيلة، وخيّالتهم الخفيفة، ونبّاليهم المشاة.

ولعل صلاح الدين استخلص بعضَ العِبر من هزيمة مونجيسارد الكبرى. على أي حال هكذا كان يتصور الأمرَ: لا بد من استخلاص الدروس من أجل المعركة القادمة والابتعاد عن الاعتقاد بأنّ الربّ هو الذي تخلّى عنهم، هو والجهاد.

في ذلك الربيع دخل على رأس جيشٍ سوري ومصري محدود، إلى شمال الأرض المقدسة، وانتصر على الملك بالدوين الرابع في بانياس، ونهب الجليل، وجنوب لبنان، وأحرق كل المحاصيل التي وقعت بين يديه. وعند قدوم الصيف كلّف هؤلاء المسيحيين ثمنًا باهظًا.

لقد جنّد الملكُ جيشًا نظاميًا جديدًا، لكنّ هذا الجيش كان أضعفَ من أن يواجه وحده صلاحَ الدين، فلذلك توجّه إلى السيد الأعظم لفرسان هيكل الربّ وحصل منه على وعدٍ بمساعدة كاملة متكاملة.

أما هارالد أوشتانسون فقد تعاقبت عليه عشرةُ أيامٍ من السير الشاق تخلّله ركوبُ الخيل على إحدى مطايا الاحتياط المتاحة، عبر بلادٍ غريبة لا يعرف من أمرها شيئًا، تحت حرٍّ بدا له قاسيًا لا رحمة فيه.

وعندما اندلعت المعركة في النهاية بدت وكأنها رانياروك بطوفانها من الفرسان العرب الذين اندفعوا اندفاعًا نحو القتال، وكانوا في عزلتهم قلما تأتي إصاباتهم أصعبَ من إصابة سنجاب. لكن هارالد ما لبث أن تساءل عن أيّ طائل من مواصلة الرماية، لأنه كلما قتَل أكثرَ خرجت عليه أفواجٌ جديدة متعاقبة بلا انقطاع. وسرعان ما أدرك أنّ المعركة تنبئ بواحدة من أعظم الهزائم التي تكبدها فرسانُ هيكل الربّ وجيش المسيحيين العلمانيين.

Twitter: @ketab_n

لكنّ آرن كان أكثرَ قدرةً منه على تقديرِ الأمور خيرَ تقديرٍ، لكنّه تقدير لم يخلُ من حسرةٍ ومرارة.

ففي شمال الجليل، ما بين نهر الأردن والليطاني واجه فرسانُ هيكل الرب، لأول مرة في الأراضي المكشوفة، قوات صلاح الدين. فهناك بدأ استعدادُهم للتلاقي مع الجيش الملكي الذي كان بقيادة بالدوين الرابع يقضي على أنشطةِ عصابةٍ صغيرة من النهابين، في السواحل اللبنانية.

لا شك في أن السيد الأعظم أودون دي سانت أماند قد أساء قراءة الأحوال، فلعله ظن أن الجيش الملكي قد شرع في قتال معظم جيش صلاح الدين، وأن الفرسان الذين يطفون فجأة أمام فرسان هيكل الربّ ليسوا سوى نهّابين معزولين عن باقي جيوشهم، أو مجرد فرقة صغيرة مهيّئة لإرباك فرسان هيكل الربّ أو إبطاء سيرِها.

لكن الأحوال كانت على عكس ذلك تمامًا. ففيما كان الجيش الملكي يُصفّي حسابَه مع عصابةٍ صغيرة كان صلاحُ الدين بمعظم الجيش يجري حركةَ تحوّلٍ كبيرة حتى يقطع الطريقَ أمام فرسان هيكل الرب الذين وصلوا لنجدة باقي الجيوش.

بعد فواتِ الأوان تكشف ما كان يجب على أودون دي سانت أماند أن يفعله وبدا اضحًا وضوحَ اليقين. كان حريًّا به أن يُحجم عن الهجوم، وأن يحاول بأيّ ثمنٍ كان أن يجعل فرسانه، فرسانًا وأتراكًا، يلتحمون بجيش بالدوين الرابع. وكان عليه إنْ تعذّر ذلك أن يقاوم في مكانه. كان عليه أن يتفادى أمرًا واحدًا مُهمًّا، وهو أن يُطلق كل خيّالته الثقيلة في هجوم حاسم وحيد.

ومع ذلك فذاك ما فعله، ولم يُتَحْ لآرن، ولا لأيٍّ غيرِه، أن يسأله لماذا فعل ما فعل.

وما لبث آرن أن قال في قرارة نفسه إنه كان بلا شك أولى بالحكم على مجرى الأمور من موقعه عند السفح الأيمن للجبل. وبرفقة نبّاليه العُجُل المجهّزين أناف على معظم الجيش حتى يتدراك أيّ هجومٍ قادم لقوات العدو الذي يقل تجهيزه عن

Twitter: @ketab_n

تجهيزاته. فمن تلك القمة رأى بوضوح أنه سيصطدم بجيشٍ متفوقٍ عددًا وعدّة، ويحمِل رايات صلاح الدين.

ولمّا وضع أودون دي سانت أماند خيّالته الثقيلة في موضع المجابهة ظنّ آرن في البداية أن الأمرَ خديعةٌ حرب، وطريقة لزرع الشك لدى العدو من أجل كسبِ الوقت، حتى يضع مُشاتَه في مأمنٍ من العدو، بيد أنه ذُهل ورُوِّع حين رأى حاملَ البيرقِ يرفع وينكس ثلاث مرات رايةَ السيد الأعظم البيضاء والسوداء، ليعطي إشارة الهجوم. فقد ظلَّ مذهولاً على قمة رابيتِه محاطًا بفرسانه الذين أصابهم الذهول كما أصابه. لقد أصبح معظمُ جيش فرسان هيكل الرب يسير نحو الموت رأسًا.

وعندما وصل الفرسان المدججون بالقرب من الخيالة السورية الخفيفة اكتفى العدو بالتواري، متظاهرًا بالتراجع كما يفعل عربُ الشرق في العادة. وهكذا سرعان ما توقّف هجومُ المسيحيين دون أن يصيبوا هدفًا واحدًا من أهدافهم، ووجدوا أنفسهم محاصَرين في النهاية.

هزّ الفرسانُ الأتراك الذين كانوا يحيطون بآرن رؤوسَهم وفركوا أذرعهم ليُشيروا بها إلى أن معركتهم قد انتهت. فإن فقد الجيش الذي ينتمون إليه خيالته الثقيلة فلن يبقى للفرسان الأتراك شيءٌ يدافعون عنه غير حياتهم. عندئذ وجد آرن نفسَه وحده مع قلةٍ قليلة من الفرسان المسيحيين.

لبث بعض الوقت ينتظر إن كان فرسانٌ من فرسان هيكل الربّ سيخرجون من الفخّ سالمين. ولمّا رأى نحو عشرة رجالٍ يحاولون شقّ طريقهم متقهقرين نحو فرقة مشاتهم وخيولهم الاحتياطية ومسارهم انتقل على الفور إلى الهجوم بما بقي له من رجالٍ قلة، وهو لا يحمل من أملٍ سوى زرع البلبلة حتى يجد الهاربون ملجأً ما بين المشاة والنبّالين.

ومع ذلك فقد حقّق هجومُ حفنةٍ من الرجال المرتعشين خوفًا ضد عدّوٍ يفوقهم ألف مرةٍ عُدَّة وعددًا أثرَه المرتقب: لحظة تردُّدٍ من قبل الملاحقين، إذ رآهم وهم يشيرون صوبَه بالأصابع، ويصرخون باسمه من كافة الجهات. لقد بات ورجالُه هدفًا، ولم يجد صعوبةً في إدراك السبب، وهو أن من يحمِل رأسَه فوق حدّ الرمح إلى

Twitter: @ketab_n

صلاح الدين سوف ينال جزاء سخيًّا.

سرعان ما وجد آرن نفسه وحيدًا، بعد أن ارتدّ الرجالُ الذين تبِعوه في البداية، على أعقابهم، وقرّروا أن يلتحقوا بجيشهم ومشاتهم. وفي الحال انحرف في دائرةٍ واسعة أبعدته عن أصحابه، واتجه صوب أحدِ سفوح الجبل وهو لا يعلم أنه سيقع فيه في الفخ بعد حين. ولمّا رأى أن كل رفاقه استطاعوا أن يحتموا من شر العدوّ توقّف بعد أن أيقن أنه لا يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك، لأن سفح الجبل شديد الانحدار والوعورة.

ولمّا لاحظ العدوُّ الورطة التي وَضع نفسَه فيها أبطأ السيرَ وتقدّم صوبه، مشيًا عل الأقدام، وهو يمسك بأقواسِه عند منتصف الجسم.

وإذا بأحدِ الأمراء من ذوي الرتب العالية يصل من الخلف وبسرعة، وهو يشقّ طريقًا عبر خطوط جيشه، ثم يشير بإصبعه إلى آرن ويصرخ بأوامر لم يسعه سماعُها، فحيّاه الفرسانُ السوريون والمصريون وهم يشهرون أقواسهم من فوق رؤوسهم، قبل أن يدوروا إلى الوراء ويتواروا خلف سحابةٍ من الغبار والأتربة.

مكث آرن في البداية بلا حراكٍ وهو يسأل نفسه أيّ معجزة هذه التي حلّت عليه، لكنّ عقلَه قال إنّ الأمرَ لا يمكن أن يكون معجزة. لقد أبقَوا على حياته، وهكذا كان الأمر ببساطة. أمّا إن كان الفضلُ يعود لصلاح الدين فذاك ما لا يمكن التنبؤ به، وعلى أي حال من الأحوال فالذي يشغله الآن أخطرُ من ذلك الأمر بكثير.

انتفض آرن واستجمع قوّتَه حتى يخرج من الخدر الذي غرق فيه وهو ينتظر الموت. ثم انحدر في عجلةٍ حتى يلتحق ببقية الفِرَق المسيحية. كان معظمُ المسيحيين الذي نجوا من الموت يعانون من إصابات تراوحت ما بين خطيرة وبليغة. ولم يبقَ لهم سوى نحو عشرة خيول من خيول الاحتياط ونفس القدر تقريبًا من دوابِّ الجرّ، ونحو مئة من النبّالين الراجلين. لقد فرّ رجالُه الأتراك. كان هؤلاء يحاربون من أجل المال وليس من أجل أن يموتوا هدرًا بين المسيحيين. فلم يكن أمامهم سوى الانتصار أو الفرار.

Twitter: @ketab_n

كانت الهزيمة ثقيلة: أكثر من ثلاثمئة فارس لقوا حتفهم. لم يسمع آرن بمثل هذه الخسارة من قبلُ قط. لكنْ عليه الآن أن يفكّر بصفاءِ ذهنٍ ووضوحٍ، وأن يُنقذ ما يمكن إنقاذه. فالآن صار في مقدمة صفوف الفرسان، ولذلك عليه أن يتولى قيادتها.

ارتأى آرن قبل الانطلاق في أيّ اتجاهٍ من الاتجاهات أن يعقد لرجاله مجلسًا سريعًا، فأمر بإحضار ثلاثةٍ من الإخوة الفرسان الذين لم تُقعدهم الإصاباتُ عن الحركة. كان عليه في البداية أن يتبيّن السبب الذي جعل جيش صلاح الدين لم يدفع بهجومه إلى النهاية، بينما كان هذا الهجوم قد أدرك غايتَه التي كان يسعى إليها دومًا، وهي قطْعُ مشاة المسيحيين عن خيّالتهم. فليس لهذا السؤال سوى إجابة واحدة وهي أن جيشه كان يسير نحو جيش الملك بالدوين للقضاء عليه قبل أن يعود لتطهير الأرض. فالوقتُ ملحٌّ ولا بد من السعي للالتحام بالجيش الملكي قبل فوات الأوان.

وسارعوا بإنزالِ العتاد والمؤن من على ظهور خيول الاحتياط ليحمِلوا الجرحى عليها، وقد أوكلت هذه المطايا للرقباء والنبّالين الأكبر سنًّا، إذ حُكم على صغار السن أن يركضوا إلى جانب باقي الرجال المثيرين للشفقة في تلك الخيالة التي تشدّ الآن صوب الليطاني رحالَها. لقد ظنّ آرن أن جيش بالدوين يعاني الأمرّين، وعليه فإن خلاصَه الوحيد أن يحاول عبور ذلك النهر.

لكنّ الجيش الملكي كان قد ذاق مرارة الهزيمة وتشتّت في مجموعات صغيرة من الهاربين الذين تمّت ملاحقتهم على وجه السرعة، بعضُهم في أعقاب البعض الآخر، على يد مُلاحِقين أكثرَ عدداً. لكنّ الملك وحرسه الشخصي تمكّنوا من عبور النهر، وبذلك صار الحالُ أكثر مجازفةً على المتباطئين، لاسيّما ذلك الفريق الذي بات يلهث لهثاً وعلى رأسه القائد آرن.

وفيما كان رجالُه وخيوله يحاولون عبور النهر جمَع آرن عند الضفّة خيرةَ نبّاليه، ومن بينهم هارالد. كان عليهم أن يفسحوا مجالاً بينهم وبين نبّالي العدوّ المجهّزين ورمّاحيه، فيما كانت جموع المشاة اليائسة والخيولُ والإخوة الرهبان الجرحى يعبُرون النهر.

Twitter: @ketab_n

جعلوا يسدّدون سهامهم حتى أُنهِكوا، ثمّ ألقوا بسلاحهم ودروعهم قبل أن يخوضوا في النهر. وقد كان آرن وهارالد الناجيين الوحيدين من بين كلّ الرجال، لأنهما استطاعا أن يغطسا في الماء ويدعا التيّار يحمِلهما لبعض المسافة في وسط النهر، قبل أن يصلا إلى الضفّة الأخرى وهما يلهثان لهاثاً.

لم يمهلا نفسيهما إلاّ مهلة قصيرةً قبل أن يجتمعا ثانيةً. وقد لمح آرن وسط الفوضى والبلبلة فحله خمسين وهو يركض نحوه ركضاً، لكنّه أحسّ أنّ سعادته جاءت في غير محلّها نظراً للأحوال التي غلبته وألمّت به.

قدِم مشاةٌ ورهبانٌ ممرّضون للنجدة من الجانب الآخر للنهر. فقد رافقوا فرسانَ هيكل الربّ المنهزمين في قلعة بوفور الكائنة على مسار ساعة من ذلك المكان الذي لجأ إليه أيضاً العديدُ من الهاربين من الجيش الملكي.

وما لبثت القلعة أن حُوصرت من قبل جيوش صلاح الدين، لكنّ الأمر لم يدْعُ لِهَمٍّ مفرطٍ لأنّ بوفور معروفة بمناعتها وتحصّنها الحصين.

لم يكن فرسانُ الاسبتارية على علاقة ودّ حقيقية مع فرسان هيكل الربّ. لم يكن آرن يعرف السبب وكلّ ما كان يعلمه أنّ الصلات كانت متوتّرة على الدوام ما بين الكهنوتين. فكثيراً ما كان يحدثُ أن يحجم أحدُ الطرفين عن الدخول في المعركة إذا دخلها الطرف الآخر. ففي هذه المرّة لم يرسلْ فرسان الاسبتارية سوى قوّة رمزية فيما بقيت معظمُ قوّاتهم خلف أسوار حصن بوفور.

لقد ألبس فرسان هيكل الربّ فرسان الاسبتارية لقب "السماريتان السود" في إشارة إلى زردهم الأسود وصليبهم الأبيض، وإلى وظيفة هذا الكهنوت وهي تقديم العلاجات الطبية بالمجان. لكن في مثل هذه الأحوال الكئيبة، ومع هذا العدد الكبير من الضحايا لم يخرج أيُّ كلام فاحشٍ من أفواه فرسان هيكل الربّ الناجين الذين صاروا الآن رغم أنوفهم ضيوفاً على كهنوتٍ منافس.

* * *

Twitter: @ketab_n

مرّت الليلة الأولى ثقيلة شاقة، مع كل أولئك الجرحى وما يطلبونه من علاج، في قلعة بوفور. فبعد أن أنهكته قلّةُ النوم وأضناه الحزنُ أجهد آرن نفسَه منذ الصباح في استعراضِ الأسوار لتقَصّي الأحوال من حولها. كانت بوفور تقع على مرتفعٍ ومنها يمكن رؤيةُ البحر وهو يتلألأ غربًا شمال وادي البقعة، وقِممِ الجبال المكسوةِ بالثلوج شرقًا. لم تكن أحوال القلعة تسمح ببناء أبراجٍ للرصدِ تتيح للعدو عبورَ القلاع، وبالمثل كانت عموديةُ الأرض المجاورة تحول دونَ نصبِ مجانق وآليات الحرب. لذلك كان من العبث الوقوف أمام الأسوار وإطلاق السباب والشتائم، كما يفعل العدوُّ في هذه اللحظة. فأيُّ حصار طويل لا طائل من ورائه، لأنّ بداخل القلعة نَبْعَ ماءٍ، وقد فاضت خزّاناته حتى صار الفائضُ يصرّف غربًا بواسطة قناة. أما مخازن الغلة الممتلئة على الدوام فهي تسدّ حاجة خمسمئة رجل على مدى عام كامل.

كانت المنحدرات المحيطة بالساحة القوية من الوعورة ما يجعلها تحول دون خروج أيّ خيالة ضد المحاصِرين. ففي تلك اللحظة كان عددُ الفرسان لا يقل عن ثلاثمئة ومثله عدد الرقباء حول الأسوار. فهي قوة لو كانت في أرضٍ منبسطة لأسكتتْ في الحال أفواهَ الزعّاقين الذين يصيحون أمام القلعة. فلو عرَف هؤلاء حجمَ الجيش الذي أمامهم لَكانوا بلا شك اعتدلوا في صلفهم وتبجحهم. لكن ذلك من خصائص القلاع المنيعة، فجميعها تُخفي سرًّا. فكم من مدافِع بداخلها؟ عشرون أم ألف؟ فكم من مرة مرّ عدوٌّ متفوق عددًا بعرْضِ البحر من دون أن يهاجم، لأنه أساء تقدير قوة الحامية. لكنّ العكس قد يحدث أيضًا كما هي الحال حاليًا: فالعدو يتصور أنه يحاصر ساحة شبه خالية، ويتعلّل بالأوهام، وهو لا يعلم أنّ أوّل هجوم مفاجئ قد يكتسحه اكتساحًا.

ذهب آرنُ من جديد ليرعَى "خمسين" ويحسّنه، ثم أودعَه حزنَه الكبير وهو يفحص للمرة الثالثة كامل أجزاء جسمه حتى يتأكد أنّ ما من جُرحٍ أحدثه حدُّ أحد السهام فيه. لكنّ خمسين كان سالمًا، مثل سيّده، فلم يتلقَّ كلاهما سوى خدوشٍ صارت منذ اليوم منْ أشيائهما العادية.

وبعد أن عاد خمسين توجه آرن نحو مقرّ الرقباء ليعود الجرحَى، ويحادِثهم،

Twitter: @ketab_n

ويصلي معهم. ثم صعد مع هارالد فوق السور لكي يُطلعه على الأحوال ويبصّره بها.

وفيما كانا يمشيان خلف فتحات الأسوار الشرقية إذا بهما يلمحان موكبًا مهيبًا يسير صوب القلعة: حامياتٌ عديدة من خيّالة المماليك تتسلق في عناءٍ جمٍّ المنحدرات الشديدة المجاورة، وقد علّق كل فرد فيها على حدِّ الرمح رأسًا دامية، تحمل لحيةً في معظم الأحيان.

ذُهل الرجلان أيما ذهول، ولم ينبسا بكلمة واحدة، أو يفصحا عن شعورٍ حتى وإن بدا هارالد أمام هذا المشهد عديم التأثر، مثل يارلِه تمامًا.

اصطفّ المماليك المنتصرون برماحهم، رافعين خافضين الرؤوسَ المقطوعة. وقد تقدّم أحدُهم ورفع صوته لينطق بما خالته آذان هارالد مزيجًا من الدعوات والندب والشكوى، والتعبير عن الانتصار.

- ما الذي يقوله؟ سأله بلسانٍ جفّ ريقُه.

- يقول إنه يشكر الربّ القدير الذي غسل عار مونجيسارد، وإن انتصارهم يوم أمس في مرْج عيون كان أكثرَ من انتقامٍ، وإن رؤوسَنا سوف تترنّح قريبًا على حدود رماحهم. أجاب آرن بصوتٍ باهت.

في هذه الأثناء وصل مدرّب المسايفة على عجلٍ إلى السور في بوفور، يرافقه العديد من فرسان الاسبتارية. وبصوتٍ قويّ أَمَر بألا يوجّهوا سهامهم ضد العدو. وفي الحال وضع الرقباءُ أقواسهم وقذّافاتهم بعد أن أمسكوا بها وتهيّأوا.

- لماذا لا يريد منا أن نرمي؟ سأل هارالد. ألا يحق لنا أن نقتل واحدًا أو اثنين حتى نُسكِتَ عنتريَّتهم؟

- بلى، قال آرن بذات النبرة. إن مَن يأتي ليقف أمام الآخرين يجب أن يموت. وتستطيع أن ترى من الشريط الأزرق الذي يحمله في ذراعه الأيمن أنه قائدُهم، وأنه هو الذي يعلن نفسَه المنتصر الأكبر، ويدعي أنه حبيب الله، وغير ذلك من التحديف. فهو يستحق الموت حقًا، لكنْ علينا أوّلاً أن نصلي صلاة ما بعد الزوال.

- لكن أليس من الأفضل أن نُقدّم الانتقامَ على التراتيل؟ غمغم هارالد وهو

Twitter: @ketab_n

يُخفي نفادَ صبره في عناء.

– هذا ممكن، أجاب آرن، لكن علينا أن نحذر التصرف بطيشٍ ورعونة. لعلك ترى أنهم يقفون بعيدًا عن مرمى سهامنا و...

– لكنني قادر...

– هدوء! لا تقاطعني، لا تنسَ أنك رقيبي. أعرف أنك قادرٌ على إصابة هدفك من هنا. وأنا كذلك قادر. لكنّ هذا الزعّاقُ لا يعرف ذلك. وزيادة على ذلك فلسنا نحن من يقرّر. نحن هنا عند فرسان الاسبتارية. ومدرّبهم هو من أعطى الأمرَ بعدم رمي السهام. وحسنًا فعل.

– لماذا حسنًا فعل، وإلى متى سنصبر على هذه المهزلة؟

– سوف نصبر إلى أن نصلي صلاة ما بعد الزوال. ألم أقل لك هذا؟ عندئذ ستكون الشمس قد أخذت في الزوال، هناك، غربًا. فسوف تُعْميهم هذه الأشعةُ ولن يروا السهامَ إلا بعد فوات الأوان. لقد تصرف مدرّبُ المسايفة بذكاء لأنه لا ينبغي أن يوحي للعدو بأننا في وضْعٍ ميئوسٍ منه، وأننا نرشق سهامًا مثيرة للتهكم والسخرية. نحن لا نرغب في إثارة ضحكهم علينا. أليس كذلك؟ فلهذا السبب أعطى هذا الأمر.

اصطحب آرن رقيبَه ليلتحق بمدرّب المسايفة لدى فرسان الاسبتارية في قلعتهم. فحيّاهم في أدبٍ وسأله الإذنَ في قتْل بعض من هؤلاء المماليك عند نهاية النهار، مؤكدًا له أنه لن يُطلق سهمًا واحدًا قبل ذلك.

أعطى مدرّب المسايفة موافقتَه وإنْ على مضضٍ، لأنه يقدّر أنّ العدوّ ليس في متناولهم.

انحنى آرن في احترام ثم طلب الإذنَ في استعارة بعض الأقواس من مخزن الأسلحة، لأنه ورقيبه فقدا قوسيهما عند عبورهما الليطاني، والتمس منه رخصةَ التدرب على استعمال سلاحيهما الجديدين في ساحة القلعة، ريثما يحين الأوان.

لعل في الكيفية التي قدّم بها آرن التماسَه إلى مدرب المسايفة سرًّا من الأسرار، أو لعل الشريط الأسود الذي في ذراعه هو الذي كشف عن رتبته، لكنْ يبقى أن

Twitter: @ketab_n

راهب الاسبتارية غيّر فجأة موقفَه ولهجته، حتى يُرضيه.

بعد ذلك بقليل ذهب آرن وهارالد لكي يختارا الأقواسَ في مخزنِ الأسلحة، وتناول كلٌّ منهما قوسين وجعبةً كبيرة من السهام، ثم حملاها إلى ساحة القلعة حيث نصبا حُزمتين من القش لتكون المرمى. وتصادف أنّ عَرض الساحة كان يعادل المسافةَ الفاصلة بين السور الشرقي وبين المسرحية التي كان الكفرةُ يؤدّونها عند أقدام ذلك السور.

وشرعا في التدرّب وهما يكزّان على أسنانهما كَزا، إلى أن وجدا القوس الذي يناسب مرماهما. أما فرسان الاسبتارية الذين جاؤوا ليساعدوا في جُهد ضيفَيهما للوصول إلى المستحيل فقد أبدوا في البداية قليلاً من العجب في أقوالهم وتصرفاتهم، لكنّهم ما لبثوا أن صمَتوا حين رأوا ما يملكه هذا الراهب النبيل ورقيبُه من قدرات.

وعندما مالت الشمس نحو الزوال وأدّيا التراتيل في الكنيسة الصغيرة برفقة فرسان الاسبتارية اصطحب آرن رقيبَه وبعضَ فرسان هيكل الربّ إلى أعلى الأسوار، ثم طلب منهم أن يذرعوا المكانَ ذهابًا وإيابًا حتى يَظهروا للعيان. وكما تمنّاه فقد حثّت رؤيةُ تلك المعاطف البيضاءَ طاقةَ العدو الذي جعل يُشهر من جديد رماحَه وعليها رؤوس الإخوة المقطوعة. وقد أخذ المماليك يطلقون سخرياتهم التي تعِبوا منها قليلاً في وقتٍ سابق من النهار، بعد أن فهموا أنهم لن يتلقّوا سهمًا واحدًا.

من ناحيتهم ظل فرسانُ هيكل الربّ متمسكين برزانتهم وهدوئهم في أعلى السور، فيما كان العدو الساحرُ يقترب منهم شيئًا فشيئًا. وما لبث الفرسانُ أن تعرّفوا على وجه هذا أو ذاك من الإخوة الذي صار الآن في الجنة، ومن بينهم سيغفريد دي تورين، وكان إرنست دي نافار، هاوِي القتال بالسيف الطويل، واحدًا من بينهم أيضًا.

تقدّم الأمير الذي تباهَى بأنه حبيب الله وبطل انتصار مرج عيون العظيم، من جديدٍ أمام إخوته في السلاح وهو يُشهر مَغْنَمَهُ الدامي.

– فهذا هو الذي يجب علينا قتله أوّلا، قال آرن. سنُطلق عليه معًا سهامَنا، وعليك أن تُصوِّب في اتجاهٍ أعلى من اتجاهي. وعندما يموت سوف نهتمّ بالآخرين.

Twitter: @ketab_n

هزّ هارلد رأسه دون أن ينبس بكلمة واحدة. ثم وَتَّرَ قوسَه ورفعه وهو يترصّد من طرفِ العين حركات آرن. صار شبحُهما ينعكس على قرصِ الشمس، وصار ظلُّ جسميهما يخفي حَدّ أقواسهما المتلألئة.

- أنت أوّلا، ومن بعدك أنا، أمَر آرن.

من تحتهما كان الأمُير قبل قليل قد نشَر سيلاً طويلاً من التبجّح والتباهي، وهو الآن يدعو الربَّ من جديد وهو يلقي برأسه إلى الخلف ويُنشد أحدَ التراتيل بملْءِ رئتيه.

وإذا بأحدِ السهام يدخلُ فاه المفتوحَ ويخرج من مؤخرة رأسه، فيما أصابه سهمٌ آخر عند القصّ. فسقط من على حصانه من دون أيّ صوت.

وقبل أن يتسنى للرجال المحيطين به أن يفهموا حقيقةَ الذي جرى إذْ بأربعةٍ آخرين يسقطون أيضًا بعد أن اخترقتهم السهام. وقد تلا ذلك ضجيجٌ عندما حاولوا أن يتراجعوا في وقت واحد. ثم إذا بوابلٍ من السهام ينهال عليهم، لأنّ كلّ القنّاصين المنتصبين فوق السور تلقوا الأمَر بأن يُظهروا قدراتهم. وعلى هذا النحو سقط أكثرُ من عشرةِ رجال من المماليك، ضحايا لغرورهم ولرغبتهم في الاستخفاف بالمهزومين.

أحيط هارالد بالشكر والإطراء من قِبل فرسان هيكل الربّ وفرسان الاسبتارية على السواء، على أوّل سهْم غرزه في فم ذلك المتبجح الفظيع. فذاك السهمُ سوف يَحْيَى طويلاً في الذاكرة الجمعيّة.

ومع ذلك فقد أقرّ هارالد لآرن أنّ تسديدتَه كانت عاليةً جدًا، لأنه صوّب تحت الذقن قليلا. وأجابه آرن بأنه لا داعيَ لإشاعة هذا الموضوع. فعلى أي حال يمكن القول إنّ الربَّ هو الذي وجّه السهمَ نحو فم ذلك المجدّف. والمهمّ أنّ مهزلةَ المماليك قد انتهت. والآن وقد بات بعضهم منطرحين أمواتًا، أمام الأسوار، ولن يبقى عندهم رغبةٌ في العودة إلى تلك المهزلة.

وذاك ما حدث بالفعل. لقد انسحب المماليكُ قبل أن يعودوا للبحث عن جثامينهم في الليل. وفي صبيحة اليوم التالي اختفى الجميع.

Twitter: @ketab_n

نزولا عند رغبة كونت طرابلس ريموند الثالث، الذي كان من بين المهزومين خلف أسوار بوفور، امتنع قائدُ الحصن عن دعوة آرن لتناول الخبز والخمر بعد صلوات المساء. كان معروفًا لدى الجميع أن الكونت يمقت فرسانَ هيكل الرب.

ولكن حين علم القائدُ بالطريقة التي أخرس بها أخوه في الدم، أفواهَ الزعّاقين أمام الأسوار، ارتأى من غير الأخلاق ألا يقتسم مع آرن، الخبزَ والخمر في ذلك المساء.

عرّف هذا الأخيرُ بنفسه دون خوف. فهو يعرف أن الكونت ريموند هو أعلى الرتب بين جميع الفرسان العلمانيين فيما وراء البحر، لكنه يجهل الضغينة التي يكنها لفرسان هيكل الرب.

كان أوّل ما لاحظه وهو يدخل إلى أجنحة القائد الخاصة في الجزء الشمالي الشرقي من الحصن أنّ الكونت هو الوحيد الذي لم يبادله التحية.

تعكر صفوُ الجوّ قليلاً بعد أن جلس كل فرسان هيكل الربّ إلى مقاعدهم وبعد أن بارك الماءُ الخبزَ والخمر. وأكل كلٌّ واحد، وشرب في هدوءٍ إلى أن طلب الكونت ريموند في سخرية، أي ذبابة قَرصَت المعتوهين في مرج عيون.

ولّما كان آرن الوحيد الذي لم يفهم في القاعة مَن ذاك الذي كان الكونت يقصده بالمعتوه فلم يخطر له أن السؤال موجّهٌ إليه. بيد أنه سرعان ما انتبه أنّ الأنظار موجهةٌ كلها إليه في انتظار الإجابة، فاعتذر قائلاً إنه لم يفهم من السؤال شيئًا، إن كان السؤالُ مُوجّهاً إليه حقًا.

عندئذ طلب الكونت ريموند، من آرن، في سخرية مهذبة، أن يروي ما حدث لفرسان هيكل الرب الذين كان يُنتظر وصولُهم لنجدةِ جيش ملكيٍّ في حالِ اندحار.

أجاب آرن شارحًا في إيجاز وبلا مواربة، الأخطاءَ التي دفعت الإخوةَ في السلاح إلى الموت. وأضاف أنه يستطيع أن يطيل الحديث فيها، لأنه كان يُطل من على سفحَي الجبل وهكذا استطاع أن يرى ما لم يرَه السيّدُ الأعظم عندما ألقى بأوامرِهِ الأخيرة.

أطرق فرسانُ الاسبتارية المتواجدون في القاعة، برؤوسهم للصلاةِ، لأنهم أقدر

Twitter: @ketab_n

من غيرهم على تصوّر ما حدث. فهم بالفعل معروفون أيضًا بهجماتهم التي لا تخلو من مجازفة أحيانًا.

لكن الكونت تماسك ولم ينفعِل بهذا التقرير الحزين. وبصوتٍ قوي، ودونِ بيانٍ خطابي أخذ يصف فرسان هيكل الربّ بالمعتوهين، القادرين على دفْع جيشٍ نحو الموتِ، وعلى الانتصار مرّةً كل مرّتين، وأنّ الاستغناء عنهم خيرٌ في النهاية. فهؤلاء الفاقدون لعقولهم، وأصدقاء هؤلاء العرب الملعونين ليسوا سوى جهلةٍ غلاظٍ لا يعرفون شيئًا عن عرب الشرق، ومهيّئون لأن يجرّوا المسيحيين القادمين من ما وراء البحر، نحو الموت المؤكد.

كان رجلاً طويلاً وقويَّ البنية، ذا شعرٍ طويل أشقر اللونِ بدأ الشَّيبُ يدبُّ فيه دبًّا. وكان كلامُه خشِنًا، شحيحَ الأدبِ، ويتحدث لغةَ الإفرنجِ التي تشوبها لَكْنَةُ أهالي ذلك المكانِ، المعروفين باسم "الصبّار". يقال عن الصبّار إنه مثلُ الفاكهة التي يستمدُّ منها اسمه: شائكٌ من الخارج لكنه لذيذٌ في داخله. كانت اللغة التي يتحدثون بها عصيةً على فَهْمِ الإفرنج حَدِيثِي العهد بالمكانِ، لأنها تحمل كلماتٍ من صميم لغاتهم وأخرى استعاروها من عربِ الشرق.

لم يَرُدَّ آرن على كلمات الكونت المُهينة، لأنه لم يخطر ببالِه أيُّ تصرفٍ يليقُ بتلك الحالة الحرِجة التي وَجد نفسَه فيها. فهو ضيفُ فرسانِ الاسبتارية، ولكنّه ضيفٌ مُكرَه. والحال أنه لم يَسمع من قبلُ قط كلامًا كذلك الكلام عن فرسان هيكل الربّ. كان في وسعه أن يستلَّ سيفَه ويدافع عن كرامته، لكنّ قواعدَ الكهنوت تُحرِّم الإساءةَ إلى مسيحيٍّ أو قتله. فمن فعل فقدَ المعطفَ الأبيض، ولذلك لم يسعه أن يدافع عن نفسه، لا بالسلاح ولا بالكلمات.

لم يُنهِ صمتُه غضبَ الكونت الذي فقدَ واحدًا من أَرِبَّتِهِ في المعركة. فعلى غرار كلِّ المجتمعين هنا، بعد تلك الهزيمة النكراء، ما انفك اليأسُ يملؤه ويجعله يستشيط غضبًا وحنقًا في حُضور فارس بغيض على طاولته.

وحتى يصعق آرن صعقاً كاملاً جعل يردّد هذا الكلامَ حول هؤلاء الأفظاظِ الذين لا يعرفون حتى معاني القرآن، وأكثر من ذلك لا يتّفقون حوله حتى كعرب.

Twitter: @ketab_n

فإذا بفكرةٍ تخطر على بال آرن. لقد رفع كأسَه صوْب الكونت وحدّثه بلغة عرب الشرق.

– بسم الله الرحمن الرحيم، تأمّلْ أيها الكونت ريموند النبيل، كلمات الربّ ونحن نشرب معًا: *"وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.*

اِحتسى آرن خمرَه بهدوءٍ، وفي تأنٍّ وضع كأسَه على الطاولة وتفرّس في ملامح الكونت دون غضبٍ، ولكنْ دون أن يتأرجح نظرهُ أو يميل عنه.

– أذلك ما يقول القرآنُ حقًا؟ أهو يتحدث عن الشراب المسكر؟ سأل الكونت بعد صمتٍ متوتّر طويل.

– أجل، بالفعل، أجاب آرن في هدوء. يوجد ذلك في الآية السابعة والستين من سورة القرآن السادسة عشرة، وهي جديرة بالتأمل. أمّا في الآية التي سبقتها فهي تقول بالتأكيد إن اللبنَ أفضل، والأمرُ يستحق التأملَ أيضًا.

ظلّ الكونت صامتًا بعض الوقتِ، وهو يحدّق بحدّة في آرن قبل أن يوجّه إليه سؤالاً بالعربية.

– أين، أيها الفارس، تعلّمتَ لغة المسلمين؟ أمّا أنا فقد تعلّمتُها أثناء السنوات العشر التي أمضيتُها أسيرًا في حلب. لكنْ أنتَ، لا أظن أنك وقعتَ في الأسرِ يومًا.

– لا، لم أكن كذلك أبدًا، كما تعرف، أجاب آرن باللغة ذاتها. لقد تعلمتها من المسلمين الذين يعملون لحسابنا. أما الادعاء بأنّ مَن هُم مثلي لا يطولهم الأسرُ فقد رأينا اليوم الدليلَ على ذلك أمام هذه الأسوار. لذلك أشعر بالحزن، أيها الكونت، وأنا أراك تتحدث بهذه اللغة عن إخوتنا الموتى. لقد ماتوا في سبيل الربِّ ومن أجل القبر المقدس. ولكنهم ماتوا أيضًا من أجلك ومن أجل ذويك.

– من هو فارس هيكل الربّ هذا!؟ صاح الكونت بلغة الإفرنج، وهو يلتفت إلى قائد الساحة.

– أمامك أيها الكونت ريموند، أجاب راهب الاسبتارية، المنتصرُ في مونجيسارد، حيث غَلب مئتا فارسٍ من فرسان هيكل الربّ ثلاثةَ آلاف مملوكي. وأمامك من

Twitter: @ketab_n

يدعوه عربُ الشرق بالقوطي. فمع كل الاحترام الذي أكنّه لك، أدعوك أيها الكونت، أن تزنِ كلماتِك، ما دمتَ ضيفًا علينا.

تحوّل كل واحد نحو الكونت من دون كلمة واحدة. كان الكونت هو سيدَ طرابلس، والأوّل من بين الفرسان الإفرنج، وقد اعتاد أن يكون السيدَ على الطاولة، حيثما وُجد. كان الوضع الحسّاسُ الذي وَضع نفسَه فيه جديدًا عليه. لكنه كان أيضًا رجلا خبِر الأخطاءَ كثيراً، أخطاءه هو وأخطاء الآخرين على السواء. لذلك إذًا قرّر أن ينهي البلبلة التي تسبب فيها.

"لقد تصرّفتُ في هذا المساء تصرّفَ حمارٍ"، قال وهو يتنهّد تنهيدةً أرفقها بابتسامة. "الفارقُ الوحيد بين حمارٍ عادي وبيني أني أدرك الأخطاءَ التي أقترفُها. لذلك سأقوم الآن بشيءٍ لم يسبق أن قمت به قط طوال حياتي."

بعد هذه الكلمات قام وتقدم بخطى حثيثة نحو آرن، وانتزعه من كرسيه واحتضنه قبل أن يجثو أمامه ليطلب العفو منه.

فاحمر وجهُ آرن خجلاً وهو يقول إنه لا يليق لِعلماني أن يتواضع على هذا النحو أمام فارس من فرسان هيكل الربّ.

بهذه الصورة الغريبة نشأت صداقةٌ طويلة ما بين الرجلين اللذين صارا، على الرغم من الفارق الكبير بينهما في شؤون عديدة، أقرب إلى عرب الشرق من مسيحيين كثيرين.

في ذلك المساء تُركا وحدهما في الغرف الثلاث التي تستعمَل أجنحة خاصة لقائد الساحة. وبالفعل جاء الكونت ليجلس بالقرب من آرن وأفصح عن رغبته بألا يتحدث معه إلا باللغة العربية، وهو ما جعل الآخرين يشعرون بالإقصاء عن هذه المحادثة، وتلك كانت نيّته الواضحة منذ البداية. لكن حتى بعد أن انفردا بالحديث وحتى بعد أن طلب، وكأنه موجود في أحد حصونه، بأن يُؤتَى إليهما بالخمر، تمنى الكونت أن يواصل الحديث بالعربية، لأن للجدران آذانًا في كل مكانٍ من ما وراء البحر. فقد يصف بعضُ ممّن يسيئون الظنَّ، بالخيانةِ، جزءًا مما كان سيقوله لآرن.

هؤلاء الأشخاص الذين يطبعهم الخبثُ وسوءُ الظن من الذين صارت بأيديهم

Twitter: @ketab_n

كلَّ السلطات في مملكة القدس، قد يدفعوهم إلى هزيمة نهائية. لكن ليس هزيمةً كهزيمة مرج عيون التي كانت خلال السنوات الأخيرة واحدة من بين هزائمَ عدّة تساوَى فيها عربُ الشرق والمسيحيون في الربح والخسارة. ففيها ربح الكونت نحو مئة مرة وخسر القدر نفسه تقريبًا.

كانت أمُّ الملك، أنْييس دي كورتناي، أخطرَ الناس من بين كل الذين يطبعهم الخبثُ وسوء الظنِ. لقد فرضت نفسَها على القصر حيث صار بيدِها الحلُّ والعقدُ بواسطة عُشّاقها وما أكثرهم! فعشّاقُها هم الذين يملكون السلطة، وما أشبه هؤلاء الأغرار الأدعياء الذين وصلوا حديثًا بالديك الواقف في زهْوٍ على مزبلته. فهؤلاء الفرسانُ في هيكل الربّ لا يختلفون عن تلك البهيمة. فهم يتصرفون ويلبسون كما يتصرف ويلبس سكانُ قصر الملِك، في باريس أو روما. وهم يمضون أوقاتهم في نسْج مؤامراتٍ فظة، ويقترفون آثامًا عظيمة مع البنين في سوق العبيد. وآخر عشاق أنييس دي كورتناي رجل تافهٌ يُدعَى لوسينيان. كان يتآمر من أجل أن تتزوجَ سيبيل، شقيقةُ الملك، أخاه الأصغرَ، المسمى غي. فإنْ تمكن من ذلك فإن أخًا صغيراً للوسينيان، القادم حديثًا إل القصر، سيصبح قريبًا ملِكًا على القدس، لأنّ أيام الأبرص الشاب، بالدوين الرابع، باتت معدودة.

لم يفهم آرن الشيءَ الكثيرَ من كل ما قصّه عليه الكونت، وهو يئنُّ ويتأوّه أكثر فأكثر كلما شرِب أكثرَ وألحَّ على آرن أن يجاريه. كان يتحدث عن عالَم لا أثَرَ للربِّ فيه، وحيث القبرُ المقدس لا يحرسه مؤمنون وإنما مولعون بالمؤامراتٍ وفسّاقٌ اعتادوا على مضاجعةِ الحمير وغلمانٍ من العبيد. فالأمر أشبه بمن يغوص بعينيه في الجحيم، على نحو ما فعل الرسول -عليه السلام- قبل أن يصعدَ السلّمَ السماوي، منطلِقًا من الصخرة، تحت معبد الربّ.

ولمّا أدرك الكونت أنه قال عن تلك المؤامرات أكثر مما يحقّ له، وأن لا شك في أن الفتى الفارس في هيكل الربّ ساذجٌ وصادقٌ ولا يسعه أن يفهم من ذلك شيئًا، فضّل أن يُعقِّب على هزيمة مرج عيون الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما اتفقا، بعد أن صارا بعيدَين عن الآذان الصاغية، على القول إن الذي صنع الفرقَ براعةَ صلاح الدين وليس أخطاءهم. فإمّا أن صلاح الدين قد حظي بحسن الطالع كما حظي به فرسان هيكل الربّ في مونجيسارد، وإما إنه لم يرتكبْ خطأً قط، وأبدى ثقةً في الحُكم اقشعرّت لها الأبدانُ. لقد حثّ الجيشَ النظامي على الولوج بقوةٍ في معركة بلا طائل، وهو ما فسَح له المجال واسعًا لكي يُلقي بِجُلِّ جيشِه ضد فرسان هيكل الربّ. ثم وفي لَمْح البرقِ غلب الجيشَ النظامي، فحال ذلك دون وصول التعزيزات القادمة من طرابلس، في الوقت المناسب. وفضلاً عن ذلك فقد رتّب كلَّ شيءٍ قبل الأوانِ، لأنه حين هجَم في الربيع، قبل ذلك بوقت قليل، لم يكن يملك إلا جيشًا قليلَ العدد. فيما وصل هذه المرة على رأس جيش قوامُه خمسةُ أضعافٍ، ولم يفهم المسيحيون ذلك إلا بعد فوات الأوان. لذلك كان نصرهُ نصرًا مستحقًا.

على الرغم من أنّ فعْل الخمر بدأ يؤثر على رأسه حاول آرن أن يرفض فكرةَ الانتصار العادلِ هذه، بيد أنه لم يجد لرفضه ذاك ذريعة شافية. بل لم يجد بدًّا بعد أن شرب مزيدًا من أقداح الخمر من أن يقبل ذلك الاستنتاجَ، قبل أن يُغيّر موضوعَ الحديث ويسأل الكونت عن سبب كراهيته لفرسان هيكل الربّ.

عندئذ عدّل الكونت ريموند الثالث سيد طرابلس حُكمَه وقال إنّ هنالك بعضَ فرسان هيكل الربِّ، ويقع بينهم الآن آرن نفسُه – أو بالأحرى القوطي – الذي كان يقيم له وزنًا كبيرًا. بدءًا بأرنود دي توروج، سيد القدس. فلو شاء الربُّ هذه المرّة أن يتدخل لصالح شؤون المدينة المقدسة فسيكون أرنود دي توروج السيدَ الأعظم القادم، ما دام أودون دي سانت أماند إمّا ميتاً، أو مسجوناً – والحالُ واحدٌ عند فارس هيكل الربّ. أرنود دي توروج، في رأي الكونت، واحدٌ من فرسان الرتب العليا القلائل الذين يفهمون– أكثر من غيره – ما الذي يهم مستقبل المسيحيين فيما وراء البحر. فالسلام واجّب مع صلاح الدين، وتقسيم القدس واجبٌ أيضًا، مهما كان هذا التقسيمُ مؤلمًا، حتى يتسنى لكافة الحجاجِ، بمن فيهم

Twitter: @ketab_n

كان لفرسان هيكل الربّ، المعروفين ببأسهم، أيًّا ما قيل في حقّهم، بعضُ الأصدقاءِ، الخائبين السافِلين. وكان أسوأهم ذلك الوغدُ الذي يدعَى رينو دي شاتيون، الذي صار ينعَم بكرم القصر منذ حينٍ، ونجح في أن يمنَح لنفسه رعايةَ إحدى الأرامل فصار ينعم بفضلها بسلطة مخيفة. لقد تزوّج ستيفاني دي ميلي، فحاز بفضلها على حصنين، حصنِ الكرك وحصنِ مونتريال، ونال فوق ذلك رضا فرسانِ هيكل الربِّ، ربما لأنّ ستيفاني هي ابنةُ السيد الأعظم الأخير.

ظل الأوغادُ يتوافدون على قصر القدس، مثل النسورِ يحدوهم الأملُ، وكان أكثرَهم خطرًا بعد رينو دي شاتيون هو، بلا شك، جيرار دي ريدفور. وذاك هو الاسم الذي لن ينساه آرن، لأنه صديقٌ لفرسان هيكل الربّ، ولا يقلُّ خطرًا عن السفاكين القتلة.

واستطرد الكونت قليلاً لكي يروي لآرن، أنه حين كان طفلا، رأى والدَه، ريموند الثاني، وهو يسقط تحت ضربات القتلة بالقرب من بوابة طرابلس، وأنه لم يغفر يومًا لفرسان هيكل الربِّ ذلك التحالف. لكنّ آرن لم يجد ما يردّ به عليه، فعاد الكونت إلى سابقِ حديثه عن ذلك اللص الذي يُدعَى جيرار دي ريدفور.

وصل هذا الأخير إلى الأرض المقدسة مغامرًا عاديًا وسط كل الذين يفدون على طرابلس عند قدوم كل خريف. لقد خدم عند الكونت ريموند، وفي البداية بدا كلُّ شيءٍ كأنه يسير على أحسن ما يرام. وفي لحظةٍ من لحظات ضعفه وعد الكونت، جيرار، بأن يزوّجه بالوريثة الوحيدة التي تنشد زوجًا، وذكر اسمَ لوسي. وتصادف أن جاء رجلٌ من بيزا وعرض على الكونت وَزْنَ لوسي ذهبًا مقابل زواجه بها. ولمّا كانت الفتاةُ لحيمةً فلم يكنْ من صالح الكونت أن يرفض ذلك العرض. لكن هذا الجاحد الذي اسمُه جيرار ما لبث أن استشاط غضبًا متذرعًا بأن شرفَه قد أُهين فرفض رفضًا قاطعًا أن ينتظر الوريثةَ الثانية. وهكذا التحق بفرسان هيكل الربِّ متوعّدًا الكونت بالانتقام.

ولاحظ آرن وهي المرّة الأولى التي فتَح فيها فاه – أنه لم يسبق له أن سمع قط أغربَ من تلك الذريعة للدخول إلى عقر فرسان هيكل الربّ.

Twitter: @ketab_n

استمر الكونت في الحديث على هذا المنوالِ طوال الليل، إلى أن جاء طلوعُ الشمس ليُبهره بأشعته، من خلال النوافذ الكبيرة المطلّة ناحية الشرق. كان آرن يشكُو من غليانٍ في رأسِه، بسببِ الخمرةِ، وبسبب كل ما علِمه من الكونت عن أحوال المدينة المقدسة المتردية.

وتذكّر عندئذ أنه شرب ذات مرةٍ قدراً كبيراً من الجعة خلال حفل زواجٍ، وأنه أصيب بوجعٍ في الرأس، وأن حاله لم تكن على ما يرام في اليوم التالي. لكنّه نسي ذلك الحدثَ البعيد. أما الدرس الثاني فهو أشد ألمًا وقسوة.

* * *

بعد مرور أسبوعٍ امتطى آرن وهارالد حصانَيهما، بمفردهما على طول الساحل صوب غزة. لقد نجحا في نقْل كل الجرحى من بوفور في حيّ فرسان هيكل الربِّ إلى سانت جون عكة، المدينة التي يطلِق عليها البعضُ "أكّو"، فيما يُسميها البعض الآخرُ عكة. لقد رغب آرن في أن يفيد هؤلاء الرجال من مزايا طبِّ عربِ الشرق فرتّب نحو غزة نقْلاً منضبطاً وأكثر أمانًا لكلّ الرقباء المهزومين الخائبين، الذين نجوا من الموت. وهكذا فتح وحده السيرَ إلى غزة، برفقة هارالد.

لم يُثَرثِرا كثيراً أثناء ذلك المسار. لقد انطلقا من غزة على رأسِ قوةٍ قوامُها أربعون فارسًا ومئتَا رقيبٍ لم يعدْ منهم سوى فارسين اثنين وثلاثةٍ وخمسين رقيبًا. ومن بين الإخوة الفرسان الذين ينعمون الآن في الجنة خمسةٌ أو ستةٌ من أفضلِ فرسان هيكل الربِّ يعرفهم آرن. ففي مثل هذه الأحوال لا فرحةً تملأُ النفوسَ ولا عزاءً بالبقاءِ، بل مجرد شعورٍ بظلم غامضٍ ملتبس.

حاول هارالد أويشتاينسون أن يمزح قائلاً إنه، هو البركبينر، اعتاد الهزيمةَ، وأن الهزيمةَ ستفيده كثيراً في الأرض المقدسة، حتى إن لم تكن على النحو الذي يتصوّره.

كان الوقت صيفًا في عِزِّه، وكان الحرُّ خانقًا انزعج له هارالد أيما انزعاجٍ، لكنّ الحرّ لم يسبِّب لسيّده أيَّ ضيقٍ. لقد علّمه آرن كيف يقِي نفسه من الحرّ كما يفعل عربُ الشرقِ، الذين يلفّون رؤوسَهم بطبقات كثيفةٍ من القماشِ، ويلفّون أجسادهم

Twitter: @ketab_n

بمعطفٍ صيفي ناعم. لقد أوشك هارالد أن يخلع ملابسه مراتٍ عديدةٍ وكانت النتيجة أنّ الشمس لم ترحمْه فاحمرّت زرداتُ خوذتِه من شدة الحر.

توقفا في عسقلان والتحقا بمعسكر فرسان هيكل الربّ، وفيه تفرّقا لقضاء الليل، لأن الفرسان والرقباءَ لا يحقّ لهم أن يناموا معًا، إلا في الخلاء. ومع ذلك فلم ينَمْ آرن، وأمضَى ليلتَه في القلعة أمام نصب القديسة العذراء. لم يتوسّل منها حمايتَه، وطَلب منها أن تحمِيَ حبيبتَه وطفلهما، ذكراً كان أم أنثى. ودعاها على الخصوص أنْ لا تبخل عليه بإجاباتها، وأنْ تمنحه نعمةَ الفهم، وأن تجعله يفرّق بين الطيّب والخبيث. لأنّ جزءًا كبيراً ممّا قاله له الكونت تحت وطأةِ الثملِ والغضبِ واليأسِ ظل راسخًا في عقله ولا سبيل له للتخلص منه.

فإذا كانت القديسةُ العذراء هي التي ردّت عليه في اليوم التالي، فإن ردّها لم يخلُ من قسوة، أو قلْ جاء الرد، كما يقول الكونت مقهقهًا، قاسيًا قسوة أمّ الربّ.

وفيما صارا على مسار قريبٍ من غزة، واقتربا من معسكر بني عنازة، إذْ بهما يريان من بعيدٍ، أنّ بانتظارهما أمراً لا خيرَ فيه.

بالفعلِ، ما مِن فارسٍ جاء لاستقبالهما. ففي قلب المخيمات كانت النساءُ والأطفال والشيوخُ ساجدين بجباههم إلى الأرضِ، للصلاةِ. وفوق إحدى الهضابِ كان ثلاثةٌ من الإفرنج يستعدّون للهجوم.

انطلق آرن بـ"خمسين" يعدو به عدوًا سريعًا، ودخل إلى المعسكر وسط سحابةٍ كثيفةٍ من الغبار، وفي إثرِه دخل هارالد. لقد أخاف دويُّ الحوافرِ كلَّ الذين كانوا يُصلّون، وكلَّ مَن لم يسعهم أنْ يروا ذلك القادمَ نحوهم، فانكمشوا أكثرَ على أنفسهم من فرط الذعر الذي أصابهم.

ولمّا أجال آرن نظرَه في هدوءٍ من على حصانه حول هؤلاء الناس بلباسِهم الأسود الذين كانت العين لا تكاد تميّز بعضهم عن بعضٍ، رفع هؤلاء رؤوسَهم في حذرٍ. ثم إذا بعض النساء يطلقن أصواتهنّ الطويلة المرتجّة، مُرحّباتٍ، ونهض الجميعُ مهلّلين يشكرون الربَّ الذي بعث إليهم القوطي في آخر لحظة.

شرعت إحدى النساء المسنات تضرب بكفّها في وتيرة ترتيلية، وفي الحال هلّلت

Twitter: @ketab_n

كلُّ نساء المخيم: القوطي! القوطي! القوطي!

وأخيرًا رأى القوطي القائدَ العجوز بلحيته الطويلة، واسمه إبراهيم، مثل جدّ البشرية، أيًّا كان الدعاءُ الذي تدعو به تلك المرأةُ ربَّها.

نزل آرن من على حصانِه قبل أن يصافح يدَ الرجل العجوز ويحيّيه.

"ما الذي حدث، إبراهيم؟ سأل آرن. أين كلُّ محاربي القبيلة، وما الذي يريده هؤلاء الإفرنج، هناك في أعلى الهضبة؟

– الربّ كبير إذ بعثك، أيها القوطي، ولذلك أشكرُ الربّ أكثر مما شكرتَه أنت، أجاب العجوز الذي شعر بالارتياح. رجالُنا ذهبوا في غزوةٍ في سيناء، لأننا في حالة حربٍ وليس أمامنا هدنة نحترمها. نحن هنا في حمايتك ولا نظنّنا في حاجةٍ للدفاع عن أنفسنا. لكنّ هؤلاء الإفرنج جاؤوا من الشمال، من عسقلان. لقد كلّمونا وطلبوا منا أن نقيم صلواتنا الأخيرة. ظني إنْ كنتُ فهمتم، أنهم سيقتلونَنا جميعًا.

– لا أستطيع أن أطلب منك العفوَ عنهم، لأنهم لا يعون ما يفعلون، لكنّ ثمة أمرًا لا شك فيه: سأطردهم من هنا في الحالِ، أجاب آرن وهو ينحني في أدبٍ أمام إبراهيم قبل أن يمتطي خمسين وينطلق عَدْوًا صوب الإفرنجَ الثلاثة، في أعلى الهضبة.

وعند اقترابهم تأنّى في السير قليلاً حتى يراهم عن كثب. بداهةً كان هؤلاء ثلاثة من الأغرار الأدعياء القادمين توًا. كانت زرداتُ أسلحتهم مزركشة ومزخرفةً بصورة سافرةٍ، وكانوا يحملون هذه الخُوَذ الجديدة التي تشدّ على الرأس، وتُظهر صليبًا رهيفًا عند مقدمة العينين. وقد خلعوا الخوذَ على مضضٍ ولم يبدُ عليهم الرضا برؤية رجل مسيحي.

– من أنتم، أيها الثلاثة، من أين أتيتم وما الذي يعنيه هذا؟ صرخ فيهم آرن بنبرةِ القائد العادية.

– ومن أنت نفسك، أيها المسيحي الذي لبس لباس العرب؟ أجاب الإفرنجي الواقفُ في الوسط. إنك تأتي لتبلبل مهمّتنا المقدسة، ومن واجبنا أن نلتمس منك في أدبٍ، قبل أن نطلب منك. ذلك بطرقٍ أخرى، أن تبتعد عن طريقنا.

مكث آرن حينًا لا يقول شيئًا، لانشغاله بالدعاء لحياة أولئك المجانين الثلاثة.

Twitter: @ketab_n

ثم أزاح ذيولَ معطفه حتى يُظهر الصليبَ القرمزي على زرده الحديدي.

"أنا فارس من فرسان هيكل الربّ"، أجاب في هدوء. "أنا آرن دي غوثيا، سيّدُ قصر غزة. أنتم الآن على أرض هذه المدينة. أما الناس الذين ترونهم فهم بدوٌ تابعون إلينا. فمن حظكم أنّ مُحاربي المعسكر قد غادروا المدينة لشأن من الشؤون، أو لمهمةٍ تخصني، وإلا لكنتم جميعًا في عداد الموتى. أكرّر إذًا سؤالي: من أنتم ومِن أين جئتم؟"

كان الرجال الثلاثةُ قادمين من بروفنسيا لمرافقةِ كُونْتِهِمْ إلى عسقلان مع آخرين كثيرين. كانت المرة الأولى التي يجازفون فيها على هذا النحو في الأرض المقدسة، لكن الحظَّ حالفهم فوجدوا هؤلاء العرب واعتزموا إرسالَهم إلى جهنّم على عجل. لقد رفع جميعُهم الصليب وكان ذلك في رأيهم واجبًا تجاه الربّ.

"أو على الأقل إزاء بابا روما المقدس"، صحّح آرن في سخرية. لكنْ، نحن فرسان هيكل الربّ جيشُ الأب المقدس، ولا نطيع أحدًا غيره. وممثله السامي هنا هو سيّدُ قصْر غزة، أي أنا. لكن كفَى هزلا في هذا. أقول لكم أهلاً وسهلاً في الأرض المقدسة، وكان الربُّ في عونِكم! لكنني آمركم بأن تعودوا إلى عسقلان فورًا. أو أن تذهبوا إلى حيثما شئتم! على أيِّ حالٍ يجب أن تغادروا غزة...غزة التي تقِف عليها أقدامكم في هذه اللحظة.

لم يُبْدِ الفرسانُ الثلاثةُ أيَّ استعدادٍ للانصياع، وأصرّوا على أنّ قتْل العربِ من أنبلِ واجباتِهم، وأنهم حمَلوا الصليبَ، وقرّروا أن يُنجزوا مهمّتهم في هذا المكان بالذات... وغير ذلك من الحماقاتِ. فمِن الجلي أنهم لم يدركوا بوضوحٍ هيبةَ فارسِ هيكل الربِّ، وأكثر من ذلك لم يسعهم أن يدركوا من اللفافةِ السوداء حول خاصرة خمسين، أنهم يواجِهون أخًا راهبًا من الرُّتَب العليا. فما أحمقهم!

حاول آرن أن يُقنِعهم أنْ لا جدوى من أن يُنفّذوا مهمّتهم المقدسة المزعومة، فيقتلوا النساءَ والأطفالَ والشيوخَ، ما دام فارسٌ من فرسانِ هيكل الربِّ يقطَع الطريقَ أمامهم، وما دام حالُهم دون حالِه قوةً واستعدادًا.

لكنهم رَفضوا الانصياعَ إلى هذه الذريعةِ أيضًا، وقالوا في عنادٍ أنهم ثلاثةٌ ضدّ

Twitter: @ketab_n

واحدٍ، وأنّ هذا سيساعد في كسْرِ مقاومةِ صديقٍ للعرب، قبل أن يُقْدِموا على مهمّتهم المقدسة ويُبِيدُوا سكانَ ذلك المخيم.

دعاهم آرن لأن يُفكّروا مليًّا، فهُم ليسوا سوى ثلاثةٍ، وهم حمقَى إنْ هُمُ هاجَموا فارسًا من فرسان هيكل الربّ. حسبُهم عندما يعودون إلى عسقلان، أن يسألوا في الأمرِ أولئك الذي أقاموا زمنًا طويلا في الأرض المقدسة، حتى يتأكدوا.

لكنهما ظلوا على عنادهم، فنزل آرن من على حصانِه، وانحدر على عجلٍ من الهضبة وذهب ليقِف أمام الخيمة. ثم استل سيفَه في حركةٍ لافتة، ثم رفعه ثلاثَ مراتٍ نحو السماءِ، ثم نكسَه، ثم قبَّلَه، ثم تلا الصلوات الشعائرية.

تقدّم العجوز إبراهيم نحوه بخطًى ثابتةٍ من ناحية، فيما كان هارالد من الناحية الثانية مقبِلا نحوه على حصانه. فقال لهما آرن، شارِحًا باللغة العربية أوّلا ثم بلغةِ الشمال، ذلك الذي سيحدث إن لم يعد المجانينُ الثلاثة إلى صوابهم. وابتعد إبراهيم على عجلٍ، بينما جاء هارالد فأوقف حصانَه بجانب حصان آرن واستل سيفَه في ادعاءٍ وجرأة.

– تنحَّ، قال آرن من دون أن يلتفِت إلى جانبه، إنك تضايقني!

– لن أدَع قريبًا في خطرٍ أبدًا، ولن تستطيع أن تُجبرني على ذلك، حتى وأنت البارل! قال هارالد في حِدّة وحميّة.

– سوف تموت، وأنا لا أريد لك أن تموت، أجاب آرن، من دون أن يغيبَ نظرُه عن الفرسان الإفرنج.

كانوا جاثمَيْن للصلاةِ قبل أن ينطلقوا في الهجوم، فهؤلاء المتهورون كانوا يعون حقًا ما يقولون. ومن ناحيته لم يحرِّكْ هارالد أيَّ ساكن.

– إني آمرُك من جديد، وللمرة الأخيرة، بأن تطيعني، قال آرن وهو يرفع صوتَه. سيهجمون بالرماحِ وإنْ لم تبتعِد فسوف تموت في الحال. عليك أن تُبعِد حصانَك فورًا. فإنْ اضطررنا للهجوم على الأقدام تستطيع ساعتها أن تساعدني. فإنْ وجدتَ قوسًا وسهامًا في واحدةٍ من هذه الخيام عليك باستعمالِها. لكنْ لا يحقّ لك أن تهاجمَ الإفرنجَ فوق خيولهم!

Twitter: @ketab_n

- كيف وأنت لا تملك رمحًا! ردّ هارالد، من فرط اليأس.

- لا، لكن معي خمسين، وأنا قادرٌ على أن أحارب كما يحارب العرب، وهو ما لم يسبق لهؤلاء الثلاثة أنْ رأوه من قبلُ قط. إذًا ابتعدْ وابحثْ عن قوسٍ وسهامٍ حتى تكون رجلا نافعًا.

أطلق آرن أمرَه الأخيرَ هذا بنبرةٍ لا رجعة فيها. ولم يجدْ هارالد شيئًا آخرَ يفعله سوى الطاعة، فابتعد في هدوءٍ صوب المخيم الذي عاد إليه إبراهيم وقد تقطعت أنفاسُه وهو يزحف فوق الرمل ويمسك برزمةٍ بين يديه. وحين وصل أخذ يستعيد أنفاسَه. وفي أعلى التلّة كان الإفرنجُ الثلاثةُ يضعون خُوَذَهم المبرقشة بالرش.

"الربُّ كبير، في الحقيقة"، لَهَثَ العجوزُ وهو يفتَح رزمتَه. لكنّ سُبُلَه لا يُدرَك غورُها. "فمنذ العصور الغابرة ونحن، بني عنازة، نحتفِظ بهذا السيفِ الذي أضاعه عليُّ بن أبي طالب عندما استشهد أمام الكوفة. لذلك حَمَلْنا واجبَ نقْل هذا السيفِ أبًا عن جدٍ إلى حينِ قدوم مُنقذنا، الذي سيأتي لكي يُؤمِّن خلاصَ المؤمنين. هذا المنقذُ هو أنت، القوطي! رجلٌ يحارب من أجل قضية نبيلة، وبِروحٍ نقيّة، لن يخسرَها إن أمسكت يدُه بهذا السيفِ. وأنت مَن كُتِب عليه أن يُمسِكَ بهذا السيف!"

بوجهٍ متوسِّلٍ ويدين مرتعشتين مدّ العجوزُ لآرن سيفًا قديمًا وفي الظاهر غير مُسنَّنٍ. ورغم حساسية اللحظة لم يُخْفِ العجوزُ ابتسامتَه.

"أخشى ألا أكون الشخصَ المطلوب، عزيزي إبراهيم"، قال. "لكن صدّقني إنْ قلتُ لك إنّ سيفي مكرّسٌ مثل سيفك، وإنْ سمحتَ لي فهو قاطعٌ أكثرَ من سيفك."

لكنّ العجوز لم يقصد ذلك، وظلّ يمدّ السيفَ بيدٍ ما انفكت ترتعِش ارتعاشًا، بسبب ما أصابها من وَهَن.

مرَّ ظلٌّ في خَلد آرن. فالقواعدُ تحظُر على فرسان هيكل الربِّ قتْل المسيحيّ أو حتى إصابته بجرحٍ. لقد كُرّس سيفُه للربِّ في كنيسة فارنيم، ولا يمكن أن يُشهَر

Twitter: @ketab_n

لغرضٍ قد يحمِل خطيئةً من الخطايا، فإن فعَل سيُلقَى به خارجاً، وذاك ما أقسَم به شخصيًا، إن هو خان القَسم.

خفَض آرن ذراعَه التي تمسك الدِّرعَ وتناول السيفَ القديمَ، وتحسس وزنه، ثم مرّر إصبعَه فوق حدِّه المفلّلِ. وعندئذ خفَض الإفرنجُ الثلاثةُ رماحَهم وانطلقوا جميعًا في الهجوم، في عَدْوٍ، لأنّ الوقت يدهمهم.

"خُذْ، يا إبراهيم"، قال آرن وهو يمدّ إليه سيفَه. "اغرسْ هذا السيفَ في الرملِ أمام خيمتِك، وصلِّ أمام الصليبِ الذي ستراه أمامك، فيما سأستعمِل أنا سيفَك. وسنرى بعد قليلٍ كم هو الربُّ عظيمٌ وجليل!"

في اللحظة التالية امتطى خمسينَ الهائج من فرط التهيج، وانطلق رأسًا صوب رماحِ الإفرنج. وعاد إبراهيم إلى خيمتِه وهو يتعثّر في الرمالِ ليفعل ما طلبه منه آرن.

حاول هارالد عبثًا أن يعثُر على قوسٍ، ومكَث على تلك الحال يشاهد عاجزاً ما يجري من حوله. أما آرن فقد انطلق في الهجوم والسيف في يدِه، صوب المغيرين الذين أقدموا ورماحهم منكّسة.

أيًّا كان — وحتى هارالد — كان يستطع أن يوقن أن حصانَ آرن ماغنوسون أسرعُ من كل الأحصنة الأخرى. فحتى آخر لحظة بدا آرن كأنه يتقدّم مطرقًا، مثل المجنون، صوب الرماح الثلاثة المصوّبةِ إليه. لكن لم يكد يصل إليها حتى انحرف فجأة نحو اليمين فكاد خمسين ينحرف انحرافًا أفقيًا، وهكذا أخطأ المهاجمون هدفهم. ولمّا أوقفوا مطاياهم والتفتوا لكي يتفحصوا وضعهم لاحظوا من خلال فتحة دروعهم الضيقة أن آرن قد غيّر اتجاهَه فجأة وجعَل يهاجم أوّلَهم بضربةٍ على القفَا، فسقط هذا الفارسُ، وأوقع رمحَه ودرعَه، وانساب في هدوءٍ من على حصانِه. في تلك اللحظة كان آرن في عقب الفارس الثاني الذي حاول أن يحتمي برمحِه، فيما أخذ الفارسُ الثالثُ الذي قطَع رفيقُه سبيلَه، يناور بحثًا عن زاوية جديدة للهجوم.

ضرب آرن حصانَ خصمِه الأقرب إليه، عند الردفِ، وفي الحالِ شُلَّ الحصانُ وتوارت أعضاؤه من تحته. وفقدَ فارسُه توازنَه، وأصاب سيفُ آرن وجهَه من خلال فتحةِ الدرع، فأوقعه أرضًا.

Twitter: @ketab_n

صارا الآن اثنان فقط على حصانيهما. ولقد أوحَى آرن أنه يرغب في أن يحاور خصمَه وأن يحصل منه على إقرار بأن يستسلم. ومن قبيل الردّ خفَض الثاني سيفَه وانطلق في الهجوم ثانية. وبعد هنيهةٍ طار رأسُه – وهو في داخل الدرع- وذهب ليلمس الأرضَ مُحدِثاً صوتًا مدويًا، قبل أن يلحقَ به باقي جسده المضرّج بالدماء. وقد بدا آرن مندهشًا فأمسك بحصانِه ومرّر يدَه فوق حد السيف وهو يهز رأسه، ثم تقدّم خطوةً صوب الفارس الإفرنجي الثاني الذي كان ما يزال حيّاً. ونزل من على حصانِه وتقدّم ليساعد خصمَه على النهوض. وفي غير وعيٍ تشبّث هذا الأخيرُ بيدِ آرن وقبِل مساعدته في أن يخلع عنه درعه. كان وجهه مضرجًا بالدماء لكنّ إصابته لم تبدُ خطيرة.

التفت آرن بعد ذلك صوب الرجلِ الذي طرحه أرضًا أولًا. أما الرجل الذي أدار له ظهرَه فقد انتهز الفرصة وغرَز سيفَه بكل قواه في بطن خمسين.

تهيّج الحصانُ واغتاظ، وأصدر صهيلَ الألم، وانطلق راكضاً وهو يرفس رفسًا، والسيفُ مغروزٌ في جنبِه غرزًا. مكثَ آرن مذهولاً حينًا قبل أن يندفِع نحو ذلك الحصانِ المسكين الذي جثَا ورفع قائِمَتَيْه أمام وجهِه لكي يلتمس منه الرحمة. لكنّ الرحمةَ لم تُمنَح له.

وعلى عجلٍ قام آرن بما بقي عليه أن يفعل، فذهب لكي يستعيد سيفَه، ثم دسّ السلاحَ العربي المكرَّسَ تحت حزامِه، ثم نادى خمسين، وهو يُحدّثه حديثًا ليّنًا لطيفًا. وعلى الرغم من الحزنِ الذي ملأ الحيوانَ – لقد صار أبيضُ العينين يدور في محجريهما – اقترب منه الحصانُ والسيف الإفرنجي يتأرجح على جنبِه على وقْع خطاه. وقد داعبه أرن وقبّله ثم وقف خلفه. ثم التفت فجأة وكأن مسًّا جنونيًا استولَى عليه على حين غرة، فقَطع رأسَ خمسين بضربةٍ واحدة.

ثم أطلق مقبض السيف فسقط السيفُ أرضًا، ثم ذهب صوب المخيم.

هرولت إليه نساءٌ وأطفالٌ من كل الأنحاءِ وجعلوا يحفرون في الرملِ، فيما أخذ آخرون يطوون الخيمَ، وفيما بدأ آخرون أيضًا يجمعون الجمالَ والماعزَ والخيولَ. لم يفهم هارالد سببَ ذلك الانشغالِ والانهماكِ، رغم أنّ السبب جليٌّ واضحٌ.

Twitter: @ketab_n

وبالتأكيد لم يرغب في أن يُزعِج يارلَه، في تلك اللحظةِ التي لم يكن في مقدوره أن يفعَل من أجله شيئًا.

ذهب العجوز لكي يلتقط السيفَ في الرمل، ومسحه ثم عاد بعد ذلك نحو هذا الأخير بخطًى ثقيلةٍ ولكنها ثابتة. كان هارالد على يقينٍ بأمرٍ واحدٍ وهو ألا يتورّط فيما كان سيحدُث بعد حين.

عندما وصل إبراهيم أمام آرن وجده جالِسًا مسمّرًا سارِحًا بنظره، وسيفُ الإسلام المقدّس في يدِه. وكان إبراهيم، وهو البدوي المجرَّب، أدرَى بهموم آرن. فقد جلس إلى جانبه دون أن يقول شيئًا، وعلى استعدادٍ إن استدعى الأمرُ ذلك، أن يبقَى معه يومين وليلتين، دون أن بنبس ببنتِ شَفَة. لأن الأعراف تقضي بأن يكون آرن هو من يتحدّث أوّلا.

- أعرف أنني مَن سيتحدّث أوّلا، يا إبراهيم، قال آرن بصوتٍ حزين. تلك هي العادة عندكم، وربما كانت هذه هي القاعدة التي يجب أن ألتزم بها والتي تَسعد أنت بجهلها. فالسيفُ الذي أعطيتني إيّاه، في الحقيقة، غريبٌ!

- فهو لك، منذ الآن، أيها القوطي! أنت منقذُنا. كان ذلك مكتوبًا وما حدث دليلٌ على ذلك.

- إبراهيم، هذا ليس صحيحًا. هل تسمح لي بأن أطلب منك خدمة؟

- أجل، يا قوطي، أيًا كان الذي تطلبه مني، وكان بمقدور البشر، أو بمقدور بني عنازة، فلن أتأخر في تنفيذه، أجاب إبراهيم بصوت خفيض، مُطرقًا.

- خُذ إذًا هذا السيفَ، واحمله إلى من يملك حقّ امتلاكه. ثم اسعَ إلى يوسف بن أيوب صلاح الدين، ذلك الذي ندعوه في لغتنا بصلاح الدين. ناولْه هذا السيفَ. قلْ له إن هذا كان مكتوبًا، وأن آرن هو الذي أمرَ لك به.

ودون أن يقول شيئًا أخذ إبراهيمُ في حذرٍ السيفَ الذي مدّه إليه. وقد ظلا جالسين حينًا، الواحد بالقرب من الآخر، يتطلّعان إلى الكثبان الرملية في اتجاه البحر. كان الحزن الذي ملأ آرن ثقيلا، وكأنه يحمل جبَلا من الثلج من حوله. لم يجد إبراهيم عناءً في فهم أسباب ذلك الحملِ الثقيلِ، أو كذلك خُيّل إليه على

Twitter: @ketab_n

الأقل. ومع ذلك فلم يكن يملك من الحقّ سوى نصفِه.

"القوطي، أنت بعد اليوم وإلى الأبد، صديق لبني عنازة"، قال إبراهيم بعد برهةٍ قد تقصر أو تطول، لأن آرن لم يعد يشعر بالزمن. "إنّ الخدمة التي طلبتَها مني متواضعةٌ جدًا، لكنها ستقدَّم إليك. فلنفعلْ الآن ما ينبغي فعلُه. نحن البدو ندفن خيولَنا التي من طين خمسين. لقد كان مُحاربًا مغوارًا، يكاد لا يقل قيمةً عن أي من خيولنا. تعال!"

وفي يسر أقنع العجوزُ آرن بأن ينهض ويتبعه. وعندما وصلا بالقرب من المخيم وجداه قد طُوِيَ بالكامل تقريبًا، وحُمِل على ظهور الجمالِ. ولم يعثرا على الإفرنج الصرعى الثلاثة الذين اختفوا في مكانٍ ما مع خيولهم. لكنّ الأطفالَ والنساء والشيوخَ تحلّقوا حول أحد الأضرحة، وليس بعيدًا عنهم وقفَ هارالد مذهولا.

لم تدم مراسمُ الخيول والرجال إلا قليلا. لقد ظنّ البدوُ، كما قال إبراهيم في دعواته، أنّ خمسينَ يستطيع الآن أن يَرتَعَ في المروج الواسعة حيث الماءُ يجري بغزارة. وشاء آرن أن يرفع دعاءً في هذا الاتجاه، وإنْ في السرِّ، لأنه دعاءُ سبٍّ وتجديف. لكنّ خمسينَ صديقُه منذ الطفولةِ، وكان الوحيدَ الذي جدّف من أجله. وقد بلَغ من الحيرة والاضطراب ما جعله يفضّل إيمانَ البدو على أيِّ إيمانٍ آخرَ لمّا رأى خمسين يعدو في مروجِ الجنة الخضراء، وذيلُه منتصبٌ عاليًا، وشعره يرفرف في الهواء.

وبعد ذلك اتجهوا جميعًا إلى غزة. لقد لقِيَ ثلاثةٌ من إفرنج عسقلان حتفَهم في معسكر بني عنازة. وقد نُصب المخيم التالي بالقرب من أسوار المدينةِ في حال لم يتّسع لهم ذلك المخيمُ خلف تلك الأسوار.

كانت النساءُ والأطفالُ لا يقِلّون براعةً في ركوب الخيل والجمالِ، وفي قيادتها، عن أيٍّ من عربِ الشرق الكبار.

أقبل هارالد ليقف بالقرب من آرن وحصانه الحرونِ الذي بدا كأنه أقلقه قليلا. لكنّ الرقيب لم يجرؤ على سؤالِ سيّده أثناء الرحلة القصيرة إلى غزة. لم يخطر له يومًا أنّ رجلاً مثل آرن ماغنوسون يبكي الآن بكاءَ الأطفال، وقد أزعجه كثيرًا أن

Twitter: @ketab_n

يكون شاهدًا على مثلِ هذا الضعفِ، لاسيما أمام هؤلاء الهمج. ومع ذلك فلم يبدُ على وجوه هؤلاء أيُّ اندهاشٍ للحزن الذي أَلَمَّ بهذا المحاربِ الذي فقَدَ حصانَه. كانت وجوهُهم هادئةً رائقة، وكأنها حُفِرت في الجلد. لم تكن هذه الوجوهُ تعكس لا الشفقةَ، ولا الخشية، ولا الارتياح.

إنهم البدو. لكنّ هارالد لم يكن يعرف من أمرِهم أكثر مما يعرفه باقي النرويجيين.

ولما وصلوا إلى غزة اختار آرن مكاناً من دون أن يقول شيئًا، بالقرب من المعاقل التي اعتاد البدو أن ينصبوا خيامَهم عندها. كان المكانُ يقع على مشارف المدينة، حتى لا تضايقهم الروائحُ الكريهة التي تحمِلها الرياح الغربية. لقد نزل من على حصانِه المستعار وشرَع يفكّ عُدَّةَ خمسين وسرجَه. لكنّ إبراهيم ما لبث أن قدِم مسرعًا بمطيتِه، وقفَز منها في رشاقةٍ، وأقبل عليه يشدّ على يديه.

– القوطي، يا أيها الصديق، يجب أن تعرف أمرًا مهمًّا، قال في البداية بنفَسٍ متقطع. إنّ قبيلتَنا، أيْ بني عنازة، تمتلك أفضلَ الجيادِ في كل الجزيرة العربية، وتلك حقيقةٌ يعرفها الجميع. لكنْ لا أحد، حتى السلطان والخلفاء، استطاع أن يشتريَ مثل هذه الجياد، لكنّنا كنّا نهدي إليهم بعضًا منها، فقط عندما تدعونا أسبابٌ خاصة لفعل ذلك. فالحصانُ السفّاد الذي كنتَ تركبه لكي تأتي إلى هنا لا يزال يحمِل وحلَه، كما رأيتَ، وليس له صاحبٌ حقًا. كان موعودًا لابني، لأنه عربيٌّ أصيل، وأنتَ مَن يجب أن يحتفظ به، لأنّ الخدمةَ التي سأقدّمها إليكَ متواضعةٌ جدًا.

– إبراهيم، أنت لا يمكنك أن... قال آرن في البداية، لكنه لم يستطع أن يواصل حديثه، فأطرق بعد أن ملأت الدموعُ وجهَه.

فأمسك إبراهيم برأسه، وداعب ظهرَه وعاتقه حتى يُخفّف عنه.

– أجل، يمكنني ذلك، أيها القوطي. أنا كبير بني عنازة، فلا أحد يملك حقَّ الاعتراضِ على إرادتي. حتى أنتَ نفسك لا تملك ذلك، طالما أنت في ضيافتي. إلا أنك تستطيع أن تُغضِب مُضيفَك إنْ أنتَ رفضتَ الهديةَ التي يهبُك إياها.

– هذا صحيح، قال آرن، وهو يتنفّس بملءِ رئتيه، ويمسَح الدموعَ بظهر يدِه.

Twitter: @ketab_n

إنني أظهر أمام صاحبي مثل امرأة ضعيفة فأبدو له بلا شكٍّ كمَن أصابه مسٌّ من الجنونِ وأنا أبكِي حصانًا على هذا النحو. لكنّك بدويٌّ، يا إبراهيم. وأنت تعلم أن هذا الحزنَ لن يزول أبدًا، وأنت وحدك من أستطيع أن أسر إليه أمرًا كهذا. هديّتُك قيّمةٌ جدًا، فلكَ مني كلَّ العرفان ما حييتُ.

- سأعطيكَ أيضًا فرسًا، أضاف إبراهيم بابتسامةٍ ماكرة، قبل أن يُلقي بإشارة.

عائشة، الفتاةُ التي أنقذ آرن حُبَّها لِعليّ بن عنازة، هي التي اصطحبت البهيمة.

كان ذلك تدبيرًا بارعًا من إبراهيم، لأنّه جريًا للعادة، لا يملك آرن أن يرفض هديةً من عائشة، المرأة التي تدين له بحبِّها، والتي تحمِل اسمَ زوجةِ الرسول - عليه السلام - المفضلة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

في بضعة أعوام عابرة تبدّلت حياةُ سيسيليا في غودبم تبدُّلاً جذرياً. فما فتئتْ شؤونُ الدير تتغيّر وتتبدّل إلى أن بلغت غايةَ التحوّل الذي لا يكاد يخطر على بال بشر. لقد نَدَرَ ما تملّكه غودبم من أراضٍ زراعية جديدة خلال الأعوام الأخيرة، لكنّ ما جَنَتْهُ من إيرادٍ قد تضاعفَ مرّتين. وقد بذلت روزا قصارى الجهد لتوضّح أن ذلك التحوّل ليس له من سببٍ آخر سوى تحسّنِ حالة غودبم المالية. لكنْ لعلّ في الأمر أسباباً أخرى، قالت روزا مُسَلِّمةً بالأمر، إذا ألحّتْ عليها الأمُّ ريكيسا أو غيرُها بمزيد من الأسئلة. كما ارتفعت بعضُ الأسعار أيضاً. فالآن صار ثمنُ معطف عائلة فولكونغر أغلى بثلاثة أضعاف من سعره عند بداية الإنتاج. لكنّ هذه الملابس صارت، كما تكهّن الأخُ لوسيان، تُصرَّفُ باطرادٍ، ولم تعد تختفي كما كانت في السابق في غضون أسبوع واحد. وعلى هذا النحو صار تخطيط النشاط يسيراً سائغاً، وصارت الراهباتُ من أليفات البيوت يجدن ما ينشغلن به في الورشة طوال الوقت دون أن يَطْفَحْنَ في العمل، ومن غير أن يُرَمِّقْنَ ما بين أيديهنّ من مشغولات. فحقّاً كان لا يُحِق شراءُ الجلود الضرورية للمعاطف باهظة الثمن إلاّ في فصل الربيع، ومن عددٍ حصريّ من الأسواق. فإن لم يُقدَّر الأمرُ حقّ تقدير كما كان الحال في السابق نَقُصَ عددُ الجلود وتعذّر إرضاءُ الراغبين في شراء تلك

Twitter: @ketab_n

المعاطف. فالآن لم يعد المخزونُ ينفدُ بتاتاً، وبات النشاطُ يسير بوتيرةٍ ثابتة ويُدِرُّ من قِطع النَقْد ما يجعلُ صناديقَ غودِيم تفيض بها فيضاً لو لم تُقْدِمْ الأمُّ ريكيسا على إنجاز العديد من المنحوتات بأيادي نحّاتي صَخْرٍ فرنسيّين وإنجليز. فهكذا صار ازدهارُ غوديم جليّاً متجلّياً. لقد أنهَى العُمّالُ بناءَ قُبّة الكنيسة ونصبوا فيها جرساً إنجليزياً بِرنّاتِه الناعمة، وأنجزوا الأسوار المحيطة بالجزء الداخلي للدير وما هُيّئَ لهذا الدير من قباب.

شُيّدتْ قبالةَ السكرستيّة قاعتان من الحجر فصارتا بيتاً صغيراً مستقلاً. وأضحى هذا البيتُ مملكةَ روزا التي تربّعت فيه ما بين دفاتر النفقات والأرباح والصناديق المملوءة بقِطَع النقد. وفي ثاني القاعتين هيّئتْ روزا براويزَ تضمّ مئات المربّعات حُفِظت في داخلها عقودُ كلّ الهِبات التي تلقّاها غوديم، وصُنّفَت تصنيفاً لا أحد يدري عنه شيئاً سواها. فإن جاءتْ الأمّ ريكيسا لتسألها حول ممتلكاتٍ بعينها، أو قيمتها، أو عن مبلغ الإيجار، فلن تجد روزا عناءً في الوصول إلى الوثيقة المطلوبة، وقراءة نصّها عليها، لتفتح بعد ذلك دفاترها بحثاً عن تاريخ تسديد آخر إيجار، ومبلغه بالصّاع الدقيق، وموعد التسديد الذي يليه. فإن تأخّر التسديدُ حَرّرت روزا كتاباً تُوقّع عليه الأمُّ ريكيسا قبل أن تضع عليه رئيسةُ الدير ختمَها في النهاية. وبعد ذلك تُرسل الكتاب إلى مطران الأسقُفية حيث المُزارِعُ المتخلّفُ عن التسديد، ويذهب رُسلٌ مفتُولو العضلات لجباية الدَّين من ذلك المُزارِع، سواء بالضغط عليه وُدّياً أو باللجوء إلى القوّة والجبر. فما من سمكةٍ تُفلت من عيون شَبَك سيسيليا روزا... بتاتاً!

لم يغب عن بال الفتاة ما أُنيطت به من استطاعةٍ بعد أن صارت وكيلاً للدّخْل والخَرْج في الدير. لقد صارت الأمّ ريكيسا تأتي لاستشارتها في كلّ شأنٍ من الشؤون تقريباً، ولم تعد تقرّر أمراً من الأمور ذات الصّلة بشؤون غوديم من دون أن تستطلع رأيَها فيه قبل الأوان. فالحالُ أنّ غوديم دون هذه الشؤون جميعاً لا حيلةَ له في البقاءِ بتاتاً.

لذلك السبب لم يعد يُدهش روزا أنْ تكفَّ الأمُّ ريكيسا عن معاملتها بالقسوة

Twitter: @ketab_n

والغلظة، أو تتنازل لرغباتها في كبرياءٍ كما كانت تفعل في سابق الأيّام. فقد وجدتْ طريقاً وسَطاً لا يُسيءُ إلى شؤون الدير ولا للنظام الربّاني الذي يسوده.

صارت روزا تنعم بمزيد من أوقات الفراغ كلّما ازداد تآلُفُها مع الحسابات وأدوات العدّ القديمة، تقضيها برفقة أولفيلد إنْ استطاعت لتلك الرفقة سبيلاً، في البساتين والحقول، أو تُنفق تلك الأوقات في الخياطة أو في الحديث في الورشة، وإلى ساعةٍ متأخرة من الليل أحياناً.

لم يأتِ البتُّ في مسألة ميراث هذه الأخيرة إلاّ بعد مُضيّ بعض الوقت. لقد شابَ بلانكا أثناء زياراتها بعضُ الغموض والإبهام، حين قالت إنّ كلّ شيءٍ سوف ينتهي على خير، وأكدت في ذات الوقت أنّ الحلّ لا يمكن أن يأتي في لمحةِ بصر. لذلك ما لبث الأملُ المتوقّدُ في روح أولفيلد أن انطفأ شيئاً فشيئاً، وها هي ذي تبدو الآن خاضعةً مُسَلِّمَةً بأمرِها مُستسلمةً له.

كان الطريقُ الوسَط الذي شُقَّ بين الأمّ ريكيسا وسيسيليا روزا حَرِيّاً بأن يُغني كلاّ منهما عن الثانية، لذلك لم تُثِرْ روزا سوى القليل من الاندهاش في نفس الأم ريكيسا حين أرسلت في طلب حضورها إلى غرفتها الخاصة لكي تحدّثها في أمورٍ لم يسبق أن تحدّثتا فيها سابقاً، كما يحلو لمديرة الدير أن تصف به مثل هذه الأحاديث.

لقد صارت الأمّ ريكيسا منذ بعض الوقت تَجْلِدُ نفسَها جَلْداً، وفي الليل تلبسُ مَسْحاً عند النوم. لقد لمحتها روزا عَرَضاً دون أن تُلقِي لأمرها بالاً. ففي الدير كثيراً ما تراودُ النساءَ مثلُ هذه الأفكار، ولم يكن ذلك لا جديداً ولا مثيراً للدهشة.

فعندما دخلتْ روزا كانت الأم ريكيسا مُنْقَبِضَةَ الجسم مُنْخَسِفَةً على نفسِها، خائرةَ القوى، وكانت عيناها مُحمرّتَيْنِ بسبب قلّة النوم، وما انفكّت تلوي يديها مُحَقِّرَةً نفسَها ومنحنيةً أمام روزا أيما انحناء.

وبصوتٍ منخفض أخذت الأمُّ ريكيسا تلتمسُ العفوَ من مريم العذراء، ومن تلك التي ما انفكّت تكيل إليها كثيراً من الغلظة والقسوة. قالت إنّها تُفتّش بصدقٍ في أعماق قلبِها عن الشيطان الذي يجب أن تطردَه من جسدها، وتفتش عن الشرّ

Twitter: @ketab_n

الذي استقرّ في روحها، وأنّ لها في هذا الأمر يداً بيضاءَ، فها هي الآن تُمنّي نفسَها بعض الأمل لأنها تشعر أنّ أمّ الربّ سوف تملؤها رأفةً ورحمة.

لكنْ مَنْ يدري إن كانتْ روزا سترأفُ بها أيضاً. فقد قالت الأمّ ريكيسا إنّها ستتحمّل عن طيب خاطرٍ أضعافَ ما كابدته الفتاةُ من عناءٍ في الزنزانة، أو من ضَرْبٍ بالكرباج.

ثم أضافت أنّ القُبْحَ كان دوماً منبعَ شقائها، وأنّ الربّ لم يرزقها سمات العذراء الجميلة التي يتغنّى الفرسانُ بمفاتنها.

صحيحٌ أنّها من عائلةٍ مَلَكِيّة النسب، لكنّ والدَها لم يكن يملك من الثراء إلاّ قليلَه، ولعلّ لذلك السبب شاء القدرُ أن تظلّ عزباء. فما من رجلٍ يتمنّى الاقتران بها طمَعاً في ثروتها، ما دامت الثروةُ ناقصةً ولا تفِي بالحاجة.

وتفريجاً عن كُربها قالت لها أمُّها إنّ للربّ غاياتٍ في كلّ شيء، وأنّ مَنْ لَمْ تُخْلَق لسريرِ النكاح ستكون مثل الإوزّة الأولى، تُخلَقُ لغرضٍ أنبَل وأسْمَى. ولذلك فما من غايةٍ تنتظر ريكيسا سوى ملكوت الربّ وحده. لكنْ لَكَمْ كانت تُؤْثِر مملكةَ الرجالِ على ملكوت الربِ، لأنّها تهوَى ركوبَ الخيلِ، والذهابَ إلى الصيد، على خلاف معظم الفتيات اللائي لا تُراودُهنَّ مثلُ هذه الرغبة إلاّ نادراً.

ولمّا كان والدُها يعرف مَلِكَ السفيركر معرفةً حميمة فقد تصوّر الرجلان أنّها أنسبُ امرأةٍ لإدارة دير جديد كانت عائلةُ المَلك تنوي إقامتَه في غودیم. وبطبيعة الحال لم تكنْ تملكُ ما تعترضُ به على إرادة الملك وإرادة والدِها. فلم يكد يمرُّ عامٌ واحدٌ على تَرَهْبُنِها حتى صارت رئيسةً لذلك الدير الجديد. والربُّ وحده أعلَمُ بما تملّكَ هذه المرأةَ الغَريرةَ من جَزَعٍ من تلك المسؤولية المرهقة. فذاك لأنّ ما مِنْ عائلة تُشيِّدُ ديراً إلاّ وتظلُّ حريصةً علَى أن يظلّ هذا الديرُ تحت مظلّتها، وأنْ لا يستفيد العدوُّ من نفقاتها عليه. لقد صارت الأواصرُ ما بين سلطة الكهنوت والسلطة الملكية وثيقةً وطيدة، لأنّ الدير مادام قد عُيِّنَ فيه رئيسٌ أو رئيسة فلا يملك العلمانيون أنْ يغيّروا من أمره شيئاً، حتى إن كانوا غيرَ راضين عمّا يجري داخل أسواره. فلذلك السبب كانت سلطةُ العائلة في داخل الدير لا تقلُّ بأساً عن سلطتها خارج أسواره،

Twitter: @ketab_n

حتى إن كانت أقلّ وضوحاً خارج هذه الأسوار. ولذلك السبب أيضاً وجد النداءُ لديها الآذانَ الصاغية المطيعة، لأنه قادمٌ من عائلتِها ومن الربّ معاً.

ولعلّ جزءاً من قسوتها في حقّ سيسيليا روزا سببُه قيامُ الحرب خارج الأسوار في تلك الأثناء، وما عناه السفيركر من قِبل الفولكونغر والإيريك الذين لم يرفقوا بها ولم يشفقوا. فمن الظلم بالطبع أنْ تتحمّل فتاةٌ هزيلةٌ مثل روزا إذْلالَ تلك الأعمال الحربية على كاهلها من خلف أسوارِ ديرٍ لا يجوز لأيّ حربٍ أنْ تمتدّ إليه بتاتاً. فكلّ ذلك كان جوراً وإجحافاً في حقّها، ولم تجد الأمُّ ريكيسا بُدّاً من أن تُقِرّ به وهي تطرق رأسَها كأنها توشك على البكاء.

شعرتْ روزا خلال هذا البوح الممتدّ بمشاعر لم تعهَدْها من نفسِها حتى تلك اللحظة. لقد أخذتها الرأفةُ نحو الأمّ ريكيسا ووضعتْ نفسَها مكانها تماماً، وتخيّلتْ مدى ما كابدته عندما كان الرجالُ من النبلاء ومن غير النبلاء يهزؤون منها وهم يصفونَها بالمرأة المشعوذة، كما فعلتْ فيما بعدُ روزا وأولفيلد وبلانكا. فلا شكّ أنّ الحياةَ كانت قاسيةً على فتاةٍ تُمنّي نفسَها بالأحلام نفسها و بالآمال ذاتها التي تهفو إليها كلّ فتاةٍ في سنّها، وتدرك على مَهَلٍ وفي يقينٍ أنّ مصيرَها حياةٌ أخرى لم تبتغِها.

وكان ذلك ظلماً وجوراً أيضاً، قالت روزا لنفسها. لأنّ ما من رجل وما من امرأة يتحمّلان وزرَ مظهرهما الجسدي، فأكثرُ الرجال والنساء وسامةً وجمالاً قد يُنْجِبون أكثر الأطفال قُبحاً ودمامةً، والعكس بالعكس. فأيّاً كانت مشيئةُ الربّ الذي ألبَسَها ذلك المظهر الذي شابهت به المرأة المشعوذة فليس الذنبُ ذَنْبَها ولا جُناحَ عليها في ما أصابها.

وحين سمعت روزا رئيسةَ الدير تطلب العفوَ منها أحسّت بالرغبة في أن تحضن هذه المرأة المسكينة البائسة وتمنحها العفوَ الذي توسّلت إليها بأنْ لا تبخل به عليها. لكنّها رجعت عن رغبتها في آخر لحظة، وأخذت تتخيّل كيف ستُخبر بلانكا بذلك، وإنْ هي أخبرتها فبأيّ ردٍّ سترُدُّ بلانكا به عليها. فأغلبُ الظنّ أنّ الأمر سوف يعرّضُها للحرج وسوء الفهم.

Twitter: @ketab_n

عبثاً حاولت سيسيليا روزا أن تجد مخرجاً لمأزقها، وأخذت تُصوّر لنفسها كيف سيتفاعل شخصٌ عاقلٌ، مثل روزا أو بيرجر بروزاَ مع موقفها ذاك، ثمّ إذا بها تهتدي إلى أمْرٍ مُهمّ راودها في النهاية.

- إنّها لقصّةٌ حزينة، هذه التي رويتِها توّاً، يا أم ريكيسا، قالت روزا في حذرٍ في البداية. من المحقَّقِ أنّك أخطأتِ كثيراً وأذنبتِ كثيراً. لقد أحسستُ بذلك في بَدَني، وخلال ليالي الشتاء القاسية. لكنّ الربّ كريمٌ رحيم، ومَنْ كان نادماً على خطيئته كما ندمتِ أنتِ فلا ينبغي أن يَسْتَيْئِسَ أو يفقد الرجاء. فليس لعفوي أهمية قط. جُروحي انْدَمَلَتْ منذ وقتٍ طويل، ولم يعد البردُ يُقرّسُ عظامي، فالعفوُ الذي ينبغي أن تنشُديه يا أمّ ريكيسا هو عفوُ الربّ، فكيف لي أنا الأثيمة، المغلوبةُ على أمرها، قليلةُ الشأن، أن أُغَلِّبَ إرادتي على مشيئة الربّ، في مثل هذه الحالات؟

ـ أنتِ لا تريدين العفو عنّي إذاً، شهقتْ الأمُّ ريكيسا وهي تميل إلى الأمام كأنّ ألماً مُبرِّحاً ألمّ بها، وتتلوّى حول نفسها التواءً جعل المَسْحَ يخشخشُ من تحت فستانها الصوفي الغليظ.

ـ تلك بالتأكيد رغبتي الكبرى أيتها الأمّ، أجابت روزا وقد انشرحَ صدرُها حين أدركت أنّها لم تبلع الطُّعم. فيومَ تشعرين أنّ الربّ قد غَفَر لك عودي إليّ وسوف نُقيم صلاةَ الحَمْدِ والشكر للربّ معاً!

استقامت الأمّ ريكيسا في أناةٍ وهزّت رأسها في تأمّلٍ كأنها لمست في أقوال روزا غايةَ الرشدِ والحصافة، على الرغم من أنّها لم تأخذ العفوَ الذي تمنّته منها. ومَسَحَتْ عينيها كأنّ الدمّع قد ملأهما ثمّ تنفّست الصعداءَ. وقد بدأت تتحدّثُ عن حالة الهرج والمرجِ التي تسبَّب بها فرارُ الأخت الراهبة ليونور، والأخ الراهب لوسيان. فلذلك السبب تلقّت هي والأب هنري التأنيبَ والتوبيخ من المطران، على تلك الخطيئة العظمى التي لم يكن حِمْلُهُما فيها هَيِّناً.

لم تجد الأمّ ريكيسا ما تقوله دفاعاً عن نفسها، لأنّها لا تَعْلَم شيئاً ممّا كان يُحاكُ من وراء ظهرها. لكنْ وقد مرّ الآن وقتٌ طويل أليس في مقدور روزا أن تُشفِق عليها وتخبرها بما جرى حقاً؟ فهي بالضرورة على دراية ببعض الأشياء التي غابت عنها.

Twitter: @ketab_n

تثلّجَ جسمُ روزا التي أخذت تحدِّقُ إلى وجْه الأم ريكيسا، وخُيِّلَ إليها أنّها رأتْ فيه عينَي الشيطان! ألم تكن حَدَقَتَا رئيسةِ الدير الحمراوان، الممتدّتان أفقياً، تُشبهان حَدَقَتَيْ ثعبان الماء، أو حدقَتَي معزاة؟!

ـ لا، يا أمّ ريكيسا، قالت دون ارتباك، لستُ أعرف شيئاً ممّا لا تعرفينه أنتِ. ومن أين لي، أنا المخطئةُ الآثمة، أن أعرف أيّ شيءٍ ممّا كان يُدبِّرُه أخٌ راهبٌ وأختٌ راهبة؟

وعند هذا الحدّ نهضتْ ومَضَتْ دون أن تُقبِّل يدَ الأم ريكيسا. وقد تمالكتْ نفسَها إلى أن أغلقت البابَ وراءها، ووصلت إلى الدير الأنيق حيثُ الورودُ صارت الآن تتسلّقُ الأعمدةَ طُولاً، كأنّها تحيةٌ دائمة من الأخت ليونور. فمنذ أن رحلت لا أحد يعرف عنها شيئاً، مثلما لم يَلُحْ في الأفق من أمرِ الأخ لوسيان حِسٌّ ولا خبر. وما دام لم يرِد ذِكْرٌ لعقابٍ أو تكفيرٍ أو إبعادٍ فالأمرُ خيرٌ إذاً، حتّى هذه الساعة. فالأرجحُ أنّ كليهما ينعمان الآن بالأمان في جنوب فرنسا، وسعيدان بالعيش معاً مع طفلهما، خالِيَيْن من كلّ ذنب.

جَابَت روزا أروقة الدير في أناةٍ وهي تتنشّقُ روائحَ الورودِ الحمراء، وتداعبُ الورودَ البيضاء التي لا فوْحَ فيها. كانت تلك الأزهارُ تبثُّ إليها خواطر ليونور وبلاد أُوكسيتانيا السعيدة. ومع ذلك فقد اقشعرّ جسمُها برداً رغم دِفْءِ ذلك المساء.

فقبل قليل أمضت بعض الوقت بصحبة الأفعى شخصياً، وحدّثتها حديثَ الحمل الوديع الناعم، فأيُّ شقاءٍ كان في انتظارها، وأيّ عقابٍ رهيبٍ عرّضت له نفسَها لو استسلمت لإغواء تلك الساحرة، وكشفت لها عن كلّ شيءٍ في سَوْرَةِ رأفةٍ صبيانية؟ ففي لَمْح البرق أبصرت العينان المضطربتان شخصاً آخر غير الأمّ ريكيسا.

لكنْ أيّاً كان الظرفُ فمن اللائق أن تفكّر روزا كما يفكّر رجلُ السلطة، أو تفكر على الأقل مثل بلانكا!

* * *

لو كان لتوبة الأمّ ريكيسا الغريبة أو بالأحرى لسعيها اليائس في دفْعِ سيسيليا

Twitter: @ketab_n

روزا إلى الاعتراف بخطيئتها ضدّ سلام الدير تفسيرٌ فهو النبأ بأنّ الملكة بلانكا لن تأتي بمفردها إلى غوديم. فسوف تكون هذه المرّة برفقة اليارل بيرجر بروزا.

كان النبأُ نذيرَ شؤم. فليس من طبع اليارل أن يتنقّل على هذا النحو لكي يُنفِقَ قليلاً من وقته الثمين في التحدّث إلى آثمة بائسة، حتى وإن قدّم لروزا في السابق دَعْمَه على رؤوس الأشهاد أكثر من مرّة. فإن قدِم اليارل فذاك لأن وراء الأكَمَةِ ما وراءها. وكان ذلك ما خطر لروزا عندما علمتْ بذلك النبأ. ولن تستطيع الأمّ ريكيسا بعد ذلك اليوم أن تحتفظ بذلك الصنف من الأنباء لنفسِها، لأنّ على وكيل الدّخل والخرج أن يَعْلَم أيَّ سخاءٍ يتهيّأُ له الديرُ ليُرسل نزلاءَه لشراء كلّ ما لا عُذر لهم في اشتهائه في غوديم في سائر الأيّام. صحيح أنّ القواعد تحرّم على أيّ رجُل أو أيّ امرأة وَهَبَا حياتهما للربّ أن يأكلا من لحم رُباعيات القوائم، لكنْ لا شأن لليارل بهذا الصنف من المحرّمات، مثلما لا همّ للكثير من الأديرة بها. فالشائعُ أنّ رهبان فارنيم البورغونيين لا يرضون عن أشهى أطباقِ بلاد الشمال بديلاً، ترعاهم فيها عينُ الأب هنري الساهرة وإذْنٌ منه يُضْمِرهُ إضمارا، فإلى فارنيم قد يصل بيرجر بروزا على حين غرّة، لكنْ رغم ذلك سينعم بأكل أطيب ممّا يأكله على طاولات مقامِه. لكنْ، ما دام غوديم هو المقصدُ والغاية فخيرٌ له أن يَلزم ما وسعه من حذرٍ وحيطة.

لم يأخذْ من روزا هَمُّ نوايا بيرجر بروزا، فهي لا تنتظر منه خيراً أو شراً، ولا مطمعَ لها سوى أن يمضي ما بقي من أمدِ كفّارتها الطويلة. وما من ملكٍ أو يارل يستطيع أن يخدمها في شيء عدا إلزام الأمّ ريكيسا بالنظام الربّاني، أو على الأقلّ ما تُمليه السلطة الزمنية. فعلى خلاف رئيسة الدير لم تكن روزا تهاب اليارل أو الملكة في أيّ أَمْرٍ بتاتاً، فلا حرج إذن أن تستسلم بلا حدود للمفاجأة وتنتظر زيارة صديقتها الغالية بلانكا، ولَكَمْ هي الزيارة مختلفة هذه المرّة عن الزيارات في المرّات الأخرى.

وصل اليارل على رأس موكب مهيب، لم يكن عَطِشاً ولا جائعاً، لأنه توقّف في فارنيم يوماً وليلة قبل أن يقوم والملكة بقطع المسافة القصيرة التي تفصلهما عن غوديم. وقد جاءت حوافرُ الخيول لتقرع البلاطَ برنينِها بالقرب من الأسوار، وقد

Twitter: @ketab_n

سُمعتْ أصواتٌ غليظةٌ لرجال يتبادلون حديثاً فظّاً ويتشاجرون. وأخذت الصواري والحبالُ والملافيفُ تُطَقْطِقُ، فيما أخذ الرجالُ ينصبون خيمة اليارل. وفي داخل الخيمة ما فتئ التوتّر يَضْخمُ ويتعالى مع كلّ صوت من هذه الأصوات الجديدة. وقد آثرت روزا التي يحقّ لها الآن أن تتّجه إلى المضافة من دون إذْنِ رئيسةِ الدير أن تمكث في هدوءٍ بين دفاترها وريشة الإوزّة في يدها لكي تدقّق حسابَ نفقات الزيارة الملكية كافة. لقد خمّنت وقدّرت أنّ خيراً لها ألاّ تُسارع نحو ما يُبهجها أكثر عند كلّ سنة قبل أن تُنهي مُهمّتها، كما يفعل عاملُ الدالية المخلص لعمله. فالمتعةُ والراحة خيرُ مكافأة للعمل المنجز، قالت روزا لنفسها وهي تَعِدُ نفسَها بالسّير على هذا المبدأ حين تُغادر غودم. فالآن وقد أنفقت جزءاً كبيراً من كفّارتها تستطيع أن تتخيّل أيَّ مسارٍ ذاك الذي ستسيرُ فيه حياتُها. لكنْ ليس كلّ شيء واضحاً وضوحاً كاملاً في أحلامها، بل مازال يراود خلدَها أمرٌ يستعصي عليها رؤيته بوضوح وجلاء.

مرّت سنواتٌ عدّة وأنباء آرن ماغنوسون لم تتناهَ إلى دير فارنيم وعِلْم الأب هنري. ولا تملك روزا من أمرِه سوى يقينها أنّه لم يمتْ، وذاك ما أخبَر به الأبُ هنري بلانكا. فقد ارتقَى آرن في الرّتب كثيراً، ولو وافته المنيّةُ في الأرض المقدّسة لأقام كافّةُ الاسبتاريين على روح هذا الفارس في هيكل الربّ ما يليق بها من قُدّاسات. لقد كانت روزا تعلم أنّه حيّ يرزق، ولا شيء غير ذلك.

ومع ذلك كانت أنباءُ آرن أوّل ما أخبرها به بيرجر بروزا بعد أن خرجت من المضافة واحتضنت بلانكا وانحنت أمام اليارل. لكنّ روزا لم تجرؤ على احتضان بيرجر بروزا، لأنّ السنوات التي أنفقتها في الدير حفرتْ في روحِها جِراحاً عميقة لم تكن تُدركها.

وبعد أن تبادلا هذه المجاملات وأُتِيَ لليارل بقدح الجعّة التي طلبها جلس إلى الطاولة في استرخاء رافعاً إحدى رجليه كما يفعلُ دائمًا. ثمّ أخذ يرصد روزا بعينٍ خبيثة وهي تتهيّأ للجلوس وتُنمّق ثيابها.

"حسنٌ إذاً، أي قريبتي العزيزة"، قال في ابتسام وهو يجرّ الكلمات جرّاً وكأنه يريد أن يشدّ انتباهَها إليه أكثر فأكثر. "لدينا أشياءٌ كثيرة سنقولها لك أنا والملكة.

Twitter: @ketab_n

بعضُها ذو بالٍ وبعضها أقلّ شأناً. لكنْ ظنّي أن أنباء آرن هي أغلى ما ترغبين في سماعِه فوراً. فهو الآن واحدٌ من أكبر قادة الحرب في صفوف فرسان هيكل الربّ، وقد حقّق انتصاراً عظيماً في مكانٍ يدعَى مونجيسارد إنْ أنا أحسنتُ فَهْمَ ما قاله لي الأب هنري. ولم تكن المعركةُ معركةً عادية: خمسون ألفاً من العرب المسلمين لقوا حتفهم فيها، وكان هو نفسه على رأس عشرة آلاف من الخيّالة. فَلْيَحْمِ الربُّ هذا المحارب حتّى يعود إلى البلاد قريباً، وذاك أغلى ما نُمنّي به نحن الفولكونغر أنفُسَنا، قدر ما تمنّين به أنت نفسَكِ أيضاً!"

وفي الحال أطرقتْ روزا رأسها حمداً وشكراً، وفي الحال بدأت الدموع تنحدرُ فوق خدّيها، ولم يُعكّر بيرجر بروزا وبلانكا دمْعها لكنّهما تبادلا نظرة خبيثة.

"لعلّنا نستطيع الآن أن نتحدث في ما يُشغل بالنا أيضاً؟" سأل اليارل بعد هنيهة بابتسامته الرائعة المعهودة.

هزّت روزا رأسها ومسحت دموعها في تجهّم لم يَخْلُ من ابتسامة ألقتها في وجه بلانكا وكأن لا حاجة لها لأنْ تُفصح بالكلمات أو بواسطة لغة الدير الخفية عن السعادة التي غمرتها بعد سماع ذلك النبأ السعيد. "أردت إذن أن أحدّثك عن أولفيلد أيموندسدوتر، لأن المسألة شائكةٌ للغاية"، أردف اليارل عندما أحسّ أنّ روزا قد صَحَتْ من انفعالها، وعاد إليها انشراحُها.

ثمّ أخذ يعرض عليها، نقطةً نقطة، وبما يُمليه المنطقُ، مختلفَ المصاعب التي عَرَضَتْ له وكيف حاول معالجتها.

"في البداية كان لابدّ من القول إنّ قانون فاسترا غوتالاند كان إلى جانب أولفيلد حقاً. كان القُضاةُ الثلاثةُ متّفقين حول هذه النقطة. لقد كانت أولفشيم موطنَها أثناء طفولتها، وقد قُتلتْ أمُّها وإخوتُها، ولذلك لا أحد يستطيع أن يُنكر أنّها الوارثةُ الشرعيّة لأملاك عائلتها.

ومع ذلك فلم يكن الأمرُ بهذا القدر من اليُسر، لأنّ الملك كنوتْ أريكسون لم يكن صديقاً للمرحوم والدها، بل صاح بأعلى صوته حين جاء ذِكْر الميراث في حضرته، أنّه لو هُيِّئَ له أن يقتل أيموند كلّ يومٍ مرّةً كما يُقْتَلُ فحلُ الخنازير في

Twitter: @ketab_n

الأساطير لفَعل عن طيب خاطر. فإيموند قاتلٌ لِملكٍ، بل هو أسوأ من ذلك لأنّه قتل سانت إيريك، والدَكنوتْ أريكسون قتلاً امتزج فيه الجبنُ بالخزي والعار. فلماذا إذاً يُشفِق على من خلّفهم إيموند بعده؟

لأنّ القانون يشترط ذلك، قال بيرجر بروزا موضّحاً. فالقانون يَسْمُو فوق أيّ سلطانٍ آخر، فهو الأساسُ الذي تستندُ إليه البلاد، وما من ملكٍ يملكُ الحقَّ في أن يحول دونه.

لكنّ المصاعب لا تقف عند حدود سوء إرادة الملِك وحدها. لقد دمّر الحريقُ أولفشيم تدميراً كاملاً. وفي الأعقاب سُلِّمت ملكيتُها للفولكونغر بعد أن ذاع صيتُهم في معركة بجالبو. والآن يقيم عليها شخصٌ يُدعَى سيغورد فولكِسون ونجلاه العازبان. لقد قضَت أمُّهما نحبَها وهي حُبلى، ولسببٍ من الأسباب لم يعقد الأبُ قراناً جديداً.

ومَن يدري؟ قد يدّعي الفولكونغر أنّ الملك هو الذي أهداهم أولفشيم التي أعادوا إعمارَها إعماراً كاملاً".

أصاب اليارل دهشٌ كبيرٌ حين قاطعته روزا فجأة وقالت له بلهجة فيها ما يشبه الصّلف والوقاحة أنّ الأرضَ أغلى من البناءات أضعافاً عديدة، وأنّ الأسس الحجرية أغلى من البناء الخشبي المُقام عليها – إنْ جاء البناءُ على هذا النحو الجديد، وهو كذلك حقاً ما دامت النارُ لم تُبقِ منه شيئاً، ولم يكن من بُدٍّ من إعادة البناء. والحالةُ هذه فما قيمةُ بضع بناءات من خشبٍ بالقياس إلى أرضٍ وأسس من صخر؟

قطّب اليارل حاجبيه قليلاً وهو يتلقّى ذلك اللون من التعنيف والتأنيب. لكنْ ما دامت الملكةُ هي الشاهد الوحيد فلَم يُلقِ للأمر بالاً، وبدلاً من أن يستشيط غضباً أخذ يُطري ويمدحُ حسَّ روزا العميق في الشؤون والصفقات.

ففي جميع الأحوال تلقَى المسألةُ ما تستحقّه من فحصٍ وبتٍّ من جميع وجوهها، وما أكثر السبل للخروج من هذه الورطة. وأمّا السبيلُ الأوّل فقوامُه قِطعٌ من الفضّة، وأمّا السبيل الثاني فهو القِرانُ، فإن قبِلت أولفيلد أن تعقد قرانها بأحد أبناء سيغورد

Twitter: @ketab_n

فلا شيء سيَحُول دونها واستعادة نصف ملكية أولفشيم، ثمناً لمهرها!

أوشكت روزا أن تقطع حديثَ اليارل، لكنّها تمالكت نفسها.

"وأما آخرُ إمكانية"، واصل اليارل حديثه وهو يرفع سبّابته حتى لا يُقاطع حديثَه أحدٌ مرّة أخرى، "فهو شراءُ أولفشيم من الفولكونغر. لقد خرج بيرجر بروزا بالفعل إلى إحدى الحملات الصليبية مرّتين منذ عهد قريب، على الجانب الآخر من البلطيق. وقد فُوجئ ذات يوم ورجالُه بهجوم مضادّ فَضُيِّق عليهم من كلّ جانب أيّما تضييق حتى صار حالُهم حَرِجاً إلى حين، ساعتها وعد بيرجر بروزا الربّ بأن يُشيِّد ثلاثَ كنائس إن هيّأ له الربُّ الخروجَ آمناً من ذلك المأزق الحرج العويص. ولمّا أدرك أنْ لا أثر لذلك الوعدِ أضاف إلى كنائسِه الثلاث الوعدَ بإصلاح هموم الصغيرة أولفيلد. وفي الحال انقلب مصير المعركة لصالحه".

انتهى بيرجر بروزا من تشييد كنائسه الثلاث، لكنّه لم يفِ بالدَّين الذي قطعه للربّ إيفاءً كاملاً. فهو لم يُهيِّئ لمصيرِ أولفيلد مخرجاً، وقد ضاق بذلك ذرعاً لأنّه لا يعرف أيّ مذهبٍ سيذهبه لإرضائها وتفريج كربها. لم يكن يغيبُ عن روزا حرجُ بيرجر بروزا الذي حرص هو وبلانكا على ألاّ يقولا شيئاً حول هذه المسائل في حضور أولفيلد، ولذلك السبب لم يُؤْتَ بها إلى المضافة حتى تلك اللحظة.

كانا يرغبان في معرفة رأي روزا، وإنْ اتفق الثلاثة على حلّ فلن يبقَى سوى إرسال مَنْ يُحضِر أولفيلد. فما رأي روزا؟ أليستْ أدرَى بأولفيلد من غيرها؟ وأيُّ الحلول أفضل؟ أهو أغلى الحلول وهو شراء الأراضي من الفولكونغر؟ أم هو أبسطُها وقوامُه عَقْدُ قرانٍ مع الفولكونغر عن طريق الزواج؟

رأت روزا أنّ المسألة لا يمكن أن تُحسَم في لمحة برقٍ. فلو عاشت أولفيلد في عالم أفضل لما شهدت ذويها يموتون في الحرب، ولكان لها أبٌ قد زوّجها على كيفِه منذ وقت طويل، بأحدِ أقارب اليارل كُول على الأرجح، أو أقارب اليارل بُولِسلاف. ولكنْ على نحو ما تتوالى الأيّامُ اليومَ فلم يعدْ ذلك مُتاحاً لأولفيلد. فلا شكّ أنها ستقبل بما يسع صديقتيها الوحيدتين أنْ تعرضاه على الجميع وعلى اليارل، لكنّ مثلَ هذه العجلة في عقْد قرانها بالزّواج قد يُشقيها وقد يُسعدها!

Twitter: @ketab_n

والأفضل، أضافت روزا بعد هنيهةٍ من التأمّل أنْ تعود أولفيلد لتعيش في أرض كانت في الأصل ملكيتها المشروعة. فذاك خيْرٌ لها من أن تتزوّج فلاناً أو علاناً. بدايةً يستطيع سيغورد هذا ونجلاه أن يساعدوا أولفيلد في الانصراف إلى شؤون الأرض، فيما يسعى بيرجر بروزا أنْ يُدبّر لها أراضي جديدة. وتلك بالكاد ليست مهمّةً يسيرة على من أنفق جلّ حياته في إنشاد التراتيل وفي الخياطة والبستنة.

وقال بيرجر بروزا في تأفُّفٍ إن ذاك الحلّ باهظ، بل أكثر الحلول كلفةً إن لم يَسْعَدْ أيٌّ من نجلَيْ سيغورد بإعجاب أولفيلد. وإذْ بالسيسيليتين تذكّرانه في البداية أنّ ذلك هو الوعدُ الذي قطعَه للربّ دون أن يُضيف إليه شرطاً مالياً، وبأنه قد اغتنى بعد ذلك أثناء حملاته الصليبية شَرقّاً. ولم يُبْدِ بيرجر غضباً من ذاك التأنيب والتوبيخ مثلما يغضب لو كان برفقةِ شخص من بني جنسه. وبعد هنيهة من الصمت هزّ رأسه ثم طلب من روزا أن تذهب وتُحضر أولفيلد من خلف أسوار الدير.

ولم تكد روزا تجتاز عتباتِ الغرفة حتّى نبّهتها بلانكا أنّها آخرُ مرّة تتخطّى فيها أولفيلد باب غودهم، لأنها ستذهب معهما نحو داخل البلاد بعد يوم أو يومين. وإنْ وُجِد معطفٌ من معاطف عائلة سفيركر فخيرٌ أن يتسلّموهُ في الحال. والحالُ أنّ اليارل لا يرى أيَّ مانع لدفْع ثمن تلك الهديّة. وإنْ هو اشمأزَّ من هذه النفقةِ الإضافية فلن تتوانَى بلانكا في فعلِها شخصياً. وضحكتْ بلانكا لهذا العزْم الطيّب كثيراً، وضحك بيرجر بروزا له كثيراً.

وبِوَجْنَتَيْنِ حمراوين وقلْب خفّاق سارعت روزا بالدخول إلى الدير والتوجّه إلى المشغل حيثُ تُقدِّر أن أولفيلد مقيمةٌ فيه في مثل تلك الساعة من النهار، لكنّها لم تعثر على أولفيلد فيه. وبعد أن فتّشت المكانَ على عجلٍ وجدتْ معطفاً من معاطف سفيركر أحمر اللّون حُمرة الدمّ وعلى ظهرِهِ صورةُ الغُريفون مطرّزاً بخيوط من الذهب والفضّة، فوضعته فوق ذراعِها وانطلقت به تفتّش عن أولفيلد بعد أن تملّكتها فجأة حالةٌ من القلق الشديد.

لم تُفتّش عنها في الأماكن التي كان يجب أن تفتّش فيها وكأن القلقَ هو الذي قاد خطواتها فانطلقت مسرعةً نحو أجنحة الأمّ ريكيسا، فوجدتهما جاثمتين باكيتين،

Twitter: @ketab_n

وإذْ برئيسة الدير تُنيط بيدٍ مواسيةً ظَهْر أولفيلد التي لم تملك عليها نفسَها من فرْط الشهيق والأنين. لقد رأت روزا أخشى ما كانت تخشاه منها، ومَن يدري فلعلّ الأسوأَ ممّا كانت تخشاه قد حدثَ وانتهَى على الرغم ممّا أسرفت في توجيهه لتلك الفتاة من تحذيرٍ وتنبيه.

"لا تدَعِي الإغراءَ يأخذك أيْ أولفيلدا!" صرختْ فيها وهي تفكّها في غير لينٍ من أيدي – أو بالأحرى من مخالب– الأمّ ريكيسا. ثمّ أخذتها بين ذراعيها وداعبت ظهرها الذي هزّهُ الشهيقُ والأنين، وأمسكت بيَدَيْن رعناوين معطفَها الأحمر.

انتصبت الأمّ ريكيسا بوثبة واحدة وأخذت عيناها الملتهبتان ترسلان برقاً متواصلاً، ثمّ صرخت بملء قواها أن لا أحد يملك الحقّ في أن يقاطع بَوْحاً، وأنّ أشياء قد قيلت وأخرى يجب أن تُقال حتى تكتمل الحقيقة، ثمّ حاولت أن تمسك أولفيلد من ذراعها حتّى تردّها إليها.

وبقوّةٍ لم تكد تصدّقها انتزعت روزا صديقتَها الحزينة من ذراعَي الساحرة، ومدّت المعطفَ بينهما لكي تحميها، وتسمّرت المرأتان في مكانهما، مذهولتين أمام تلك القطعة من القماش الحمراء الساطعة. وفي الحال وضعت روزا معطف السفيركر على كتفي أولفيلد، كحاجز لوقايتها من الشرّ الذي تفوح به رئيسة الدير عليها.

"آن الأوانُ لكي تفيقِي من غشيتك، أيْ أم ريكيسا! قالت بلهجة جازمة لم تألفها نفسُها. لم تعد هذه التي أمامك عبداً مسترقاً. لم تعد هذه التي أمامك أولفيلد المغلوب على أمرها، واحدة من أليفات البيوت، أولفيلد التي لا تملك مالاً ولا أهلاً، إنّما أولفيلد أولفشيم! والحمدُ كلّ الحمد للربّ أنكما لن تلتقيا بعد اليوم أبداً!"

وانتهزت روزا ذلك الصمتَ الذي خيّم فجأة لتجرّ الفتاةَ معها، دون استئذانٍ، وتعبُر بها أبواب مساكن الأمّ ريكيسا، وتقطَع الرواق وتخرج من الدير من بابه الواسع.

وما كادتا تصلان إلى هذا المكان حتّى توقّفتا تحت تمثال آدم وحوّاء المطرودين من الجنّة، لكي تستعيدا قليلاً أنفاسَهما وكأنهما قطعتا ركضاً شوطاً طويلاً.

Twitter: @ketab_n

"لقد حذّرتك كثيراً، وأكدّتُ لك أنّ الحيّة قد تنقلب وديعةً مثل الحمل، قالت روزا أخيراً.

ـ لم أجد بدًا من أن أشفق عليها كثيراً، قالت أولفيلد شاهقةً زافرة.

ـ إنّها جديرة بالشفقة بالفعل، لكنّ حاجتَها للشفقة لا تُبرّئ شرَّها. فما الذي قُلتِه لها؟ ظنّي أنّك لم تقولي لها أن...؟ سألت روزا بصوت ناعم ينُمُّ عن قلق.

ـ لقد جعلتني أبكي على شقائها، ولذلك منحتها عفوي وصفحي، قالت أولفيلد لاهثة.

ـ وبعد ذلك التمستِ لنفسك عذراً لأن تبوحي لها بكلّ شيء.

ـ أجل لقد أرادت أن تسمع اعترافي بخطاياي، لكنكِ جئتِ وكأن السيدة العذراء أرسلتك رحمة بي. سامحيني يا صديقتي العزيزة، أجابت أولفيلد وهي تُنكس عينيها خجلاً واستحياءً.

ـ ظنّي أنّك على حقّ، وانّ السيدة العذراء أشفقتْ علينا فأرسلتني إليك في الوقت المناسب. فلو قلتِ الحقيقة عن الأخت الراهبة ليونور لَحُرِمَتِ إلى الأبد من المعطف الذي ترتدينه الآن. فلنتضرّع للسيدة العذراء، ونشكر فضلها!"

جثتا أمام المدخل المسقوف الذي احتازته أولفيلد لآخر مرّة. فلم تكد تألف وضعَها الجديد ذاك حتّى همّت بالسؤال كأنّها بدأت تشعر لتوّها بقيمة ذلك المعطف الثمين الذي ألقتْه صديقتُها روزا على كتفيها. وقد توسّلتا طويلاً بِهِمَّةٍ وحرارة إلى مريم العذراء أن تغفر ذنوبهما التي كادت تتسبّب في هلاكهما وتجرّ الملكة إلى هاويتهما. وقد ظلّتا على مدى الأيام على يقينٍ بأنّ العذراء قد أنقذتهما بأعجوبة في آخر لحظة. لقد سحرت الأمّ ريكيسا أولفيلد واستلبت فؤادها وكادت تأخذها بتلابيبها.

وبعد أن أفاقتا من جلستِهما ووقعت كلّ منهما في أحضان صديقتها تمالكت أولفيلد نفسَها وداعبت قماش المعطف الأحمر الناعم وأخذت تستطلع بالعين الأمرَ من صديقتها.

Twitter: @ketab_n

أَفْهَمَتْها روزا أن الوقت قد حان لأن تمضي أولفيلد إلى حال سبيلها، وأنّ ذلك المعطف هديّةٌ من اليارل أو من الملكة، وأنّ ذلك ليس نصيبها الوحيد في الحياة لأنها بعد ذلك اليوم هي صاحبة أولفشيم الوحيدة.

وفيما كانتا تقطعان في صمتٍ مهيب آخر الأمتار ما بين بوابة غودبم والمضافة حيث ينتظرهما أولياءُ النعمة سعت أولفيلد جاهدةً لفهم ذلك الذي يحدث لها. فقبل لحظاتٍ فقط لم تكن تمتلك تلك الملابس التي تحملها الآن فوق ظهرها. أمّا الملابس التي قدِمت بها إلى غودبم فهي الآن ملابسُ طفلةٍ صغيرة، ولم تعد تسعُها منذ فترة طويلة، ومَنْ يدري فلعلّها أُتْلِفَتْ أو بيعت منذ أن استغنت عن ارتدائها. ولذلك لم تجد أولفيلد في نفسها حاجةً لأنْ تسعى لأيّ شيء من أشيائها قبل أن تغادر الدير.

أطلّت روزا وأولفيلد بسيماءٍ شاحبةٍ باهتة لم تكن تخطر على بال مُحسنيهما وولجتا قاعة الأكل في المضافة، فيما كانت مُدوّراتُ سفود الشواء وسُقاةُ المشروب في انتظارهما. وما لبث اليارل الذي وثب على رجليه وانحنى انحناءةً مطّردة لم تخلُ من خبثٍ لاستقبال سيدة أولفشيم الجديدة بعد أن أدرك أن كلّ شيء من حوله لا يدور كما أراد له أن يدور.

بدأت الوليمةُ غريبةً أيّما غرابة لأنّ روزا وأولفيلد بادرتا بسرد آخر ما قامت به الأمّ ريكيسا من سعي معتوهٍ حتى تُحبط مشاريعهما. وهكذا استمع اليارل لأوّل مرّة إلى قصّة المتآمرات الثلاث اللائي ساعدن الراهب والراهبة على الفرار. وقد شرد واحتار في البداية، وفهم رغم قلّة إلْمامِه بقواعد الكنيسة السارية أنّ خلاصَهما كان معلّقاً بشَعْرة. لكنه ما لبث أنْ وضّح أنّ الخطَر قد ولّى، لأن من يتأمَّلُ الأمر مليّاً في مثل هذه الحالة سوف يدرك أن لا أحد في البلاد يعرف حقيقة هذا الأمر سوى همُ الأربعة. فلا شكّ أنّ الملكة وروزا ستكتمان السرَّ، ومثلهما لن تفشي أولفيلد السرَّ خاصة إذا صاهرتْ عائلة فولكونغر عن طريق الزّواج. وفي الحال رمت السيسيليتان اليارل بنظراتٍ عابسة فلم يجد بدّاً من أن يمضي في الحديث مصحّحاً: "وعلى الخصوص إن اضطرّت لأن ترعى سلامة وسعادة أصدقائها". ثمّ قال مُغالياً

Twitter: @ketab_n

في الابتسام إنّه لا يفكّر في أن يُعْمِل الحديدَ والنار في البلاد بسبب راهبٍ تخلّى عن رهبانيته. لأنّ ذلك، أضاف وهو يدرك أكثر فأكثر المآربُ الذي سعت إليه الأمّ ريكيسا. فهي لم تحمل فقط همَّ الانتقام من الفتاتين اللتين لم يُسعفهما حظّ إرضائها، إذْ مَنْ ينسى أنّها هي التي كادت تنجح في إقصاء آرن ماغنوسون، ولَكَمْ كان ذلك قاسياً على نفس كنوت أريكسون الذي لم يكن في تلك الفترة مَلِكاً يُبايعه الجميع. فلو هُيِّئَ لرئيسة الدير كما تمنّتْ أن تُقصي الملكة لتواطئها في هروب الراهب والراهبة – ألم تساعد على ذلك الهروب بدفع ثمنه- لَما وسع الأطفالَ الذين أنجبتهم بلانكا من كنوت أن يرثوا العرش، ولما تأخرت رَحَى الحرب في الدّوران مرّة أخرى. فذاك ما رتّبته ريكيسا. ولو كُتب لها النجاحُ لاغتبطت به أيّما اغتباطٍ على مدى ما بقي من عمرها من الأيّام التي تفصلها عن الجحيم الذي سوف تبلغه ذات يومٍ حتماً وكَرهاً.

فمنٍ حقّهم إذاً أن يحتفلوا، أضاف اليارل وهو يشرب على صحّة الفتيات الثلاث، بعد أن راق مزاجُه.

بدأ الحفلُ الصغير يزدادُ غبطةً شيئاً فشيئاً، وقد أخذت الفتياتُ في الأكل والشراب وهنَّ يتمازحن حول حِمية روزا وأولفيلد الزهيدة التي منحتها صحّة جيّدة، وقدّاً ممشوقاً، فيما حمية الثراء والحرية لا تنفع من كان يطمع في أن يُعمَّر طويلاً. لقد أكثرن من أكل لحم العجل وحاولن شرب الخمر لكنهنّ آثرن الجعة التي كانت تتدفّق من حولهنّ غزيرةً وفيرة. لكنّ السيسيليتين وأولفيلد ما لبثن أن توقّفن عن الأكل والشراب قبل بيرجر بروزا الذي عُرف كما عُرف الكثير من الفولكونغر بشهيّتهِ القويّة. ألم يكن جدُّه من ناحية الأب، فولكْ المنتفخ، اليارلَ ذا البأس والنفوذ؟

لكنّه ما لبث أن توقّف عن التهام ذلك اللحم بأسرع ممّا لو كان بمعيّة رفقةٍ من الذكور. فقد أبت عليه نفسُه في النهاية أن ينصرف للأكل بمفردِه فيما أخذت رفيقاتُه ينظرن إليه بعيون متلهّفة. فالحديثُ في الحقيقة لم يبلغ بينهم قُصارى المتعة إلاّ في نهاية الطعام، أو بالأحرى عندما استفاضوا شرباً وانتشاءً. لكنّ بيرجر بروزا

Twitter: @ketab_n

لم يشأ أن يُمعن في ذلك الحديث ومتعتهِ لكي ينصرف إلى شؤون أخرى كانت في انتظاره في ذلك المساء.

وعندما لاحظ أنّ السيسيليتين تتبادلان حديث الإشارات وتتضاحكان عليه أبْعَدَ صَحْنَهُ وصبَّ لنفسه قدحاً من الجعة وسرّب خنجره من تحت حزامه ووضع إحدى رجليه من تحته واتخذ وضعَه المفضّل بوضْع قدح الجعّة متوازناً فوق ركبتيه. ثمّ قال في حزم إنّه سيخبرهنّ أموراً قد تلقى عندهنّ بالا، ثمّ احتسى كوباً ملآناً. وبعد هنيهة خبتْ القهقهاتُ والضجيجُ وأولته الفتياتُ آذانهنّ الصاغية.

وبدأ الحديثَ قائلاً كم هو مؤسفٌ أن يستحوذ السفيركر على معظم الأديرة في البلاد، وعلى كلّ مدارس الترّهبِ حتى هذه اللحظة. فتلك حالٌ لا يمكن أن تستمرّ إلى ما لا نهاية. فهي تزرع الشقاق وتهدّد بجلب متاعب جسيمة، كالمتاعب التي ذاقت فيها السيسيليتان وأولفيلد الأمرّين. فلذلك تحمّل نفقاتِ بناء ديرٍ جديد لن يتأخّر افتتاحُه كثيراً. اسمُه ريزبيرجا، وهو يقع في نوردنسكوغ، الغابة الكائنة في شمال شرق أرناس، أيّ في أعماق سفيلاند. لكنْ، لتطمئنّ النفوسُ، فليس في الأمر هوْلٌ، أضاف بيرجر بروزا عندما رأى مُصغِياته يُكشّرن ويُقطّبن. ستغدو البلاد مملكةً واحدة تحت سلطة الملك كنوتْ، يسعى الناسُ فيها للمتاجرة والزواج بعضهم ببعض، ويتردّدون على نفس الأديرة إن وجدوا لذلك سبيلاً. فذاك خيرٌ لهم من أن تستهويهم الحربُ.. الحربُ التي دامت طويلاً ولا تغيبُ عن بال أحدٍ ويلاتُها ومآسيها.

بات تكريسُ دير ريزبيرجا وافتتاحُه وشيكاً. لكنْ مازال يعوزُه أمران اثنان، أوّلهما رئيسةٌ للدير من عائلة الإيريك أو الفولكونغر! فالبحثُ جارٍ في كلّ مكان ما بين راهبات البلاد عن أكثرهنّ أهلاً لهذا المقام. وإن تعذّر الأمرُ جيءَ بإحدى الراهبات المبتدئات. لكنْ يُفضّل أن تكون أختاً راهبةً نذرتْ نفسها للرهبانية، وعلى دراية بحياة الدير. لكنّ الدير يحتاج أيضاً إلى وكيل للدخل والخرج يُعتدُّ به ولا يُخامرُ أحداً شكٌّ في خبرتِه وانضباطه. لقد تناهَى لبيرجر بروزا من كلّ مكانٍ تقريباً أنّ إدارةَ الشؤون في غوديم أفضلُ ممّا تُدارُ به أديرةُ البلاد جميعاً، وأنّ الشخص الذي يُدانُ له

Twitter: @ketab_n

بحسنِ الإدارة فيها ليس رجلاً – وإنْ بدا تصديقُ ذلك صعباً عصيّاً-.

عند هذا الحدّ قاطعته السيسيليتان في سخطٍ جمّ، وقالت إحداهنّ إنّها من سرّبت تلك المعلومة إلى يارلها منذ وقتٍ طويل، وقالت الثانية إنّ وكيل الدخل والخرج السابق في غودِم كان رجلاً بالتأكيد لكنّه كان معتوهاً، وتظاهر بيرجر بروزا بالخوف والاختفاء وراء قدح الجعة قبل أن يشرح في فرح منفتح أنّه كان على علم بذلك الأمر وأنّ الذي قاله محضُ تفكّه وممازحة، ثمّ ترضّى من جديد وأعلن أمنيته في أن تقبل سيسيليا روزا منصب يوكونوموس yoconmus في ديره "ريزبيرغا".

لا، بل يوكونوما yoconma صحّحت روزا وهي تتظاهر بالامتعاض من إساءة بيرجر بروزا إليها. وأضاف بيرجر بروزا بمزيد من الجدّ أنّه مجبرٌ على الانتظار قليلاً قبل أن يُخْرِجَ روزا من غودِم ويصطحبها إلى ريزبيرجا. عليه أن ينتظر حتّى يضع المطرانُ ختمَه على بعض الرسائل. وثمّة معاملاتٌ أخرى سوف تُوجب تأخيراً لا حيلة له فيه. وفي غضون ذلك ستبقى روزا وحيدة مع ريكيسا في غودِم، لا ترافقها شاهِدة أو صديقة، ولَكَمْ يشغله أمرُها هذا حين يفكّر فيه!

وعن طيب خاطرٍ أقرّت روزا بما يخشاه من تلك الشريرة عليها. فلو علمتْ ريكيسا أنّها ستنصرف قريباً إلى شؤون الدير بمفردها فسوف لن يُثنِيَها أيُّ شيء عن فعْل أيّ شيءٍ تسيءُ به إليها. فهي لا تشكّ في ما يُحاكُ ضدّها، ولكنّ رغبتَها في أن يستمرّ الدير في العمل دون أن يُعيقَ سيرَه عائقٌ أقوى عندها بالتأكيد من أيّ داعٍ يُغريها لأن تعود مرّة أخرى إلى المسح والبوح ودموع الرياء. حسبُها في ذلك ما خبِرته قبل حين من إخفاق تلو الإخفاق. فلعلّها في هذا الوقت بالذّات في سريرها بعد أن تجرّدت من مَسْحِهَا وبدأت تُصِرُّ على أسنانها صرّاً، حِقداً وضغينة.

كانت أولفيلد على يقينٍ لا تُساورها فيه ذرّةٌ من شكٍّ أنّ الأمَّ ريكيسا كثيراً ما تلجأ إلى السحر، وأنّها قادرةٌ على أن تحرِم أيّاً كان من أنْ يملك نفسَه، فتجعله يقرّ لها بأيّ شيء وكأنها إرادةُ الربّ وليس إرادة الشيطان. فلا أحد يستطيع أنْ يَأْمَنَهَا من تلك الشرور، وقد لمستْ ذلك بنفسها فكانت إذا راودتْ نفسُها شيئاً راودتها

Twitter: @ketab_n

عنه ريكيسا فتكادُ تعرضُ عنه حتى صارت على قيد أنملة من الوقوع في أحابيل رئيسة الدير الماكرة.

وقاطعتها بلانكا لتقول لها إنّ تلافي ذلك الشرّ ليس أمراً مستعصياً. فحسبُ روزا أن تتأنّى بعض الوقت قبل أن تقابل الأمّ ريكيسا، وأن تتظاهر بأنها قد عفَت عنها، وتصلّي معها، وتحمد الربّ الذي غفر لرئيسة الدير "المبجّلة" عن خَطَاياها.

لكنّ ذلك إفكٌ أمام الربّ لا ريب فيه. فهو ذاك الشيءُ بالتأكيد، لكنّ الربّ منزّهٌ عن الحمق ولن يغيب عن جلاله مأربُ ذلك الإفك وضروراته. فحسبُ روزا أن تتوب عن ذلك الإفك بمزيد من الهمّة عندما تنفرد بذاتها أمام جلاله في ريزبيرجا.

بعد ذلك أردفت بلانكا قائلة: على بيرجر بروزا أن يُخفي مقاصده من مهمّة وكيل الدخل والخرج في ريزبيرجا، أو أن يُسرّب عند اللزوم اسمَ شخص آخر. فلا حرج على مَنْ يصارع الشيطان أن يستعمل كافة الوسائل المتاحة.

ومَنْ يدري، فقد يأتي يومٌ يأتي فيه مَن يطلبُ روزا دون سابق إنذار. وساعتها ستعبُر البوّابة دون عناء، تماماً كما فعلتْ هي نفسها وأولفيلد دون استئذان. وعندئذٍ لن تجد الساحرةُ سوى مُقلتيها لكي تذرف الدّمع.

ووافق الجميعُ على آراء بلانكا. فهكذا يجب أن تسير الأمورُ، وتلك بالتأكيد إرادة الربّ التي لا ريب فيها. وإلاّ لَمَ أصرَّ جلالهُ على معاقبة روزا، ولَمَ أسعف الأمّ ريكيسا في أن تُبيِّتَ مقاصدَها الشرّيرة؟ لا، ليس الربُّ هو من صانها، قالت روزا، في تأمّلٍ بعد أن شغل الأمْر بالَها، بل إنّه شخصٌ آخر لا محالة. فهي مع ذلك تصلّي للسيدة العذراء كلَّ ليلة لكي تصونها. ألم تَصُنْها هي نفسها وحبيبها آرن طوال هذه السنين كلّها؟ كلا، لم تفعلْ ذلك هزلاً واستخفافاً.

* * *

غادرت الآنسة أولفيلد إيموندسدوتر غودم لكي تحيَى حياةً جديدة قبل عيد سانت أولوف بقليل، أي في الفترة التي نفدت فيها المؤونةُ ولم تكن محاصيل العام الجاري قد دخلت إلى الدير. لقد كانت مخازن وأهراءُ الغلال فارغةً، لكنّ أعمالَ

Twitter: @ketab_n

الحصاد كانت قائمةً على قدَم وساق.

انطلقت فوق ظهْر الجوادِ على رأس موكبٍ إلى جانب الملكة ومن خلْف اليارل والفرسان الذين فتحوا مسار الموكب براياتٍ مزيّنة بأسد الفولكونغر والتيجان الثلاثة. وقد خَفَر حرسٌ قوامُه أكثر من ثلاثين فارساً معظمهم بالزيّ الأزرق، الملكةَ وأولفيلد التي لم تنفردْ بلباس المعطف الأحمر.

ففي كلّ مكان على طريق سكارا توقّف العملُ في الحقول والمروج. لقد هرع الرجال والنساء وخرّوا راكعين متضرّعين إلى الربّ أن يحفظ اليارل والملكة بلانكا ويصون السلام.

لم تَخْبَرْ أولفيلد ركوبَ الخيل منذ طفولتها، وعبثاً قيل لها أنْ لا عُسْرَ على أحدٍ في ركوب الخيل، فتلك إرادةُ الربّ في أن يُسخِّر ابنُ آدم البهائمَ في قضاء حوائجه، لكنّها سرعان ما أحسّت أن ركوب الخيل ليس أمتعَ وسائل التنقّل لمن لا عهد له بركوبها.

فما انفكّت تعمد لحركات التلوّي والاعوجاج حتّى تُغيّر جلستها كي لا يسري الدمُ في إحدى رجليها دون الأخرى، وحتى لا تتهيّج أو تلتهب ركبتُها من فرط احتكاكها بالبردعة. ففي شبابها كانت تركب الخيل مثل الأطفال، أي منفرجة السّاقين، أمّا الآن فقد صارت هي وبلانكا تسيران على صهوة الجواد كما تسير السيّداتُ من أهل الوجاهة اللائي يركبن السروجَ مثل الرجال. لكنّ ركوبهما الخيل على هذا النحو زادهما عناءً وإيلاماً في آن.

لكن قلّما كان هذا الضيقُ عسيراً عليهما إلى جانب دواعي السرور والغبطة. كان الهواءُ نديًّا سائغ النَّشقِ، وكانت أولفيلد تُسَرُّ أيّما سرور وهي تملأ رئتيها بالهواء وتحبس أنفاسها كأنّها ترفض الإقلاعَ عن طَعْم الحريّة.

شقَّ الموكبُ طريقه بين الحقول وغابات السنديان، وسار بمحاذاة العديد من الأنهار المتلألئة قبل أن يتسلّق قمةَ بلينجين حيث صارت الغابةُ أكثرَ كثافةً ووُزّع الحرسُ توزيعاً مختلفاً فصار نصفُ الرجال يسيرون على سروجهم أمام اليارل والملكة، وصار النصف الآخر يسيرُ من خلفهما. لكنْ لا شيء يثير الخوف أو يبعثُ

Twitter: @ketab_n

الرعب، قالت بلانكا لأولفيلد. لا شكّ أن السِّلم يُخيِّم على البلاد منذ وقت طويل، لكنْ لا عذر لمن لا يتوخّى الحيطة ويستعدّ لأن يستلّ السيفَ إن طرأ طارئ!

كانت الغابةُ وادعةً في عيني أولفيلد، قوامُها أشجارُ السنديان والزّان الباسقة. وكانت أشعّة النور تخترق القمم وتراقِص ألوانها. وقد لمح الموكبُ من بعيد بعض الأيل وهي تبتعد في حذرٍ عن طريقه.

لم يخطر على بالِ أولفيلد أنّ العالم على ذلك القدر الرائع من الجمال والحفاوة والدعة. فهي الآن في الثانية والعشرين، امرأة ناضجة يانعة، لو هُيّئ لها الزواجُ لكانت اليوم أمّاً منذ زمن طويل. لكنها لم تفكّر في الأمر قط، ظنّاً منها أنها ستنفق العمر كلّه بين أسوار الدير.

لقد شعرت في قرارة نفسها أنّ السعادة التي تغمرها الآن لن تدوم، وأنّ الحرية سوف تكشف لها عن جوانب أخرى يجب أنْ تجدَّ في تعلُّمها. ومع ذلك فهي تدير ظهرها لغودِمٍ إلى ما لا نهاية. وبذلك فهي تُبعد عن نفسِها كلّ الأفكار التي لا تثير في قلبها إلاّ حزناً. فحتّى الغبطة التي ظفرت بها تبدو وكأنها لا تملأ سوى حيّزٍ ضيّق في صدرها، ولَكَمْ يؤلمها صدرُها كلّما أمعنت في التنفّس وأغرقت فيه. وقد استأثر بها خاطرُ الانتشاء بالحرية، والإحساسُ بأن لا شيء أهمُّ من هذا الانتشاء في هذه اللحظة بالذات.

توقّف الموكبُ ليلا في سكارا وقضَى الجميع ليلهم في حصن الملك. وانصرف اليارل لشؤونه الكثيرة مع الرجال الذين كانوا ينتظرونه بوجوهٍ عابسة شاحبة. وأصدرت الملكةُ لسيدات الساحة الأمر بأن يُحضرن ملابس جديدة لأولفيلد فأسدين إليها خيراً جمّاً، وأخذنها إلى الحمّام وسرّحن ومشّطن شَعْرَها ثمّ ألبسنها فستاناً انْتَقَيْنَه من بين أكثر الفساتين الخضراء المرصّعة بالأحزمة الفضّية أناقةً وجمالاً.

على أرضية الغرفة التي عمّها حُسْنُ الالتفات والعناية بالفتاة تبعثرت كومةٌ من الملابس الصوفية الشاحبة التي أحسّت أولفيلد أنّها لم تلبس يوماً غيرَها. وقد أمسكت بتلك الكومة إحدى السيّدات، وحملتها مثل رباط كِلابٍ بالية للتخلّص منها حَرْقاً.

Twitter: @ketab_n

لقد ترسّخت تلك الصورةُ في أعماق ذاكرة أولفيلد. فقد رأت للتوّ ثيابَ الرهبانية التي حملتها في الدير طويلاً، محمولةً على ذِراعَي تلك السيدة مثل شيء وَسِخ نتن لا يصلح للبيع ولا هو جدير لأن يُعْطَى لفقير أو متسوّل. فالآن فقط أدركَت أنَّ الذي هي فيه ليس حُلماً، وأنّها حقا تلك التي تراها في المرآة التي مدّتها إليها إحدى سيّداتُ القصر وهي تنفجر ضاحكة، فيما وضعتْ سيدةٌ أخرى فوق كتفِها معطفاً أحمر اللون وجوخاً مُنسّق الثّنيات.

إنّ ما تراه في المرآة ليس شخصاً آخر غير شخصها، ما دامت الصورةُ تُحاكي حركاتها حين ترفعُ ذراعًا أو تُحْكِمُ مشبكاً في شعرِها، أو تلمسُ قماشَ المعطفِ الناعمَ بحمرته النضرة الدافئة. ومع ذلك فإنّ التي تراها في المرآة ليست هي ذاتها لأنّ روحَها طُبِعَت مثل روح روزا بطابع بساطة الرهبانية. وفجأة إذا بأولفيلد ترى صديقتها أمامها بذات الدقّة التي ترى بها ذاتَها في تلك المرآة.

لأوّل مرّة مرّت سحابةٌ قاتمة في سماء الحريّة التي تسعَدُ بها الآن أيّما سعادة. فليس من البَرِّ أن يغمرها هذا السيلُ من المتعة وبهذا القدر من الأثرة وروزا وحيدة مع ساحرة غوديم التي لا حظّ لها فيها سوى الصبر على سنوات الأَسْر الطويلة التي ستنفقها قسراً في ذلك الدير.

وعند العشاء كانت أولفيلد تشعر تارةً بالسعادة فتطفح ضَحِكاً وقهقهةً رغم قلّة معرفتها وتواضعها، وحركات البهلوانيين، وممازحات الرجال الثقيلة الفظّة، وبالحزن تارةً أخرى حين تفكّر في صديقتها الغالية فلا تجدُ الملكةُ بُداً من أن تواسيها مرّة تلو المرّة. وما لبثت أولفيلد أن تأثّرت أيّما تأثرٍ عندما أخبرتها بلانكا أنّ ما تبقّى من مشقّة الرحلة قد أوشك على النهاية. لقد كنّ فيما مضى ثلاث صديقات يافعات كُتِب عليهنّ، أو هكذا ظَنَنَّ طويلاً، البقاءُ في غوديم إلى ما لا نهاية، لكنهنّ واجهن الحياة فيها معاً، ولم يُخْلِلنَ بصداقتهنّ، وأبدين دوماً صبراً وجَلَداً.

فالآن صارت اثنتان منهنّ طليقتين، فخليقٌ بهما إذن أن تبتهجا بالحريّة. فذلك خيرٌ لهما من أن تبكيا شقاءَ الثالثة. فذات يوم صارَ اليومَ أكثَرَ من بعيدٍ كانت روزا حرّة مثلهما تماماً. فالصداقة التي تُكنّانها لصديقتهما التي ما زالت في الأسرِ

Twitter: @ketab_n

لن يتقلّصَ ظلُّها عليهما بتاتاً! ومَنْ يدري فلعلّ في الوسع أن يُكتَب لهنّ العيشُ في حريّةٍ يبتهجن بها هنّ الثلاث نصف العمر معاً!

لم يطبْ لبلانكا أن تخفّف من كدَر أولفيلد بالتذرّع بجمالها. فهي عاقلةٌ وتدرك أنّ روحَ فتاة غادرت الدير قبل حين لن تلقي لتلك الذريعة بالاً، وفوق ذلك فلن تجد في الحُسن والجمال عزاءَها.

فالوقت يلحُّ على أولفيلد في كّل آن بأنْ تنتبه إلى حالِها وتدرك أنّها لم تعد الآنسة الأسيرة في أحد الأديرة، حيث ما من أحد يحمل همّها، وإنّما صارت أكثر منْ يثير اشتهاءَ الرجال من بين نساء البلاد جميعاً. فهي جميلةٌ وغنيّة وصديقةُ الملكة. وأولفشيم ليست مِلْكاً بخساً، وقريباً ستصبح السيدةَ الوحيدة فيه وليس على كاهلها أبٌ غليظٌ أو أهلٌ مُماحِكون يُجبرونها على الزواج بهذا أو ذاك من الرجال الذين بلغوا من العمر عتيّاً. فاليوم صارت أولفيلد حرّة طليقة، أكثر ممّا وسعه خيالُها.

وواصلوا في اليوم التالي رحالهم إلى أن أدركوا حوافَّ بحيرة فاتيرن حيث تنتظرهم سفينة باسمها الغريب "الأفعى القصيرة" وعلى ظهرها رجالٌ غِلاظٌ بشعورهم الشقراء ولَكْنتِهِمْ التي تُفصح عن أصولهم النرويجية الأصلية. كان الرجالُ من الحرس المُلازم للملك، لأنّ العُرفَ شاء أن لا يرافقه سوى رجال من هذه البلاد من بين من يرعون سلامته ويسهرون على حياته في قصره المنيع في ناس. كان بعضهم أصدقاءَ للملك منذ عهد منفاه الطويل في أيّام الطفولة، فيما كان البعض الآخر قادمين منذ عهد قريبٍ عندما تهيّأ لآباء الإيريك والفولكونغر من الأسباب العديدة ما جعلهم يفرّون من مواطنهم النرويجية التي فتك بها الشقاقُ والنقار من أجل كرسيّ العرش، مثلما فتك الشقاقُ والنقار بفاسترا غوتالاند وأوسترا غوتالاند لأكثر من مئة عام متواصلة.

كان الجوّ شديد الحرّ على غير عادته، لا تتخلّله هبّةُ ريح واحدة في مساء تلك الصائفة عندما وصل موكبُ الملكة واليارل إلى أرصفة موانئ فاتيرن الملكية. واستأذنَ الجميعُ في الذهاب من طبقةِ الفرسان التي كانت تتهيّأ للعودة إلى سكارا، وصعدوا إلى ظهر السفينة الصغيرة السوداء التي ستعبرُ بهم ذلك الامتداد الشاسع من المياه الهادئة نحو قصْر ناس الذي لم يَلُحْ للأبصار من موقعه النائي.

Twitter: @ketab_n

جلس اليارل وحيداً في مقدمة السفينة وقال رغبتُ في أن أفكّر في أمرٍ أو أمرين فدعوني وشأني. واتجهتْ الملكةُ وأولفيلد نحو مؤخرة السفينة وجلستا بالقرب من رجُل الدفّة فلاَحَ لهما أنّ الرجلَ قائدٌ نرويجيّ.

انتفض قلبُ أولفيلد وارتفعت خفقانُه عندما غادرت السفينة الأرض وألقَى النرويجيّون الأشدّاءُ بمجاديفهم في الأمواج الزرقاء. فهي لا تذكر أنّها ركبت البحرَ يوماً حتى وهي طفلة، لكنْ لعلّها لا تدري أنّها قد ركبته ذات مرّة، لقد أخذت في غبطةٍ تُجيلُ الطرف في الدوّامات التي ترسمها المجاديفُ عبر الأمواج القاتمة، وتستنشقُ رائحةَ القطران والجلد وعَرَق الفحولة. وعلى الضفّة الأخرى التي غادروها قبل قليل كان أحدُ العنادل يُغنيّ فَيُسْمَعُ غناءُه من بعيد في عرض البحر. كانت المجاديفُ تُصِرُّ صَريراً عند احتكاكها بأقطاب المجاديف، وكان الماءُ يحفُّ حفيفاً عند مقدّمة السفينة عند كلّ ضربةٍ يَقْرَعُ بها النرويجيون الثمانية الماءَ دون أن يظهر عليهم أنَّ الجهد قد أخذ منهم كلّ مأخذ.

انتاب أولفيلد بعضُ الخوف، فإذا بها تمسك بيد بلانكا لأنها لم تكد تجدْ نفسَها في عرض البحر حتى شعرت كأنها جالسةٌ في قلب قشرة جوزةٍ تطفو فوق هوّة سحيقة سوداء. وفي وجلٍ سألت بلانكا إن لم يكن ذلك البحرُ الشاسع يخبّئُ لهم خطراً من الأخطار فيتيهون فيه ولا يفهمون إلى أين يُساقون. ولم يَسَعْ بلانكا أن تجيبها لأنّ مُوجّه الدّفة الواقفَ وراءهما سمع سؤالَها فأخذ يردّده بصوتٍ عالٍ على رجاله الثمانية الذين أخذوا يتضاحكون في صخبٍ إلى أن سقط اثنان منهم على ظهريهما. ولم ينقشعْ عنهم ذلك الضحكُ الصاخب إلاّ بعد حين.

"نحن النرويجيّون"، قال رجلُ الدّفة موضّحاً لأولفيلد، "لا نخشى بحراً صغيراً مثل فاتيرن، ودعيني أؤكد لك شيئاً يا آنستي: لا يمكن أن نتوه في بِرِكةٍ مثل هذه. فليس خليقاً بنا أن نَضِلَّ في بركة!"

وعند الغسق تلطّف الجوُّ قليلاً فشعرت الفتاتان بالرطوبة وكبستا معطفيهما من

Twitter: @ketab_n

حولهما، ثمّ إذا بقصر ناسْ يلوح إليهما في الأفق عند الطرف الجنوبي من جزيرة فيسينغو. ففي ذلك المكان انتصبت الضفّةُ في انحدار شديد وامتدّ نطاقُها إلى العُلا بواسطة بُرجَيْ الحصن المنيع والجدار الذي يربط بينهما.

وعلى قمّة أحد البُرجَيْن خَفقَت في رخاوةٍ رايةٌ كبيرة ينبعث منها شيءٌ أقربُ إلى لون الذهب، فهمهمت أولفيلد قائلة: إنّها التيجانُ الثلاثة. وفزعت أولفيلد وذُعرت أمام شبح ذلك الحصن المهيب، وارتعدتْ وجفلت حين حدّثَتْها نفسُها أنّها بعد قليل ستلتقِي وجهاً لوجه بالملك كنوتْ قاتِل والدِها. فحتّى هذه اللحظة لم تفكّر في ذلك اللقاء وكأنّها رغبت في أن تستمسك لأطول وقت ممكن بمزايا الحريّة، وألاّ يُشغل بالَها شاغلٌ آخرُ سواها، فهي الآن تُؤْثِرُ لو أنّ القدَر لم يَقُدْها إلى مقابلة ذلك الملك، لكنّها أدركت الآن أنّ الوقت قد فات، وأنّ مقدّمة السفينة قد التحمت بالبرّ في هدير جمٍّ، وأنّ كلّ واحد يستعدّ للنزول منها.

شدّت بلانكا على يدَ أولفيلد بقوة كأنّها قرأتْ أفكارها، ثمّ همست في أذنها: تأكدي أنّ اللقاء مع الملك سيمرُّ على خيرٍ فلا تصرفي همّكِ للأمر كثيراً.

جاء الملكُ بشخصه إلى حافة الماء ليستقبل ملكتَهُ ويارلَها ومعهما تلك الوارثة الشابة التي بدا كأنّه قد تذكّرها في تلك اللحظة ذاتها.

وبعد أنّ حيَّا يارلَهُ وملكتَه بما يليق بهما من أدب وحفاوةٍ التفتَ إلى أولفيلد ونظر إليها مُمعناً متأمّلاً، فيما أطرقت الفتاةُ رأسَها خوفاً وفزعاً، وبدا أنّ ما رآه قد أعجبه فاندهش الجميعُ لذاك الإعجاب إلاّ عقيلته، وخطا خطوةً نحو أولفيلد وأمسك ذقنَها ورفع رأسَها وتفرّس في وجهها بعينٍ لا تحملُ ذرّة من ضغينة. ورأى الجميعُ أنّ الملك قد سُرَّ بالمشهد أيّما سرور.

ولَقِيَتْ كلماتُ الترحيب التي ألقاها لأولفيلد كلّ الدّهَش من بيرجر بروزا ذاته.

"لكم يسرُّنا أن نرحّب بكِ في قصرنا، أيْ أولفيلد أيموندسدوتر. إنّ ما حدث في الماضي بيننا وبين والِدك دفنّاه ولا مكان له اليوم بيننا. كان ذلك أيّامَ الحرب واليوم صرنا ننعم بالسلام. ثقي أنّنا نُحيّي فيك بكثير من الغبطة سيّدةَ أولفشيم، فلا تخشَيْ سوءاً بيننا ما دمتِ ضيفة علينا".

Twitter: @ketab_n

أطال النظرَ قليلاً في أولفيلد، ثمّ مدّ ذراعه إليها فجأةً وأعطى لملكتِه ذراعَه الثانية. وهكذا سار إلى أن بلغ القصر ما بين امرأتين.

* * *

لم تمكث أولفيلد طويلاً في ناس لكنّها أحسّت أن الوقت يمضي ببطءٍ شديد لكثرة الأشياء التي لم تجد بُدّاً من تعلّمها، ولم يكن لها من قبلُ علْمٌ بها قط. فالأكلُ في غوديم لا يقتصر على تناولِ الطعام وحده بل يحتملُ من القواعد قدْر ما يحتمله في غوديم تقريباً، وإنْ كانت هذه القواعد هنا عكس ما هي هناك، تحكُمُها التحياتُ والثرثرة والقيل والقال. ففي الدير تعلّمت أولفيلد أنْ لا تفتح فمها إذا لم يُوجّه إليها أحدٌ الحديث أوّلاً، وأنْ تبادر بتحيّة الآخرين دائماً. أمّا في ناس فقد صارَ الأمرُ معكوساً، إلاّ مع الملك والملكة واليارل. لكنّ هذه الأشياء الصغيرة أضافت إلى إرباك أولفيلد إرباكاً وإلى حَرَجِها إحراجاً رغم بساطتها. ففي الأيام الأولى أثارت أولفيلد اندهاشَ الجميع وهي تُحيّي ساسة الخيل ومُدوِّرات سفافيد الشفاء ومُرافقات الملكة قبل أن تتلقّى التحيّات منهم أولاً. فالحال أنّها وجدت في البداية على الخصوص عناءً جمّاً في مبادرة الآخرين بالحديث لأنّ الذي مازال يسري في دمِها هو الانتظارُ في إطراقٍ إلى أن يأتي مَن يُكلّمُها.

فالحرّية لا تسكن الهواءَ ولا الماء إنّما الحريةُ شأنٌ يجدُر بنا أن نُحسن تدبيره.

في هذه الأثناء كثيراً ما كانت بلانكا تستسلم عن طيب خاطر للتفكير في ذلك السنونو الذي عثرت عليه في ساحة مزرعة أبويها وهي طفلة. لقد أخذته في باطن يديها لكي تمنحه قليلاً من الدفء في هدوء. ثمّ وضعته في علبة صنعتها من قشرة شجر السّند وهيّأت في داخلها فرشاً من الصوف، وأمضت ليلتين مع هذا الطائر الصغير إلى جانبها. وفي الصباح التالي استيقظت باكراً لكي تُخرج الطائرَ إلى الساحة، ثمّ أطلقته في الهواء. فانطلق محلّقاً في السماء ثمّ اختفى وهو يُصدر صرخةً قويّة تحيّةً لذلك الانعتاق. لم تفهم بلانكا كيف وسِعَها أن تطلق ذلك الطائرَ في

Twitter: @ketab_n

الهواء، لكنّها أحسّت أنها قد فعلت ما كان خليقاً بها أن تفعله. ليس أكثر!

كانت تنظر إلى الأشياء بذات العين حين تفكّر في أولفيلد التي اختلفَ حالُها عن حالِها هي، وحال روزا. لقد وصلت أولفيلد إلى غودبم وهي في الحادية عشرة، أقرب في تلك السنِّ إلى الطفولة منها إلى الفتوّة. لقد ترسّخت تقاليدُ الرهبانية في روحها وتكرّست، فلمّا صارت طليقةً صارت بلا حيلة مثل ذلك الطائر الذي وجدته على الأرض بلا حيلة. لم تكن أولفيلد تُحس بجمالها بتاتاً، فهي واحدة من ذلك الفرع في عائلة سفيركر الذي كان كولْ وبولِسلاف يرأسانِه، وكانت هيئةُ النساء والفتيات فيه تختلف عن هيئة أولفيلد، أيْ بشعورهنّ السوداء وعيونهنّ السمراء المشدودة قليلاً. إلاّ أنّ أولفيلد لم تكن تدري من سرّ جمالها شيئاً.

لم تطرُق بلانكا موضوع أولفشيم التي كانت ستصطحبُ أولفيلد إليها رغم تحفّظِ الملك على تلك الزيارة. فكم يعزُّ عليها أن ترتمي الفتاةُ بمفردها في براثن فردٍ من أفراد فولكونغر الذي ينتظره الرحيلُ من أولفشيم التي لن تطول إقامتُه فيها مع نجليه اللذين جُبِلا على الطمع والجشع. لقد كانت بلانكا على دراية بطويّة الرَّجلين ومآربهما.

كان البِكر ويُدعَى فولكْ شخصاً طليق لسانٍ لا يَعِدُه بعُمر مديد، وكان الأصغرُ يُدعى جون، تلقّى تعليمه في مدرسة توني لاغمان، وكان على خلافِ أخيه قليلَ الكلام يَنُمُّ صمتُه عن حياةٍ أمضى أيّامها بائساً تعيساً لأنّه أصغرُ من أخيه "المحاربِ القادم" الذي كان - جَرْياً على تقاليد العائلات- يمارس مواهبَه القتالية القادمة على أخيه الأصغر، الأقلِّ منه قوّةً وبأساً.

وتساءلت بلانكا أيُّ مصير تُرى ستلقاه امرأةٌ فائقةُ الحسن والجمال مثل أولفيلد وغنيّةٌ مثلها ولكنّها مغرقةٌ في البراءة إلى حدّ السذاجة عندما تجد نفسَها بين رجالٍ قد يشتهونها ويطمعون فيها لأسباب لا حصرَ لها. أليس الأمرُ أشبهَ بإطلاقِ حَمَلٍ بين ذئاب أولفشيم؟

حاولتْ في حذرٍ شديد أن تحدّث أولفيلد فيما كان سيحدث بعد حين، وأخذت تُبصّرها بدواعي الإقبال على تمارين يومية تعلّمها ركوب الخيل، لأنّ أولفيلد

Twitter: @ketab_n

رغم رقّة بَشَرتها لا غنىً لها عن ركوب الخيل في تنقّلاتها. وفي أثناء تلك الفُسَح حاولت بلانكا أن تستعيد تلك الأحاديثَ التي كُنّ هنّ الثلاثة يتجاذبن أطرافها في غوديم ويَذْكُرنَ فيها ذلك الحبّ الذي كانت روزا تُكنُّه لآرن الحبيب، أو عندما كنّ يُخطّطن لإنقاذ الأخت الراهبة ليونور والأخ الراهب لوسيان من جحيم ذلك الدير.

لكنّ أُذنَي أولفيلد لم تَسْتَسِغْ مثل ذلك الحديث وكأنّه يملؤها خوفاً ووجلاً. وقد بدت أكثر تعلّقاً بمطيّتها وبخطوات حصانها، وأقّل اهتمامًا بهموم الحب وأحوال الرجال.

صارت أكثرَ استجابةً وتواؤُماً مع تلك الأحاديث في أوقات استراحتهما، كلّ يوم، برفقة طِفلَيْ بلانكا البالغين من العمر خمس سنوات وثلاثاً. فالحبُّ ما بين أمّ وأطفالها صار في عينيْ أولفيلد أهمَّ من الحبّ ما بين رجل وامرأة، حتى ونْ جاء الأوّلُ من خلال الثاني قسراً.

لم تكد احتفالات سانت لارس تنتهي ويصل الجفيفُ إلى فاسترا غوتالاند وأوسترا غوتالاند حتى فرغت بلانكا وأولفيلد لنفسيهما فشدّتا الرحال نحو أولفشيم على رأس موكبٍ مهيب.

في البداية ركبتا سفينةَ النّرويجيين حتى ألفاسترا، ومنها واصلتا الرحلةَ عبر بجالبو نحو لينكوبينغ. فعلى الطريق المؤدي إلى هذه المدينة تقع أولفشيم.

صارت أولفيلد الآن أقلّ تململاً فوق مطيّتها، وتراجعتْ شكواها رغم مسارِ يومين كاملين. فكلّما اقتربت من أولفشيم ازداد همُّها وانشغالُها، وانسحبت من عالمها الخارجي إلى داخل نفسِها.

وعندما اقتربتا من المزرعة تعرّفت أولفيلد إلى المكان توّاً، لأنّ البناءات الجديدة قد شُيّدت في مواقع البناءات القديمة نفسِها، وعلى الطراز نفسه تقريباً. وأمّا أشجار الدردار التي كانت شامخةً في طفولتها فما تزال على حالها. لكن معظم الأشياء بدَت في عينيها أصغرَ حجماً ممّا حفظتْه ذكرياتُها.

Twitter: @ketab_n

في ذلك اليوم المشهود كان الموكبُ مُرتَقَباً، لأنّ ما من ملكة تقصد المكان زائرةً من دون أن يعلم الناسُ بقدومها. فلم يكد الموكب يلوح من بعيد حتّى دبّ في المكان ضجيجٌ وعجيجٌ. لقد أقبل الرجالُ الكادحون والحرسُ والعبيد ليصطفّوا في الباحة لاستقبال الزائرتَيْن ورفْع التحيّة إليهما وتقديم الخبز المقدّس إليهما لاقتسامه قبل أن تقودهما الأقدامُ إلى داخل المبنى.

كانت بلانكا شديدة الملاحظة، لكنّ الذي رأته توّاً لم يكن لِيَخْفَى عن معظم الزائرين عاجلاً أم آجلاً، اللهمّ إلاّ من كان مثل أولفيلد في براءتها وسذاجتها. وقد بدا السيد سيغورد فولكسون ونجلاه فولكْ وجون اللذان وقفا ينتظران إلى جانبه، كلّما اقتربتْ الفتاتان منهم أكثر فأكثر وكأنّ الشباب قد راودهم رَوْدًا.

وإن بَدَا الفولكونغر عن بُعْدٍ على غير استعدادٍ لذلك اللقاء، وأقربَ في هيئتهم إلى الضغينة والعداء فما لبثوا أن لانُوا واعتدَلوا، وأكرهُوا أنفسَهم على ما وسعِها من جُهدٍ حتى لا يُظهروا اندهاشهم برؤية أولفيلد وهي تنزلُ عن جوادها بمعطفِها البديع الفاخر.

حثّ السيد سيغورد ونجلُه البكرُ الخُطى لمؤازرة بلانكا وأولفيلد حين تطأُ أقدامُهما الأرضَ لكي يتسلّما منهما الخبزَ المقدّس ويُلقِيا التحيّة إلى ضيفَتيهما.

فحتّى إن أخذا عمّا فقداه عِوضاً سخيّاً، ونالا أراضيَ أوسع من أولفشيم بفضل جزءٍ من قِطع الفضّة التي غنِمها بيرجر بروزا خلال حملاته الصليبية فقد أضحى الأمرُ عندهما شرفاً لا غنىً عنه لهما. فما من أحدٍ يرضَى أنْ يُهان شرفُ الفولكونغر إرضاءً لفتاةٍ غِرّة من عائلة سفيركر. لكنّ البونَ شاسعٌ بين أولفيلد وبين ما كانا ينتظرانه منها. لأنّ الرجال إذا نظروا لنساءِ معسكر الخصْم رأوا فيهنّ كلّ شيءٍ إلاّ آيات الجمال.

لا شكّ أن سيغورد فولكسون قد أحسّ أنّه كان عند اللقاءِ غليظاً فظّاً، ولذلك أخذ يُهمهم ويُغمغم ويُفتّش عن كلمات يُعبّر بها عن حفاوته بأولفيلد، فيما ظلّ

Twitter: @ketab_n

نجلاه لا يتفوّهان بكلمة واحدة، ولا يقويان على تحويل نظراتهما عنها.

خطر لبلانكا أن تبادر بالكلام رِفْقاً بِضيْقِ أولفيلد وارتباكها حين ينتهي ذلك الخطابُ المبهم الذي لم تُدرك كُنهَه لا هي ولا أولفيلد. لكنْ إذْ بأولفيلد تسبقها إلى ذلك الحديث الذي أَتَتْهُ على حين غرّة منها.

"بفائق السرور أُحيّيكم، أيْ سيغورد فولكسون وفولكْ وجون، في البيت الذي نشأتُ فيه"، بدأتْ حديثها دون أن يعكّره إرباكٌ أو غصّةٌ، وبصوت واضح هادئ رصين. "إنّ ما حدث بيننا وبين السفيركر والفولكونغر فيما مضى قد توارَى، لأنّ بالأمس كانت الحربُ واليوم استتبّ السلامُ بيننا جميعاً. لذلك أحبُّ أن تعلموا أنّي لسعيدةٌ باستقبالكم في أولفشيم، وأنّي لأشعرُ بالأمان هنا معكم، أصدقاءَ أعزّاء وضيوفاً كراماً."

جاء وقْعُ هذه الكلمات على نفوس الفولكونغر أشدَّ وأعظم من أن يقوى أحدُهم على الردّ بكلمة واحدة. وفي الحال مدّت أولفيلد ذراعَها لسيغورد فولكسون لكي يصطحبها إلى البيت الذي آل إليها. وأخيراً أفاق فولك، الابن البكر من غشيتِه ومدّ ذراعَه للملكة.

لم تكد بلانكا تَعْبُر بوابَة أولفشيم السنديانيّة المنيعة حتى ارتسمتْ على مُحيّاها ابتسامةُ الارتياح والتسلّي معاً، لأنّ أولفيلد استعارتْ من الملك شخصياً، دون حياءٍ، تلك الكلمات النبيلة التي أذهلت الفولكونغر الذين استقبلتهم في بيتها. فقد حاكَى خطابُها تقريباً كلمةً كلمةً ذلك الخطابَ الذي استقبلها به الملكُ في ناس قبل أيام قليلة، وكأنّ الأمرَ طقسٌ من طقوسٍ مستمدّة من مخطوطٍ محفوظٍ في ديرٍ من الأديرة.

كانت أولفيلد بلا شكّ تعرف كيف تحفظ دروسَها حتى لا يطويها النسيان، كدروس اللواتي كُتب عليهن الغذابُ بين أسوار الأديرة، قالت الملكة محدّثةً نفسها. لكنَ الحفظَ لا يقف عند هذا الحدّ، لأنّ من يكتفِي بالحفظ وحده كمَن وقَف في

Twitter: @ketab_n

منتصف الطريق وأبى أنْ يواصل السيرَ فيه.

فالحالُ أنّ أولفيلد قد أثبتتْ أنّها قادرةٌ على الفعل مثلما كانت قادرةً على القول، وعلى نحوٍ واضح ومثير.

وطار السنونو محلّقاً في السماء فوق جناحيه الصغيرين في خفّةٍ ورشاقة ويقين.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

إذا كانت تلك هي مشيئةُ الربِّ في أن تضيعَ المدينةُ المقدسة من بين أيدي المسيحيّين فقد سارت بهمُ تلك المشيئةُ في طريقٍ ملتويةٍ لكي تقودهم في النهاية إلى الهزيمةِ الكبرى أمام صلاح الدين الذي ظلوا يتعقّبونه بلا طائلٍ في كلّ مرحلةٍ من مراحلِه الحاسمة.

كانت الخطوةُ الأولى نحو الكارثة هزيمةَ المسيحيّين المؤكَّدة أمام صلاحِ الدين في مرج عيون، في عام البركة ١١٧٩.

فكما قال الكونت ريمون، كونت طرابلس لِآرن،عندما حاولا التأسّي عن حُزنِهما في قلعة فرسانِ الاسبتارية، بعد تلك الهزيمة، كان من الطبيعي، على الأرجح، أن ينظرا إلى تلك الهزيمة كحلقةٍ إضافية في سلسلةِ معارك الألفِ عام الأخيرة، المتواصلة بلا انقطاع. فما من أحدٍ من المعسكرين كان ينتظر النصرَ المؤكَّدَ، لأنّ جزءًا كبيراً من هذا النصرِ كان مرهونًا بالحظِّ، أو بالطقسِ السائدِ والرياحِ الهَبُوبة، أو بالقواتِ التي تصِل، أو لا تصل في الوقت المواتي، أو بالقرارات اليقظة أو القراراتِ الرعناء المتهورة. وأخيراً فهو في نظرِ مَن يؤمنون بالقضاءِ والقدرِ مرهونٌ بمشيئةِ الربِّ التي لا يدركها أحدٌ، ولا حولَ ولا قوةَ فيها لأيّ أحد. فعَبَثاً نحاول أن نُبرّر تلك الانتصاراتِ أو تلك الهزائم، ونتضرّع إلى الربِّ ذاتِه، لكنْ يظلّ الربحُ والخسارةُ يلاحقاننا طوراً بعد طورٍ !

Twitter: @ketab_n

كان بالدوين دبلين، وهو واحدٌ من بارونات السلطة البارزين في ما رواء البحر، واحداً من فرسانِ جيش الملك بالدوين الرابع، الذين أُسِروا في مرج عيون. فلو لم يقعْ هذا الرجلُ في الأسرِ لكان تاريخُ الهيمنةِ المسيحية على هذا الجزءِ من العالم أخَذ مجرىً آخر، مختلفاً كل الاختلاف. فلو لم يقعْ في الأسرِ لكان المسيحيون مكثوا في هذا الجزء من العالم نحو مئة عامٍ أخرى، بل لعلّ وَسعَهُم أن يقاوموا هجمات المغولِ ويحتفظوا بالسيادةِ على البلادِ لألفِ عام، وربما الدّهرَ كلّه!

لكنْ صار ذلك التصوُّرَ أمراً مستحيلاً بعد هزيمةِ مرج عيون. فلا شك في أنه من المؤسف أن يقعَ في الأسرِ رجلٌ في قامةِ بالدوين دِبلين، فذاك سيكلّف ثمنًا باهظًا، لكن من دون أن يكون حاسمًا.

كان صلاحُ الدين قائدَ حربٍ يملك ما لا يملكه غيرهُ من مهارةٍ في معرفةِ أسرارِ العدوّ. كان جواسيسُه منتشرين في كلّ مكانٍ في ما وراء البحر، فلا تخفَى عليه خافيةٌ من شؤون أنطاكيا أو طرابلس، أو القدس نفسها.

لذلك لم يفتْه أن يطلبَ ثمناً باهظاً عن بالدوين دِبلين، فقد اشترط ما لا يقلُّ عن مئة وخمسين ألف دينارٍ ذهبية، أعلى فديةٍ يشترطها قائدٌ في تلك الحرب التي صار عمرُها مئة عام تقريباً.

لكنْ لم يغبْ عَنْ بالِ صلاحَ الدين أن بالدوين دِبلين كان موعوداً أنْ يصبح ملِكَ القدس القادم، وهو ما حثّ فيه قرارَ ذلك الشرطِ وغلّبه. لقد باتت أيامُ بالدوين الرابع معدودةً، ولم يعد أحدٌ يجهل مصيرَه. لقد فشل ذات مرّة في سعيهِ لحلِّ معضلةِ مَن سيرثُ العرشَ فزوّج ابنتَه سيبيل لِغيوم السيف الطويل. لكنّ غيوم رحَل على حينِ غرّة بعد أن أخذه مرضٌ من تلك الأمراضِ المخزيةِ التي ما انفكت تفتكّ بأصحابِ القصر في القدسِ، حتى إنْ شاع أنّ سببَ تلك الأمراضِ التهاباتٌ رئويّة خالصة.

بعد وفاةِ غيوم السيف الطويل وَضَعَتْ سيبيل ابناً منحتْه اسمَ أخيها. لكنّها كانت مغرمةً ببالدوين دِبلين، ولم يُبْدِ الملكُ اعتراضاً على ذلك الحِلف الجديد، بل باركه، لأنّ عائلةَ دِبلين واحدةٌ من أكثرِ الأسر حظوةً في طبقةِ ما وراء البحر المالِكة.

Twitter: @ketab_n

فزواجُ سيبيل ببالدوين دبلين سوف يُقوّي دعائمَ السلطة الملكية بتسويةِ الصراعاتَ التي تواجهها مع مُلاّكِ الأرض العلمانيين في الأرض المقدسة، الذين ينظرون نظرةَ استقباحٍ إلى طِباعِ القصرِ الشاذّة، وإلى المغامرين القادمِين حديثاً، الطامِعين في الحظِّ والنصيب.

لكنْ من سوءِ طالع بالدوين دِبلين أنّ صلاحَ الدين كان على درايةٍ بذلك الحلفِ الجديد. فلا شيءَ يمنعه إذًا من أن يُثبتَ أنّ في قبضتِه مَلِكاً، ولم يتردّد في أنْ يشترطَ عنه فديةً ملكيّة كاملة.

كانت المئة والخمسون ألف دينارٍ ذهبا مبلغاً يفوق مواردَ أسرة دِبلين مجتمعة، ولا أحد يستطيع دفعَها غير فرسان هيكل الربّ. لكنّ هؤلاء لا يملكون مرونةً في الشؤون المالية، وقلّما يحالفهم الحظُّ في جنْيِ أيِّ فائدةٍ من مثلِ تلك الفديةِ الهائلة.

لم يكنْ يوجد في ذلك الجزءِ من العالم سوى رجلٍ واحد بإمكانه أن يدفعَ مثلَ ذلك المبلغ. إنه مانويل، إمبراطور القسطنطينية.

اِلتمس بالدوين دِبلين من صلاح الدين إذاً أنْ يُفرِج عنه مقابلَ الوفاءِ بما يقطعه له من وَعْدٍ: أن يجمع المبلغَ أو أن يعود ثانيةً للأسر. ولم يشكّ صلاحُ الدين في صدقِ فارسٍ جديرٍ بكاملِ التقدير فقبِلَ العرضَ وانطلق بالدوين نحو القسطنطينية لِيُقنِعَ الإمبراطور بإقراضه ذلك المبلغِ من المال.

كان مانويل الأول يرى في بالدوين دِبلين الملِكَ القادمَ أيضًا، وقد رأى من الفطنةِ أن يُدبِّرَ – ليس نفقةً ثقيلة بالتأكيد – وسيلةً يَضغطُ بها على ملكِ القدس القادم. فلذلك أعاره كلَّ الذهبِ الذي يلزمه. وعاد بالدوين إلى ما وراء البحر وسلّم المبلغَ إلى صلاح الدين، ثم عاد أدراجَه إلى المدينة المقدسة حيث وجد سِيبِيلْ في انتظاره.

لكنْ لا الإمبراطورَ مانويل، ولا صلاح الدين، ولا بالدوين دِبلين حسبوا حساباً لِنساءِ قصرِ القدس ولا للمشاغر التي يُكِنُّها للرجالِ الغارقين في الديونِ. فلم تجد أُمُّ الملك وسِيبِيلْ، الدسّاسةُ المتآمرة أنييس دي كورتناي، عناءً كثيراً في إقناعِ ابنتِها

Twitter: @ketab_n

بمدى غباوةِ مَن تقَع في حبِّ رجلٍ مدينٍ بمئة وخمسين ألف دينارٍ ذهبيّة.

تعلّقت أنييس دي كورتِناي بعُشّاقٍ كثيرينَ كان أحدُهم صليبيّاً لم يتبادل مع العدوّ ضربةَ سيفٍ واحدة، مفضّلاً على السيفِ كلَّ أنواعِ المناقراتِ الغَزلية. وعلى الرغم من أنّ هذا الذي اسْمُه أمُوري دي لوسينيان لم يكنْ يحمِل من صفاتِ المحاربِ شيئاً إلا أنه سرعان ما أدرك الفُرصَ التي هُيِّئَتْ له لخوضِ الصراع من أجل السلطة. فقد أطرَى لدى أنييسْ أخاه غِي الذي كان كما شِيع عنه، رجلا غايةً في الوسامةِ، وعاشقاً لا تعوزه المواهب والحيل.

فهكذا، وفيما كان بالدوين دِبلين يلحُّ في طلبِ مبلغِ فديتِه من إمبراطورِ القسطنطينية، ذهب أمُوري دي لوسينيان يبحث عن أخيه غِي في أرض الإفرنج.

ولـمّا عاد بالدوين دِبلين إلى القدس بعد العديدِ من الحوادث والعوارضِ اكتشف أنّ الحبّ الذي تُكنّه له سِيبِيلْ قد ضمُر قليلا، بعد أنْ صارت منذ حينٍ تقضِي لياليَها مع غِي دي لوسينْيان، القادمِ إلى البلاد حديثاً.

كان الفرقُ بين غي دي لوسينيان وبين بالدوين دبلين بصفته ملكاً على القدس هو الفرقُ ما بين الليل والنهار، أو ما بين الماءِ والنارِ تقريباً. فمِن حيث لا يدري اختصَر صلاحُ الدين المسافةَ التي تفصل بينه وبين النصرِ الذي بات وشيكاً. فلم يكنْ قد وسِعه أن يُدركَ قُربَ ذلك النصرَ، لكنّ النصرَ لم يكنِ بعدُ في متناولِ أحد.

كانت هزيمةُ مرج عيون تمثّلُ في عيونِ فرسان هيكل الربِّ أيضًا أهميةً بالغة، ما دام السيدُ الأعظمُ أودون دي سانت أماند قد أصبح الآن بين الأسرَى، وقريباً سيُقطَع رأسُهُ لا محالة. لقد كان فرسان هيكل الربّ وفرسانُ الاسبتارية أفضلَ الفرسانِ، فخيرٌ لهم في نظرِ الكفارِ أن يُقتَلوا من أنْ يقايَضوا بفرسانٍ من عرب الشرق، البديلِ الممكنِ الوحيدِ للفدية.

ومع ذلك فقد قدّر صلاحُ الدين، أنّ للسيّدِ الأعظم شأناً مختلفاً تماماً. فهو يملك عند فرسان هيكل الربّ وعند فرسانِ الاسبتارية كافّةَ السّلطاتِ، ولذلك على الإخوةِ أن يطيعوا دون أن يرفَّ لهم جَفْنٌ أيَّ أمرٍ يأمرُهم به مَهْما صغُر. فأيُ سيدٍ أعظم يستطيع أنْ يجلب لنفسِه بعضَ الشأنِ إنْ نجح الآخرون في إقناعه بالتعاون.

Twitter: @ketab_n

لكنْ مع أودون دي سانت أماند لم يتوصّل صلاحُ الدين إلى أي شيءٍ بتاتاً. لقد اكتفى السيدُ الأعظمُ بالتمسّكِ بقواعدِ الرهبانية، وبمنْعِ الفديةِ لفرسان هيكل الربّ، سواءٌ كانوا رقباءَ، أم حُكّامَ حصونٍ أم أسيادًا عظماء. أمّا التفاوضُ في أمْرِ بعض الأسرى من عربِ الشرقِ فلم يرَ فيه سوى سلوكٍ جديرٍ بالازدراءِ وملوّثٍ بالإثمِ، وسبيلٍ للالتفافِ حول قواعد الرهبانية. لذلك كان أَسْرُ أودون دي سانت أماند قصيرَ الأمد، فقد فارق الحياةَ خلال العامِ الذي تلا، دون أن يعرف أحدٌ كيف وافتْه المنيّة.

كان من الصائبِ والمعقولِ أن يكون السيّدُ الأعظم الجديدُ لفرسان هيكل الربّ هو أرنود دي توروج، صاحِبُ المنصب الذي كان سيّدُ القدس يطمحُ في الوصولِ إليه.

في الأرض المقدسة كانت السلطةُ مقسّمةً ما بين قصرِ القدسِ وكهنوتِ الخيالةِ، والبارونات، ومُلّاك الأرض. كانت هُويّةُ السيّدِ الأعظم إذًا مهمّةً جداً. وكذلك مواهبُه كقائدٍ للحربِ وزعيمٍ روحيّ ومفاوض. لكنّ الهمَّ الأكبرَ يبقَى أن يعرف الناسُ إنْ كانَ السيدُ الأعظمُ من أتباعِ المسيحيين الذين يقدّرون أن لا مفرَّ من قتْلِ عربِ الشرق كافة، أمْ هو من أتباعِ مَن يعتقدون أنّ السلطةَ المسيحية في الأرضِ المقدسة ماضيةٌ نحو الهلاكِ حتماً منتهجين في ذلك مثل هذا الخطِّ الأخرق.

أنفق أرنود دي توروج حياتَه وسط فرسان هيكلِ الربّ، في أراغون وفي بروفنسيا، قبل أن يأتي إلى الأرضِ المقدسة. كان رجلَ أعمالٍ وسلطةٍ، أقوى من أودون دي سانت أماند، سلفِه المحبِّ للحرب.

كانت هذه التحولاتُ في السلطة تنبئُ في رأيِ صلاحِ الدين، بأنّ التاجَ على وشكِ أن يقَع في قبضةِ مغامرٍ عاجزٍ لن يهدّد بأيِّ خطرٍ على الأرضِ، ورأى أنّ رهبانيةَ فرسان هيكل الربّ قد كسبت الآن في أرنود دي توروج سيّداً أعظمَ، وأكثرَ ميْلا للتفاوضِ من سلفِه، رجلا يشبه ريموند طرابلس.

ورأى آرن دي غوثيا أنّ أثرَ ارتقاءِ أرنود دي توروج إلى السلطةِ كان مباشراً فورياً. لقد دُعِيَ إلى القدسْ على عجلٍ لكي يتبوّأ منصبَ السيّدِ في هذه المدينة

* * *

Twitter: @ketab_n

سوف يظل الأب لويس والأخ بترو، الراهبَان الاسبتاريان اللذان أرسلهما قداسةُ البابا إلى قلب العالم، يذْكران مَقدمَهما إلى القدس، كمزيج من المفاجآت السعيدة ومن الخيبات المروعة. فلعلّهما ما كانا يتوقّعان شيئًا مختلفًا كل الاختلاف.

فعلى غرار كل الإفرنج حديثِي الوصول جاءا وفي خيالهما فكرةٌ عن مدينة المدائن. لقد تصوّراها مدينةً وديعةً آمنة، تقطعها طرقاتٌ يكسوها بلاطٌ من الذهب ومن المرمر الأبيض، والحال أنّهما وجدا رُكاماً لا يوصَف من الأزقّة الضيقة تغطيها الفضلاتُ وتزدحم فيها جموعٌ تتحدّث لهجاتٍ متعدّدة بعضُها أغرب من بعض. وكما ظنّ كلّ فرسان الاسبتارية ظنّا أنّ إخوتَهم فرسانَ هيكل الربّ أفظاظٌ غلاظ، وبلا تأديب، ولا يكادون يتلُون باتَر نُوسْتَرْ واحدًا باللاتينية. إلاّ أن أوّل مَن أتيحَت لهما فرصةُ الالتقاء به كان سيّدَ القدس الذي خاطبَهما باللغةِ وذاتها كأنّ الأمرَ طبيعيٌّ طبيعةَ الأشياء المألوفة. وفي الحال باشرا معه حديثاً جوهرياً عن أرسطو، في انتظار قُدوم السيّد الأعظم الذي جاءا لمقابلته شخصياً.

كانت أجنحةُ سيّد القدس تشبه كثيراً أيّ ديرٍ اسبتاريّ. أمّا مظاهرُ الترَفِ الدنيوي، أو حتّى المخالف منه للدين كالذي شاهداه أحياناً في الجزء من المدينةِ التابع لفرسانِ هيكل الربّ فلا يجدا لها أثراً في هذه الأجنحة. وأمّا الممرّاتُ المسقوفَة المشرفةُ على المدينة فهي تشبه رواقَ أيّ دير اسبتاريّ، فيما الجدران المطلية باللون الأبيض لا تحمِل أثراً لأيّ صورة مخالفة للدين. وقد أمَر لهما مضيفُهما بطعامٍ طيّب لا يحتوي على أيّ قطعة من لحوم الرباعيات، ولا على أيّ شيءٍ محرّم على أيّ اسبتاريّ.

كان الأب لويس رجلا ثاقبَ البصيرة، تعلّم منذ الصغر في أفضل مدارس الرهبان في سيتو. وهو اليوم منذ سنوات طويلةٍ رسولَ رهبانيته لدى الأب المقدّس. ولَكَمْ دهش لقلّةِ معرفته بذلك الذي لُقّب بسيّد القدس. فقد بدا له اللقبُ لقباً لا يخلو من زهوٍ غريبٍ وقلّما يمتُّ بصلةٍ لِما رآه من حوله. وقد قيل له إنّ آرن دي غوثيا محاربٌ كبيرٌ، وأنّه بطلُ الانتصار في معركة مونجيسارد التي غلب فيها فريقٌ صغير من فرسان هيكل الربّ جيشَ صلاح الدين المهِيب. فلذلك توقّع أن يقابل

Twitter: @ketab_n

نظيراً حديثاً لقائدِ الحرب، الروماني بيليسير، أو على الأقل جندياً لا يقْدر على الحديث في أمرٍ آخر غير الحرب. فإذا كان آرن لا يحمل الكثير من آثار الجروح على وجهه ويديه فهو يشبه أيَّ راهبٍ من رهبان سيتو. فهو ناعمُ النظرة، وفي صوته نغمةُ المحاور المصلِح المصالح. وقد دهش الأبُ لويس أيّما دَهشٍ متسائلاً كيف لا يتمالك عن توجيه بعض الأسئلة إليه، وظنّ أنّه قد أحسن كثيراً فهْم محدِّثه حين عرف أنّ هذا الفارس قد ترعرع في أحد الأديرة، وأحسّ كأنّ حُلم سانت برنار برجلٍ متطوّع في الحرب المقدّسة، وفي ذات الوقت راهب من فرسان هيكل الربّ، قد تحقّق أخيراً. فلم يسبق أن رأى الأبُ لويس حلماً كهذا يتحقّق في حياته قطّ.

وقد لاحظ أيضاً أنّ مضيفَه لا يأكل شيئاً آخر سوى الخبز، ولا يشرب غير الماء، وإن حفلت الطاولةُ بكلّ ألوان المشروبات على شرف الضيوف. فلعلّ هذا الرجل الوجيه في كهنوت فرسان الربّ يقضي كفّارته لسببٍ من الأسباب. لكنّ الأبَ لويس رأى أنّ الاعتراف بالخطيئة غيرُ مناسبٍ في هذا اللقاء الباكر حتّى إن رغب في معرفة المزيد. فهو مبعوثٌ من جهة الأبِ المقدّس، وحامِلٌ لبراءة بابوية قد لا تلقى الترحابَ والحفاوة. وفوق ذلك فقد اشتهَر فرسانُ هيكل الربّ بغرورهم المعهود: فالسيّدُ الأعظم الذي سيلتقون به بعد حينٍ يقدّر بلا شكّ أنّ مقامَه يرقى إلى أعلى الرتب بعد الأب المقدّس. ناهيك عن أن مَن تزيّن بلقب سيّد القدس لا يمكن أن يضع نفسَه في مقام أدنى من مقام رئيس الأساقفة. لذلك إذًا فالخشيةُ ألاّ يُقيم مثلُ هؤلاء الرجال وزناً لرئيس ديرٍ عادي. ولذلك أيضاً فلا أحد ينتظر منهم أن يقدّروا المقامَ الذي يحظى به مَن كان يعمل رأسًا بأوامِر الأب المقدّس الذي كان مرشدَه ورسولَه في ذات الوقت.

وعندما وصل السيّدُ الأعظم كانت طاولة الأكل قد خَلت ممّا فوقها، فخاضوا في نقاشٍ ممتعٍ حول الترابط بين المعرفة والشكّ والإيمان، وفي مسألة الأفكار، متساءلين إن كانت هذه الأفكار قابلةً للتجسّد في العالم الملموس، أم أنّ وجودَها محصور في نطاق الدوائر السماوية. كان ذلك هو نمطُ النقاش الذي لم يخطر للأب لويس أن يخوض فيه يوماً مع فارسٍ من فرسان هيكل الربّ.

Twitter: @ketab_n

اعتذر أرنود دي توروج عن تأخّره بسبب الدعوة التي تلقّاها من ملك القدس، بل كان عليه أن يعود إليه مرة أخرى، برفقَة آرن دي غوثيا. إلا أنه ألحّ كثيرًا على الالتقاء بضيفَيه الاسبتاريين اعتبارًا من ذلك المساء، ومعرفة سببِ قدومهما. وقد تصوّر الأبُ لويس أنه كان بالإمكان أن يلتقي هو أيضًا بالسيد الأعظم عند سُفراء الإمبراطور في روما، وأنه دبلوماسيٌّ محنّكٌ، وأنه فوق ذلك رجلٌ "بليزيري" Belizaire غير عاديٍّ.

شعر الأبُ لويس إذًا بالحرج في مواجهة مسألةٍ بهذا القدر من التعقيد، لكنّ مُضيّفَيه لم يفسحا أمامه أي خيار آخر. فلم يكتفيا خلال هذه الجلسة الأولى بالموارِبةِ واللفّ والدوران، حتى يُعيدا الكرّةَ معه في اليوم التالي، بـ"أسلحةٍ أكثر ثقلا".

استعرض سببَ قدومِهِ إذًا دون مواربة، واستمع إليه ضيفاه بعناية ومن دون أن يقاطعاه، وحتى من دون أن تخدع ملامحُ وجوههم مشاعرَهم الحقيقية.

لقد جاء غيوم رئيس أساقفة صور، من الأرضِ المقدسة في روما ليَحضر مجمعَ لاتران Latran الثالث، وقد وجّه اتهامات خطيرةً لفرسان هيكل الربّ وفرسان الاسبتارية.

ففي رأيه أن فرسان هيكل الربّ يعترِضون صراحةً، في بعضٍ من ممارساتهم أحيانًا، على كنيسة روما المقدسة. فإذا نُفِي أحدٌ إلى الأرض المقدسة صار بالإمكانِ أن يدخل كهنوتهم، أو أن يُدفَن على أيديهم. وكانوا لا يتورّعون عن إرسال رهبانٍ ليمارسوا خدمتَهم الكهنوتية في أي مدينة يكون المطرانُ قد ألقى عليها من قبلُ لعنتَه. كانت تلك الممارسات الذميمةُ التي لا طائل منها سوى التقليلِ من شأن الكنيسة، ناتجةً عن عدم انصياع فرسان هيكل الربِّ لسلطة أيِّ رئيس أساقِفة، ولم يكونوا معرّضين لا للنفي ولا حتى للعقاب من أي نوع كان على يدِ بطريرك القدس. وقد زاد الطينَ بلةً أن فرسانَ هيكل الرب وفرسان الاسبتارية كانوا لا يقدّمون خدمةً من دون ثمن. لذلك قرر مجمعُ لاتران الثالث، والأب القديس ألكسندر الثالث، إنهاءَ تلك الممارسات التجارية. إلا أن المجمع والأب القديس رفضا المصادقة على القصاص الذي اقترحه المطرانُ لقاءَ هذا الإضرار في حق سيادة الكنيسة.

Twitter: @ketab_n

كان الأب لويس يحمل إذًا براءةً يكسوها ختمٌ باباوي، فما لبث أن أخرجها ووضعها على طاولة السنديان. وكان في طيّها كلُّ ما جاء يعرضه شفهيًا. فأي إجابة يحملها معه إلى الأب القديس تُرى؟

– قلْ له إنّ أوامر الأب القديس تُنفَّذ فور النطقِ بها، أجاب أرنود دي توروج في هدوء، فهذه الترتيبات ساريةٌ منذ اللحظة التي قبِل بها سيدُ الكهنوت الأعظم وتبنّاها. وسوف نسهرُ منذ الآن على التعريفِ بها سريعًا. فقد يستغرق منا هذا بعض الوقت، لكنْ لن يذهب أيُّ تأخُّرٍ منا عبثًا. هل أخي وصديقي آرن يخالفني الرأي في هذا؟

– لا، أجاب آرن بالقدر نفسه من الهدوء. إن فرسان هيكل الرب يُنجزون ألوانًا مختلفة من الأعمال حتى يموّلوا حربًا طويلة ومكلفة. ويسعدني كثيراً أن أعطيك معلوماتٍ أوفر، غدًا أيها الأب لويس. لكن الاتجار بأمور الكنيسة مخالفٌ لقواعدنا، وهذا الإثمُ اسمُه "سيموني"، أي الاتجار غير المشروع بالممتلكات الروحية، أو بالرتب الكنسية. وأعتقد شخصيًا أن الأعمال التي ذكرتها من صميم الاتجار غير المشروع بالممتلكات الروحية للكنيسة. فلهذا السبب أؤيد بلا تحفّظٍ شكاوى رئيس الأساقفة غيوم، وقرارات الأب المقدس.

– لكنّ ثمة أمراً لم أفهمه بعد، قال الأب لويس الذي أدهشته سرعة الإجابة وأثلجت صدره، كيف تسنى اقترافُ هذا الإثم وقد شجبتماه شجبًا حازمًا؟

– سيدُنا الأعظم السابق، أودون دي سانت أماند –رحمة الله عليه –كان له رأي آخر أجاب أرنود دي توروج.

– لكن، ألم يكن بوسعِكما بحكم رُتبتَيكما، أن توجّها اللوم إلى سيّدِكما الأعظم على هذا العمل المخزي؟ لِمَ لم تعترِضا على هذا العمل؟ سأل الأب لويس مندهشًا.

أثارت هذه الملاحظة إعجابَ الرَّجُلين، لكنّ الأب لويس لم يحصل على أي ردّ شافٍ منهما.

أرسل آرن في طلب أحد الفرسان وأمره بأن يصطحب الأب لويس وبيترو

Twitter: @ketab_n

إلى غُرفتيهما. وقد وعدَهما آرن بأنه لن يُقصِّر في إكرامِهما في يوم غد، واعتذر للاستئذان منهما على ذلك النحو. لكن عليه أن يردّ على دعوة الملك الذي كان يرغب في لقائهما، هو والسيد الأعظم، في أقرب وقتٍ. هنا وقف هذا الأخيرُ وبارك زائريه- وهو ما أدهش الأبَ لويس وساءَه أيضًا.

اصطحب الفارسُ الراهبَين إلى الجناح الذي سيقضيان فيه ليلَهُما، لكنه أخذهما في البداية إلى الغرف المخصصة للزائرين العلمانيين، المزيّنة بجداول الماء والخزفِ المنمّق برسوم وزخارفِ عرب الشرق. وبعد هذا الخطأ المؤسف اهتَدى إلى المكانِ المناسب فأخَذ كلَّ واحدٍ إلى حجرةٍ طُليت جدرانُها بالجير، شبيهةٍ بالحجرات التي اعتادا عليها.

وأسرع أرنود دي توروج وآرن في التوجه إلى أجنحة الملك. فلم يمهلهما الوقت للحديث أثناء الطريق في البراءة البابوية. ولم يكن ذلك مُهمًا لأنهما متّفقان في كل شيء. لا شك أن البراءة البابوية سوف تحرم كهنوتهما بعضَ مصادر الموارد، لكنْ خيرٌ أن يتخلّصا في النهاية من قضايا كانا يشعران أنها مريبة ومشبوهة. فلا يملكان سوى أن يغتبطا منذ الآن بتسلّمهما تعليمات آتية من الأب القديس رأسًا، ويستطيعان أن يُلقيا بها في وجْه المستائين غير الراضين.

كانت أجنحة الملك الخاصة ضيقةً ومعتمة، لأنّ جلالته يخشى نورَ النهار ولا يستطع أن يتحرك فيه.لكن النور كان في انتظارهما فوق عرشِه المعلّق، المحاطِ بموسلين زرقاءَ لا يَبدو من خلالها سوى شبحٍ أو ما يشبه الشبح، ومن حوله همهماتٌ تقول أنّ الملك صار مبتورَ اليدين.

لم يكن في القاعةِ سوى خادمٍ واحد. وهو شخصٌ نوبي أخرس أصمّ، يجلس على وسائد بالقرب من أحد الجدران. كانت عيناه تحدّقان صوب سيّده حتى لا يتأخر في الاستجابة لأيّ طلبٍ من طلبات الملك.

دخل أرنود دي توروج وآرن في وقتٍ واحد، وانحنيا أمام الملك دون أن يقولا شيئًا، ثم جلسا على وسادتين مصريتين، مقابل ذلك العرش الذي لم يكن عرشًا مألوفًا. وتحدّث إليهما الملكُ بصوتٍ واضح لأنّ عمره لم يزد على عشرين عامًا.

Twitter: @ketab_n

"يسعدني أن يستجيب لدعوتي رجلان من أنبلِ فرسان هيكل الربّ"، قال في البداية قبل أن تُقاطعه نوبةُ سعالٍ ويُلقي لزائرَيه بإشارةٍ لم يفهماها. وما لبث الخادمُ النوبي أن تقدّم نحوه وقام بحركةٍ من خلف الموسلين الزرقاء لم يستطع الزائران فهْمَها أيضًا، فظلاّ ينتظران في صمت.

– على الرغم من أنني لم أشرف على الموتِ بعدُ، كما ظنّ بعضهُم وتمنّى، فإني مع ذلك لست خاليَ البال. فأنتم، فرسان هيكل الربّ، العمود الفقري في الدفاع عن الأرض المقدسة، وقد رغبتُ في التحدث إليكما في أمرَين اثنين، بعيدًا عن الآذان المتطفلة. لذلك سأتحدث إليكما بلا مواربة، وهو ما لم أكن أستطيع أن أفعله في ظروف أخرى. فهل أنتما مستعدّان؟

– كلنا آذانٌ صاغية، سيدي، أجاب أرنود دي توروج.

– حسنًا، قال الملك الذي قاطعته نوبةُ السعال مرّة أخرى. لكن هذه المرة لم يستنجدْ بخادمه، وما لبث أن واصل الحديث: فأما المسألة الأولى فهي مسألةُ بطريرك القدس. وأما الثانية فهي تخصّ الوضع العسكري. ويطيب لي أن أبدأ بمسألة البطريرك أوّلا. فكما تعلمان علينا أن نَشرع في تعيين بطريرك جديد ليحلّ محل أموري دين يسل الذي يحتضِر الآن. لقد أتحت لنفسي القولَ إنّ الأمر من اختصاص الكنيسة، لكن إذا صدقَت أمي، والمسألة تهمّها أو لا تهمّها، فإنها تهمّني أنا أيضًا، إننا أمام مرشحَين اثنين: هيراقليوس، رئيس أساقفة سيزاري، وغيوم رئيس أساقفة صور. فَلْنَزِنْ ما للأمر وما عليه فيما يخصّهما. ظني أن غيوم عدوٌّ لفرسان هيكل الربّ، لكنه كهنوتي لا يستطيع أحدٌ أن يطعن في استقامته. أما هيراقليوس، إذا سمحْتُما لي أن أكون صادقًا، فهو سافِلٌ من فصيلةٍ ليست نادرة في بلادنا. فهو خادم الكاهن، تمرَّد على القواعد، أو شيئ من هذا القبيل. وهو معروفٌ بمجونِه وانحلال أخلاقه. وزيادةً على هذا فهو عشيقُ أمي – وإن لم يكن عشيقها الوحيد. لكن يبدو أنكما لا تريان فيه عدوًّا، بل العكس هو الصحيح، فكما تريان كلُّ الدلائل القاطعة قائمةٌ على كفَّتَيْ الميزان الذي أمامنا. فما رأيكما إذًا في هذه القضية؟

Twitter: @ketab_n

كان من الواضح أن أرنود دي توروج سيُردّ رأسًا، وكان بديهيًا أيضًا أنه لن يردّ على السؤال إلا وهو مرتبكٌ أيّما ارتباك. ففيما انطلق في عرضٍ طويل حول إرادة الربّ التي لا حدودَ لها حتى يمنَح نفسَه وقتًا للتأمل وهو يتحدث، إذا بآرن يندهش للطاقةِ وروحِ القرار اللذين أبداهما هذا الملكُ الشاب، صاحبُ الصوت الهزيل، الذي ينخره مرضٌ مُزمِن يجعله يحتجب عن أنظارِ محدّثيه.

– في الختام، قال أرنود دي توروج، بعد أن منَحه خطابُه الطويل فسحةً للتأمل، ووَسِعَه أن يقول شيئًا ذا دلالة، إنّ فرسان هيكل الربّ يخشون أن يكون على رأسهم بطريرك يناصبهم العداء. بيد أنه من الخير لمملكة القدس أن يكون على رأسها رجلُ شرفٍ وإيمانٍ، كحامٍ أعلَى للصليب الحقيقي وللقبر المقدس. ومن الخطيئة أن يُعيَّن على رأس هذا المقامَ رجلٌ خطّاءٌ. ولعلنا لا نجد عسراً في تصوّر مشيئةَ الربّ في هذا الشأن.

– بالتأكيد، أجاب الملك بنبرةٍ حاسمة، لكنْ والحال هذه يجب أن نتودَّد ونستعطف شخصًا أقوى من الربّ، ألا وهي أنييس، أمي. أعرف أن كهنوتَ مطارنة الأرض المقدسة هُم الذين يقع على عاتقهم المصادقةُ على هذا القرار عن طريق التصويت. لكنّ الحالَ أنَ الكثير من رجال الربّ هؤلاء يسهلُ شراءُ ذِممهم. فالقرار في الحقيقة يعود إليّ إذًا. أو هو يعود، على الأقل، إليكما وإليّ، أو إلى أمي أيضًا. يهمني كثيراً أن أعرف إن كان فرسان هيكل الرب أعداءً حقًا لهذا أو ذاك من هذين المرشّحين. إني أصغي إليكما.

– إنّ الخيارَ بين خطّاءٍ يعمل لصالحنا وبين رجلٍ من رجال الربّ يناصبنا العداءَ ليس خياراً سهلا، يا سيدي، أجاب أرنود دي توروج بصوتٍ خاملٍ متراخ.

لو كان استطاع أن يتنبأ بالمستقبل لكانت إجابته بلا شك، مختلفة تمامًا.

– حسنًا، تنهد الملك، سنحصل على بطريرك من نوع خارج على المألوف، ما دمتَ تترك القرار لأمي. فإذا كان الربُّ طيبًا بالقدر الذي تقولاَنه، أنتُم فرسان هيكل الربّ، فظني أنّ الربّ سوف يُنزل بهذا الرجل جمّ غضبه كلما اقترب من عبدٍ صغيرٍ، أو امرأة متزوجة، أو حتى من حمار. طيب! الشيء الآخر الذي أريد

Twitter: @ketab_n

التحدّثَ فيه معكما هو الحالُ العسكري. هنا، كما تعلمان، كلُّ الناس يكذبون عليّ، وكم من مرّةٍ لم أفهمْ ما حدث إلا بعد مرور عام كامل، كما حصل، مثلا، أثناء الزيارة الوحيدة في العمليات التي خضتُها بنفسي. كنت أوّلا أنا المنتصرُ الكبير في مونجيسارد. وكان معي أشهادٌ رأوا سانت جورج وهو يركب حصانَه من فوق رأسي في السماء، وربما أشياء أخرى. ومنذ الآن أعرف أنك أنتَ، يا آرن دي غوثيا، من حقّق هذا الانتصار، ألستُ على حق؟

– هذا صحيح، أجاب آرن، بصوتٍ متردد، ما دام الملكُ يخاطبه، وما دام أرنود دي توروج لا يستطيع أن يرد بالنيابة عنه، إن فرسانَ هيكل الربّ غَلبوا في تلك المعركة ثلاثة أو أربعة آلاف رجلٍ من خيرة فرق صلاح الدين. لكنْ صحيح أيضاً أنّ جيش القدس المنظّم غلَب خمسمئة.

– أهذه إجابتك، آرن دي غوثيا؟

– أجل، سيدي.

– ومن كان على رأس فرسان هيكل الرب خلال تلك المعركة؟

– أنا، سيدي، وكان معي عونُ الربّ.

– حسنًا، هذا ما ظننتُه، فمن مزايا بعضِ فرسان هيكل الربّ، ومن الواضح أنك واحدٌ منهم، يا آرن دي غوثيا، أنهم لا يكذبون. فهكذا أريد أن أعيش سنوات عمري الأخيرة. إذًا حدِّثْني قليلا عن الأحوال على الصعيد العسكري.

– الأحوالُ جد معقدة، سيدي، قال أرنود دي توروج في البداية، قبل أن يُقاطعه الملك.

– عفوًا، عزيزي السيد الأعظم، لكنْ يبدو لي أن سيّد القدس هو القائدُ الأعلى الحالي في كهنوتكم، أليس كذلك؟

– نعم، سيدي، هذا صحيح، قال أرنود دي توروج.

– حسنًا! تنهد الملك في عناء. آهِ لو كنتُ فقط محاطًا برجالٍ مثلكم، ليس على ألسنتِهم سوى الحقيقة... إذًا من الطبيعي جدًا أن أطرح السؤالَ على آرن دي غوثيا، يا عزيزي السيد الأعظم، دون أن أُخِلَّ بقواعدكم، كلِّ قواعدكم، ودون أن

Twitter: @ketab_n

أتعدّى على شرفكم وأمجادكم؟

- هذا بالفعل أمرٌ طبيعي للغاية، سيدي، أجاب أرنود دي توروج في بعضِ إجهادٍ.

- قلْ إذًا! قال الملك بنبرةٍ آمرة.

- الأوضاع يمكن وصفُها على النحو التالي، سيدي، قال آرن في البداية وهو على غير يقينٍ كاملٍ بما يقول. إننا أمام أسوأ عدوٍّ عرفته المسيحية، أسوأ حتى من عماد الدين زنكي، وأسوأ من نور الدين. لقد نجح صلاح الدين في ضمّ كل عرب الشرق تقريبًا إلى صفوفه. وهو قائدُ حربٍ بارع. لم يخسرْ سوى معركةٍ واحدة وهي معركة فخامتك في مونجيسارد. لكنه من ناحية أخرى انتصر في كلِّ المعارك على اختلاف أهميتها. علينا بتقويةِ معسكرنا المسيحي فيما وراء البحر، وإلا ضعْنا أو أُغلِق علينا في داخل أحصنتِنا ومُدنِنا، وهو ما لا يمكن أن يستمرّ إلى ما لا نهاية.

- هل تشاطره هذه الرؤية، أيها السيد الأعظم؟ سأل الملك بصوتٍ لا لِينَ فيه.

- نعم سيدي، الأوضاع تمامًا كما وصفَها سيد القدس. لا بد من جلْب قواتٍ إضافية من مختلف بلداننا. صلاحُ الدين خصمٌ من طينةٍ فريدة، مختلفة عن طينةِ كل الذين واجهناهم حتى هذه الساعة.

- إذًا هكذا ستكون الأمور. سنُرسل على جناح السرعة رسولاً إلى إمبراطور ألمانيا، وملكِ إنجلترا وملكِ فرنسا. فهلا تتكرمان بالمساهمة شخصيًا، سيدي الأعظم؟

- نعم، سيدي.

- حتى إن شارك روجيه دي مولان، السيد الأعظم لكهنوت فرسان الاسبتارية؟

- نعم، سيدي، رُوجيه دي مولين رجل استثنائي.

- وكذلك بطريرك القدس الجديد، وإن كنتُ سأنصحُكما بالحذر كثيراً، أثناء الليل.

- نعم، سيدي.

- إذًا، هذا رائع! فليكن الأمرُ كذلك. لكنْ عندي سؤالٌ أخير: من هو في

Twitter: @ketab_n

رأيكما أفضل قائدٍ من بين كل الفرسان العلمانيين فيما وراء البحر؟

– الكونت ريموند طرابلس، ثم بالدوين دبلين، سيدي، أجاب أرنود دي توروج دون تردّد.

– ومن هو أسوَؤهم؟ سأل الملك في الحال. أليس غي دي لوسينيان، عشيقُ أمي، مثلا؟

– مقارنةُ غي دي لوسينيان بواحدٍ من الرجُلين اللذين ذكرتهما آنفًا يعني مقارنة داوودْ بِجالوتْ، سيدي، أجاب أرنود دي توروج وهو ينحني انحناءةً ساخرة، وهو ما جعل الملكَ يُطرق متأمِّلا بعض الوقت.

– أتعتقد أن غي دي لوسينيان سيغلب الكونت ريموند، يا سيدي الأعظم؟ سأل بنبرةٍ متسلية بعد أن فكّر مليًّا.

– ليس هذا ما قلتُه، سيدي، فحسبَ الكتابِ المقدس كان جالوت أفضلَ كلِّ المحاربين، وكان داوود طفلاً بلا أي خبرة. فلو لم يتدخل الربُّ لغلَب جالوت في ألفِ معركة ضد داوود. ولو منحَ الربُّ غي دي لوسينيان دعمًا بهذه القوة لكان، بطبيعة الحال، محاربًا لا يعرف الهزيمة.

– لكن ماذا لو أدار الربُّ له ظهرَه في تلك اللحظة؟ سأل الملكُ وهو يضحك ضحكةً جعلته يسعلُ سعلةً خفيفة.

– لانتهتْ عندئذ المعركةُ في زمنٍ أقلّ من رفّةُ عين، سيدي، أجاب أرنود دي توروج، في انحناءَة خفيفة.

– السيد الأعظم، وسيّد القدس، قال الملكُ وسط نوبةِ سعالٍ جديدة، وهو يُصدِر إشارةً سارع إليها خادمُه النوبي. أحبُّ كثيرًا أن أتحاور طويلاً مع رجال مثلكما، لكنْ صحتي لا تسمح لي بذلك. أتمنى لكما ليلة هنيئة يصحبُكما فيها سلام الربّ.

قام الرجلان في وقت واحد عن وسادتيهما وهما يتبادلان نظراتِ القلقِ أمام الحشرجات وأصواتِ الحلوق التي كانا يسمعانها خلْف ستارِ الموسلين التي اختفَى الملكُ وراءه. ثم ولّيا ظهرَيهما وغادرا الغرفة في تكتّمٍ واحتشام.

Twitter: @ketab_n

اندهش الأبُ لويس كثيراً حين أيقظه آرن دي غوثيا قبل التسابيح الصباحية. لقد جاء بشخصِه إليهما، هو والأخُ بيترو حتى يصطحبهما لحضورِ صلاة السَّحر في قصْرِ سليمان. لقد خَفرَ الراهبَين عبْر متاهةٍ من الأروقة والقاعات دليلُهما الفارس، إلى أن وجدا نفسَيهما بعد أن صعدا سُلّمًا غارقًا في العتمة، في قلبِ الكنيسة الكبيرة، بقُبّتِها الفضية التي امتلأت بنحو مئة فارسٍ من فرسان هيكل الرب، وبضِعف هذا العدد من الرقباء الذين أخذوا أماكنَهم على طول الجدران.

اِستمتع الأب لويس أيما استمتاع بصلاة السحر تلك، وتأثر أيّما تأثرٍ بخشوعِ هؤلاء الرجال المحاربين، وأدهشه ترتيلُهم الذي قدّر جودته أيما تقدير.

وفي إثر التسابيح الصباحية اصطحب آرن زائرَيه في رحلةٍ إلى المدينة التي يحبّها كلُّ القادمين إلى القدس. وقد شرح لهما أثناء الطريق أنّ الزيارة في وقت مبكّرٍ أفضلُ وأجدى، قبل أن يكثُر حشدُ الحجاج في المدينة.

عبَروا في اتجاهٍ معاكسٍ حيّ فرسان هيكل الربّ ومرّوا بالقرب من معبد الربّ بقبته الفضية. وقال لهما آرن إنّ أمامهما وقتًا كافيًا لزيارته ما دام لا يُسمَح لأيِّ حاجٍّ أن يدخل إليه في اليوم المخصص لتطهيره. وخرجوا من الباب الذهبي وصعدوا فوق الغولغوتا قبل أن يقتحمه الزوّار والباعة. هناك حيث عُذّب السيّدُ المسيح ومات على الصليب لقاء آثامهم. وصلّى الثلاثةُ وأطالوا الصلاة في وقارٍ وحميّة.

وأعاد آرن ضيوفَه إلى المدينة، من بوابة سانت إتيان، ليصلوا رأسًا إلى فيا دولوروزا. وعبر المدينة التي أخذت تستيقظ شيئًا فشيئًا تعقّبوا في وقارٍ خطواتِ آلامِ السيّد الأخيرة نحو كنيسةِ القبر المقدس المغلق الذي يحرسه أربعةُ رقباء. وما لبث هؤلاء الرقباء أن فتحوا الباب فدخله سيّدُ القدس وضيوفه.

كان مظهر الكنيسة مبهراً بأقواسه الطاهرة، ونمطها الذي لم يكن غريبًا على الأب لويس ولا على آرن والأخ بيترو. لكنّ باطن البناية كان غامضًا ملتبسًا بسبب الطوائف الكثيرة التي تقتسمه وتطبعه كلُّ واحدة ببصمتِها وملامحها.

كان أحدُ أجزائها يزخر بالزخارف المذهّبة، وبالصور المفرطة المرتفعة، بألوانها التي ما لبث الأب لويس أن تلمّس فيها بصماتِ هرطقيةً من عهد البيزنطيين، فيما

Twitter: @ketab_n

استعارت زخارفُ أخرى من أنماطٍ أخرى لا يعرف عنها شيئًا. وقد أشار عليه آرن بأنّ ثمة تدبيرًا يسمح لكافةِ المسيحيين بالدخول إلى القبر المقدس دون إذنٍ، لكنّه لم يرَ في ذلك التدبير ما يثيرُ في نفسه أيَّ غرابة.

ولمّا نزلوا الدرْجات الصخرية المؤدية إلى مدفن قبو كنيسة سانت إلينَا راعتهم مهابةُ المكان أيما روْعٍ فارتعدتْ لها أبدانُهم واقشعرت. ولم يقِلَّ انفعالُ آرن عن انفعال ضيوفه. وفي خشوعٍ جثوا أمام شاهِد القبر، وقد أطالوا الخشوعَ في صمتٍ وهدوء. وهكذا وجدوا أنفسَهم في قلب المسيحية، في ذلك المكان الذي سالت في سبيله دماءٌ كثيرة.

تأثَّر الأبُ لويس بتلك الزيارة أيما تأثّر حتى شقَّ عليه أن يعرف كم من وقتٍ أنفَق في الصلاة أمام قبر السيّد، وما الذي خبِره من شعورٍ، وكم من رؤىً تجلّت له. ولم يجدوا بدًّا من أن يُطيلوا البقاءَ في المكان لأنهم ما إنْ خرجوا من باب الكنيسة الرئيسي إلى نور النهار المُبهِر حتى دهمهم دويُّ أصواتِ الناس الغاضبة، بعد أن حَرمهم أربعةُ رقباء من الدخول إلى قديس الأقداس. لكنّ هذه الجلبة ما لبثت أن همَدت عندما لاحظ الناس أنّ الزائرين الخارجين من قبو الكنيسة هم سيدُ القدس شخصيًّا وإكليروسيان.

وعند العودة اختار آرن مسارًا جديدا أقلّ قداسة قادهم عبْر البازار من بوابةِ يافا إلى حيّ فرسان هيكل الرب. وقد بدأت روائحُ البهارات واللحم النيء والدواجن والجلد المحروق والمعدنِ تقرص مناخيرَ أولئك الغرباء. وقد ظنّ الأبُ لويس أنّ كل هؤلاء الناس الذين يتحدثون لغاتٍ غيرَ مفهومة، كفرةٌ، لكنّ آرن أفهمَه أنّ جميعَهم تقريبًا مسيحيون يُقيمون في ما وراء البحر منذ ما قبل مجيء الصليبيين بكثير. فمنهم السوريون والأقباطُ والأرمنُ والمارونيون وطوائفُ أخرى كثيرة لم يسبق أن سمِع الأبُ لويس من شأنها شيئًا. وقد كشف له آرن أنّ مصير هؤلاء المسيحيين كان قاسيًا لأنّ الصليبيين عندما وصلوا لم يدركوا أن هذه الطوائف طوائفُ مسيحية. فأجسامُهم لا تميّزهم عن الأتراكِ، ولا عن عرب الشرق، وقد سُحِق منهم قدْرَ ما سُحِق من

Twitter: @ketab_n

الكفرة تقريبًا على يد مُتزمّتين من بني عقيدتهم. لكنْ من حسن الحظ أنّ تلك الفترةَ الهمجية قد ولّت منذ زمن بعيد.

وعندما زاروا في النهاية معبدَ السيد، من فوق الساحة، شرعوا في الصلاة بالقرب من صخرة قداس إسحاق، حيث كُرّس ابنُ اليسوع للربّ فيما بعد.

وبعد أن تأمّلوا واستغرقوا في التأمل قرب تلك الصخرةِ اصطحب آرن زوّارَه في طوافٍ حول الكنيسة الجميلة. ولم يجد الأبُ لويس في نفسه بُدًا من أنْ يقرّ بجمالها، رغم غرابة بَذخِها وترفِها. ودون عناءٍ أخذ آرن يَشرح للزوارِ دلالات تلك الزخارفِ المنقوشة بحروفٍ من ذهَبٍ وفِضّة على صخرة الجدران. ولَكَمْ أدهشه أن تظل هذه النصوصُ ثابتةً على حالها، فشرح له آرن دون انفعالٍ أنْ لا أحد يرى فيها هرطقةً أو بدعة. لقد ظنَّ معظم المسيحيين الذين لا يعرفون قراءةَ لغةِ القرآنِ أنّ تلك النقوشَ لا تحمل دلالات دينية، أمّا من كان قادرًا على فهمِها فهي عنده نصوصٌ على وفاقٍ تامٍّ مع الإيمان الحق، لأنه لا بد من الإقرار بأنّ أولئك الكفرة يُبَجّلون الربّ كما يُبجّله المسيحيون تمامًا.

ثارت ثائرةُ الأب لويس في البداية عندما سمع آرن وقد أخذ يصف تلك البدعةِ بذلك القدْر من الطيش، لكنه حرِص على ألا يُفصح عن رأيه وهو يقول لنفسَه أنْ لعل أمرًا غاب عن ذهنِه كما غاب عن كلِّ الذين يقيمون في الأرض المقدسة لأوّل مرّة.

حان وقتُ ترتيل الجزء الثلاثي من الفرْض الكنائسي، فسَعوا إليه على عجلٍ حتى لا يتأخر وصولُهم إلى قصر سليمان. ثم صعدوا إلى الغرف المخصصة لسيد القدس، حيث ينتظرهم جمعٌ مختلِطٌ من الزوّار، كان بعضُهم من عامةِ الناس تقريبًا، من فرسانِ الأرض المقدسة إلى الحرفيّين، إلى الباعة المسلمين. عندئذ استأذن آرن متذرّعًا ببعضِ الشؤون العاجلة. لكنه أكد لأصدقائه بأنه سيعود إليهم قبل صلاةِ السادسة.

ولم يخلفِ الوعدَ واصطحب ضيوفَه تحت الرواق الذي يُشبه الشرفةَ المقدسة في ديرِ اسبتاريّ، حيث أمَر لهم بمشروباتٍ باردةٍ وهو يزْعَمُ أنها شرابُ الليمون. أما هو

Twitter: @ketab_n

فلَم يشرب كعادته سوى الماءِ وحده.

ولم يفت الأب لويس أن يسأله إن كان يمضي كفارةً، فأجابه آرن أنّ الأمرَ كذلك، دون أن يضيف مزيدًا من الإيضاح والتفصيل. لكنه أدرك في الحال أن ذلك ليس كافيًا، فقال موضحًا إنه كان يفضِّل أنْ يعترف بذنوبه لأعزّ المرشدين على نفسه، الأبِ هنري الذي كان قِسًّا في دير فارنيم، ببلاد القوط. وقد أشرَق وجهُ الأبلويس لذلك كثيرًا، وأجاب بأنّه يعرف ذلك القسَّ الذي التقَى به مرات عديدةً في مجلس كهنَةِ سِيتُو. وفوق ذلك فقد كان للأب هنري أشياء مهمّة يريد أن يقولها عن تنصير تلك الشعوب الهمجية. فكم هو العالَمُ صغيرٌ، في الحقيقة.

شعَر آرن وكأنه يتلقَّى تحيةً من بلاده البعيدة، وقد لبث برهةً غارقًا في ذكرياتٍ تعود لعهد فارنيم وفيتا شولا، وكذلك في الآثامِ التي سيعترِف بها للأب هنري، ومنها أكثرُها غموضًا والتباسًا: حبُّه لموعودتِه سيسيليا.

أخذ آرن يقصُّ على الأبِ لويس بلا مواربة ما حدَث له بين اليومِ الذي التقَى فيه بمرشدِه وبين اليوم الذي أصبح فيه راهبًا في هيكل الربّ. ولم يجد الأبُ لويس، بما يملِكه من حنكةِ المرشد، أيَّ صعوبةٍ في الكشفِ عن الحزنِ الذي لفّته قصّةُ هذا الفارس، ولذلك اقترَح عليه أنْ يحلَّ محلَّ مرشدِه السابق، لأن آرن لا يمكن أن يجد في الأرض المقدسة شخصًا أقربَ إليه من الأب هنري. وبعد برهةٍ من التردّد أبدى آرن موافقتَه، فذهب الأبُ بيترُو ليُحضِر بطرشيل القسِّ، قبل أنْ يدعَهما وشأنَهما.

- ما الأمرُ، يا بني؟ سأل الأبُ لويس بعد أنْ بارك آرن وهو يتهيّأُ لسماع بوحِه.

- اِغفِرْ لي ذنبي، أيها الأب، لأنني اقترفتُ إثمًا، قال آرن في البداية متنهّدًا، قبل أن يُفلتَ الكلامُ من فمه إفلاتًا. لقد انتهكتُ أصولَنا فكان كما لو كنتَ أنتَ أيها الأبُ من خالفَ أصولَ كهنوتِنا. وفوق ذلك فقد كتمتُ هذا الإثمَ وهو ما يزيدني اليوم نَدَمًا وعذابًا. لكنّ الأسوأ في أمري أني أقدِّر أنّ سلوكي يستحقُّ مَن يَحْدِبُ عليه ويعطف.

- حالُك، يا بنيّ، في حاجة إلى مزيدٍ من الشرح والتوضيح، إنْ كنتَ ترغب في أن أفهمَك حتى أنصحك أو أغفِر لك، أجاب الأبُ لويس.

Twitter: @ketab_n

- لقد قَتَلْتُ مسيحيًا، وقد فعلتُ ذلك تحت وطأة الغضب، قال آرن بعد برهةٍ من التردّد. لعلني كنت سأُحرَم من معطفي وأعمل قسرًا في المراحيض عامَين كاملين، أو لعلني وجدتني في أسوإِ الأحوال مضطرًا للخروج من كهنوتنا. لكنني حين كتمتُ إثمي صرتُ أعلى مقامًا، وأنا الآن مكلّفٌ بمهمةٍ أراني غيرَ جديرٍ بها بتاتًا.

- هل عطشُك للسلطة هو الذي دفعك إلى ارتكاب هذا الإثم؟ سأل الأب لويس في حيرةٍ شديدة، بعد أن وجَد نفسَه أمام حالةٍ غاية في الخطورة.

- لا، أيها الأب، أستطيع صادقًا القولَ إنّ الأمرَ غير ذلك، أجاب آرن في ثقةٍ كاملة. فكما علِمتَ وفهِمتَ فإنّ الرجال مثلي، أو مثل أرنود دي توروج، يمتلكون الكثيرَ من السلطة في داخل كهنوتنا، ولذلك من المُهِمّ أن نعرف مَن هُم هؤلاء الرجال، لأنّ الحفاظَ على المسيحية في الأرض المقدسة مرهونٌ بوجودهم أصلا. أرنود دي توروج سيّدٌ عظيمٌ يفضل على الكثير من فرسان هيكل الربّ، وأنا سيدٌ القدس أراني أجدَرُ بهذا المقام من كثيرٍ غيري. لكنْ ليس لأنّ إيماننا أنقَى من إيمانِ الآخرين، ولا لأننا أفضلُ المرشدين الروحيّين، أو الأقدر على قيادة الفرسانِ إلى الحرب، وإنما لأننا فرسانٌ في هيكل الربّ ينشدون السلام. لأن الذين يريدون الحرب هُم الذين يقودوننا إلى الهزيمة حقًا.

- أتُبرِّرُ إثمَك إذًا بالقول إنك اقترفتَه من أجل خيْرِ الأرض المقدسة؟ سأل الأب لويس في تهكّمٍ لا تكاد العينُ تراه، ولم يلمَسْ منه آرن شيئًا تمامًا.

- أجل، أيها الأب، هذا ما كان، وبأعمق ما أستوحِيه من ضميري، أجاب آرن.

- قلْ لي، يا بنيّ، تابع الأب لويس، تُرى كم من رجلٍ قتلتَ منذ أنْ صرتَ راهبًا في هيكل الربّ؟

- لا أستطيع القولَ أيها الأب، ليس أقلَّ من خمسِمئة، وليس أكثر من ألفٍ وخمسمئة، هكذا يبدو لي. لسنا نعرف بالضبط ما الذي يحدثُ حين يصيبُ رمحٌ

Twitter: @ketab_n

أو سهمٌ هدفَه. لقد أُصِبتُ بجروحٍ بليغةٍ ثماني مرّاتٍ هي المرّاتُ التي ظنَّ العربُ بلا شكٍّ أنهم أردَوني فيها قتيلا.

– وهل بين الرجال الآخرين الذين قتلتهم رجالٌ من المسيحيين.

– نعم، بالتأكيد، فكما كان بعضُ العرب يحاربون بجانبنا كان بعضُ المسيحيين يلتحقون بمعسكر الكفرة. لكنّ هؤلاء لا يُحسَب لهم حسابٌ، لأن الأصولَ لا تمنعُنا من أنْ نُطلق على أعدائِنا سهامَنا، ونُعمِل فيهم سيوفَنا، ونخترقهم برماحِنا. ليس بإمكاننا أنْ نتحرّى إيمانَ عدوِّنا كلّما أشْهَرْنا سلاحَنا.

– لماذا موتُ هذا المسيحي إثمٌ إذًا؟ سأل الأبُ لويس في حيرةٍ شديدة.

– من أهمّ قواعدنا الشرقيةِ هذه القاعدةُ، أجاب آرن في حزنٍ واكتئاب: «عندما تستلُّ سيفَك لا تفكّرْ في مَن ستقتُل. فكِّرْ في الذي سوف تُنقذُ حياتَه.» كنتُ دومًا أحرصُ ما وسعني الحرصُ على أنْ أضَع هذه القاعدة موضعَ التنفيذِ، وقد ظلّت ماثلةً في ذهني عندما خطَر لثلاثةِ رُعْنٍ تحت وطأةِ الشهوةِ أن يقتُلوا النساءَ والأطفال والشيوخ تحت حمايةِ سيّد القصر في غزة. والحالُ أني كنتُ أنا مَنْ يحكمُ آنذاك تلك الساحة.

– ألم يكنْ من واجبِك أنْ تسهَر على الذين كانوا في حمايتِك، حتى لو كنتَ أمام مسيحيّين وجهًا لِوجه؟ سأل الأبُ لويس، وقد سكنَ روعُه.

– نعم، بالتأكيد. لقد حاولتُ أن أنقذ اثنين من المسيحيين. وإنْ هُما فارقا الحياةَ فإنّ الخطأَ ليس خطئي. فكثيراً ما يحدثُ هذا أثناء المعركة، لكنّ أخطرَ ما في الأمرِ هو الرجلُ الثالث. لقد حاولتُ في البدايةِ أن أتفاداه، كما يمليه عليَّ واجبي لكنه كافأني بقَتْلِ حصاني، ولذلك قَتَلْتُه في الحالِ تحت وطأةِ الغضب.

– صحيحٌ أن ذلك عملٌ مُشين، تنهّد الأبُ لويس الذي رأى أن الأملَ في الوصولِ إلى مخرجٍ سَهْلٍ قد بدأ يبتعِد شيئًا فشيئًا. هكذا إذًا قتلتَ مسيحيًا بِسببِ حصان؟

– أجل، أيها الأب، وهنا جوهرُ إثمي.

– إنه لَعملٌ مشينٌ، مشينٌ حقًا، قال الأبُ لويس وهو يهزّ رأسَه في حزنٍ

Twitter: @ketab_n

واكتئاب. لكنْ دعْني أستوضِحُ منك أمرًا لم يسعني فهمُه جيدًا. ألا يكتسي الحصانُ أهميةً أساسيةً عندكُم، أنتم فرسانُ هيكل الربّ؟

– الحصانُ أحيانًا أقربُ إلينا من رفاقِنا الفرسان، أجاب آرن في حزنٍ واكتئاب. لعل هذا في رأيكم، أيها الأبُ، ضربٌ من الجنون، أو لونٌ من ألوانِ التجديف على الأقل، لكنْ لا يسعني أن أفعلَ شيئًا آخر غير القولِ بصدقٍ ما حدث. إنّ حياتي مرهونةٌ بما أحمله من تشاركٍ مع حصاني. فلو كنتُ أركب حصانًا أقلَّ جودةً من ذلك الذي قتلَه ذلك المسيحي لكنتُ فارقتُ الحياةَ منذ زمنٍ طويل. لقد كان بيني وبينَه صلةٌ حَمِيمَة منذ الطفولة، وقد أنقَذ حياتي مرّاتٍ لا يسعني عدُّها. لقد خُضْنا معًا حياةَ المقاتلين طويلا.

تأثّر الأبُ لويس أيما تأثُّرٍ حين سمع الاعترافِ بذلك الحبِّ الصبياني في حقِّ بهيمة. لكنّ الوقت القصير الذي أمضاه في قلب العالم كان قد علَّمه أنّ في الأرض المقدسة أشياء مختلفةً عمّا رآه في ذلك العالم. ولذلك لم يخطرْ له أنْ يتّخذَ قرارًا عاجلا، إذ يجدر بآرن في انتظارِ العقابِ أنْ يتوجّه للربِّ مرّةً أخرى، ويطلب منه أنْ يغفِر خطيئتَه. وعند هذا الحدّ افترَقا، وذهب آرن بخطًى ثقيلةٍ ليتفرَّغ لأعمالِه التي تأخّر عنها كثيرًا.

ظل رئيس الدير جالسًا في مكانِه تحت الرواقِ، وشرع يتأمّل في حلِّ تلك المشكلة الشائكة التي باتت الآن رهن سلطانِه. فهو يهوى المشاكلَ العويصة.

كان المسيحيون الذين تحدّث عنهم آرن يستعدون لقتلِ النساءِ والأطفال — لم يدرك الأب لويس أنهم من البدو، لأن آرن لو يوضِّحْ له ذلك، ظنًّا منه أن الأمرَ غيرُ ذي أهمية، على عكس ما كان سيفعلُه شخصٌ حديثُ العهدِ بالأرض المقدسة.

لم يكنِ الربُّ، على الأرجح، يرغب في حمايةِ آثمين فاسقين، قال الأب لويس بينه وبين نفسه، وهو يواصل تأمُّلَه. فلم يكنْ غريبًا إذًا أن يضع في طريقهم فارسًا من فرسان هيكل الربّ. وقد نال اثنانِ منهم العقاب الذي يستحقّانه. فإلى هذا الحدِّ كانت المسألةُ بسيطةً جدًّا.

لكنّ قتْلَ مسيحيّ فظٍّ فاقِد اللُبّ، وفوق ذلك تحت وطأة الغضبِ لأمرٍ عويصٍ

Twitter: @ketab_n

حقًا. فلكي يجد حلاً لتلك المعضلةِ عليه أن يجتهدَ كما يجتهدُ الفيلسوفُ ويحاولَ أن يفهمَ مشيئةَ الربّ فيها.

فلو أخذنا بالرواية التي قدّمها آرن عن تلك الحادثةِ – وهل كان له من مخرجٍ آخر غيرها؟- لقُلنا إنّ الحصانَ قد خَدَم الربَّ فأتاح لسيّدِه قتْلَ المئاتِ من أعداءِ الإيمان الحق. ألا يجوز أن نُلْبِسَ هذا الحصانَ قيمةَ فارسٍ علماني حَمَل الصليبَ وذهب إلى الأرض المقدسة، تحدُوه بعضُ الدوافع النبيلة؟

من البديهي أنّ الإجابةَ اللاهوتية عن هذا السؤالِ لا يمكن أن تكون في جلاءٍ إلا بِلا. ومع ذلك فقد أساء الآثمُ إلى الربِّ في الأرض المقدسة حين وجّه ضربتَه القاضية لذلك الحصانِ وكأنه قَتل فارسًا من فرسانه. كان يجب وضْع هذا الإثم في إحدى كفَّتَيْ الميزان. وعدا ذلك فقد قصَد الآثمُ قتْلَ النساءِ والأطفالِ الأبرياء لمتعةٍ في نفسِه، وعليه فلا غرْوَ أن يُنزِلَ الربُّ عقابَه في هيئةِ فارسٍ من فرسان الهيكل.

فذاك هو الجانبُ العاقِل في المسألة. أمّا أخطرُ المصاعب فهي تأتي حين نأتي المسألةَ من جانبِها الشخصي الخالص. لقد خالَف آرن دي غوثيا الأصولَ عن خبرةٍ ودراية، فلَم يُؤْثِم سَهْوًا إذًا. فهو متعلّمٌ ويتحدّث اللاتينية تحدّثًا مُتقنًا بلكنةٍ بورغينية غريبة، مثل صديقه الأب هنري، وليس في الأمرِ ما يدعو للدهشة. فيقينًا أنه ارتكب إثمًا بالغًا لا تبرّره غباوةٌ أو جهالة.

ومع ذلك فلِلمسألة جانبٌ ثالثٌ: لقد أرسل الأبُ لويس إلى القدس من قِبل الأب القديس لِيَسْتَخْبِر الأحوالَ فيها، لقد كانت مهمّةُ البابا غاية في التعقيد، لأن رجالَ الكنيسة في الأرض المقدسة ما انفكوا يفترون ويقذفون بعضَهم بعضًا، فيشترطون إبعادَ هذا أو ذاك، أو يَطلبون رَفْعَ الإبعادِ نفسِه كلّما همَّهم رفعُ ذلك الإبعاد، ويتّهمون مُنافسيهم بشتى أنواع الآثام، ويكذبون في غالب الأحيان، بوقاحةٍ وسفاهة. فالأحوالُ ما انفكت تزداد سوءًا، لأنّ عدد الأساقفةِ في الأرضَ المقدسة صار يفوق عددَ الأساقفة في أي صقْعٍ من أصقاع الدنيا. ولذلك صار أيُّ سعيٍ للفصْل بين الحق والباطل، انطلاقًا منَ روما، مهمةً شبه مستحيلة. فلذلك أوكَلَ الأبُ القديس إلى الأبِ لويس مهمةَ العين والأذن اللذين يرى بهما البيت المقدس

Twitter: @ketab_n

في القدس، لكنْ دون أنْ يبوح بذلك السر لكائنٍ مَن كان.

لكنْ في هذه الأحوال ما الذي يمكن أن يُسنِد مهمةَ الثقةِ هذه أكثرَ؟ أهو بقاءُ آرن سيّدًا على القدس في جيشِ الأب المقدس المباركِ، أم هي الاستعاضَةُ عنه بأيّ رجلٍ أحمقَ لا يفقَه شيئًا؟

لقد بدتِ الإجابةُ عن هذا السؤالِ جليةً لا لبس فيها. فإنْ ثبتَت براءةُ آرن دي غوثيا فسوف يظل ضيفًا على الأب لويس، وفي ذلك ما يُسهّل مهمّته كثيراً. وكلُّ اعتبارٍ آخر سيظل مرهونًا بهذه المهمة الكبيرة، بما فيها الإثمُ الناتج عن قتْل مسيحيٍّ بائسٍ تحت وطأةِ الغضب. سوف يحصل أرن إذًا على العفو فوراً، لكنْ لن يفوت الأبَ لويس ذِكْرُ هذه المسألة الشائكة في أوّل رسالةٍ يوجّهها إلى الأب القديس، حتى يحصلَ هذا الغفرانُ على العقابِ البابوي. وهكذا سوف تنتهي المسألة.

ولمّا التقَى آرن بالأب لويس من جديدٍ في ذاتِ المكان، في اليوم التالي قبل تسابيحِ الصباحِ طُهّر من آثامِه باسم الأب والابن والقديسة العذراء. لكنْ عند اللحظةِ التي جثا فيها لأداءِ واجِب العفوِ إذْ بالأب لويس يتنتفض لصوتِ مُدَوٍّ قادم من أعماق الظلام. لقد سمِع مثلَ ذلك الصوتِ من قبلُ لكنْ لم تسنَحْ له فرصةٌ لكي يتحرّى طبيعته.

ولمّا رأى آرن قلقَه واضطرابه أخذ يهدّئُ بالَه ويشرح له أنّ الصوتَ صوتُ المؤذّن الذي ينادي لصلاة العرب ويؤكد لهم أن الله هو الأكبر. ولمّا أدرك أنّ أعداء الإيمان الحق يُقيمون في اطمئنانٍ صلواتهم التجديفية فقدَ الأبُ لويس خيطَ صلاتِه، بيد أنّ الوقتَ بدا له غيرَ مناسبٍ للخوض في ذلك الموضوع.

شكَر آرن الربَّ على رأفتِه وحِلمه، بيد أنه كان أقلّ اندهاشًا ممّا كان يتصوّره العقلُ حين غُفِر له ذنبٌ عظيمٌ من دون عقابٍ آخر غير أسبوعٍ إضافي من الخبزِ الجافّ والماء.

كانت هي المرّة الثانية التي يُغفَر له فيها بعد أن قَتل مسيحيًا. فحين كان في مقتَبل العمر، وهو طفلٌ أو يكاد، دافَع عن نفسه ضد مزارعَين حاولا قتلَه فقتَلَهُما. وحتى يغفِر ذنبَه ادّعَى مرشدُه أنَ الخطأَ خطأُ المزارعَين، وأنّ القديسة العذراء انحازت

Twitter: @ketab_n

إليه حتى تحمِي حبَّ صبيّةٍ له. لم يَذكرْ آرن جيّدًا ما الذي رواه الأبُ هنري بعد ذلك، لكنه عفَا عنه، وكان حسبُه ذلك العفو.

أما الإثمُ الوحيدُ الذي لم يغفَر له في حياته فهو تلك العلاقة التي ربطتْه جسديًا بسيسيليا، خطيبتِه، قبل أن يبارك الربُّ تلك العلاقةَ تبريكًا وافيًا كافيًا. فهو يقضي منذ نحو عشرين عامًا العقابَ على ذلك الإثم، ومع ذلك فلم يسعْه يومًا أن يفهم السببَ الذي جعل ذلك الإثمَ وحدَه إثمًا لا رجاءَ لعفوٍ منه بتاتًا. كما لم يفهم ما الذي دبّره الربُّ حين أرسلَه إلى الأرض المقدسة ليُنفِق فيها الكثيرَ من سنوات عمره. صحيح أنه سلَب الكثيرَ من الرجال حياتَهم، لكنْ هل كانت تلك هي المشيئةُ الوحيدة التي يدبّرها له الربُّ حقًا؟

* * *

لم يجد بطريركُ القدس الجديد، وهو أكبرُ نبلاء الكنيسة الرومانية، بعد الأب القديس، أيَّ عناءٍ في التغلب على سمعتِه المشينة. فما لبث قصرُه الكائنُ ليس بعيدًا عن قصر الملك أن صار معروفًا في المدينة بكاملِها، كمكانٍ للفجور والدعارة. فقد كان الناسُ يصُفقون حين تمرّ عشيقتُه المشهورة باسك دي ريفيري، التي كانوا يُلقّبونها بالسيّدة البطريركية، عندما كانت تأتي لزيارة المدينة المقدسة. أمّا لماذا لم تنزعج أنييس كورتناي لأنّ عشيقها يغازل نساءً غيرَها فلا تفسيرَ لذلك سوى القولِ إنّ لها رجالا آخرين غيره، هي أيضًا.

ظل اختيارُ البطريرك الجديد سرًا غامضًا إلى ما لا نهاية. فلم يفقِد المطرانُ غيوم، مطرانُ صُورْ الذي ظل كلُّ مَن يفقَهون قليلاً في شؤونِ الكنيسة يظنون أنه خيرُ مَن يحتلُّ ذلك المنصبَ السامي، المعركةَ ضد ذلك الذي يُدعَى هيروقليوس، طالب لذّةِ كرسي البطريرك، وحسب، بل لقد أقصِيَ بعد تلك الهزيمةالنكراء بحجة آثام عديدة يستطيع كلُّ واحد أن يقول عن يقينٍ أنه لم يقترفها، على عكس هيرافليوس تمامًا.

فلم يجد هذا الرجل الذي صار خالدًا فيما أرخَى التاريخُ ستارَه على تصرفات منافسِه المشينة، بدًّا من الذهاب إلى روما حتى يحصل من الأب القديس على ما

Twitter: @ketab_n

يرفع عنه ذلك الإقصاء. وقد كان كلُّ واحدٍ على يقينٍ من أنه سيكسب دعواه، وكان البعضُ، أمثال هيروقليوس نفسه يقدّرون أيضًا أن هذا الرجل قادرٌ على كشف عددٍ من الأمور التي باتت تهدّد بالخطر كرسيَّ بطريرك القدس الجديد.

لكنْ من سوء حظِّ الأرض المقدسة أنّ غيوم أُودِعَ السجنَ بعد وصوله إلى روما بقليل، وبذلك اختفت الوثائقُ التي حملَها معه، وظلّ أمرُها سرًّا خفيًّا.

ومنذ تلك اللحظة لم يعد هيراقليوس يخشى شيئًا، ولم يكن صلاحُ الدين نفسُه يعلم كم ستنفعه تلك الدسائسُ من حيث لا يدري.

ما لبثت الهدنةُ التي سادت حتى ساعة مقتلِ غيوم أن قُطِعت كما في سابق عهدِها، ولم يستطع رينو دي شاتيون أن يكبَح حماستَه حين رأى قوافلَ التجار تمرّ أمام قصرِه في الكرك، فيما وراء نهر الأردن، فعاد إلى أعمال النهب والسلبِ مرّة أخرى.

وسرعان ما أضحَى الشابُ المحتضِرُ الذي يسوس شؤون القدسِ عاجزًا عن احتواءِ خادمِه وهكذا باتت الحربُ مع صلاح الدين أمرًا محتومًا.

وعلى غرار مرّاتٍ عديدة عبَر صلاحُ الدين نهرَ الأردن من طبرية، وشرع في اكتساح الجليل، وهو يأملُ أن يُجبِر الجيشَ المسيحي على خوضِ معركةٍ حاسمة ضده.

منذ زواجه مع أخت الملكِ صار غي دي لوسينيان، ذلك الأرعن صاحبُ الشعر الجميل، وريثًا للعرش. وقد أضحى بفضل هذه النعمة الطارئة قائدًا على الجيش الملكي الذي قاده لأول مرّةٍ في حياتِه ضد صلاح الدين. لم تكن مهمّتُه هذه يسيرةً، ولم تكن كذلك أيضًا على الكونت ريموند، كونت طرابلس الذي جاء على مضضٍ ليُصبح مع فرسانِه تحت إمرةِ غي. وقد منحَه فرسانُ هيكل الربّ وفرسانُ الاسبتّارية أيضاً عددًا لا يُستهان به من فرسانهم.

وضَع السيّدُ الأعظم لفرسان هيكل الربّ قيادةَ كلّ الفرق تحت إمرةِ صديقِه آرن دي غوثيا، أمّا فرسانُ الاسبتارية فقد صاروا خاضعين لأوامر روجيه دي مولان.

ولمّا تصادم المسيحيون وعربُ الشرق لأوّل مرّة في الجليل انهالت النصائحُ

Twitter: @ketab_n

المتضاربةُ على غي دي لوسينيان فازداد بتلك النصائح حيرةً وارتباكًا.

بدأ آرن بعد أن حصل مرّة أخرى على إذنٍ بالاستعانة بِكشّافين من البدو، يؤكد أنّ ما ظهَر للعيانِ من فرقِ العدوّ لم يكن سوى جزءٍ صغيرٍ ممّا يختفي ليس بعيدًا عن ذلك المكان، وأنه من الجنون الهجومَ على تلك القوات، لأنّ الهجومَ هو ما يتمنّاه صلاحُ الدين.لكنْ لو تحصّنت القواتُ في مواقع الدفاع فسوف تجد خيّالةُ العرب الخفيفةُ عناءً جمًّا في التقدّم نحو الهجوم، وإنْ لم تجدْ سبيلا آخرَ غير الهجوم فسوف تُهزَم شرَّ هزيمة، لأنّ في صفوف المسيحيين نبّالين من المشاة. فهؤلاء يستطيعون أن يُمطِروا العدوَّ عن بُعْدٍ وابلا من السهامِ تجعل السماءَ تُظلِم من فرط كثافتِها. فلو تقدّمت خيّالةٌ عربيةٌ خفيفة تحت هذه السحابة لسُحِقَت عن آخرها حتى قبل أن تحتكّ بأولئك النبّالين.

طالب بعضُ البارونات العلمانيين وشقيقُ غي، أموري دي لوسينيان الذي صار الآن القائدَ المساعد للجيش الملكي، بشنِّ الهجوم حالاً بكامل الخيالةِ، ليقينِهم أنّ حالَ العدوِّ أقلُّ استعدادًا وسندًا. وقد أبدى أُخُو أنييسْ، جوسلين دي كورتناي الذي حصل على مركزٍ مهمٍّ في الجيش الملكي، تأييدَه لذلك الهجوم أيضًا.

كان من الطبيعي أن يتخذ روجيه دي مولان، سيّدُ فرسان الاسبتارية الأعظمُ، موقفًا معارضًا لموقف فرسان هيكل الربّ، بيد أنه ما لبث بعد محادثةٍ مع آرن أنْ أقرَّ بأنّ إعلانَ الهجومِ حماقةٌ وجنونٌ، إذْ الخطرُ كلُّ الخطرِ أن يقع الجيشُ في ذات الفخِّ الذي وقَع فيه في مرج عيون.

وفي هذه الأحوال أضحى المُمالقُ الغِرُّ غي دي لوسينيان عاجزًا عن اتخاذ قرارٍ في هذا الاتجاه أو ذاك.

وأخيرًا لم تحدث المواجهةُ المتوقعة، ولم يحدث انتصارٌ ولا هزيمة. وقد خابَت خطةُ صلاح الدين الذي سعَى لأنْ يحثَّ خيّالةَ المسيحيين الثقيلةَ على الهجوم على أوّل فريسةٍ سهلة، حتى يستدرجَها إلى الفخّ الذي نصبَه لها على مسارٍ قصيرٍ من خيّالتِه. فلم يخطرْ له قط أن يهاجِم بخيّالته الخفيفةِ جيشًا مسيحيًّا أحسنَ تحصينَ مواقعه الدفاعية.

Twitter: @ketab_n

لم يُلقِ صلاحُ الدين بالاً ولم يحمل همًّا لتلك المعركة التي لم تنطلق، فَما من خطرٍ يُهدِّدُ سلطانَه لا في القاهرة ولا في دمشق. ولم يكن معرّضًا للمساءلة من أيِّ أميرٍ كان، وكان يُقدّر أنّ فرصًا أخرى سوف تتاح له قريبًا.

لكنّ غي دي لوسينيان لم يكن على القدْر نفسه من الحظ، ولم يجدْ بدًّا من الاستسلامِ لنهبٍ جديدٍ في الجليل على يدِ قواتِ صلاح الدين التي لم تجدْ موردًا آخر تُلَبِّي به حاجاتِها بعد أن تقهقرتْ من دون أن تخوض المعركة.

وعند عودتِه إلى القدس لقِي غي عناءً في الدفاع عن نفسِه أمام من ادّعوا أنهم أدرَى منه بِقهر صلاح الدين. لقد اعتصب الجميعُ ضده، بمن فيهم حماتُه التي تعاظَمت وتباهَت بهذا التعصب وكأنها قائدٌ من قوّاد الحربِ الكبار.

في تلك الأثناء ضُرَّ بصرُ الملكِ بالدوين الرابع بالكامل فصار غيْرَ قادرٍ على التنقّل بمفردِه، وأضحى حالُه لا يسمح بأن يُنهي ذلك الإجماعَ من الانتقادِ ضدّ غي دي لوسينيان الذي عيَّره الجميعُ بالعجزِ والتردّد والجبن، وأجمعوا على القولِ إنّ ملِكًا مثلَه لن يجرَّ للبلاد سوى الخرابِ والهلاك.

لذلك كان لزامًا فعلُ أيِّ شيءٍ لأنّ الوقتَ يمضي مسرعًا. كان الملكُ الأبرصُ قد بدأ يحسّ بنفَثِ الموتِ في قفاه، ولذلك إذًا رفَعَ نجلَ سِيبيلْ، البالغَ من العمر ستة أعوام، والمسمّى بالدوين أيضًا، إلى رتبةِ وريثٍ للملك. أمّا غي دي لوسينيان فقد عيّنه كُونتًا على عسقلان ويافا، شريطة أن يقِيم في أولى هاتين المدينتين حتى يكفَّ عن تعكير الحياةِ في القصر بوجودِه فيه. وانطلق غي نحو عسقلان برفقةِ سيبيلْ ونجلِه الصغير وهو يصرُّ أسنانَه صرًّا ويُبدي اعتراضًا شديدًا.

كان سوءُ صحّةِ هذا الطفلِ معروفًا للجميع، أمّا حيلةُ تعيينه وريثًا للعرشِ فلم تكن سوى لإحباطِ طمَع غي دي لوسينيان في الـمُلك. لكنْ من يدري مَن مِن الاثنين سيموتُ أوّلًا، أهو الملك البالغ من العمر أربعةً وعشرين عامًا، أم هو بالدوين الذي لم يبلغْ من العمرِ إلا أعوامًا ستة؟ فالربُّ وحده أعلمُ وأدرى!

* * *

Twitter: @ketab_n

اضطر الأب لويس للانتظار شهورًا طويلة في المدينة المقدسة قبل أن ينتهز فرصةَ الالتقاء بأرنود دي توروج وآرن دي غوثيا في الوقت نفسه. لقد كان الرجلان في غالبِ الأحيانِ يقومان بمهمّاتٍ خارجَ المدينة، فكان الأولُ يسعى لتسويةِ كافة المسائل الشائكة التي قد تطفُو في قلْبِ الكهنوت، مِن أرمِينْيَا شمالا إلى غزة جنوبًا. وكان الثاني ملزَمًا بتفتيشِ مواقعه القوية المختلفة بلا انقطاع.

لكنَ رئيس الدير كان شديد الحرص على لقائهما معًا، وفي ساعةِ الهدوء، ما وسعَه الحرص، كان يريد الاجتماعَ بهما ليُكاشفَهما بأمرٍ ثقيلٍ أثقَل من أن يتحمّله كاهلُ رجلٍ بمفرده، ناهيك عن أن تدبيرَ رأسين أفضلُ من تدبيرِ رأسٍ واحد. لكنه في المقابلِ لم يكن في مأمنٍ من أنْ يُذاع سرُّه حين يُلقيه على الرجلين: سوف يفهم الرجلان أنّ رئيسَ الدير ليس راهبًا عاديًا جاء حاجًّا للمدينة المقدسة، وإنما رسولٌ من قِبل الأب المقدس جاء في مهمّةِ تقصٍّ واستطلاع.

ولعله قال بينه وبين نفسِه أنّ آرن يَشتبِه في هُويَّته منذ حين، لأنّ كرمَ الضيافة حُظِي بها في القدس لم تكن مألوفة، لقد استطاع أن يقيم في مقرِّ فرسان هيكل الرب بدلا من الدير الاسبتاريّ في جبل الزيتون، وهكذا وجد نفسَه في قلب السلطة نفسِها، أي في المركز الذي يحلُم به أيُّ رجلٍ مكلَّف بمهمّة مثل المهمّة التي جاء يحمِلها.

فإن كان آرن قد فهم طبيعة مهمّةِ ذلك المبعوث في المدينة المقدسة فلا غرابة أن يُدرِك كرمُ الضيافة تلك القِمم. ومع ذلك فلم يكن الأبُ لويس يملك اليقينَ بذلك. لقد تعلّق به ذلك الفارسُ الغريب أيما تعلّق، فكثيراً ما كان يأخذهما الحديثُ طويلا في المسائل الدنيوية والدينية معًا، على نحو ما كان آرن يفعل صراحةً مع مرشده السابق في ذلك الدير الكائن في أقاصي بلاد القوط الذي لم يعد الأبُ لويس يذكر له اسمًا.

ذهب أرنود دي توروج وآرن دي غوثيا ليجلِسا كالعادة مع صديقِهما تحت الرواق، ذات مساءٍ عند الغروب. وقد أخذا يَهْزآن من الأصواتِ والروائح المتصاعدة

Twitter: @ketab_n

من المدينة، لكنّ المجرى الذي أخذه الكلام بينهما لم يكن مناسبًا للحديث الذي كان الأبُ لويس يرغب في الخوضِ فيه معهما.

كان هذان الوجهان في كهنوت هيكل الرب يختلفان بدنيًّا كل الاختلاف. كان أحدهما طويلَ القامة، أسمر اللون، حادّ الطبع، نَبيهًا وسريع الخاطر، كما يليق بكلّ من يقيم في قصرِ الملوك أن يكون. وكان الثاني مفرطًا في الشقرة، حتى بدت لحيتُه أقرب إلى البياض، وقد لوَّنت عينيه زرقةٌ فاتحة شفافة، فكان يبدو نحيفًا أو يكاد إلى جانب رفيقه. وفوق ذلك كان هادئًا ومقتضِبَ الحديث في غالب الأحيان. لقد كان الرجلان مثلَ النار في الجنوب، ومثلَ الجليد شمالا، لكنْ كلاهما نصيران للمسيحية وللقبرِ المقدس. وكان رئيسُ الدير يقول بينه وبين نفسه إنّ سانت برنارْ سوف يبتسِم لرؤية هذين الرجلين، لأنّ ما من ضالّةٍ أعظمُ ممّا صنعه القديسُ بهذين الفارسين الجديدين اللذين يفديان بكل شيء في سبيل الربّ.

يضاف إلى ذلك شأنٌ آخرُ وهو أنّ الأب لويس هو من سيحمِل القسطَ الأكبر من همّ الرجلين. فلو جزلا لحيتيهما ووضَعا ثوب راهبٍ على أكتافهما بدلا من المعطفِ الأبيض بصليبِه القرمزي لوسِع هذين الرجلين اللّبِقَين أنْ يدخلا أيَّ ديرٍ برفقة الأب هنري.

كان في الأمرِ شيءٌ لا يدرَكُ كُنهُه: فهذان الرجلان يُحسَبان من خيرةِ المحاربين في العالم، يرتعِد ويرتجف لهما كلُّ الأعداء. ومع ذلك فقد كانت نظرتُهما وديعةً، وكان حديثُهما في كل أمرٍ حديثًا موزونًا، فلعله لذلك السبب صارا أفضلَ من يجسّد حُلمَ سانت برنارْ خيرَ تجسيد.

وحتى يُنهي بينهما مجرى ذلك الحديث الذي بدا له حديثًا طائشًا ولا رويَّة فيه صمَت الأب لويس برهةً واستغرَق في الدعاء في هدوءٍ وإطراقٍ، وما لبث الرجلان أن أدركا أمرهما في الحال، فصمَتا بدورهما وتهيّآ للإصغاء.

لقد آن الأوان لكي يُكاشفَهما بالحقيقة.

وكاشفهما الأب لويس بالحقيقة، قائلا إنه مبعوثٌ من لدُن الأب القديس في مهمةٍ خاصة، وأنّ فرسان الاسبتارية الذين ما انفكوا يحُومون حوله جيئةً وذهابًا،

Twitter: @ketab_n

وأوّلهم بيترو دي سيينْ، قد رحَلوا إلى روما حاملِين للبابا رسائل أُعدّت له خصيصًا.

لم يبدِ محدِّثاه أي انفعال خاصّ لهذا السرّ، وتعذّر على الأب لويس أن يعرف إن سبَق لهما أن كشَفا السرَّ وكشَفا عنه في ذلك الحين أيضًا.

لكنّ رسائل أخرى كانت قد وصلت من كوري أيضًا، فصار الناسُ على يقينٍ تامّ من أمرٍ مغيظٍ للغاية. لقد صار هيراقليوس، بطريرك القدس يضمُّ بين الأشخاص التابعين له رجلاً يُدعى بليدون، وهو بلا شك جنديٌّ منشقّ عن كنيسة القسطنطينية الهرطقية. لم يكن من السهل تحديدُ أنشطة هذا الرجل تحديدًا دقيقا، لأنه كان في ظاهر الأمر يتفرّغ لأمرٍ بعينِه تارة، ولأمورٍ أخرى تارةً أخرى، لا سيما ما ارتبطَ منها بممارساته الليليةِ العديدة، وكان قصْرُ البطريرك في غالبِ الأحيانِ مسرحَها.

رفع محدِّثا الأب لويس حاجِبَيهما حتى يُظهرا اندهاشَهما أمام ذلك النبأ، أو ربما لأنّ الأب لويس قد نجح في معرفةِ تلك الأنشطة التي يمارسها ذلك الشخصُ الذي قلّما يزكّيه أحدٌ أو يباركه.

لكنّ رئيس الدير لم يكن قد كشَف عمّا هو أكثر فظاعةً وشناعة. لقد سُمِّمَ المطرانُ غيوم، مطرانُ صورْ في روما، قبل أن يستقبله الأبُ القديس بقليل. وكان من المعروف منذ وقتٍ طويل أنّ في الأمر جريمة، لأن الآثار التي وُجدت في غرفة المقتولِ، وكذلك لون وجهِه عند العثور عليه لم تدعْ مجالاً لأيّ شكٍّ في حقيقةِ تلك الجريمة.

لكنّ الذي جاء لزيارته قبل نحو ساعةٍ من وفاته صار الآن معروفَ الهُوية، فهو ليس شخصًا آخرَ غيرَ بليدون. ويُفسّر تلك الجريمةَ أيضًا ذلك الغموضُ الذي ظل يلفُّ اختفاءَ الوثائق التي كان المطرانُ ينوي الاستنادَ إليها أثناءَ اجتماعه.

لم يُراود المقرَّ المقدس إذًا أيَّ شكٍّ في ذلك الأمر بتاتًا: فبأمرٍ من هيراقليوس اغتال بليدون، غيوم، مطران صورْ.

لقد بُدئ إذاً في التنقيب في ماضي هيراقليوس، وقد تبيّن أنه وُلد في العام ١١٣٠ في أوفرنيا، في عائلة من أصلٍ وضيع، وأنه كان مُرتِّلاً في كنيسةٍ ريفية، لكنه لم يلتمِس يومًا نذورًا رهبانية، ولم يُسَمَّ كاهنًا، وفي ذلك ما يفسّر جهلَه للاتينية. لقد

Twitter: @ketab_n

وصل إلى الأرض المقدسة مع مُغامرين آخرين من شاكِلته، وقد حقق مآربه بالكذب وليس عن طريق الحرب. وقد علِم الأبُ لويس بتفاصيل الطريق الذي سلكَه صعودًا إلى السلطة، لكنْ يبدو أنّ تأثيرَه جاء بفضل علاقاته العديدةِ مع الحريم، وأهمهنّ أنييسْ دي كوتيناي. ولا شك أنّ عشيقَته الثانية باسك دي ريفيري لعبت دوراً مُهمًّا في صعوده إلى ثاني رتبةٍ في السلَّم المسيحي في العالم.

كان بطريرك القدس، باختصار، ماكراً خدّاعًا، وسفّاحًا.

عند هذا الحدّ من الحديث قطَع الأبُ لويس تقريرَه دون أن يوضّح القرارَ الذي اتخذه الأبُ القديس.

– إن ما تقوله هنا، أيها الأب، مثيرٌ للقلقِ والانشغال، همس أرنود دي توروج، بصوتٍ خافت. إنّ أخي الراهب، وأنا نفسي لا نجهل ميولَ هذا الرجلِ للشر، لكنّ نبأَ تورّطِه في تسميم الموقَّرِ غيوم، مطرانِ صورْ، لا يفاجئنا وحسب بل يُقزّزنا بفظاعتِه وشناعته. لكنْ، ترى، ما الذي تريده؟ وما الذي يريده الأب القديس؟

– أنتما منذ الآن تملكان نبأً لا يجوز لكما إذاعتُه لأيِّ شخصٍ لا ترقى رتبتُه إلى رُتبتيْكما على الأقل، أقرّ الأب لويس الذي لم يكن يرى في هذا الجزء من مهمّته ما يريحه ويُرضيه. فإن جاء يومًا من يخلِف آرن وجب عليك، يا أرنود دي توروج، أن تُخبره بذلك، وكذلك الأمرُ فيما يخصّكَ أنت يا آرن.

– أهي إرادةُ الأب القديس الملحّة؟ سأل السيدُ الأعظم.

– أجل، ولهذا السبب أنقُل إليكما هذه البراءة البابَاوية،أجاب الأب لويس الذي فتَح معطفَه وأخرج لفافةً من الرقِّ مزيّنة بخاتَمَيْن حِبْرِيَّيْن وَضعها أمامَهما.

أطرق فارسا هيكل الربّ رأسيهما سمعًا وطاعة. وبحركةٍ بطيئة تناول أرنود دي توروج البراءةَ البابَاوية ودسّها تحت معطفه. وظل الثلاثةُ بعد ذلك صامتين لا ينطِقان بشيء.

– إننا، كما فهِمْتَ أيها الأب، نمتثِل امتثالا صارمًا لإرادة الأب القديس، قال السيدُ الأعظم، لكنْ هل تأذن لنا بإلقاء مزيدٍ من الأسئلة؟

– بالطبع، أجاب الأب لويس وهو يرسم إشارة الصليب. لكنْ ما دام عندي

Twitter: @ketab_n

شكٌّ في ما ستطلبُه مني فسأردُّ على سؤالك فوراً. لا شك أنّكما تتساءلان ما الذي يجعل الأبَ القديس لا يُقْبِل على تدابير حاسمةٍ ضد هذا الرجل. فهذا ما تريدان معرفته، أليس كذلك؟

– أجل، بالفعل، أكد أرنود دي توروج، لسنا وحدنا من فهِم أن هيراقليوس رجلٌ ماكر وخداع. كلنا نعرف أنه يحيى حياةً لا تليق برجلِ كنيسة. وربنا يعلم أن هذا الرجلَ عارٌ على القدس. لكنْ لا أحد غير الأب القديس يستطيع أن يفعل شيئًا ضده. لذلك نسأل أنفسَنا لماذا لم يُعلن إقصاءَ هذا الرجل الماكر المجرم.

– لأن الأب القديس ومستشاريه الموقّرين وصلوا إلى نتيجةٍ مفادها أنّ هذا الإقصاء سوف يلقي على كنيسة روما مزيدًا من الأضرار العظام. فهذا الماكرُ ليس بعيدًا عن الجحيم الذي في انتظاره، ما دام قد بلغ من العمر سبعةً وستين عامًا. فلو أُقصِيَ لحزِنَ العالمُ حين يعلم أنّ الأرض المقدسة على رأسها مطرانٌ ماكر وسمّامٌ وزانٍ. ولا شك أن الخراب الذي سوف يحدِثه مثلُ هذا النبأ حين انتشارِه في عالم المسيحية سيصعُب التعافي منه. إذا لصالح الكنيسة ولصالح الأرض المقدسة... أفهِمْتُما؟

في الحالِ أقرّ فارسا هيكل الربّ بالفكرة التي قالها الأب لويس، وهزًا في حزنٍ وهدوءٍ رأسيهِما حتى يُشعراه أنهما يسلّمانِ برأيِه، وأنهما لا يملكان أسئلةً أخرى، ولا اعتراضا.

– حسنٌ، كانت هذه مسألة السّمّام... قال الأب لويس بنبرةٍ طليقة، وكأن المسألةَ عنده مزحةٌ أو تكاد. فَلْنَأْتِ الآن إلى المسألة التي بعدَها. لا داعي للخشية. فهي مسألةٌ مختلفة تمامًا. لن تُكلّفَكُما أيَّ براءة بابوية، لكنها ستُسبّب لكما بعض الإزعاج. فأنا مكلَّف بإلقاء الضوء في هذا الشأن، فهل تسمحانِ بأن أدخل في الموضوع من غير مقدّمات؟

– بالطبع، أيها الأب، أجاب السيّد الأعظم، وهو يؤدي حركةً من فوق الطاولة، وكأنّ عفريتًا سيطلع عليه من تحتها. فبعد ما سمعناه، أنا وآرن، صرنا الآن مهيّئين لسماعِ كل شيء. فما الأمر إذًا؟

Twitter: @ketab_n

- الأمرُ يتعلق ببعض التدابير الخاصة بالقدس، قال الأب لويس في حذَرٍ في البداية، وقد بدا متردّدًا لا يعرف كيف يطرح المسألةَ في أدبٍ وفي حزمٍ معًا. ظني أني فهمتُ منكما أنّكما ترخّصان للكفرة الصلاة في دائرةِ سلطتِكما الدينية، بل وأنكما تسمَحان لهم بأنْ يُخبروا بذلك من شاءوا من الناسِ من حولهم، ولنقُلْ بأقلّ قدرٍ من الضجيج، حتى يستعدّوا للقيام بزندَقتهم. هذا صحيح، أليس كذلك؟

- أجل، هكذا الأمرُ تمامًا، أجاب آرن بعد أن أشار إليه أرنود دي توروج بأنّ الأمر متوقّفٌ عليه في إنقاذهما من هذه الورطة.

- ظني أنكما صادقان كلّ الصدق في إيمانكما، تابع الأب لويس بنبرةٍ وُدّية، من العار القولُ إنكما لستُما من أكثر المدافعين حماسةً عن الإيمان الحقّ في المسيحية. وظني أني أعرفكما جيدًا لأقول وأؤكد أنكما هكذا حقًّا.

- أنت شديدُ الكرم نحونا، أيها الأب، أجاب آرن. صحيحٌ أننا نبذُل كلَّ ما بوسعنا. لكنْ لعلك ترى هنا تناقضًا ما! نحن من يدافع عن الإيمان الحق والسيف في يدينا، ونحن من يقتل الكفرةَ بالآلاف، فكيف نتسامح مع صلواتهم وضجيجِها الذي يصل إلى قلبِ كهنوت فرسان هيكل الربّ؟

- أجل، هو ذاك تقريبًا، قال الأب لويس وهو يشعُر بالحرج، لأنه لم يستطع أن يصوغَ سؤالَه قبل أن يُصاغَ له.

- فكما أتيح لي أن أقوله لك من قبل، أيها الأب، أردَف آرن، فإن القاعدة الذهبية في كهنوتنا تقول: "عندما تستلُّ سيفَك لا تُفكرْ في مَن ستقتلُه، وإنما فكّر في الذي ستُنقذِه." فهذه القاعدة ليست فقط لتأمين قدْر من النعومة، ولا لكي نُبعد عن أنفسنا أسوأ الآثام التي قد نقترِفها، أي القتل تحت هيمنة الغضب. فالأمر مختلفٌ تمامًا. إنّ عرب الشرق أكثرُ عددًا من مسيحيّي ما وراء البحر بآلاف الأضعاف. فحتى إنِ كنا جميعًا قادرين على التخلّصِ منهم فلن يكون لنا ذلك إلا عبثًا وتهوُّرًا، لأننا ساعتَها سوف نموت جميعُنا جوعًا. فنحن لا نملك الأرضَ المقدسة إلا منذ نحو مئة عام فقط، ولكننا ننوي البقاءَ فيها إلى الأبد، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

– أجل، هكذا يمكننا القول، قال الأبُ لويس مؤكدًا، وهو ينتظر بفارغ الصبر وفراً من الشرح والتوضيح.

– بعضُ المسيحيين يحاربون إلى جانب عرب الشرق، وكثيرٌ من الكفرة يحاربون إلى جانبنا. فالحربُ لا تعني أنّ إلهَهم هُم ضدّ ربنا نحن، لأنّ الربّ واحد. إن صليبيّتُنا حربٌ ضد الشر. ولدينا الكثيرُ من الأصدقاء الكفرة في التجارة، وفي القوافل، وفي جاسوسية. وبالمثل فإنّ معظم أطبائِنا مسلمون. فلو اشترطنا عليهم أن يعتنِقوا دينَنا منذ اللحظة التي يعمَلون فيها معنا لوجَب علينا الذهابُ إلى الريف لكي نطلب من الفلاحين الفلسطينيين أن يتنصّروا. بمعنًى آخر ذلك الأمر مستحيل. لِنَخُضْ الآن في صِلاتنا التجارية مع الموصل التي ليست بعدُ جزءًا من إمبراطورية صلاح الدين. أسبوعان اثنان سيراً بالقوافل يفصلان هذه المدينة عن سانت جان عكة، أهمّ ميناءٍ لتصدير الأقمشة القادمة من الموصل. ففي سانت جان عكة يمتلك تجار الموصل خانًا، مع أماكنهم الخاصة بالعبادة، ومسجدِهم، والمئذنة التي ينادون منها للصلاة. كما لديهم حانتُهم الخاصة. فإن رغبنا في أن نُنهي التجارةَ مع الموصل، وإن أردنا عدا ذلك أن نرمي الأتابيك التركي في أحضان صلاح الدين يكفينا أن نَجُزَّ بالقوةِ لحى هؤلاء التجار، وأن نُنصِّرهم رغم احتجاجاتهم وتشبيحاتهم. وفي رأينا أنّ الأمر لن يكون في صالح الأرض المقدسة.

– لكنْ، هل من الطيب أن يُقبِل الكفرةُ على آثامهم في قلب المدينة المقدسة؟ سأل الأب لويس في ارتياب.

– نعم، أجاب آرن بخشونة.إنك تعرف مثلي تمامًا أيها الأب، أنّ المذهب الرباني الحقيقي هو مذهبُنا. أراكَ على استعدادٍ لأن تموت من أجل الإيمان، وقد أقسمتُ بأنْ أموت من أجل الإيمان حين يُشترط مني ذلك. إننا نعرف أين الحقيقة وأين الحياة. لكنْ وا اسفاه، تسعةُ سكانٍ من كل عشرة يجهلون ذلك. لكنْ إذا لم يُلْقَ بنا إلى البحرِ من قِبل صلاحُ الدين، أو من قِبل أحدٍ ممّن سيأتون من بعدِه فما الذي سيبقى لنا بعد مئة عام؟ أو بعد ثلاثمئة عام؟ أو بعد ثمانمئة عام؟

Twitter: @ketab_n

– أتظنّ أن الحقيقة ستفرِض نفسَها في النهاية؟ سأل الأب لويس وهو يبتسِم في مكرٍ مفاجئ.

– أجل، أظن ذلك، أجاب آرن. نستطيع أن نحتفظ بالمدينة المقدسة بقوةِ السيف وحده، لكن ليس إلى ما لا نهاية. فلن نشهدَ الهزيمة حقًا إلا عندما لا نعود في حاجة إلى هذا السيف.إن الشعوب، أيًا كانت، تمقُت أن يُكرِهها أحدٌ على اعتناق أيّ دين. على العموم ليس أفضل لنشْر الإيمان من استعمال التجارة، والحوار، والسلام، والدعاء، والموعظة.

– لكي نقضي على الكفر علينا إذًا أن نتسامح فيه؟ قال الأب لويس مندهشًا؟ لو قال هذا الكلامَ راهبٌ تاركٌ للرهبانية، من على عمودٍ في بورغونيا لقلتُ إنه كلامٌ صِبيانيّ، ولقلتُ إنه لا يفقَه من سلطةِ السيف شيئًا. لكنْ، إذا كنتما كلاكما، وقد عرفتما أكثر مما يعرفه أيُّ مسيحي في هذا الباب، تؤمنان بمثل هذه الأفكار.... قُل لي، أهذه فكرتُك أنت أيضًا، أيها السيد الأعظم؟

– أجل، لعلني كنت سأطيلُ في شرح هذه الفكرة، أكثر من صديقي أرنود دي توروج، لكني لو فعلتُ لوجدتني في النهاية لم أقلْ شيئًا آخر غير الذي قاله.

– ثمة أمرٌ آخرُ يجب أن تعرفه، أيها الأب، ما دمنا تطرّقنا لهذا الموضوع، أردف آرن في حذرٍ لَمّا لاحظ أن السيد الأعظم لم ينوِ قولَ المزيد في هذا الأمر. لقد زارني منذ أسبوعٍ حاخام بغداد الأعظم، بغداد التي تقيم فيها أكبرُ طائفة يهودية في ما وراء البحرِ. لقد جاء الحاخام ليطلب مني أن أرخّص لليهود بأن يصلوا عند الحائط الغربي. إنهم يعتقدون أنه أثرٌ من آثار معبد داوود، أو على الأقل، شيءُ من الأشياء المقدسة في نظرهم. لعلك على بيّنةٍ بأنّ اليهود لا يحق لهم التعبُّدُ هنا، في القدس، منذ سبعة وثمانين عامًا؟

– لا، لم أكن أعرف هذا، أقرّ الأبُ لويس، هل اليهود كُثرٌ في المدينة؟

– نعم، نسبيًا. إنهم يُتقنون شُغلَ المعادن. لكنْ، هل تعلَم ما الذي حدثَ لهم لمّا حرّر إخوتُنا المسيحيون المدينة؟

– لا، لكنْ من طريقة سؤالك لا أشكّ أن ما حدث لهم ليس أمرًا طيبًا حقًا.

Twitter: @ketab_n

- لقد فهمتني جيدًا. بالفعل. فعندما أخذ محرِّرونا المدينة لجأ اليهود إلى الكنيس، حيث أُحرِقَ النساءُ والأطفال، وهم أحياء.

- إنك لا تستطيع أن تصحّح هذه الفظاعة بِهرطقةٍ أخرى تسمحُ بأنْ تمارس نهبًا وسلبًا بالقرب من القبر المقدس، قال الأبُ لويس متأملا. لكنْ بماذا أجبتَ على الحاخام الأعظم؟

- لقد أعطيتُه عهدًا بأني طالما ظللتُ سيّدَ القدس يستطيع اليهودُ أن يتعبّدوا بكامل الحرية، بالقرب من الحائط الغربي" أجاب آرن في وقار.

ولما رأى أنّ السيد الأعظم لم يُبد اعتراضًا استنتج الأبُ لويس في الحالِ أنه حتى إن تعلّق الأمرُ بمسألةٍ حساسة كمسألة اليهود فإنه لا يملك أيَّ اعتراضٍ على قراراتِ آرن الشجاعة. فالأمرُ بطبيعة الحال، منطقيٌّ للغاية. أما أيُّ الهرطقتين أسوأ من الثانية - هرطقة عرب الشرق، أم هرطقة اليهود- فذاك سؤال غير ذي شأن. لكنْ ليس من اليُسر إبلاغُ المقرَّ المقدس بخبرِ هذه أو تلك.

- وإذا كان الشخص الذي أوفدني إلى هنا يُقدّر أنك على خطأ لأنكَ منحتَ لليهود هذا الترخيصَ السخيَّ، فماذا أنت فاعلٌ؟ سأل الأب لويس وهو يزِن كلَّ كلمةٍ من كلماته.

- إنّ فرسان هيكل الربّ يُطيعون أوامرَ الأب المقدس. فأيًا كانت قراراتُه فنحن نمتثِل لها كليًا، قال أرنود دي توروج مقاطِعًا.

- لقد اشتكى بطريركُنا الموقّر كثيراً من عباداتِ عرب الشرق، أضاف آرن في ابتسام سافر. فهو يدّعي أنّ تلك الأصواتِ تحرِمه من النوم. لكنْ ظني أنّه من المبالغة الادعاء بأنّ الأصوات هي السببُ الحقيقي لحالات الأرقِ التي تصيبه.

ما لبثت هذه الإشارة إلى العادات الليلة التي يمارسها ذلك الواعظُ الأكبرُ أمام الربّ أنْ أثارت ضحكَ الأب لويس.

- عليّ أن أقل بأنكما محظوظان، لأنكما لا تخضعان إلا للأب المقدس، وليس لأيّ بطريرك، قال الأب لويس في ضحكةٍ خافتة، لكنْ قل لي يا عزيزي آرن، هل تُمنّي نفسَك بتنصير اليهودِ خلال الثمانمئة سنة القادمة؟

Twitter: @ketab_n

- ظني أن الأمر سيكون أصعب بكثير مع اليهود، ردّ آرن بنبرةٍ طليقة هذه المرة، لكنّ الأمر لا ينتهي هنا. هؤلاء اليهود أقوياء في بغداد، مدينةِ الخليفة، السلطة التي يخضع لها صلاح الدين، ولديه مستشارون يهود كثيرون.

- الخليفة؟ سأل الأب لويس مندهشًا.

- أجلْ، الخليفة. يقال إنه خليفةُ الرسول محمد -عليه الصلاة والسلام-... أقولُ إذًا إنه خليفةُ الرسول وأنه يحكُم كل الذين يتّبعون تعاليمه. إلا أنه لا يقدّم دعمَه لصلاح الدين إلا على مضضٍ. والحال أنّ أخشى ما نخشاه أن يأتي نصيرٌ للجهاد من بغداد.

- أتقصد أن من الخير السماحَ لليهود بأن يصلّوا بالقرب من الحائط الغربي، لتفريقِ عربِ الشرق؟ سأل الأبُ لويس وهو يُقطّب حاجبيه، ويدرك فجأةً أنه يجهل ما يراه الآخران بديهيًا.

- نعم، أجاب آرن. لكنّ الأمرَ لا ينتهي عند هذا الحد. إن صليبياتنا، أي حربنا المقدسة قد بدأت لأن حُجّاجَنا لم يكن يُسمَح لهم بالوصول إلى القبر المقدس. فماذا لو صار ليهودِ الخليفة الحقُّ بعد الآن في التعبّد في مدينتِنا مثل عرب الشرق الكفرة؟ فكّرْ، أيها الأب، أرجو ألا تتسرّع وتقول أشياء قد تندم عليها فيما بعد، لا تنسَ ما كان يقوله سيّدُنا الأعظم، سانت برنار، عن اليهود: إنّ مَن يضرب يهوديًا كمن يضرب ابن الربّ عينه، إنّ ما أقصده بهذا بسيطٌ للغاية، فإنْ كنّا نرغب في الاحتفاظ بهذه المدينة فهل من وسيلةٍ أجدى لنا من حِرمانِ الجهاد من طابعِه المقدّس؟

- أتشاطره الرأيَ، أرنود؟ سأل الأب لويس في حذر.

- أجل، لكنّ هذا يتطلب قليلاً من التفكير، أجاب أرنود بلا تردد. لو سمحتَ لي، أيها الأب، أظن أنه لا بد من العيش طويلا فيما وراء البحر لِفهْم هذه الأمور جيدًا. إني أحارب هنا منذ ثلاثة عشر عامًا، وصديقي آرن منذ فترة أطول بكثير. إننا نعرف كلانا أنّ رجالاً أمثال صلاح الدين ومن سيأتون من بعده سوف يدفعون بأعدادٍ أكبر من الجنود ضدنا، ولن نقدر أبدًا على قتْل بعضٍ منهم. فهكذا كان

Twitter: @ketab_n

الأمرُ منذ أن انضوى تحت قيادتهِ ضدّنا معظم أعدائنا تقريبًا. وقد كانت الأمورُ على خلاف ذلك قديمًا عندما كانت جلُّ حروبهم فيما بينهم، أكثر منها ضدنا. لكنْ أيها الأب أدعوك لأن تستفتي قلبك. أتريد حقًا أن يموت آرن وأنا، وكذلك كل العلمانيين الذين حَملوا الصليب، لأننا قرّرنا أنّ السيف هو السلاح الوحيد الذي في حوزتنا؟ أم أنك تفضل أن يظل المؤمنون إلى الأبد أمام القبر المقدس الذي استطعتَ أن تصلي عنده؟

– إن ما تقوله، أيها السيد الأعظم، يلامِس التجديفَ، قال الأب لويس وقد احمرّ وجهُه. ففي رأيك أن الربَّ لا يحمِي الذين ضحّوا كثيراً من أجل تحرير قبره؟ أتقصد أن الربَّ سيتخلى عنا في الحرب المقدسة عندما نحمِل الصليب الحقيقي في المعركة؟ كيف لك أن تتكلم في مثل هذه الأشياء وكأنها ليست من صميم الإيمان، وكأن الأمرَ مجردُ حُجَج ما بين أمراء متنافسين؟

– لأن الأمر كذلك بالفعل، أيها الأب، انظرْ من حولك، فنحن أقل عددًا منهم بكثير. فهذه حقيقة وليست تجديفًا. عدوُّنا يملك قائدًا كبيراً في شخصِ صلاح الدين. لكنْ نحن، مَن على رأسنا، حقًا؟ أهي أنييس دي كورتناي، أم عشيقها، ذلك الماكر الذي اسمه هيراقليوس؟ أم أيضًا ذلك القائد الضعيف الذي يُدعَى غي دي لوسينيان؟ تلك هي الحقيقة على الأرض، وهي في السماء أدهى وأمرّ، لأن على رأس المسيحيين عصابةً من الواعظين ومن الغشاشين، ومن النساء الهابطات، ومن الرجال المتهمين بممارسات لا حصر لها. لستُ قادراً على فهْم سُبل الرب، ولا أنت نفسُك قادرٌ على فهمها، أيها الأب، ولا أيٌّ كان. لكنْ إذا لم ينزلْ غضبُ الربّ علينا فسوف أندهش لذلك كثيراً. إننا معرّضون لفقْد الأرض المقدسة، لأنّ آثامَنا تحرقنا مثل نارِ جهنم الخالدة. هذه هي الحقيقة.

* * *

في عام البركة ١١٨٤ وقبل ثلاثة أعوام على نزول غضب الربّ على مسيحيّي الأرض المقدسة قام سيدُ فرسان الاسبتارية الأعظم، وسيدُ فرسانِ هيكل الربّ

Twitter: @ketab_n

الأعظم، وبرفقة بطريرك القدس، برحلةٍ هدفها إقناعُ إمبراطور ألمانيا، وملك فرنسا، وملك إنجلترا، بأن يقودوا حملةً صليبية جديدة، ويرسلوا فرقًا عسكرية للدفاع عن القدس ضد صلاح الدين.

لم يقلْ التاريخُ إن كان أرنود دي توروج حذّر أخاه الراهب في كهنوت فرسان الاسبتارية، من ذلك العقرب الذي كان يرافقهم، ممثَّلا في شخص هيراقليوس.

لكنْ من المعروف أن ذلك السفرَ قد جلب مبلغًا معتبراً من المال، دفعه على الخصوص ملكُ إنجلترا الذي كان يمنّي النفس بشراء عفوه عن مقتلِ المطران توماس بيكيت. ومع ذلك لم يكن المالُ هو الأهمّ، لا سيما بالنسبة لكهنوت فرسان هيكل الربّ الذي كان أغنى من ملوك فرنسا وإنجلترا مجتمعين. كان حريًّا بهؤلاء الملوك أن يدركوا أنّ الأحوالَ بالغةُ الخطورة، وأنّ صلاح الدين أخطرُ ممّن سبقوه. كان هؤلاء إذًا في حاجةٍ إلى قوات إضافية فعالة.

لكن الناس في تلك البلاد كانوا وكأنهم يُقدّرون أنّ المسيحيين صاروا وإلى ما لانهاية، أصحابَ الأرض المقدسة. ولذلك لم يعد حمْل الصليب، والذهابُ لتحرير أرضٍ حُرِّرَت منذ زمن طويل، مهمةً عاجلة في أعناق مؤمني الأرض قاطبة.

أمّا مَن كانوا يسعون، على غرار معظم الصليبيين في القرن الماضي، إلى الثّراءِ عن طريق السلب والنهب، فلم يكن يعود منهم سالمين غانمين سوى قلةٍ قليلة. لقد آلت الأرضُ المقدسة إلى أيدي بارونات قلّما يُبدون تفهُّمًا نحو أولئك الصليبيين الراغبين في تحقيقِ الثراء على حساب إخوتهم في الدين.

ففي آخر الأمر جلبت مهمةُ الرجال الثلاثة مبلغًا من المال، لكنّها لم تجلبْ الإمبراطورَ الألماني على رأس الجيش الوحيد الذي كان في وسعه أنْ يُغيّر مجرى الأحداث أمام صلاح الدين. ولا مَلِكَيْ فرنسا وإنجلترا اللذين كانا يتنافسان على نفس الأقاليم، ويقدّران أنّ الدخولَ في تلك العملية وجعلِ العدوّ يستولي على الأراضي التي أُهملتْ أثناء الحملة الصليبية، حماقةٌ وقلّةُ فطنة.

كان لأرنود دي توروج أثناء السفر ما يبرّر خشيتَه من ذلك البطريرك السَّمّام. ففي قصر القدس كان السيدُ الأعظم يوصَم بالجُبن، لأنه قال صراحةً إنّ التفاوضَ

Twitter: @ketab_n

مع صلاح الدين خيرٌ من الدخول معه في حربٍ إلى ما لانهاية.

كان هيراقليوس يقدّر أنه ينتمي إلى صنفِ الرجال الأشراف، من أمثال أنيس دي كورتناي وأخيه الكونت جوسلين، وربما أيضًا غي دي لوسينيان، الطامعِ البائس في العرش، وسيبيلْ زوجته المغرورة.

لكنّ الحذر والحيطة التي أحاط بهما أرنود دي توروج نفسَه أثناء تلك الرحلة لم تكن كافية، لقد سُمِّم ذلك المسكينُ ودُفن في روما.

ثلاثةُ رجالٍ فقط كان بوسعهم أنْ يَشتبِهوا فيما حدث: البابا الجديد لوقيوس الثالث الذي ساعدته نفوسٌ طيّبة في الاطلاع على الوثائق البابوية، وآرن الذي أصبح في غيابِ سيِّدٍ أعظم جديدٍ، القائدَ الأعلى لكهنوت فرسان هيكل الرب، والأب لويس.

لم يُقدِمْ هيراقليوس على تسميمِ ذلك المطران وحسب، وإنما أقدَم أيضًا على تسميم أحدِ الأسياد الأعاظمِ في جيش الربّ المقدس.

في تلك الأثناء كانت الأنباءُ السعيدةُ والأنباءُ السيئةُ على السواء لا تصل إلا متأخرة، لا سيما أنباء الخريف، عندما تتقلّص المِلاحةُ إلى أقصى حدودها. فلم يعلمْ آرن بمقتلِ سيّدِه من فم الأب لويس إلا عندما قدِم من روما بعد رحلةٍ جدّ شاقة أحدُ أولئك الرهبانِ الاسبتاريين المسافرين بلا انقطاع.

لقد ذُهل الاثنان بالخبَر، وفي الحال أعلن آرن يأسَه وقنوطَه. وقد رأى أنّ إقصاءَ السَّمّام قد حان وقتُه، الآن وليس بعد الآن أبدًا. وردّ عليه الأبُ لويس في أسىً قائلا إنّ الأمرَ من سوء الحظ، صار الآن أصعبَ من أيّ وقتٍ مضى. فإنْ أقدَم لوقيوس الثالث على إقصاءِ هيراقليوس، عِقابًا على الجريمة السابقة التي ثبتت بأدلة كثيرة فسيكون ذلك إقرارًا بأنّ سلفَه ألكسندر الثالث قد عجَز إلى أقصى حدود العجز عن الوفاء بالتزاماته. لذلك إذًا لن يُصدّق أحدٌ أنّ الأبَ القديس الجديد سوف يُقدِم على مثل تلك الخطوة.

-كم من جريمة سيحتاج؟ سأل آرن في وُجومٍ وذُعر. لأنه رأى أنّ السَّمّام كلّما

Twitter: @ketab_n

عاند وتمادَي انتفَع واستفاد من حمايةِ البابا.

لكنه، بطبيعة الحال، لم يتلقَّ أيَّة إجابة. فلم يبقَ لحامِلي ذلك السرّ إلا أنْ يرفعوا الأيادي إلى السماءِ للدعاءِ، وينصرفوا بعد ذلك إلى واجباتهم يُغرِقون فيها قنوطَهم وأحزانهم.

وبمساعدة آرن صار الأبُ لويس يَلِجُ إلى بلاط القدس بلا عناء، حيث صار يتنقِل فيه بكامل حريتِه ويصغي بأذنين مفتوحتين إلى كلّ ما يدور من حوله.

صار آرن الذي تربّى في كنفِ أعلى مراتب فرسانِ هيكل الربّ مكلَّفًا بمهمّة مزدوجة، وهي الدفاعُ عن القدس وتأمينُ حُسنِ إدارة الكهنوت. وإنْ كانت مهمّتُه الثانية تنطوي على توقيعِ الوثائق على الخصوص، وعلى ختْمها فقد صار مجموعُ المُهمّتين عمَلاً يستأثِر به أيما استئثار.

دعَى الملكُ بالدوين الرابع في بدايةِ الشتاء من العام التالي المجلسَ الأعلى لما وراء البحار للانعقادِ حتى يُطلعه بآخر ترتيباته. وقد ألزمَ المجلسُ كلَّ البارونات الذين تعدُّهم الأرضُ المقدسة، ومنطقة طرابلس، ومقاطعة أنطاكيا، وكذلك السيد المسيحي الوحيد في ما وراء نهر الأردن، رينو دي شاتيون، بالحضورِ، وقد استغرق وصولُ الجميع بعض الوقت. وفي أثناء ذلك أحسّ آرن كأنه تحوّل إلى صاحبِ نُزلٍ. وكان فرسانُ هيكل الرب هُم الذين استحوذوا على أكبرِ عددٍ من الغرف، وكذلك على أكبرِ القاعات في المدينة، ولذلك السبب كانت حفلاتُ التتويج تنتهي في كل مرّة بوليمةٍ كبرى تقامُ في نُزلهم، لأنّ القصرَ الملكي لم يكن يتّسع لمثلِ تلك الجموع الغفيرة.

وفي الليلة التي كان الملكُ يتهيأ فيها لعرْض تدابيره الأخيرة أقام آرن كعادته مأدبةً في القاعة الشرفية لكهنوت فرسان الربّ، الكائنة في نفس طابق مساكنه. لكنْ كان في الوسعِ الوصولُ إلى القاعة من خلال سُلّم حجري، مروراً بالحائط الغربي، حتى لا يزعج الزوارُ العلمانيون قداسةَ هذه الأماكن عند الدخولِ إليها أو الخروج منها. وقد أدرك آرن حكمةَ هذا الترتيب لمّا سمِع دويَّ جموعِ الضيوف- المنتشين بخمرهم - وهم يصعدون ذلك السلّم.

Twitter: @ketab_n

كانت القاعة الشرفية مزيّنةً بالبيارقِ وبأعلام فرسان الكهنوت، وعند أعلى الطاولة عُلِّقت، حيث يجلس الملكُ، الأعلامُ التي أُخِذت من صلاح الدين أثناء هجوم مونجيسارد. وكان باقي القاعةِ في غاية الاعتدال والبساطة: جدرانٌ مطلية بالجيرِ وطاولاتٌ من الخشب الأسود.

جلست العائلةُ الملكية في الطاولة الوسطى، يحيط بها البارونات ومُلاّكُ الأراضي المقرّبون. وعند حافّتَيْ الطاولة وُضعت طاولتان أخريَان أصغرُ حجمًا، وقد جلس عند إحداها كالعادة، رجالٌ من أنطاكيا وطرابلس، ومن بينهم الأمير بوهيموند، والكونت ريموند.

وفي ذات اللحظة جلس في الطاولة الثانية فرسانٌ من هيكل الربّ، وفرسانٌ من فرسان الاسبتارية. وقد كان ذلك أهمَّ ما طرأ على ترتيبات القاعة من تغيير، إذ حرص آرن على أنْ يَحضُر نفسُ العددِ من مُمثّلي المجْمَعَين. وقد كان هذا الترتيبُ رائعًا، لأنّ ما من فرصةٍ أتيحت لفرسان هيكل الربّ إلا وأشاروا فيها إلى أنّ فرسان الاسبتارية لا يُرحِّب بهم في ديارهم بما يليقُ بهم من ترحيب.

وقد شرح آرن لِروجيه دي مولان أنه لم يفهمْ يومًا سرَّ الصراع ما بين الكهنوتين. لا سيما أن المرّة الوحيدة التي نزل فيها ضيفًا على فرسان الاسبتارية لم يلقَ منهم شخصيًا إلا خيرَ التكريم، كما حظي بمساعدةٍ قيّمة في نقْل جرحاه. ولعله اختار أن يبرّر معاملته السخية لفرسان الاسبتارية على هذا النحو لأنه كان يتمنى أنْ يُقدِم سيّدُهم الأعظم بنفسِه على الخطوة التالية والحاسمة، من أجل تحقيق تقاربٍ ما بين الكهنوتين. وهكذا صار التفاهمُ ما بين الفرسان المسيحيّين أمرًا حاسمًا.

وكما تمناه آرن ما لبث روجيه دي مولان أن انتهز تلك الفرصة للتحاور معه، بينما كانا يتناولان لحمَ الضأنِ والخضار، ويحتسيان الخمرَ، ويوحيان بأنهما يتجاذبان أطرافَ أحاديث عاديةٍ شتى.

أشار روجيه دي مولان إلى العائلة الملكية الجالسة تحت أعلام صلاح الدين، وهو يقول إنّ مصيرَ المدينة المقدسة الحزينِ يقع على كاهل هؤلاء الرجال والنساء

Twitter: @ketab_n

جميعًا. ومن قبيل تأييد كلامِه وقَف هيراقليوس في عناءٍ جمٍّ وترك طاولته وكأس الخمرِ في يدِه وتوجّه بخطًى مترنّحةٍ إلى مكان الملكِ الخالي، وجلس فيه بلا حياءٍ، بجانبِ أنْييس دي كورتناي، عشيقتِه السابقة.

تبادل الرجلان صاحِبَا المقام نظرةَ اشمئزازٍ وتقزّزٍ صارخة. ثم ما لبث آرن أنْ عاد إلى أقوالِ رُوجيه دي مُولان حول إمكانيةِ تحقيقِ التقاربِ ما بين الكهنوتين، مضيفًا أنّ فرسانَ هيكل الربّ وفرسان الاسبتارية، في رأيِه، يحمِلون على عواتقهم مسؤوليةً عظيمةً في شؤون الأرض المقدسة، نظرًا لما يجري في القصر. لذلك يجدُر بالطرفين أن ينسيا كلَّ ما لم يعد له شأنٌ يُذكر، أيًّا كانت مشاجراتُ الماضي الصغيرة بينهما.

وفي الحال رحّب روجيه دي مولان بهذه الأقوالِ وباركها، بل ذهب أبعدَ منها فاقترح أن يلتقي أهمُّ رؤساء فرسان هيكل الربّ وفرسان الاسبتارية في أقربِ وقتٍ. وفور اتفاقِهما حول هذه المسألة تطرّق آرن في حذرٍ إلى وفاةِ أرنود دي توروج المفاجئة، في فيرونا.

لكنّ رُوجيه دي مولان سرعان ما اندهش لهذا التحوّل السريع في النقاش، فلم يحرّك ساكنًا في البداية، ثم ألقَى نظرةً حائرةً طويلة إلى آرن قبل أن يعلنَ صراحةً أنه وأرنود دي توروج قد اتفقا حول أهمّ المسائلِ المتعلقة بمصير الأرض المقدسة، ومنها وجوبُ نسيانِ الخلافاتِ القديمة بين فرسان هيكل الربّ وفرسان الاسبتارية.لكن في أثناء تلك الرحلةِ ما انفك هيراقليوس، على العكس، يُقدّم أكثرَ الذرائعِ تفاهةً وسخافة، مؤكدًا أنّ مَن يتردّد في إبادةِ عرب الشرق جبانٌ لا محالة. وأدهَى من ذلك أنّ هذا الزاني الكافر لم يتورع عن التأكيد أن رُوجيه دي مولان وأرنود دي توروج يقفان حجَر عثرةٍ في طريقِ مشيئةِ الربّ، ويُمَنّي نفسَه بأنْ يفارق هذان الرجلان المجدّفانِ الحياةَ في أقرب الآجال الممكنة.

ولمّا كان أرنود دي توروج قد فارق الحياة بعد مرورِ بعض الوقت، وعلى نحوٍ لا صلة له بمشيئة الربّ، فقد لزم رُوجيه دي مولان الكثيرَ من الحذرِ عند الطعام والشراب في حضور هيراقليوس. لقد راودته بالفعل بعضُ الشكوكِ، ولذلك السببِ سأل آرن إنْ كان يملِك مزيدًا من الأسرار.

Twitter: @ketab_n

كان آرن لا يملك الحقَّ في قولِ السر الذي أقسَم به للأب القديس، لكنه وجد حيلةً للإجابة عن السؤال دون أن ينكُث ذلك العهد.

"إن فمي مقفلٌ" قال في همس.

فهزّ رُوجيه دي مولان رأسَه دون أن ينبس بكلمة، فهو ليس بحاجةٍ لسماعِ أكثر مما سمِع.

في اليوم التالي التقَى الضيوفُ في القاعةِ ذاتها حتى يطّلعوا على آخر ترتيباتِ الملك. كانت عيونُ بعضِهم حمراءَ، وأنفاسُهم ثقيلةً من فرطِ الشراب طوال الليل.

ولما دخل الملكُ وهو يجلس على كرسيٍّ لا يكاد يتّسع لطفلٍ قام له الجميعُ. لقد صار الآن فاقدًا للذراعين والساقين، وأضحى ضريرًا بالكامل.

وُضع ذلك الصندوقُ بعد ذلك فوق العرش الذي بدا أكبرَ منه بكثير، ثم وُضع التاجُ أمامه في الحيّز الذي ظل فارغًا.

عندئذ شرع الملكُ في الحديث، وإن كان بصوتٍ خافتٍ لا شك في ذلك، حتى يُثبت أنه ما زال قادرًا على التعبير، وأنه لا يزال يتمتّع بكاملِ قواه الذهنية. لقد قرأ أحدُ إكليركيّي القصر – وليس واحدًا من أعضاء العائلة الملكية –وبصوتٍ عالٍ ما قدّمه الملك من قبلُ، كتابةً وبَصَمَه بختمِه.

كان وريث العرش هو بالدوين، ابن شقيقتِه سيبيلْ، البالغ من العمر سبعة أعوام. فحتى بلوغ الطفل سنّ الرشد، في العاشرة من العمر، سوف يتولّى ريموند كونت طرابلس مهامَّ الوصاية على العرش في الأرض المقدسة.

لقد نُصّ بأكثرِ الصّيغِ صرامةً أنّ غي دي لوسينيان لن يكون أبدًا وصيًّا ولا وريثًا للعرش. لكنه يستطيع في المقابل أن يضم مدينةَ بيروت إلى مقاطعة طرابلس لِقاء الخدمات التي قدّمها الكونت ريموند للأرض المقدسة بممارسة الحكم فيها لثاني مرة.

فإلى أن يحين اليومُ الذي سيبلغُ فيه وريثُ العرشِ رشدَه سيتعهّد هذا الشابَ جوسلين دي كورتناي، عمُّ الملك، والمكلّفُ أيضًا بتربيتِه ورعايته.

وإن فارق الطفلُ الحياةَ قبل سنِّ العاشرة فسوف يعيَّنُ وريثٌ جديدٌ بالتعاون مع الأب القديس، والإمبراطور الروماني الجرماني، وملكِ فرنسا، وملكِ إنجلترا.

Twitter: @ketab_n

وإلى أنْ يتمّ تعيينُ وريث جديد من قِبل هؤلاء الأشخاص الأربعة سيواصل ريموند كونت طرابلس أداءَ وظيفة الوصيّ على الأرض المقدسة.

وعندئذٍ اشترط الملكُ أن يتقدّم كلُّ الحاضرين في القاعة، الواحدُ تلو الآخر، ليُقْسِم أمام الربّ بأنه سوف يمتثل لآخر التدابير الملَكية.

وقد أدّى بعضُهم هذا القسم بقلبٍ لا همَّ فيه، كما فعل الكونت ريمون، وصديقُه الوفي أمير أنطاكيا بوهيموند، وأقسم روجيه دي مولان باسم فرسان الاسبتارية، وأقسم آرن دي غوثيا باسم فرسان هيكل الرب.

أما آخرون، أمثال البطريرك هيراقليوس، وأمّ الملك، وعشيقها أمري دي لوسيان، وقريب الملك، جوسلين دي كورتناي، فقد أدّوا القَسَمَ بقدرٍ أقّل من الحماسة، لكنهم أقسَموا جميعًا أمام الربّ بأنّهم سيلتزمون بآخر ترتيبات الملك بالدوين الرابع. أمّا الصندوقُ الصغير الذي حوى آخرَ بقايا الملكِ الدنيوية، والشعلةَ المتأرجحةَ، والدموعَ السائلة فقد بيّنت أنّ الجميعَ يقولون لأنفسهم بأنهم لن يروا بعد ذلك اليوم ملكَهم الشجاع القصير قبل دفنِه في كنيسة القبر المقدس.

كان الضيوف يغادرون القاعة في ضجيج وعجيج عندما توجّه الكونت ريموند بخطى حثيثةٍ نحو آرن، وأخذ تحت أنظار الحاضرين المندهشة يشدّ في ودٍّ على يده، ويلتمس منه كرمَ الضيافةِ في تلك الليلة، له ولبعض الآخرين. وقد منحه آرن ذلك الكرَم عن طيبِ خاطر وهو يقول له إنّ أصدقاءَ الكونت أصدقاؤه أيضًا.

وهكذا، في تلك الليلة تنافست في القدس مجموعتان متنافرتان في الأحوال الجديدة، وكان أقلّهما رضا فريقُ القصر الملكي. لقد ثارت ثائرةُ أنييس دي كورتناي في البداية فغضبت غضبًا أفقدَها صوتَها، وقد أخذ البطريركُ هيراقليوس يذرَعُ الأروقةَ ويملؤها صراخًا.

كانت الأجواءُ أكثر توترًا في غُرف سيد القدس، فلم يَدْعُ الكونت إلا من شاء من الأصدقاء. لقد حضر رُوجيه دي مولان، وأميرُ أنطاكيا بوهيموند، والإخوةُ دبلين. وقد حرص آرن، دون أن يبدي الكونت رغبةً في ذلك، على أنْ يُؤتَى بكميةٍ كبيرة من الخمرِ لهؤلاء الرجال الذين صار يربطهم الآن رباطُ القَسَم.

Twitter: @ketab_n

واتفَق كلٌّ واحدٍ على القول إنّ الذي حدثَ كان منعطفًا، إذ أتيحت فرصةٌ هائلةٌ لإنقاذ الأرض المقدسة وإحباطِ دسائس أنييس دي كورتناي وهيراقليوس، ودسائسِ ذلك المجرم الذي يُدعَى رينو دي شاتيون. فلم يبقَ للجميع الآن سوى أن يُصرّوا أسنانَهم تذمُّرًا في القصر الملكي، برفقةِ ذلك القائد العاجز الذي يُدعَى جوسلين.

ففي رأي الكونت أنّ أشياءَ كثيرةً يمكن إنجازُها في الحالِ. ففي البداية سيُبرِمُ هدنةً جديدة مع صلاح الدين، متحجّجًا بأمطارِ الشتاء الغزيرة التي ستتسبّب في محاصيلَ سيئةٍ سوف تُضرّ بالمسيحيين وبالكفرة على السواء. وفي هذه المرة لن يجد النهّابُ رينو دي شاتيون خيارًا آخر غير الانصياعِ والطاعة.

وعلى المدى البعيد لن يصبح الملكُ بلا شكٍ من أحياءِ هذه البسيطة. لكنّ ابن أخيه، الوريثَ الهزيل، لن يعيش هو الآخر، عمرًا طويلا أيضًا، لأنه يكابد بلا شك، آثارَ فجور حياةِ القصر، إذ لا يجاوز عمرُ الأطفال الذين يصابون بهذه الأمراضِ، سنواتٍ عشرًا، إنْ هُمُ عاشوا بعد الولادة.

لكنْ، ما دام البابا والإمبراطور، ومَلِكَا فرنسا وإنجلترا لا يستطيعون الاتفاقَ على وريثٍ جديدٍ، فستظل السلطةُ بين أيدي الوصِيّ على العرش. وساعتها لا بد من اختيارِ أحدِ الأمرين: فإمّا أنْ يظل الكونت وصيًّا لفترةٍ معقولة، وإما أن يعيّنه الناخبون الأربعة، وريثًا للعرش هو نفسه.

يبدو إذًا أن الملك الصغير الشجاع، من على صندوقه الصغير، قد أنقذ الأرض المقدسة، حتى إن كان هذا آخرَ عملٍ يُنجزه في حياته.

في تلك الليلة، في القدس لم تكن هنالك إمكانية أخرى، ولم تكن أيُّ سحابة في السماء، على الرغم من أنّ جميع ضيوف آرن كانوا أكثرَ خبرةً منه في مضمار الكفاح من أجل السلطة. فبفضل هذا القَسم الذي أدّاه أعضاءُ المجلس الأعلى بالإجماعِ فلا أنييس دي كورتناي، ولا أخوها المماري الماكرُ يستطيعان أن يفعلا شيئًا.

لقد ظلوا يُقلِّبون ويُقلِّبون هكذا قرابةَ ساعةٍ كاملة، كلَّ الدسائس التي ربما كانت

Twitter: @ketab_n

تلك المرأةُ الخسيسة، وعشيقها البطريرك، وأخوها الكافر، يُدبّرونها في الوضع الميئوس الذي وُجدوا فيه. لكنْ لم يرَ فرسانُ ما وراء البحر، الأكثرُ خبرةً وحنكة، أيَّ مخرجٍ ممكنٍ، لتلك المرأةِ ولِشُركائها.

فالخمرُ كما هو معروفٌ يُسيل في يُسْرٍ في حلوقِ المغتبطين، بينما يسيل في عُسْرٍ في حلوقِ من كانوا حزانى. ففي تلك الليلة سمِع القصرُ كمًّا من القصص العجيبة والرهيبة معًا، حول ما وقَع للمسيحيين منذ وصولهم إلى الأرض المقدسة.

كان أميرُ أنطاكيا يعرف الكثيرَ الكثيرَ عن ذلك الرجل الذي كان يهدّد السلام بأعظم الأخطار، ألا وهو رينو دي شاتيون.

ففي رأيه أنّ رينو يحمِل الخرابَ حيثما حلَّ. فهو أدرَى به من غيره، لأنه يعرفه منذ الطفولة. ففي تلك الفترة وصل رينو إلى أنطاكيا، وانخرط في خدمة والدِ الأمير بوهيموند، وقد أثبت قدراتٍ عاليةً في القتال، فكان جزاؤه بعد بضع سنواتٍ، زواجَه من كُسْتَانْس، شقيقةِ الأمير.

لا شك أن كلَّ رجلٍ طموحٍ ويملك وعيًا سيقنَع بأنْ يكون أميرًا على أنطاكيا، غنيًّا ومحترمًا. لكنْ ليس رينو الذي كانت شهيتُه لا تعرف شبَعًا.

كان يرغب في الخوضِ في مغامرات النهبِ والسلب، لكنه لم يكن يملك المالَ الكافي، ولم يسعفه الأملُ في استعمالِ كنوزِ المقاطعة لإرضاءِ طموحاتِه الذاتية، ولذلك قبَض على إميري دي ليموج، بطريرك المدينة، وربطه عاريًا بأحدِ الأعمدة، تحت حرِّ الشمسِ، ثم طلَى جسمَه بالعسل. وبعد برهةٍ لم يستطع البطريرك مقاومةَ إصرارِ حشدٍ من النحلِ، وضرباتِ الشمسِ، فقبِل بأن يُقدِّم لذلك البائسِ المبلغَ الذي أراد.

والآن وقد أصبح على رأسِ كنزٍ من كنوز الحرب لم يبقَ أمامه سوى أن يجد مكانًا للسلب والنهب. ومن بين الأماكن القابلة لذلك الغرض اختار رينو قُبرصَ التي كانت آنذاك مقاطعةً تابعةً للإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية مانويل كومنين، أخطر الأعداء.

Twitter: @ketab_n

نهب رينو الجزيرةَ بأقسَى الصور الممكنة، لقد قطع أنوفَ كلّ الرهبان المسيحيين، واغتصب الراهبات، وهدّم الكنائس، ودمّر المحاصيل. ولمّا عاد إلى أنطاكيا كان قد غَنِيَ غناءً فاحِشًا، لكنّ سمعتَه ما لبثت أن خربَتْ وتآكلتْ.

وكما توقع الجميع - اللهم إلا من كان اسمه رينو دي شاتيون - فقد أرسل الإمبراطور مانويل كُومِينْ الجيش البيزنطي ضد أنطاكيا. بيد أنه لم يكنْ يُعقَل التفكير في شن حربٍ ضد الإمبرطور بسبب أحمقٍ كهذا، حتى إنْ كان زوجًا لإحدى أميراتها.

أُنذِر رينو أذًا بأنْ يُسلِّم نفسَه إلى الإمبراطور، أو يزحَف بعد أن يضع رأسَه في كيسٍ ويغطيه بالرماد، نحو مانويل عند وصوله. لكنّ الإمبراطور، من فرط غبائِه، منحَه العفوَ مقابل تسليم غنيمته.

لا شك أن الكلَّ قد يستخلص العبرةَ من هذه القصة، إلا هو! فبعد مرور عامين انطلق في حملةٍ جديدة ضد مسيحيّي أرمينا وسوريا الذين لم يتوقعوا يومًا أن يهجُم عليهم واحدٌ من إخوتهم في الدين. وكانت الغنيمةُ كبيرة، وعددُ الضحايا من المسيحيين كبيرًا أيضًا.

وفيما كان رينو عائدًا إلى أنطاكيا، مثقَلا بحمولاتِه إذا بمجد الدين، أتابك حلب، يقبض عليه، فيجِد نفسَه في واحدٍ من الأماكن النادرة التي تليق به، أيْ في سجنٍ من سجون تلك المدينة.

وبالطبعِ ما مِن مسيحيّ واحدٍ رغب في دفْعِ الفدية لصالحِ هذا الشخص البائس الذي سوفَ يشعر بالأمانِ طالما مكَث خلفَ القضبانِ. لكنْ هل ستنتهي القصةُ عند هذا الحدّ،حتى يرتاح الجميع؟

توقف الأميرُ بوهيموند برهةً وشرب في سُخرٍ في صحةِ صديقه الكونت، قبل أن يضيف أنّ البقيةَ كانت بسببِ خطأٍ وقَع فيه.

بدأ الكونت يضحك وهو يهزّ رأسَه، وطلب مزيدًا من الخمر، فقبِل آرن بالعرض عن طيبِ خاطر. ثم قال إنه مسؤول بالفعل عن باقي الأحداث.

كان ذلك قبل عشرة أعوامٍ. ففي تلك الأثناءِ لم يكن صلاحُ الدين قد حشَد

Twitter: @ketab_n

من حوله كلَّ عرب الشرق، ولذلك كان يجب وضْعُ كلِّ المصاعب الممكنة في طريقه. وفي العام ١١٧٥ كان أحدُ جيوشه يحتشِد أمام أسوار حلب، فيما احتشد جيشٌ ثانٍ أمام أسوار حمص. كان يجبُ السعيُ من أجل الحيلولةِ دون سقوطِ هاتين المدينتين بين يديه. ولذلك السبب أرسل الكونت ريموند قوّاته لنجدة حمص، فلم يجد صلاحُ الدين بدا من رفعِ حصاره عن حلب حتى يزحَف نحو حمص، وهكذا خُلّصت حلب من قبضتِه لسنواتٍ عديدة.

فإلى ذلك الحدِّ سارت الأمورُ سيرًا حسنًا، قال الكونت وهو يتنهّد في عناءٍ. لكنْ من بابِ عرفانه المذعور رغِب غوموشليكن حلَب في أن يقدِّم الدليلَ على حسن نواياه تجاه المسيحيين، بإخلاءِ سبيل عددٍ من السجناءِ, فلم يكن في وسعه، بالفعل، أنْ يُقدّم لهم خدمةً أسوأ من تلك، ولا أنْ يُقدّم خدمةً أفضلَ منها لصلاح الدين، قال الكونت وهو يُطيل تنهيدتَه أمام حضورٍ كانوا ينتظرون البقيةَ فاغري الأفواه.

كان رينو ودي شاتيون، وجوسلين دي كورتناي، بطبيعة الحال، من بين الأشخاص الذين أخلي سبيلُهم!

تلوّى كل الأصدقاء المجتمعين ضحكًا حين علِموا بنبأ الخدمة الرائعة التي قدّمها أتابيك حلب لأصدقائه المسيحيّين.

أما باقي القصة فقد كان الجميعُ يعرفونها، أردف الكونت. والآن، وبعد أن صار فقيرًا مثل جوب، ومحتقرًا أيما احتقارٍ من قِبل العاقلين من الناس، سيصطحِبُ رينو دي شاتيون، صديقَه جوسلين دي كورتناي إلى القدس، حيث سيُحالفهما الحظُّ في كلِّ شيء. ومات الملكُ أموري، تاركًا العرشَ لبالدوين الرابع، الذي كان لا يزال طفلا. وهكذا استطاعت والدتُه أن تعود إلى القصر الذي مُنعتْ من الظهور فيه زمنًا طويلا، لأسبابٍ لا تخفَى على أحد. ولم يلبث أخوها جوسلين أن وَجد لنفسه مكانًا فيه. وأمّا رينو فما لبث أيضًا أن وَجد بمساعدة أنييس، أرملةً ثريةً تُدعى ستيفاني ميللي، من جبل الكرك فيما وراء نهر الأردن. وهكذا صار هذا اللصُّ مرّةً أخرى، سيّدَ القصرِ الثريّ الجديد.

Twitter: @ketab_n

تُرى، مَن أفاد من نزوةَ القدرِ تلك، أهو إبليس أم صلاحُ الدين؟ تلك هي المسألة.

اتّفق كلُّ واحدٍ على القول إنّ هذا وذاك أفادَا إفادةً متساوية.

ومع ذلك فقد ظنّ المتآمِرون في تلك الليلةِ أنهم نجحوا في وضْع اللجامِ في عنقِ رينو. لأنه إذا لم يجرؤ الملكُ بالدوين على منْعِه بالقوةِ من النكوثِ بمعاهداتِ السلام بلا انقطاع، وإذا كان ذلك الذي لا يصلح لشيءٍ، المدعو غي دي لوسينيان، لم يقِلَّ عنه عجزاً على المبادرة أثناء فترة حكمه الوجيزة، فإنّ الكونت يستطيع الآن أنْ يُطمئنَ محدّثيه في جذلٍ أنّ الأمورَ معه لن تسير على ذلك المنوال في القدس بتاتًا.

وفي سياقِ الحديث عن العاجزين واللصوص، أضاف قائلا، بقِي أن نعرف أين اختفَى جيرار دي ريدفور. لقد غادر هذا الأخيرُ طرابلس وخِدمةَ الكونت، بسبب الغيظِ الذي تملّكه بعد أن رُفِضت له تلك الأرملةُ الثريّة التي رامَها. لقد أقسم بأنه سوف ينتقِم، وخيرُ انتقام أن يصبحَ فارسًا من فرسان هيكل الربّ.

وردّ آرن قائلا إنّ الراحلَ أرنود دي توروج قد جعَل منه قائدًا على شاستيلْ بلانك.

قطّب الكونت حاجبيه قائلا إنّ المنصب أهمُّ من أنْ يفوز به شخصٌ لم يُقدِّم سوى خدمات هزيلة. وشاطره آرن الرأي، لكنه وضح أنّ ذلك كان، بحسب ما وسِعه من فهم، الثمنَ الذي كان أرنود دي توروج على استعدادٍ لدفعِه حتى يُبعِد جيرار دي ريدفورد عن القدس، ما استطاع لذلك سبيلا. لأنّ جيرار دي ريدفورد استطاع، على ما يبدو، أنْ يكسِب أصدقاء قلّما يُزكّيهم أحدٌ في القصر.

تواصل ذلك النقاشُ المرِحُ حتى ساعات الفجر، على الرغم من أن الوقت في تلك المدة من السنةِ كان من أكثر الأوقاتِ طولاً وتباطؤاً.

ففي تلك الليلةِ بدتِ القدسُ في مأمنٍ من القاصرين، ومن الفاسدين والمتآمرين.

توفي الملكُ بالدوين الرابع بعد ذلك بقليل، كما توقّع الجميعُ، ودخل الكونت ريموند إلى القدس وَصِيّاً عليها. وسرعان ما عمَّ السلامُ في الأرض المقدسة، وصار

Twitter: @ketab_n

الحجاجُ يتوافدون من جديدٍ، ومعهم تلك المواردُ المالية التي طال الشوقُ إليها.

وبدت الأمورُ كأنها تسير سيراً طيبًا.

عندئذ حط جيرار دي ريدفور، سيدُ فرسان هيكل الربّ الأعظم الجديد، الرحالَ في سانت جان عكة. لقد وصل بالباخرة من روما، وعقد مجمعًا دينيًا بحضور عددٍ من خيرة أصحاب المقامِ، ومن بينهم سيّدُ روما وسيّدُ باريس.

وقد اصطحب معه الرهبانَ الجدد الذين سيرأسون فرسانَ هيكل الربّ إلى الأرض المقدسة. وقد توجهوا إلى القدسِ حالَ وصولهم.

لم يعلمْ آرن بقدومهم إلا قبل وصولهم بساعات قليلة. وفي الحال ذهب إلى الأب لويس ليُحادثه في تلك المأساة التي حلّت على حين غرة، وراح يدعو ربّه في أعماقِ أجنحته، في غرفةٍ أشبه بصومعةِ راهبٍ سيريسيّ. ولم يسعه من الوقت سوى ما يتّسع لإعدادِ الترتيبات اللازمة لاستقبالِ السيّدِ الأعظم في القدس.

وعندما دخل موكبُ خيولِه المزيّنةِ برباطٍ أسود اللونِ إلى المدينةِ جاء مَن يستقبله بسياجٍ من المعاطف البيضاء التي بُسِطتْ من بابِ دمشقَ إلى حيّ فرسان هيكل الربّ الذي أُضيئت عند مدخله مشاعلُ ضخمة، في انتظار الوليمةِ التي ستقامُ في قاعته الشرفية.

استقبلهم آرن أمام السلّم الكبير، وجثا وأطرق برأسِه، قبل أن يُمسك بزمامِ حصان السيّدِ الأعظم، حتى يبيّن، كما تقتضيه الأصول، أنه أمام جيرار دي ريدفورد، ليس شيئًا آخر سوى سائسِ خيل.

كان القادمُ الجديدُ رائقَ المزاجِ، وقد بدا راضيًا كل الرضا عن ذلك الاستقبالِ. ثم اتّخذ مكانَ الشرفِ في قاعةِ الوليمةِ، وأعطى الأمرَ بالشروع في تقديم الضيافة، وهو يُعبّر بصوتٍ عالٍ عن فرحةِ وُجودِه في القدس مرّةً أخرى.

لكنّ آرن لم يكنْ رائقَ المزاجِ، ولم يسعه أن يكتم ضيقَه من تلك الزيارةِ إلا في عناء. غير أن الأسوأ في الأمر لم يكن تلك الاستجابة قسراً لأتفهِ نزواتِ رجلٍ يعرف الجميعُ أنه رجلٌ أُمّيٌّ، وغير جديرٍ بمنصبه، ومتعطّشٌ للانتقامِ، وعديمُ الخبرةِ، وإنما ما

Twitter: @ketab_n

آل إليه أمرُ فرسانِ هيكل الربّ بعد أن صاروا تحت إمرةِ سيّدٍ أعظم يناصب الوصيَّ عداءً قويًا. فلذلك بدأت آفاقُ الأرضِ المقدسة تتلبّد بغيومٍ قتيمة.

وما إن أنهى الضيوفُ طعامَهم وتوجهوا إلى مراقدهم حتى أَمَر السيدُ الأعظمُ آرن وفارسين آخرين لا يعرفهما آرن، بأنْ يتْبَعوه إلى غُرفِه الخاصة. كان مزاجُه لا يزال رائقًا، وقد بدا سعيدًا بالتغيّرات التي كان ينوي إحداثَها.

جلس في المكان الذي اعتاد آرن الجلوسَ فيه، راضيًا عن نفسِه، ثم اعتَدل في جلستِه برهةً يتأملُ في هدوءٍ الفرسانَ الثلاثةَ الذين مثلوا واقفين أمامه.

"قلْ لي يا آرن دي غوثيا... هكذا يناديك الآخرون، أليس كذلك؟ قلْ لي، أنت وأرنود دي توروج تربطُكما صلاتٌ قوية جدًا، فهذا ما فهمتُه عنكما، أليس كذلك؟ قال في النهايةِ بصوتٍ طغَت على نبرتِه نعومةٌ مفرطةٌ تنمُّ عن حِقدٍ وضغينة.

- أجل، سيدي الأعظم،، هذا صحيح، أجاب آرن.

- نستطيع أن نتخيّل إذًا، أنه لهذا السبب، لقّبَك سيّدَ القدس؟ سأل السيدُ الأعظمُ وهم يهزّ حاجبيه، وكأنه علِم توًّا بأمرٍ جديد.

- أجل، سيدي الأعظم، ربما يكون ذلك قد لعِب دورًا. ففي كهنوتنا تخضع الوظائفُ للسيّدِ الأعظم، أجاب آرن.

- حسنًا. إجابةٌ حسنة جدًا، قال السيدُ الأ عظمُ وقد أشرقَت أساريرُ وجهه. إنه ليطيبُ لي أن أستمرَّ على هذا التقليد. بالقربِ منك يقِف جيمس دي ميلي الذي حكَم ساحةَ كريسينغ في إنجلترا. وكما تراه فهو يحمِل المعطفَ المناسبَ لوظيفته.

- نعم، سيدي الأعظم، أجاب آرن بنبرةٍ باهتة.

- أقترح أن تتبادلا معطفَيْكُما، فأنتما متساويان في القدّ تقريبًا: قال السيدُ الأعظم دون أنْ يُفارقَه إشراقُه.

لقد ظلا أثناء الطعامِ، على جريْ العادة، يحمِلان معطفَيهما حول عُنقيهما، فحسبهما إذًا اللحظة التي ينحنيان فيها طاعةً للسيّد الأعظم، لكي يُغيّرا معطفيهِما،

Twitter: @ketab_n

ويُغيّرا بالمناسبة الرتبةَ والموقعَ في قلب الكهنوت.

- ها قد صرتَ من جديدٍ قائدًا على ساحةٍ قوية، قال جيرار دي ريدفورد. لقد أحسن صديقُك أرنود التقديرَ حين عيَّنَني في شاستيلْ بلان. ما رأيك أن تَخْلِفَني في هذا المنصب؟

- سأطيع الأوامر، سيدي الأعظم، لكن في هذه الحالةِ أفضّل العودةَ إلى منصبي السابق، في غزّة، أجاب آرن بصوت منخفض لا يخلو من حَسْم.

- أتقول غزّة؟ انفجر السيدُ الأعظمُ قهقهةً. ليست غزّة سوى مكانٍ مهجورٍ مقارنةً بشاستيلْ بلان، لكنْ إذا كانت هذه هي رغبتُك فلن أُخيّبَها. متى ترغب في الذهاب؟

-حين يطيبُ الذهاب.

- حسنًا. فلنقلْ: غدًا صباحًا بعد صلاة السحر.

- وهو كذلك، سيدي الأعظم.

- حسنًا. تستطيع الانصراف. سيّدُ القدس وأنا تنتظرنا أمورٌ مهمّة يجب إنجازها. إني أباركُكَ وأتمنى لك ليلةً هنيئة.

وهو يقول هذا، إذا بالسيد الأعظم يستدير عن آرن فجأة، وكأنه فكّر أنّ هذا الفارس سيتبخّرُ ويتوارى في العدم. لكنه تردّد برهةً، ثم تظاهر بأن أمرًا قد أدهشه فأخذ بحركةٍ من يدِه يسأل عن السبب.

"من واجبي، سيدي الأعظم، أنْ أُطلعك على شيءٍ لا أملك الحقَّ في أن أبوحَ به لأحدٍ آخرَ غيرِك، ولسيّدِ القدس، أقصد الأخ جيمس".

- إذا كان أرنود دي توروج هو الذي أعطاكَ هذا الأمرَ فإني أُلغيه حالا: سيدٌ أعظمُ حيٌّ أولَى بهذا الأمرِ من مَيّتٍ. ما الأمر؟ سأل جيرار دي ريدفورد بنبرةٍ متهكّمة.

- هذا الأمر ليس صادرًا عن أرنود، وإنما عن الأب القديس، أجاب آرن بصوتٍ خافتٍ وهو يحرص على ألا يرفع ذلك التهكم.

لأول مرّةٍ بدا السيدُ الأعظم الجديد مترنحًا في ثقتِه. لقد بحلَق في وجه آرن

Twitter: @ketab_n

برهةً قبل أن يفهم أنّ هذا الأخيرَ يُجِدُّ في كلامه، وأشار إلى الراهبِ الثالثِ بمغادرة القاعة.

ذهب آرن ليُفتّش في قاعة الوثائق التي لا تقع بعيدًا عن ذلك المكان، عن براءةِ البابا التي تحوي معلومات عن جرائم البطريرك هيراقليوس، وعن التعليمات المتعلقة بالكيفية التي يجب أن يُحفَظَ بها ذلك السرّ. وعند عودتِه بسَط الرقّ ووضَعه فوق الطاولةِ أمام السيدِ الأعظم، ثم انحنى وخطا خطوةً إلى الوراء.

ألقَى جيرار دي ريدفورد نظرةً خاطفةً إلى البراءةَ وتعرّف على الأختامِ البابوية، وأدرك أنه لن يستطيع التعرُّفَ على النصِّ، لأنه مكتوبٌ باللاتينية. لكنه لم يكن يملك خيارًا آخر سوى أن يلتمس من آرن أن يترجِم له النصَّ، وهو ما فعله آرن دون أن يكشفَ عن اندهاشه.

ولم يكد السيدُ الأعظم وسيّدُ القدس يطّلعان على تلك الأخبارِ السيئة حتى تعكّر صفوُهما. لقد كان هيراقليوس الرجلَ الذي عمِل أكثرَ ممّا عمِل أيُّ رجلٍ آخرَ في قلب الكنيسة، من أجل أن يصبح جيرار دي ريدفورد السيّدَ الأعظم. وهكذا صار هذا الأخيرُ مدينًا بالجميلِ والمعروفِ لسمّام ملعون.

تلقى آرن الأمرَ بالانصرافِ بإشارةٍ بسيطة، فابتعد بعد أن انحنى في أدبٍ جمٍّ. لقد ذهب وشعورُ الراحة يملؤه يبحثُ عن مأوًى يقضي فيه ليله مع الزوار، لأنه أدرك الآن أنه لن يمضيَ في كفّارته بعد اليوم سوى عامٍ واحدٍ. فقريبًا يكون قد أنفق تسعةَ عشر عامًا من الأعوام العشرين التي التزم فيها بخدمةِ فرسان هيكل الربّ.

لقد بدت له هذه الفكرة جديدةً كل الجدة، حتى اللحظة التي أمَره فيها السيدُ الأعظم بالانصرافِ، وقد عبَر للمرةِ الأخيرة القاعات الكبرى في حيّ فرسان هيكل الربّ. لقد تفادى عدّ السنواتِ، والشهورِ والأيام. ولعل السبب في ذلك أنه صار الآن يملِك كاملَ الحقِّ في أن يفكّر بأنّ العدوَّ قد يُرسِله إلى الفردوسِ، حتى قبْل أنْ تصل العشرون عامًا إلى نهايتِها.

لكنْ لم يبقَ بعد اليومِ سوى عامٍ واحدٍ، وقد أُبرِمت مع صلاح الدين هدنةٌ طولُها أعوامٌ عدّة. فما من حربٍ واحدةٍ تلوح في آفاق الشهور القادمة. فهو يملك

Twitter: @ketab_n

اليومَ كلّ حظوظِ البقاءِ، وحظوظَ العودة سالِمًا إلى ذويه.

لم يسبقْ أن شعَر بما يشعر به اليوم من حنينٍ إلى بلاده. ففي بداياتِه الأولى في الأرض المقدسة كانت السنواتُ العشرون تبدو كأنها الأبدُ الذي لا يُرجَى شيءٌ بعدهُ. وقد كان خلال السنوات الأخيرةِ منهمِكًا في مهامّه الكثيرة بعد أن صار سيِّدًا للقدس، ولذلك لم يسعه أن يحلُم بحياةٍ بعد تلك الحياة. ففي ذلك المساءِ الذي جمعهم في تلك الأماكن التي صار فيها جيرار دي ريدفورد سيِّدًا، والتي تحدّث فيها عن مستقبل الأرض المقدسة مع الكونت ريموند، والأمير بوهيموند، وروجيه دي مولان، والإخوة دبلين، أضحت السلطةُ في الأرضِ المقدسة، وفيما وراء البحار، محصورةً بين أيديهم، وبهم بدَا المستقبلُ مشرقًا. فكلهم صاروا قادرين على صُنْعِ السلام مع صلاح الدين.

أمّا الآن فكلُّ شيءٍ يجب أنْ يعاد من البداية. لقد كان جيرار دي ريدفورد العدوَّ اللدودَ للوصيِّ على الأرض المقدسة، وكلُّ محاولاتِ المصالحة ما بين فرسان هيكل الربّ وفرسان الاسبتارية بُدِّدَت وكُسِحتْ، ولذلك استشعر آرن أنه لم يشهدْ حتى تلك اللحظةِ سوى بداية الكارثة.

وعند عودتِه إلى غزّة كان حسبُه أنْ يغتبط باللقاء الذي جمعَه بقريبه النرويجي، هارالد هوستشاين الذي أرهقه ترتيلُ الأناشيدِ الذي لا ينتهي، والتعرّق على مدار اليومِ تحت أشعةِ الشمس الحارقة، في قلعةٍ في قلب الصحراء. فالقليلُ الذي رآه من الحربِ في الأرضِ المقدسة لم يكن ليُرضيه على أي حال، وأمّا الحياةُ المُمِلَّة الكئيبة التي كان يحياها في قلبِ ذلك الحصنِ فقد أضحت في نفسه أدهى وأمرّ.

وقد أسعدهما كثيراً أنْ يتبيّن آرن أنه يملكُ، بعد أن صار قائدًا للساحة، الحقَّ في أن يقرّر للرهبانِ والرقباء الذين يحسنون السباحةَ والغوصَ، أن يمارسوا هذه الرياضة، لأنه إذا كان ميناءُ غزّة معطلا بسبب أسطولِ العدوّ، فيما المدينةُ محاصرةٌ من ناحيةِ البحر، فإنّ الاستعدادَ لاختراقِ الحاجزِ سباحةً أثناء الليل قد يكون مفيدًا.ولمّا كان هارالد وآرن وحدهما اللذان يُحسِنان العومَ فقد وسعهما أن يُقبلا على هذا النشاطِ من باب الاستمتاعِ، ولم يجعلا منه تمرينًا عسكريًا بأيّ حالٍ. فلا شك أن الأصولَ

Twitter: @ketab_n

تحظُر عليهما الجمْع بين العملِ العسكري والاستمتاع بالسباحة، لأنّ ما من راهبٍ من فرسان هيكل الربّ يملك الحقَّ في أن يَظهر عاريًا أمام راهبٍ آخر، مثلما لا يحق له أن يستحمّ لمجرد متعةٍ في نفسِه. لذلك لم يجدا بدًّا من أن يتناوبا على تلك الرياضة. لكنّ الغبطةَ التي ملكتهما عند القيام بذلك التمرينِ العسكري كانت، بلا شك، أعظمَ من المنفعةِ الحقيقية التي يجنيها منه كهنوتُهما.

فلم يكنْ ليخطرَ على بالِ آرن، قبل أيامٍ معدودة، أنه سيخالفُ الأصولَ على ذلك النحو، لكنه لم يعد الآنَ، بعد أن صار ما بقِيَ من وقتٍ أمامه يدعوه لأنْ يدَع الأيامَ تمرُّ، بدلا من أن يتفرّغ لواجبٍ مقدّسٍ، قادرًا على الالتزام بهذا الواجب كما كان يلتزم به فيما مضى. لقد أخذ وهارالد يخطّطان للخروج معًا، إذْ يحقّ لآرن، وهو سيّدُ القصر أن يُقيل رقيبًا من وظيفته، وقد اتفقا على أن يقوما معًا بالسفر الطويل الذي سيقودُهما إلى بلاد الشمال.

لكنهما ظلا حائرَين كيف يدبّران المالَ الضروري للسفر. ففي خلال الأعوامِ التسعة عشر التي أمضاها دون فلسٍ واحد افتقد آرن عادة التفكير في أمور المال. ولكنه يعود اليوم ويفكّر ويقول بينه وبين نفسه أنه سوف يستطيع بلا شكٍّ أن يقترض المبلغَ الضروري لذلك السفر من أحدِ الفرسان العلمانيين الذين يعرفهم. وفي أسوأ الأحوالِ سيعمل هو وهارالد لمدةِ سنةٍ لدى كونت طرابلس، مثلا، أو لدى أميرِ أنطاكيا، للحصول على ذلك المبلغ.

وما كادا يشرعان في الحديث عن السفر حتى أخذهما الشوقُ إلى البلاد، فصارا يحلُمان بالمناطق التي طرداها من بالِهما منذ زمنٍ طويل، وبرؤية وجوهٍ لم يرياها منذ زمنٍ بعيدٍ، وبسماعِ لغتِهما الأم ثانيةً. وقد كان لحنين آرن دافعٌ إضافيّ: كان في كلِّ ليلةٍ يرى سيسيليا، فيدعو القديسةَ العذراء أن تحفظهما، هي وطفلهما المجهول.

كانت الأنباء التي ترِده من حين لآخرَ عن طريق المسافرين القادمين من القدس كثيرًا ما تقوّي شعوره بأن الأرض المقدسة تسير نحو ضياعِها. فمن لم يكونوا مسيحيين لم يعدْ لهم الحُق في العباذة فيها، ولم يعد للأطباء اليهود والعرب الحقُّ في أن يمارسوا فنّهم، سواء كانوا متديّنين أم علمانيين. لقد أضحت العداوةُ ما بين

Twitter: @ketab_n

كهنوتي الفرسان أكبرَ من أيِّ وقتٍ مضى، لأنّ الأسيادَ الكبارَ صاروا لا يتبادلون الكلامَ والحوارَ. ويبدو أنّ فرسانَ هيكلِ الربّ صاروا يبذلون قصارَى الجهدِ لكي يُقوّضوا السلامَ الذي لم يدّخرْ الوصيُّ جهدًا من أجلِ الحفاظِ عليه. وأكثرُ ما صار يثيرُ مزيدًا من الخوف والقلقِ أنّ فرسانَ هيكلِ الربِّ صاروا الآن موالين لِرينو دي شاتيون، نهّابِ قوافلِ الكرك. كان آرن يقول لنفسه أنْ لعل المسألةَ مسألةُ وقتٍ قبل أن يُقْدِمَ هذا الأخيرُ على آخرِ حملاتِه التي ستُنهي السلامَ، وهو ما يتمنّاه فرسانُ هيكلِ الربّ، علنًا جهارًا.

صار آرن يفكّر الآن في عودتِه إلى ذويهِ أكثرَ ممّا يفكّر في شيْءٍ آخر، وقد صار يشغلُ بالَه أكثر فأكثر بِعَدِّ الأيامِ التي سيقضيها في الخدمةِ، أكثر مما يُشغِله بالغيوم السوداءِ التي تتراكم في الآفاقِ الشرقية من الأرضِ المقدسة. وكان يبرّر لامُبالاته بالقول إنه لم يعد يملكُ أيَّ تأثيرٍ على مجرى الأمور. ألم يسحبُ منه الربُّ كلَّ السلطةِ التي كانت له في الكهنتوت؟

ففي خلال سنةِ الخمول تلك التي أمضاها في غزة صار يُنفق من الوقتِ في ترويضِ فحله ابن عنّازة، والحِجر أمّ عنازة، أكثر ممّا ينفق في أيّ شيْءٍ آخر. كان هذا هو كلُّ ما يحقُّ له حيازتُه، وكان في وسعه أن يجد من يشتريهما، فحسبُه ثمنُ هذين الحصانين لدفْعِ نفقاتِ عودتهما إلى البلاد، وإن كان يمنّي النفسَ بأخْذِهما معه إلى فاسترا غوتالاند.

أجل، فاسترا غوتالاند.... كان من حين إلى حينٍ ينادي مسقطَ رأسه بصوتٍ خافتٍ، كأنه يُدرّبُ نفسَه على فكرةِ تلك العودة.

ففيما لم يتبقَّ له سوى تسعةِ أشهرٍ في الخدمة إذْ برسولٍ يُقْدِمُ من القدس. كان على آرن دي غوثيا أن يذهب إلى عسقلان على عجلٍ، ليرافقَ موكبًا مهمًّا قوامُه ثلاثون فارسًا.

وقد أطاع في الحالِ دون أن يرفَّ له جفنٌ، وفي عصرِ اليومِ ذاته وَجد نفسَه مع رجالهِ في عسقلان. كان الذي في انتظارِه في غاية الأهمية، وإن لم يكنْ متوقّعًا. لقد رحَل الملكُ بالدوين الرابع وهو بين يدَيْ عمّه جوسلين دي كورتناي. لذا جاء آرن

Twitter: @ketab_n

لينقُلَ جثمانَه إلى القدس، يرافقه ذوُوه الحزانَى، غي دي لوسينيان وسيبيلْ - أمٌّ لم يبدُ عليها مع ذلك، حزنٌ، ولم تذرف دمعًا.

وفي طريقهم إلى المدينة المقدسة أدرك آرن أنّ الغايةَ من تلك الرحلة لم تكن جنازةَ طفل، بل كان الذي يجري تبديرُه هو الاستيلاء على السلطة.

فبعد مرور يومين اثنين باتت خططُ المتآمرين مكشوفةً، عندما أعلن جوسلين دي كورتناي ابنةَ عمّه وريثةً للعرش.

وها هو آرن الذي صار الآن يقيم في الجزء الأقل سموًّا في حيٍّ فرسان هيكل الربّ يلتقِي بالأب لويس الذي بدا محزونًا مغمومًا. لقد قصّ عليه رئيسُ الدير كلّ ذلك الذي جرى.

وصل جوسلين دي كورتناي في البداية إلى القدس على عجلٍ، حتى يلتقيَ بالكونت ريموند، ويُخبِرَه بوفاة الملك الطفل بالدوين، ويقترِحَ عليه دعوةَ المجلسِ الأعلى للبارونات للانعقادِ في طبرية، بدلا من القدس، حتى لا يتدخّل في هذا الأمرِ السيدُ الأعظم الذي لم يُقسِمْ بأنه سيُطيعُ آخرَ ترتيبات بالدوين الرابع، والبطريركُ هيراقليوس الذي يهوَى التدخّلَ في كلّ أمر.

وعندما غادر الكونت القدسَ إذا برينو دي شاتيون يصل إليها، قادمًا من الكرك، على رأس فيلقٍ من الفرسانِ بعد أن أعلن جوسلين أختَه وريثةً على العرش. فإنْ نجحتِ الخطةُ فلن يتأخّر إعلانُ غي دي لوسينيان ملكًا على القدس، وعلى الأرض المقدسة. أمّا الكونت ريمون، والإخوةُ إبلين وكلٌّ مَن قد يعترضون فقد أُبعِدوا عن المدينة عن طريق الحيلةِ والمكيدةِ، وأبوابِ المدينةِ وأسوارها التي يسهرُ على حراستِها فرسانُ هيكل الربّ الذين لن يسمحوا بأنْ يدخلَ إليها أحدٌ من الأعداءِ، أصحابِ الدسائس والمكائد. فلا شيء ينبئ بأنّ هنالك من يملك القدرةَ على صدِّ الكارثة التي ستضرب البلاد قريبًا.

فالشخصُ الوحيدُ الذي تجرّأ ووقَف ضد الاستيلاء على السلطة هو سيّدُ فرسان الاسبتارية الأعظم، روجيه دي مولان الذي رفَض النكوث بالقَسَم الذي قطَعه أمام الربّ للراحل بالدوين الرابع. أمّا البطريرك هيراقليوس فلم يشعرْ بأنه ملزَمٌ بأي

Twitter: @ketab_n

واجب، وأمّا جيرار دي ريدفور فقد ادّعى أنه لم يُقسِم بأيّ شيءٍ وأنّ كلمةً نطَق بها سيّدٌ أعظمُ لم يعدْ اليومَ سيّدًا، لن تُلزمه بأيّ شيء.

أقيمت مراسيمُ الجلوس على العرش في كنيسة القبر المقدس، فقد بدأ رينو دي شاتيون بإلقاءِ خطابٍ عنيفٍ شدّد فيه على أن سِيبيلْ هي الوريثةُ الحقيقية، ما دامت ابنةَ الملكِ أموري، وشقيقةَ بالدوين الرابع، ووالدةَ الراحل بالدوين الخامس. لقد تناولت سيبيلْ التاجَ ووضعته فوق رأسِ زوجِها،ثم وضعَت الصولجان في يده.

وعند خروجِه من كنيسة القبر المقدس متجهًا برفقةَ الموكبِ إلى الوليمةِ التقليدية المقامةِ في القاعة الشرفية بقصر فرسانِ هيكل الربِّ، صاحَ جيرار دي ريدفور فرحًا بنجاحِه بعونِ الربِّ في الانتقامِ من الكونت الذي لا يسعه أن يفعلَ شيئًا سوى أنْ يكزَّ أسنانَه حنقًا وغيظًا في طبرية.

حضر آرن جلوسَ الملكة على العرشِ لأنه كُلّف بالإشراف على المفرزة التي تؤمِّنُ حمايةَ العواهلِ الجدد، بيد أنّ تلك المهمّةَ سرعان ما بدَتْ له جد مُرّة، ليقينِه أنه يحمي يمينًا كاذبًا سوف يؤدي بالأرض المقدسة إلى الهاوية.

بل أضحت المهمةُ أكثرَ مرارةً لمّا استدعاه جيرار دي ريدفور وأكّد له أنه لا يُضمر له أيّ ضغينةٍ، وبأنه على العكس تعلّم الكثيرَ من الأمور التي لم يكنْ يعرفها حين تعجّل فحَرَم آرن من قيادته للجيش في المدينة المقدسة. لقد قيل له منذ ذلك الوقتِ إنَ آرن محاربٌ بارعٌ، وأفضلُ فارسٍ، وأفضلُ نبّالٍ، وأنه فوق ذلك مَن حقّق النصرَ في معركة مونسيحار. لذلك رغب في أن يُكفّر عن بعضِ خطئِه فشرّف آرن بالانضمام إلى الحرس الملكي.

أحس آرن بأنه قد جُرِح في شرفِه لكنه حرص على ألا يُظهر ذلك الإحساسَ. لقد ظل يعدُّ الأيامَ التي تفصله عن يوم ٤ تموز ١١٨٧ وعن الذكرى العشرين لليوم الذي نَذَرَ فيه نذْر الطاعة والفقرِ والعفة.

لم يثر ذلك الذي رآه خلال الأيام التي قاد فيها الحرسَ الملكي اندهاشه بتاتًا. لقد ظل غي دي لوسينيان وسيبيلْ يمارسان تقريبًا نفسَ الحياة الليلة التي تمارسُها أنييسْ دي كورتناي وقريبها جوسلين.

Twitter: @ketab_n

لو كان كل هذا حدث قبل سنواتٍ لكان آرن، بلا شكٍّ، قد بكَى بكاءً حارًّا وهو يرى السلطةَ بين أيدي هؤلاء الآثمين المترسخين في الإثم. أمّا الآن فهو مسلِّمٌ بالأمرِ، وكأنه أدرك واقتنع أنّ عقابَ الربِّ سوف ينزلُ بالأرض المقدسة، لا محالة.

عند نهاية تلك السنة أنهى رينو ودي شاتيون، كما كان متوقعًا، الهدنةَ مع صلاح الدين بهجومِه على أهمّ قافلةٍ واجهها في حياته، على الطريقِ ما بين مكة ودمشق. كان من السهل فهْم غضبِ صلاحِ الدين: لقد كانت أخته من بين الرجال والنساء الذين كانوا في سجون قلعة الكرك، فلم يكد الخبرُ يصل إلى القدس حتى أقسم صلاح الدين بأنه سيقتُل رينو بيدَيه.

ولمّا وقَف المفاوضُ الذي أرسله صلاح الدين أمام الملكِ غي ليشترط تعويضًا لم يستطِعْ هذا الأخير أن يعدِه بشيء. فقد اعتذر له قائلا أنْ لا حول له ولا قوةَ أمام رينو ودي شاتيون.

لذلك لم يعد أيُّ شيءٍ يحول دون نشوبِ حربٍ جديدة.

ومع ذلك فقد استطاع الأميرُ بوهيموند أنطاكيا أن يعقِد صلحًا سريعًا مع صلاح الدين، وقد فعَل الكونت ريموند ما فعَله الأمير، باسم طرابلس، وباسم أراضي زوجته إيشيفا، حول طبرية في الجليل. فلا الأميرُ ولا الكونت رغِبا في التورّطَ في تصرّفات مجانينِ بلاطِ القدس، وقد عمِلا على تسريبِ الخبرِ إلى صلاح الدين.

صارت الحربُ ما بين المسيحيين تلوح في الآفاق، وقد بدأ جيرار دي ريدفور يُقنع الملكَ بإرسالِ جيشٍ إلى طبرية لتأديب الكونت تأديبًا حاسمًا. وقبِل الملكُ، وتأهّب جيشٌ يدعمه فرسانٌ من هيكل الربِّ، للسير نحو الجليل.

وفي آخر لحظةٍ تدخل باليانْ دبلين لدى الملكِ وأنذره بالعودة إلى الصوابِ والحكمة. فلن تكون تلك الحربُ ما بين الإخوةِ إلا انتحارًا، مادام صراعٌ آخر، أعظمُ شأنًا، قد نشبَ مع صلاح الدين. فخليقٌ بهؤلاء، على العكس، أن يجنَحوا للمصالحة مع الكونت. ولذلك اقترح الذهاب في وفدٍ إلى طبرية لذلك الغرض تحديدًا.

كان جيرار دي ريدفور، وروجيه دي مولان، وباليان دبلين، ومطران صورْ،

Twitter: @ketab_n

وجوسياس، من بين وفدِ المتفاوضين، وقد رافق الموكبَ بعضٌ من فرسان الاسبتارية، وكان آرن في عِدادِهم أيضًا.

وفي غضون ذلك وجد الكونت نفسَه في حالٍ لا يُحسَد عليه. فحتى يختبِر مصداقيةَ الهدنة أوفد إليه صلاحِ الدين ابنَه «الأفضل»، ليطلب منه السماحَ لسوقةٍ كبيرة من الكشّافين بالعبور عن طريق طبرية. وقد قبِل الكونت، لكنْ شريطة أن لا تدخل تلك المفرزةُ البلادَ إلا عند الشروق، وأنْ تغادرها عند الغروب. وقد قُبِل الشرط.

وقد أرسل الكونت فرسانًا لكي يُنبئوا الوفدَ القادِمَ حتى لا يجد نفسَه بين أنياب العدوّ على حين غرة. والتقَى مبعوثو الكونت بالمتفاوضين بالقرب من الناصرة، وسلّموا إليهم رسالتَهم، فشكرَهم جيرار دي ريدفور وأجزلَ الشكرَ على هذا التحذير، لكنه على أي حال لم يُسْدِ لهم ذلك الشكرَ على أيٍّ مما تصوّروه من دوافع أخرى.

لقد قدّر السيدُ الأعظم أنّ فرصةً عظيمةً قد سنحت له، فأوفَد على عجلٍ رسولا إلى قلعةِ لافيف، حيث يُعسكر جيمس دي ميلي على رأسِ ثمانين فارسًا من فرسان هيكل الربّ. ففي الناصرة نفسِها أمكن جَمْعُ نحو أربعين فارسًا وبعض المشاةِ، وعند مغادرة تلك المدينةِ للالتقاء بالأفَضل وفرسانه السوريين طلب من سكانِ الناصرة أنْ يتْبعوه مشيًا على الأقدام، مؤكدًا لهم أنّ الحصادَ سيكون وفيرًا.

إلا أنَ مطرانَ صورْ رفض الذهابَ أبعدَ من ذلك، فهو لم يُوفَدْ لكي يشارك في هجوم وإنما في مفاوضة. ولم يندمْ على ذلك القرارِ في النهاية.

لاَ شك أنّ جيشًا مسيحيًا أعظمَ، قوامُه مئة وأربعون فارسًا، مدجَّجون بالسلاح والعتاد، ومن بينهم فرسانٌ من فرسان هيكل الربّ، وبِضْعُ مئاتٍ من المشاةِ، لَجيشٌ رهيبٌ مروع. لكنهم التقوا بالعدوّ بالقرب من عين كريسون ورأوا الوضعَ من أعلى مواقعِهم فلم يُصدّقوا ما رأته عيونهم، فالذي شاهدوه أمامهم كان كلَّ شيءٍ إلا زمرةً من الكشافين. لقد رأوا سبعةَ آلافٍ من الرّماحين المماليك، ونبّالين سوريين مدجّجين، وهم يسقون مطاياهم.

Twitter: @ketab_n

منْ ذاك بدا وكأن المسألةَ أضحت مسألةَ حسابٍ ليس أكثر. ألا يعقل لقائد على رأسِ مئة وأربعين فارسًا، تعدُّ صفوفُهم عددًا لا بأْسَ به من فرسان هيكل الربّ ومن فرسان الاسبتارية أن يهجم على سبعمئة من الفرسان المماليك، ومن النبالين السوريين؟

اقترح روجيه دي مولان، يُسنِده جيمس دي ميلي، انسحابًا حذِرًا مترويًّا.

لكنّ جيرار دي ريدفور لم يفهم القصدَ من ذلك الاقتراحَ فاستشاط عضبًا، واتهم الآخرين بالجُبنِ، بل ذهب إلى حدّ الإساءةِ إلى جيمس دي ميلي بالسبِّ والشتيمة، قائلا له «إنك تخشَى التضحيةَ برأسِك الأشقر في سبيل الربّ.» أمّا روجيه دي مولان فقد رآه بالطبع، غيرَ أهلٍ للمهامّ التي يحمِلها.

كان آرن من الرُّتَبِ الدنيا، ولذا لم يستَشِرْهُ أحدٌ في الأمرِ، فظل بعيدًا عن المعمعة، من على صهوة «أردانت»، فحلِه الإفرنجي. لكنه لم يكن من البعدِ بما يحول دون سماعه تلك الألفاظ الغليظة. كان جيرار دي ريدفور قد فقدَ صوابَه أو كاد، ولذا فإن هجومًا في عزّ النهارِ لا يمكن أن يؤول إلا إلى الموتِ لا محالة.

لكنّ جيرار دي ريدفور ظلّ متمسكًا بعنادِه، وقد تأهّب للهجوم، ولم يَسَعْ فرسان الاسبتارية وغيرِهم سوى اتباعِه، فالمسألةُ مسألةُ شرفٍ لا ريب فيه.

ولمّا انتظموا للمعركة أرسل السيدُ الأعظمُ في طلبِ آرن للحضور بالقرب منه حتى يُكلّفَه بحملِ البيرقِ، لأنّ حملَه يقتضي البراعةَ والإقدام. وقد وقف آرن بجانب جيرار دي ريدفور بذلك البيرق baucent وفي الوقت ذاته كان بمثابة الدرع الحامي بالقرب من السيد الأعظم الذي لم يهَبْ التضحيةَ بحياته من أجل إنقاذ حياةِ الراهب الأعلى في الكهنوت. لقد كان حامِل البيرقِ والسيّدُ الأعظمُ هما آخرُ ما يجب التضحية بهما، في تلك المعركة.

ومع ذلك لم يكنِ الخوفُ هو الشعور الذي يستبدُّ بآرن لمّا أخذ مكانَه بين إخوتِه الرهبان، وإنما هو الشعور بالإحباط والخيبة. سوف يصبح قريبًا حرًّا طليقًا، لكنه قد يموت إرضاءً لنزواتِ رجلٍ معتوه، وعلى نحو ما يموت كلُّ مَن كان لهم قادةٌ معتوهون أو قاصرون. فلأوّل مرّةٍ في حياتِه خطر له أن يطلق ساقيه للريح ويفرّ،

Twitter: @ketab_n

لكنه ما لبث أن تذكّر القسم الذي قطعه، فالقَسَمُ ما يزال ساريًا لبضعةِ أشهرٍ قادمة، فإذا كانت الحياةُ قد تُؤخَذ منّا في أي لحظة، فإن القسم لا أحد يستطيع التنصُّلَ منه.

أعطى السيّدُ الأعظم الأمَر بالهجوم وهو يرفَع ويُخفِض الرايةَ مرّات ثلاث. وهكذا وثب مئة وأربعون فارسًا نحو الموت.

لكنّ جيرار دي ريدفور لم يُسرع في الهجوم كما أسرع الآخرون، ولمّا كان آرن ملزَمًا بالبقاء إلى جانبِه فقد ظل هو أيضًا في المؤخرة. وعندما احتكَّ المسيحيون ببَحرِ المماليك استدار السيدُ الأعظم فجأةً نحو اليمينِ فتبِعه آرن وهو يُشهِر درعَه حتى يحميَه من السهامِ التي بدأت تهطل فوقهما، واخترق بعضُها زرديَّتَه. وما لبث جيرار دي ريدفور، وعلى إثرِه آرن ورايته، أن استدار فجأةً حتى يفِرَّ بسرعةٍ فائقة من ذلك الهجوم الذي لم يغامِر به أحدٌ غيرُه.

لم ينجُ أحدٌ من فرسان الاسبتارية، ولا من فرسان هيكل الربّ، من هجومِ عين كريسون، وكان من بين ضحاياه الكثُرُ روجيه دي مولان وجيمس دي ميلي.

لقد أُسِر بعضُ الفرسان العلمانيين الذين جُنِّدوا في الناصرة بغرضِ الحصول على فديةٍ، وأما سكانُ المدينة الذين تابعوا حركةَ الهجوم مشيًا على الأقدامِ، وقد جلبَتهم الغنيمةُ التي وعدهم بها جيرار دي ريدفور، فقد اقتيدوا بالقرب من أسواقِ الرقِّ.

وفي ذلك المساء، وقبل الغروب بقليلٍ، رأى الكونت ريموند من على أسوارِ طبرية قواتِ الأفَضل وهي تَعبُر نهرَ الأردن، طبقًا للاتفاقِ، لكي تغادر الجليلَ قبل نهاية ذلك اليوم.

كان على رأس الجيش العربي فرسانٌ من الرمّاحين المماليك وهم يُشهرون رؤوسًا ملتحيةً على رؤوس أسلحتهم.

كان ذلك المنظرُ في عينَي ريموند أكثرَ بلاغةً من أيّ رسول. ولمّا لم تُطاوعه خيانةُ مصالحِ المسيحية قرّر أنْ يُبطِلَ الهدنةَ التي تعهّد بها مع صلاح الدين، وأنْ يؤدي قَسَمَ الولاءِ لِغي دي لوسينيان، وإنْ كان الثمنُ باهظًا. فلم يكن يملك حلاً آخرَ، ولم يعرفْ في حياتِه قط قرارًا أصعبَ وأدهى.

Twitter: @ketab_n

فلمّا انطلق صلاحُ الدين في هجومِه الحاسم، في تلك الصائفة، كان على رأسِ أكبرِ جيشٍ لم يسبق أن هيّأ جيشًا أصلبَ منه عُدةً وعددًا: أكثر من ثلاثين ألف فارسٍ. لقد عقدَ العزمَ على خوض معركةٍ حاسمة.

علِم آرن بنبإ ذلك الهجوم في غزة التي قصدها للعلاج على أيدي أطباء عرب. في تلك الأثناء رفَع الملكُ التعبئة العامة وهو ما يعني أن كلَّ الرجال القادرين على خوض الحربِ مدعوّون للانضمامِ تحت رايات الأرض المقدسة. وهكذا أخلى فرسانُ الاسبتارية وفرسانُ هيكل الربّ مواقعَهم القوية من آخرِ فرسانها، ولم يتركوا بها سوى بضعة قوّادٍ ورقباء، لتأمين رعايتهم ودفاعهم.

ومن بين الذين تركهم آرن في غزة هارالد أوشتاينسون، تقديراً منه أنْ لا غنًى عن مثلِ هذا النبّالِ، من على الأسوار، في حالِ تراجُع عددِ المدافعين.

لم يُخبره أحدٌ بالذي كان سيحْدُثُ. فهو لا يعلم أنه في تلك التعبئةِ العامة سيُشكِّل فرسانُ الاسبتارية وفرسانُ هيكل الربِّ، وحدهم قوّةً قوامُها نحو ألفَيْ رجل، يؤازرهم أربعةُ آلافِ فارسٍ من العلمانيين، وما بين عشرةِ آلافِ وعشرين ألفَ نبّالٍ ومشاة. لقد رأى آرن من واقعِ خبرتِه أنّ العربَ، على الرغم من وفرتهم، لن يهزموا مثل هذه القوة في معركةٍ تقليدية. لكنه كان أكثر قلقًا وانشغالا ممّا يمكن أن يحدث لو أن صلاحَ الدين تمكنّ من جرِّ هذا الجيش إلى مناوراتِ التضليل التقليدية، ومن خطَر فقدان بعض المدن التي تُركتْ شبه خالية من مُدافعيها.

فلم يتصور أنّ ذلك المعتوه الذي يدعَى جيرار دي ريدفور سيكرّر ما فعله في عين كريسون، ومن حُسن الحظ أن القائدَ الأعلى لفرسان هيكل الربّ لا يسعه أنْ يُقرِّر بمفرده ما سوف يفعله الجيش المسيحي.

ولمّا وصل إلى سانت جان عكة على رأسِ فرسانه الأربعة والستين ونحو مئة رقيبٍ، قادمًا من غزّة، لم يكن قد بقِي له في خدمةِ كهنوت فرسان هيكل الربّ سوى أقل من أسبوع واحدٍ. فلم يُشغِل بالَه بالأمرِ كثيراً، لأنه لا يستطيع السفرَ والحربُ على أشدّها، لكنّ نفسَه حدّثته بأنّ السفرَ باتَ وشيكًا، بعد مرور ما بقِي

Twitter: @ketab_n

من أيامِ ذلك الأسبوع، حين يحلُّ الخريفُ، وتردُّ الأمطارُ صلاحَ الدين على عقبِه، إلى ما وراء نهرِ الأردن.

نُصِّب في سانت جون عكة مخيّمٌ كبيرٌ في حرِّ الصيف. وفي الحال عمِد الملكُ الذي صار محاطًا برجالِه، إلى عقدِ مجلسٍ في القلعة.

حرص سيّدُ فرسان الاسبتارية الأعظمُ الجديد على مخالفة أقوالِ جيرار دي ريدفور، واعترض الكونت ريموند على كل ما قاله هذان الرجلان، وعارض البطريركُ هيراقليوس أقوالَ الرجالِ الثلاثةِ الآخرين معًا.

بدأ رأيُ الكونت يلقَى موافقةَ الكثيرين، فقد حاول أن يُقنع هؤلاء بأنّ الزمنَ منتصفُ الصيفِ، وأنّ صلاحَ الدين أقدمَ على نهْبِ الجليل على رأس أقوى جيشٍ قياسي،لكنه يواجِه بسببِ العددِ الهائل من الخيول والفرسانِ، مصاعبَ لا تنتهي بسبب قلة الماءِ والأعلافِ والتموين. فإنْ لم يواجِهْ معارضةً في أقربِ وقتٍ فسوف يرهقُ جيشَه نفادُ الصبرِ والحرُّ معًا، وذاك ما دأب عليه عربُ الشرق في سائرِ الأيام.

لم يجد المعسكر المسيحي بُدا من أن يظل مرابطًا في مواقعِه القوية، حيث يسعه الصمودُ بعضَ الوقتِ بفضل المؤن التي في حوزتِه، وانتظارُ ساعة إنهاكِ العرب وشروعُهم في العودة إلى ديارهم، للهجوم. وساعتها قد يحقّق جيشُ المسيحيين انتصارًا سيكون ثمنَه النهبُ الذي قد يشهده خلال هذا الهجوم، لكنّ الثمنَ لن يكون باهظًا إنْ أتاح التغلّبَ على صلاح الدين بصورة نهائية.

لم تبدُ غرابةٌ من أحدٍ حين أبدى جيرار دي ريدفور رأيًا مخالفًا، مثلما لم يستغرِب أحدٌ عند سماعهِ وهو يصف الكونت بالخائنِ وصديقِ العرب، ويتّهمه فوق ذلك بإبرام السلامِ مع صلاح الدين. لكنَّ الملكَ نفسَه لم يُلقِ بالاً لذلك الزهو الطائش.

في المقابل عرف البطريركُ هيراقليوس كيف يُمسك على الملكِ أذنَه عن سماعِ ذلك الطيشِ، قائلا إنّ الهجومَ يجب أن ينطلق في الحالِ. فلا شك أن ما قاله الكونت قبل قليلٍ معقولٌ جدًا، لكنْ من اللائق مباغتة العدوّ بعملٍ ما يمكن أن يبدوَ للعدوّ عملاً خالياً من الذكاءِ والبصيرة.

Twitter: @ketab_n

وعلاوة على ذلك كان هيراقليوس يملك الصليبَ الحقيقي، ولذلك سأل وهو يُفخّم السؤالَ، متى خسر المسيحيون معركةً حَملوا فيها الصليب الحقيقي؟

من الإثم إذًا أن يشكّ أحدٌ في انتصارٍ في مثل تلك الحالِ، لكنّ نجاحًا سريعًا سوف يَغفِر لمن ارتكبوا ذلك الإثم.

فالأفضل، وهو ما يرضي الربَّ، أن يكون الانتصارُ سريعًا.

لكن وا أسفاه، تابع هيراقليوس، فصِحّته لا تسمح له بحمل الصليب الحقيقي في ساحة المعركة. لكنه يستطيع أن يعهَد بهذه المهمة وهو مطمئنٌّ كل الاطمئنان إلى أسقف سيزاريه، لأنّ أهمّ ما في الأمرِ وجود رُفاتِ القديسين في المعركة، لضمانِ الانتصار فيها.

في الأيام الأخيرة من حزيران ١١٨٧ انطلق الجيشُ المسيحي في اتجاه الجليل لمواجهة جيوش صلاح الدين في أكثر فترات السنةِ حرًّا. وقد مشوا يومين كاملين قبل أن يصلوا إلى منابع سيفوري حيث الماءُ يتدفق غزيرًا. وفي هذا المكان جاءهم النبأُ بأنّ صلاح الدين قد استولى على طبرية وحاصرَ قلعتَها.

كانت طبرية هي مدينة الكونت ريمون، وكانت زوجتُه إيشيفا تقيم في حِصنها. وما لبث أبناؤه الثلاثةُ العاملون في الجيش المسيحي، أن طلبوا من الملكِ أن يسارع بإنقاذِ والدتِهم، وقد أبدى الملك استعدادًا لتلبية ذلك الطلب.

عندئذ أبدى الكونت رغبةً في الكلام، فخيَّم صمتٌ مهيبٌ جعل جيرار دي ريدفور نفسَه لا يجرؤُ على الهمهمة بأية كلمة.

«سيدي، قال الكونت في البداية، بصوتٍ هادئٍ وقويٍّ في آنٍ، حتى يسمعه الجميعُ بوضوحٍ تامٍّ، إن طبرية ليست لأحدٍ غيري، وفي قلعتِها زوجتي وكنوزي، فأنا مَن سيَخْسِر أكثرَ إنْ هي سقطت. لذلك عليكم أن تحمِلوا أقوالي على محملِ الجدِّ إنْ طلبتُ منكم ألا تهاجموها. هنا عندنا الماءُ، ونحن قادرون على الدفاع عن أنفسِنا. نبّالونا ومُشاتنا باستطاعتهم إنْ هجموا، أن يُكبِّدوا العربَ خسائرَ فادحة. لكنْ إنْ نحن سرنا نحو طبرية فستكون الهزيمةُ مصيرَنا لا محالة. إني أعرف المنطقةَ، أعرف أنْ لا ماء فيها، ولا مراعيَ على الطريق المؤدّي إليها، وأعرف أنّ المنطقةَ في هذا الوقت

Twitter: @ketab_n

من السنةِ، خاليةٌ أو شبه خالية. فحتى إن استولى صلاحُ الدين على حصنها وهدّم قلاعَها فلن يسعه الاحتفاظ بها. أما الأسوارُ فسوف أعيد بناءَها. وإن استولى على زوجتي فسوف أدفع الفديةَ. باستطاعتنا أن نتحمّل هذه الهزيمة، لكنْ إنْ مشينا نحو طبرية في عزّ الصيف فإن ما سنفقده في النهاية هو الأرض المقدسة.»

كان وقْعُ كلماتِ الكونت حاسِمًا على الأسماعِ، فقد أقنعت كلَّ واحدٍ، وهكذا قرّر الملكُ بأن يرابط بجيشِه في سيفوري وينتظرَ هجومَ العدو.

لكنّ جيرار دي ريدفور قصَد أثناء الليل الملكَ في خيمتِه ليقول له إنّ الكونت خائنٌ، لأنه أبرَم معاهدةً في السرِّ مع صلاح الدين، ولذلك يجب على الخصوص عدمُ الإصغاءِ إلى نصائحه. فالملك على العكس من ذلك أمام فرصةٍ هائلة لتحقيق انتصارٍ حاسم على صلاح الدين، لأنّ الأرض المقدسة لم يسبق أنْ أعدّت جيشًا بذلك الحجمِ الهائل من العدّة والعدد. وهي فوق ذلك تملك الصليبَ الحقيقي، وقد وعدَها الربُّ ذاتُه بأنّ النصرَ آتٍ لا محالة. لم يكن ريموند يسعى لشيءٍ آخر غير حرمانِ غي من الانتصار على صلاح الدين. لم يكن سوى رجلٍ حاقدٍ بعد أن فقَد الوصاية، لكنه بلا شك لم يفقدْ الأملَ في استرجاعِ العرش، ولذلك رغب في ألا يحقّق الملكُ انتصارًا على صلاح الدين.

كان الملك يثق في السيدِ الأعظم، لكن لو فكّر جيدًا وحرّك جيشَه نحو طبرية ليلا لكان التاريخُ أخذ مجرى مختلفًا. لكنّ الملك قال إنه يريد النوم أوّلا، ففعَل. ولم يتحرك الجيشُ المسيحي نحو طبرية إلا مع بزوغ الفجر.

تصدّر الركبَ فرسان الاسبتارية، ومن ورائهم سار الجيشُ المنظَّم، وظل فرسان هيكل الربّ في المؤخرة، تحسبًا لأسوأ الصدمات.

لقد منَع جيرار دي ريدفور عن فرسان هيكل الربّ الخيالةَ الأتراك، اعتقادًا منه أن ذلك ضربٌ من الكفر. وكان آرن، على غرارِ الرهبان الآخرين، يمتطي جوادًا مدجّجًا، يرافقه بضعُ مشاةٍ لحماية الخيول. لذلك لبسوا منذ البدايةِ دروعًا ثقيلةً زادتها الشمسُ احتراقًا، وترّسُوا مطاياهم لذات الغرض.

ظل العربُ عند اقترابِ جيش المسيحيين يتصرّفون كعادتهم، فيُرسلون أسرابًا من

Twitter: @ketab_n

الفرسانِ لكي يُرهِبوا صفوفَ عدوّهم بسهامٍ يرشقونَه بها، قبل أنْ يدُورُوا إلى الخلف ويتواروا إلى حين. وبعد برهةٍ تلت تلك المَوجةَ موجةٌ جديدة، وقد ظلت الموجاتُ تتعاقب على ذلك المنوالِ منذ تلك الصبيحة.

لقد تلقّى فرسان هيكل الربّ الأمرَ بألا يغيّروا تشكيلتَهم لأيّ ذريعةٍ من الذرائع، لذلك لم يسعهم أن يُطلقوا سهامَهم ردًّا على تسديدات عدوّهم، ولم يكن بحوزتِهم خيالةٌ خفيفةٌ تحرس جناحهم، لأن السيدَ الأعظم قدّر أن ذلك كفرٌ. وفي غضونِ بضعِ ساعاتٍ أصابت الفرسانَ سهامُ العدوّ، فتعرّضوا لجُروحٍ لم تكن بليغةً بالتأكيد، لكنها قد تصبح معيقةً في عزّ ذلك الحرّ الشديد.

كان ذلك اليومُ شديدَ الحرِّ، وقد عمّته ريحُ الجنوب، وكما قال الكونت فلم يجِدوا على طولِ الطريقِ بكامله قطرةَ ماءٍ واحدة. فمن طلوعِ النهارِ إلى غروب الشمس ما انفكوا يتقدّمون في وسطِ سياجٍ مزدوجٍ لا ينتهي من خيّالة العدوّ الخفيفة. كانوا في البداية يحمِلون موتاهم، لكنهم ما لبِثوا أن اضطروا للتخلي عنهم حيثُما سَقطوا.

وعند الغروب اقتربوا من طبرية ورأوا النهرَ يتلألأ تحت أشعة شمس المغيب. وقد حاول الكونت أن يُقنِع الملكَ بالهجوم في الحالِ للوصول إلى الماءِ قبل مجيءِ الليل: فإنْ ظلوا دون ماءٍ بعد ذلك اليوم من العناء والمشقةِ لهُزموا قبل الأوانِ عند طلوع شمسِ اليوم التالي.

لكنّ جيرار دي ريدفور رأى أنّ القتالَ بعد الهدوءِ والسكونِ أنجعُ وأجدَى، وعندئذ قدّر الملكُ الذي أرهقه التعبُ أنّ رأيَ جيرار رشيدٌ، وأمَر بإعداد الخيمة لقضاءِ الليل.

نصبَ جيشُ المسيحيين خيامَه لساعات الليل في المكانِ الذي يُدعَى قرون حطين، المكوّن من تلّتَيْنِ تقعان بالقرب من القرية التي تحمِل الاسم ذاتَه. كان الجيشُ يأمل في أن ينال ولو قسطًا من الراحة في الطقسِ النديِّ، قبل مواجهةِ اليوم التالي.

Twitter: @ketab_n

وعندما غابت الشمسُ وحان موعدُ الجيش العربي لأداءِ صلاةِ المغرب حَمَدَ صلاحُ الدينِ الخالقَ من على جرف البحيرة، على الهديةِ التي من بها عليه. لقد كان جيش المسيحيين بكامله، بفرسان الاسبتارية وفرسان هيكل الربّ، والملكُ، ومعاونوه، يلهثون لهثًا على قرون حطين. لقد منحه الربُّ الانتصارَ على طبقٍ من ذهب، ولم يبقَ له سوى أن يشكُر نعمتَه عليه، ويؤدي الواجبَ الذي فرضَه على أتباعه.

كان هذا الواجبُ يقضي أوّلا بإضرام النارِ في العشبِ اليابسِ الذي يُغطّي السفحَ الجنوبي من التلة، حتى يغزوَ الدخانُ المتصاعدُ معسكرَ المسيحيين، ويجعلَ نومَهم عصيًّا قبل المعركةِ الحاسمة.

وإذا بنورِ الصباحِ يبزغ من جديدٍ، فيجد المسيحيون أنفسَهم تحت الحصارِ، لكنّ جيشَ صلاح الدين لم يبدِ أيَّ بادرةٍ من بوادر الهجوم، فالوقتُ في صالحِه ولا حاجة له للعجلة. فلا شك أنّ المسيحيين سيزدادون ضَعفًا كلّما تباطؤوا في الهجوم وتقاعَسوا. لقد صعدتِ الشمسُ في السماءِ بلا رحمة، والملكُ غي لم يتّخذْ بعدُ قرارَ المعركة.

كان الكونْت ريموند أوّلَ من ركب الخيلَ، فقد خبَّ به خبًّا بطيئًا حول المعسكرِ إلى أنْ وصَل عند فرسانِ هيكل الربّ. لقد ذهب يبحث عن آرن، وقد أشار إليه بأنْ يأخذ بعضَ الرجالِ معه ويحاولَ أن يخترق جيشَ العدوَ. لكنّ آرن رفَض العرضَ في أدبٍ جمٍّ، متذرّعًا بالقَسم الذي سيُلزمه حتى آخر النهارِ، ومؤكدًا أنه لن ينكُث وعدَه أمام الربّ. وهكذا تمنّى آرن حظًا سعيدًا للكونت، وأضاف أنه سيُصلي من أجل نجاحِ مسعَاه.

أمَر الكونت رجالَه، رغم ما أصابهم من تعبٍ وعناء، أن يمتطوا خيولَهم، قائلا أنهم سيخاطرون بكل ما يملكون، فصحيحٌ أنهم إذا فشلوا سيموتون، لكنّ ذات المصيرِ هو ما ينتظرهم إنْ هُم لبثوا حيث هُم.

لم ينظّم الكونت قواتِه في خطٍّ واحدٍ لكي تهاجمَ هجومًا مباشرًا، بل صفّها

Twitter: @ketab_n

صفًّا مُنزوِيًا، ثم أمَر بالهجوم، وانطلق بأقصى سرعةٍ نحو كُتلِ العدوّ المتراصّة التي أدارت ظهورَها لبحيرةِ طبرية، وكأن الماءَ هو الذي يحرُسها.

عندئذ فَتح العربُ خطوطَهم أمام فصائل الكونت، لتشكّل ممراً طويلاً اندفَعت هذه الفصائلُ في داخله.

بعد مرور وقتٍ طويل شوهِد الكونت ورجالُه من على قرونِ حطين وهم يتاورون بعيدًا دون أن يتعقّبهم أحد. لقد قرّر صلاحُ الدين الإبقاء على حياة الكونت.

جنَّ جنونُ جيرار دي ريدفور فانطلق في خطابٍ طويلٍ تحدث فيه عن الخيانة قبل أن يأمُر فرسانه بأن يعتَلوا سروجَهم.

فظهرت الخشيةُ بين صفوف العربَ لـمّا رأوا فرسانَ هيكل الربّ وعددُهم لا يقلّ عن سبعِمئة فردٍ يتهيّؤون للهجوم. فلم يسبقْ لأيّ فارسٍ عربي أن رأى جيشًا من فرسانِ الكهنوتِ بمثل ذلك الحجمِ، وأدرك كلُّ واحدٍ أنّ المواجهة ستكون حاسمةً هذه المرّة.

هل هؤلاء الشياطنُ البيضُ كائناتٌ لا تُقهَر؟ أم همُ عبادٌ كسائر العبادِ، أعياهمُ العطش؟

ولـمّا رأى فرسانُ الاسبتارية فرسانَ هيكل الربّ يستعدّون للهجوم استعدوا هم أيضًا لذلك الهجوم، وأمرَ الملكُ فرسان الجيشَ الملكيّ بأنْ يعتَلوا سروجَهم.

لكنّ جيرار دي ريدفور ما لبث أن اندفَع منحدرًا في التلةَ على رأسِ فرسانِه، دون أن ينتظر أحدًا. وتوارَى العدوّ في الحالِ فحال ذلك دونه وتوجيه الضربةِ التي كان يحلُم بها. لذلك لم يجد بدًّا من أن يرجِع على عقبِه لكي يصعدَ التلةَ مرّةً أخرى. لكنّ خيولَه ما لبثت أنِ ارتبكتْ حين أدرك ماءُ البحيرةِ أنوفَها. وفي طريق عودته إذْ به يجِد نفسَه أمام فرسانِ الاسبتارية الذين لم يأتِ هجومُهم مزامنًا لهجوم جيش العدوّ، فكان أنْ عمّتِ الجميعَ الفوضى والبلبلة.

عندئذ هاجم الرمّاحون المماليكُ من الخلفِ، بكلِّ ما أوتوا من قوة.

Twitter: @ketab_n

فكلّف هذا الهجومُ الجنونيُّ، جبرار دي ريدفور، نصفَ فرسانه، وأمّا ما تكبّده فرسانُ الاسبتارية من خسائرَ فقد كان أكثرَ جسامَة.

اتجهت الجهودُ لِجمْعِ القوات المسيحية لشنِّ هجومٍ مشتركٍ، لكنّ بعضَ المشاةِ الذين أضناهم العطشُ كانوا قد خلَعوا قبّعاتهم وانطلقوا نحو البحيرةِ وهُم يشرّعون أياديهِم في شكل أصلبة. وقد جرّوا آخرين معهم نحو البحيرة، وما هي إلا هنيهة حتى اندفَعت كتلةٌ من المشاةِ نحو الموتِ بعد أن اخترقتها الرماحُ المصرية.

جاء هجومُ الجيش المسيحي الثاني أفضلَ إعداداً من الهجومِ الأوّلِ، ولم يكن قد بقِي أمامه سوى نحو مئة مترٍ يقطعها حتى يصل إلى حافة البحيرةِ حين أُرغِم على الرجوع على عقبِه. ولمّا تجمّع المسيحيون حول خيمةِ الملكِ أدركوا أنهم فقَدوا ثُلثَي فرسانهم، ثم إذا بصلاحِ الدين يُطلق حملتَه الحاسمة.

كان آرن قد فقَد حصانَه الذي أصاب سهمٌ لسانَه، صار عاجزًا عن التفكير، ولم يسعه أن يصل إلى فكرةٍ واضحةٍ عمّا آل إليه حالُ المسيحيين. وكان آخرَ شيءٍ تذكّره أنه وجَد نفسه ذات يومٍ مع بعضِ رفاقِه الذين فقَدوا جيادَهم، وقد أحاط بهم من كلِّ جانبٍ مشاةٌ سوريون. كان آرن قد أصاب عددًا منهم بالسيفِ أو المقمعةِ التي كان يحمِلها في يده اليسرى، لكنه ضيّع درعَه حين تلقّى حصانُه تلك الضربة.

لم يسعفه الوقتُ كي يفهَم كيف بُطِح بطحًا.

وأمام جناحِ انتصار صلاح الدين قُدّم الشرابُ لفرسان هيكل الربّ وفرسانِ الاسبتارية الذين وقَعوا في الأسرِ خلال الساعةِ الأخيرة من معركةِ قرون حطين، حين تكبّد الجيشُ المسيحي هزيمتَه النهائية.

لم يقدَّم لهم الماءُ من بابِ الرحمة، ولكن حتى يسعفهم الكلامُ. لقد بدأ قطْعُ الأعناقِ في الأسفلِ بالقرب من الماءِ، وانتهى بالقرب من الجناحِ، بعد مرور ساعةٍ أو ساعتين.

بلغ عددُ فرسانِ هيكل الربِّ الذين نجَوا من الموتِ مئتين وستةٍ وأربعين فارسًا،

Twitter: @ketab_n

ونفْس العددِ من فرسانِ الاسبتارية تقريبًا. وفي ذلك ما يعني أنّ الكهنوتَين قد اجتُثّا تقريبًا من الأرض المقدسة.

بكَى صلاحُ الدين من شدّة الفرحةِ، وشكر الربَّ وهو ينظر من طرف العين إلى الرؤوسَ وهي تتهاوى. لقد أحاطه الربُّ بطيبةٍ لا يفهمها أحدٌ، لقد انتصر في النهاية على الكهنوتَين اللّدودَين، وقد صارت قلاعُهم التي غدت اليومَ شبهَ فارغة مهدّدةً بالسقوط، كما تسقط الثمارُ الناضجة. وهكذا صارت الطريقُ إلى القدس سالكة.

وكما هي العادة عومِل الفرسان العلمانيون الذين وقَعوا في الأسرِ معاملةً مختلفة. فلما انتهى صلاحُ الدين من الاستمتاعِ بمشهدِ هؤلاء المقطوعةِ رؤوسِهم عاد إلى خيمتِه التي اجتمع فيها كبارُ المسيحيين، ومن بينهم غي دي لوسينيان التعيس وعدوُّه رينو دي شاتيون الممقوتِ الذي جلس إلى جانب الملك. وقد جلس بالقرب منه أيضًا جيرار دي ريدفور الذي لن يكون بالتأكيد، أسيرًا ذا قيمة. لكنْ لا أحد يملك اليقينَ قبل أن يُجرِّب، قال صلاحُ الدين. فأمام الموتِ قد يتحوّل رجالٌ تباهَوا بالشجاعة بالبسالة والإقدامِ قبل مواجهةِ الموتِ إلى رجالٍ يستدعي حالُهم الرأفة والشفقة.

ومع ذلك لم يرَ أحدُ أن أولئك الأسرى الإفرنج، يستحقون أيّ رأفة. لقد أقسَم صلاحُ الدين أمام الربّ بأنه سيقتُل رينو دي شاتيون بِكلتا يديه، وذاك ما فعَل. ثم هدّأ روعَ الآخرين قائلا إنّ مصيرهم لن يكون كمصير رينو، وسقاهم بنفسه ماءً.

في مكان قطْع الأعناق اجتمع الجنودُ العرب في مجموعةٍ من أجل اللهو واللعب. وفي تلك الأثناء كان جماعةٌ من المتصوّفين القادمين من القاهرة يرافقون صلاحَ الدين، على أمل أن يُقنِعوا بعض المسيحيين باعتناق الإيمان الحق. لقد نصحهم بعضُ الأمراء بأن يحاولوا ذلك مع فرسان هيكل الربّ ومع فرسانِ الاسبتارية الأسرى.

لذلك صار هؤلاء الرجالُ المؤمنون ينتقلون ما بين فارسٍ في هيكل الربّ وفارسٍ من فرسان الاسبتارية، طالبين من هذا وذاك أن يعتنِق الإيمانَ الحق، مقابل نجاتِه

Twitter: @ketab_n

من الموت. لكنّ أولئك الرجال كانوا كلّما تلقّوا إجابةً بالرفض – ولم تحدُث حالةُ استثناءٍ واحدة – لا يتورّعون عن تنفيذِ الإعدام بأنفسهم فوراً. والحالُ أنه قلّما كان يسعُهم أن يَقطعوا رأسًا بضربةٍ واحدة، وإنْ نجَحوا في قطعِها بما يرضيهم تعالت في الحالِ صراخاتُ الفرحةِ عند الجميعِ، وفي باقي الأوقات يتضاحكون ويُطلقون العنانَ للتذمّر بالمزاحِ، أو بإطلاق صرخاتِ النُّصحِ المدوّية.

شعَر آرن بالانتعاشِ بعد أن شرب الماء، لكنّ وجهَه كان مضرّجًا بالدماءِ. فلم يرَ إلا بعينٍ واحدة. ولذلك لم يسعه أن يرى ما يدور من تحتِه عند أسفلِ صفّ الأسرى.

كل ذلك لم يعد يهمّه كثيراً، لقد هيأ نفسَه لكي يُسلّم روحَه للربّ، وهو يدعوه بكل ما أوتيَ من قوة أن يكشف له عن معنى ذلك الذي تراه عيناه في تلك اللحظة. ففي ذلك اليوم بالذات، يوم ٤ تموز ١١٨٧ مضى من عمره عشرون عامًا منذ أدى اليمين لفرسان هيكل الربّ، وعند مغيبه سيصبِح حرًا طليقًا. فلِم أتاح له الربُّ أنْ يحيَى حتى آخر ساعةٍ من العهدِ الذي قطعه، إذا كان ذلك من أجلِ أن يأخذ منه حياتَه في النهاية؟ ولِمَ كتَب له أن يعيش حتى هذه اللحظة التي تشهدُ على خرابِ المسيحية في الأرض المقدسة؟

وقال لنفسِه إنه يتصرف تصرفًا أنانيًا، فهو ليس وحده من سيرَى الموتَ، في ذلك اليومِ، ولذلك فإنّ الساعةَ الأخيرةَ التي سينعم بها لا يجوز أنْ يُبدّدها في الشكوى والملامة. وما دامت حياتُه قد أوشكت على النهاية فلِمَ لا يدعو لسيسيليا، ولابْنِهِ الذي سيفقِد أباه قريبًا؟

ولمّا وصلت مجموعةُ المتصوفين المضرّجين بالدمّ والعرق، بالقرب منه، طُلب منه، كما طُلب من الآخرين إن كان على استعدادٍ لأنْ يتنحّى عن إيمانِه، لكنْ من نبرةِ السؤالِ تبيّن أنه لم يراودهمّ أملٌ في أنْ يرضَى عن إيمانه بديلا، بل لم يتأكدوا حتى إنْ كان قد فهِمَهم وهو في تلك الحالة.

Twitter: @ketab_n

وإذا بآرن يرفع رأسه في إشارةِ تحدٍّ ثم يخاطبهم بلغة الرسول عليه السلام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، اسمعوا ما قاله كتابكم المقدس، في الآية الواحدة والخمسين، من السورة الثالثة » قال في البداية وهو يتنفس بعمق حتى يسعه الجهد مواصلة الحديث، فيما راح كل واحدٍ يصغي إليه فاغر الفم: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.»

أغمَض آرن عينَيه ومال إلى الأمام، منتظراً الضربةَ القاضية. لكنّ المتصوّفين من حوله سرعان ما خشِعوا لكلامِ الربّ وهو يخرج من فم واحدٍ من ألدّ أعدائهم. وفي هذه اللحظة أذاب أحدُ الأمراءِ جمهورَ الفضوليين من حولِه قائلا: «لقد وجدتُ القوطي أخيراً.»

فعلى الرغم مِن أنّ ما مِن أحدٍ استطاع التعرّفَ إليه، إلا أنّ كلَّ واحدٍ كان يعرف أنّ رجلا واحدًا من رجالِ أعدائهم قادرٌ على تلاوةِ القرآنِ بصورةٍ نقيّةٍ وواضحة.

كان صلاحُ الدين قد أعطى أوامرَه: مَن عثر على القوطي حيًّا، فلا يُعنّفْه، بل يُكرمْه أحسنَ تكريم!

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

عندما توارَى قرصُ الشمسِ خلف آخرِ يوم من أيام سنواتِ قصاصِها العشرين كانت سيسيليا روزا تجلس وحيدةً بالقرب من أحدِ أحواضِ السمكِ في ريسبرِغا. كان المساءُ دافئاً لا تتخلّله هبّةُ ريحٍ واحدة، في عزِّ ذلك الصيف، حين يذهب الناسُ لجمْع الجفيفِ في فاسترا غوتالاند، فيما لم يكن ذلك الجفيفُ قد حُشَّ بعدُ في أقصى غابات نوردنسكو الشمالية.

لقد ذهبت لسماعِ القدّاسِ مرّتين، وتناولت القربانَ، وتقرّبت من الربّ، ويقينُها في ذلك اليومِ أنها أدركت بعونِ السيدة العذراء نهايةَ حياةِ الدير بعد أن خالت تلك الحياةَ مستمرةً في غير انقطاعٍ، حين تبيّنت ذلك الحُكمَ الذي نُطِقَ به في حقّها. لقد صارت حرةً طليقة.

غير أن الأمر ليس كذلك حقًّا. فالآن وقد دقّت ساعةُ حريتِها ما زالت سيسيليا روزا تسعر كأنّ لا شيءَ تغيّر من حولها، فكلُّ شيءٍ كما كان تماماً، كأيِّ يومٍ من أيام الصيف الماضية. فهي لا ترى في سماء حريّتِها لا سمةً ولا إشارة.

لقد أدركت أنّ الذي راود خيالَها أشياء فيها شيءٌ من الصبيانية، لا شك فيها، كأنْ تتخيّل آرن وقد عادَ وأطلَّ عليها من على صهوةِ جواده، على حين غرة. لكنّها لا تلبث أن تعي أنْ لا سبيلَ لعودتِه من القدسِ إلا بعد مرور سنةٍ كاملة.

Twitter: @ketab_n

ولعلها أقصَت من بالِها أيَّ فكرةٍ عن تلك اللحظةِ السعيدة، لأنه لا شك عندها أنّ تلك اللحظةَ لن تختلف عن أيِّ لحظةٍ عادية. فهي الآن في السابعةِ والثلاثين من عمرِها، ولا تملِك من الثيابِ سوى التي تحملها فوق جلدها. وهي لا تعلم من أمْرِ أبيها سوى أنه قابعٌ في البيتِ يكابد جلطتَه الدماغية، وليس له من مُعيلٍ سوى فولكونغر أرناس. فلن تكون فرحةُ أبيها عظيمةً بعودتِها إلى البيت، بعد أن صار مُفلسًا. وفضلا عن ذلك فما الذي ستفعله في أرناس؟ فأختُها كاتارينا صارت سيدةَ البيتِ، والخطأُ خطأُ كاتارينا أنْ حُكِم على سيسيليا عشرين عاماً أمضتْها في الديرِ قِصاصاً. فلقاؤُهما إذًا قد يعوزُه الدفْء والحرارة!

ومن المؤكد أنها تستطيع أن تذهب إلى أرناس، تنزل فيها ضيفةً مكرَّمةً على الملكة بلانكا. وهي تعلم أيضاً أنّ أولفيلد سوف تسعد بضيافتِها بعضَ الوقتِ في بيتِها في أولفشيم. لكنّ الأصدقاءَ يُؤْثِرون بعضَهم بالزيارةِ حين يُؤْتَوْنَ القدرةَ على ردِّ كرمِ الضيافة. لكنّ الأمرَ مختلفٌ كلَّ الاختلافِ إذا كان الواحدُ منهم لا يملك بيتاً يكرِمُ فيه ضيوفَه.

في حركةٍ اندفاعية مفاجئة مزّقَت روزا الخمارَ الذي اعتادت على حملِه خلال السنوات العشرين الماضية، فإذا بها تشعر وكأنها صارت قرعاء. ثم جعلت تفرك شعرَها وتُمرِّر فيه أصابعَها حتى ينسدِلَ وينساب ما وسِعه الانسياب. كان شعرُها أطولَ مما تُبيحه الأصولُ، لأنها فَلَتَتْ مرّتين من قصّاتِ السنةِ الستّ.

مالت قليلاً إلى الأمامِ لكي تنظر في مرآةِ الماءِ، لكنّ الغسقَ كان قد أسدل خيوطَه فلم يسعْها أن ترى سوى تقاطيع الوجهِ، ووَجْهِها الأصهب. فما رأته كان يشبه ذكرياتِها عن نفسِها أيامَ شبابِها، أكثرَ مما يشبه حالَها في الوقت الحالي. ففي ريسبرغا، مثلما في باقي الأديرةِ، لا أثرَ للمرايا بتاتاً.

في حركةٍ رعناء جعلت تمرِّر أصابعَها فوق جسدِها، تماماً كما يحقُّ لامرأةٍ حرّةٍ أن تفعلَ بجسدِها، بل ذهبت أبعدَ من ذلك فأخذت تُمرِّر تلك الأصابعَ فوق صدرها ووركيها، ما دام لم يعد ذلك مُحرّماً عليها منذ ذلك المساء. لكنها لم تشعر بأيِّ شيءٍ تقريباً. فكلُّ ما كانت تعرفه عن يقينٍ أنّ عمرَها صار سبعةً وثلاثين عاماً،

Twitter: @ketab_n

وأنها أصبحت حرّةً، حتى ولو لم تكن طليقةً حقاً.

فالحالُ أن هذه الحرية كانت محاطةً بحواجز منيعة، إنْ لم تكن أسواراً. لقد قرّر بيرجر بروزا أن تستمرّ في أداء مهمّتها في الوكالة المالية ما دامت تلك هي رغبتُها. فعندما نطَق بهذه الكلماتِ أحسّت كأنه يمنحُها امتيازاً بلا قيمة، لكنْ وقد دقّت الآن ساعةُ حريتها فهي تحاول أن تتشبَّث بما تنطوي عليه تلك الحرية. كانت روزا تشعر على الخصوص بواجبِ الاستمرارِ في العمل، على نحو ما كانت تفعَل على مدى السنواتِ الماضية.

لكنْ، من يدري، قد لا تجري الرياح بما تشتهيه نفسُها. لقد قرّرت ألا تغطّي شعرَها بعد ذلك اليوم، وأنها لن تتلوَ صلاةَ السّحر ولا صلاةَ النوم. فذاك سيمنحها وقتاً ثميناً للعمل. وسوف تذهب منذ الآن إلى السوق لتقوم بما يجب من مشتريات. لقد شعرت فجأة أنّ حالَها قد تغيّر. لقد صار من حقها الآن أن تخالط أناساً آخرين، بل صار من حقّها أيضًا أن تحدّث من تشاء، فلم يعُد ذلك ذنباً تُعاقَب عليه.

لكن لَكَمْ تمنّت لو هيِّئَ لها أنْ تذهب إلى بجالبو لكي ترى ابنَها، لكنها كانت تخشى ذلك اللقاءَ، بالقدر الذي كانت تترقبه وتتمنّاه.

ففي أعين الكثير من الناس، وفي عيون الكنيسة على الخصوص، كان ذلك الطفلُ ثمرةَ فاحشة. لقد استقبَل بيرجر بروزا في بيتِه ذلك الرضيعَ وتبنّاه في سلالتِه رسمياً أثناء انعقاد "التينغ" ، وقد ربّاه مع أطفالِه وأطفالِ السيدة بريجيدا. وقد ظنّ ماغنوس طويلا أنه ابن بيرجر بروزا، لكنّ الكثير من ألسنةِ السوء كانت على درايةٍ بذلك التبنّي، وسرعان ما شاع الخبرُ ووصل إلى سمْع ماغنوس نفسِه، في شكل إيماءاتِ أوّلا، ثم على نحو صريح، على لسانِ أحدِ الأشخاصِ الغاضبين عليه.

كبر ماغنوس، ومع الوقت بَدأ يشكّ في حقيقةِ أمرِه. لذلك اختلى بِبيرجر بروزا ذات يوم وأصرّ على طلب الحقيقة منه، فلم يجد بيرجر بروزا من مخرج آخر غير مصارحتِه بها. وبعد أن تهاوت أركانُ حياتِه الهادئة في حضنِ ذلك اليارل انطوَى آرن على نفسِه بعض الوقت، وقد آثر بيرجر بروزا ألا يبلبل حياةَ الطفل، ظناً منه

Twitter: @ketab_n

أنّ تلك الحالة سوف تمرّ بسرعة، وأنّ الفضولَ سوف يغلِب الخيبةَ في النهاية.

وذاك بالفعل ما حدث. فبعد مرورِ بعض الوقتِ صار الطفلُ يلتمس رفقةَ والدِه المتبنّي، وقد سأله عن ذلك الذي يُدعَى آرن ماغنوسون. وعلى نحو ما رواه بيرجر بروزا لسيسيليا روزا فيما بعدُ فليس من المستبعدِ أن يكون قد أسرف قليلاً في وصفِ آرن كأفضلِ هاوٍ للقتالِ بالسيف الطويل، عرفتْه فاسترا غوتالاند، وكأفضل نبّالٍ لا يضاهيه سوى القليلِ من الرجال. ولم يكن ذلك ادعاءً ولا تزييفًا. فكلُّ واحدٍ يَذْكر كيف استطاع الشابُ آرن، الخارجُ من طفولته تواً، أنْ يبطحَ إيموند أولفسبان، بطلِ السفيكر، أثناء جمعية القوط في أكسيفيلا. فقصّتُه تشبه قصةَ داوود وجالوت في الكتاب المقدس، والفرقُ بين هذه وتلك أنّ آرن أضحى أفضلَ من إيموند في السيف. ولم يفقِد إيموند سوى إحدى يديه، لأنّ آرن كان به رحيماً.

ولمّا أحس ماغنوس أنه يستطيع أن يسأل أقرباءَه الأباعدَ ممّن تقدّموا في العمرِ عن تلك القصة، لم يفته أن يسأل بعضَهم ممّن تواجدوا في أكسيفيلا- أو ادّعوا ذلك – لكنّ جميعَهم نسجُوا كثيراً حول تلك القصة نسيجاً فظاً سفيهاً.

فمنذ طفولته الأولى أبدى الشاب ماغنوس تفوّقاً في رمي القوس، وكان يرى ذلك أمراً طبيعياً، ما دام أبوه نَبّالا لا مثيل له. لقد ذهب في تدرُّبه على القوس أبعد ممّا كان منتظراً منه، فلا غرو بعد ذلك أن يُهمِل جوانبَ أخرى مما تلقّاه من تربيةٍ وتهذيب. لقد ذهب ذات يوم إلى بيرجر بروزا ليُخبِره أنه لن يحمِل اسمَ بيرجسزن ولا اسم آرنسون إنْ لم يعدْ أبُوه من الأرض المقدسةِ حيًّا. لقد رغب في أن يسمَّى ماغنوس منيسكولد ، وقد رسم على ترسِه نصفَ قمرٍ من الفضة فوق صورة أسدِ الفولكونغر.

وقد رأى بيرجر بروزا أنْ لا خيرَ في لقاءِ الأمِّ بطفلها ما دام قصاص سيسيليا روزا سارياً. فخيرٌ للطفلِ أن يرى امرأة حرّة من أن يرى امرأة محكومًا عليها بحياة الترهّب في داخل دير. ولم تجد سيسيليا ما تعترض به على ذلك الرأي. لقد حان موعدُ حرّيتها، ومع ذلك فهي اليوم تخشى ذلك اللقاءَ أكثر مما يصوّره لها خيالُها، إذ بدأت تخشى أموراً لم تفكّر بها في السابقِ، كسؤالها إنْ تقدّم بها العمرُ، وإنْ

Twitter: @ketab_n

هي شنُعَتْ وقَبُحَتْ، وإن لم تصبح ملابسُها عادية جداً. فإنْ كان الفتى ماغنوس يُمْعِنُ في تقديرِ والدِه ورفعته، فقد يصابُ حين يرى والدتَه، باليأسِ والقنوطِ والخيبة.

وعندما ذهبت باقي نزيلات سبيرغا — ستُّ راهباتٍ، وثلاث مترهبناتٍ، وثماني راهبات عاملات– إلى صلاة النوم في ذلك المساء، عادت روزا إلى دفاتر حساباتها. لقد آثرت أن تكرّس للعمل ساعاتِ حريّتها الأولى.

* * *

في ذلك الخريف أعدّت روزا عربةَ ذات دولابين، وساقتها حتى غوديم، لتشتري مختلف الشتلات التي لا يمكن نقلُها إلا في الخريف حتى لا تذبل أثناء الطريق، وكذلك الأدوات الضرورية لأشغال الخياطة والأصبغة. كان هذا النمطُ من النشاطِ قد قطَع شوطاً بعيداً في الإتقانِ والجودة، فيما كان مثله في ريسبيرغا ما يزال في خطواته المتعثّرة الأولى. كانت سيسيليا تحمل معها عدداً من قِطع الفضةِ للدفع، وقد حرص بيرجر بروزا على أن يرافقها عددٌ من الفرسانِ المسلّحين حتى بحيرة فاتيرن، لِيَعْبُر بها تلك البحيرةَ بعد ذلك ملاحون نرويجيون، قبل أن يحرسَها في المرحلة الأخيرة فرسانٌ من عائلة فولكونغر، ما بين البحيرة وغوديم.

قرّرت روزا أن تقطع تلك المسافةَ رُكوباً على الخيل. لقد أتقنَت ركوبَ الخيل وهي في السابعة عشرة من العمر، ولذلك لم تجد عناءً في استعادةِ ردودِ الفعل المتّسقَةِ مع حركات الخيلِ، اللهم إلا ما أصاب جسمَها من تعبٍ وعناء.

وعند اقترابها من غوديم، وهي ما تزال على ظهْرِ حصانِها – ما دامت وظيفة وكيل المالية تخلَعُ عليها حسَّ القيادةِ، وما دام حرّاسٌ مسلّحون يأتمرون بأوامرها – إذا بسيلٍ من المشاعر يغمُرها على حين غرة، فتوقّعت أنّ تلك المشاعرَ من وحي ذلك الدير. كان الديرُ بهيَّ المنظر من بعيد، بحكم موقعه المميّزِ الجميل. ففي منتصف ذلك الخريفِ كانت أوراقُ أشجار الجلّ ما تزال تتباهى بأزهارها على طولِ الأسوارِ، وقد خطرَ لها أن تشتري منها بعضَ الشتلاتِ حتى تزيّنَ بها ريسبرغا.

ما من مكانٍ مَقتَته في حياتِها كما مقتَتْ غوديم. فذاك أمرٌ لا ريب فيه. لكنْ

Twitter: @ketab_n

أنْ تقتربَ اليومَ من حيِّزَ الأمِّ ريكيسا، وهي حرةٌ طليقة، فذاك أمرٌ مختلف تمامًا.

لذلك حدّثت نفسَها أنها لم تقترب من هذا الحيّز إلا لأمرٍ مهم، ومن أجل خيرِ ريسبرغا. فهي لا تسعى لأن تخاصم الأمَّ ريكيسا، ولا لأنْ تُشعِرها أنها صارت ضيّقةَ الذراع. وقد قرّرت أثناء الطريق أن تُعامِلها الندّ للندّ. فإحداهما رئيسةُ غودهم، والأخرى وكيلُ المالية في ريسبرغا. وكلاهما تلتقيان فيما يهمُّ الدير من شؤون. وذاك كلّ ما في الأمر. لكنْ رغم ذلك فقد تُقطِّبُ روزا وجهَها، تذمّرًا من تفاوُضٍ تضطرُّ إليه اضطرارًا، مع تلك المرأةِ، عديمة الخبرة والكفاءة.

إلا أن أفكارها ما لبثت أن تعطلت.. إلى حدّ العدم. فالأمُّ ريكيسا تنازع الموتَ، وقد دُعِي أورجان إلى فراشها، وهو راهبٌ من فاكسجو، لكي يتلقى اعترافَها، ويمنحها المسحةَ الأخيرة.

ولمّا علِمت سيسيليا روزا بذلك الخبر تردّدت في أن تعود أدراجَها. لكنّ السفرَ كان طويلاً وشاقًّا، وعلى أيّ حالٍ فالحياةُ سوف تستمرّ في غودهم، وفي ريسبرغا على السواء، رغم الأموات. لذلك إذًا استأذنت الخروجَ من المضافة التي استُقبِلت فيها هيَ وذووها، كما يستقبَل باقي المسافرين.

في وقت مبكر من ذلك المساء جاء رئيسُ المطارنة الذي لم تكن تعرفه، وطلب منها أن تتبَعه إلى الدير لكي تؤدي زيارتَها الأخيرة إلى الأمّ ريكيسا. فالأمُّ ريكيسا هي التي التمسَت هذا الجميلَ من سيسيليا.

بالطبعِ ليس عاقلاً من يرفض الاستجابةَ لرغباتِ محتضرةٍ في ساعاتها الأخيرة، حين تكون تلبيةُ هذه الرغبات متاحة. فعلى مضضٍ قبلت روزا بأن تسير في إثرِ المطران حتى مضجَع الأمّ ريكيسا. لم يكن هذا التحفّظُ بسبب الموت، لأنها رأت من قبلُ كثيرًا من الأشخاص الذين فارقوا الحياةَ في الدير الذي آثرت الكثيرُ من السيدات العواجزِ المجيءَ إليه لقضاء ما أبقته لهنّ الحياةُ من أيام، وإنما تحفّظت وتردّدت بسبب المشاعر التي خشيت أن تطفوَ عند المشهد الذي كان في انتظارها.

لا شك في أنّ الانتصارَ على محتضرةٍ إثمٌ عظيمٌ، لكنْ، أيُّ شعورٍ آخر يمكن أن تُضمِره روزا لشخصٍ تراه الشرَّ بعينِه؟

Twitter: @ketab_n

دخلت سيسيليا إلى غرفةِ رئيسةِ الدير بصحبة المطران الذي أخذ يتضرّع ويلطمُ في آن، فوجداها نائمةً وقد لفّتها البطانياتُ حتى العنقِ، وأضاءتْ سريرَها شمعتان من كلِّ جانب. كانت شاحبةً وكأنّ هذه الحصّادة قد شَدَّتْ قلبَها شدًّا في يدِها الجامدة، بعد أن نكَسَت جفنَيها.

وفي الحالِ جثَت سيسيليا روزا والمطرانُ بالقرب من السريرِ، وقرآ ما يليق من دعواتٍ. ولمّا أنهيا تضرّعهما إلى الربّ فَتحت الأمُّ ريكيسا عينيها قليلا، وأخْرَجت فجأة من تحت أغطيتِها يدًا في شكلِ مخلبِ وأمسكت زائرتَها من عنقِها، بقوةٍ مهولةٍ لا تدركها أيُّ محتضرةٍ.

"سيسيليا روزا، لقد جاء بكِ الربُّ إلى هنا في هذه اللحظة بالذاتِ حتى تغفِري لي ذنبي"، قالت الأمُّ ريكيسا فجاةً وهي تزفر زفرًا وتُرخي قليلا قبضتَها القوية.

شعرت سيسيليا روزا بذلك الخوفِ البارد الذي تعرفه كثيرا، والذي يذكّرها بهذه المرأة دائمًا، لكنّها سرعان ما تمالكت نفسَها، دون قسوةٍ مفرطة أبعدتْ يدَ رئيسة الدير عن عنقِها.

– ما الذي عساني أغفرُه لك، يا أم ريكيسا؟ سألت دون أن تكشف عن أيٍّ من مشاعرِها.

– آثامي، وخاصةً آثامي نحوك، هَمْهَمَتْ الأمُّ ريكيسا وكأنها فقدت فجأةً جزءًا من الطاقة الهائلة التي كانت تمتلكها.

– كالآثام التي سوّطتني من أجلها وأنت تعلمين أني لم أقترفْها؟ هل اعترفتِ بهذا الإثم؟ سألت سيسيليا روزا بهدوءٍ تام.

– لقد اعترفتُ بهذه الآثام أمام المطران أورجان الذي يقف بجانبِك، أجابت الأمُّ ريكيسا.

– أو كما حاولتِ أن تقتليني عندما أودعتني السجن في عز الشتاءِ ببطانيةٍ واحدة؟ سألت سيسيليا روزا.

– نعم... وهذا أيضًا اعترفتُ به" أجابت الأمُّ ريكيسا.

لكنّ الزائرة ما لبثت أن لاحظت أنّ المطرانَ الذي كان لا يزال يجثو بجانبِها، ما

Twitter: @ketab_n

انفك ينتفضُ، فرفعت عينيها ورأت أنه يبدو حائرًا.

" أتظلين تكذبين حتى وأنت على فراش الموت؟ بعد أن اعترفتِ بآثامِك وحصلتِ على المسحةِ الأخيرة، يا أمّ ريكيسا؟" سألت سيسيليا روزا بصوتٍ ناعمٍ ينمُّ عن إرادةٍ فولاذية.

في عينَي رئيسةِ الدير الحمراوينِ رأت مرةً أخرى الحدقتَين الممدودتين لذلك الكائن الشرير.

– لقد اعترفتُ بكل ما طلبتِه مني، وأرغبُ الآن في عفوِك ودعواتِك، من أجل سفري الطويل، لأنّ آثامي ليست هيّنة، أضافت الأمُّ ريكيسا بصوتٍ خافت.

-هل اعترفتِ بأنكِ سعيتِ أيضًا لقتلِ سيسيليا بلانكا حين أرسلتِها إلى السجنِ في عزّ الشتاء؟ أضافت روزا، بلا شفقة.

– إنكِ تعذّبينَني... اِرحمي امرأةً محتضرة، لَهَثَتْ الأمُّ ريكيسا لهثًا جعلَ الزائرةَ تَشعر أنّ ما تراه مجرد مسرحية.

– هل اعترفتِ؟ نعم أم لا، بأنكِ حاولتِ قتْلَنا، سيسيليا بلانكا وأنا، حين أرسلتِنا إلى السجن؟ سألتْ روزا التي أصرّت في عنادٍ ألا تستسلم. أنا، أيتها الآثمة البائسة، لا أستطيع أن أغفرَ ذنوبًا لستُ على يقينٍ أنك اعترفتِ بها، أتفهمين هذا، يا أمّ ريكيسا؟

– نعم، لقد اعترفتُ أمام المطرانِ بهذه الآثامِ العظيمة، أجابت الأمُّ ريكيسا دونِ لهاثٍ ولا همسٍ، وإنما بصوتٍ ينمُّ عن نفاد صبر.

– إذًا، أم ريكيسا، قالت سيسيليا روزا بصوتٍ بارد، فأنتِ إمّا كاذبة حين قلتِ إنكِ اعترفتِ للمطران، وبطبيعة الحالِ لا أستطيع في هذه الحالة أن أغفرِ لك، وإما أنك اعترفتِ بالفعلِ، بهذه الآثام القاتلة – لأنّ مَن حاول قتْلَ نفسٍ مسيحية آثم لا محالة، وأدهَى من ذلك إنْ كان هذا القاتلُ كائنًا في خدمة الربّ. مَن أكون، أنا الآثمةُ المسكينة التي ظلت تحت رحمتِك طوال أعوامٍ عديدة، حتى أغفرَ ما لا يغفِره لا الربُّ ولا المطران؟

عند هذه كلماتِ نهضت سيسيليا روزا منتفضةً وكأن شكًا خالج قلبها فشعرت

Twitter: @ketab_n

أنّ سوءًا قد يحدُث في الحال، إذْ ما لبثت الأمُّ ريكيسا أن بدأت تتلوّى في سريرِها، وتمدُّ يديها نحوها مرّةً أخرى، كأنها تسعى لأنْ تخنقَها. وقد أسقطتْ هذه الحركةُ بطانيّتها على الأرضِ، وفي الحالِ انتشرت رائحةٌ كريهةٌ في الغرفة.

"إني أمقتُك، سيسيليا روزا"، صرخَت الأمُّ ريكيسا بصوتٍ مجلجلٍ انتزَعته من أعماقها انتزاعًا.

كانت عيناها الحمراوان الواسعتان مفتوحتَين على مصراعيهما، فبانَتْ لسيسيليا حدقَتا الضحية، أكثر من ذي قبل.

– أمقتُكِ، أنتِ وصديقتك الكذابة، سيسيليا بلانكا العاهرة، فلتذْهبا إلى النارِ تشتويان بها، وتكابدان آلامَ الحربِ، عقابًا على آثامِكما. ولْيَمُتْ كلُّ ذويكُما معكُما في النار الهائجة.

عند هذه الكلماتِ سقطت رئيسةُ الديرِ ثانية في سريرِها، بعد أن نفدَت كلُّ طاقتها. صار شعرُها الأسودُ الذي تحوّل إلى اللونِ الرمادي يخرج بعضُه من غطاءِ رأسِها، وعند حرْفِ شفتيَها سال خيطٌ رفيعٌ من الدمِ الفاحِم.

أمسك المطرانُ سيسيليا روزا في رفقٍ من كتفِها وجرّها إلى خارج الغرفة، وأغلق البابَ من خلفِها، وكأنه رأى أن لا مفر من أن يُبادل تلك المرأة المحتضرة بعض الحديثِ، حتى تعترف وتعلن توبتَها قبل فواتِ الأوان.

فهي لا تملك أيَّ فكرةٍ عن هذا المطران الذي يُدعَى فاكسجو، بل لم تكن تعرف أنّ في تلك المدينة مطراناً أصلاً. لكنْ ليس من قبيلِ الصدفةِ إنْ دُعِيَ هذا الكهنوتي الغامضُ إلى سرير الأمِّ ريكيسا المحتضرة. فهو على الأرجح من عائلة السفيركر، بل لعله من أقارب الراحِلة، ويحمِل معلوماتٍ مهمة حول إرادتها الأخيرة. فالكلماتُ الأخيرة التي نَطقت بها الأمُّ ريكيسا تضمّنت تهديدًا بإرسالهم جميعًا إلى الحرب والنارِ، وخيرُ مَن يستطيع فهْمَ ما قصدته بتلك الكلمات هو، بلا شكٍّ، هذا المطرانُ نفسُه. فخيرٌ لها ألا تبتعِد عنه كثيراً، وأن تحاول أن تخترقَ جزءًا من السرِّ الذي صار في جعبته.

أما آخرُ ما حثَّ سيسيليا روزا على الحضورِ إلى الدفنِ فهو حرصُها على نفْعِ

Twitter: @ketab_n

جمَّ ارتأته فلم تُهْمِلْه. لقد قدِمَت من بعيدٍ، يرافقها حرسٌ ضيِّقُ الصدرِ، نافذُ الصبرِ، لأغراضٍ تجارية، فخيرٌ لها إذًا أن تُنهي أمورَها في الحالِ، من أنْ تضطرّ للعودة إلى تلك الأمور ثانيةً خلال الربيع.

كان المطرانُ رجلاً طويلَ القامةِ، نحيفَ البَدن، وذا عنقٍ نحيلٍ تتحرّك حنجرته صعودًا وهبوطًا بلا انقطاع. وقد كان يُفَأْفِئ ويُتَأْتِئ، ما جعل سيسيليا روزا تقول لنفسِها في الحالِ إنّ الرجل ليس ذكيًّا على أيِّ حالٍ، بيد أنها ما لبثت أن لامتْ نفسَها كثيراً، لأنها حَكمَت على مظاهرِ الرجلِ، وهي تعلَمُ أنّ المظاهرَ قد تضلِّلُها.

إلا أنّ هذه الأفكارَ المسبقة ما لبثت أنْ صمَدت أمام الحقيقة، لأنّها حين دعت المطرانَ بكلّ ما تملِكه من براءة، إلى الملجأ ليشربا معًا بعض المرطبات، برفقةِ بعضٍ من أعضاء الحرس المرافقين لهُ ولها، قبْل أن يستأذن بعضُهم من بعضٍ في الذهابِ، استطاب هذا الرجلُ فكرتَها كثيراً ولم يُبْدِ مانِعًا.

كانت سيسيليا وحيدةً بين الرجال في هذا اللقاء، ولذا جلست على مضضٍ بجوارِ المطرانِ. وعلى الطاولة شرب المطرانُ كثيراً، ومن فرطِ الشربِ ثرثر كثيراً وهذر كثيراً. في البداية لم يُخفِ مرارتَه، لأنه لم يحصل على شيءٍ آخر غير المقرّ الأسقفي في فاكسجو. فهو بالفعل من عائلةِ سفيركر، وكلُّ المراتب المهمة تذهب إلى الأشخاص الذين هُم إما أعضاءٌ في عائلة الفولكونغر وعائلة الإيريك، وإمّا مرتبطون بهما ارتباطًا وثيقًا.

فها هي ذي سيسيليا روزا تحصل إذًا على معلومتها الأولى، ويا لها من معلومة ثمينة!

ثم إذا بالمطران الحائرِ يسألُ سيسيليا وهو يعلم صداقتَها الحميمة مع الملكة بلانكا خلال إقامتها في غوديم، إنْ كانت تعلَم متى قدّمت الملكة نذورها للأم ريكيسا.

فكانت تلك هي المعلومةُ المهمة الثانية، لكنّ المعلومةَ جمّدت دمَها في عُروقِها.

حاولت سيسيليا أن تتظاهر بأنها لا تعرف شيئًا، ثم سكَبت قليلاً من الجعة، وتضاحكت بلا سببٍ قليلا، ثم أجابت بأنّ بلانكا لم تقدّم نذرًا قط، بل قد

Twitter: @ketab_n

تواعدتا خلال تلك السنوات التي كانتا فيها صديقتين في غودم، بأنهما لن تُقدّما نذوراً أبدًا.

لبث المطرانُ برهةً صامتًا متأملا. ثم قال دون أنْ يكشف سرًّا من أسرارِ الاعتراف، أنّ بوسعه أن يكشفَ عن رغباتِ المحتضرة الأخيرة التي تركتها الأمُّ ريكيسا مكتوبةً، وبأنه أقسم أمام الربِّ بأنّه سيُسلِّمُها إلى الأب القديس، في روما. لقد قيل على الخصوصِ في تلك الرغباتِ أنّ الملكةَ بلانكا قد قدّمت نُذورَها في غودم.

وحتى تخفِي الانفعالَ الذي ملأها قدّمت روزا بيدٍ مرتعشة، مزيدًا من الشرابِ للمطران، وهي سارحة، فتناول المطرانُ شرابَه بلا رويّة.

وهكذا حصلت على معلومتها الثالثة.

ألا يجدر بمثل هذه الوصية أن تُرسَل إلى رئيس المطارنة، على وجه السرعة؟ سألت في براءةٍ شبه كاملة.

لا، أجاب المطران، وهذا لسببين اثنين؛ وأمّا السبب الأول فهو أنّ جوهان، رئيس المطارنة الثاني في البلاد، قُتِل في سيغتونة، خلال حملةِ نهبٍ قام بها أقوامٌ همَجٌ قدِموا من الجانب الآخر للبلطيق. ولذلك يخلو المكانُ من رئيسٍ للمطارنة في هذه الساعة. وما دامت وصيّةُ الأمِّ ريكيسا ستذهب إلى روما على أيِّ حالٍ فإنّ إرسالَها عن طريق أوسترا أروس، في انتظار رئيسٍ جديد للمطارنة، والذي سوف يأتي من عائلة الفولكونغر بالتأكيد، سوف يؤخِّر وصولَها بلا أي طائل. لقد كان المطرانُ ينوي الوفاءَ بالقسَم الذي قطعَه لرئيسةِ الدير، بالتوجّه نحو الجنوبِ دون تأخيرٍ، حتى يُسلّم تلك الوثيقةَ إلى قريبِها الدنمركي، مطران لوند.

وها هي ذي سيسيليا تحْصل على المعلومةِ الرابعة التي لا تقلّ أهميةً عن سابقاتِها.

سكبت سيسيليا مزيدًا من الجعةِ لرفيقِها في الطاولة، وضحكت في سرّها ضحكةً خفيفةً حين داعب فخذها، على الرغم من أنّ كلّ شيءٍ في داخلِها ثارَ واضطرب.

لقد قدّرت أنها صارت الآن تعرف من الأسرار ما فيه الكفاية، وأنّ ما بقيَ في

Twitter: @ketab_n

جعبةِ المطران غيرُ ذي أهيمة. لكنها طفقتْ تحاول أمراً لم يبدُ لها مثمراً، وهو أنْ تعيدَ ذلك المطرانَ الأحمقَ إلى صوابِه.

باديُ ذي بدءٍ قالت له إن بلانكا وهيَ، قد أنفقتا أكثر من ستّ سنواتٍ معًا في غودمٍ، فكانتا صديقتين ليس لمثلِ صداقتهما مثيل في الدنيا. وفلو كانت إحداهما قرّرت أمراً مهمًّا، كقرارِها البوح بنذورها، فمن غير المرجَّحِ أنْ يبقَى ذلك البوحُ خفيًّا عن الأخرى.

رغم الثملِ الذي ما انفكّ يزدادُ بذَل المطرانُ قصارى الجهدِ حفاظًا على الكرامةِ والقسوة الخليقتين بمقامه، قبل أن يجيب بأنّ الوعودَ التي يقطعها الرجالُ للربِّ، وما يقولونه عند البوحِ بذنوبِهم يجب أن تظل مكتومة.

وردّت روزا التي امتلأ محياها حزنًا أن عطوفتَه ليس على الأرجح مُطّلعًا بما فيه الكفاية على ما يحدث ما بين أسوار الأديرة. إذ قد يحدث، إنْ عبّرت امرأةٌ عن نذورِها، أنْ تدْخل الرهبنةَ فوراً، وهكذا تصبح خاضعةً لسنةِ امتحانِ الترهُّب، ومعزولةً عن الراهباتِ العاملات، وبنات الذوات. فلو كانت بلانكا عبَّرت عن نذورِها لما وسِع نذورها أن تخفَى على أحد.

همهم المطرانُ بإجابة غامضة، قال فيها إنّ أشياءَ كثيرةً لا يراها إلا الربُّ وحده، وأنّ جَلَّ جلالُه قادرٌ وحده على سَبْرِ أرواحِ عبادِه.

لما تجِد روزا ما تعترِض به على هذا الحديثِ فغيّرت في الحالِ مسار الحديث. لقد فهِمت من كلام الأمّ ريكيسا أنها أخفَت أخطر الآثام ساعةَ اعترفَتْ بذنوبِها، قبل وفاتها بقليل. إلا أنّ مَن تقْدِر على الكذب في مثل هذه الساعةِ لا يمكن أنْ تكون جديرةً بالثقةِ حين تدّعي أنّ ملكةً عبّرت عن نُذورِها ثم أنجبت بعد ذلك أربعةَ أطفالٍ عن طريق الزّنا. فذاك هو المقصودُ في الحقيقة، أليس كذلك؟

أجل، ذلك هو المقصودُ فعلا، أقرّ المطرانُ مُتثائبًا. لكنه ما لبث أن غيّر موقفَه. لا، إنّ ما هو مقصودٌ، في الحقيقة، هو الإثمُ ذاتُه. لقد كان هذا الإثمُ يهدّد العرشَ بعواقبَ وخيمة. لكنْ لِمَ لَمْ تُرافقها سيسيليا روزا إلى الدنمرك؟ فالبعُض يظنُّ أنّ المطارنة لا يستطيعون الزواجَ أمام الربّ، لكنْ كان ثمة طرقٌ بسيطةٌ للغاية لتذليل

Twitter: @ketab_n

تلك المشكلة. وفوق ذلك فلن ينقصها المالُ بعد اليومِ أيضًا، أضاف المطرانُ في جسارةٍ، فما رأيُها يا تُرى؟

ها هي ذي سيسيليا روزا وقد ملَكت كلّ المعلومات التي كانت تبحث عنها. لكنّها شعَرت أنّها صارت موصُومةً مدنَّسة، وكأنّ المطرانَ قد لفّها بالأقذار لفًّا.

ثم اعتذرت منه واستأذنت، وانصرفت لأسباب أنثوية لم يسعها الإفصاحُ عنها، وقد حاول المطرانُ أن يمنعها بكلتا يديه لكنها كانت أقلَّ ثمالةً منه فأفلتَت من قبضتِه دون عناء.

فلم تكد تتنّفس هواءً عليلاً حتى غلبَها حالُها فتقيّأت. وقد أنفقَت تلك الليلةَ في الصلاةِ والدعاءِ، ولم يُطاوعْها النعاسُ تحت وطأة الآثام التي أثقلت كاهلها. لقد أثملتْ مطرانًا، وحثّته على لمسِها وذاك إثم لا يُغتفَرْ. لكنها لم تفعل ذلك إلا لكي تحثَّه على البوحِ بذلك الذي كشَف عنه قبل قليل.

لقد ملأها الشعورُ بالخزي، وقد زادها خزيًا ما أيقظتْه تلك المداعباتُ من رجلٍ مبجَّلٍ، في نفسِها من أفكارٍ سوداءَ ما انفكت تكبحها كبحًا. لقد جعلتها تلك المداعباتُ ترى في ما يشبه الحلمَ، خطيبَها آرن ماغنوسون وهو يطلّ عليها في القصر بحصانه. فما رأته في تلك اللحظة من حبٍّ نقيٍّ طاهرٍ يلتهبُ حين ملامستِها لشخصٍ خسيسٍ، لا يمكن أن يكون إلا إثمًا عظيمًا.

ومن حسن حظّها أنْ تيسّرتْ شؤونُها الأخرى، وهانت أمورُها التجارية. لقد اشترت الفسائلَ وموادَ الخياطةِ، لتُسعف بها رئيسةَ ديرٍ قليلة الخبرةِ، ومعرّضة للغش والخداع لولا نصائحها. لقد صارَ غودهم بيتَ مريم العذراء ثانية، ولذلك صار خليقًا بكلِّ واحدٍ أنْ يُظهِر فيه وقارَه واحترامَه.

ولكنْ لم تجد بدًا من أن تحدّث نفسَها وتقول إن بقاءَها لو استمرّ في غودهم لحرصت كلَّ الحرص على الحذر والحيطة في كل خطوة تخطوها في ذلك الدير. لكنّ الأمَّ ريكسيا لم تكن قد صعَدت بعدُ إلى الفردوسِ. وما دامت الضغينةُ هي أهمُّ ما كان يحرّك غرائزَها في الحياة فلعلها لا تزال تنام في هذا القبر وعيناها محمرّتان من

Twitter: @ketab_n

شدّة القسوة، وعلى استعدادٍ لأن تنتصِب مثل حيوانٍ شرسٍ لتنقضّ على هذه أو تلك ممّن كانت تكره وتمقت.

* * *

في طريقِ عودتها إلى ريزبرغا توقّفت سيسيليا روزا في ناسْ لبضعَةِ أيام لزيارةِ بلانكا كما اتّفقتا. ولـمّا وصلت إلى الرصيفِ الملكي في بحيرةِ فاترن وطفَق حرسُها المتذمّرون المتمَلْمِلون من فرطِ نفادِ الصبرِ، يُفرغون بالقرب من جِسم السفينة الأسود المهيبِ تلك الصناديقَ التي لم يفهَموا من أمرِها شيئًا، إذا بوجهها يشحبُ عند مشهدِ الموجات التي زيّنها الزّبدُ، فأدركت عندئذٍ أنّ عاصفةَ الخريفِ الأولى قد صارت وشيكة.

فانشغلتْ واضطربت، وسألت رجالَها القُساةَ قسوةَ النرويجيين عن رئيسِهم، إلى أن اهتدت إليه في النهاية، فحيّاها الرئيسُ في أدبٍ جمٍّ وقال إنّ اسمَه ستيرجورن هارلدسون، وأضاف أنّ من دواعي غبطتِه القيام بهذه الرحلة برفقة صديقةِ الملكة. ولـمّا سألته في خجلٍ إنْ كان من الحكمةِ الخوضُ في غمار مثل تلك الأمواج في مثل ذلك الطقسِ إذا به يبتسِم ابتسامةً متأمّلة ثم يهزّ رأسَه ويجيب إن هذا النوعَ من السؤالِ يبعث في نفسِه الحنينَ إلى الوطن الأمّ، لكنَّ ولاءَه للملِك كنوتْ يحول دونَه والعودة إلى هذا الوطن. ثم دون أن يزيد كلمةً واحدة أمسك بيدِها وأخذها إلى الجسر العائم حيث شرَع رجالُه في الركوب والتحميل، وإرخاءِ قلوسِ السفينة. وقد أعدّوا لها خصيصًا جسرًا عريضًا، وحَملوا كلَّ ما اشترته في غوديم، ثم أركبُوها السفينةَ. ثم تحركوا بمجاديفهم ورفعوا الشراع.

وما لبثتِ الريحُ أن تسرّبت إلى ذلك القماشِ المربّع الشكل، فنفخته بكل قوّتها ودفَعت السفينةَ بعنفٍ نحو الأمام. لكنْ إذا بِسيسيليا روزا التي لم يتّسع لها الوقتُ للجلوسِ تنقذفُ انقذافًا على ظهرِها فتقع في حضنِ ستيرجورن.

وفي الحال أجلسها ستيرجورن في مقعده بالقرب من دفّة القيادة، ولفّها لفًّا في بطانيات سميكة وجلود الخرافِ، فلم يعد يبدُو منها سوى منخرِها.

Twitter: @ketab_n

صارت العواصف من حولهم تهب هبوبا عنيفًا، وتأتي لتتكسّر على إزارِ السفينة. كانت السفينةُ تهتزّ اهتزازا، فلم يسع سيسيليا أن ترى شيئًا آخر غير السماء الحالكة، والأمواج المضطربة. وقد ظلت جامدةً بعض الوقتِ لا تحركُ ساكنًا من فرطِ خوفِها، ثم ما لبثت أنْ تمالكت نفسَها مرّة أخرى.

لم ينطق أحدٌ من أولئك الرجال الذين لفّهم الغموضُ بكلمةٍ واحدة. لقد جلسوا في مقاعدهم وأداروا ظهورَهم إلى جانبِ السفينة المقابلِ للسماء، هادئينَ ساكنين، أو مازحين بعضَ المزاحِ كلما هدأ أزيزُ العاصفة. لذلك جاهدت سيسيليا روزا ما استطاعت أنْ تجاهدَ حتى تقنَع نفسَها أنّ أولئك الرجالَ أدرى بما يفعلون، ثم أجالَت نظرَها من خلفِها نحو ذلك الذي يدعَى ستيرجورن فرأت أنه ما يزال واقفًا، مشرَّع الساقين، وقد بعثرَت الريحُ شعرَه، وارتسمتْ على وجهِه الملتحي ابتسامةُ رضًى عريضة. فبدا بذلك عاشقًا لركوبِ البحرِ حقًا.

لكنها في النهاية لم تتمالكْ نفسَها فصرخت فيه من فرط الخوفِ تسألُه إنْ لم يكن في تلك الأمواج الهوجاء، في قلب مثل تلك العاصفة، ما يهدّد حياتهم، وإنْ كانوا على يقينٍ أنّ يدًا رحيمةً تسهر على أمانهم. وقد كرّرت السؤال مراتٍ عديدة وهي تهدر هديرًا وتُوغل في الصياحِ، رغم التفاتِ ستيرجورن إليها، لُطفًا بها وتكرّمًا.

ولمّا فهِم سؤالَها بدأ يُلقي برأسه إلى الخلف وهو ينفجر قهقهةً، فيما كانت الريحُ تُلصقُ شعرَه بوجهه. ثم مالَ نحوها ثانيةً وصاح فيها أنّ ما تراه الآن كان أسوأَ منه عند الذهابِ، قبل وقتٍ قليل من ذلك اليوم، لأنهم أبحروا والريحُ قدّامهم، والآن صارت الريحُ من خلفِهم، وفي هذه الحالِ فلن يستمرْ سيرهُم سوى نحو نصفِ ساعةٍ قبل أن يصلوا إلى وجهتِهم.

وذاك ما كان بالفعل. فما لبثت سيسيليا روزا أن لمحتْ قلعةَ ناسْ وهي تقتربُ منهم بسرعةٍ فائقة، وفجأة وقف النرويجيون مثلَ رجلٍ واحدٍ ليأخذوا مواقعَهم بالقرب من المجاديفِ، فيما جلَب ستيرجورن شراعَ السفينة. ثم ألقَى رجالُ ميْسرةِ السفينة مجاديفَهم في الماءِ وأخذوا يجذبونها جذبًا نحو الخلفِ، فيما طفق الجالسون على الجانب الآخر من السفينة يجدفون نحو الأمام، فكانت وكأن يدًا عملاقةً

Twitter: @ketab_n

صارت تحرّكها حول محورها، وما هي إلا نحو عشر حركات بالمجاديف حتى صاروا في مأمنٍ من الريح، وتمكّنوا من جعْل مقدّمةِ السفينة تنساب إلى الشاطئ. ولم يفُت روزا سيسيليا أنْ تنبّهتْ لتلك الخفّةِ والمهارة التي بعثَت فيها بعضَ الخجلِ مما أصابها من هلعٍ خلال تلك الرحلة.

رافقها ستيرجورن في أدبٍ أمام الآخرين نحو الدربِ الذي يصعد نحو القلعة، فانتهزت هذه الفرصةَ لكي تطلب منه بكلماتٍ صريحة أنْ يغفِر مخاوفَها الصبيانية.

اكتفى ستيرجورن بالابتسامِ في ودٍّ وهو يؤكد لها أنها ليست دون سائر الناس مَن تراوده مثلُ تلك المخاوف أثناء الإبحار. فقالت له إنّ سيدةً سألتها ذات يوم إن لم تكن السفينةُ مهدّدةً بأنْ تضلَّ طريقَها، فانفجرَ فيها قهقهةً فرَمَتْهُ بابتسامةٍ خجولة، دون أن تفهم ما الغريب في تلك المخاوف.

بعد برهةٍ استقبلت بلانكا صديقتَها العزيزة وهي تحيطُها بكلماتِ الترحيب أمام كلِّ الحضور. وقد امتلأت ثرثرتُها بالسعادةِ وكأنها طيرُ القُبَّرة حين يشدو في أيام الربيع البهية، فكانت ثرثرتُها مثلَ طرب القبّرة مسترسلا بلا نهاية. ثم أمَرت رجالَها بأن يُنزلوا أكياسَ الجلد المملوءة بالفسائل والجلود وأدوات الخياطة التي جلبتها روزا. ثم أمسكت صديقتَها من ذراعِها لكي تقودها عبْر قاعات عديدة مظلمة نحو موقدٍ كبيرٍ حيث سقتْها بالقربِ منه خمرًا ساخنًا، وهي تقول لها أنْ لا شيءَ خيرٌ من الخمرِ بعد تلك الرحلة القارسة.

انتعشت روزا أيّما انتعاشٍ بتلك الرعاية الودودة التي خصّتها بها صديقتُها، لكنها كانت متوتّرةَ الأعصاب بسبب الخبر السيّئ الذي كانت ستُخبرها به. لكنْ لم يكن من السهل أن تخوض في ذلك الشأنِ لأنّ بلانكا لم تكفّ عن ثرثرتها. كان الملكُ واليارل في أوسترا أروس يُهيّئان لِتَعْيينِ رئيس المطارنة الجديد بعد مقتلِ رئيس المطارنة المطران السابق على يد نهّابين قادمين من وراء البلطيق. وما دام هؤلاء الإستونيّون قد حرقوا مدينةَ سيتونا أيضًا فلا مفرّ من بناءِ سفنٍ جديدة لشنّ حملةٍ صليبية جديدة. فأمامهما مهامُّ كثيرةٌ إذًا. لقد صارتا سيّدَتَيْ القلعة، لأنّ الحُكمَ في غياب الملك واليارل يعود للملكة وحدَها. فالآن تستطيعان أنْ تُثرثِرا طوال الليل،

Twitter: @ketab_n

وأنْ تشربا ما شاء لهما من خمرةٍ ساخنة.

اِنجذبت روزا انجذاباً استغرق برهة من الزمن، لفرحةِ صديقتها ونخوتها العارمة. كان وقتًا عظيمًا ذلك الذي جمعهما، لأنهما صارتا في النهاية طليقَتين، كلاهما، أو بالأحرى هُنّ الثلاث.

لقد نطقت روزا عن قصد بكلمة "ثلاث" حتى يسعها الحديثُ عمّا يختلج في صدرها. لكنّ ما قالته جعل بلانكا تعود ثانيةً لثرثرتها لتقصّ عليها والفرحةُ تتلألأ في عينيها والقهقهاتُ تملأ فاها، حكايةَ الصغيرة أولفيلد، بل أولفيلد التي لم تعد صغيرةً، لأنها صارت الآن تنتظرُ مولودَها الأول.

فكما توقعتْ بلانكا لم يكن فولْك، ابنُ أولفشيم البكر، يحظى باهتمام أولفيلد، على الرغم مما بذله من جهدٍ حتى يحظى برضاها. لقد أساء إليه هذا التسرُّع أيما إساءة، ولم تتأخرُ أولفيلد في الاهتمام بالابن الأصغر أكثر فأكثر. لم يؤثِّرْ جون في أولفيلد حين أشهرَ سيفَه وقوسَه، لكنه حدّثها عن أهميةِ القانون في بناءِ الأمة، وعن أمورٍ أخرى فكّر فيها طويلا. ولمّا كان يملكُ صوتًا نديًّا أيضًا فقد سارت الأمورُ على نحو ما كان منتظرًا، وبات الاحتفالُ بزفافهما وشيكًا، وكان خيرا لهما أن يُعجلا فيه، نظرًا لقُربِ الحدث السعيد.

انشغل بالُ روزا ففاقَ انشغالُها غبطتَها. لأنّ انتظارَ طفلٍ قبل الزواجِ قد يكلّف مَن يهمّهما أمرُ ذلك الطفلِ ثمنًا باهظًا. فهيَ من حيث موقعِها لا شكَّ أدرى بالأمرِ من غيرِها.

لكنّ بلانكا ما لبثت أن مسحت تلك المخاوف بظاهرِ يدِها. لقد تغيّرت الأحوالُ، وأيًّا كان صاحبُ مقرِّ الأحبار الجديدُ فسوف ينشغِل بأمور أخرى غير إقصاءِ شخصٍ تحوطه حمايةُ الملك واليارل. وقريبًا ستُبرَّأُ أولفيلد الصغيرةُ من ذنبِها، وبعد ذلك فلن يبالي أحدٌ بحالِها. فها هي ذي الصغيرةُ، رغم الداء والأعداء، تتألّق سعادةً وغبطة، ولا شك أنَ الحرية تأخذُها اليوم إلى أحضانها الوسيعة.

ولمّا اطمأنت روزا على أولفيلد، بعد أن عرَفت أنّ ما مِن خطرٍ سيهدّدها، رفَعت كلتا يديها لكي تحاول أن تضَع سدًّا أمام سيلِ الكلماتِ المتدفّقةِ من فم

Twitter: @ketab_n

صديقتِها، وتقول إنها تحمِل من غودِم أنباءً غير سارة. وفي الحالِ صمتَت بلانكا ولم تزدْ كلمة.

في البداية أُسيء فهمُ ما جاءت به روزا، إذْ لم تكدْ تقصُّ في عبوسٍ موتَ الأمِّ ريكيسا ودفنَها حتى شرعت صديقتُها تضرب كفًّا بكفٍّ وتنفجر بضحكاتِ الغبطةِ، قبل أن ترسمَ إشارةَ الصليب وتلتمس العفوَ لغبطتها بموت أحد العباد. لكنْ سرعان ما استعادت مزاجَها المرِحَ وهي تقول إنّ النّبأ ليس نبأً حزينًا.

لم تجد روزا بدًّا من أن تعيد كلّ شيء من البداية. ففي هذه المرّة لم تشعر بالحاجة إلى إطالةِ الحديثِ عن البوح المزيّفِ، وعن الوصية التي سوف تُرسَل إلى روما. وفي الحال تغيّرت نبرةُ بلانكا فجأة.

ولم تكد روزا تنهي حديثَها حتى ملأ الذهولُ الصديقتين معًا. إذ ما الذي يمكن أن يُقال في حقٍّ مثلِ ذلك الكذب؟ فالقولُ بأنَ فتاةً كانت رهينةَ هيمنةِ الأمِّ ريكيسا ترغب في أنْ تُعبّر عن نذورها في غودم، قولٌ أحمق لا محالة. والقولُ إنّ بلانكا تتنازل عن خطيبِها، وعن العرش، لكي تصبح عبدًا لرئيسة الدير يعني القولَ أنّ الطيور لا تحلّق إلا في الماءِ، وأنّ الأسماكَ لا تسبح إلا في الهواء.

أوقفت بلانكا الحديثَ بينهما برهةً، حتى تأخذ روزا لتحيّةِ الأطفال، قبل أن تستأنِفا ذلك الحديثَ الذي سوف يتواصلُ بلا شك، طوالَ ساعات الليل.

كان إيريك، الابن البكر في أوسترا أروس برفقةِ والدِه، حتى يتعلّم منه فنّ الملك القادم. لكنْ عندما دخلت السيسيليتان الغرفةَ كان الابنان الآخران، وبريجيدا البنت، يتشاجرون من أجل الركوب فوق حصانٍ من خشب، دون أن توقف المربّيةُ شجارهم. لكنّ الأطفال ما لبثوا أنْ هدأوا، وسرعان تسلّوا بطقم روزا الذي أثار استغرابَهم. وعندما رتّلت الصديقتان صلواتِهما المسائية أحدثتا مفاجأتَهما الأولى حين أنشدتا أجملَ ترتيلٍ سُمِع صوتُه تحت قِباب ناس. فقد أدهشهم صوتُ الأمّ التي لم يتخيّلوا يومًا أنها على ذلك القدرِ من المهارةِ، وقبِلوا في لطفٍ أن يذهبوا للنومِ وهُم يُثَغْثِغُون فرحًا ومُتعة.

ولمّا عادتا بالقرب من المدفأة حيث تنتظرهما الخمرةُ الساخنة شرعَت بلانكا

Twitter: @ketab_n

تقول لصديقتها في ضيقٍ إنها لم تُنشِد منذ أن استعادت حريتَها، ففي تقديرها أنها أنشدت كثيراً عندما كانت في سجنِها في غودم. لكنّ الإنشادَ برفقتها مختلفٌ تمامًا. فهو يذكّرها بصداقتِهما أكثر ممّا يُذكّرها بصلوات الصبح في البرد القارس.

ولـمّا جلستا إلى الدفْءِ، وكأسُ الخمرة الطيبةِ في يديهما، استطاعتا أخيراً أن تنظرا في الأحوال التي تُشغل بالَيْهِما.

قالت بلانكا في البداية إنّ نوايا الأمّ ريكسيا واضحةٌ جلية. كان لا بد من إيجادِ وسيلةٍ لجعلِ الأب المقدس يعلن أنّ ملكِ فاسترا غوتالاند، وأوسترا غوتالاند، وسفيلاند، غارقٌ في الإثم والخطيئة، وأنّ إيريك الصغير وإخوته، جميعهم أبناءُ زنا لا يحقّ لهم أن يَرِثُوا عرشَ المَملكة.

فلا غرو أن تطلب روزا وصولَ هذا الخبرِ إلى روما رأسًا، مرورًا بالدنمرك حيث يقيم أهلُ سفيكر اللاجئون، الذين تزوّج عددٌ كبير منهم من قريباتِ الملكِ الدنمركي. فالحربُ التي هدّدتهم بها الأمُّ ريكسيا وهي على فراشِ الموت هي الحربُ التي سوف تنفجر لا محالة، عندما يعود السفيركر للمطالبة بعرش المملكة. لقد أتقنَت الأمُّ ريكيسا بالفعل تدبيرَ كلّ شيء بعناية كاملة.

قالت روزا معترضةً إنّ هذه الحسابات تستنِد إلى أكذوبة، لأنّ ما يظهر في وصيّة الأم ريكيسا تزويرٌ وبهتان. فالطريقة التي سوف تُستقبَل بها هذه الوثيقةُ في روما شيءٌ، وكيف سيستقبلها رئيسُ أساقفة سويدي – أيًّا كان هذا الرئيس القادم – فشيءٌ آخرٌ، مختلفٌ تمامًا.

عندئذ تساءلتا إنْ كانت الأكذوبةُ هي التي ستنتصِر حقًّا، دون عناءٍ أدركتا أنّ الأمَّ ريكيسا كانت مهيّأةً لأنْ تضحّي بروحِها، كما يضحّي منتحِرٌ بروحِه، حتى تمارِس انتقامَها. لكنّ الخوف سرعان ما استولى على الصديقتين لـمّا تخيّلتا كائنًا بشريًا يفتري، ظلمًا وبهتانًا، على ملكةٍ، ولا يخشى جهنّم التي سوف يحترق بنارِها.

رأت روزا أنّ الأمّ ريكيسا قد ضحّت بروحها حتى تضمن انتصارَ أعضاءَ عائلتِها، كما تضحي أمٌّ بحياتها من أجل طفلِها أو أبٌ من أجل ولدِه. إن من يسمع هذه الفكرةِ سيقشعرُّ بدنهُ، لكنْ لن يستعصي عليه فهمُها. لاسيما إنْ كان

Twitter: @ketab_n

هذا الشخصُ ممّن عانوا من تصرّفاتِ ريكيسا أثناء وجودِها في هذه الحياة.

رغم قِطَعِ الخشبِ الغليظة التي كانت تشتعل في الموقد أحسّت الصديقتان فجأةً بالبرد القارس الذي تسرب إلى عظام جسديهما. نهضَت بلانكا، وقبّلت صديقَتها، ثم ضمّتها ضمًّا في ملابسها الجلدية، ثم انصرفت لتُحْضِر قليلا من الخمرةِ الساخنة.

وعندما عادت حاولتا الخروجَ من جوِّ الشرِّ الذي خيّم على الغرفة. وتنفّستا الشجاعةَ وقالتا إنهما على الأقلِّ تنبّأتا بالخطَر قبل وقوعه، وأنّ بيرجر بروزا سوف يَعرف كيف يستثمِر ذلك النبأ. ثم طفَقتا تتحدّثان في أمورٍ أخرى.

ذَكَرت روزا صديقتهما العزيزة أولفيلد التي لم تكد تغادر الديرَ حتى وجدَت نفسَها في سريرِ الزواجِ – الذي يبدو أنها قد ذاقته سابقًا. لكنْ، هل ما فعلته أمرٌ طيبٌ حقًّا؟ أليست معرّضةً، لِما قد يتعرّض له الحمل الذي وُلد حديثًا؟ فلم يسعْها أثناء فترةِ حريّتها القصيرة، أنْ تعرِف سوى شابّين نبيلين، وقد هيّأت نفسَها لكي تتقاسم حياةَ وسريرَ أحدِهما. فهل هذا ما كان ينقصها حقًّا؟

ففي ظنِّ بلانكا أن ذاك هو ما ينقصها. فهي تعرف مَن هو جون، وتعرف أيضًا أولفيلد حقّ المعرفة. ولذلك فهي مرتابةٌ فيما قد تؤولُ إليها أمورُ أولفيلد. فأوّلا سيضفي هذا الزواجُ إلى تقاربٍ بين عائلتي السفيركر والفولكونغر، وفي ذلك سعادة وغبطة، وثانيًا لا أحد يُنكر أنّ ثمة كائنات قد خُلق بعضُها لبعض، وذاك حالُ آرن وروزا. ولكنّ روزا ستتاح لها الفرصةُ قريبًا لكي تلاحِظ – لأنّ بلانكا قرّرت أنْ يحتفلن جميعًا بأعيادِ الميلاد في ناس – أنّ الأمرَ كذلك مع أولفيلد وجون فولكسون.

أغرقت تلك الكلماتُ، روزا، في أحلام اليقظة. فها هي صديقتُها تدعوها لأعيادِ الميلاد، وكأن الأمر طبيعيّ طبيعةَ الأشياء. فالجديدُ في حياتها هو هذه البساطةُ، وهذه البداهة. فهي الآن حرّة طليقة، بل في مقدورها أيضًا أن ترفُض أيَّ دعوةٍ إنْ شاءت أنْ ترفضَها. لم يكن ذلك من نواياها، لكنْ حسبُها أن تشعر أنّ الرفضَ لم يعد مستحيلاً لكي تشعُر أنْ لا شيءَ أغلى من ذلك في حياتها الجديدة.

ولـمّا لم يكنْ من عادتها أن تشرب ذلك القدرَ من الخمرةِ الساخنة فقد غلَبها

Twitter: @ketab_n

النعاسُ والكأسُ في يدها، فأمرَت بلانكا خادماتِها بأنْ ينقلنَها إلى فراشِها.

* * *

في اليوم التالي غيّرت سيسيليا روزا مظهرها الخارجي كليًا، لقد أخذتها خادماتُ الملكة إلى الحمّامِ لكي تغتسل وتزيل أوساخها، وقد اهتمَمن بشعرِها على الخصوص ففَكَكْنَه وسرَّحْنَه ومشّطْنه وقَصصنْه. ففي الدير كانت قَصُّة الشعرِ القصيرةُ هي المتّبعة فلا يُمشقُ الشعرُ لأنه يظل مغَطّى.

فكّرت بلانكا في الملابس الجديدة التي يمكن أن تعطيها لصديقتها. فهي تعرف أن أجملَ الحليّ لا تليق بها، لأنّ الفارقَ ما بين ثوبِ المسحِ وملابس سيّدةِ القصر سيكون صارخًا. وقد فهِمت أيضًا دون أن تسألها أن روزا لا ترغب في تغيير ملابسها في ناسْ، لا لشيءٍ إلا لأنها صديقةُ الملكة. فهي لا تلقي لمثلِ هذه المظاهرِ بالاً كثيراً. كانت بلانكا تعرف جيدًا أنّ أغلى ما تتمنّاه روزا أن ترى عودةَ ماغنوسون إليها، لكنْ من الصعب أن يعرف أحدٌ مقدارَ حُظوظِها في تحقّق تلك الأمنية، بعد مرور سنين طويلة. لكنْ كان من الواضح أنّ تلك الحظوظ ليست جد كبيرة. والأمْر ليس موضوعَ نقاشٍ ملحٍّ على أيّ حال، والزمنُ وحده مَن يملك الخبرَ اليقين، شئنا أم أبينا.

لقد فكّرت أنّ روزا يمكن أن تغادر ناسْ بمعطفٍ لا شك أنه سيكون داكنَ اللونِ، لونِ الراهبات العاملات، لكنه معطفٌ من فرو الحَمل. أمّا أن تحمِل معها سلاحَ العائلة فأمرٌ قد يحمّلُها متاعبَ هي في غنًى عنها، لأنّ روزا في الحقيقةِ من عائلة بالْ، ولذلك فهي لا تملك أن تلبس غير اللّون الأخضر. والحالُ أنها تقدّر منذ زمنٍ بعيدٍ أنها زوجةُ ماغنوسون، ولم تتخيّل نفسَها إلا في معطفِ الفولكونغر، أزرقِ اللون. لقد صار ذلك عند الصديقتين أمرًا بديهيًّا منذ عهدِ غودهم، عندما انفردتَا بحمْلِ الشريطِ الأزرق في ساعديهما. لكنّ هذا لا يمنع من أن يصبح قِرانُها بآرن ماغنوسون، الذي كان أمرًا لا جدال فيه، في رأيها هيَ، وربما في رأيِ السيدة العذراء أيضًا، أمرًا مرفوضًا من قِبل الكنيسة. فالمعطفُ الأزرقُ مبرَّرٌ من وجهةِ نظرٍ

Twitter: @ketab_n

معينة، لكنّه غير مبرَّر بتاتًا من وجهة النظر الثانية. فمن الحكمةِ إذًا أن تحتفظ روزا إلى حينٍ، باللون الداكن المتّبع في الدير.

لكنْ من المؤكد أنه يحقّ لوكيلة المالية أن تحمِل ما شاءت من الملابس، لأنها واحدةٌ من العاملات العلمانيات في ديرها. لذلك أعدّت بلانكا لصديقتِها ثوبًا أخضرَ اللونِ، وهي تعلم أنّ هذا اللونَ يناسب شعْرَها الأشقر. وحتى تُشير قليلاً إلى لونِ الفولكونغر عمَدت إلى تغييرِ تصفيفةِ رأسِها السوداء بتصفيفةٍ زرقاء، وهي صبغةٌ قد اعتادت عليها وتستطيع أنْ تُعِدَّها بنفسِها.

رأت الملكةُ أنْ لا مفرّ من أن تُعمِل قليلاً من الإقناعِ حتى تقبَل روزا بارتداءِ الملابس الجديدة، وتوافقَ على البقاء بشعرها المتطايرِ في الهواءِ، يومًا كاملا، حتى تهيّئَ نفسَها للأيام القادمة.

لكنّ يومًا واحدًا لن يكون كافيًا. لقد فهِمت بلانكا ذلك بسرعةٍ، لكنْ بعد فواتِ الأوان على أي حال. لأنه ما إن أقبل المساءُ حتى أخذت روزا إلى غرفةِ مُرافقاتِها، وألبستها ثوبًا أخضرَ اللونِ، أكثر جمالا، يزيّنُه حزامٌ من الفضة، وملقطُ شَعْرٍ من ذات المعدن، قائلةً لها إنهما تنتظران ضيفًا للعَشاء.

ثم أخذت روزا إلى غُرفتها الخاصة، حيث توجَد مرآةٌ يرى فيها المرءُ نفسَه من الرأس إلى القدمين. لكنّ روزا ارتجَفت وارتعدت قليلا بسبب ذلك الذي كان سيَحدُث في ذلك المساء.

وحين رأت روزا نفسَها في المرآةِ ذُهِلت واختلط عليها الأمرُ في البداية، ثم انفجرت شهيقًا وذهبت لتجلس في إحدى زوايا الغرفة. وفي الحين جاءت بلانكا لتُسليها وتواسيها قبل أن تعرف منها سببَ تلك الكآبة.

شهقت روزا كثيراً، لأن ما رأته في المرآة ليس الصورةَ التي ظلّت تحملها عن نفسِها، بل هي صورةُ امرأة عجوزٍ وقبيحة.

قبّلتها بلانكا وواستها برهةً قبل أن تنفجر قهقهةً، وتُمسكها من يدِها، وتقِف معها أمام المرآةِ، حتى تريَا نفسَيهما معًا.

"انظري، قالت وهي تتظاهر بالجِدّ. نحن هنا، أنا وأنتِ معًا. فعلى مدى سنواتٍ

Twitter: @ketab_n

عديدة كنتِ دومًا تحت عينيَّ، دون أنْ أرى فيكِ نفسي، وكنتِ دومًا ترينَني دون أنْ تنظري إلى نفسِك فيّ. انظري إلى بطني المنتفِخ، وإلى صدري الذي تهدل، وإلى خدّيّ الممتلئين! والآن قارني: المرآةُ لا تَكذب، فهي لا تستطيع أن تكذب. فهي من ناحية تُظهر امرأةً جميلة، عمرُها سبعةٌ وثلاثون عامًا، لكنها تبدو أصغر سنا، وهي من ناحية أخرى تُظهر صورةَ امرأةٍ في الأربعين من العمرِ، وتبدو في هذا العمرِ حقًّا. إنّ الزمنَ لم يُفسدكِ، كما تظنين، يا روزا، صديقتي الغالية"!

لبثتْ روزا برهةً بلا ردٍّ، تتأمّل صورتَيهما في المرآة. ثم إذا بها تلتفِت فجأةً إلى بلانكا، وتحتضِنها، وتطلب أنْ تعفو عنها. ثم قالت أنْ لا عهْد لها بالمرآة، وأنه لذلك السببِ تأثّرت كثيراً، حين رأت صورتَها فيها. وما لبثت أن استعادت حيويتَها وابتهاجَها.

بيد أن ذلك التصرفَ الغريب سرعان ما بدأ يعمّقُ مخاوفَ بلانكا التي أدركت أنها تأخّرت كثيراً في إظهارِ ذلك السرِّ الذي ظلت تحتفظ به، وأنّ الوقت قد حان لكي تُعجِّل في الكشفِ عنه.

فالضيفُ الذي كانت تنتظره للعشاءِ ليس شخصًا آخر غير ماغنوس منيسكولد، ابن سيسيليا روزا القادمِ على حصانِه من فيسينغو. فهذا الضيفُ القادم لم يأتِ إلا لكي يلتَقيَ بأمّه التي لم يرَها طوال حياته.

تردّدت بلانكا كثيراً، هل عليها ألا تفضح السرَّ، وتدَع الابنَ وأمّه يتعارفان؟ أمْ ستُظهِر حقيقةَ الأمرِ، مع ما قد يسبّبه لها ذلك من قلقٍ وكآبة؟

طلبت الملكةُ من صديقتها أن تجلس أمام المرآةِ وتظاهرتْ بتهذيب شَعرِها. ثم جلبت مشطًا وشرعت تداعب في لينِ شعرَها حتى تُهدّئ من روعِها ما وسِعها ذلك. ثم قالت، وكأنّ الأمرَ عاديٌّ جدًا، إنها نسيت أن تقول إنّ ضيفَهما في ذلك المساءِ هو ماغنوس منيسكولد، وأنّ الوقت حان لكي تستقبله، وكأن ذلك اللقاءَ لا يثير همًّا وقلقًا.

بقيت روزا وقتًا طويلاً لا تحرّك ساكنًا، تتأمل نفسَها في المرآة، والدمعُ يقطرُ من زوايا عينَيها. وحتى تُخفي القلقَ الذي ملأ نفسَها أخذت بلانكا تُسرّح ذلك الشعْرَ

Twitter: @ketab_n

الأشقرَ الجميلَ وهي تقول "آهٍ لِم شعرُ روزا قصيرٌ جدًّا هكذا؟"

بعد أن هدأت العاصفةُ فوق البحيرةِ ولم يبقَ في الأفق سوى سُحبٍ قليلةٍ انطلقَت المرأتان، دون حرسٍ، نحو شمالِ الجزيرة. وأثناء السيرِ قلّما أخذتهما الثرثرة، فاكتفت بلانكا بإطراءِ براعةِ صديقتِها في ركوبِ الخيل، وأطلقت روزا بعضَ العبارات العادية في وصفِ بهاءِ ذلك المساء.

في إحدى فُرَجِ الغابة التي حُوّلت أشجارُ البلوط فيها منذ زمنٍ بعيدٍ إلى سفنٍ لمحتا ثلاثةَ فرسانٍ يُقبلون عليهما وهم يحمِلون معطفَين كبيرين بلَون الفولكونغر. كان الفارسُ الأوّل أصغرَهم سنًّا، وكانت عيناه تلمعانِ حمرةً في ضوءِ الشمس الساطعة.

ولمّا لمحَ الفرسانُ الملكةَ والسيدةَ التي ترافقها أوقفوا جيادَهم في وقتٍ واحدٍ، وترجّل أصغرُهم في الحالِ وبدأ يقطعُ فرجةَ تلك الغابة.

يشاءَ العُرفُ أن تبقَى روزا على ظهْرِ حصانها دون حراكٍ، وتنتظرَ قدومَ ذلك الرجل الذي سيَنْحَني لها، حتى تمُدَّ له يدَها كي يساعدَها في النزول من على السرجِ. أما التحيات فلن يتبادلاها إلا فيما بعد.

لما كانت في السابعة عشرة من عمرها كانت روزا على درايةٍ بتلك التقاليد، ولم تُقصّر يومًا في الالتزام بها، لكنها بعد السنواتِ العديدة التي أنفقتها في الدير لم تعد، بلا شك، تذكر تلك التقاليد.

وبنفسِ الحيوية التي كانت تتمتّع بها وهي في السابعة عشرة قفَزت روزا إلى الأرض، وأخذت تقطع فرجةَ الغابة بخطًى حثيثة، لكنّها سرعان ما ارتبكت حركاتُها بسبب ضيقِ ثوبها الأخضر فصارت تتعثّرُ المرّة تلو المرّة.

ولم يكد ماغنوس منيسكولد يلمح روزا حتى شرع يعدو نحوها، وما لبثا أن تلاقيا في وسطِ فرجة الغابة فتعانَقا وتحاضنا دون أنْ ينطقا بكلمة واحدة.

وتماسكا من الأكتافِ حتى يحّدق كل منهما في عينَيْ الآخر، وما رأياه كان يشبه الصورة ذاتها التي يحملانها عن نفسَيهما.

كان ماغنوس منيسكولد، بعينَيه السمراوين، وبشعرِه الأشقر هو الطفلُ الوحيد الذي يحمِل تلك الصفاتِ في عائلة بيرجر بروزا، وبريجيدا.

Twitter: @ketab_n

تبادل الابنُ والأمُّ نظراتٍ طويلةً، وقد عجز كلاهما عن أن يقولا شيئًا. ثم جثا ماغنوس على ركبتيه أمام والدتِه، ثم أمسك بيدِها اليمنى، ثم قبّلها بحنانٍ جمٍّ، مُقرًّا بتلك الحركة أنها الأمُّ حقًا.

وعند قيامِه مدَّ يدَه، ثم وضَع يدَ أمِّه فوقها، ثم أخذها في حذرٍ إلى الفَرسِ، وهنا جثا مرّةً أخرى وأعاد إليها الزمامَ، ثم ثبّت الرّكابَ، وطلب منها أنْ تستنِد إلى ظهرِه حتى تركب السرجَ، كما تمليه العادات.

ولم يسعه أن يقول لها كلمةً واحدة إلا بعد أن صار فوق مطيّته من جديد.

- كثيرًا ما كنتُ أفكّر فيكِ، أيْ أمي، وكثيرًا ما كنتُ أراكِ في أحلامي، قال وقد لامسه بعضُ الضيق. كنتُ أقول لنفسي إني بلا شكٍّ سأتعرّف إليكِ، لكنْ ليس بمثلِ هذه السهولة. فرغم الأوصافِ التي عرفتُها عنكِ من عمي العزيز بيرجر بروزا فلم أتصوّر يومًا أني سألتقي بأمٍّ أُحسُّها وكأنها أختي. فهل تأذنين لي بأن أكون مُرافقَكِ على طاولة العشاء هذا المساء، أيتها الأمُّ الغالية؟

- هذا متاح تمامًا، أجابت سيسيليا روزا وهي تبتسم من قلّة ثقة الشابِ بنفسِه.

لم يكن ماغنوس منيسكولد سوى فتًى صغيرٍ لم يخْتر له أفرادُ عائلتِه عروسًا حتى هذه الساعة، لكنه أيضًا رجل ترعرع في قلاعِ السلطة. فمَن يرى كيف يحترِم الأعرافَ لا يسعه أن يعرف أنّ هذا الفتى ما زال غِرًّا. فهو يحمِل معطفَ الفولكونغر في يُسرٍ وعفويةٍ، كما يحمله كلُّ الذين يعرفون قيمتَه ودلالتَه، إذْ ما إنْ شارَفا على ناسْ عند الغروبِ حتى اقترب من أمِّه وأسمَعها بِضْعَ كلماتٍ عن برودةِ المساءِ وهو يضَع معطفَه الأزرق على كتفَيها. لقد رغِب هذا الفتى في أن يكون هكذا دخولُهما إلى قلعة الملك، لكنه تجنّب البوحَ بما نوى، إلا أنّ الأمَّ سرعان ما عَرفت القصدَ دون عناء.

وعلى الطاولة شرب الخمرَ كما يشرب الكبارُ وليس كما تشربه السيسيليتان. في بداية السهرةِ تحّدث معهما معًا عن مجرى حياتهما اليومية في غودهِم، لأنه لم يكنْ يعرف الكثيرَ عن أمْرِ ذلك الدير، وهكذا عرف عن يقينٍ أنه وُلد فيه، وعرف أيضًا سرَّ تلك الولادة.

Twitter: @ketab_n

وكما توقّعتْ السيسيليتان، وعلى نحو ما كانتا تتحادثان فيه بلغةِ الدير الصمّاء، شرع ماغنوس بعد هنيهةٍ يطرح في حذرٍ أسئلةً عن أبيه، حتى يعرف سرَّ مواهبه في استعمالِ السيف والقوس. فأجابته روزا في عفويةٍ كبيرة — لقد حلّت في نفسِها البهجةُ والغبطة محلّ الضيقِ الذي استولى عليها قبل ساعات — أنها لا تعرف من أمرِه سوى ما سمعته في كثير من الأحيان عن مهارتِه في فنّ السيف. لكنها قالت إنها رأته يرمي القوسَ أثناء الولائم التي كانت تقام في قصر الملك في هوسباي. وعليه كان لا بد من أن يُقال في حقه إنه لا ريب نبّال ماهرٌ.

ثمّ وكما أشارت به إليها بلانكا بلغة الإشارات من وراء ظهْر الفتى، سألها ماغنوس ما الذي فعَله أبوه بالضبط في ذلك اليوم؟

"لقد أصاب قطعةً فضيّة مرّتين، على بُعد خمسٍ وعشرين خطوة، قالت روزا. ظني أنّ المسافةَ كانت خمسًا وعشرين خطوة، لكنْ من يدري، فربما كانت عشرين فقط. لكني على الأقل على يقينٍ من قطعةِ الفضة."

ذُهل الشابُ ماغنوس عند سماعه هذه القصة، وفي الحال اغرورقت عيناه بالدمعِ، فمالَ على أمه واحتضنَها طويلا.

ومن خلْف ظهرِه سألت بلانكا إن كانت تلك القطعةُ من فضةٍ حقًا.

كان سمكُها غيرَ عادي، أجابت روزا بالطريقة نفسِها، قبل أن تستسلم لعطرِ حُضن ابنِها الناعم. لأنّ في تلك الرائحة شيئًا بدأ يُحدّثها عن الصبا والهوى

قبل سانت كاترين بقليل، وفيما كان البردُ يُنبئُ بشتاءٍ قارس، جاء بيرجر بروزا في زيارةٍ مفاجئة إلى ريسبرغ. لكنه لم يستطع أن يُخصّص لـ بيتا، رئيسة الدير، إلا الوقتَ الذي تفرضه المجاملةُ، المهداةُ بالتأكيد إلى القديسة العذراء، في هذا الدير، الذي يعتبره مِلكًا له أيضًا.

كان يرغب على الخصوص في التحدّث مع وكيل الماليةِ، ولمّا كان البردُ المبكّر يمنعُهما من الحديث في الخارج فلم يجدا بدًا من الدخول إلى الحجرة الصغيرة التي شيّدتها رئيسةُ الدير على شاكلةِ غرفة غودهم، لتُقيم فيها حساباتها.

بدأ يتحدث في أمورِ الأعمالِ، لكنْ كان من الواضحِ أنّ أفكارَه بدأت تنحرف

Twitter: @ketab_n

بعيدًا، لأنه ما انفك يقفز إلى موضوع حملتِه الصليبية القادمة، التي يريد أن يشنّها شرقًا، خلال الربيع القادم.

وأخيرًا عاد إلى موضوع زيارته الحقيقي: ديرُ ريسرغا بلا رئيسة حتى تلك الساعة، ولو قبِلتْ روزا التعبيرَ عن نُذورها فسوف تُعيَّن في هذا المنصب دون تأخير، بحكم خبرتها الطويلة في الرهبانية. لقد حدّث في الأمرِ رئيسَ الأساقفةِ الجديدَ، وتأكد أنْ لا شيء يمنع ذلك. وقد أبدى توقَه لِسماعِ الردِّ سريعًا.

كان وقْع الصدمة قاسيًا على روزا. فلم تصدِّق أنّ اليارل الذي يعرف الملكةَ بلانكا معرفةً جيدة، يتصوّر لحظة واحدةً أنها ترغب في التعبيرِ عن نُذورها.

فبعد أن تمالكت نفسَها وفكّرت في الأمر مليًّا سألته، دون أن تكفّ عن التحديق في عينيه، عن النوايا الحقيقية التي يُخفيها ذلك السؤال. فهي ليست بليدةً، ولا أحدَ في المملكة أكثر منه حكمة. فلا بد إذًا من وجود أمرٍ جللٍ وراء مثل ذلك العرض.

تألق وجهُ بيجر بروزا بابتسامتِه الطيبة، وغاص في كرسيه المريح، وقابل الساقَ بالساقِ، ووضَع يديه حول رُكبتيه. ثم حدّق هنيهةً في سيسيليا روزا قبل أن يبوح لها بحقيقةَ الأمر، حتى إن لم يخلُ ذلك البوحُ من مواربة واحتيال.

– سيسيليا، سوف تكونين حقًا واحدة من أجمل زوجات فولكونغر، قال في البداية، بل أنت كذلك حقًّا على نحو ما، ولذلك السبب جئتُ أطرح عليك هذا العرض.

– تقول هذا العرض؟ ردّدتْ سيسيليا روزا التي ملأها الفزعُ على حين غرة.

– لا، بل قولي أني سألت سؤالا. فأنتِ في مجال الحسابات ماهرة بارعة، إذ ما من أحدٍ يضاهيكِ فيها سوى إسكيل. فهو كما تعلمين أخو آرن، وهو الذي يضطلع بتجارةِ المملكة. فالأمرُ ليس تغريرًا ولا مجاملة. لذلك سأحدّثكِ بصراحة كاملة. إننا بحاجة إلى رئيسةِ ديرٍ تستطيع كلمتُها أن تُعوّضَ عن افتراءَ رئيسةِ دير أخرى.

Twitter: @ketab_n

- كان في وسعك، يا عزيزي اليارل، أن تقول لي هذا الكلامَ في حينِه، أجابت روزا بصوت ناعم، فهكذا إذًا وصلتْ شهادةُ الأم ريكيسا الباطلة، إلى روما؟

- أجل، وقد سعِد البعضُ برعايتِها والحرصِ عليها، أجاب بيرجر يروزا بصوتٍ غامض. لسنا فقط أمام وثنيّين يجب علينا قمعُهم في بلاد الشرقِ، وإنما ثمة حربٌ حقيقية قد تنفجر هنا، إنْ ساءتْ أحوالُنا وتفاقَمت.

- حربٌ كبيرة بين السفيركر والدنمركيين؟

- بالفعل.

ألِأَنّ إيريك، ابنُ الملك كنوتْ، طفلٌ غير شرعي؟

- إنك تفهمين كلَّ شيء، سيسيليا.

- وشهادتنا نحن، وشهادتي أنا، للملِكة، ليس لها وزنٌ أمام الوصيةِ التي أرسلتْها مكتوبةً إلى روما رئيسةُ ديرٍ كاذبة؟

إني أخشى ذلك كثيراً.

فإن عبّرتُ عن نُذوري فسوف يكون ذلك شهادةَ رئيسةِ ديرٍ ضد شهادةِ رئيسةِ ديرٍ أخرى؟

- نعم. وبالإمكانِ أن تُجنّبي هذه البلاد حربًا حقيقية."

هنا صمتَت روزا حتى تفكّر مليًّا، وحثّت نفسَها على أن لا تتعجّل الردَّ على سؤالِ رجلٍ مثل بيرجر بروزا يعرف الجميعُ في البلاد أنّ ما من رجلٍ في البلاد أسرع منه بالتفكير. كان عليها إذًا أنْ تكسب الوقتَ حتى تتأمّل الأمرَ في أناةٍ ورويّة.

- كم لله في خلق هذه الدنيا من شؤونٍ غريبة، وفي تدبير أحوال العباد فيها! قالت لنفسها بصوتٍ أكثر تأملاً مما يسعها هي نفسُها.

- نعم، غريبة هي حقًا، في الحقيقة، قال بروزا بعد أن خانته الكلمات.

- لقد باعت ريكسيا روحَها للشيطانِ، لغرضٍ واحدٍ في نفسها، وهو جرُّ البلاد إلى الحرب، أليس هذا غريبًا؟

- نعم، بالفعل، إنه لأمرٌ غريب، أجاب بيرجر بروزا وفي صوته بعضٌ من نفادِ الصبر.

Twitter: @ketab_n

- وتطلبُ مني أن أعطيَ روحي إلى مريم العذراء، حتى أعوّض عن هذا الإثم، تابعتْ سيسيليا روزا بكلّ براءة.

- إنها طريقةٌ لا تخلو من قساوةٍ لاختصارِ الأحوال، لكنّها طريقة صحيحة، أجاب بيرجر بروزا.

- ولن تفوت الإشارة إلى أن رئيسة الدير الجديدة كانت قبل ذلك ولوقتٍ طويل آنسةً تمقتُ الأمَّ ريكيسا، وأنها رفضت أن تغفِر لها آثامَها وهي على سرير الموت. ولن يصدِّق أحدٌ أقوالَها، صاحت روزا بنبرةٍ دهشت لها هي نفسُها قبل أن تُدهِش بيرجر بروزا.

- أنتِ قاسية بقَدْرِ ما أنت متيقّظة، سيسيليا روزا، أجاب هذا الأخير بعد أن فكّر برهة. لكنّكِ وحدك القادرة على أن تُجنّبي هذه البلاد حربًا، بفضلِ تضحيةٍ ستكون لك بمثابة مَمْلكة حقيقية: ديرٌ يكون لك فيه كل الهيمنة. فاليوم حقًّا لن تكوني كما كنتِ بالأمسِ تحت رحمةِ عصا الأمّ ريكيسا. فما الذي يسعكِ أن تفعليه بحياتك، أكثر نفعًا لعائلتكِ ولِمَلَكَتِكِ، وإليك أنتِ، من قبولك هذا العرض؟

- بل أنت الذي لا يرحم، بيرجر بروزا. أتعلم ماذا كنتُ أطلبُ في صلواتي كل مساءٍ على مدى عشرين عاما؟ هل يفهمُ محاربٌ مثلك ما الذي يعني أن يظل الإنسان محبوسًا داخل قفصٍ طوال هذه المدة؟ فإذا كنتُ أحدثكِ بهذه الصراحة فليس لأنني أشعرُ باليأس لَمّا أسمع ما تطلبه مني، بل ليقيني أنك تُكِنُّ لي الودَّ، ولأن هذا النوع من الكلام ليس فيه إساءة.

- هذا صحيح، يا عزيزتي روزا، هذا صحيح، تنهّد اليارل، وهو ينسحب.

ثم إذا بروزا تنسحب أيضًا، دون أن تقول شيئًا. ولم تعد إلا بعد برهةٍ وهي تحمل في يديها معطفًا جميلاً بلون الفولكونغر. وقد أدارته وأدارته مرّات عديدة حتى تتلألأ في ضوءِ الشموعِ خيوطُ الأسد الذهبية الذي يزيّن ظهرَه. ثم طلبت من اليارل أن يُمرّر يدَه فوق الفروِ الذي يُبطّنه. وقد هزّ رأسه إعجابًا، لكنه لم يقل شيئًا.

- لقد اشتغلتُ على هذا المعطف عامين كاملين، فهو بالنسبة لي كالحلم،

Twitter: @ketab_n

قالت روزا في النهاية. واليومَ صار نموذجًا هنا في ريسبِرغا، لأنّنا ما زلنا في هذا الفنِّ متأخرين عن غوديم، كثيراً.

- إنه حقًّا جميلٌ جدًا. وظني أني لم أرَ من قبلُ زُرقةً بهيةً كهذه الزرقة، ولا أسدًا بمثل هذه القوة، قال بيرجر بروزا وهو يظن أنه أحسنَ التعبيرَ، ويخشى في آنٍ ما ستقوله روزا بعد حين.

- لعلك، يا قريبي العزيز، تملك فكرةً عن الشخص الذي أنوي أنْ أهدي إليه هذا المعطف؟ سألت روزا.

- نعم، وفّقك الربُّ في وضْعِه يومًا على كتفَيْ آرن ماغنوسون. أفهمُ أنك تحلمين بهذا، سيسيليا روزا. وأقدّر أيضًا، وربما أفْضَلَ ممّا تظنّين، الأفكارَ التي كانت ترافقك خلال السنوات التي كنتِ تشتغلين فيها على هذا المعطف. لكنْ، اسمعيني وافهميني، أنتِ أيضًا. فإذا لم يعد آرن قريبًا فسوف أشتري منكِ هذا المعطف لزفافِ ماغنوس منيسكولد، أو لِتتويج إيريك كنوتسون، أو لأيّ مناسبةٍ أخرى تروق لكِ. لكنْ لا يمكن أن تعيشي طويلاً في الأمل، سيسيليا روزا، فأنتِ لا تملكين الحقَّ فيه من أجل أفرادِ عائلتك.

- فلْنُصَلِّ معاً إذًا، من أجل عودةِ آرن ماغنوسون، سريعًا، قالت روزا وهي تنكّس رأسَها.

لا أحد، حتى إنْ كان يارلا، يستطيع التملُّصَ من مثل هذا الدعاء، خصوصًا في داخلِ دير، وبخاصةٍ في دير كان هو صاحبَه ذات يوم. هكذا ارتأى بيرجر بروزا أن يقول قسراً عن رئيسِه.

ثم جثَوا معًا في وسط العدّادات، ودفاتر الحسابات، وصلّيا من أجل سلامة آرن، وعودتِه السريعة.

صلّت سيسيليا روزا بحرارةِ حُبٍّ لم يضْمر على مدى عشرين عامًا... حبٍّ يظل الموتُ عندها أفضلَ من أن تُفرّطَ فيه.

كانت أدعيةُ اليارل في صلاتِه أقَلَّ حرارة، حتى إن كانت لا تقلُّ صِدْقًا. لكنه

Twitter: @ketab_n

حدّث نفسه قائلاً إنْ تعذّر حلُّ مسألة الخلافة بهذا اليسرِ الذي لا يُسْرَ غيرَه سوى التصدي لشهادةِ رئيسةِ ديرٍ بشهادةِ رئيسةِ دير أخرى، فسوف تحتاج البلادُ لا محالة إلى كلّ المحاربين الذين يسَعُ معسكرَ الفولكونغر أنْ يجنّدَهم.

والحال، كما سمِع الأبَ هنري يقول في فارنيم، أنّ آرن، بلا منازع، محاربٌ باركه الربُّ من أوجهٍ كثيرة. وفي أسوأ الحالات فقد تحتاج إليه البلادُ في أقربِ الآجال.

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

ما انفك آرن يتلقّى العلاجَ لأسبوعين كاملين في مستشفى الحميدية في دمشق، قبل أن يتمكّن الأطباءُ من تخفيف وطأة الحُمّى عليه. لقد كان ذلك في ظنّهم فضلاً من الربّ، إذ لا أحد يمتدُّ به العمرُ أكثر من خمسة عشر يوماً إن استبدّت به الحمّى وثابرتْ. والحالُ أنّه كان يحمل على جسده من آثار المعارك أكثر ممّا يسعه أن يَعُدَّه منها. لقد قدّر أنْ لعل عددَها مئة تقريباً، ومع ذلك فلم يسبق حتى تلك اللحظة أن آذته الجراحُ أيّما إيذاءٍ على نحو ما آذته عند مشارف حطين.

قلّما كان آرن يذْكر أيّامَه الأولى في تلك المعارك. لقد أنعشه رفاقُه في ساحة الوغى، ونُزِعَ عنه زردُهُ، وخِيطت على وجه السرعة أكثرُ جراحِه إيلاماً، قبل أن ينقله رفاقُه مع الجرحى السوريين والمصريين إلى قلب الجبال النديّة. وقد آلم ذلك المسارُ أولئك الجرحى أيّما إيلام، وقد بدأ أكثرهُم ينزفون مرّة أخرى. وقد تيمَّن الأطباءُ بنقلِهم إلى تلك الجبال لأنهم لو مكثوا في عّز القيظ بالقرب من طبريّة، ما بين الذباب، وفي نتانة الجثثِ لازداد حالُهم سوءاً.

أمّا كيف انتهى به المطافُ إلى دمشق، فلم تسعفه الذاكرةُ بشيءٍ منه، لأنه حين نُقِل من جديد من ذلك المستشفى الذي أُرْتُجِل ارتجالاً كانت الحمّى قد استبدّت به مرّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

في دمشق أعاد الأطباءُ فتْح بعضٍ من جروحه، ساعِين إلى تنظيفها بمزيد من الاتقان والعناية.

تمخّضتْ أعمقُ جِراحه عن ضربةِ سيفٍ اخترقت ثقوبَ درعه ونفذت إلى أعماق ربلة ساقِه، وعن ضربة فأسٍ شطرت خوذتَه فوق العين اليسرى واقتلعت حاجِبَيْه وجِلْدَ جبينه. لم يسعه في مراحل مرضه الأولى أنْ يُدخِل إلى معدتِه كثيراً أو قليلاً من الغذاء فكان يردُّ ردّاً كلّ ما يجتهد الأطباءُ في إكراهه على ابتلاعه. وقد صُدِّع أيّما صُداع حتى صارت نفخاتُ الحمّى التي تسري في جسمه كأنها تترفّق به فتقع عليه مثل البلسم الشافي.

فهو لا يذكر آلاماً بعينِها، حتى عندما كُوِيَتْ جراحُه بالحديد الحامي.

وعندما هدأت حُمّاهُ راعَه أنْ يرى الدنيا فجأة بكلتا عينيه، لأنه لم يكن يرى في ذكرياته إلا صوراً بسيطةً لا شكل لها ولا لون.

رقد المريضُ في الطابق الأول في غرفةٍ زُيِّنَتْ جدرانُها بفسيفساء زرقاء اللون. وخارجَ ذلك المبنى انتصبت أشجارُ نخيلٍ ما انفكت الريحُ تبعثُ فيها حفيفاً خافتاً يتخلّله هديرُ عيونِ الماء في الساحة.

في البداية أبدى الأطبّاءُ نحوه أدباً فاتراً، لكنْ لا شكّ أنّهم بذلوا أقصى الجهد في مداواته وتعليله، وفوق سريره عُلّقت لوحةٌ سوداءُ اللون مذهّبةٌ كُتبت عليها الحروفُ الأولى لاسم صلاح الدين، فكان ذلك يعني أنّ آرن قد أضحى وهو حيٌّ أغلى منه ميّتاً، حتى إن همَس بعضُهم بأنه شيطانٌ أخرس يحمل صليباً قرمزيّاً. وعندما تراجعت حُمّاه واستعاد آرن القدرةَ على الكلام من جديد اغتبط الأطباءُ لحاله أيّما اغتباطٍ وتعجّلوا الالتفافَ من حول سريره لكي يستمعوا في ذهُولٍ إلى حارس من حرّاس هيكل الربِّ وهو يتحدّث إليهم بلغة الرّب! لقد كان هؤلاء الرجال الذين يتعاطون الطبّ في دمشق يجهلون تماماً ما كان معظمُ أمراء الجيش يعرفونه من أمرِ القوطي وشؤونه.

كان أكثر الأطبّاء تميّزاً يُدعَى موسى بن ميمون. لقد قدم من القاهرة التي أمضى فيها سنوات عديدة في خدمة صلاح الدين. وقد رنّت عَرَبيّتُهُ رنيناً غريباً في

Twitter: @ketab_n

سمْع آرن، لأنه وُلد ونشأ في الأندلس القصيّة عن المكان الذي صار اليوم إليه. وقد أسرَّ إليه منذ لقائِهما الأول بأنّ الحياة قد قسَت على اليهود هناك أيّما قسوة. ولم تنل الدهشةُ من آرن بتاتاً، وقد عرف أنّ الطبيب الشخصي لصلاح الدين كان يهودياً، لعلمِه أنّ خليفةَ بغداد، وهو أعلى سلطة على رأس المسلمين جميعاً كان يعمد إلى العديد منهم يُقدّمون إليه العون والخدمة. ولَمّا كانت خبرتُه مع الأطباء الشرقيّين تنبئُه بأنهم ضالعون في قواعد الفلسفة وفي الإيمان على السواء اغتنم الفرصة وسأله أيّ أهمية تكتسيها القدسُ في نظر شركائه في العقيدة. وما لبث موسى بن ميمون أن رفع حاجبيه من فرط الدهشة، وسأل بدوره أيّ شأنٍ يدفعُ شخصاً مسيحياً للاهتمام بمثل ذلك الأمر. وعندئذٍ حدّثه آرن عن لقائه بحاخام بغداد الأعظم، وعن عواقب ذلك اللقاء، ومنها بالأحرى ما كان منها عندما كان لا يزال في القدس على رأس السلطة فيها. وقد تابع حديثه قائلاً إن للمسيحيين مكاناً مقدّساً فيها، وإنّ للمسلمين مكاناً مقدّساً فيها أيضاً. فلا غرو إذاً أن تُحْدِث المدينةُ ذلك القدر من الفتنة على المؤمنين في كلتا الديانتين. لكنْ ما سرُّ هيكل سليمان؟ فالهيكل ليس صَرْحاً أقامه بشرٌ، وهدّمه البشرُ أنفسُهم، فأيُّ قداسة يدّعيها هذا الهيكل إذاً؟

وعندما شرح له الطبيبُ اليهودي في حِلم وأناةٍ أنّ القدس هي المكان المقدّس الوحيد عند اليهود بحسب النُّبوءات، وأنّ هؤلاء سيعودون لاستعادة بلادهم، إذْ بآرن يتنهّد حزيناً متآسياً، ثمّ إذ به يُضيفُ حين رأى الحيرةَ ترتسم على وجه صاحبه الجديد أنّ الحزن والأسى ليس على اليهود بل على القدس وحدها. كانت المدينة على وشك أن تقع ما بين أيدي المسلمين، إنْ لم تكن قد آلتْ إليهم فعلاً. وبعد ذلك سيبذل المسيحيون النفْسَ والنفيس في سبيل استعادتِها، وإنْ جُرَّ اليهودُ إلى تلك الخصومة أيضاً فقد ينجرُّ المتخاصمون للاقتتال من أجل القدس لألفِ عام أو ما ينوفُ على ألف عام.

ما لبث ابن ميمون أن جلبَ كرسياً منخفضاً وجلس بالقرب من سرير آرن ليستمرّ في ذلك الحديث الذي أضحى في نظره أهمّ من كلّ ما كان ينتظره من أعمالٍ في المستشفى.

Twitter: @ketab_n

ولمّا دعاه لأن يُفصح عن مراده استحضر آرن أحاديثه مع صلاح الدين، والكونت ديموند اللذين كانا يتشاطران الرأي نفسَه، على الرغم من أنّ الأوّلَ مسلمٌ والثاني مسيحي، فالسبيل الوحيد لإنهاء تلك الحرب الأبدية هو الإذنُ بالحقوق نفسِها لكافة الحجّاج، أيّاً كان الغرضُ من زيارتهم للمدينة المقدّسة، سواء أكانت في أعينهم هي القدسُ، أو أورشليم.

"أو جيروشليم، أضاف موسَى مُبتسماً.

ـ بالطبع، قال آرن، مُسَلِّماً بالأمر. فهذا النوعُ من الأفكار هو ما راود ذهنَه عندما مَنح لحاخام بغدادَ تصريحاً لليهود بأن يصلّوا بالقرب من الجدار الغربي. لكنه لم يُقدِّر آنذاك إلى أيّ حدّ من الحدود ستكون تلك الناحية من الجدار مقدّسةً في نفوسهم. وما لبث الرجلان أن اتّفقا على القول إنه خليقٌ بهما التشبُّثُ بأوّل فرصةٍ سانحة للتحادث مع صلاح الدين، قبل أن يَفتح المدينة.

ما انفكّت صداقتُهما تتوثّقُ على امتداد الأسابيع التي تلت ذلك اللقاء، عندما ألزَم موسى آرن بالوقوف لكي يخطوَ خطواتِه الأولى. لقد رأى الطبيبُ أنّ المكوث طويلاً غير مستحبٍّ له، لكنّ العجلة غير مستحبّة أيضاً! فمن جهة قد يتفتّقُ الجرحُ، ومن جهة أخرى قد تُصاب الرِّجلُ بالوهن فتتصلّبُ إنْ امتنعتْ عن الحركة.

في البداية رضيا ببعض النزهة في الفناء، وسط أشجار النخيل ومناهل الماء والأحواض. كانت الحركةُ يسيرةً مريحةً في ذلك الفناء الذي كستْه الفسيفساء حتى جذوع النخيل. وما لبث آرن أن استعار بعض الثياب، وانطلق الرجلان في زياراتٍ حذرة داخل المدينة. ولمّا كان الجامع الكبير على مسار مرمَى حَجرين من المستشفى فقد اتخذا منه بُغْيَتَهُماَ الأولى. ولمّا لم يكنْ يحقّ للكافرين مثلهما الدخولُ إلى قلب ذلك الجامع فقد وَلَجا باحتَه الشاسعة التي أحاطت البناءاتُ بها. وأرَى موسى صديقَهُ ألواناً من فسيفساء الأعمدة الذهبية الرائعة التي تعود في الظاهر إلى عصر المسيحيين، وأراه النقوشَ بزخرفاتها العربية البديعة، ومنها السوداء والبيضاء والحمراء التي تزيّنت أرضياتُ المكان بها، وتعود بتاريخها إلى عصر الأمويين. ولَكَمْ أدهش آرن أنْ تظلّ النقوشُ البيزنطية سليمةً كاملة لم تعبَثْ بها يدُ التخريب والتقويض رغم

Twitter: @ketab_n

ما احتضنته من صورٍ لآدميين وقدّيسين. كان جليّاً للعيان أنّ ذلك الجامع الكبير كنيسةٌ في الأصل، حتى إنْ شيّدوا إلى جوارها مئذنةً شاهقة.

عندئذ قال موسى إنّ الأمر عكسُ ذلك في القدس، حيث ظلّ الجامعان الكبيران في خدمةِ الكنيسة لبعض الوقت. فقد كان من النّباهة، قال ساخراً، ألاّ تُهدَمَ المعابدُ حين تقع في قبضة مُحْتليها، لأنه يكفِي نَزْعُ الصليب من على الصومعة وإحلالُ الهلال محلّه – أو العكس، تبعاً للرابح أو الخاسر في تلك المدينة– فلو عمد كلّ طرفٍ في كلّ مرةٍ لهدْم المعابد وبناء أخرى على أنقاضها لأثقل نفسَه بتكاليف طائلة لا طائل من ورائها.

ولَمّا كان آرن لا يعرف من أمرِ عقيدة اليهود شيئاً فقد أخذهما الحديثُ إلى هذا الموضوع فعُنياً به كواحدٍ من المواضيع الأولى التي تحدّثا فيها كثيراً. ولَمّا كان آرن يُحسن القراءة بالعربية فقد جلب إليه موسى بن ميمون كتاباً بقلمه بعنوان "دليلي إلى الحائرين". ولم يكد آرن يُقبلُ على قراءة الكتاب حتى استوقفتهما محاوراتٌ ممتدّة، لأن رَبْط العقل بالإيمان، وتعاليم أرسطو بالعقيدة هو ما ابتغى موسى بن ميمون إلقاءَه في الأذهان، على خلاف ما ذهب إليه بعضُهم من ظَنٍّ أنّ الإيمانَ منفصلٌ عن العقل، وأنْ لا سبيل لإدراكه إلاّ بفعل وَحْي يُوحَى. وقد رأى أن أرقىَ ما يسعُ الفلسفة أن تدركه من غاياتٍ سامية إصلاحُ ذاتِ البين ما بين النّقيضين إلى أن يستحيلا واحداً أحداً.

تابَع آرن تلك الاستدلالات والحجج في عناءٍ جمٍّ، لأنّ عقله، كما قال، كثيراً ما افتقَر إلى الغذاء الفكري منذ شبابه، أيّ منذ الفترة التي كان يعاشر فيها فكر أرسطو يومياً تقريباً. لكنّه لم يرَ مانعاً من أنّ يُقرّ بأنّ لا شيء أعظمُ من جعْل الإيمان متصلاً بالعقل اتصالاً وثيقاً. لقد أثبتت الحروبُ باليقين الذي تَتزَلْزَلُ له النفوسُ إلى أيّ مصيرٍ يصير القومُ حين يُعْميهُمُ الإيمانُ. فأيُّ لغزٍ من ألغاز الوجود الخفية هذا الذي يجعل أقدامَ الكثير من الناس تطأ بلا انقطاع أرضًا قلّما تنعم بالاستقرار، مؤكّدين أن لا عينَ رأتْ ولا أُذنَ سمعت فيها شيئاً ممّا يُعكّرُ صَفْوَهُما؟

ما انفكّت الصداقة التي جمعت آرن بفيلسوفه الطبيب تتوطّد به أكثر فأكثر

Twitter: @ketab_n

كلّما تقشّعت في وجهه قشورُ الجروح وحلّت محلّها نُدَبٌ كبيرة حمراء. وقد عظُمت مع تلك الصداقة أيضاً قدرتُه على التفكير في أمور أخرى غير القواعد والطاعة. وقد اندهش آرن لِما جدّ عليه حتّى ظنّ أنّ الشفاءَ لم يقتصر على جسدِه وحده.

فلعلّه لم يُلْقِ بنفسه بذلك القدر من الوهج والتوقّد في أفلاك العقل العليا إلاّ لكي يَنْأى بنفسه عن ذلك الواقع المحزن الذي التفَّ حوله. لكنّ الجهود التي ما انفكّ ينهمك فيها انهماكاً هُروباً من ذلك الواقع ما لبثت أن تلاشت وتبخّرت عندما علم باقي نزلاء المستشفى أنّ مدينتي سانت جان عكة، ونابلس قد سقطتا، ومن بعدهِما بيروت وجُبيل، ثمّ ذلك الحصن أو ذاك. فلم يكن من اليُسر على مسيحيٍّ وحيدٍ أن يرى الآخرين وهم يبتهجون أيّما ابتهاج بذلك السيل من الأنباء.

وعندما عادَهُ فَخْرُ إذْ بمخاوفه تستحيل يقيناً، حتى إنْ لم تكن تلك المخاوفُ على رأس المواضيع التي تجاذبا أطرافَ الحديث فيها. لقد انفعل كلاهما باللقاء وتأثّرا، واحتضن كلٌّ منهما الآخر كأنهما أخوان، فانذهل إليهما الجميعُ أيّما انذهالٍ لأنّ كلّ واحد منهم يعرفُ أخَا صلاح الدين حقّ المعرفة. وقد ذكّره فخرُ بوداعهما في غزّة، وإنْ لم يكنْ في ذلك التذكّر من داع أو ضرورة، حين كان يتأهب لركوب السفينة التي أعادته إلى الاسكندرية بعد الأَسر، وكيف تمازحا وقالا إنهما سوف يستمتعان كثيراً بتبادل أدوار السجين والسجّان بينهما عندما يلتقيان مرة أخرى. وكان ذلك ما يفعلانه الآن، وكأنّ الربّ قد استحبّ مزاحَهما.

تظاهر آرن بالقلق والانشغال وسأل فخر إن كانت تراوده بعضُ الشكاوى، فأجابه والندمُ الزائفُ يعلو وجهَه أنّ الذي همَّه والحقُّ يقال أنّه لا يعرف إنْ كان مُضيّفوه اغتنموا فرصةَ مجيئه فأطعموه لحم الخنزير. ولم يكد يُتمُّ جُملتَه حتى ارتمى كلّ منهما في حُضن الآخر وتضاحكا كثيراً.

عاد فخرُ إلى جِديته هُنيهة وطلب من آرن أن يعِده بشرفه أنّه لن يسعى للفرار، ولن يُشهر سلاحه في وجه أيّ كان، مادام ضيفاً على صلاح الدين. فإن تصرّف آرن بما يخالف ذلك بسبب قانون الرهبنة، أو لأيّ سبب آخر فسوف يلقَى معاملة صارمة لا محالة. وأجاب آرن بأنّ ما من قاعدة في ذلك القانون تمنع جندياً راهباً

Twitter: @ketab_n

في هيكل الرّب من أنْ يَصْدُقَ في وعدِه، وأنه علاوة على ذلك لم يعد لأحدِ الحقُّ في أن يصفه بالجندي الراهب في هيكل الربّ مادام لم يعد ملزماً بخدمة الرهبانية منذ عشيّة معركة حطين.

قال فخر إنّ نجاة آرن من الموت في ذات اللحظة التي انتهت فيها تلك المعركة إشارةٌ لا ريب فيها من إشارات الربّ، لكنّ آرن ما لبث أن اعترض على تلك الشهادة قائلاً إن فضل صلاح الدين أقربُ إليه وأفضلُ من فضل الربّ عليه، حتى إن كان لا يذكر سوى القليل جداً ممّا خَبِرَهُ في تلك المعركة.

لم يَرُدّ فخر بكلمةٍ واحدة واكتفَى بأن وضع حول عنق آرن قلادةً ذهبية يُزيّنُها رقم صلاح الدين، قبل أن يمسكه من يده ويقتاده في حزمٍ متكلِّفٍ إلى الشارع. وقد أحسّ آرن في ثيابه المستعارة أنّه صار أقرب إلى العُري دون ثِقل زرديّته (درعه). والحال أنّه لولا شَعْرُهُ الأشقر الطويل الذي بدا للعيان من بعيدٍ لَوسعه ووسع فخر أن يجولا ويتمازحا دون أن يلتفت إليهما أحد. وأغلب الظنّ أنّ آرن قد أيقظ من الفضول وهو برفقة فخر أكثر ممّا أيقظه منه وهو برفقة موسى بن ميمون، وكأنّه ليس غريباً أن يخرج مسيحيٌّ ويهوديّ في نزهة معاً.

تضايق فخر قليلاً لِما أحدثاهُ من فضول من حولهما، ولذلك جرّ آرن إلى السوق الكائن بالقرب من المسجد ليبتاع قماشاً يصنع منه عمامة. ثمّ دعاه لأنْ يقتنيَ معطفاً من الحانوت المجاور، ولم يكد آرن يرى لون الفولكونغر الأزرق على أحد المعاطف التي وضعها بين يديه حتى وقع اختياره عليه فوراً. وبعد أن أنهى الرجلان شراءَ ما طاب لهما من أغراضٍ انصهرا على الفور في غمرةِ الحشد الذي أحاط بهما.

جرّ فخر آرن إلى متاهة السوق نحو فتحة تُطلّ على فناء تكدّست فيه كومةٌ من السلاح والتروس والدروع المسيحية، وما لبث فخر أن أفصح عن إرادة صلاح الدين الملحّة في أن يقتنيَ آرن سيفاً جديداً، وليته أخذ أجملَها، لأن صلاح الدين مدينٌ له بقطعة سلاح لا تُقدَّرُ بثمن. لقد كدّس التجارُ السيوف المسيحية في ثلاث أكوام متميزة، كومتين صغيرتين وكومة جسيمة. أمّا الكومةُ الأولى فقد حوت سيوفَ

Twitter: @ketab_n

النُبلاء التي يُزيّنُها الذهبُ والأحجار الكريمة. وأمّا الثانية فقد ضمّت سيوفاً أقلّ شأناً، وأمّا الكومة الجسيمة فقد اتسعت لسيوفٍ تقلُّ عن هذه وتلك قيمةً وشأناً.

تقدّم آرن بخطوة ثابتة نحو أكبر الأكوام، واستلّ منها الكثير من سيوف فرسان هيكل الربّ، الواحد تلو الآخر، ثمّ قرأ الرقم المختوم على كلّ واحد منها. ثمّ ما لبث أن اقتنى منها ثلاثةً بالحجم الذي ارتآهُ مناسباً، ثمّ قارن بعضها ببعضها الآخر قبل أن يمدّ إحداها إلى فخر في عزم لا يتخلّله تردّد أو حيرة.

تأملّ فخر في خيبةٍ ذلك السلاحِ البسيط الذي لا يملأ العين ولا تنمّقُهُ زخرفةٌ أو زينة، وقال لآرن إنّه قد حرَم نفسه من نزوة حقيقية بدافع المعاندة والمكابرة. فردّ آرن قائلاً إن السيوف لا ثمن لها إلاّ في عيون من لا يتقنون استعمالها، وأنّ السيف الذي رغب في حمله سيفُ راهب هيكل الربّ، يليق به وزناً وحجماً، تماماً كالسيف الذي فضّله على غيره من سيوف الكومة. وحاول فخر أن يؤكّد حقّ آرن في اقتناء أثمن السيوف وأجودِها لكي يبيعه ويشتري فيما بعدُ سيفاً من السيوف ذات الدينار أو الدينارين، ويحتفظ بفارق الثمن بينهما. لكنّ آرن رفض هذا العرض في ازدراءٍ متذرّعاً بالقول إنّ التصرّفَ على هذا النحو استخفافٌ بهديّة صلاح الدين.

ومع ذلك فلم يُسلّمه فخرُ السيفَ في الحال، بل ناول التاجرَ إيّاه وهمس في أذنه بشيءٍ لم يسمعه آرن. ثمّ ابتعدا عائدين إلى قصر صلاح الدين حيث أمضَيا السهرة والليل معاً. كان القصرُ في ذلك المساء على موعد بالتأكيد مع عودة السلطان من دمشق. ولعلّه رغب في رؤية القوطي حال وصوله. كذلك حرص فخر على أن يُخبِر آرن بواجب التأهب لاستقبال السلطان. لم يكن قصر السلطان ذا شأن كبير في حلقة البناءات المحيطة بالمسجد الكبير، بل كان بيتاً متواضعاً من طابقين اثنين، ولولا الحَراس الواقفون في بأسٍ أمام الباب لما خطَر لبالِ أحدٍ أنّه قصرُ السلطان. كانت الغرفُ التي طاف بها فخر وآرن شحيحةً في أثاثها المتكوّن من بُسُطٍ ووسائد، فيما كانت الجدران مزيّنةً بآيات من القرآن تسلّى آرن بفكّ خطوطها وقراءتها بصوتٍ عالٍ.

وعندما جلسا في إحدى الغرف الواقعة في قاع البيت والمطلّة على شرفةٍ طويلة

Twitter: @ketab_n

بممراتها المسقوفة، ناول فخرُ صاحبَهُ آرن ماءً نديّاً وقليلاً من الرّمان، ثمّ انتحى مكاناً وقد علَتْ مُحيّاهُ سيماءٌ لم يَصعبْ على آرن تعليلها. لقد أدرك أنّهما سينتقلان إلى الأمور الجادّة.

سعى فخرُ في عناءٍ جمّ لأن يُخفيَ شعورَ النصر حين بدأ يروي ما بقيَ من مملكة المسيحيين في فلسطين. فلم تصمدْ منها سوى صيدا وغزّة وعسقلان والقدس وبعضُ المواقع العصيّة. كان التأهبُ قائماً للاستيلاء على عسقلان وغزة، وكان صلاح الدين يتمنّى أن يشهد آرن ذلك الحدثَ عن كثب، في انتظار الانصراف بعد ذلك إلى شأن القدس، وقد كان السلطان يرغبُ أيضاً في الاستفادة من نصائح آرن. فقد يطلُب صلاحُ الدين تلك النصائح بنفسه، لكنّه يؤثر أن يُبدي آرن استعدادًا لذلك، ويقرّرَ في الحال أيَّ تصرفٍ يرتئيه مناسباً.

وأجاب آرن في حُزنٍ أنّه كان يعرفُ منذ وقت طويل أنّ الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه، وأنّ المسيحيين لن يَلُومُوا إلاّ خطَايَاهم التي قادتهم إلى الكارثة. أمَّا هُو فمن المؤكد أنّه لم يعد رهناً لأيّ يمينٍ من الأيمان، لكنْ أيُّ خطأ مفرطٍ يُقترَفُ في حقّه حين يُطلَبُ منه الانتقال إلى معسكر العدّو!

شدّ فخرُ لحيته القصيرة وأجاب وقد غَشيَهُ بعضُ التأمّل، أنّ آرن، بلا شكّ، قد أساء تفسيرَ رغبات السلطان. فالسلطانُ لا يريد منه أن يحمل السلاح حتى ينال من ذويه، بل يلتمس له نقيضَ ذلك تماماً، فالموتى من المسيحيين صاروا كُثْراً، والذين اضطرّوا للهجرة منهم أكثر وأكثر! لذلك فالأمر غير الذي دار في خَلد آرن. فلا ضيرَ إذاً من أن يُفصح السلطانُ عن ذلك بنفسه، لأن آرن قد فهم أنّ فَرَجَهُ سيحينُ حين يقدّر السلطانُ ميقاتَه. فهو بالفعل لم يعفُ عنه حتّى يُحْسِنَ قَتْلَهُ فيما بعدُ. وفوق ذلك فلم يكن آرن من أولئك السجناء الذين يُرجىَ من ورائهم ثمنٌ أو فدية، فخليقٌ بآرن إذاً أن يتحادث في الأمر مع صلاح الدين، وريثما يحينُ ذلك الحديثُ سيفكّر آرن ومَنْ يعنيهم أمرُه في ما عساه أن يفعل بحرّيته.

لم يلبث آرن أن قال إنّه لا يلتمس سوى العودة على عجلٍ إلى ذويه، لكنْ يحولُ دونه وتلك الأمنية عائقٌ أخيرٌ عليه أن يُذلّله أوّلاً: لقد صدق في وعده، لكنْ

Twitter: @ketab_n

لا أحد يُبرئُه من التزاماته سوى سيد رهبان الرّب الأعظم، إذ لولاه لَعُدَّ هارباً مِن خدمة الرّب ومُقَصّراً. وتسلّى فخرُ في الظاهر بما أبداه آرن من هَمّ وغمّ، وقال له: "لا عليك! حَسْبُكَ أن تفرك بإبهامك مصباح الزيت الذي أمامنا، مرّتين، لكي يُلبِّي في الحالّ مُرادُك !"

تطلّع آرن إلى صديقه الكردي في ارتياب، وأخذ يفتّشُ في نظراته عن تفسير لتلك الدُّعابة. لكنّ فخر اكتفى بأن أشار إلى مصباح الزيت بحركةٍ سريعة من رأسه، فإذا آرن يمدُّ يَدَهُ إلى المصباح ويفركه بإبهامه.

"أيْ علاء الدين! لقد لبّى المصباحُ أمنيتك! صاح فخرُ جذلاً. حسبُك أن تفصح عن طلبك وستنال في الحال أيّ وثيقة، موقّعةً من السيد الأعظم ومختومة بختمه!". فالحالُ أنّ هذا الشخصَ ذا الشأن والمكانة ضيفٌ علينا أيضاً، هنا في دمشق، وإن كان لا يحظَى بما ححظيتَ أنت به عندنا من مِنَّةٍ وحظْوَة. حسبُك أن تقول ما تريد وسأتكفّلُ وأُعْنَى بالحصول على توقيع منه على الوثيقة". لكنّ نبأ وجود جيرار دي ريدفور في السجن بدمشق أيضاً لم يقَعْ من نفسِه موقعَ شكٍّ، إذ لا غرو عنده أن يُحارب هذا الرجلُ حتى آخر رَمَقٍ في سبيل أُمّ الرّب. لكنْ، هل يملكُ حقاً القدرةَ على توقيع أيّ شيء؟

هزَّ فخر رأسه يميناً وشمالاً في ابتسام، وأكّد أنّ الأمر مُحقَّقٌ لا محالة، وأكّد أنّه سيُلحُّ في إنهاء الأمر عاجلاً. ثمّ أرسل في طلب أحد الخدم، وأمره بأن يُحضِرَ ورقةً وقلماً، ووَعدَ آرن بأنّه سيُعْنَى بشخصه لدى السيّد الأعظم حتى يُوقّعَ على الوثيقة.

وبعد مرور بعض الوقت أقبل الخادمُ لاهثاً وهو يحمل الأدوات اللازمة، ثم انصرف فخر عن آرن وتركه وحيدًا بعد أن أعدّ مكتباً صغيراً لكي يُحرّر فوقه تلك الوثيقة. وانصرف آرن بدوره لينذر بعضاً من الوقت للعبادة، ولإعداد الطعام.

وقف آرن بعض الوقت أمام الرّقّ الأبيض، والريشةُ في يده، لكي يتبصَّرَ أمْرَه. لقد عُهِد إليه بأن يكتب بنفسه تلك الوثيقَة التي كانت ستخلي سبيله، هناك في قصر السلطان، في دمشقَ حيث جلس القرفصاء على وسائدَ ناعمة، أمام طاولة سورية منخفضة.

Twitter: @ketab_n

ففي كثير من المرّاتِ، فيما مضَى من السنواتِ، حاول عبثاً أنْ يتخيَّلَ لحظاتِه الأخيرة، هو الرّاهبُ الجندي في خدمة الرّب.

ما لبث آرن أن استدركَ أمرَه وشرع بيَدٍ واثقةٍ يكتب على عجلٍ ذلك النصّ الذي اعتاد أن يكتب مثلَه أكثر من مرّة، عندما كان سيداً على القدس. بل قد أبرز فيه مقطعاً بعينِه كان يحفظه عن ظهر قلبٍ يقول فيه إنّ هذا الفارس الذي يُنهي خدمتَه في جيش الرّب المقدّس، مكرّمٌ مبجّل، قد صار حرّاً طليقاً في أنْ يستعيد حياتَه السابقة، وأنّ من حقِّه أيضاً، إنْ عنَّ له ذلك، أن يعود مرّةً أخرى لِردَاء راهب هيكل الرّب، المطابقِ لرُتبته ساعةَ مغادرته الرهبانية.

قرأ النص ثانيةً وتنبّهَ إلى أن جيرار دي ريدفور لا يعرف اللاتينية، فأضاف إلى النصّ ترجمةً باللغة الفرنجية.

ولمّا رأى في الرسالة متّسعاً رغبَ في إضافة ترْجمةٍ ثالثة، بالعربية هذه المرّة، إكراماً لذلك المعلّم الكبير الذي لم ينل من العلم إلاّ قليلاً.

حرّك الرقَّ في الهواء حتى يجفَّ الحِبْرُ ثمّ جال بنظرِه في اتجاه الشمس فأدرك أنّ ساعتين كاملتين تفصلانه عن صلاة المساء، صلاة المسلمين والمسيحيين على السواء. وعاد فخرُ فأخذ الوثيقةَ ثمّ أخذ يُقهقه حين رأى النصَّ العربي عليها. ثمّ قرأ النص قراءةً سريعة وتناول الريشة حتّى يُهذِّبَ بعض علامات اللفظ المغلوطة فيه. ثمّ أمسك بآرن من ذراعه ليجُرّهُ من جديد إلى طرقات المدينة، لكي يبوح له في ابتسام ملؤه الرضا أنّ مزحتَهُ في حقّ المعلّم الكبير طيبةٌ مستحسَنة. ثمّ عَبرَا معاً كتلةً من البيوت ووصلا إلى البيت الذي حُبِسَ فيه كبارُ المسيحيين. كان البيتُ أكْبَرَ وأفخم من بيت صلاح الدين. كان عليهما بطبيعة الحال أن يجتَازا أبواباً عديدةً يحرُسُها الرجالُ والأقفالُ، حتى إنْ عَصِيَ على الخيال أنْ يرى ما الذي يمكن أن يفعله معلّمٌ كبير هارب من الأسر حين يلتقي بطرقات دمشق. لكنّ فخر أوضح أنّ تلك التدابير لا طائل من ورائها، لا سيما أن المعلّم الكبير والملك قد أعلنا كلاهُما في غرورٍ جمٍّ أنّ الأيمانَ التي قطَعاها في حقِّ الكافرين أيمانٌ باطلة.

كان الأسيران يقضيان أيّامهُما في قاعتين بهيّتين، مفروشتين بأثاثٍ من الطراز

Twitter: @ketab_n

المسيحي. كانا جالسين إلى طاولةٍ صغيرة من الخشب المنقوش، يلعبان الشطرنج، عندما دخل عليهما فخر يرافقه آرن، بعد أن أُغلقت من خلفهما الأبوابُ وعَجَّ ضجيجُ الأقفال.

ألقَى آرن إليهما التحيةَ في تأدُّبٍ متواضع، مُكتفياً بالتذكير أنّ قانون الرهبانية يحظر لعب الشطرنج على حُرّاس هيكل الرّب. ثمّ أضاف أنه لن يزعجهما كثيراً، لأنه لم يأتِ إلاّ لكي يلتمس توقيعاً على وثيقة! ثمّ قّدم الرقَّ لجيرار دي ريدفور في انحناءٍ لا إفراط فيه. ومن غريبِ ما رآه آرن أنّ جيرار دي ريدفور قد أبدى من الدّهشة والاستغراب لِما أبداه آرن من سوءِ القول أكثر ممّا أثاره في نفسه من سخط وغيظ.

تظاهر جيرار دي ريدفور بقراءة النصّ وقطّب حاجبيه كأن فحواه أغرقته في تأمّل عميق. وكما تحسّب آرن فقد بادره بالاستفسار عن ذلك النصّ بسؤالٍ صاغَهُ صياغةً تجعل الإجابةَ عليه توضّح له القصدَ من وراء ذلك النص الذي لم يفهم منه كلمةً واحدة. وتناول آرن النصَّ وقرأَ ترجمتَه باللغة الفرنجية، قبل أن يضيفَ بأنّ الأمر كلَّه طبيعيٌّ جداً، ما دام ارتباطه بفرسان هيكل الرّب ليس ارتباطاً مُؤبّداً. والحال أنّ فكَّ الارتباط ليس شذوذاً ولا استثناءً.

ثم إذا بجيرار دي ريدفور يستشيط غضباً، متأفّفاً متذمّراً، قائلاً إنّه لن يُوقّعَ الوثيقةَ، مؤكداً أنّ سيّد القدس السابق إنْ عنَّ له أن يهجُر الرهبانيةَ فتلك مسألةٌ بينه وبين ضميره. ثمّ رماهُ بإشارةٍ من يدِه ليأذن له بالانصراف. ثمّ أخذ يُنعم النّظرَ في رقعة الشطرنج كأنّه يتأمل عن قصدِ حركته القادمة. لكنّ الملك لم يقلْ شيئاً، مكتفياً بالنّظر في ذهول إلى السيد الأعظم الذي اكتسى بِثوْب الرهبانية، وإلى آرن الذي تحلّى برداء أهل الشرق.

حَدَسَ فخرُ الوضعَ بما فيه الكفاية وارتأى أنّ الوقتَ قد حان لكي يطرقَ البابَ. وفُتِحَ البابُ فهَمَسَ ببعض الكلمات المقتضبة قبل أن يُوصدَ البابُ في وجهه مرّةً أخرى.

ثمّ دنا من آرن وقال له بصوتٍ منخفضٍ، كأنّه خشِي أن يفهمه الآخران، أنّه

Twitter: @ketab_n

جاء لغايةٍ لن يُطيل فيها كثيراً، اقتضتْها ما رآهُ من حكمةٍ في الاستعانة في ترجمة النص بشخص آخر غيره.

ولم يكد آرن يغادر الغرفةَ ويدُ فخر على عاتقه حتّى رأى أمامه رجلاً سورياً تَنُمُّ هيئتُه وملْبسُه عن رجل تاجرٍ لا يعلوه أيُّ مَلْمَحٍ من ملامح الجُند.

لكنْ لم ينفُدْ صبرُه في الانتظار، إذ ما لبثَ فخرُ أن فتحَ البابَ من جديد لكي يسلّمه الوثيقة موقّعةً بيد السيد الأعظم، ومختومةً بختمه. وهكذا منحه نصفَ حرّيته وهو يُمعِنُ في الانحناء له.

- ما الذي قلتَ له حتّى يغيّر رأيه بهذه السرعة؟ سأل آرن في فُضول، وهما عائدان إلى قصر السلطان، عبر شارعٍ مكتظٍّ ما انفكّت جموعُ الناس فيه تتضخّمُ بأعداد مَنْ كانوا في طريقهم لصلاة المغرب.

_ أوه، لا شيءَ ذا شأنٍ البتّة، أجاب فخر كأنّ الأمر تفاهة. فالأمرُ ببساطة أنّ السلطانَ يُحَبِّذُ أنْ يُقدِّمَ العونُ لراهبٍ من رهبان الرّب يراه خليقاً بالتقدير. لكنّ السلطان إنْ رأى العكس سيغتاظ لا محالة. أو هكذا الأمر تقريباً.

لم يتبيَّن آرن سِّر ذاك الذي يمكن أن تنطوي عليه مثل تلك الصيغة، لكنّه حدّث نفسه قائلاً: عسى فخر عرض الأمر عرضاً لم يخلُ من بعض الشدّة والقسوة.

وعند المساء عاد صلاح الدين على رأس أحد جيوشه، قُبيل صلاة المغرب بقليل، فهتف له الناس على طول الطريق المؤدّي إلى المسجد الكبير، لأنه أثبت أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى أنّه خليقٌ بلقب الملكِ المنتصر.

وعند الغروب صلّى إلى جانبه عشراتُ الآلاف من الرجال والنساء. ولم يَسَعْ فضاءُ المسجد على سعتِه أعدادَهم الغفيرةَ فصلّى جزءٌ كبيرٌ منهم في الباحة المحيطة به.

وبعد الصلاة عاد على ظَهْر حصانه إلى القصر بمفرده. فقد قال لأمرائه ولكلّ من رغبوا في رؤيته لتسويةِ مسائلهم الكثيرة بأنّه يحبّذ الانفرادَ بنفسه مع نجلِه وأخيه. فما أحوجه إلى ذلك الانزواء بعد أن أمضى أكثرَ من شهرين في الريف لم ينعم فيهما بِوهلةٍ يخلو فيها لنفسِه. ولم يجد أحدٌ بأساً في أن يُسلِّم بحجّتِه ويُصغي لكلامه.

Twitter: @ketab_n

وعندما وصل إلى قصره أخيراً وبدأ يحتضن الأصحابَ والأقاربَ بدا أكثرَ عزماً على إرجاءِ أحوال المملكة في ذلك المساء. وقد بدا أكثر اندهاشاً بل أكثر اضطراباً حين وجد نفسَه فجأة مع صديقه وجهاً لوجه!

"إنَّ مَن غَلَبْتَهُ يقدّم لك التحية، أيّها الملك المنتصر"، قال آرن بوقارٍ جمّ. وما لبث الضجيجُ المبتهجُ من حولهما أنْ هدأ فجأة. تردّد صلاح الدين هنيهة قبل أن يغيّر رأيه ويخطو خطوتين إلى الأمام ليأخذ آرن ما بين ذراعيه، ويُقبّله على الخدّين، تحت همسات الحضور.

"تحيةً إليكَ أيّها الراهب في هيكل الرّب، أنت من أهداني النّصرَ أكثرَ من أيّ شخص آخر"، أجاب صلاحُ الدين وهو يشير إلى آرن بأنْ يرافقه إلى قاعة العشاء.

وفي الحال جيءَ بأطباقِ الأكل الفاخرة: حَمَامٌ وسُمَانَى مشويّة، وغرّافاتٌ كبيرةٌ من الذهب والفضّة، يُغلّفُها البخارُ بسبب الماء البارد الذي امتلأت به.

بالقرب من صلاح الدين وآرن جَلَسَ الأفَضْلُ، نجلُ السلطان، وهو شابٌّ ضعيفُ البنية، حادّ البصر، خفيفُ الذقن. وما لبث هذا الفتى أن استسمح آرن في أن يُلقيَ إليه سؤالاً.

هل صحيحٌ كما قال له أحدُ الأمراء عندما كان على رأس سبعة آلافٍ من الفرسان، بالقرب من عين "كريسون" قبل عام، أنّ القوطي هو الذي حَمل لواءَ فرسان هيكل الربّ في تلك المناسبة؟

ولمّا لم يكن آرن قد نسِي رعونةَ الهجوم الذي فرضه جيرار دي ريدفور، ولا ذلك الفرار المخزي الذي شارك هو فيه، فقد تضايق وانزعج وهو يقرّ أنّه مَن حَمل رايةَ فرسان هيكل الربّ أثناء ذلك الانسحاب.

لم يندهش الأميرُ للأمرِ كثيراً، وكشف أنّه قد أمَر الأُمراءَ جميعاً بأن يقبضوا على القوطي حيّاً، أما الذي ظلّ عصيّاً على فَهْم الأمير، سواء أثناء الهجوم أم من بعدِه فهو أمرُ أولئك الفرسان المسيحيين الذين ألقوا بأنفسهم إلى الموت من دون رويّة.

عمّ الصمتُ حول الطاولة في انتظار ما يردُّ به آرن الذي احمرّ خجلاً لأنّه لا يملك إجابةً واحدة. فقد هزَّ كتفيه إذاً قبل أن يقول أنّ ذلك الهجوم كان أكثرَ

Twitter: @ketab_n

جنوناً ممّا كان مُتصوَّراً. لقد فقد فرسان هيكل الربّ رُشدَهم، ولا شكّ أنّ تلك المعركة برهانٌ ساطع على ما يحدث عندما ينتهجُ الإيمانُ والعقلُ مناهجَ متعارضة لا سبيل لالتقائها عند أيّ نقطة. فذاك ما يحدث أحياناً فلقد رأى مسلمين يتصرّفون على ذلك المنوال أيضاً، لكن ليس بمثل تلك الرعونة في تلك المرة. وقد أضاف في استهجانٍ لا يحتمل أيّ تأويلٍ أنّ جيرار دي ريدفور هو الذي أمَر بالهجوم وهو الذي قرّر الانسحابَ فور إعلان الهجوم بعد أن أرسل جنوده إلى الموت. ثمّ أضاف في استحياءٍ أنّ حامل الراية لم يكن يملك سوى أنْ يتبع قائده حتى ولو في الفرار.

في الصمت المرتبك الذي تلا قال صلاح الدين إنّ الله قد دبّر الأمورَ خير تدبير، فكان خيراً له ولآرن أنْ لا يُكتَبَ الأسْر لهذا الأخير على مشارِفِ قَرنَيْ حطّين إلاّ في معركة سابقة. ولم يفهم آرن في الحال ذلك الذي رمَى إليه صلاح الدين، لكنّه لم يرغب في مدِّ النقاش والإطالة فيه بطرْح سؤال جديد.

وعاد صلاح الدين ليؤكّد في إلحاحٍ رغبتَه في أن يخلوَ لنفسه مع ابنه وأخيه وآرن. ولبّى الحضورُ رغبتَه في الحال. وانتقلوا إلى غرفةٍ أخرى وتمددوا على وسائد مريحة ترافقهم أباريقُ الماء الصاقع الفضيّة. وتساءل آرن في حيرةٍ عن مصدر ذلك الماء اللذيذ، لكنه أحجم عن الاستفسار والسؤال في أمور مسلَّم بها في وقتٍ كان الجميعُ يتهيّأُ بكلّ تأكيد للحديث في مسائل الجدّ – وإنْ كان يستعصي عليه حتى تلك اللحظة التنبؤُ بها.

– رجلٌ اسمه إبراهيم بن عنازة جاء ذات يوم يطلب لقائي، قال صلاح الدين بهدوءٍ في البداية. جاء يحمل إليّ أغربَ هدية تسلّمتُها في حياتي: سلاحٌ يحمل عندنا اسمَ سيف الإسلام كان قد اختفَى منذ زمن طويل. أأنتَ مُدركٌ لِما فعلتَه حقاً يا آرن؟

ـ إنّي أعرف إبراهيم، قال آرن في حذرٍ شديد. إنّه صديق! لقد خطَر له أن يُهديني هذا السيف، بيد أنّي كنتُ على يقينٍ بأنني لم أكنْ جديراً به. لذلك قلتُ له أنْ يحمله إليك يا يوسف. ولا يسعني القولُ بدقةٍ ما الذي دفعني لفعْل ذلك،

Twitter: @ketab_n

لكنّي أطعتُ دافِعاً في نفسي، في غمرةِ غموض تلك اللحظة. ولَكَمْ يسعدني القولُ إنّ إبراهيم قد لبّى أمنيتي.

ـ لكنّك لم تفهم ذلك الذي فعلتَه يا آرن، ردّ صلاح الدين بصوت منخفض.

ثم إذا بآرن يلحظ الصمتَ المتوتّر يُخيّم على الغرفة.

ـ لقد أحسستُ أنّي قد تصرّفتُ كما يليق بي أن أتصرّف، أجاب آرن. سيفٌ مقدّسٌ أُعِدَّ للمسلمين ليس سيفاً يخصّني. فذاك على الأقل ما قلتُه لنفسي. ليس عندي تفسيرٌ آخر، ومَن يدري فلعلّ الربَّ هو الذي ألهمني ذلك الفعلَ حقاً!

ـ إنّي أعتقد ذلك فعلاً، قال صلاح الدين في ابتسام. فكأني أرسلتُ إليك ما يُسمّى عندكم بالصليب الحقّ. فالمكتوبُ عندنا أنّ مَنْ استردَّ سيفَ الإسلام سوف يُوحّد المؤمنين وينتصر على الكافرين.

ـ فإذا كان الأمرُ كذلك، قال آرن في اضطراب فلستُ أنا الجديرَ بهذا الشكر، بل هو الربّ ذاته الذي ألهمني هذه الفكرة. فأنا لم أكن سوى أداةٍ متواضعة بين يدَيه الجليلتين.

ـ ربما، لكنّني مع ذلك مدينٌ لك بهذا السيف، يا صديقي. وليس غريباً أن أظل أشكرُ فضلَك هذا؟

ـ أنت لا تدينُ لي بشيء يا يوسف. لقد أعطوني سيفاً عوضاً عنه.

ـ لا بالعكس! لنفترِضْ أنني أعطيتك ما تسمّونه أنتم بالصليب الحق. فلن تعتبِر نفسَك خالصاً من دَيْنٍ وأنت تُقدّم لي قطعةً من الخشب لا تضاهيها أيُّ قطعة نَقْشاً وجمالاً! لكنْ، لنقفِزْ الآن فوق مسألة الدَّين هذه. إني أريد أن أطلب منك خدمة.

ـ إذا كان ذلك يُرضي ضميري فلن أتأخّر في تقديم أيّ خدمة، وأنت تعرف هذا يا يوسف، لأنني أَسِيرُكَ، ولا سبيلَ لأنْ تحصل عنّي على أيّ فدية.

ـ علينا أولاً أن نأخذ عسقلان، ثمّ غزّة، ثمّ القدس. أبْتَغِي منك أن تمُنَّ عليّ بنصائحك في هذه الأحداث المختلفة. وبعد ذلك ستصبحُ حرّاً طليقاً، ولن تجد فيَّ ناكراً للخير جاحداً للمعروف. هذه هي الخدمة التي أنتظرُها منك.

Twitter: @ketab_n

ـ إنّ ما تطلبه مني خطيرٌ جداً يا يوسف، أنَّ آرن أنيناً ينمُّ عن ضيقٍ بالسؤال. إنّ ما تطلبه منّي هو الخيانة بعينِها!

ـ لا، ليس الأمْر كما تظن، أجاب صلاح الدين في هدوء. لستُ ألتمسُ عونَك لكي أعرّض المسيحيين للموت. فأنا أملك كلّ المساعدة الضرورية. لكنّني لم أَنْسَ ما قلتَه لي عند لقائنا الأوّل، حين وجدتُني مرتبطاً بك بدَيْن العرفان لأوّل مرّة. لقد قلتَ أمراً ظلّ يراود ذهني أكثر من مرة تحدّثتَ فيه عن نظام فرسان هيكل الربّ: "عندما تستلُّ سيفَك لا تُفكر في مَنْ ستقتُله. وإنما فكّرْ في مَنْ ستنقذُ حياتَه!" أفهمتَ الآن ما قصدتُه؟

ـ تلك قاعدةٌ حكيمةٌ حقاً، لكنّك لم تُشْفِ سوى نصفِ غليلي، فلستُ أتبيّنُ بوضوحٍ كاملٍ ما تريد قولَه، يا يوسف!

ـ القدسُ رهن إشارتي! صاح صلاح الدين وهو يمدُّ قبضةَ يده تحت أنفِ آرن. فالمدينةُ سوف تسقط حين أريد لها أن تسقط! أيّ بعد عسقلان وغزّة. فالانتصار أمرٌ وكيف نحسنُ الانتصارَ أمرٌ آخر! أمّا ما هو خيرٌ أو شرٌّ في هذه المسألة فتلك مسألة أرى واجبَ الحديث فيها مع شخص آخر غير أمرائي! أمرائي الذين أيقنوا أنّ عليهم أنْ يفعلوا كما يفعل المسيحيون.

ـ قتْلُ كلّ البشر والدواب، ولا بقاء إلاّ للذباب، قال آرن مطرقاً.

ـ وماذا لو حدث العكس، قال فخر الذي حشَر نفسه لأوّل مرّة في النقاش، من دون أن يجرّهُ أخوه إليه. ماذا لو كنّا مَن أخذ القدس قبل بضع عشرات من السنين؟ وماذا ل كنا عاملنا المدينةَ كما فعلتم؟ تُرى، كيف تفكّرون وتُدبرّون في معسكركم، أمام أسوار المدينة المقدّسة، وأنتم تعلمون أنكم ستستعيدونها قريبًا؟

ـ بلا صواب ولا رشد، قال آرن في وَجَم ملؤه التقزّز والاشمئزاز. إنّ رجالاً أمثال الرجُلين اللذين تحتجزونهما، جيرار دي ريدفور وغي دي لوسينيان، سوف يجدان لأوّل مرّة ما لا يمكن أن يختلفا فيه بتاتاً. فلا أحد سيعارضُهما، لا أحد إطلاقاً، عندما يقولان إنّ ساعة الانتقام قد دقّت، وإنّ الوقت قد حان لكي يُسيئوا إلى العدو بأسوأ ما أساء به هذا العدوُّ إليهم عندما دنّس المدينة.

ـ ذاك ما نُفكِّرُ به جميعاً ما عدا أخي يوسف، قال فخر. هل في مقدورك أن

Twitter: @ketab_n

تقنعنا بأنّه مخطئٌ حين يعتقد أنّ الانتقام خطيئة؟

ـ إنّ الرغبة في الانتقام واحدةٌ من أقوى ما يتوقُ إليه الكائنُ البشري. فهكذا جُبل المسيحيون والمسلمون على السواء. ولعلّ الأمر كذلك عند اليهود أيضاً. وأوّلُ حجّةٍ نواجه بها هذه الجَبَلة القولُ إنّه خيرٌ لنا أنْ نسلك سلوكاً أنبلَ من سلوك العدوّ الذي أبدى كُفراً وتجديفاً. لكنّ آذان من يظمؤون إلى الانتقام لن تستسيغ مثلَ هذه الحجّة. أمّا الحجةُ الثانية فقد سمعتُها على لسان أحد المسيحيين، الكونت ريمون، مثلما سمعتُها من أحد المسلمين ألا وهو يوسف، وهي أنّ الحرب لن تتوقَف ما دامت المدينة المقدّسة لا تفتح أبوابَها أمام كلّ الحجّاج، بمن فيهم اليهود. لكنّ آذان من يظمؤون للانتقام لن تستسيغ مثلَ هذه الحجّة أيضاً، لأنهم يرغبون في سفك الدماء فلا يُبالون بما هو آتٍ في قادم الأيّام.

ـ هذا ما خلُصنا إليه نحن أيضاً، قال يوسف، ونحن متّفقون معك في القول إنّ من يظمؤون إلى الانتقام — وما أكثرهم- لا يأبهون لا بوعود الشرف ولا بالحروب الأبدية. فما الذي يمكن قولُه أكثر من ذلك في مثل هذه الأحوال؟

ـ شيءٌ واحد، قال آرن مقاطعاً. كلُّ المدن يمكن أن تسقط. القدس وباقي المدن! وهذا ما تتهيّؤون أنتم له حالياً. لكنّ الاحتفاظ بها ليس أسهلَ من الاستيلاء عليها. لا بدّ إذاً من أن تسألوا أنفسكم: ماذا عسانا فاعلين بالانتصار؟ هل نحنُ أجدرُ بالحفاظ على المدينة المقدّسة وصيانتها؟

ـ في هذه الأثناء وفيما لا يَحتَفِظُ المسيحيون في الأراضي المقدّسة إلاّ بمدنٍ أربعٍ ستؤول إلينا ثلاثٌ منها قريباً، لا أحد يُعلّل النفسَ بشكوكٍ حول ما يحتمله السؤالُ من إجابة، قال صلاح الدين. إذاً ما الذي يمكن أن يُقالَ غير هذا؟

ـ هناك شيء، قال آرن، هل ترغبون في أن تظلّ القدس بين أيديكم أكثر من سنة واحدة؟ في هذه الحالة هل سألتم أنفسَكم إنْ كنتم تأملون في رؤية عشرة آلاف فارس فرنجي في البلاد، في العام القادم، أم أنّكم تفضّلون أن يأتي إليها مئة ألف. فليس أمامكم سوى أن تصنَعوا بانتصاركم ما صنعه المسيحيون بانتصارهم من قبلكم: قتلُ كلّ ما هو حيٌّ. أمّا إذا كنتم ترغبون في الاكتفاء بعشرة آلاف فقط

Twitter: @ketab_n

فُخذوا المدينة واستعيدوا أماكنَكم المقدّسة فيها، وصُونوا قَبْرَ السيّد المسيح، ودَعوا مَن شاء أن يغادر المدينةَ أن يفعل. إنها مسألة حسابية بسيطة: مئة ألف فرنجي أو عشرة آلاف فقط؟ فماذا ستفضّلون؟

مكثَ الرجالُ الثلاثة الآخرون غارقين في صمتٍ طويل. وما لبث صلاح الدين أن نهض، ثمّ تقدّم نحو آرن فرفعه من على كرسيّه وأخذه بين ذراعيه. وكما هي عادتُه، فما شهد حدثاً مؤثّراً، أو فظّاً، أو جميلاً، إلاّ وأخذ في البكاءُ فيه. لقد كانت دموعُ صلاح الدين ذائعةَ الصيت في عالم المؤمنين. سواء من قبيل السُّخرية منه، أو مَدْحاً فيه وإطراءً!

"لقد أنقذتني، ومنحتني ما أستحقّه من أسباب الوجود. وعلى هذا النحو سوف تُنقذ الكثيرين من الأرواح في القدس، في الشهر القادم. ولعلّك منحتنا أيضاً مُلك المدينة إلى نهاية الزمان"، قال صلاح الدين ما بين جُرعتين من البكاء.

وتأثّر أخوه وابنُه بدموعه أيّما تأثّر، لكنهما تمالكا نفسَيهماواحتبسا دُموعَهما.

* * *

بعد مرور شهر صار آرن في عِداد جيش صلاح الدين، أمام أسوار عسقلان. لقد لبس حُلّته القديمة بعد أنّ رُتِّقَت ونُظِّفت ورُقِّعت، ومن فوقها زرديّته، حتى بدت تلك الحُلّةُ أبهَى ممّا كانت عندما خسرِها. لكنّ آرن لم يكن وحده يحمل معطفَ جنود هيكل الرّب، لأنّ جيرار دي ريدفور كان معه أيضاً، يُرافق صلاح الدين، وكذلك غي دي لوسينيان، لكنَّ الرفيقَين كانا أقرب ما يكونان إلى متاع ثمينٍ في جيش صلاح الدين، وأبعد ما يكونان عن فارسين من فرسانه. لقد جثم كلاهما فوق صهوة الجمل وتماسكا ما وسعهما التماسك. وقد عنّ لصلاح الدين أنّ رُكوبهما مطيّةً لا يُحسنان حثّها على الركض أأْمَن له من ركوبهما فرسيْن من أفراسه. ولَكمْ تسلّى المسلمون بمنظر السّجينَين وهما يحاولان إخفاءَ الألم الذي ما انفكّ يُخز ردفيهما، ويجتهدان في أن يحتفظا بقليل من الوقار والرزانة، على رأس

Twitter: @ketab_n

قافلة وليس فرقةٍ من الخيّالة.

كان صلاح الدين قد استقدَم إلى عسقلان أسطولاً من الاسكندرية. وعندما وصل المسلمون براً كان الأسطولُ راسياً مهيباً أمام المدينة. لكنّ الأسطول بدا أكثر مهابةً ممّا هي الحقيقة، لأنه لم يكن إلاّ سُفُناً تجاريةً لم تحملْ جُنْداً ولم تَحْوِ أجوافُها أيّةَ أمتعة.

وعندما نصب الجيشُ معسكرَه أمام الأسوار طلب صلاح الدين إلى غي دي لوسينيان أن يتقدّم نحو باب المدينة، ويصرُخ في سكّانها أن يستسلموا ويُلقوا الأسلحة، لأنهم إنْ فعلوا فُكَّ أسرُ الملك وصار طليقاً. لكنْ ما قيمةُ مدينة أمام ملكٍ شخصياً؟

فما كان سكّان المدينة إلا أن أعلنوا أنّ المدينة أغلى وأسمَى. وما لبثت كلماتُ الملك أن أثارت وابلاً من الفواكه العفِنة ومن الفضلات ألقاها السكّانُ عليه من بُرج القلعة، وقد سخروا منه كما لم يسْخر أحدٌ من مَلِكه يوماً!

تسلّى صلاح الدين بذلك المشهد أكثر ممّا اغتاظ للنتيجة، ثمّ ترك للجزء الأكبر من جيشه أمْرَ إعداد الهجوم على المدينة، وواصل السير نحو مدينة غزّة.

على قمة أسوار تلك المدينة وقف قليلٌ من جنود هيكل الرّب بمعاطفهم البيضاء، وكثيرٌ من الرقباء، غير آبهين بذلك الجيش المهيب الذي نصب خيامَه أمام أسوارهم، لأنّ الأمر لا يدعو إلى قلقٍ أو وجل. فالعدوّ لا يملك مجانيق ولا غيرها من الوسائل يضرب بها قلاعهم.

لم ينل منهم مزيدٌ من التأثّر والانفعال أمام مشهد سيّدهم الأعظم عند باب المدينة. فقد توقّعوا بالفعل وعيداً بقتل سيّدهم تحت أعينهم إن هم أبوا الخضوع ولم يستسلموا. لكنّ التأثّر بمثل هذا الوعيد لا حيّز له في قلوبهم. فالأصول في مثل هذه الحال واضحة جليّة: فجنديُّ هيكل الربّ لا يُبدّلُ ذهباً ولا بسجناء آخرين، ولا تحت الضغط. فلا يملك سيدٌ أعظمٌ سوى الموتِ بلا تبرمٍ و لا خوف. وما أقلّ الذين سيذرفون الدّمع وهم يرون رأس جيرار دي ريدفور يتدحرج في التراب.

Twitter: @ketab_n

وأيّاً كان الذي سيخلفه فلن يكون أسوأ من ذلك المعتوه المتسبّب في تلك النوائب والهزائم المريرة.

لكنْ كم ذُهلوا وانبهروا حين رأوا غير الذي توقّعوا. فقد تقدّم جيرار دي ريدفور وأعطى وهو السيدُ الأعظمُ، الأمرَ بإخلاء المدينة فوراً. فلم يترك لأحدٍ من أتباعه سوى أن يأخذ سلاحَه وحصاناً ويترك ما بَقِيَ ومنه ما امتلأت به الخزائنُ من الذهب والفضّة في مكانه في المدينة. فلا أحد يجهل أنّ الأصول تحرّم أيَّ خروجٍ عن طاعة السيّد الأعظم.

وبعد مرور ساعةٍ واحدة انتهى الجلاءُ عن المدينة، وشهد آرن ذلك الاستعراض الحزينَ، وذرف فيه دموعَ الخزي والعار والحسرة.

وعندما اجتازت آخرُ مطايا طابور جنود هيكل الرّب، بوّاباتِ المدينة، أَمَر صلاح الدين بإعطاء السيّد الأعظم حصاناً عاديّاً. وبابتهاج وسخرية ودّعه وتمنّى له سفراً ميموناً. لكنّ جيرار دي ريدفور لم يجبْ بكلمة واحدة، واستدار على الفور منطلقاً نحو فرسانه الذين أخذوا في الابتعاد بخطىً بطيئة نحو الشمال على طول نهر غريف، مثل كوكب جنائزي، إلى أن لحِق بهم وتبوّأ مقدّمةَ الطابور من دون أن يُكلّم أحداً.

عندئذٍ حقَّ لصلاح الدين أن يبتهج بانتصارين كاملين. لقد وسِعه بفضل رجلٍ جَبانٍ أن يغزوَ غزّةَ وخزائنَها المملوءة، وفوق ذلك استطاع أن يضع جيرار دي ريدفور على رأس مَن بقِي من جنود هيكل الرّب حيّاً. لذلك فهذا الرجلُ أفضلُ ضمانٍ ممكن لانتصارات العرب المسلمين القادمة.

هرع جنود صلاح الدين إلى داخل المدينة التي باتوا يتحكّمون فيها. لكنّ بعضهم ما لبثوا أن خرجوا منها وتوجّهوا نحو صلاح الدين، هائجين مذعورين، ومعهم حصانان قالوا إنهما عنازيان. فلا صلاح الدين ولا الخليفةُ في بغداد يملكان أحصنةً تُضاهي هذين الحصانين رشاقةً وجمالاً.

وأعلن صلاح الدين أن بهجته بهذه الهديّة أعظمُ من بهجتِه بكلّ الذهب الذي حوته خزائنُ جنود هيكل الرّب في داخل القلعة. لكنّه ما لبث أن سأل دوريةَ

Twitter: @ketab_n

الجند إنْ كان الحصانان من فصيلة العنازة حقاً، وهو ما لم يحتمله في مدينة احتلّها جنودُ هيكل الرّب، فجاءَهُ الردّ من آرن، مؤكّداً أنّ الحصانين كذلك حقاً، لأنهما الحصانان اللذان تلقّاهما في ما مضى ومعهما السيف المقدّس، هديّةً من لدن إبراهيم بن عنازة.

وفي الحال أعاد صلاح الدين الحصانين إلى صاحبهما.

وبعد مرور ثلاثة أيّام سقطت مدينةُ عسقلان، وفيها حرص صلاح الدين على ألاّ يصيب سكانَها سوءٌ، وظلّ يرعى المدينة حتى قبل استلامها. لكنّه ما لبث أنْ أبحر بالسكّان على ظهر سفنٍ قادتهم إلى الاسكندرية. ولمّا كان لهذه المدينة صلاتٌ تجارية مع بيزا وجنوَة على الجانب الآخر من البحر فلن تتأخّر كثيراً عودةُ إفرنجة عسقلان إلى بلادهم. فلم يبقَ بعد سقوطها سوى فتحِ صيدا والقدس المقدّسة.

* * *

في يوم الجمعة ٢٧ رجب، تاريخ ذكرى معراج الرسول عليه السلام إلى السماء، بعد رحلته الليلية العجيبة، دخل صلاح الدين إلى مدينة القدس فاتحاً. وقد جاء ذلك اليوم موافقاً في التقويم الميلادي ليوم الجمعة ٢ أكتوبر (تشرين الأوّل) من عام ١١٨٧ المغضوب عليه.

كانت المدينة بلا حماية. وكان الفارس الوحيد وقليل الشأن فيها خارج نظام هيكل الرّب، يدعَى بِليان دِبلين. لم يكن تحت إمرةِ هذا الرجل سوى فارسين اثنين للمهام الدفاعية. ولذلك السبب درَّعَ كلّ الشباب ممّن بلغوا من العمر ستة عشر عاماً. إلاّ أنّ المقاومة في مثل هذه الظروف عبثٌ سوف يُطيل العناءَ والعذاب لا محالة. لقد جاء أكثرُ من عشرة آلافِ شخصٍ من الأنحاء المجاورة ولجأوا خلف الأسوار خلال الأسبوع الذي سبق وصول صلاح الدين إلى المدينة. ولم يزد ذلك حالةَ المدينة إلاّ سوءاً بسبب ما آلت إليه من نقص في الماء والغذاء.

لكنّ المدينة لم تُسلَّم للسّلب والنهب، ولم يُقتَل أحدٌ من سكّانها.

Twitter: @ketab_n

وقد حُقَّ لعشرة آلافٍ من الحَضر أن يستعيدوا حرّيتَهم مقابل عشرة دنانير عن كلّ رجل، وخمسة عن كلّ امرأة، ودينار واحد عن كلّ طفل. وقد هُيِّئَ لهؤلاء جميعاً أنْ يأخذوا أمتعتَهم عند الرحيل عن المدينة. لكنّ عشرين ألفاً آخرين مكثوا في القدس لعدم قدرتهم على الدفع. ولم يسعهم أيضاً أن يستدينوا مبلغَ الفدية من البطريرك هيراقليوس، ولا من أفراد جمعية الفرسان الذين فضّلوا، مثل المطران، أن يحملوا كنوزَهم على عربات كبيرة، بدلاً من إنقاذ إخوتهم وأخواتهم في المسيح، من العبودية التي باتت تهدّد مَن كان لا يملك منهم وسيلةً لشراء الحريّة.

وما أكثر أمراء صلاح الدين الذين بَكوا من فرط الغيظِ وهم يرون البطريرك هيراقليوس وهو يفِي دنانيرَه العشرة قبل أن يغادر المدينة مع حمولةٍ من الذهب تكفي لشراء حرّية معظم المسيحيين العشرين ألفاً الباقين.

وقد رأى رجالُ صلاح الدين في إسراف هيراقليوس الصبياني السخيف ما جعلهم يصفون شحَّهُ بالمقيت الكريه.

ولم يكد كلّ المسيحيين الذين دفعوا الفدية يغادرون في اتجاه صُورْ يحرسهم جندُ صلاح الدين من سَطوِ قطّاع الطرق والبدو حتّى تفضّل صلاح الدين بدَيْنهم على العشرين ألف شخص الذين اختاروا حياة الرّق لأنهم لا يملكون وسيلةَ الوفاء بالفدية، ولم ينتظروا رحمةً من البطريرك ومن خيّالته.

ولم يكد المسيحيون يخلون المدينة حتّى دخلها المسلمون واليهود بأعداد كبيرة. وقد غسل الفاتحون المعابدَ التي كان المسيحيون يصفونها بهيكل الربّ، وقَصْرَ سليمان بماء الورد لأيام عديدة. أمّا الصلبان المنتصبة على قمم القباب فقد انتزعوها وجرّوها جرّاً في طرقات المدينة التي شهدت على هذا النحو جريانَ المياه بدل الدماء، ورُفِع فيها الهلالُ عالياً بعد ثمانية وثمانين عاماً، فوق الأقصى ومسجد الصخرة.

في رعاية أمينة أُغلق قبرُ المسيح المقدّس، فيما اشتدّت الخصومةُ بين المسلمين لمعرفة ماذا عساهم يفعلون بذلك القبر. وأجمع معظمُ أمراء صلاح الدين تقريباً على دكِّه، لكنّ السلطان لفتَ انتباههم إلى أنّ الكنيسة لم تكن في سالف الأيّام أكثرَ

Twitter: @ketab_n

من بناءٍ عادي، وأنّ سرداب الكنيسة هو المعبدُ الحقيقي، ولذلك فلن يُجدي هدمُ الحيطان نفعاً.

وبعد ثلاثة أيّام استطاع أن يفرض إرادته في هذا الأمر أيضاً. وفُتِح القبرُ ثانيةً وعُهِد برعايته لكهنة سوريين وبيزنطيين. وبوجُوه عبوسةٍ ظلّ المماليك يحرسونه منعاً لأيّ استباحةٍ أو تدنيس لحرمته.

وبعد أسبوع واحد صلّى صلاح الدين في "أقصى بقعة للعبادة" في المسجد الأقصى، ثالث بقعة مقدّسة في الإسلام، بعد تطهيرها. وكعادته دائماً بكَى صلاح الدين، ولم يُدْهِش بكاؤه أحداً. فها هو ذا أخيراً يفِي بالوعد الذي قطعه على نفسه أمام الربّ بتحرير القدس، المدينة المقدّسة.

لكنّ فَتْحَ القدس على يد صلاح الدين لم يحمِلْ رخاءً أو وَفْرَةً في المالِ فكان الفتحُ أسوأ ما خبِره المسلمون طوال حرب فلسطين المديدة. ولذلك لم ينجُ صلاح الدين من لوم اللائمين ومن تهكّماتهم التي ما انفكّت تنهالُ عليه بلا انقطاع.

لكنْ حَسْبُه أمام الخلود، أنّه حقّق شيئاً خارقاً. لقد ذاع صيتُه بين الأجيال من بعده، وصار إلى الأبد، العربيّ المسلم الوحيد الذي يُوقّره المسيحيون وينظرون إليه بعين الاحترام والإجلال.

* * *

لم يحضر آرن غزوَ القدس على يد صلاح الدين. لقد أعفاه صلاح الدين من هذا المشهد على الرغم من التزام آرن بما أوصاه به من لينِ المعاملة وحُسنِها.

رغب آرن في أن يعود إلى بلاده، لكنّ صلاح الدين ألحّ عليه بالبقاءِ مزيداً من الوقت ولو إلى حين. إلاّ أنّ روح آرن لم تطمئنّ إلى ذلك الحال الذي بدا غريباً على الأقلّ. فصلاحُ الدين الذي ما انفكّ يؤكّد له أنه حرٌّ في أنْ يسافر في أيّ لحظة لا يدّخر مع ذلك أيّ جُهدٍ في إقناعه بأنْ يقدّم له مزيداً من العون والمؤازرة.

رأى صلاح الدين أنّ الحرب التي لاحت في الأفق جديرةٌ بأن يمضي قطارُها

Twitter: @ketab_n

حول طاولة المفاوضات. فذاك خيرٌ لها من أن تدور رحاها على ساحات المعركة. لقد علّمته التجربةُ أنّ هؤلاء الإفرنجة القادمين حديثاً لن يقْدروا على تحمّل أوزار الحرب وعنائها فما لبث آرن أن تأكّد من هذا الافتراض، حين أيقن أن لا سبيل لأن يُكذِّب رجُلاً يُقدّر أنّ لا أحد سواه يضاهيه قدرةً على إدارة هذه المفاوضات، ما دام يتحدّث لغةَ الربّ من دون عناء، ويتحدث لغة الإفرنجة وكأنها لغتُه، ويُحْظَى بثقة السلطان، ولعلّه يحظى أيضاً بثقة خصومه أيضاً، بعد السنوات العشرين التي أنفقها في الأرض المقدّسة، فارساً من فرسان هيكل الربّ.

وكان من الصعب أيضاً أن يَعْتَرِض على مثل هذا الاستدلال العاقل. لقد كان آرن يرغب في أن يعود إلى بلاده، فهو يحنُّ إليها حنيناً ما لبث أن أيقظَ في نفسه أوجَاعَ جروحه الأخيرة حتى بعد اندمالِها. إلاّ أنّ ضميره المتّقد لا يُنكر أنّ عليه ديْناً يجب أن يفِيَ به نحو صلاح الدين الذي أنقذ حياته أكثر من مّرة. فلولا صلاح الدين لما وسعه أن يعود يوماً إلى أهله وذويه. لكنْ، لَكَمْ يؤلمه اليوم أن يشارك في حربٍ لم تعد تهمّه لا من بعيد ولا من قريب.

ومرّةً أخرى شاء الربُّ أن يكون رحيماً مع المسلمين. لقد غرق الإمبراطور أثناء الرحلة، حتى قبلِ أن يصل إلى الأرض المقدّسة. وقد نُقِل جثمانُه في برميل مُعبّإٍ بالخلّ، لكنّ الخلّ لم يَحُلْ دون تعفّنِ الجثمان قبل أن يُوارَى التراب في أنطاكيا. لقدْ رَحَلَ، وبرحيله توقّفت الحملة الألمانية نهائياً.

ثمّ إذا بآرن يشهد على حدوث ما تنبّأ به قبلاً: فلم يتقاطر على القدس مئة ألفِ من الإفرنجة بعد سقوط المدينة رويداً رويداً، بل عشرةُ آلافِ ليس إلاّ!

أخلى صلاح الدين سبيل غي لوسينيان حتى من دون أن يشترط فدية. لقد قدّر أمام هذه الصليبية الجديدة القادمة من بلاد الإفرنجة أنّ وجود رجلٍ مثل الملك على رأس أهله وذويه خيرٌ من بقائه أسيراً، حيث سوف يخدمُه وهو حرٌّ أكثرَ ممّا خدمه لو ظل في الأسر. وما لبثت الأحداثُ فيما تلا من أيّام أنْ صدّقت حجّتَه حين أثارت عودةُ الملك إلى أهله وذويه خلافاً على العرش وموجات من التشهير بين المسيحيين.

ومع ذلك فقد اقترف صلاح الدين خطأً ما انفكّ يتحسّر عليه زمناً طويلا.

Twitter: @ketab_n

فعندما سار غي لوسينيان على رأس جيش مسيحي قادم من صُورْ، وتقدّم به بمحاذاة الساحل لكي يستعيد سانت جون عكّة، نقطة ارتكاز المسيحيين بعد القدس لم يحمِل صلاحُ الدين هذا التهديدَ على محمل من الجدّ. فعندما وضع الملكُ حصارَهُ على المدينة أرسل صلاحُ الدين بدوره جيشاً ليطوّق المسيحيين الذين وجدوا أنفسَهم على حين غرّة في قبضة المدافعين عن المدينة وجيش صلاح الدين. فقد قدّر صلاح الدين أنّ الزمنَ والأمراض وقلّة الطعام كفيلةٌ بأن تحقّق له النصرَ على غي لوسينيان الذي لا يرى فيه عدوّاً منيع الجانب. فلو تأهّب للتضحية بالعديد من الأرواح لكان انتصارُه على ذلك العدو سريعاً. لكنّ صلاح الدين قدّر أنّ ما من داعٍ يدعوه لدفع ذلك الثمن.

وقد أتاحت تلك المراوغةُ لفيليب أوغست أوّلاً، ثمّ لريتشارد قلب الأسد النزولَ إلى الميدان وتقديمَ النجدةِ للمحاصِرين. أمّا صلاح الدين فلم يحقّق ممّا رمَى إليه سوى عكس ما خطّط له ونواه: الدخول في حربٍ لا طائل من ورائها.

وعندما صار موعدُ المفاوضة وشيكاً أرسل صلاح الدين في طلب آرن للمثول أمامه. وبعد أن جيءَ إليه بعد حينٍ بعددٍ كافٍ من الرجال الذين منحهم قسطاً وافراً من الرّاحة بعدما حقّقه بهم من ظفر، إذ به يجسُرُ ويتهوّر ويعلن الهجومَ وهو على يقينٍ أنّ النصرَ سيكون سريعاً خاطفاً.

لكنّ صلاح الدين أخطأ فيما قدّر وكان الخطأُ فادحاً. صحيحٌ أنّ الصليبيين الفرنسيين والإنجليز، القادمين حديثاً، لا يحتملون شمس الصيف، لا سيّما أن الوقت حرٌّ وقيظ، لكنّ الإنجليز على درايةٍ ببعض ما يجب صُنْعُه لصدِّ أيّ هجومٍ من قِبل الخيّالة. بل كانت تلك نقطة قوّتهم.

ولم تكد فرقُ العرب المسلمين الأولى تنطلق في الهجوم أمام أسوار عكّة حتى تلبّدت السماءُ فجأة بالسواد من فوق رؤوسهم، فاندهشوا لذلك وارتبكوا ارتباكاً. وبعد هنيهة إذا بوابلٍ من السهام ينهال عليهم على حين غرّة. أمّا القليلُ ممّن نجا منهم من ذلك الوابل لوجودهم في المقدّمة، ولعدم إحساسهم بالفراغ من خلفهم فقد دهموا عن كثبٍ القذّافات الإنجليزية التي ما لبثت أن أمطرتهم بسهامِها.

Twitter: @ketab_n

انتهى كلّ شيء في زمنٍ أقلّ من الوقت الذي يستغرقُه حصانٌ راكضٌ لقطْع مسار أربعةِ سهامٍ متدافعة. أمّا الأرضُ من حول سانت جون عكّة فقد غطّاها الأمواتُ والجرحى، وخيولٌ تحتضر أو تعدو هاربةً من وطأة الهلع، وهي تتعثّر في سَيْرها بالجرحى التائهين في ارتباكٍ أو خوفٍ أضاعهم صوابَهم في النهاية.

ثمّ إذا بريتشارد قلب الأسد يهاجم بنفسه على رأس فرسانه ويحقّق انتصاراً سريعاً لم يرَ أسرع منه في سابق انتصاراته جميعاً.

لقد رأى آرن، وقد اختلط في نفسه الذّعرُ بحسّ المهنة، ذلك الخرابَ الذي أحدثته الأقواسُ والقذّافات، ولم يَنْسَ ما رآه في ذلك اليوم أبداً.

لقد آن أوانُ المفاوضة. فلا مفرّ أوّلاً من إبرام هُدنةٍ تتيح للخصوم جَمْعَ الأموات فوق ساحة المعركة. وقد طلب صلاح الدين من آرن أن يتولّى بمفرده تلك المهمّة ما دام لباسه هو لباسُ فرسان هيكل الربّ، وما دام بالإمكان أن يتقدّم نحو الإنجليز دون أن يخشى على نفسه منهم خطر الموت.

دون تأخيرٍ اقتاده جنودٌ إنجليز أثْمَلَهُم الانتصارُ ويتحدّثون لغةً لم يفهم منها كلمةً واحدة، إلى الملك ريتشارد قلب الأسد. ولَكَمْ ذُهِل آرن حين اكتشف أنّ الملك فرنسيٌّ ويتحدّث لغة الإفرنج بلكنةٍ نورماندية!

كان الملكُ، بقامته الممدودة، وبشَرته الصهباء، وكتفيه الواسعين مَهيباً كسيّدٍ أعظم، على عكس غي لوسينيان تماماً. فمن حجم فأس الحرب المتدلّي على الجانب الأيمن من سرْجه تبدّتْ قوّةُ هذا الرجل الجسيم.

جاء اللقاءُ الأوّل هادئاً وجيزاً، ما دام الأمرُ واضحاً بيّناً ولا يزيد على تنظيف ساحة المعركة. لكنّ ريتشارد طلب من آرن أنْ يُنبِئَ صلاح الدين برغبته في لقاءٍ بينهما رأساً لرأس، ووعد بأنّه سوف يسعى لترتيب ذلك اللقاء.

عاد آرن في اليوم التالي حاملاً رسالة صلاح الدين ومفادُها أنْ لا سبيل لِلقاء ما بين ملكٍ وسلطانٍ قبل أنْ يحين وُقت إبرام السلام، قائلاً إنّ ابنهُ "الأفضَلَ" سيتولّى عنه إجراءَ بعض المحادثات. فاستشاط ريتشارد غضباً من صلاح الدين ومن مُفاوضه، وألقى في وجه آرن تُهَماً بالخيانة، مُحقّراً إيّاه أيّما تحقير، وساخراً أيّما سُخْر

Twitter: @ketab_n

من نزواته الجنسية المزعومة نحو العرب المسلمين.

وردّ آرن قائلاً إنّه مغلوبٌ على أمره، فهو الأسيرُ عند صلاح الدين، يحمل وعداً قاطعاً بألاّ يُخِلَّ بمهمّته كترْجُمانٍ لصلاح الدين لدى ريتشارد، وبالعكس.

عندئذٍ عاد للملك ثباتُه وهُدُوء نفسه، لكنّه لم يُخْفِ رأيه في وَعْدِ مَن ينكثون بعُهودهم.

وعندما عاد إلى صلاح الدين انفجر هذا الأخُير قهقهةً لأوّل مّرةٍ منذ وقت طويل، وأعلن أنّ الوعد لا يحتمل سوى شرفِ من يقطعه للآخرين. فعندما أعاد لِغي لوسينيان حريّتَه دون فديةٍ اشترط من أسيره في المقابل أنْ يرحَل عن الأرض المقدّسة، وألاّ يحمل بعد ذلك اليوم سلاحاً في وجه المؤمنين. وبطبيعة الحال أقسم الملكُ بالإنجيل وبشرفه، أمام الربّ وبين قدّيسيه، لكنه ما لبث أنْ نكث بالقَسَم، واستعاد دورَه في بثّ النّقار والخلاف ما بين المسيحيين، كما خمّن وقّدر صلاحُ الدين، بل كما تمنّاه أيضاً!

تضاءل الحصارُ الذي طوّق به صلاحُ الدين المسيحيين أمام عكّة بعد أن صار في وُسع الأسطول الإنجليزي أن يَحرِم المدينة من وصول المؤونة إليها بحراً. فالجوع الذي اتخذه صلاح الدين حليفاً ما لبث أن ضرب ذويه في داخل المدينة، فكانت قسوتُه أشدّ عليهم ممّا كانت على المسيحيين المرابطين أمام أسوارها. وإنْ فكّر صلاح الدين في هجوم جديد بخيّالته ضدّ النبّالين الإنجليز عبر الأرض المكشوفة فخيرٌ له أن يُفكّر ويتروّى قبل أن يُقْدِم على هجوم سوف لن تُحمِد عُقباه.

خسر صلاح الدين سباقَه ضدّ الزمن، ففُوجئ بحامية المدينة وهي تستسلم وتُسلّم المدينة لريتشارد قلب الأسد.

عُهِد لآرن والأفضل بحِمْلِ مُهِمَّة الدخول إلى المدينة المهزومة، لتقصّي الأحوال التي يرتضيها سُكانُها فيها، باسم صلاح الدين، حتى يضع حدّاً للمعارك التي دُفِع إليها دفعاً.

ولَكَم شقّت عليهما العودةُ إلى السلطان، لأنّ أحوال المدينة كانت قاسية أيّما قسوة. فعلاوة على المدينة وما حوته اشترط ريتشارد مئة ألف دينار من الذهب،

Twitter: @ketab_n

وإخلاء سبيل ألف أسير مسيحي ومنهم مئة فارس ذكرهم بالاسم واحداً واحداً. وفوق ذلك عودة الصليب الحقيقي إلى المدينة.

وعندما علم بذلك انفجر صلاح الدين بالبكاء مرّة أخرى. فأيُّ ثمنٍ هذا الذي سيدفعه حتى يحرّر ألفيْن وسبعمئة رقبة من قبضة ريتشارد! لكنْ، ألم ترضَ النفوسُ ذاتُها بهذه الشروط القاسية، وهل يأبى شرفُ صلاح الدين الوفاءَ بهذه الشروط؟

اندفع آرن والأفضلُ في شارع المدينة واسمه عكّو كما يحلو لابن السلطان أنْ يسمّيه، وعكّون كما عرفه الرومان قديماً. وها هي ذي المفاوضة تبلغُ مرحلةً دقيقةً، فإذ هي تتدرّجُ إلى شؤونٍ ملحّة، كالوقت والمكان، وكيفية الدَّفْع، وأيّ الشروط التي يجب استيفاؤها قبل الإفراج عن الأسرى.

لا شيء كان ينبئُ بأن ترتيبَ ذلك سيكون وشيكاً. لكنّ ذلك لم يمنع الملك من أن يُؤخّر رُسل المعسكر الآخر، لأن أفراح الانتصار لا تكتمل إلاّ بمبارزة حول أسوار المدينة.

وحين رضِي بأن ينزل عن كبريائه ويمنح للآخرين الحقَّ في إزعاجه عمل ما في وسعه حتى يُظهر كلّ ما يحمله من ازدراءٍ لمفاوضي صلاح الدين، وهو يُلحُّ بالقول أنْ لا أدَب لِمَنْ يسعى إلى تعطيل مبارزةٍ من غير دافعٍ آخر سوى المشاركة فيها بذاته. ثمّ التفت إلى الأفضل وسأله إنْ لم يكن قد بلغ من الجبن ما يجعله يرفُض أن يُنازِل بالرمح واحداً من فرسانه الإنجليز. وترجم آرن قولَ الملك، وعمَلاً بنصائحه أجاب الأفضلُ أنّه يفضّل مُنازلةَ اثنين من فرسانه، أيًّا كانا، لكنْ بالقوس وليس بالرمح. وتظاهر ريتشارد بعدم سماع هذا الردّ أو بعدم فهمه حين فسّره آرن بلغته.

– وأنت أيّها الجنديّ الراهب الأسير، هل أنت دنيءٌ كصاحبِك؟ سأل الملك بصوتٍ ملؤُه السّخر والتهكّم.

ـ لا يا سيّدي، أجاب آرن، لقد خدمت راهباً وجندياً في هيكل الربّ عشرين عاماً.

ـ لو اقترحتُ على سيّدكَ الجديد دفْع خمسين ألف دينار، وتحريرَ الأسرى الذين تحدّثنا عنهم، وإخلاءَ سبيل العرب المسلمين الذين في قبضتي، قبل حصولي

Twitter: @ketab_n

على الخمسين ألف دينار الباقية وعلى الصليب الحقيقي، فهل ستقبل أنت بمنازلة أفضل فرساني؟

ـ نعم، سيّدي، لكن سوف أشعر بالأسف إن أنا خدشتُه بجروح مؤلمة.

ـ بل قل إنّ كلماتك هذه هي التي سوف تندم عليها أيها الراهب الفارّ، لأني أعددتُ لمنازلتك الفارسَ سير ويلفريد، ضحك الملكُ في استهزاء.

ـ أريدُ تُرساً ورمحاً وخوذة، يا سيّدي. قال آرن.

ـ عليك بها من أصدقائك - أو بالأحرى من أصدقائك القدماء- من فرسان هيكل الربّ في هذه المدينة. لا عليك! سوف أسهر على قضاءِ حاجتك.

بصوتٍ حزينٍ شرح آرن لـ الأفضل آخرَ ما ابتكره هذا الملك الإنجليزي السخيف. لكنّ ابن السلطان قال معترضاً إنّ النزال ما بين المُفاوضين مخالفٌ للقواعد. وتنهّد آرن قائلاً إنّ القواعد هي أهون هموم الملك، لا سيّما إن لم يكنْ له فيها خيرٌ أو منفعة!

استطاع آرن أن يستعير في يُسْرٍ كلَّ ما يحتاجه من الإخوة ذوي المروءة في حيّ فرسان هيكل الربّ. وفي الحال غادر المدينة على ظهر جواده وهو يمسك بيد واحدة خوذَتَه وتُرسه. ثمّ تقدّم من خصمه ليقدّم إليه التحيّة، لكنه مكث مستغرقاً متأملاً حين رأى فُتُوَّة وغرارة ويلفريد الذي لا يجاوز من العمر عشرين عاماً، وليس على وجهه أثرٌ من آثار المعركة.

تقدّم كلّ منهما نحو الآخر ثمّ استدارا على أقدامهما مرّتين حول الحلبة، قبل أن يقِفا وجهاً لوجه. وقد آثر آرن الذي لا يعلم من سرّ اللعبة إلاّ قليلاً بأن يترقّب خصمَه الإنجليزي الذي ما لبث أن حدّثه بلغةٍ لا يعلم لنفسِه منها كلمة واحدة، فسأله أن يكلّمه بلغة ملكِه التي يفهمها.

ـ اسمي سير ويلفريد، فارس من فرسان هيكل الربّ. وقد كسبتُ مؤهلاتي في ساحة المعرك أن أسقِطكَ من على السّرج مرّتين أو ثلاثاً؟ سأل آرن_ أراك تنهال عليَّ بشتائمَ لا طائل لك فيها، أيْ سير آرن، أتريد أن يستشري بها مصيرُك، أجاب سير ويلفريد بابتسامة ماكرة لم يأمَن آرن في الحال شرَّها.

Twitter: @ketab_n

ـ فكِّر قليلاً أيّها الشابُ! قال آرن، ستُنازل جندياً من جنود هيكل الربّ لأوّل مرّة في حياتك، وليس من عادتنا أن نواجه أغرّاءَ مثلك في مثل هذا المقام!

لكنّ الحوار بينهما توقّف فجأة، فأدار سير ويلفريد جوادَه على عقِبيه وابتعد راكضاً، ثمّ إذْ به يستدير من جديد، ويرفع خوذتَه ويضعها فوق رأسه. لقد ظفر ويلفريد حقاً بآخر ما جاءت به صناعة الخُوَذِ، فهي تغطّي الوجه كلّه لكنها تعيقُ أفقَ الرؤية أيّما تعويق. وتحرّك آرن بدوره وتموضَع على مهلٍ في موقعه.

مكث الخصمان واقِفَين وجهاً لوجه هنيهةً، لا يُقبِلان ولا يُدبِران. ثمّ بدا لآرن أنّ الخصم قد صوّب النظر نحو جناح الملك فأخذ بدوره يحدّق من طرف العين في الاتجاه نفسه. وحين خيّم الصمتُ بين الجموع وقف الملك وتقدّم وهو يمسك بيده الممدودة شالاً كبيراً أحمر اللون، فاندفع الفارسُ الشابُ منطلقاً نحو الهجوم من موقعه على الطرف الآخر من ميدان النّزال.

امتطى آرن عنازة فكان له في ركوبها حسنةٌ لا تكادُ تخطر على بال خصمه الغِرّ. كان النزالُ متفاوتَ القوّة ما بينهما ولذا رقّ آرن لحالِ الشاب وخشيَ أن يُصيبه بجرحٍ تأبى نفسُه أنْ يُصيبَه به.

وانطلق عابراً ميدان النّزال وهو يتقدم تقدُّمَ خصمِه الشاب، وفي عجلته تلك أدركت نفسُه منتهَى ذلك الهجوم: فإمّا إصابةُ رأس الخصم أو تُرسِه لإسقاطه من على سرجه! فاللعبةُ إذاً خطيرة ولعلّها وخيمةُ العاقبة، ولا يرغب آرن في أن ينال بالرمح مأربَه لا سيّما أنّه يركض بمنتهى السرعة.

وقبل المبارزة بقليلٍ استحثّ آرن عنازة على حين غرّة حتى ينطلّق بها بمنتهى السرعة، ثمّ انعطف عن عقبِه فجأة نحو اليسار، وفي الحال وجد نفسه على الناحية الأخرى من الخصم، وتمكّن من إسقاطه عن سرجه، موجّهاً إليه ضربةً بجنْبِ الرمح وليس بحدّه.

استدار في وَجَلٍ وعاد على مَهلٍ إلى الشاب الذي كان يرتعشُ على الأرض ويُدَمدِم لاعناً شاتماً.

ـ لعلّك بخير ولم يُصبك أيُّ أذىً، قال له آرن متلطّفاً، لأنني لم أُبيِّتْ لك أيَّ أذى، فهل انتهى الامرُ الآن بيننا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، أجابَ الشابُ الغرُّ وهو يمسك بزمام الحصان بحركةٍ من إحدى يديه حتى يقف على رجليه. لا، لن أستسلم هكذا! فمن حقّي أن أنازلك مرّةً ثانية ثمّ ثالثة!

عاد آرن خائباً إلى المكان الذي انطلق منه أوّل مرّة وهو يحدّث نفسه أنّ الحيلةَ واهيةٌ، وقد لا يظفرُ بها الخصم في المرّة القادمة. لذلك غيّر اليد التي تُمسك بالرّمح واستبدلها باليد اليسرى التي لفّها بالتُرس حتى لا تنكشف الخدعةُ إلاّ عن كثب، أيّ بعد فوات الأوان.

وأمر الملكُ بتنكيس الشال الأحمر فانطلق الشابُ الإنجليزي بما وسع فحله الثقيل من سرعة، مُفْعَماً بشجاعة لا شكّ فيها.

لم يُغير آرن جهة الهجوم لكنْ قبل الصدام بقليل رفَع ذراعه اليسرى حتى يصطدم رمحُ خصمه بتُرسه فينحرف عن هدفه، وأمسك بشدة الجزء الأكبر من رمحه وهو يشدُّه شدّاً بيده اليمنى. ثمّ إذا بِحَدِّ سلاح ويلفريد ينزلق فوق درع آرن، وفي اللحظة التالية يتلقّى الإنجليزي بملءِ صدره ضربةً أقوى مرّتين من ضربة الصدمَة السابقة. ولم تزدْ النتيجةُ هذه المرّة عن سابقتها شيئاً خلا أنّ حزامَ ويلفريد اندَفع مُحلّقاً وقتاً أطول قبل أن يسقط أرضاً.

لكنّه أبى إلاّ أن يرفض الهزيمةَ مرّة أخرى.

وفي المرّة الثالثة تخلّى آرن عن تُرسه وأمسك برمحه بالعكس فصار مثل مِقْمَعَة ضخمة. ثمّ اندفع نحو الأمام وهو يُسدل الرّمحَ حتى آخر لحظة، ثمّ يرفعه فجأة بكلتا يديه فيعلق الرمحُ برمح الخصم عند الصدمة، فيطير الرمحُ في الهواء، فيما تُواصل مقمعةُ آرن مسارَها إلى أن تُصيب وجهَ الخصم. وتُبقي الخوذةُ على حياته، لكنّه يسقط من على حصانه كما سقط في المرّتين السابقتين تقريباً.

وبعد أن أيقن آرن أن خصمَه سالمٌ معافىً خلع خوذتَه المدوّرة التي لا تحمل واقية وتوجّه نحو الملك لينحنيَ أمامه في سُخْرٍ واستهزاء.

ـ سيرْ، عزيزُك الشاب ويلفريد شجاعٌ جدّاً! قال آرن. ليس كلّ من شاء المواجهة أهلاً لأنْ يواجه بلا خوفٍ فارساً من فرسان هيكل الربّ.

ـ حِيَلُكَ غريبة جدّاً، ولا تتّفق مع قواعدنا حقّاً، هدَرَ الملك.

ـ قواعدي قواعدُ ساحة المعركة، وليس قواعد اللعبة يا سيّدي. وفوق ذلك فقد قلتُ إنني لا أحبُّ أن أبيّتَ لفارسك أيَّ أذىً. كنْ واثقاً من أنَّ شجاعتَه وإقدامَه فيهما نفعٌ كبيرٌ لك!

Twitter: @ketab_n

أدرك آرن أنّ ما كان يعتبره لعبةً صبيانية قد انتهى إلى نتيجتين. فأمّا الأولى فهي أنّ الملك سيعيد النظرَ في شروط الدّفع التي فرضها على صلاح الدين.

وأمّا الثانية فهي أنّ شاباً فارساً يُدعَى سيرْ ويلفريد أوفْ إيفانُويْ سوف يحتفظ من أوّل حرب يشهدها، بذكرى مؤلمة عن فرسان هيكل الربّ. فهذا الذي كان يغلبُ خصومَه في يُسْرٍ على ساحة المعركة وفي ميدان اللعب على السواء سوف تُلازمه طوال العمر كوابيسُ ملؤها رجالٌ يحملون على أجسامهم ملابسَ بيضاء.

ولمّا عاد آرن إلى حيّ الكهنوت ليُعيد الأسلحة التي استعارها منه دُعيَ إلى مائدة الطعام فأكل وشرب عند سيد سانت جون عكّة الجديد الذي يعرفه منذ زمن بعيد، منذ أن خدَما معاً في حصن لافيف. وقد كان هذا الأخ الراهب يحمل من أسباب الشكوى مِنْ مَلك إنجلترا الكثير، لا سيّما وأنّ هذا الرجل كان يُتقن فنَّ صناعة الغُرماء والخصوم من بين نُظرائه المُلوك. فلم يتورّع عن طرد الملك فيليب أوغست من حيّ فرسان الهيكل، ألْمَع وأشهر بيتٍ في المدينة بعد القصر الملكي الذي احتفظ به ريتشارد واستأثر به لنفسه. فقد تشاجرا وتجادلا فيما لا طائل من تحتِه إلى أن طفح الكيلُ فقرّر ملكُ فرنسا العودةَ إلى بلاده مع رجاله. أمّا أرشدون النمسا فقد أذلّه ريتشارد على نحوٍ مختلف تماماً إذ أمسك براية النمسا المعلقة في أعلى الأسوار بين الراية الفرنسية والإنجليزية وقسَمها نصفين ثمّ رمَى بها إلى الخندق. وفي الأعقاب نشبت صداماتٌ عنيفة بين الإنجليز والنمساويين ما انفكّت تنحرهم إلى أن تهيّأ النمساويون إلى الرحيل بدورهم. لقد حرمت هذه السخافاتُ المسيحيين من نصف رجالهم، لكنّ ريتشارد توهّم أنْ لا أحد سواه ورجاله قادرٌ على استعادة القدس بمعونة فرسان الهيكل. لكنّ الذي توهّمه ريتشارد محضُ زَهْوٍ وعُجْبٍ، ولا أحد أدرى بمصير الحرب من آرن وصديقه القديم، فهُما اللذان خاضا الحرب ضدّ صلاح الدين. فلا شكّ أن انتقال النبّالين إلى القدس مَشْياً على الأقدام سوف يُغرقهم في بحرٍ من المتاعب والآلام عندما يهاجمهم نبّالو صلاح الدين من على ظهر مطياتهم. لكنْ لم يكن ذلك أخطرَ ما في الأمر. فلم يكن ريتشارد قلب الأسد رجلاً متقلّب الأطوار ومصدر متاعب لا طائل من ورائها وحسب، وإنّما كان أيضاً رجلاً قلّما يثق أحدٌ بأقواله ووعوده.

وَفَى صلاح الدين بتعهّده كما هو متّفق عليه. فبعد عشرة أيّام سلّم خمسين ألف دينار ذهبية وأفرج عن ألف سجين مسيحي. إلاّ أنّه في المقابل لم يتمكّن من

Twitter: @ketab_n

تسليم أيّ من الفرسان الذين كان يعرفهم بالاسم واحداً واحداً، لأنّهم كانوا موزّعين في كلّ مكانٍ في زنزانات الساحات الكبرى، السورية أو المصرية.

ولمّا علِم بأمرِ أولئك الفرسان الذين لم يغادر الأسَر منهم فارسٌ واحدٌ أعلن الملكُ ريتشارد أنّ صلاح الدين قد أخلَّ بالعهد الذي بينهما.

ولذلك حاصر تلّة العيادية بنبّاليه وجنوده المسلّحين بالأقواس القذّافة. ثمّ أخرج سكّان المدينة، رجالها ونساءها وأطفالها وعددهم ألْفَانِ وسبعُمئة. ولم يُصدّقْ المسلمون ما ألمَّ بهم من عناءٍ ثقيل. وأمّا من صدّقه منهم فقد بكوا بدموع ساخنة. أمّا الأسرى الذين شاع نبأُ الإفراج عنهم في ذلك اليوم فقد ضُربت أعناقهم أو قُتلوا بحدّ الرماح أو الفؤوس.

ذرف فرسانُ أهل الشرق الدمّعَ واشتدّ غيظُهم فهجموا من كلّ الأنحاء زارعين الاضطرابَ والفوضى، فما كان أن لاقاهُمْ وابلٌ من السهام، ولم ينجُ من الموت أحدٌ منهم في تلك المجزرة التي استمرّت لساعات طويلة إلى أن قُتِل آخرُ أطفالهم فيها.

لم يبقَ في أعلى تلّة العيادية بعد حين سوى قُطّاع الطرق الذين تسلّلوا ما بين الأموات متنقلين بين الجثث، فاتحين بطونها، علّهم يجدون قِطعاً من الذّهب في أحشائِها، متوهّمين أنّ الأموات قد أجبِروا على ابتلاعها.

غادر صلاح الدين قبل الأوان رأس التلّة التي شاهد منها تلك المجزرة.

وقد تنحّى إلى زاوية بالقرب من خيمته ليخلوَ إلى نفسه. ولم يجرؤ أحدٌ على كسْر خلوته إلاّ آرن الذي تقدّم إليه رويداً رويداً.

- إنه ليومٌ عسير، يا يوسف! إنّي أعرف ذلك، لكنّه اليوم الذي اخترتُه لكي ألتمس منك فيه حرّيتي، قال آرن بصوت منخفض وهو يتأهب للجلوس بالقرب من صلاح الدين الذي آثر الصمتَ ولم يُطِعْهُ لسانُه لأنْ يقول له كلمةً واحدة إلاّ بعد هنيهة.

- لماذا تريد أن تهجرني في وقت عسير كهذا، في هذا اليوم الذي لبسنا فيه الحداد والسواد معاً، والذي لن تُمْحَى ذكراه أبداً؟ قال صلاح الدين وهو يحاول أن يمسح دموعَه.

- لأنّك اليوم هزمتَ ريتشارد، حتى إن كان الثمنُ باهظاً.

- ريتشارد مهزوم! قال صلاح الدين ساخراً. لقد دفعتُ خمسين ألف دينار

Twitter: @ketab_n

ذهبية، فقط لكي أرى من افتديتُهم وهو يُقتَلون! يا له من انتصارٍ غريب. هذه هي الحقيقة!

– صحيحٌ أنها خسارةٌ ثقيلة، قال آرن، لكنّ انتصارَك يَكْمُنُ في كونِك لن تخسر القدس. فهذا البائسُ سوف يلقَى اليُسرَ والميسرة، لكنّ مصيره لن يختلف عن مصير صاحب مجزرةِ العياديّة ومصير الملك الذي تخلّى عن الصليب المقدّس. وهذا ما سيذكره أطفالُنا وأطفالُ أطفالنا عن هذا الماكر الغشّاش. لقد أساء إلى قضيّتِه أكثر ممّا أساء إلى قضيّتك. ها هو ملك فرنسا يعود إلى بلاده في أعقاب مشاحنة تافهة. وقد تركه النمساوي لأسباب مشابهة. والإمبراطور الجرماني يتعفّن الآن في قبرِه في أناطكيا. فليس أمامك مئة ألف عدوّ وإنّما أقلّ من عشرة آلاف يقودهم مجنونٌ يُدعَى ريتشارد. ناهيك عن أنه قد بلغني أنّه يتهيّأ للعودة إلى بلاده قريباً، لأنّ أخاه قد يسلبه العرش. لهذا السبب أقول لك يا يوسف إنّك المنتصرُ حقاً.

– لكنْ لماذا تتركني يا آرن، أنت الصديق في هذا الوقت العصيب، الذي صار فيه الحزنُ، كُرْهاً وغصباً، أعظمَ من الأمل في انتقامٍ وشيك؟

– لأني لا أملك بعد اليوم ما يمكن أن أتفاوضَ فيه باسمك. لم يعد في الوسع التفاوض في أيّ شأنٍ من الشؤون مع هذا الجزّار المعتوه الغريب. فلهذا السبب أريد أن أرحل لكي ألْقَى أهلي وبلادي ولغتي وشعبي من جديد.

– ما الذي ستفعله عندما تجتمع بأهلك وذويك؟

– ليس عندي من يقينٍ غير يقيني بأنّ الحرب فيما يخصّني قد انتهتْ ولم تعد تهمّني. آملُ في أن أفيَ بقسَم – قَسَم هوَى حبيب– أقسمتُه منذ عهدٍ طويل. كم أودّ أن أعرف مغزى كلّ هذا، وما الذي جئتُ أفعله هنا، ولماذا الربُّ شاء أن يأتي بي إلى هنا. لقد حاربتُ عشرين عاماً وكان من العدل أن أكون إلى جانب الخاسرين. كان عدلاً حقاً لأنّ الربّ عاقبَنا لخطايانا.

– أتقصد هيراقليوس وأنييس دي كورتناي وغي دي لوسينيان والآخرين؟ قال صلاح الدين وهو يحاول أن يعيد قليلاً من الابتسام إلى وجهِه الحزين.

– أجل، بالفعل، أجاب آرن، ففي سبيلهم حاربت، لكنني لن أفهم أبداً لماذا شاء لي الربّ ما شاء!

– وذلك ما أعرفه أنا، أجاب صلاح الدين، وسأخبرك به حالاً. أوّلاً إليك هذا: لقد صرتَ حرّاً طليقاً. وأنت لم تطلب مني سوى خمسين ألف دينار عن

Twitter: @ketab_n

أخي الذي كان أسيرك، وأنت تعلم حينئذ أنك تستطيع أن تحصل مني على ضعف ما طلبت. ظنّي أنها مشيئة الربّ قَضَت بأن يبقَى عندي هذا المبلغ ممّا كنتُ أدين به لذلك السفاح الذي يُدعَى ريتشارد. فأنا أعطيك إياه وهو ليس سوى مكافأة ضئيلة عن السيف الذي أهديتني إياه. ودَعْني أخبرك أنّ بانتظارك في دمشق سلاحٌ سيليقُ بك في غايات كثيرة، وأرجوك الآن أن تدعني الآن وأحزاني. سافرْ في أمان الله يا صديقي القوطي، وثقْ أني لن أنساك أبداً.

– لكنك لم تُجِبْني عن سؤالي. لقد قلتَ لي إنك تعرف لماذا شاء الربُّ أن يؤتَى بي إلى هنا، ردّ آرن معترضاً، مُصرّاً على البقاء في انتظار الردّ، وأكثر همّاً بالسؤال من الثروة التي أهداهُ إياها صلاح الدين توّاً.

– لماذا؟ قال صلاح الدين. أنا المسلمُ يمكنني القولُ إنّ مشيئةَ الربّ قضت بأن تكون بيننا هنا، فارساً من فرسان هيكل الربّ، يهديني سيف الإسلام المقدّس الذي أدين له بانتصاري. لكنْ أنت المسيحيُّ يمكنك أنْ تجد لهذا السؤال جواباً مختلفاً. حُجّتُك التي أسديتَها لي في أنْ لا أُكرِه نفسي على قتْل سكان القدس – وذاك ما أقْدَم عليه ريتشارد في سانت جون عكّة قبل قليل– نصيحةٌ أخذتْ بمجامِع قلبي. ولذلك السبب بعثك الربُّ إلى فلسطين. لأنّ الربّ بكلّ شيء سميعٌ عليم. وهو جلّ جلالُه أدرى منك ومنّي حين أتاح لنا هذا اللقاء.

نهض آرن ومكث هنيهة واقفاً لا يقرّ رأيُه على قولٍ أو حركة. ثمّ نهض صلاح الدين ووقع كلّ منهما في أحضان الآخر لآخر مرّة. ثم تناءى آرن من دون أن يُضيف كلمةً واحدة.

وهكذا بدأت رحلتُه الطويلة نحو تلك البلاد التي نَوَى ألاّ يُشهِر فيها سلاحاً بعد ذلك اليوم أبداً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في العام ١١٧٧ حصلت معجزة تناقلتها أجيال بعد أجيال: لقد أنقذ آرن الذي لقّبه المسلمون بالقوطي، حياةَ صلاح الدين، وتآلف مع عادات عرب الشرق. أما الصداقة التي ربطته بصلاح الدين فقد حفلت بالتسامح والسلام.

وهكذا تستمر هذه الرواية المذهلة التي بدأت في جزئها الأول في الطريق الى القدس. حيث نتابع معا ملحمة آرن وكيف قضت مشيئة الرب أن يحارب على مدى عشرين عاما في بلاد الشرق القصية بعيدًا عن حبيبته سيسيليا كما يستشرف القارئ ما آل إليه مصيرهما.......

@ketab_n

ISBN 978-91-87333-20-0

9 789187 333200

www.daralmuna.com

دار المنى